دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة المجلد 17

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

الإخوة كارامازوف 2

دار ابن رشد



الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد السابع عشر

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا
ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي
الطبعة العربية الاولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧
الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ٥٥٣٧/١٤ - هاتف: ٣٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

الإخوة كارامازوف

٢

الباب الخامس: ما للأمر وما عليه

١

الخطوبة

إنّ السيدة هوخلاكوفا هى التى استقبلت أليوشا من جديد فى الدهليز • كانت تبدو منهكة جداً • لقد وقع حادث خطير : ان نوبة الهستريا التى أصابت كاترين ايفانوفنا قد « انتهت الى اغماء أعقبه ضعف فظيع واعياء رهيب • لقد رقدت كاترين ايفانوفنا ، وأغمضت عينيها ، وأخذت تهذى ، وارتفعت حرارتها • واستدعينا الدكتور هرتسنشتوبه والعمتين ، فوصلت العمتان ، ولكن الطبيب تأخر وصوله • الجميع محتشدون الآن فى غرفتها • انهم ينتظرون قلقين خائفين • ماعسى يحدث ؟ انها فى غيبوبة • آمل أن لا تكون قد أصابتها حمى دماغية • • » •

كانت هيئة السيدة هوخلاكوفا تدل على ذعر حق • فهى تصيح فى كل لحظة قائلة لأليوشا من أجل أن تطلعه على الواقع : « الأمر فى هذه المرة خطير ، خطير جدا » ، كأن كل ما جرى حتى ذلك الحين لم يكن على شىء من خطورة • كان أليوشا يصغى اليها بمرارة • أراد أن ينهى اليها نتيجة المساعى التى قام بها ، ولكنها كانت تقاطعه منذ ينطق بأول كلمة قائلةً له : « ليس الآن » • ان وقتها لا يتسع للاستماع اليه • وطلبت منه أن يتفضل فينتظر عند ليزا ، واعدةً اياه أن تلحق به فيما بعد •

قالت له بما يشبه الهمس فى أذنه ، مفضيةً اليه بسر :

ـ تصور يا عزيزي ألكسي فيدوروفتش ! لقد أدهشتني ليزا أشد الدهشة منذ قليل ؛ ولكنها تبلغ من التأثير في قلبي أنني أغفر لها راضية ما ان خرجت أنت حتى استبدت بها ندامة صادقة جدا ، لأنها فيما نزعم قد سخرت منك أمس واليوم . الحقيقة أنها لم تسخر سخراً ، فأنا أعرفها، وانما هي مزحت مزاحاً . ومع ذلك فقد بلغت من الأسف العميق أنها أوشكت أن تبكي، فما وسعني الا أن أدهش. لم يتفق لها أن ندمت يوماً حين كانت تسخر مني ، سخراً لا خبث فيه على كل حال . وهي تسخر مني بغير انقطاع كما تعلم . أما الآن فالأمر خطير . لقد أصبح كل شيء خطيراً . انها تحرص كثيراً على رأيك يا ألكسي فيدوروفتش ، وما ينبغي لك أن تؤاخذها وأن تستاء منها . لا تسوءنك أساليبها . أنا شخصياً أفعل ما أستطيع أن أفعله لأداريها وأراعيها ، ذلك أنها لطيفة جدا ، ذكية جدا ... ليتك تعلم كم هي لطيفة وذكية ! ولقد ذكرت لي منذ هنيهة أنك كنت صديق طفولتها ، أنك كنت « خير أصدقاء طفولتها ، وأخلصهم ، وأصدقهم » . كذلك قالت . أصدقهم ، هل تفهم ؟ فأين مكاني أنا من نفسها اذن ؟ ان لها في هذا المجال ذكريات حية وعواطف عميقة . وهنالك خاصةً تلك العبارات وتلك الكلمات التي تجيد استعمالها ، تلك التراكيب التي لا يتوقعها المرء ! ذلك يخرج من فمها فجأة ، ارتجالاً . قصة الصنوبر تلك مثلاً . لقد كان في حديقتنا شجرة صنوبر ، أيام كانت ليزا صغيرة جدا . أحسب أن هذه الشجرة ما تزال موجودة الى الآن ، فما ينبغي أن نتحدث عنها بصيغة الفعل الماضي . ليست الأشجار بشراً يا ألكسي فيدوروفتش ، انها لا تتغير . قالت ليزا منذ أيام : « ماما ، انني أرى شجرة الصنوبر هذه كأنها في حلم ، أي « Sosnu nik sosna » . الحق أنها قالت لي ذلك بطريقة أخرى * . نسيت الآن كيف قالت لي ذلك . المهم أن كلمة الصنوبر كلمة سخيفة في ذاتها . ولكن ليزا بلغت من

الطرافة والأصالة في توشيتها أنني لا أستطيع أن أقلدها • ثم ان هذا كله قد خرج من رأسي • والآن ، الى اللقاء • ان هـذه الأحداث قد قلبت نفسي رأساً على عقب ، حتى لأخشى أن تذهب بعقلي • لقد أوشكت يا عزيزي ألكسي فيدوروفتش أن أُجنّ مرتين في حياتي • فاضطروا الى معالجتي • اذهب الى ليزا ، وواسها كما تجيد أنت ذلك ايما اجادة •

ثم صرخت تنادي ليزا وهي تقترب من الباب :

ـ ليزا ! جئتك بألكسي فيدوروفتش الذي تظنين أنك أسأت اليه اساءة كبرى • انه غير غاضب منك ولا عاتب عليك ، أؤكد لك ذلك ، بل انه ليدهشه أن يكون قد خطر ببالك هذا الخاطر !

ـ شكراً يا ماما ! ادخل يا ألكسي فيدوروفتش •

دخل أليوشا الغرفة • ان ليزا تبدو مضطربة اضطرابا شديدا ، خجلى خجلاً قوياً ، فقد احمر وجهها فجأة حتى الأذنين • كان واضحاً أنها تشعر بشيء من الخزي • وكما يحدث دائما في مثل هذه الحالة ، طفقت تتحدث في أمور لا شأن لها في نظرها ، متظاهرةً بأنها مهتمة بها في هذه اللحظة اهتماما كبيرا • قالت :

ـ حدثتني أمي منذ برهة يا ألكسي فيدوروفتش عن المائتي روبل ، وعن المهمة التي كلفت بها ••• لدى ذلك الضابط المسكين ••• وقد وصفت لي الاهانة الفظيعة التي أُلحقت به ••• رغم أن أمي لا تحسن سرد قصة من القصص ، وانما هي تخلط الأمور بعضها ببعض ، وتُسقط في جميع الأحيان تفاصيل هامة ••• لقد تأثرت تأثراً شديداً ، وبكيت • فقل لي الآن : هل أعطيته المبلغ وكيف تصرف هذا الانسان الشقي المعذب ؟

أجاب أليوشا متظاهراً هو أيضاً بأن اخفاق مسعاه هو ما يشغل باله، أجاب يقول :

ـ المشكلة هى أننى لم أعطه المبلغ ! تلك قصة طويلة !

وأدركت ليزا مع ذلك أنه يشيح عينيه فى ضيق وحرج ، ويحاول مثلها تماما أن يتحدث فى أمور ليست بذات بال • وجلس أليوشا قرب المائدة وأخذ يروى الحكاية ، فما ان قال بضع كلمات حتى زال ارتباكه تماما ، وحتى أسر انتباه ليزا • كان يتكلم وهو ما يزال تحت وطأة الانفعال الذى ما يزال قوياً فى نفسه لم يخمد أواره ، ذلك أن الضابط المتقاعد قد أحدث فى نفسه أثرا شديدا • وقد عرف كيف يروى القصة رواية أمينة صادقة ، جذابة أخاذة • كان قد اعتاد فى الماضى ، بموسكو ، أن يجىء الى ليزا أيام كانت ما تزال طفلة صغيرة ، فيقص عليها حادثاً وقع له منذ وقت قصير ، أو يحدثها عن قراءاته ، أو يثير أمامها ذكرى من ذكريات سنيه الأولى ، فكان يتفق لهما فى كثير من الأحيان أن يلفقا أحلاما مشتركة أو أن يخترعا حكايات هى فى الغالب مضحكة خيالية غريبة • وها هما يستعيدان الآن جو موسكو ، ويشعران فى نفسيهما باستيقاظ مناخ الحياة التى قضياها هنالك قبل سنتين • اضطربت ليزا من رواية هذه القصة اضطرابا قوياً • لقد عرف أليوشا كيف يرسم للصبى ايليوشا صورة حارة • فلما فرغ من سرد جميع تفاصيل المشهد ، ووصف كيف داس المسكين الورقتين النقديتين ، هتفت ليزا تقول وقد استبد بها انفعال عنيف :

ـ ألم تعطه المال اذن ؟ أتركته ينصرف ؟ أوه ! يا رب ! كان عليك أن تلحق به وأن تدركه ، فتحاول أن تكلمه مزيدا من الكلام •••

ـ لا يا ليزا ، لقد كنت على حق حين لم أحاول أن أدركه • ذلك أفضل •••

قال أليوشا ذلك وهو ينهض شارد النظرة حالم الهيئة ، وأخذ يسير فى الغرفة •

ـ هذا أفضل ؟ كيف يكون هذا أفضل ؟ لسوف يهلكون الآن فقراً !

ـ لن يهلكوا ، لأن هاتين المائتين من الروبلات ستصلهما على كل حال • سيقبلهما في الغد حتماً •

ثم تابع كلامه يقول وهو ما يزال يسير في الغرفة مطرقاً مفكراً :

ـ نعم ••• لن يعارض في الغد ••• هذا أكيد •••

ولم يلبث أن توقف فجأة أمامها فقال :

ـ لقد ارتكبت خطأ ، ولكن هذا الخطأ ستكون له ثمرات طيبة •

ـ ما هو الخطأ الذي ارتكبته ، ولماذا تتصور أنه ستكون له ثمرات طيبة ؟

ـ اسمعي • ان هذا الرجل له طبع ضعيف وجل • لقد أرهقه القدر ، ولكن له قلباً طيباً • حاولت أن أفهم لماذا شعر فجأةً بأنه أُهين فأخذ يدوس هاتين الورقتين النقديتين ، ذلك أنه كان هو نفسه يجهل حتى آخر لحظة أنه سيتصرف هذا التصرف ، ثقي بهذا ! وأحسب أنني استشف الآن الأسباب الكثيرة التي جعلت شعوره تُجرح ••• وكان ذلك أمراً لا بد منه ••• فهو أولا قد أسرف في اظهار ابتهاجه بهذا المال أمامي ، ولم يكتم سعادته في اللحظة الأولى • فلا بد أنه شعر بعد ذلك بمذلة من استجابته تلك السريعة التي لم يستطع أن يسيطر عليها وأن يتحكم بها • فلو أنه اغتبط اغتباطا أقل ، لو أنه امتنع عن اظهار هذا الاغتباط ، لو أنه اصطنع أوضاعاً واتخذ مظاهر كما يفعل كثير من الناس لأخذ المال ، لقبل الوضع بسهولة أكبر ، ولما رفض هذه المساعدة • لقد أسرف في الصدق والاخلاص ، وذلك هو ما يجرح شعوره • آه يا ليزا !

انه انسان طيب صادق ، وهذا يصعّب الأمور دائماً في مثل هذه الأحوال. لقد كان طوال مدة حديثنا يتكلم بصوت ضعيف مرهق مكدود متعجل . وكان يضحك ضحكه صغيرة أيضا ... يضحك أو يبكي ... لا أدري ... بل أدري ... لقد كانت ضحكاته أقرب الى البكاء .. كان يبكي حماسةً ... حدثني عن ابنتيه ... عن الوظيفة التي عُرضت عليه في مدينة أخرى ... لقد فتح لي قلبه ، وأسرّ لي بذات نفسه ، وأفاض في الافصاح عن عواطفه ... فما لبث بعد ذلك أن شعر من ذلك بخزي وعار ... ثم اذا هو يشعر نحوي بكرهٍ على حين فجأة . انه واحد من أولئك الناس المساكين الذين يسرفون في الاحساس بالخجل والعار . لقد شعر بالذل من انه سارع يعدني صديقا ، وأنه استسلم لي بغير مقاومة. في بيته كان قد هدّدني وتوعّدني تقريبا ، ثم ها هو ذا حين تلقى المال يسارع فيوشك أن يرتمي على عنقي . لقد ودّ لو يقبلني ، وكانت يداه تلامسني في كل لحظة . فلهذه الاسباب جميعا أحسّ أنه أذلّ نفسه أمامي ؛ ومما زاد الطين بلة أنني ارتكبت تلك الخطيئة ، أنني قارفت تلك الغلطة الخطيرة : لقد صرّحت له فجأة بأنه سيُمنح مزيدا من المال اذا كان ما يملكه لا يكفيه للهجرة الى مدينة أخرى ، حتى لقد عرضت عليه أن أسهم أنا في ذلك بمالي اسهاماً كبيرا . ذلك ما فاجأه . لقد تساءل : لماذا أقحم نفسي في مساعدته أنا أيضاً ؟ يجب أن تعلمي يا ليزا أن المذلين أمثاله لا يحبون أن يروا جميع الناس تتقدم اليهم محسنة . ذلك يشق على أنفسهم كثيرا . سمعت هذا الرأي كثيرا ، ولا سيما من الشيخ زوسيما. لا أعرف كيف أوضح هذه الحقيقة ، ولكن أتيح لي أن ألاحظها بنفسي مرارا . ثم انني لو كنت في مكانهم لكان ردّي كردّهم . انني أشعر بذلك في ذات نفسي . يجب أن نتصور خاصةً أنه رغم جهله حتى آخر لحظة بأنه سيدوس المال أخيرا ، كان يشعر بذلك شعورا غامضا مبهما .

هذا أكيد . ولم تكن حماسته فائضة ذلك الفيض كله الا لأنه كان يحس هذا الاحساس الغامض المبهم بأنه سيقوم بهـــذه الحركة ... على كل حال ، مهما تكن هذه الخاتمه داعيةً الى الأسف والحسرة ، فما ينبغي أن نقلق منها . بل انني لعلى يقين بأن ما حدث كان هو الأفضل ، وأن الأمور هي الآن على خير ما يرام ...

ـ على خير ما يرام ؟ كيف هذا ؟ انني لا أفهم !

كـذلك هتفت ليزا وهي تلقى على أليـــوشا نظرة دهشة . فقال أليوشا :

ـ لو أنه لم يدس الورقتين النقديتين بقدميه ، لو أنه أخذ المال ، اذن لظل يبكي في بيته من الذل ساعةً بكاملها ، ذلك أمر محتوم ، واندم على ما فعل ولجاءني مع الغد حانقاً ساخطاً ليرمي بهما وجهي ، أو ليدوســهما بقدميه كما فعل منذ قليل . أما وقد صنع ما صنع ، فسيشعر بعـــد الآن بالكرامة والكبرياء ، وبالظفر والانتصار ، رغم علمه بأنه قد « ضـــيّع بفعلته نفسه » . يترتب على ذلك أنه لن يكون هنالك شيء أسهل من ردّه الى قبول هاتين المائتين من الروبلات منذ لغد ، ما دام قد برهن على شرفه برفض المال ودوسه . ذلك أنه حين أخذ يدوس الورقتين بقدميه لم يكن يتنبأ أنني سأردهما اليه في الغداة . وهو في حاجة رهيبة الى هذه المساعدة المالية ؟ ومهما يبلغ من الشعور بالكبرياء ، فانه سيظل يفكر في هذا الأمر طوال النهار ، وسيدرك مدى الخسارة التي مني بها . وسيكون أمره في الليل أدهى ، فان الندم والحسرة سيقضان مضجعه، وسيعذبانه في أحلامه، فما ان يطلع الصبح حتى يكون ميالا الى المجيء اليّ معتذراً . وفي تلك اللحظة انما سأذهب اليه أنا ، وقد لاح في وجهي انني أقول له معترفاً : « أنت انسان كريم على نفسك ، وقد برهنت على ذلك ، فاقبل الآن هذا

المال ، واغفر لى واعف عنى » • وسوف يقبل المال عندئذ ، ما فى ذلك ريب •

نطق أليوشا هذه الكلمات الأخيرة وهو فيما يشبه السكر • وصفقت ليزا يديها احداهما بالأخرى ، وقالت :

ــ هذا صحيح جدا ! هذا واضح جدا ! فهمت كل شيء فهماً تاماً ! أوه ! أليوشا ، كيف تستطيع أن تعرف هذه الأشياء كلها ؟ ما تزال فى ريعان الشباب ثم تدرك ما يجرى فى النفس الانسانية هذا الادراك العميق ••• ما كان لى أنا أن أستطيع ذلك !

تابع أليوشا كلامه يقول وهو فى غمرة الحماسة :

ــ الأمر الأساسى الآن هو أن نقنعه بأننا سنعامله على قدم المساواة رغم أنه يقبل أخذ المال منا • يجب أن يشعر بأننا لا نعامله على قدم المساواة فحسب ، بل على قدم التفوق أيضا •••

ــ « على قدم التفوق » هذا تعبير رائع يا ألكسى فيدوروفتش ، ولكن هلاَّ شرحته لى •••

ــ أقصد ••• الحق أننى لم أحسن الافصاح ••• لا ••• ليس الأمر أمر قدم ••• ولكن سيان •••

ــ طبعا ••• سيان ••• أنت على حق ! اغفر لى يا أليوشا ، ياعزيزى أليوشا ••• لقد كنت حتى الآن لا أكاد أحترمك كثيراً ، هل تعلم ؟ أقصد ••• كنت أحترمك ، ولكن على قدم المســـاواة ، أما بعـد الآن فسأحترمك على قدم التفوق •••

وسرعان ما أردفت تقول بحرارة :

ــ لا تؤاخذنى يا صديقى العزيز اذا أنا تفكهت وتندرت قليلاً •

أنا فتاة صغيرة تحب أن تضحك ، ولكن أنت ، أنت ... قل لي يا ألكسي فيدوروفتش ، ألا تظن أن في استدلالاتنا ، أو قل في إستدلالاتك أنت – لا في استدلالاتنا نحن – شيئاً من الاستخفاف بهذا المسكين ، شيئا من الازدراء له ؟ اننا نشرّح عواطفه واضعين أنفسنا فوقه . أفلا نبرهن على احتقار له حين نطمئن كل هذا الاطمئنان منذ الآن الى أنه سيقبل أخذ المال ؟

فأجاب أليوشا بلهجة جازمة ، كأنه كان ينتظر هذا السؤال :

– لا يا ليزا ، ليس يداخل هذا شيء من احتقار البتة . لقد ألقيت على نفسي هذا السؤال ذاته وأنا عائد الى هنا . فكري قليلا : كيف يمكننا أن نحتقره ونحن جميعا مثله ، كيف يمكننا أن نحتقره والبشر جميعا مثله ؟ ذلك أننا لسنا خيراً من هذا المسكين ، وهبنا خيراً منه الآن ، فاننا لن نبقى خيراً منه متى وُجدنا في ظرف كالظرف الذي هو فيه . لا أستطيع أن أقطع برأي فيما يتصل بك أنت يا ليزا ، ولكنني على يقين من أنني أنا « مسكين » في بعض الأمور . أما ذلك الضابط فليس « مسكيناً » ، ان له نفساً مرهفة جداً . لا يا ليزا ، صديقتي ، ليس في موقفنا هذا احتقار ولا ازدراء . هل تعرفين ماذا علمني شيخي مرة ؟ قال لي : يجب أن تعامل أكثر الناس معاملتك أطفالاً ، وأن تعامل بعض الناس معاملتك مرضى ...

– قل لي يا ألكسي فيدوروفتش ، قل يا صديقي ! ما رأيك في أن ننذر نفسينا أنا وأنت للاهتمام بالناس كما لو كانوا مرضى ؟

– أوافق يا ليزا ، أتمنى . ولكنني لست متأهباً بعد كل التأهب . ان صبري ينفد في بعض الأحيان ، فأضيق ذرعاً . وفي أحيان أخرى أراني غائباً فما ألاحظ شيئا . أما أنت فشأنك شأن آخر .

ـ لا أصدق من هـــذا الكلام شيئاً ! آه يا ألكسى فيدوروفتش ! ما أعظم سعادتى !

ـ ما أحلى أن أسمعك تقولين هذا يا ليزا !

ـ ألكسى فيدوروفتش ، أنت طيب طيبه خارقة . ولكنك توهم فى بعض اللحظات بأنك متضيهق قليلا . ومع ذلك فان المـــرء حين يعرفك مزيدا من المعرفة ، يدرك أنك لست كذلك ... اقترب من الباب فى رفق وهدوء ، فافتحه بلا ضجة ولا ضوضاء ، وتأكد من أن ماما ليست تتنصت علينا .

كذلك أضافت ليزا تقول بهمس سريع عصبى . فاتجه أليوشا نحو الباب ، فشقه قليلا ، ثم عاد فقال ان أحدا لا يتجسس عليهما .

وتابعت أليوشا كلامها تقول وهى تزداد احمرارا :

ـ أقترب منى مزيدا من الاقتراب . هات يدك ... هكذا ... يجب أن أبوح لك بسر كبير : ان الرسالة التى بعثت بها اليك أمس لم تكن مزاحا ، بل جداً ...

قالت ذلك وغطت عينيها بيدها . كان واضحا أنها تشعر من هـذا الاعتراف بحياء شديد . وفجأة ، أمسكت يد أليوشا فلثمتها ثلاث مرات بعنف وقوة وحرارة .

هتف أليوشا يقول :

ـ أوه ! ليزا ! حسن منك هذا ! ولقد كنت مقتنعا كل الاقتناع على كل حال بأنك كنت جادة فى رسالتك .

ـ كنت مقتنعا ؟ أهذا كلام ؟

قالت ذلك وأقصت عنها يد أليوشا ، ولكن دون أن تتركها ، وقد احمر وجهها احمرارا شديدا مرة أخرى ، وضحكت ضحكة خفيفـة سعيدة •

ـ ألثم يده فيقول « حسن منك هذا » !

على أن هذا اللوم كان لا يخلو من ظلم ، فلقد كان أليوشا يشعر باضطراب شديد هو أيضا •

تمتم يقول بخراقة ، وهو يحمرُّ أيضاً :

ـ لشد ما أحب أن أرضيك يا ليزا ، ولكنني لا أعرف كيف أحتال لهذا ولا كيف أتدبره •

ـ أليوشا ، عزيزي ، أنت فاتر ووقح • أليس هذا ما يمكن أن يتصوره المرء ؟ لقد تفضل فاختارني زوجةً له ثم ها هو ذا هادىء النفس! كان مقتنعاً بأنني جادة في رسالتي ، لا مؤاخذة ! ولكن هـذه وقاحة ، وقاحة •••

سألها أليوشا ضاحكاً :

ـ أكان عيباً الى هذا الحد اذن أنني كنت مقتنعاً بذلك ؟

فقالت له ليزا وهي تلقي عليه نظرة حنونا رقيقة سعيدة :

ـ أوه ! أليوشا ! بالعكس ••• كان ذلك منك حسنا جدا ، حسنا جدا جدا •

وكان أليوشا ما يزال ممسكا يدها بيده ، فما هي الا لحظة حتى مال عليها فجأة فقبلها في فمها •

هتفت ليزا تسأله :

ـ ما هذا أيضا ؟ ماذا دهاك ؟

كان أليوشا قد فقد سيطرته على نفسه • قال :

ـ اغفرى لى ••• ان كنت قد أخطأت ••• لعلنى ••• حقا انها لحماقة رهيبة ••• لقد أخذت علىّ أننى بارد ، لذلك ••• قبلتك ••• ولكننى أدرك الآن أن هذا كان حماقة منى •

انفجرت ليزا ضاحكة ، وأخفت وجهها بيديها • ثم لم تملك أن تمنع نفسها من أن تقول له من خلال ضحكها وقد اتخذ وجهها هيئة رصينة بل قاسية :

ـ أتفعل هذا وأنت فى مسوح الراهب أيضا ؟ ان علينا أن ننتظر قليلا فيما يتعلق بالقبلات يا أليوشا • نحن لا نعـــرف حتى الآن كيف تتدبرها ، لا أنا ولا أنت • لا بد لنا أن ننتظر زمناً طويلا أيضا •

بهذا ختمت كلامها فجأة • ثم أردفت بعد لحظة تقول :

ـ ولكن اشرح لى : ما الذى حملك على أن تختار بلهاء حقيرة مثلى هى فوق ذلك كسيحة ، فى حين أنك على هذا الجانب العظيم من الذكاء والتعقل والفطنة ؟ ••• أوه ! أليوشا ، أنا سعيدة جدا ، لأننى لا أستحقك أبدا •••

ـ لا تقولى مثل هذا الكلام يا ليزا • سوف أترك الدير تماما بعد بضعة أيام • فاذا عشت فى العالم فسيكون علىّ أن أتزوج ، أنا أعـرف ذلك • ثم انه « هو » الذى أمرنى بهذا • فأين عسى أجد امرأة خيراً منك ••• ومن عسى يريدنى سواك ؟ لقد فكرت فى كل شىء • أنت أولاً تعرفيننى منذ الطفولة • وأنت ثانيا تملكين مزايا كثيرة لا أملكها • نفسك أقرب الى المرح من نفسى • وأنت خاصةً أكثر براءةً منى • فأنا

قد عرفت حتى الآن أشياء كثـيرة • أوه ! أنت لا تعلمين هـذا ! انني كارامازوف أنا أيضا • أى ضير فى أن تضحكى وأن تمزحى دائما وأن تسخرى حتى منى ؟ بالعكس : اسخرى ما شاء لك هواك أن تسخرى•• انني لأسعد بهذا ••• انك تضحكين كطفلة صغيرة ، وتحكمين على نفسك بأنك شهيدة •

ـ شهيدة ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ نعم يا ليزا • انظرى مثلا فى ذلك السؤال الذى ألقيته منـذ لحظات حين قلت : أليس فى نفسنا شىء من احتقار لذلك الضابط المسكين الذى نشرّح قلبه ؟ تلك فكرة تخطـر ببال شهيدة يا ليزا ••• لست أعرف كيف أفصح عما أريد أن أقول ، غير أن من يشعر بمثل هذه الأنواع من القلق قادر فى رأيى على أن يتألم كثيرا ••• لا شـك أنك قلّبت معانى كثيرة وأنت قاعدة على هذا الكرسى المتنقل •••

قالت ليزا بصوت أوهنته السعادة :

ـ أليوشا ، ناولنى يدك ! لماذا تسحبها دائما ؟ قل لى يا أليوشا : أى زى تنوى أن ترتدى حين تترك الدير ؟ لا تضحك ، ولا تغضب ، ذلك أن هذا الأمر يهمنى كثيرا •

ـ لم أفكر بعد فى الزى الذى سأرتديه يا ليزا • ولكننى أريد أن ألبس ما يرضيك أكثر من غيره •

قالت ليزا :

ـ أحب أن ترتدى سترةً من مخمل أزرق قاتم ، وصديرة من « بيكيه » بيضاء ، وقبعة رمادية من جوخ طرى ••• قل لى الحقيقة : لقد

صدّقتَ في مساء أمس أنني لا أحبك ، حين تنكرتُ لرسالتي ، أليس كذلك ؟

ـ لا ... لم أصدّق !

ـ أوه ! ألا انك لفتى لا سبيل الى اصـــلاحه ! انك لا تطاق ولا تحتمل ، هل تعلم ذلك ؟

ـ كنت أعرف أنك ... تحبينني ، ولكنني تظاهرت بأنني أعتقـد بأنك لا تحبينني ... وذلك لأجعلك ... أكثر ارتياحا ...

ـ هذا شر وأدهى ! ولكن لا ... حسنا فعلت يا أليوشا ! انني أحبك حباً رهيبا ! قلت لنفسي في هذا الصباح وأنا أنتظـــر زيارتك : « سأطلب منه مرة ثانية أن يردّ اليّ رسالتي ، فاذا أخرجهـا من جيبه بلا مقاومة فمدّها اليّ (كما يمكن توقع ذلك منه) فانه يكون فتى أبله لا يحبني ولا يستحق حبي ... وأكون أنا قد هلكت . » . غـير أنك تركت الرسالة في الدير ، فردّ هذا اليّ شيئاً من شجاعتي . انك لم تحملها لأنك كنت تحس سلفاً أنني قد أطلبها منك ، وأنت لا تريد أن تردها ، أليس كذلك ؟ قل ! نعم ؟

ـ أوه ! ليزا ! كلا ... الرسالة معي الآن ، ولقد كانت معي من قبل . هي هنا ، في هذه الجيب . انظري !

قال أليوشا ذلك وأخرج الرسالة من جيبه ضاحكا ، وأظهرها عليها من بعيد ، ثم أضاف :

ـ اعلمي مع ذلك أنني لن أردها اليكِ . انظري اليها من بعيد .

ـ كيف هـــذا ؟ أكذبت اذن حين طالبتـك بها ؟ أتكذب وأنت راهب ؟

فقال أليوشا مسلـّما باتهامها وهو يضحك :

ـ نعم أكذب ! لقد أبيت أن أقول الحقيقة حتى لا أردّ اليك الرسالة .

ثم أضاف يقول بانفعال شديد وقد احمر وجهه من جديد :

ـ هذه الرسالة عزيزة عليّ الى أقصى حد . سأحتفظ بها ما حييت، ولن يستطيع أحد أن ينتزعها مني !

كانت ليزا شاخصةً اليه ببصرها مأخوذة مفتونة . ثم قالت له هامسةً :

ـ أليوشا ! هيّا انظر هل تتنصت علينا ماما وراء الباب ؟

ـ طيب يا ليزا ، سأنظر ما دمت تريدين ذلك . ولكن أليس الأفضل أن لا نحاول التثبت من هذا ؟ لماذا نظن في أمك هذا الظن ؟ لماذا نتصور أنها يمكن أن ترتكب سماجة كهذه ؟

فقالت ليزا مستاءةً وقد احمر وجهها احمرارا شديداً :

ـ أية سماجة ؟ فيم الكلام عن السماجة ؟ هل من السماجة أن تراقب أمٌّ ابنتها وأن تحاول سماع أحاديثها ؟ ان من واجب الأم أن تفعل هذا مع ابنتها . وليس في عملها ذاك أي اخلال بقواعد اللباقة وأصول الأدب . كن على يقين يا ألكسي فيدوروفتش من أنني حين سيكون لي ابنة أنا أيضا ، فلن يفوتني أن أتجسس عليها في كل مناسبة !

ـ صحيح ؟ ولكن هذا شر يا ليزا !

ـ لماذا يكون هذا شراً ؟ أي ضير فيه ؟ لو قد تجسست هذا التجسس

على حديث عادى يجرى فى المجتمع ، اذن لكان ذلك منى ضعة وحقارة بدون ريب . أما هنـــا فالأمر مختلف كل الاختلاف . هنا فتاة مختليه بشاب ... اسمع يا أليوشا : أحب أن أقول لك منذ الآن اننى سأراقبك أنا أيضا متى تمت خطوبتنا ، وسأفض بريدك ، وأقرأ جميع رسائلك . اعلم هذا . هأناذا أبلغك منذ الآن .

ـ موافق ... ما دمت تريدين ذلك ... ولكن هذا ليس حسناً ، صدقينى .

بهذا تمتم أليوشا . فقالت ليزا :

ـ أوه ! هذا الاحتقار ! أليوشا ، صديقى ، لا تتشاجرن منذ أول يوم . اننى أوثر أن أعترف لك بالحقيقة : أنا أعرف أن التجسس على الناس معيب جدا . لقد أخطأت أنا ، وأصبت أنت . ولكننى سأراقبك مع ذلك .

فقال أليوشا ضاحكاً :

ـ راقبينى ، راقبينى .. ولن تكتشفى أشياء كثيرة ، أقول لك ذلك منذ الآن .

ـ أليوشا ، هل ستطيعنى ؟ تلك أيضا مسألة يجب أن نســوّيها سلفاً .

ـ سأطيعك يا ليزا ، سيسرنى جدا أن أطيعك ، ولكن لا فى الأمور الأساسية . فى الشئون الهامة ، سأعمل بما يمليه علىّ ضميرى ، حتى ولو خالفتنى .

ـ هكذا أفهم أنا الأمر . ألا فاعلم يا أليوشا أننى مستعدة من جهتى لأن أطيعك لا فى الشئون الاساسية فحسب ، بل فى كل شىء ، وفى كل

وقت ، مدى الحياة ••• أعاهدك على هذا منذ الآن • واذا خضعت لك، فانني أخضع راضيةً سعيدة فرحة • (كذلك هتفت ليزا تقول بحرارة)• واني لأحلف لك أيضا أنني لن أراقبك أبدا ، لن أراقبك مرةً واحدة، لا ولن أقرأ رسائلك قط ، في يوم من الأيام • ذلك أنك على حق ، وانني على خطأ • أعرف أن رغبة رهيبة في مراقبتك سوف تتأجج في نفسي ، ولكنني سأحبس هذه الرغبة ، لأن هذا معيب في نظرك • ستكون لي بمثابة العناية الالهية ••• اسمع يا ألكسي فيدوروفتش : لماذا أنت حزين هذا الحزن كله في هذه الآونة الأخيرة ، أمس واليوم ؟ أنا أعرف أن هناك أنواعا من الهم والقلق تملأ جوانب نفسك ، ولكنني لاحظت فيك حزناً خاصا ••• أهو ألم سري ؟

قال أليوشا بصوت مكبوح :

ـ نعم يا ليزا ، هو حـــزن سري • انني أرى أنك تحبينني حقاً ما دمت قد أدركت ذلك •

سألته ليزا بلهجة فيها رجاء وضراعة :

ـ ما سبب حزنك ؟ هل أستطيع أن أعرفه ؟

فأجابها أليوشا محرَجاً :

ـ سأذكره لك يا ليزا ••• ولكن فيما بعد • اذا حدثتك الآن عن سبب حزني ، فلن تفهمي • ثم انني لن أحسن شرحه كما ينبغي •

قالت ليزا :

ـ أحسب أن موضوع أخويك وأبيك هو الذي يعذبك !

قال أليوشا حالماً مفكراً :

ـ نعم ، هناك أخواى أيضا !

قالت ليزا فجأة :

ـ أنا لا أحب أخاك ايفان يا أليوشا .

استقبل أليوشا هذا التصريح بشيء من الدهشـــة . وتابع كلامه يقول :

ـ أخواى يسيران الى الضياع ، وكذلك أبى . وهم يجرّون الى الشقاء كائنات أخرى . انهم ألعوبة في يدى « القوة الخفية الغامضة التى تحرك آل كارامازوف » ، كما قال الأب بائيسى فى الآونه الأخيرة ... هى قوة خفية ، عارمة ، لا يمكن السيطرة عليها والتحكم به ... حتى أنى لست واثقا من أن روح الله تحلّق فوق هذه القوة ... ولكننى أعلم أننى واحد من آل كارامازوف ، أنا أيضا . أنا فى الظاهر راهب . فهل أنا راهب حقاً يا ليزا ؟ لقد قلت منذ هنيهة اننى راهب ...

ـ نعم قلت ذلك ..

ـ راهب ... ومع ذلك قد لا أكون مؤمناً بالله ...

ـ أأنت لا تؤمن بالله ؟ ماذا دهاك ؟

كذلك سألته ليزا قلقة محاذرة بصوت خافت .

ولكن أليوشا لم يرد . ان هذا القول الذى أفلت من لسانه يعبّر عن فكرة تثوى فى قرارة قلبه ولعله لا يستطيع هو نفســـه أن يستبينها ، ولكنها كانت تعذبه ما فى ذلك ريب . وتابع أليوشا كلامه :

ـ وفوق ذلك كله ، هذا هو يموت ... ان الانسان الذى أعـده خير انسان فى هذا العالم سيبارح الأرض . آه ! ليزا ! لو علمت مدى

تعلقي بهذا الانسان ، ومدى شعوري بالارتباط به ارتباطاً لا انفصام له ! ... سوف أكون بعد اليوم وحيداً ... سأجيء اليك كثيرا يا ليزا ... لن نفترق بعد الآن ...

ـ نعم سيظل كل منا قرب الآخر . سنكون متحدين مدى الحياه ، متحدين الى الأبد ... أليوشا ، قبلني الآن ... اسمح لك الآن بأن تقبلني .

قبلها أليوشا .

ـ والآن اذهب . كان المسيح معك . (قالت ذلك وهي ترسم عليه اشارة الصليب) . أدركه « هو » قبل أن يموت . الآن أفهم أنني أضعت لك وقتاً ثميناً . سأصلي له ولك اليوم . أليوشا ، سنكون سعيدين، سنكون سعيدين ، أليس كذلك ؟

ـ أعتقد يا ليزا .

لم ير أليوشا ، حين خرج من عند ليزا ، أن من الضروري أن يذهب أولاً الى السيدة هوخلاكوفا ، وانما تأهب لمغادرة المنزل دون أن يودعها . ولكنه ما ان فتح باب البيت وخطا خطوة على السلَّم حتى انبجست السيدة هوخلاكوفا أمامه . فأدرك أليوشا فورا أنها كانت تترقب انصرافه .

ـ هذا فظيع يا ألكسي فيدوروفتش ! هذه أمور صبيانية ، هذه سخافات وحماقات . آمل أن لا تحمل أقوال ابنتي على محمل الجد ، وأن لا تهدهد أوهاماً وأحلاماً ! يا للحماقه ! يا للحماقة ! يا للحماقة !

كذلك أخذت تردد وقد لاح عليها أنها تُدينه . فقال لها أليوشا :

ـ لا تقولي هذا الكلام لها على الأقل ، والا اضطربت اضطرابا شديدا وساءت حالها كثيرا .

ـ هذا أخيرا كلام متزن يبرهن لي على أنك شاب عاقل • هل أفهم من كلامك هذا أنك انمـــا وافقتها اشفاقا على حالتهـــا ، حتى لا تثير بمعارضتك حنقها ؟

قال أليوشا بلهجة قاطعة :

ـ لا بل كنت جاداً في حديثي معها كل الجد •

ـ لا شأن للجد هنا • هذا شيء لا يمكن تصوره ، لا يمكن تخيله ! اعلم أولاً انني لن أستقبلك بعد اليوم في منزلي ، واعلم ثانيا أنني سأسافر من هذه المدينة مبتعدةً بابنتي • هل فهمت ؟

قال أليوشا :

ـ فيم تقلقين هـــذا القلق كله ؟ انمـا الأمر أمر مشروع ما يزال تحيققه بعيدا جدا • لا بد أن ننتظر سنة ونصفا على الأقل •

ـ لعلك على حق يا ألكسي فيدوروفتش • فالى ذلك الحين يتسع الوقت للتشاجر معها والانفصال عنهـــا مائة مرة • آه ••• ما أشقاني ! ما أشقاني ! صحيح أن هذا كله صبيانيات ، ولكنني صعقت حقـا • أنا الآن في موقف فاموسوف في آخر مشـــاهد المسرحية الهزيلة * • أما تشاتسكي فأنت ، وأما صوفيا فهي • انظر الى هذا التطابق • لقد رابطت على السلّم لأنتظرك • وفي تلك المسرحية الهزلية حدثت جميع المصائب على السلم أيضا • سمعت كل شيء • وتجلدت تجلداً شديدا حتى أستطيع أن أسيطر على نفسي • هذا هو اذن سرُّ الأرق الرهيب في الليل وسر نوبات الهستريا بالأمس ! البنت عاشقة • ولم يبق للأم الا أن تموت ! هو قبري اذن يُهيّأ ! أجب عن سؤالي الثاني الآن وهو أهم : ما تلك الرسالة التي تحدثتما عنها ؟ هل كتبت اليك رسالة ؟ أرنيها فورا ! انني أطالبك بذلك وأصر •

ـ لا تلححّى • والأفضل من هذا أن تقولى لى كيف حال كاترين ايفانوفنا الآن • اننى أحرص على معرفة ذلك •

ـ ما زالت تهذى • لم تستردّ حواسها بعد • وعمّتاها معها ، ما تنفكان تتفجعان وتئنان وتصطنعان مظاهر الأُبهة • أما الدكتور هرتسنشتوبه فقد وصل ، ولكنه بلغ من الذعر أننى أصبحت لا أعرف ماذا يجب علىّ أن أعمل لأهدىء روعه • حتى لقد خطر ببالى أن أستدعى طبيبا له• وجيء بالطبيب فى عربتى• ثم هأناذا الآن أمام مشكلتك ومشكلة هذه الرسالة ، تتمةً للشقاء والبلاء ! صحيح أن هناك ثمانية عشر شهرا ••• ولكننى أستحلفك بكل ما هو عزيز عندك مقدس لديك ، أستحلفك بشيخك المحتضر ، أن ترينى هذه الرسالة يا ألكسى فيدوروفتشً • أرنى الرسالة ، أرنيها أنا ، أنا أم ليزا • امسكها بأصابعك اذا شئت ، فلن آخذها ، وانما أقرؤها من بعيد •

ـ لا يا كاترين أوسيبوفنا ، لن أريك الرسالة • لا جدوى من الالحاح • لن أريك الرسالة حتى لو أذنت لى هى بذلك • سأعود غدا، فاذا شئت ناقشنا جميع المشاكل • أما الآن فالى اللقاء •

قال أليوشا ذلك ، وهبط السلّم راكضا ، فخرج الى الشارع •

٢

قيثارة سمردياكوف

كان يُغذُّ الخطى . فحين ودّع ليزا كانت قد برقت في ذهنه فكرة عن الطريقة التى يستطيع بها أن يفاجىء أخاه دمترى الذى كان واضحا أنه يحاول أن يتجنب لقاءه . الوقت متأخر . هى الساعة الثالثة بعد الظهر تقريبا . كان أليوشا يتمنى بكل كيانه أن يعود الى الدير قرب شيخه المحتضر ، ولكن حاجتــه الى رؤية أخيه دمترى مرة أخرى قد تغلبت أخيرا : ان احساسه بوشك وقوع كارثة ، بوشك حدوث أمر رهيب ، يرسخ فى نفسه مزيدا من الرسوخ كلما انقضت الساعات . أما ما هى تلك الكارثة التى ستقع ، أما ما هو ذلك الشقاء الذى سينزل ، فان ذلك شىء لم يكن يعلمه أليوشا ، لا وكان يستطيع فى تلك اللحظة أن يوضح لنفسه ما يريد أن يقوله لأخيه دمترى . « اذا مات شيخى المحسن الىّ أثناء غيابى ، فلن ألوم نفسى فى أقل تقدير ، مدى الحياة ، على اننى كان فى وسعى أن أحول دون وقوع الشر ثم أهملت أن أفعل ذلك ، وأغفلت واجبى وأسرعت أعود الى مسكنى بأقصى سرعة . وانى اذ أفعل الآن ما أفعل انما أطيع أوامر معلمى . » .

كانت خطته هى أن يعثر على دمترى فجأة ، متسللاً الى الحديقة من خلال السياج الذى سبق أن تخطاه أمس داخلا الى « الكشك » . وكان يقول لنفسه : « فان لم أجده ، فسأختبىء فى الجناح دون أن أنبىء

لا أهل لدار ولا توماس ، ثم انتظره هنالك حتى المساء اذا وجب الأمر • فاذا كان ينوى أن يترقب جروشنكا كما فعل أمس ، فربما جاء الى هذا الكشك ••• » • ولم يتأخر أليوشا فى وضع خطته بجميع تفاصيلها ، ولكنه قرر أن يضعها موضع التنفذ فورا ، ولو اقتضاه ذلك أن لا يرجع الى الدير فى ذلك اليوم •••

وقد جرى كل شىء على ماصورته له نبوءاته • تخطى السياج فى موضع غير بعيد عن الموضع الذى تخطاه فيه أمس ، وتسلل الى الجناح دون أن يراه أحد • وكان يريد أن لا يلاحظ حضوره أحد • ذلك أن من الجائز أن يكون أهل الدار وتوماس (فى حالة وجـــوده بالدار) منحازين الى صف دمترى ، فقد يمنعونه اذن من دخول الحديقة ، أو قد يبلغون دمترى وصـــوله فى الوقت المناسب ، تنفيذاً لتعليمات دمترى نفسه • لم يكن فى الحديقة أحـــد • جلس أليوشـا فى مكان الأمس وانتظر • ونظر الى الكشك فبدا له أكثر تداعيا مما بدا له كذلك فى اليوم السابق ، وأحدث فى نفسه شـــعورا بالشقاء • ولكن النهار كان مضيئا مشمساً كما كان يومَ زيارته الأولى • وعلى المائدة الخضراء تُرى علامة مستديرة خلّفها قدح الكونياك الذى لعله صُدم أثناء المناقشــة • وساورت أليوشا خواطر تافهة كثيرة لا صلة لها بالظروف الراهنة ، كما يحدث عامةً أثناء انتظار مضجر ممل • تساءل مثلاً : لماذا جلس فى المكان نفسه الذى جلس فيـــه بالأمس ، ولم يجلس فى مكان آخــر • واجتاحه شيئاً فشيئاً حزن كبير مردُّه الى قلة التأكد وشدة القلق • وبعد أن مكث هنالك قرابة ربع ساعة أو أقل من ذلك ، سمع ألحان قيثـارة تنطلق قريبةً منه • لا شك أن أحداً كان متلبثاً فى الغابة الصغيرة على مسافة عشرين خطوة فى أكثر تقدير ، أو أن أحداً وصل الى ذلك المكان منذ برهة قصيرة • وتذكر أليوشا فجأة أنه حين ترك أخاه أمس ، وابتعد

عن « الكشك » قد لمح على اليسار قرب الحاجز دكه ريفية قديمة غائرة في الأدغال . فهنـــالك اذن لا بد أن يكون قـــد جلس الواصـــل أو الواصلون . ولكن من عساه يكون أو من عساهم يكونون ؟ وهذا رجل ينطلق فى تلك اللحظة مغنياً أبياتاً من الشعر يرافقها عزف على القيثـارة (ان الصوت صوت مترقق من طبقة التينور ، عاميُّ النبرات) :

بقوة عظيمة انجذب *
الى الجميلة التى لا تغلب
رفقا بنا يارب
بى وبها يارب
بى وبها يارب
بى وبها يارب

وصمت الصوت ذو التثنيات العامية . وهذا صـــوت امرأة لطيف وجل يُسمع عندئذ قائلاً فى غنج ودلال :

ـ لماذا لا تجىء الينا الا نادرا يا بافل فيـدوروفتش ؟ أأنت تكره صحبتنا ؟

فقال صوت الرجل فى تأدب ، بلهجة يدرك المرء فيها مع ذلك شيئا من ارادة تأكيد الرصانة والوقار والتفوق :

ـ لا ... لا ...

كان واضحا أن الرجل مسيطر على الموقف ، فى حين أن المرأة تبدو مستعجلة . قال أليوشا لنفسه : « ولكن هذا سمردياكوف ! هذا صوته على الأقل . أما المرأة فأتخيل أنها ابنـــة صاحب الدار ، التى رجعت من موسكو فى الآونة الأخيرة بثوب طويل الذيل ، والتى تجىء كل يوم الى مارفا اجناتفنا التماسا لشىء من حساء ... » .

وعاد صوت المرأة يقول :

ـ انني أعبد الأشعار ، ولا سيما اذا كانت متسقة متناغمة . لماذا توقفت عن الغناء ؟

فاستأنف صوت الرجل صداحه :

تاج الملوك هين فى نفسى
مادمت أحظى بصديقة انسى
رفقا بنا يارب
بى وبها يارب
بى وبها يارب
بى وبها يارب

قال صوت المرأة :

ـ غنيتها فى المرة الماضية خيراً مما تغنيها الآن. كنت فى المرة الماضية تقول : « صـــديقة أنسى العذبة » ، فكان ذلك أرق عاطفـــة . هل نسيت ؟

فقال سمرد ياكوف بلهجة قاطعة :

ـ ما الأشعار الا سخف وحماقة !

ـ أوه ! لا ... أنا أحب الأشعار كثيرا .

ـ الشعر هزل لا جد . اقضى فى الأمر بنفســك : من ذا الذى يتكلم فى هذا العالم مقفياً ؟ ولو أُخذ جميع الناس يتكلمون شعراً ، بأمرٍ صادرٍ عن السلطات مثلاً ، لما وجدوا أشياء كثيرة يقولونها . لا ... صدقينى يا ماريا كوندراتيفنا : ما الشعر الا كذب وتصنع !

فاستأنف صوت المرأة كلامه قائلا وقد ازداد غنجاً ودلالاً :

ـ ما أذكاك ! كيف تفعل من أجل أن تكون على هذا الجانب العظيم من الثقافه ؟

ـ كان يمكن أن أفعل أكثر من ذلك ، وأن أصبح أوسع ثقافه وأغزر علما ، لو ان القدر لم يحاربني منذ المهد • كان يمكنني ان أقتل في مبارزة بالمسدس ذلك الذى قد يصفني بأنني امرؤ جلف لانني ليس لي أب ، ولأن أمي امرأة تتنه * • لقد قذف أحدهم هذا الكلام في وجهي ذات يوم بموسكو ، حيث شاع سر مولدى بفضل جريجورى فاسيلفتش• ان جريجورى فاسيلفتش يعيب علىّ تمردى على ميلادى • وقد قال في معرض حديثه عن أمي : « لقد مزقت لها أحشاءها • » • انني أسلم بذلك ، ولكنني كنت أوثر أن أُقتل في بطنها على أن أجيء الى هذا العالم • ان الناس يتناقلون في السوق (وقد ظنت أمك ، لقلة لباقتها ، ان من واجبها أن تقول لى ذلك أيضا) أن أمي كانت مصابة بداء تلبد الشعر ، وأن طولها كان لا يزيد على خمس أقدام • وكانت أمك تمط أحرف المد وهي تكلمني ، فلماذا كانت تفعل ذلك مع أن من السهل جدا على المرء أن يتكلم كما يتكلم سائر الناس ؟ لأنها كانت تحب أن تظهر عاطفيتها • ولكن هذه العاطفية تفوح منها رائحة الفلاح (الموجيك) • هل يستطيع الموجيك أن يشعر بعواطف نحو رجل مثقف ؟ انه أجهل من أن يشعر بأى شيء • انني حين أسمع أحرف المدّ تُمطّ هذا المط أتمنى لو ألطم رأسي بجدار • وذلك أمر أعرفه في نفسي منذ طفولتي ! أوه ! انني أكره روسيا يا ماريا كوندراتفنا •

ـ لو كنت ضابطا أو من سلاح الفرسان لما فكرت هذا التفكير ، بل لجرّدت سيفك دفاعاً عن روسيا •

ـ لا أحب أن أكون من سلاح الفرسان يا ماريا كوندراتفنا ، بل ان من رأيي الغاء الجيش أصلاً •

ـ فمن يدافع عنا اذن اذا هاجمنا العدو ؟

ـ لا داعى الى الدفاع • فى عام ١٨١٢ غزا امبراطور الفرنسيين ، نابوليون الأول ، وهو أبو الامبراطور الحالى * ، غزا روسيا ، فلو قد تم له الاستيلاء عليها لكان ذلك سعادة كبرى ، وحظاً عظيماً ؛ لأن أمةً ذكية تُخضع لنفسها عندئذ أمة غبية ، وتلحقها بها • فلو قد تم تحقيق ذلك اذن لكان عندنا الآن نظام مختلف عن نظامنا كل الاختلاف •

ـ كأنهم خير منا ! ••• ألا اننى لأرفض أن أستبدل بشاب واحد من شبابنا الحسان ثلاثة رجال من الانجليز •••

كذلك هتفت تقول ماريا كوندراتفنا بأرق صوت وأعذب نغمة • ولا شك أنها كانت تلقى على صاحبها عندئذ نظرات تفيض حباً وحناناً •

قال الرجل :

ـ المسألة مسألة ذوق !

ـ هيئتك أنت نفسك هيئة أجنبى ، أجنبى نبيل جداً • أعترف لك بهذا دون أن أحمر خجلا •

ـ هل تريدين أن أقول لك الحقيقة ؟ انهم جميعا سواسية من ناحية التحلل من الأخلاق ، أجانب كانوا أم روساً • هم جميعا أوغاد أوباش ، مع فارق واحد هو أنهم هناك ينتعلون أحذية ملمّعة ، فى حين أن أهلنا الحفاة هنا قانعون ببؤسهم النتن ، لا يجدون فيه ضيراً • ان الشعب الروسى يستحق أن يُجلد • لقد صدق فيدور بافلوفتش أمس حين قال هذا الكلام ، رغم أنه مجنون ، هو وأبناؤه جميعا •

ـ ولكن سبق لك أن قلت انك تحترم ايفان فيدوروفتش احتراما كبيرا •

ـ ذلك لم يمنعه من أن يصفنى بأننى خادم نذل • هو يتخيل أننى واحد من أولئك المتمردين • ولكنه مخطىء • لو ملكت قدراً كافيا من المال ، اذن لسافرت منذ زمن طويل • أما دمترى فيدوروفتش فهـو شر من خادم ، سواء بسلوكه وقلة ذكائه أو ببؤسه وشقائه• هذا رجل لا خير فيه ، ولا يصلح لشىء • ومع ذلك يحترمه جميع الناس • أنا أعلم أننى لست الا طباخاً فاشلاً ، ولكن لو أوتيت شيئاً من حظ فسـوف أفتتح « مقهى مطعماً » بموسكو ، فى شارع بتروفكا • اننى أجيد اعداد أطباق حسب الطلب ، وما من أحد من زملائى قادر على ذلك ، الا الأجانب • ودمترى فيدوروفتش هذا ليس الا انسانا دنيئاً ، ومع ذلك لو طلب الى المبارزة أنبل أبناء أحد الكونتات ، لرضى هذا أن يبارزه • فيم هو يفضل غيره ؟ انه أقل منى ذكاء ! وما أكثر ما أتلف من مال فى سبيل حماقات وترهات ! •••

قالت ماريا كوندراتفنا :

ـ لا بد أن المبارزة شىء جميل جدا •

ـ لماذا ؟

ـ هى خطرة جدا وتحتاج الى شجاعة ، لا سيما حين يتواجه ضباط شبان بمسدسات فى سبيل سيدة ! ما أروعه من منظر ! لو كانت تُقبل فتيات فى مشاهدة مبارزة ، لو هبت أى شىء فى سبيل أن أشهد مبارزة •

ـ المبارزة ممتعة حين يسدَّد المرء بنفسه ، أما حين يكون الآخر هو الذى يسدِّد اليك ، فالأمر يصبح عندئذ كريهاً ، وربما تهربين ياماريا كوندراتفنا •

ـ أتخاف أنت فى مثل هذه الحالة ؟

لم يتنازل سمردياكوف فيجيب عن سؤالها • وبعد برهه من الوقت سُمع لحن آخر تعزفه القيثارة وصوت مترقق من طبقة التينور يصدح مغنياً :

سأرحل مهما اكابد
فانى سئمت العذابا •
سيبهجنى ان أعيش بعيدا
أمتع نفسى واحيا سعيدا
حياة العواصم •
فلا شىء يمسكنى ها هنا
ولست بباك عليك كذلك
ولست بباك على أى شىء •

وفى تلك اللحظة حدث شىء ليس فى الحسبان : لقد عطس أليوشا فجأة • فسرعان ما صمتت الأصوات • فنهض أليوشا عن مكانه واتجه نحو الدكه • الرجل هو سمردياكوف فعلاً ، بثيابه الجميلة ، وحذاءيه الملمّعين ، وشعره المدهّن حتى لكأنه مجعّد • كان قد وضع القيثارة على الدكة • والمرأة الشابة هى ماريا كوندراتفنا بنت صاحبة الدار • انهـا ترتدى ثوباً أزرق فاتحاً ذا ذيل طويل جداً • وكان يمكن أن تبدو جميلة لولا تلك البقع الحمراء البشعة فى وجهها المسرف فى الاستدارة •

سأل أليوشا بلهجة هادئة وهو يحاول أن يسبغ على سؤاله مظهر سؤال بسيط لا قيمة له :

ـ هل سيأتى أخى دمترى الى هنا بعد قليل ؟

فنهض سمردياكوف بدون تعجل، وكذلك فعلت ماريا كوندراتفنا•

ـ أنّى لى أن أعرف ما يفعله دمترى فيدوروفتش ؟ اننى لم أكلف بحراسته فيما أعلم •••

كذلك أجاب سمردياكوف مقطّعاً ألفاظه دون أن يرفع صوته ، وقد بدا في وجهه الاهمال .

فقال أليوشا شارحاً :

ـ انما سألتك لتجيبني اذا كنت تعلم .

ـ أنا أجهل أين يمكن أن يكون الآن ، ولا أحرص على أن أعرف ...

ـ لكن أخي أسرّ اليّ أنك تطلعه على كل ما يحدث في الدار ، وأنك وعدته بابلاغه عن مجيء آجرافين ألكسندروفنا .

فرفع سمردياكوف بصره الى أليوشا ببطء دون أن يضطرب . ثم قال وهو يحدّق الى أليوشا ويتفرس فيه :

ـ هل يمكنني أن أسألك أنا أيضا كيف فعلت حتى استطعت أن تدخل الى هنا رغم أن باب المدخل مقفل بالمفتاح منذ أكثر من ساعة ؟

قال أليوشا :

ـ مررت بالزقاق وتخطيت السياج لأصل الى الكشك رأساً .

ثم أضاف يقول مخاطبا ماريا كوندراتفنا :

ـ أرجو أن لا تؤاخذيني على عدم تحرجي . لقد كنت أحرص على أن أرى أخي بأقصى سرعة .

فأجابت المرأة الشابة تقول بصوت ممطوط وقد بدا واضحاً أن اعتذار أليوشا اليها قد سرها كثيراً :

ـ كيف أؤاخذك ؟ ان دمتري فيدوروفتش يسلك هذا الطريق

نفسه لبلوغ الكشك ، فما ان نلاحظ وصوله حتى يكون قد استقر فيه .

ـ لا بد لى أن أراه حتماً . اننى أبحث عنه فى كل مكان . ألا تستطيعين أن تقولى لى أين يمكننى أن أعثر عليه الآن ؟ ان الأمر أمر مسألة تهمه كثيرا .

فتمتمت المرأة الشابة تقول :

ـ انه لا يطلعنا على تنقلاته .

واستأنف سمردياكوف كلامه فقال :

ـ اننى أجىء الى هنا زائراً ، فاذا هو يلاحقنى حتى الى هذا المكان ليسألنى عن أخبار سيدى . لقد طالبنى بأن أذكر له ماذا يفعل أبوه ، ومن يدخل الدار ومن يخرج منها ، وكل ما يمكننى أن أطلع عليه من أمور أخرى . حتى لقد هدّدنى بالقتل مرتين !

ـ بالقتل ؟ لماذا ؟

ـ انه ، بما له من طبع خاص ، لا يتورع عن شىء ... ولقد أتيح لك أن ترى ذلك بنفسك أمس على كل حال . لقد أنذرنى بأن عاقبتى ستكون وخيمة اذا أنا تركت لآجرافين ألكسندروفنا أن تدخل وأن تقضى ليلةً فى الدار . اننى أخافه وأخشاه ، ولولا أنه يثير فى نفسى هذا الجزع كله اذن لأبلغت عنه السلطات . الله وحده يعلم مايمكن أن يفعله دمترى فيدوروفتش !

وأضافت ماريا كوندراتفنا تقول :

ـ وقد صرّح له منذ أيام بأنه سيسحقه بالهاون سحقاً ، ويدقه دقاً ...

قال أليوشا :

ــ لئن تكلم عن الهـــاون ، فليس الأمر بالجد . ليتنى أستطيع أن أعثر عليه الآن ، اذن لقلت له كلمةً عن هذه التهديدات أيضا .

قال سمردياكوف وكأنه قد غيَّر رأيه فجأة :

ــ اليك المعلومات الوحيدة التى أستطيع أن أنهيها اليك . اننى أجىء الى هنا كصديق قديم ، ولِمَ لا أزور جيرانا ؟ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان ايفان فيدوروفتش قد أرسلنى فى ساعه مبكرة من هذا الصباح الى أخيك فى « شارع البحيرة » . لقد كلفنى ، دون أن يحملنى رسالة مكتوبة ، بأن أُعلم دمترى فيدوروفتس جهاراً أنه يرجوه ملحاً أن يجىء لتناول طعام الغداء معه فى الكاباريه الذى يقع فى الميدان . لم أجد دمترى فيدوروفتش فى مسكنه . كانت الساعة هى الثامنة صباحا . وقالت لى صاحبتا المنزل « ان دمترى فيدوروفتش قد خرج » . أنا مستعد لأن أحلف أنهما متواطئتان معه . من الجائز جداً أن يكون أخوك دمترى فيدوروفتش الآن فى ذلك الكاباريه مع ايفان فيدوروفتش ، لأن ايفان لم يرجع الى المنزل للغداء . أما فيدور بافلوفتش فقد تغدى أخيراً منـــذ ساعة ، ولا بد أنه الآن يُقيل . أتوسل اليك مع ذلك أن لا تحدِّث أخاك عنى ، وأن لا تقول له اننى ذكرت لك هذه المعلومات . فلقد يقتلنى اذا هو عرف ذلك !

سأله أليوشا كأنما ليتأكد من الأمر مزيدا من التأكد :

ــ هل ضرب ايفان موعدا لدمترى فيدوروفتش فى لكاباريه ؟

ــ تماما .

ــ أهو كاباريه « العاصمة الكبرى » الذى يقع فى الميدان ؟

ـ هو نفسه ٠

هتف أليوشا يقول وقد ألمّ به انفعال شديد :

ـ جائز جدا ٠ شكرا يا سمردياكوف ٠ هـــذه معلومات ثمينه ٠ سأذهب الى هناك فورا ٠

قال سمردياكوف ملحاً :

ـ اياك أن تفضحني !

ـ لا تخف ٠ سأتظاهر بأنني دخلت الكاباريه مصادفةً ٠

وبينما كان أليوشا يتجه نحـــو السياج ، هتفت ماريا كوندراتفنا قائلة :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟ سأفتح لك باب البستان ٠

ـ لا داعي الى ذلك ٠ من هنا أقرب ٠ سأتخطى السياج ٠

أحدث هذا النبأ في أليوشا أثرا قويا ٠ وأسرع متجهاً الى الكاباريه٠ ليس من الحشمة طبعا أن يدخل أليوشا الكاباريه وهو في مسوح راهب٠ ولكن أليوشا قد قرر أن يسأل عن أخويه دون أن يدخل الصالة ، وأن يستدعيهما اليه على السلّم ٠ وانه ليقترب من مبنى الكاباريه اذا بايفـان يناديه سائلا :

ـ هل تستطيع أن تجيئني الى هنا يا أليوشا ؟

ـ طبعا ٠ ولكنني أتحرج من الدخول بثوبي هذا ٠

ـ أنا في حجرة خاصة ٠ تعال الى سلّم المدخل ، فأتلقاك هناك ٠

وبعد دقيقة ، كان أليوشا يجلس الى جانب أخيه ٠ لقد كان ايفان وحيدا ، وكان يتناول غداءه ٠

٣

الإخـــوة يتعـــارفون

لم يكن ايفان يحتل حجرة خاصة بمعنى الكلمه • وانما كان جالساً قرب النافذة فى ركن تعزله عن الصالة حواجز • فالأشخاص الذين يجلسـون فى هذا المكان الخاص لا يراهم روّاد الكاباريه الآخرون • هى قاعة مدخل تفضى الى الصالات التى بعدها ، قد نصب « بوفيه » أمام جدارها الجانبى • والخدم يجتازون هذه القاعة فى كل لحظة • ولم يكن فى القاعة حينذاك الا زبون واحد هو ضابط محال على التقاعد كان يحتسى الشاى • ولا كذلك الصالات الأخرى فهى تزخـر بما تزخر بها أمثال هــــذه الأماكن عادةً من نداءات عالية ، وصرخات فرحة ، وقرقعات الزجاجات التى تُفتح ، وطقطقات الكرات على مائدة البلياردو ، مع أصوات أرغن بربارى تشق هذه الجلبة كلها •

كان أليوشا يعلم أن أخاه ايفان لا يكاد يرتاد هذا الكاباريه أبدا ، لأنه لا يحب جو الأماكن التى من هــــذا النوع على وجه العموم • فقال أليوشا لنفسه : « فانما هو جاء اذن ليلقى دمترى ، ولكن دمترى لم يلبّ دعوته » •

قال ايفان وكان يبدو سعيدا بحضور أليوشا :

ـ هل تريد أن آمر لك بحساء سمك ؟ يخيّل الىّ أنك لا تتغذى بالشاى وحده !

وكان ايفان قد فرغ من تناول طعامه ، فهو الآن يحسو فنجاناً من الشاى • أجابه أليوشا مبتهجاً مرحاً :

ـ يسرنى أن أصيب طبقاً من حساء السمك ؛ واطلب لى كذلك شايا ، فاننى جائع •

ـ فما قولك اذن بشىء من مربب الكرز ؟ ان عندهم هنا مربّب كرز • وعهدى بك أنك كنت تحب هذا المربب فى الماضى حين كنت صغيرا وكنا نعيش كلانا عند أسرة بولينوف • أما تزال تتذكر هذا ؟

ـ أأنت تتذكره اذن يا ايفان ؟ موافق على المربب ، فاننى ما أزال أحبه كما كنت أحبه فى الماضى •

نادى ايفان الخادم وأمر بطبق من حساء السمك ، وبشاى ، وبمربب كرز •

ـ اننى أتذكر طفولتك يا أليوشا حتى الحاديه عشرة من عمرك • وكنت أنا عندئذ فى الخامسة عشرة • ما كان يمكن أن تنعقد أواصر رفاقة بين أخوين فى ذلك العمر اذا كانت تفصل بينهما أربع سنين • ولست على يقين من أننى أحببتك فى ذلك الأوان • وبعد سفرى من موسكو لم تخطر ببالى قط أثناء السنين الأولى • حتى اذا جئتَ بعد ذلك الى موسكو أنت أيضا ، لم أصادفك الا مرةً واحدة لا أدرى أين ! وهاأناذا أعيش هنا منذ أكثر من ثلاثة أشهر ، دون أن يتاح لنا أن نتبادل حديثا حقيقيا مرة واحدة • وانى مسافر غدا ، لذلك تساءلت منذ لحظات: « ترى أين يمكن أن أجده لأودّعه ! » وفيما أنا أتساءل هذا التساؤل لمحتك من النافذة •

ـ أكنت تحرص حرصا كبيرا على أن تراني اذن ؟

ـ نعم ، حرصا كبيرا . انني أود أن أعرفك مرةً ، وأن تعرفني كذلك مزيدا من المعرفة . ان أفضل لحظة للتعارف هي في رأيي اللحظة التي تسبق الفراق . لقد راقبت تعبير نظراتك خلال هذه الأشهر الثلاثة. كان في عينيك انتظار دائم وتوقع مستمر ، وهذا ما لا أستطيع أن أحتمله. لذلك لم أحاول أن أقترب منك . ولكنني تعلمت أن أحترمك . قلت لنفسي : « ما يزال الرجل الصغير ثابتا على مواقعه » . انني أمزح قليلا ، ولكنني أتكلم الآن جاداً . أنت فتى ثابت جدا ، أليس هذا صحيحا ؟ وأنا امرؤ يحب الثبات كيف ظهر وأين ظهر ، حتى لدى صبية صغار مثلك . لهذا أصبحت نظراتك التي تعبّر عن الانتظار والتوقع لا تسوءني ولا تنفّرني ، حتى لقد أصبحت محبّبةً اليّ ... يبدو لي أنك تحبني يا أليوشا ، أليس كذلك ؟

ـ أحبك يا ايفان . دمتري يصفك بأنك « قبر » ، أما أنا فأقول انك لغز . ولم أستطع أن أحل هذا اللغز حتى الآن . هناك نقطة مع ذلك أحسب أنني أبصرتها واضحةً في نفسك ، ولكن منذ هذا الصباح فحسب .

سأله ايفان ضاحكاً :

ـ فما هي ؟

ـ ألن تغضب ؟

ـ طبعا لا ...

ـ اذن فاعلم أنني اكتشفت أنك شاب شبيه سائر الشباب الذين هم في الثالثة والعشرين من أعمارهم ، تزخر فتوة ونضارة وعفوية مثلهم ، ويعوزك النضج كما يعوزهم ، أي ... هل كدّرك قولي هذا كثيرا ؟

ـ بالعكس ! بل أدهشني صدق رأيك ، وهو يتفق ورأيي • لقد كنت منذ لقائنا في هذا الصباح أفكر في هذا الجانب من طبيعتي ، في هذا الفتوة العارمة الجامحة التي تزخر بها سنتي الثالثة والعشرون ، فاذا أنت تقع على هذه الحقيقة دفعة واحدة ! ••• هل تعلم بماذا كنت أحدّث نفسي قبل وصولك ؟ كنت أقول لنفسي : مهما تخيب الحياة ظني ، ومهما أفقد ايماني بالمرأة التي أحبها ، ومهما أقتنع بأن الكون سديم ملعون لعله خاضع لمشيئة الشيطان ، فلن يغير هذا من الأمر شيئاً ••• قد أغوص في جميع وهاد اليأس الانساني ، ثم أظل أحب الحياة مع ذلك ورغم كل شيء • أود لو أعب كأس الحياة متلذذا حتى الثمالة ، وقد لا أستطيع تركه قبل أن أفرغه • ولكن حين أبلغ الثلاثين من العمر فقد أرمي الكأس قبل نفاده ، ثم أمضي ••• الى أين ؟ لا أدري بعد ••• أما حتى ذلك الحين ، أي الى أن أبلغ الثلاثين ، فان الشباب سينتصر على كل شيء ـ أنا واثق من هذا ـ سينتصر على تبدد الأحلام وعلى مشاعر الاشمئزاز • لقد تساءلت مرارا : « هل في هذا العالم يأس يمكن أن يخنق في نفسي هذا الظمأ الى الحياة ، هذا الظمأ المسعور الذي قد لايكون لائقاً ؟ » • وانتهيت الى الاعتقاد بأن لا ، ولكن حتى الثلاثين من عمري فحسب ، ثم أزهد وأعف من تلقاء نفسي بعد ذلك ••• فيما أظن ••• ان الواعظين بالأخلاق ، المصدورين الحزانى ، وكذلك الشعراء ، يحلو لهم أن يصفوا بالجبن والضعة هذا الحب الحارّ للحياة • ويجب أن نعترف على كل حال أن من السمات الخاصة بآل كارامازوف ارادة الحياة هذه بأي ثمن • لا بد أن تكون هذه الارادة قائمة فيك أنت أيضاً ، ولكن لماذا توصف بالجبن والضعة ؟ ان القوة الصادرة عن المركز لم تنفد في كوكبنا السيّار هذا يا أليوشا • الحياة ممتعة ، واني لأحيا ولو على خلاف كل منطق • أنا لا أؤمن بقيمة النظام الذي يحكم العالم • لنسلم بهذا •

ولكنني أحب وريقات الأشجار الطريات النديات حين تطلع فى الربيع * ، وأحب السماء الزرقاء ، وأحب أيضا دون أن أدرى لماذا ـ هل تصدق ذلك ؟ ـ أحب أيضا بعض البشر وتهزنى الحماسة لأعمال من أعمال البطولة الانسانية التى انقطعت مع ذلك عن الايمان بها منذ زمن طويل، ولكننى ما زلت أقدسها بحكم عادة عزيزة على نفسى أثيرة فى قلبى . جاءوك بحساء السمك . كُلْه وتذوقه . انهم يحسنون اعداده هنا . أنوى أن أسافر الى الخارج يا أليوشا . سأسافر الى الخارج من هنا رأساً. وانى لأعلم مع ذلك اننى لن أجد هنالك الا مقبرة ، ولكننى شديد الارتباط بذكرى هؤلاء الموتى . ان كل حجر يذكرنى بسورة جامحة من سورات الايمان بالحياة ، وبقيمة العمل ، وبالحقيقة ، وبالكفاح ، وبالعلم أيضا . أوه ! أنا أعلم سلفاً أننى سأرتمى على ركبتىَّ جاثياً أمام هذه الذكريات الكثيرة ، وأننى سأبكى على أحجار القبور هذه ، وأغمرها بالقبل ، مع شعورى فى قرارة قلبى بأن ذلك ماض تصرَّم وان يعود . على أننى لن أبكى من كرب ويأس ، بل من سعادة الشعور بانسكاب دموعى . سيسكرنى حزنى وحنانى . اننى أحب البراعم فى الربيع ، أحب السماء الزرقاء . ليس الأمر أمر عقل ومنطق . ان حب الحياة ينبجس من أرحامى ، وان قوى شبابى التى لم تضعف ولم تهن ولم يمسسها سوء هى التى أحبها هذا الحب . أأنت تفهم شيئا من هذه المعمَّيات يا صغيرى أليوشا ؟ هه ؟

ألقى ايفان هذا السؤال وهو يضحك . فأجابه أليوشا بقوله :

ـ أفهمها جدا يا ايفان ، أفهمها أكثر مما يجب ! من قرارة الأرحام انما ينبع حب الحياة ؛ لقد أجدت التعبير عن هذه الحقيقة . وانى لأبتهج لك كثيرا حين أراك راغبا فى الحياة رغبة قوية هذه القوة .

كذلك هتف يقول أليوشا ثم أضاف :

ـ وعندى أن على كل انسان فى هذا العالم أن يتعلم حب الحياة قبل كل شيء •

ـ حب الحياة لا محاولة فهمها ؟

ـ نعم ، حب الحياة ، دون اكتراث بالمنطق ، كما قلت أنت • وبهذا وحده انما يصل الانسان الى اكتشاف معنى الحياة • أنا من جهتى أفكر فى هذا منذ زمن طويل • لقد ملكت نصف الحقيقة ما دمت تريد أن تحيا ، ولم يبق عليك الا أن تملك نصفها الآخـــر حتى تحقق لنفسك الخلاص والسلامة •

ـ أأنت تهتم بخلاصى وسلامتى ؟ ماكنت أحسب أننى بسبيل الضياع والهلاك • وما هو النصف التانى فى رأيك ؟

ـ النصف الثانى هو بعث أولئك المـــوتى الذين لعلهم لم يبرحوا الحياة • اعطنى الشاى • اننى سعيد جدا بحديثنا هذا يا ايفان •

ـ ألاحظ فعلاً أنك تحمست قليلا • ما أكثر ما أحب « اعترافات الصدق » هـــذه التى يقولها ••• رهبـــان مبتدئون ! انك رجل ثابت يا أليوشا • هل صحيح أنك تفكر فى ترك الدير ؟

ـ صحيح ! ان شيخى أمرنى بالذهاب الى العالم •

ـ سوف نلتقى اذن ، سوف نلتقى اذن فى هـــذا العالم قبل حلول الثلاثين ، قبل أن أرمى الكأس • أبونا لا يريد أن يعدل عن التمتع بالحياة قبل أن يبلغ السبعين ، ولعله يحلم أن يعيش ثمانين عاما ، كما يقول ذلك هو نفسه • انه جاد فى هذا كل الجد ، مهما يكن مهرّجاً • انه يتهالك على اللذة ، ويحسب أنه مقيم عليها اقامته على صخرة وطيدة ••• صحيح أن الانسان لا يبقى له بعد الثلاثين شيء غير اللذة ••• ولكن الحياة على

على هذا الطراز حتى السبعين شيء معيب مقيت . فالأفضل أن يمسك المرء حين يبلغ الثلاثين . وبذلك يستطيع أن يحافظ على « مظهر نبلٍ » في أقل تقدير ، كاذباً على نفسه . هل رأيت دمتري اليوم ؟

ـ لا ... ولكنني رأيت سمردياكوف .

وقصّ أليوشا على أخيه بسرعةٍ تفاصيل لقائه بالخادم . فكان ايفان يصغي اليه وقد اكتسى وجهه تعبيرا عن الهمّ والقلق على حين فجأة ، حتى أنه استوضح أليوشا بعض النقاط .

وأضاف أليوشا قوله :

ـ وقد ألحّ سمردياكوف على أن لا أذكر لدمتري شيئا مما أسرّ به اليّ .

فقطب ايفان حاجبيه ، ووجم يفكر لحظة .

سأله أليوشا :

ـ أبسبب سمردياكوف ألمّ بك هذا الانزعاج ؟

ـ نعم ، بسببه . شيطان يأخذه على كل حال !...

ثم أضاف يقول كأنما على مضض :

ـ حقاً لقد كنت أرغب في أن أرى دمتري ، ولكن لم تبق بي حاجة الى ذلك الآن .

ـ هل تنوي أن تسافر بمثل هذه السرعة فعلاً ؟

ـ نعم .

فسأله أليوشا قلقاً :

ـ ما عسى يصير اليه حال دمترى والأب ؟ ترى كيف ينتهى هـذا الأمر كله ؟

ـ انك ما تفتأ تعود الى هذا الموضوع ! فيم يعنينى نزاعهما ؟ أأنا حارس لأخيك ؟

كذلك أجاب ايفان بلهجة حانقة ، ولكنه لم يلبث أن تدارك نفسه ، فابتسم ابتسامة مرة وقال :

ـ ذلك جواب قابيل لله عن الأخ الذى قتله قابيل، أليس هذا ماخطر ببالك فى هذه اللحظة ؟ الى جهنم على كل حال ! ... أنا لا أستطيع أن أبقى هنا لأراقبهما ! لقد أنهيت أعمالى ، وسأسافر . أتراك تتخيل أننى غيور من دمترى ، واننى حاولت خلال هذه الأشهر الثلاثة المنصرمة أن أنتزع منه جميلته كاترين ايفانوفنا ؟ دعك من هذا ! لقد كانت لى أنا شئونى وأعمالى . وقد أنجزتها فسأسافر . أنجزتها فى هذا الصباح ، وكنت أنت شاهدا عليها .

ـ هل تعنى ذلك الحديث الذى جرى بينك وبين كاترين ايفانوفنا ؟

ـ نعم . لقد قطعت صلتى بها دفعة واحدة . أليس هذا طبيعيا جدا ؟ فيم يهمنى دمترى ؟ انه لا شأن له بهذا الأمر ، ولا دخل له فيه. كانت علاقاتى بكاترين ايفانوفنا شأناً خاصاً بى . ثم انك تعـرف أنت نفسك أن دمترى قد تصرف فى هذا الأمر كله تصرف متواطىء معى . أنا لم أطلب منه شيئاً ، وانما هو تركها لى من تلقاء نفسه ، وزاد على ذلك فبارك . لكأنها تمثيلية . أف ... ليتك تعـلم يا أليوشا مدى شعورى بالتخفف الآن ! حين كنت أتناول غدائى منذ قليل هنا ، اشتهيت أن أطلب شيئاً من الشمبانيا احتفالاً بأول ساعة من ساعات حريتى التى عادت الىّ . حين أفكر فى هذا الأمر ... آه ... لقد دام ستة أشـهر ، وهأنذا

أتحرر دفعةً واحدة . حتى أمس ، ما كنت لأتخيل أنني سأستطيع أن أقطع الصلة بمثل هذه السهولة متى شئت !

ـ أعن حبك تتكلم يا ايفان ؟

ـ عن الحب أتكلم ان شئت أن تستعمل هذا التعبير . لقد عشقت آنسة من الآنسات ، فتاةً هي طالبة في مدرسة داخلية ؟ فتألمت ، وجعلتني هي أتألم . وكنت أحسب أنني مشدود اليها ... ثم اذا بكل شيء يتبدد في طرفة عين . في هذا الصباح كنت أكلمها مستهاماً ، حتى اذا صرت في الشارع انطلقت أضحك ضحكا مجلجلا ، هل تصدق هذا ؟ تلك هي الحقيقة بعينها مع ذلك .

قال أليوشا وهو يتفرس في وجه أخيه الهادىء المطمئن :

ـ أنت حتى في هذه اللحظة تتكلم في الأمر بمرح وحبور .

ـ كيف كان يمكنني أن أحزر أنني لا أحبها البتة ؟ هأهأ ! ... ومع ذلك فهذه هي الحقيقة . أنا لا أحبها . وضح هذا الآن . ولكن ما أكثر ما كانت تعجبني ! في هذا الصباح نفسه ، حين أجريت معها ذلك الحديث ، كنت لا أمل ولا أكل من الاعجاب بها ! وحتى في هذه اللحظة تعجبني كثيرا ، هل تصدق ؟ ورغم هذا فما كان أسهل تركها عليّ ! أتحسبني أقول هذا الكلام تباهياً وتبجحاً ؟

ـ لا ... ولكن لعله لم يكن بالحب حقاً ؟

قال ايفان ضاحكا :

ـ يا صغيري أليوشا ، لا تندفع في اصدار آراء في الحب ! ذلك لا يناسب حالتك . انني أفكر في اندفاعك هذا الصباح يا بني ! أي .. كان ينبغي لي أن أقبلك عندئذ ! ومع ذلك ما أشد ما آلمتني وعذبتني ! ...

لقد اضطررت أن أحتمل جميع تلك التمزقات . أوه ! كانت تعلم حق العلم أنني أحبها . وكانت تحبني أنا لا دمتري (قال ذلك مرحاً) ، ولم يكن دمتري الا عذراً لها وتعلة في سبيل أن تعذب نفسها . ان كل ماقلته لهـا هو الحق ، هو الحق اطلاقاً . ولكن من المؤسف أنهـا تحتـاج الى خمسة عشر عاما أو الى عشرين عاما أخرى ـ وهذا هو الشيء الأساسي ـ من أجل أن تدرك أخيرا أنها لا تحب دمتري البتة ، ولا تحب أحداً سواي رغم أنها تؤلمني وتعذبني . وقد لا تدرك هذه الحقيقة في يوم من الايام على كل حال ، رغم درس هذا الصباح ! بالمناسبة ، ما الذي صارت اليه ؟ ماذا حدث بعد انصرافي ؟

أطلعه أليوشا على النوبة العصبية التي ألمت بهـا ، وذكر له أنها ما تزال مغشياً عليها في أغلب الظن ، وأنها ما تزال تهذي .

ـ لعل هوخلاكوفا قد بالغت ؟

ـ لا أظن .

ـ يجب أن أذهب أستطلع أنباءها . على كل حال ، لا أحد يموت من نوبة عصبية !... ولقد يحسن اليها هذا .. قد ينفعها ولا يضرها ... ان الرب قد شاء كرمه أن يهب للنساء هذه النعمة : النوبات العصبية . لا ... لن أذهب اليها ! فيم استئناف الامر ؟

ـ زعمت لها منذ قليل أنها لم تحبك يوماً .

ـ زعمت ذلك عامدا يا أليوشا ! سأطلب شيئاً من الشمبانيا فنشرب احتفالا باستردادي حريتي . ليتك تعلم مدى ما أشعر به من سعادة !

أجابه أليوشا بحرارة قائلا :

ـ أخي ، الأفضل أن لا تشرب . انني أحس بحزن شديد . ثم ان ...

ـ أنت حزين منذ زمن طويل ، لقد لاحظت أنا هذا •

ـ أأنت مصر" على أن تسافر غدا فى الصباح ؟

ـ لماذا فى الصباح ؟ أنا لم أقل اننى مسافر فى الصباح ••• على أننى قد أفعل • هأنت ذا ترى أننى أصبت غدائى هنـا حتى لا أخلو الى العجوز على مائدة واحدة ، فالى هذا الحد يثير العجوز اشمئزازى ••• كان يمكن أن أسافر منذ زمن بعيد لأتحرر من وجوده • ولكن لمـــاذا يقلقك سفرى هذا الاقلاق ؟ ما يزال أمامنا وقت طويل ، ما يزال أمامنا أبد" تقريبا •••

ـ أيكون أمامنا أبد" وأنت مسافر غدا ؟

قال ايفان ضاحكاً :

ـ فيم يهمنا هذا السفر ؟ سيكون لنا من الوقت متسع لأن نتحـدث عما يهمنا نحن الاثنين ، لأن نتحدث عما جمعنا فى هذا المكان • لمـــاذا تنظر الى" بهذه الدهشة ؟ ما هو الأمر بالنسبة الينا ؟ أجب ! أنحن هنا من أجل أن نتحدث عن الحب ، وعن كاترين والعجـــوز ودمترى ، وعن ظروف الحياة فى الخارج ، وعن أحوال روسيا المتردية وعن الامبراطور نابوليون ؟ أنحن هنا من أجل أن نتحدث فى هذه الأمور ؟

ـ لا ••• طبعا •••

ـ هأنت ذا تدرك بنفسك اذن ما يجمعنا هنا • هناك أناس آخرون يتناقشون فى شئون هذا العالم ، أما نحن ، نحن الأغرار البسطاء ، فنريد أن نحل" أولا" مشكلات الحياة الميتافيزيقية • ذلك هو همنا نحن شباب" روسيا • ان جميع شباب روسيا يعالجون الآن ألغاز الكون الخالدة • وقد اختاروا للاهتمام بهذه الألغاز الكونية الخالدة اللحظة التى قرر الشيوخ

فيها أن يدرسوا المسائل العملية • ما الذى كان يدفعك طـوال هـذه الأشهر الثلاثة الى أن تنظر الىّ نظرةً فيها ذلك التعبير عن الانتظار ؟ كنت تريد أن تعرف أأنا مؤمن أم ملحـد ••• ذلك ما كان يثوى فى أعمـاق نظرتك منـذ ثلاثة أشهر ، أليس هذا صـحيحا يا ألكسى فيدوروفتش ؟

أجاب أليوشا مبتسما :

ـ جائز جدا • ولكننى أرجو أن لا تكون فى هذه اللحظة بسبيل السخر منى والضحك على يا أخى •

ـ أأنا أسخر ، أنا ؟ ألا اننى لا أحب أن أشجى قلب أخى الصغير الذى يبدو أنه انتظر منى أشياء كثيرة طوال هذه الأشهر الثلاثة • أليوشا، انظر الىّ جيداً • ألست ، أنا أيضا ، فتى صغيرا مثلك ، مع فارق واحد هو اننى لست راهبا مبتدئاً ؟ كيف يتصرف اليوم شبابنا الروس أو بعضهم على الأقل ؟ انهم يلتقون فى خمارة تفـوح فيها رائحة كريهـة كهذه الحجرة ، ويجلسـون الى مائدة ••• لقد عاشـوا دون أن يتعـارفوا حتى الآن ، وسينكر بعضهم بعضا من جديد ، بعد اربعين عاما ، متى خرجوا من الخمارة ! ••• فمـا الذى يتناقشـون فيه أثناء هـذه اللحظـات القصار التى تتيحها لم المصادفة فى كاباريه ؟ يتناقشون فى الكون وسرّ الكون حتماً • هم يتساءلون : هل الله موجود ، وهل النفس خالدة بعـد الموت ؟ والذين أصبحوا منهم لا يؤمنون بوجـود الله ، يتنـاقشون فى الاشتراكية والفوضوية ، وفى اعادة بناء الانسانية بناءً كاملاً على أسس جديدة ؟ والفريقان كلاهما سواء • فالمشكلات التى يعالجها هؤلاء ، هى المشكلات التى يعالجها أولئك ، ولكنهم يعالجونها من الجهة المعارضـة• ان عددهم لا يُحصى فى بلادنا ، هؤلاء الشبان الروس ، الذين يفيضون

أصالة وطرافة والذين أصبحوا الآن لا يجيدون أن يناقشوا الا المسائل الأبدية • ألستَ متفقاً معى فى هذا الرأى !

أجاب أليوشا أخاه وهو ينظر اليه نظرة مشفوعةً بابتسامة رقيقة عذبة ، كأنما ليشجعه على أن يفصح عن أعماق فكره مزيدا من الافصاح:

ــ حتماً • ان المسائل المتصلة بوجود الله وخلود النفس أو هذه المسائل نفسها التى تعالَج من الجهة المعارضة كما قلت ، هى فى نظر الروسى الحق ذات خطورة حيوية ، ومن الخير جدا أن تكون كذلك •

ــ اعلم يا أليوشا أن الروسى لا يلمع دائماً بالذكاء والعقل ، واعلم على كل حال أن هذه الأمور التى تشغل بال الشبان فى روسيا هى أغبى ما يمكن أن يتصوره الخيال من أمور • غير أن بين هــؤلاء المراهقين واحدا أحبه كثيرا يا أليوشا •

قال أليوشا ضاحكا :

ــ هذه نتيجة بلغت فى استخلاصها غاية اللطف •

ــ بماذا تريد أن نبدأ ؟ اننى أترك لك الخيار • هل تريد أن نتكلم عن الله وأن نتساءل أهو موجود أم لا ؟ قل •••

ــ ابدأ من حيث تؤثر أن تبدأ ، ولو بمعالجة تلك المســائل التى وصفتها بأنها تعالَج من « الجهة المعارضة » • ألم تؤكد أمس ، فى منزل أبينا ، أن الله غير موجود ؟

كذلك سأل أليوشا أخاه ، وهو يحدق اليه متفرساً فيه •

ــ تعمدت أن أقول ذلك بالأمس لدى العجوز لأناكدك وأغيظك ، ورأيت لهيباً ينبجس فى عينيــك • أما الآن فأنا أشــعر بأننى على أتم الاستعداد لأن أناقش هذا الامر معك ، ولسوف أناقشه جاداً لا هازلاً •

انني أحب كثيرا أن أتفاهم معك يا أليوشا ، لأنني لست لى أصدقاء . انني أحاول أن أقترب منك .

قال ايفان ذلك ثم أضاف يسأل أخاه ضاحكا :

ـ هل تتصور أنني ربما سلّمت بوجود الله ؟ هذا يدهشك ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ... اللهم الا أن تكون مازحاً من جديد ؟

ـ مازحاً ؟ لقد أخذوا عليّ ذلك بالأمس ، عند شيخك ، ولكنهم أخطأوا . اسمع يا عزيزى : ان عجوزاً آثماً عاش فى القرن الثامن عشر قد قال : « اذا كان الله غير موجود فيجب اختراعه »* . والحق ان الانسان قد اخترع الله . وليس أغربَ ما فى الأمر ولا أبرزَه أن الله لا وجود له فى الواقع ، بل أن هذه الفكرة ، فكرة وجود الله بالضرورة ، قد أمكن أن تنبت فى دماغ حيوان يبلغ ما يبلغه الانسان من توحش وخبث وشر، ذلك أن هذه الفكرة فكرة مقدسة تؤثر فى لقلب ، وهى فى الوقت نفسه ذكية عاقلة . الحق أن هذه الفكرة تشرّف الانسان . أما أنا فقد قررت منذ أمد طويل أن لا أتساءل هل الله هو الذى تصور الانسان ، أم الانسان هو الذى تخيّل الله . فسأعفى نفسى اذن من فحص البديهيات التى يستند اليها شبابنا الروس فى هذه الأيام والتى يستمدونها فى حقيقة الامر كما هى من الافتراضات التى يفترضها الناس فى البلاد الأوروبية الأخرى . ذلك أن ما هو افتراض" لا أكثر ، فى نظر العلماء الأجانب ، سرعان ما يصبح بديهية فى نظر مراهقينا ، بل وفى نظر أساتذتهم الذين لا يفضلون المراهقين سدادَ رأى وصدق حكم فى كثير من الأحيان . فسأترك جانبا جميع الافتراضات اذن ، وأتساءل ما هى غايتنا الآن على وجه الدقة ؟

أما أنا فانما يهمنى أن أشرح لك طبيعتى بأقصى سرعة ممكنة ، يهمنى أن أفهمك أى انسان أنا ، وما هو ايمانى ، وأين أضع آمالى ؟ لذلك سأقول لك فوراً اننى أسلم بوجود الله دون مناقشة أخـرى • ولكننى أحب أن تلاحظ ما يلى : اذا كان الله موجوداً ، واذا كان قد خلق الأرض فعلاً ، فهو انما اتبع فى هذا الخلق ، كما أصبحنا نعرف ذلك اليوم حق المعرفة ، قوانين هندسة اقليدس ، ولم يهب للعقل الانسـانى الا فكرة مكانٍ ذى ثلاثة أبعاد • ومع ذلك فقد وُجد وما يزال يوجد الى يومنا هذا أناس من أشهر علماء الهندسة ومن الفلاسفة يشكُّون فى أن يكون الوجود وأن يكون الخلق كله بوجه أعمّ ، مستنداً الى قوانين هندسة اقليدس وحدها؛ حتى ليقررون أن الخطين المستقيمين المتـــوازيين اللذين ترى هنـدسة اقليدس أنهما لا يمكن أن يتقاطعا على الأرض ، يمـــكن فى الواقع أن يتقاربا ويتلاقيا فى نقطة موجودة فى اللانهاية* . ولقد قلت لنفسى ياعزيزى: اذا كنت عاجزاً عن فهم هذه الحقيقة ، فلن أستطيع أن أعرف أى شىء عن مسألة الله ! اننى أعترف فى كثير من التواضع أننى لا أملك المواهب اللازمة للقطع برأى فى مسائل من هـــذا النوع ، لأن عقلى اقليـدسى قد خُلق للأرض ، ومن العبث الذى لا طائل تحته أن نشغل أنفسنا بأمور ليست من هذا العالم • وانك لتحسن صنعاً أنت نفسك يا أليوشا اذا أنت لم تفكر فى هذه الأمور ، واذا أنت لم تتساءل خاصةً هل الله موجود أم هو غير موجود ! هذه عناصر لا سبيل لعقلنا الى ادراكها ، لأن عقلنـــا قد خُلق لمعرفة مكان ليس له الا ثلاثة أبعاد • ذلك هو السبب فى اننى أسلم بوجود الله • ولست أسلم بوجود الله فحسب ، ولكننى أسلم أيضا بحكمته العليا وبغاياته ، رغم أن من المستحيل علينا أن ندرك هذه الغايات • اننى أؤمن بوجود نظام كونى شامل يضفى على الحياة معنى ، وأؤمن بانسجام أبدى علينا أن نذوب فيه جميعا ذات يوم فيما يبـــدو • أؤمن « بالكلمة » التى

يتجه اليها الكون ، « الكلمة التى هى الله » ، وهلمّ جرا الى غير نهـاية. لقد قيل فى هذا المجال كلام كثير مسرف فى الكثرة . ولكننى على طريق الصواب ، ألا ترى هذا الرأى ؟ فاعلم اذن الآن ، ختاماً لكل ماقلته ، أننى لا أقبل العالم على نحو ما خلقه الله ، ولا أستطيع الموافقة على قبوله ، رغم علمى بوجوده . لست أرفض الله ... افهمنى جيداً ... وانما أنا أرفض العالم الذى خلقه ولا أريده . وهأنذا أشرح لك ما أريد قوله : اننى أؤمن ايماناً جازماً ، كايمان طفل ، بأن آلام هذا العالم ستخف شيئاً بعد شىء وستزول آخر الأمر ، وأن هذه المهزلة الحقيرة ، مهزلة التناقضات الانسانية ستتبدد تبدد سراب باطل ، تبددَ شىء تافه اخترعه كائن ضعيف صغير ، وأنها ستتبدد تبدد الذرة فى ذهن اقليدس . أؤمن بأن حقيقة عليا ستنبثق فى خاتمة المطاف من هذه الحياة ، حين يتأكد الانسجام الأبدى ، فاذا هى تبلغ من السمو والنقاء أنها تهدىء جميع القلوب ، وتسكن جميع أنواع الغضب ، وتكفر عن جميع جرائم الانســانية ، وتفدى كل الدم الذى سُفح على الأرض. وهذه الحقيقة لن تتيح العفو عن جميع الأخطاء الانسانية فحسب ، كائنةً ما كانت تلك الأخطاء ، وانما هى ستسوّغها فوق ذلك . لنسلّم بهذا كله ! ولكن حتى فى هذه الحالة ، فاننى لن أقبل الأمر وان أريد أن أقبله ! ألا فلتلتق الخطوط المستقيمة المتـوازية ولأرها ، فاعترفَ بأنها التقت ، ولكننى لن أقبــل ذلك . تلك طبيعتى يا أليوشا ، وذلك احساسى بالعالم . لقد حدثتك حديثاً جاداً كل الجد فى هذه المرة . تعمدت أن أبدأ حديثنا على أغبى نحو ممكن ، ولكننى قدته الى حيث أبلغ اعترافاً كاملاً صادقاً ، لأن ذلك وحده يهمك . ليس الحديث عن الله هو ما كنت تريد أن تسمعه منى ، وانما كنت تريد أن تسمعنى متحدثاً عن نفسى ، بغية أن تعرف ما يدور فى نفس أخٍ تحبه . فهأنت ذا عرفت ذلك الان .

أنهى ايفان كلامه المطنب الطويل بفيض من عاطفة كان يبدو غير متوقع منه •

سأل أليوشا أخاه وهو يلقى عليه نظرة شاردة :

ـ قل لى : لماذا تعمدت أن تبدأ الحديث بيننا « على أغبى نحو ممكن » ؟

فأجابه ايفان بقوله :

ـ أولاً لأننى أحببت أن أجارى عادات الناس : فان الأحاديث حول هذا الموضوع فى روسيا غبية دائما • وثانيا لأن المرء يكون أقرب الى الحقيقة حين يكون غبياً • ان الغباء يمضى نحو الهدف رأساً ، دون لف ودوران غامضين • الغباء بساطة وايجاز ، أما الذكاء فمكر ومخاتلة • ان الفكر الذكى فاجر فاسد ، أما الغباء فمستقيم شريف • لقد شرحت لك يأسى ، وعلى قدر ما يكون الشرح غبياً ، يكون الأمر أفضل فى نظرى •

سأله أليوشا مرة أخرى :

ـ أتقول لى لماذا ترفض « قبول الخليقة » ؟

ـ طبعاً أقول لك • ليس هذا بسر • وأنا انما بدأت هذه المناقشة لأصل منها الى ذلك •

بهذا أجابه ايفان ، ثم أردف يقول وهو يبتسم ابتسامة بريئة كمراهق خجول :

ـ يا أخىّ الحبيب ! لست أريد بحال من الأحوال أن أصرفك عن ايمانك ، وأن أحوّلك عن اعتقاداتك ••• بالعكس ••• اننى أتمنى أنا نفسى أن أُشفى وأبرأ بالاتصال بك •

لم يره أليوشا يبتسم هذه الابتسامة فى يوم من الايام •

٤

التمرد

بدأ ايفان كلامه يقول :

يجب أن أعترف لك بهذا الأمر : اننى لم أستطع فى يوم من الأيام أن أفهم أن يحب المرء الناس القريبين منه • ففى رأيى أن أقرب الناس الينا يصعب علينا أن نحبهم أكثر مما يصعب علينا أن نحب غيرهم • ان الانسان لا يحب الا من بعد • لقد قرأت فى موضع ما أن رجلاً اسمه « يوحنا الرحيم » * (هو قديس من القديسين) قد تضرع اليه فى ذات يوم متشرد جائع مرتعد من شدة البرد أن ينجده ويدفئه • فأضجعه على سريره وأحاطه بذراعيه ونفخ فى فمه النتن المتقيح المصاب بمرض رهيب • اننى أعتقد اعتقاداً قاطعاً بأن اندفاعة هذا القديس مصطنعة ، وأنه لا يقوم بفعله هذا من تلقاء نفسه ، وانما هو يلزم نفسه به الزاماً باسم حبٍ لا يشعر به ، فكأنه قد قام بهذا الفعل بدافع التكفير عن ذنبه ، فهو يعاقب نفسه على افتقادها المحبة • اننا لا نستطيع أن نحب انساناً الا اذا ظل مختفيا عن نظرنا • فمتى لمحنا وجهه تبدد الحب •

قال أليوشا :

ـ هذه ملاحظة طالما ردَّدها الشيخ زوسيما • كان يقول ان وجه الانسان يخلق فى كثير من الأحيان حاجزاً يحول دون الحب لدى أولئك الذين لما يتعلموا بعد أن يحبوا • ومع ذلك فان فى الانسانية كثيرا من

المحبة ؟ ان هناك محبة تكاد تشـــبه محبة المسيح ... أنا أعـرف ذلك بتجربة يا ايفان ...

ـ جائز . أما أنا فلم أستطع أن ألاحظ ذلك ولا أن أفهمه ، وما أكثر الناس الذين يشبهونني من هذه الناحية ! وانما السؤال هو : هل يرجع هذا الى خبث القلب الانساني أم هو قانون طبيعي . واني لأرى أن محبة المسيح للناس معجزة لا يمكن أن تتحقق على هذه الأرض . ان المسيح اله ونحن بشر . لنفرض مثلاً انني قادر على أن أتألم كثيراً . ان من الصعب على شخص آخر غيري أن يعرف عمق الألم الذي أعانيـه ، وذلك لسبب بسيط هو أنه ليس أنا بل آخـــر . ثم انه يعزُّ على المرء دائماً أن يسلِّم بألم غيره (كما لو كان ذلك عزةً واباءً !) . فهل تعلم لماذا يعزُّ عليه أن يسلِّم بألمي ؟ ربما لأن رائحة فمي كريهة ، أو لأن وجهي غبي ، أو لأنني دست على قدمه في يوم من الأيام ! على أن الآلام أنواع : فهنـاك آلام تخفض قيمتنا أو تنقص قدرنا ، كالجـــوع مثلاً : فالناس تحب أن تصدقنا فيما يتعلق بهذا النوع من الآلام ، ليجعلوا من أنفسهم محسنين الينا بعد ذلك . أما اذا كان الألم أرفع من ذلك درجةً أو درجتين ، اذا كان ألماً نحتمله في النضال من أجل فكرةٍ مثلاً ، فان الناس يرفضون أن يصدِّقوه ، باستثناء قلةٍ قليلة . وهم لا يصدقونه لأنهم حين نظروا الى صاحبه رأوا أن رأسه ليس ذلك الرأس الذي لا بد أن يكون في نظرهم رأسَ من يتألم في سبيل قضية رفيعة تلك الرفعة كلها. وهم عندئذ يأبون أن يتعاطفوا معه أي تعاطف، دون أن يكون في موقفهم هذا شيء من روح الشر على كل حال. ان على الشحاذين المستعطين، ولا سيما حين تكون نفوسهم نبيلة ، أن يظلوا مختبئين عن الأنظار ، وأن لا يطلبوا الاحسان الا باعلانات ينشرونها في الجرائد . ان من الممكن أن يحب لانســان الانســان حباً مجرداً ، وأن يحبه في بعض الأحيان

فعلاً ، ولكن من بعد • أما من قرب فذلك يشبه أن يكون مستحيلاً • لو كانت الأمور تجرى كما تجرى على المسرح ، فى باليه نرى فيه الشحاذين يظهرون ، اذا ظهروا ، لا بسين اسمالاً من حرير ومغطين بتخاريم ممزقة ، ويطلبون الصدقة راقصين برشاقة ، فقد نعجب بهم عندئذ ، نعجب بهم ولكن دون أن نحبهم • حسبنا الآن ما قلناه حول هذا الموضوع • لقد كان فى نيتى ان أحدثك عن آلام الانسانية عامةً ، ولكننى أحسب أن من الأفضل أن نقتصر على آلام الأطفال وحدهم • ولئن كانت حجتى ستفقد من ذلك تسعة أعشار دلالتها ، فاننى أظل أحسب أن هذا أفضل• لسوف تكون المناقشة أقل مواتاةً لى بطبيعة الحال• ولكن الأطفال يمتازون على الأقل بأن المرء يستطيع أن يحبهم من قرب ، مهما تكن وساختهم ودمامتهم (وان كنت أعتقد أن وجه طفلٍ لا يمكن أبداً أن يكون دميماً) ؛ ثم اننى لا أحب أن أتكلم عن الكبار ، لا لأنهم يبعثون على الاشمئزاز ولا يستحقون الحب فحسب ، بل لأنهم ينمتعون من جهة أخرى بتعويض : فهم قد أكلوا تفاحة شجرة المعرفة وأصبحوا « شبيهين بالآلهة »، وما يزالون يأكلون منها ••• أما الأطفال فانهم لمّا يذوقوا تلك الثمرة ، فبراءتهم ما تزال سليمة لم يمسسها سوء • هل تحب الأطفال يا أليوشا ؟ أحسب أننى أعلم أنك تحبهم ، ولسوف تفهم اذن لماذا لن أحدثك الا عنهم • اذا اتفق للأطفال أن يتألموا ألماً قاسياً فى هذا العالم ، فذلك لا يمكن الا أن يكون بذنب آبائهم الذين أكلوا التفاحة ، ومن أجل أن يكفّروا عن تلك الخطيئة • ألا ان هذا فهم ليس من هذا العالم ، وسيظل قلب الانسان على هذه الأرض عاجزاً عن ادراكه• ان من الظلم أن يُعذَّب أبرياء ــ أبرياء الى هذه الدرجة من البراءة ــ لذنب اقترفه غيرهم • أنا أيضا أحب الأطفال كثيرا يا أليوشا ، تخيل هذا ••• سجّل هذا ! ان القساة الضوارى أصحاب الأهواء الجامحة ، من

أمثال آل كارامازوف ، كثيرا ما يحبون الأطفال • فالأطفال يختلفون عن الكبار اختلافاً عظيماً ما ظلوا صغاراً لما يتجاوزوا السابعة من أعمارهم ، حتى لكأنهم ينتمون الى نوع آخـــر لأن طبيعتهم ليست كطبيعتنا • انني أعرف حالة لص من اللصوص كان سجيناً فى أحد السجون • لقد اتفق لهذا اللص أثناء حياته أن قتل أسراً بكاملها فى المنازل التى تسلل اليهـا ليلاً ليسرقها ، فلم يوفر الأطفال ••• ومع ذلك استبدت بهذا الرجـل أثناء وجوده فى السجن عاطفة قوية نحـــو الصغار ، فكان يقضى وقته ناظراً من خلال الكوة الى الصبية يلهون ويتسلون فى ساحة السجن ، واستطاع أخيرا أن يكسب مودة واحد منهم ، فكان هذا يجىء يتحـدث معه بغير تخلف واقفاً تحت الكوة ••• لا شك فى أنك تتساءل يا أليوشا لماذا أقص عليك هذا كله ؟ ان بى صداعاً ، وهأنذا أشعر بحزن شديد على حين فجأة •

قال أليوشا قلقاً :

ـ انك تتكلم بطريقة عجيبة غريبة ، كأنك لا تملك وعيك كله •

وتابع ايفان كلامه يقول وكأنه لم يسمع ملاحظة أخيه :

ـ بالمناسبة ••• لقد قص علىّ بلغارى فى الآونة الأخيرة بموسكو أن الأتراك والشراكسة يعمدون فى بلاده بلغاريا الى أنواع شديدة من القسوة بغية ارهاب الشعوب السلافية التى يخشون أن تثور عليهم ثورة عامة شاملة• فهم يحرقون القرى ، وينهبون الأرزاق، ويذبحون السكان، وينتهكون النساء والأطفال ، ويسمّرون بعض السجناء من آذانهم بسياج فيدعونهم هنالك طول الليل ثم يعودون اليهم فى الصباح ليشنقوهم • أمور تفوق الخيال • يقال أحيانا ان الانسان « حيوان كاسر » • ألا ان فى هذا القول اهانةً للحيوانات لا داعى اليها : فالحيوانات لا تبلغ مبلغ البشر فى

القسوة أبداً ، وهي لا تتفنن فى قسوتها تفنن الانســان • النمر يكتفى بتمزيق فريسته والتهامها • انه لا يمضى الى أبعد من ذلك ، ولا يخطر بباله يوماً أن يسمـّر أحداً من أذنيه بسياج ، ولو قدر على ذلك • وأولئك الأتراك يتسلـّون خاصةً بتعذيب الأطفال تعذيباً سادياً • انهم ينتزعـون بالسيف صغاراً من أحضان أمهاتهم ويرمونهم من النوافذ فيتلقفهم فى الفناء أتراك آخرون بأسنة الرماح على مرأى من أمهاتهم اللواتى يعدُّ حضورهن أهمَّ عنصر من عناصر هذه المتعة • ولقد حفظت ذاكرتى على الخصوص مشهداً وُصف لى : أمٌّ ترتجف جزعاً وهلعاً وفى يديهـا طفل صغير ؛ وأتراك يحيطون بها ويتخيلون لعبةً صغيرة • انهم يلاعبون وجه الطفل ويلاطفونه ويسلـّونه ويضحكونه • والطفل سعيد فها هو ذا يمد اليهم ذراعيه • وفى تلك اللحظة يصوّب اليه أحد الأتراك مسدسه، فينفجر الطفل ضاحكاً ، ويمد يديه الصغيرتين ليتناول المسدس ، فيضغط الفنان عندئذ على الزناد فينطلق الرصاص ويهشّم جمجمة الصبى ••• أليس هذا فناً فى الواقع ؟ يظهر أن الأتراك يحبون الحلاوى •••

ـ أخى ، الى ماذا تريد أن تنتهى ؟

ـ أعتقد أنه اذا لم يكن الشيطان موجودا ، واذا كان الانسان قـد خلقه ، فلا شك فى أن الانسان قد خلقه على صورته هو •

ـ كما خلق الله اذن ؟

ـ انك تجيد قلب الألفاظ كما يقول بولونيوس فى « هملت » •

كذلك قال ايفان ضاحكاً ، وتابع كلامه يقول :

ـ هذه حرب شريفة ، وأنا أقبلها • ألا فاعترف مع ذلك أنه جميل الهك اذا كان الانسان قد خلقه على صورته • لقد سألتنى الى أين أريد

أن أنتهى ؟ انني امرؤ يجمع وقائع شتى يقتطفها مصادفةً من الجرائد أو من أحاديث الناس ثم يدونها على الفور . تخيل هذا . لقد جمعت منذ الآن حصاداً كبيراً من هذه الوقائع . والأتراك يحتلون فى هذه الوقائع مكانا كبيرا بطبيعة الحال ، ولكن الأتراك أجانب . وأنا أملك كذلك وقائع كثيرة عن حالات روسية صرفة تفوق حتى وقائع البلاد الأخرى . فى بلادنا روسيا انما يُعمد خاصةً الى السوط والعصا ... هذا اختصاص قومى لنا ان صح التعبير . نحن لا نسمِّر الناس من آذانهم ، لأننا أوروبيون رغم كل شىء . ولكننا فى مقابل ذلك نملك السياط والعصى ، وما من أحد يستطيع أن ينتزعها منا . يظهر أن الناس فى البلاد الأجنبية قد عدلت عن هذه الأساليب . فاما أن العادات هنالك أصبحت أقرب الى اللين ، واما أن القوانين النافذة هنالك أصبحت لا تجيز للانسان أن يجلد أخاه الانسان . على أن الانسان قد وجد هنالك ما يعوِّض به ما افتقده تعويضاً يتصف كذلك بطابع قومى خاص فيبدو للوهلة الأولى مستحيلاً فى بلادنا . على أن هنالك علامات تدل ، والحق يقال ، على أن أساليب التعويض هذه قد أخذت تتسرب الى روسيا منذ زمن ، ولا سيما بفضل الحركة الدينية التى تنتشر فى الآفاق العليا من مجتمعنا . ان عندى نشرة شائقة* مترجمة عن الفرنسية تروى قصة اعدام مجرم فى مدينة جنيف هو قاتل شاب اسمه ريشار فى الثالثة والعشرين من عمره ، فيما أظن ، قد ندم على فعلته واعتنق المسيحية قبل أن يصعد الى المقصلة . ان الواقعة حديثة قد وقعت منذ حوالى خمس سنين . وريشار هذا زنيم كان أبواه قد « أهدياه » وهو فى السادسة من عمره الى رعاة جبليين ربُّوه بغية أن يعمل لهم بعد ذلك . شبَّ الصبى كحيوان صغير متوحش . والرعاة الذين تبنوه لم يعلموه شيئاً ، وأرسلوه يحرس القطعان منذ بلغ السنة السابعة من عمره دون أن يلبسوه ودون أن يطعموه تقريباً ، وذلك فى

جميع الفصول والأجواء . وكانوا يعاملونه هذه المعاملة دون أن يشعر ضميرهم بأن عذاب ، لأن الصبي كان قد « أُهدي » اليهم كما يُهدى شيء من الأشياء ، فهم لذلك لا يعتقدون أن من واجبهم أن يطعموه كما يجب أن يطعموه لقاء ما يقوم به من عمل . وقد روى ريشار هذا أمام المحكمة أنه كان يتفق له خلال هذه السنين (كالابن الضال الذي يحدثنا عنه الانجيل) أن يشتهي أن يأكل ثمار الخروب التي كانت تُعلف بها الخنازير المسمَّنة للبيع . ولكن لم يكن يُسمح له بذلك ، وكان يُضرب اذا سرق بعضها من المذود . هكذا عاش ريشار سني طفولته وشبابه الى الساعة التي شب فيها عن الطوق وشعر بأنه أصبح قوياً ، فترك الرعاة وأخذ يسرق . وأصبح هذا المتوحش يجني رزقه في جنيف من العمل بأجر يومي ، ولكنه كان ينفق ما يجنيه في السكر ويعيش حياة كريهة مستهجنة . وانتهى به الأمر الى قتل رجل عجوز في سبيل أن يسلبه ما معه . وقد اعتقل وحوكم وحكم عليه بالاعدام . ان الناس ليسوا عاطفيين في البلاد الأجنبية . وسرعان ما وجد نفسه في السجن محاطاً بقسيس بروتستانتي وأعضاء جمعيات دينية مختلفة وسيدات من مترئسات الأعمال الخيرية ، الخ ؟ فاذا هو أثناء مدة اعتقاله يُعلَّم القراءة والكتابة ويفسَّر له الانجيل ويوعظ ، ويُرد الى الصواب ، ويُلام ويقرَّع ، ويؤنب ويوبخ ، وتُشرح له العقيدة ويُلقن تعاليم المسيحية ، فاذا هو يعلن جهاراً في ذات يوم أنه نادم على فعلته وأنه تاب وأناب . وقد وجه الى المحكمة رسالة يصف فيها نفسه بأنه كان شيطاناً رجيماً ، وأضاف الى ذلك قوله ان الرب قد أدركه أخيراً برحمته فهداه الى الحق وأتم عليه نعمته . وقد اهتزت المدينة كلها للأمر ، فاذا جنيف الفاضلة العاقلة الحكيمة تغلي وتفور ، واذا جميع الناس في المجتمع الراقي ، اذا جميع « الأخيار » يريدون أن يزوروه في سجنه : حضنوه وعانقوه وقبّلوه ، وقالوا له :

« أنت أخونا وقد أدركتك نعمة الله » ، فكان ريشار يبكي حنانا ويكرر قوله : « نعم لقد أدركتني نعمة الله • كنت أثناء طفولتي وشبابي أحسد الخنازير على طعامها ، وها هو ذا الرب يرسل الي الآن نعمته • سأموت في صلح مع الله » ؟ فيجيبه الآخرون : « نعم ما تقول يا ريشار ، ستموت متصالحاً مع الرب • لقد سفحت دماً فيجب أن تموت • صحيح أنك لم تكن مذنباً اذ جهلت الله أيام كنت تحسد الخنازير على علفها وأيام كنت تُضرب اذا أنت سرقت بعض هذا العلف من مذودها (وأنت مخطىء في ذلك على كل حال لأن السرقة حرام) ، ولكنك سفكت دماً فلا بد أن تموت•» • وحان اليوم الأخير • فكان ريشار ، وقد ضعف ضعفاً شديداً، ما ينفك يردد بغير كلال ولا ملال : « هذا أسعد يوم في حياتي ، فانني ذاهب الى ملكوت الرب » ، وكان القسس والقضاة والسيدات رئيسات الجمعيات الخيرية يرددون بعده متنافسين : « نعم نعم ••• هذا أسعد يوم في حياتك ، لأنك ذاهب الى ملكوت الرب ! » • وقد رافق هذا الجمهور ريشار الى المقصلة ، فبعضهم يتبع عربة العار التي تقل الجاني راكباً وبعضهم يتبعها سائراً • ووقف الجميع أمام المقصلة ، وأخذ الصياح يتعالى من كل مكان قائلاً : « مت أيها الأخ ، مت في صلح مع الله ، لأن نعمة الله قد أدركتك • » • ودُفع ريشار الى المقصلة تغمره القبلات ، وأُضجع عليها ، وقطع رأسه قطعاً أخويا جدا لأن نعمة الله قد أدركته • أليس هذا شيئا يتميز بطابع خاص ؟ لقد تُرجمت هذه النشرة عن اللغة الفرنسية ••• ترجمها أشخاص ينتمون الى الأوساط اللوثرية والجمعيات الخيرية من أعلى طبقات المجتمع الروسي ، وأرسلوا منها أعداداً ضخمة الى جميع الصحف لتوزع مجانا في سبيل تثقيف شعبنا •

« ان حالة ريشار هذا شائقة بما تتصف به من طابع قومي • فنحن في بلادنا ، والحق يقال ، لا نقطع رأس رجل* لأنه أصبح أخانا ولأن

نعمه الله قد أدركته . ولكن عندنا شيئاً لا بأس به هو أيضاً . نحن في روسيا نضرب ضرباً قاسياً مبرحاً ، وقد أصبح هذا نوعا من تقليد تاريخي ومتعة مألوفة طبيعية مشروعه . لقد صور نكراسوف ، في احدى قصائده ، شقاء حصان كان فلاح من الفلاحين يضربه بالسوط على العينين ، على «عينيه الوديعتين» * .. من ذا الذى لم يشهد فى يوم من الأيام منظراً كهذا المنظر الشائع كثيرا ، الروسى جدا ان جاز التعبير ؟ ان ذلك الحيوان المسكين الضعيف الذى كان يجر عربة منقلة بأحمال فوق طاقته قد سقط فى الوحل ثم لم يستطع أن يتخلص منه . فأخذ الفلاح يضربه ثم يضربه ... وبلغ من شدة حنقه وهو يرفع سوطه فى الهواء ويهوى به على الحيوان أنه أصبح لا يشعر بما يفعل ، فهو فيما هو فيه من سكر وحشى بضراوته المستيقظة يضاعف ضرباته بمزيد من القسوة قائلاً : « أصبحت لا تقوى على جر العربة ، ولكنك ستجرها رغم أنفك ... سأجبرك على ذلك اجبارا أيها الحيوان القذر . مت ان شئت ، ولكن عليك أن تجر العربة ! » . وأخذ الحيوان يتخبط ، فما كان من الفلاح وقد استبد به غضب أعمى الا أن أخذ يجلده على عينيه اللتين تتضرعان طالبتين الرأفة والرحمة ... على « عينيه الوديعتين » العزلاوين اللتين لا تملكان ما تدفعان به عن نفسهما الأذى . واستطاع الحيوان بوثبة مستميتة قصوى أن يتخلص من سقطته فيقف على قوائمه فيستأنف سيره مرتعشاً مجللاً بالخزى والعار ، لا يكاد يستطيع أن يتنفس ، يتقدم بخطى متقطعة مقهورة تبعث الشفقة فى القلب . ان أشعار نكراسوف هذه تحدث فى النفس أثراً رهيباً . والأمر مع ذلك أمر حيوان ، ونحن نعلم ان الرب قد وهب لنا الحيوانات لنضربها ، أو هذا على الأقل ماتعلمناه من التتر الذين أورثونا السوط هدية تذكرنا بهم . ولكن البشر يُضربون أيضاً . اننى أعرف حالة سيد مرموق مثقف تعاون مع زوجته فى ضرب ابنته الصغيرة وهى

طفلة فى السابعة من عمرها *• لقد دوّنت الواقعة بجميع تفاصيلها • كان للعصىّ أشواك ، فسُرّ الأب من ذلك أعظم السرور • قال : « لتشعرن بالعقوبة شعوراً أقوى » ••• وأخذ يضرب ابنته • هناك أشخاص ـ وأنا أعلم ذلك علم اليقين ـ يسكرون من الضربات التى يكيلونها ، ويبلغون من النشــوة بها حدّ اللذة الجســدية ويتمتعون بالضرب تمتعاً وحشياً متزايداً • ضُربت الصبية دقيقة ، فخمس دقائق ، فعشر دقائق ، ضرباً ما ينفك يزداد قوة وضراوة • والصبية تصرخ وتبكى ، ثم تقول مختنقة الصوت بدموعها : « بابا ، بابا ، بابا الحبيب ! » • وبمصادفة شيطانية غير لائقة ، رُفعت القضية الى المحكمة • واستعان الأبوان بمحام • ان الشعب يقول منذ زمن طويل : « المحامى ضمير يؤجر نفسه » • وأخذ المحـامى يصيح قائلاً أمام المحكمة : « أب أدّب ابنته • فما هذا الا حادث مبتذل شائع من حوادث الحياة العائلية • ومن عار هذا العصر الذى نعيش فيه أنه ظُن أن هــذه قضية يجب أن ترفع الى المحكمة ! » • وقــد تأثر المحلّفون أشد التأثر بأقوال المحامى ، فمضوا يتداولون فى الأمر ، ثم عادوا يعلنون حكمهم بالبراءة • وضجّ الجمهور فرحاً حين سمع الحكم ببراءة الجلاد • اننى لم أشهد المحاكمة ، والا لاقترحت انشاء صــندوق اعانة ، تكريماً لهذا الأب الجلاد ! هذه لوحة جميلة يا أليوشا ، غير أننى أملك لوحات أخرى ربما كانت أجمل منها ، وهى تتعلق خاصةً بالأطفال من الروس • اليك قصة بنية فى الخامسة من عمرها ، غضب منها أهلها، وهم « أناس محترمون ، موظفون مثقفون ، نشأوا نشأةً كريمة وأُحسنت تربيتهم » • أؤكد لك جازماً يا أليوشا أن هناك أناساً يشعرون بميل خاص الى تعذيب الأطفال ، الأطفال وحدهم دون سواهم • ان هؤلاء الجلادين يبرهنون فى تعاملهم مع سائر البشر على كثير من الدماثة والليونة ، كما يليق ذلك بأوروبيين متعلمين متنورين • ولكنهم فى مقابل ذلك يجـدون

لذة كبيرة فى تعذيب الأطفال ، مع حبهم لهم على طريقتهم الخاصة . ان منظر هذه الكائنات الصغيرة العزلاء التى لا تحسن الدفاع عن نفسها ، ولا تعرف كيف تشتكى ولا الى أين تلجأ ولا بماذا تعتصم ، مع ما تتصف به هذه الكائنات من ثقة ملائكية ، يملك القدرة على ايقاظ القسوة الغريزية فى نفوس أولئك الناس . لا شك أن فى قرارة كل انسان وحشاً نائماً ، وحشاً ضارياً مسعوراً يلتذ بسماع صرخات ضحيته ، فينطلق عندئذ انطلاقاً كاملاً بكل قسوته التى ضاعفها الفجور وضاعفها كل ما يولده الفجور من أمراض كالنقرس والتهاب الكبد وما الى ذلك . ولنعد الى أهل تلك البنية . لقد أنزل الأبوان المثقفان فى ابنتهما المسكينة أنواعاً من التعذيب لا يتصورها الخيال . كانا يضربانها ويجلدانها ويدوسانها بدون أى سبب ، حتى انهد جسم البنية المسكينة وامتلأ بقعاً زرقاء . وشيئاً فشيئاً توصلا الى صور من القسوة فيها كثير من التفنن . من ذلك أنهما أثناء الليالى الباردة كانا يحبسان الطفلة فى المرحاض ، بحجة أنها كانت لا تطلب الخروج لقضاء حاجاتها فى حينها (كأن طفلاً فى الخامسة من عمره يستطيع دائما أن يستيقظ من نومه الهادىء العميق فى الوقت المناسب للذهاب الى المرحاض) ؛ وكانا يلطخان لها وجهها بغائطها نفسه « لتعلمها » ، ويجبرانها على أن تبلع غائطها ، وكانت أمها ، أمها نفسها ، هى التى تكرهها على ذلك . وكانت هذه الأم تستطيع أن تنام بعدئذ نوماً هادئاً دون أن تهزها صرخات طفلتها السجينة فى ذلك المكان الموبوء ! فهل تستطيع أن تتخيل يا أليوشا ذلك الكائن الصغير الذى ما يزال عاجزاً عن أن يفهم ما يجرى له ، هل تستطيع أن تتخيله لاطماً صدره المختنق بيديه الصغيرتين فى غياهب الظلام والبرد ضارعاً الى « الرب الرحيم » بدموع شقية بريئة أن يحميه ؟ هل تستطيع أن تفهم علة وجود عالم سخيف هذا السخف ، باطل هذا البطلان ، مستحيل هذه الاستحالة ..

قل لى يا صديقى ويا أخي ... هل تستطيع أن تدرك علة وجود هذا العالم أنت يا من تتهيأ لأن تكون راهبا ينذر حياته للرب تقياً متعبداً ؟ يزعم بعضهم أن الوجود على هذه الأرض لايمكن تصوره خاليا من الألم ومن الظلم للذين يستطيعان وحدهما أن يهبا للانسان معرفة الخير والشر ! ألا بئست تلك المعرفة اذا كان ثمنها هذا الثمن ! ان كل ما فى العالم من علم لا يكفى للتكفير عن دموع تلك الطفلة التى تتوسل الى « الرب الرحيم » أن ينجدها . لن أقول شيئاً عن الآلام التى يعانيها الكبار . فان الكبار قد أكلوا الثمرة المحرَّمة ، فليجنوا جزاء ما فعلوا ، وليأخذهم الشيطان جميعا اذا كان الشيطان ما يزال يلوى عليهم ويهتم بأمرهم ... أما الأطفال ، أما الصغار الأبرياء ، فما ذنبهم ؟ ألاحظ أننى أعذبك بهذا الحديث يا أليوشا . ان فى وجهك حزناً وشقاء . سأمسك عن الكلام ان شئت » .

تمتم أليوشا يقول :

ـ لا ... اننى أحب أن أتألم أنا أيضا .

ـ لن أقصّ عليك الا قصة واحدة أخرى ، لأنها شائقة جدا ، ولأنها تتسم بطابع مميَّز حقا . لقد قرأتها منذ زمن قصير فى مجلة « السجل الروسى » أو مجلة « الماضى الروسى » * ، لا أدرى على وجه الدقة ... يجب التحقق من ذلك ... لقد وقعت هذه القصة فى أحلك عهود الرق عند بداية هذا القرن . عاش محرر الشعب* ! كان يعيش فى ذلك الزمان جنرال له علاقات رفيعة ويملك أطيانا واسعة . هو واحد من أولئك الرجال (وقد أصبحوا قلة قليلة نادرة حتى فى ذلك الزمان) الذين يعتقدون حين يُحالون على التقاعد أنهم بما قدموا للدولة من خدمات قد أصبح لهم على أقنانهم حق الحياة والموت . لقد وجد أمثال

هؤلاء الرجال في الماضي • كان ذلك الجنرال يعيش في أراضيه التي يعمرها ألفان من الأقنان • وكان يصطنع الأبهة والعظمة ، وينظر نظرة استعلاء الى جيرانه المتواضعين ، متظاهرا بأنه يعدهم مهرّجين أو طفيليين • وكان يملك بضعة مئات من كلاب الصيد لها ما يقرب من مائة خادم يجرون وراءها على خيولهم ، لابسين زياً واحدا • ففي ذات يوم كان قن صغير هو صبي في الثامنة من عمره يتسلى برمي الأحجار • فاذا هو يصيب باحداها الكلب الأثير لدى الجنرال ، سهواً وغفلة • وسأل الجنرال مستطلعاً : « لماذا يعرج هذا الكلب الذي هو خير كلابي ؟ » فقيل له انه قد جُرح بحصى رماها ذلك الصبي • قال الجنرال وهو يتفرس في الصبي: « أأنت السبب اذن ؟ » • ثم أضاف : « احبسوه ! » • انتُزع الصبي من أمه ، وألقي في زنزانة مظلمة ضيقة لبث فيها طول الليل • وفي ساعة مبكرة من صباح الغد تهيأ الجنرال للذهاب الى الصيد في احتفال عظيم • انه يمتطي صهوة جواده وقد أحاط به طفيليوه وكلابه وخدمه الذين يجرون وراء الكلاب يطاردون الفرائس ، وقد امتطوا صهوات خيولهم جميعا • وأمر الجنرال بجمع الخدم في الحوش لتلقينهم درساً ، وجُعلت أم الصبي الجاني في أول صف من صفوفهم • وأُخرج الصبي من زنزانته • كان ذلك في صباح كالح بارد يملؤه الضباب من أصباح الخريف ، صباحٍ يبشر بصيد وافر • وأمر الجنرال بأن تُخلع عن الصغير ثيابه فخُلعت حتى صار عاريا كل العري • ان الصبي يرتعش مصفراً من الخوف ، ولا يجرؤ أن يفتح فاه ••• قال الجنرال آمرا : «اجعلوه يركض» ، فأخذ المطاردون يدفعون الصبي قائلين له : « اركض، اركض » ، فأطاع الصبي أمرهم وأخذ يركض ، فاذا بالجنرال يعول صائحاً : « عليه ! » مهيباً بكلابه أن تطارده ، فانطلقت الكلاب تمزق جسم الصبي على مرأى من أمه ••• أحسب أن الجنرال قد حُجر عليه بعدئذ•

فما رأيك ؟ أما كان يستحق أن يعـــدم رمياً بالرصاص ؟ ألم يكن من الضرورى اعدامه تهدئةً للضمير الأخلاقى ؟ هلاّ أجبت يا أليوشا !

قال أليوشا بصوت خافت وهو يرفع عينيه نحو أخيه ويرسم على شفتيه المرتعشتين ابتسامة ضعيفة :

ـ نعم كان يجب رميه بالرصاص •

فصاح ايفان يقول بنوع من الحماسة :

ـ مرحى ! ما دمت تقر بذلك أنت نفسك ، فلا بد ••• هاه ••• يا لرسول المحبة ! ذلك هو الشيطان الذى تؤويه فى قلبك يا أليـــوشا كارامازوف !

قال أليوشا :

ـ لقد قلتُ سخافة ، ولكن •••

صاح ايفان :

ـ ولكن ••• هذا هو الأمر : « ولكن » ••• أليس كذلك ؟ ألا فاعلم أيها الراهب المبتدىء أن السخافات لازمة لوجود هذا العالم • ان الكون يقوم على سخافات بدونها قد لا يوجد شىء وقد لا يحدث شىء • نحن نعلم ما نعلم !

ـ ماذا تعلم ؟

ـ لست أفهم شيئاً (كذلك استأنف ايفان كلامه قائلاً فى هذيان)، ولقد أصبحت لا أريد الآن أن أفهم شيئا • أريد أن أكتفى بالوقائع وأن أقتصر عليها • لقد قررت منذ زمن طويل أن لا أحاول تأويلها • فلو حاولت أن أفهم اذن لشوّهت الوقائع فورا ، وأنا أحرص على أن أبقى فى الواقع لا أخرج منه •••

صاح أليوشا يقول بمرارة :

ـ لماذا تعذبني هذا التعذيب ؟ هلاَّ قلت لي أخيراً ...

ـ سأقول لك . ذلك ما كنت أريد الوصول اليه منذ البداية . أنت عزيز في نفسي يا أليوشا ، ولا أريد أن أتنازل عنك لصاحبك زوسيما بدون كفاح .

قال ايفان ذلك وصمت لحظةً مظلمَ الوجه ، ثم أردف يقول :

ـ اصغ اليَّ الآن . لقد اخترت لأمثلتي أطفالاً حتى يكون برهاني أكثر اقناعاً . ولن أقول شيئاً عن سائر الدموع الانسانية التي تتبلل بها الأرض ، انني أضيِّق موضوع مناقشتنا عامداً . ما أنا الا حشرة صغيرة من الحشرات . واني لأعترف ذليلاً كل الذل بعجزي عن فهم نظام هذا العالم . هل يجب أن نؤمن بأن البشر مسئولون وحدهم عن شرورهم ؟ لقد وُهبت لهم الجنة ، ولكنهم آثروا أن ينالوا حريتهم واختطفوا النار من السماء وهم يعلمون سلفاً أنهم بذلك يجلبون لأنفسهم الشقاء ، فلا داعي اذنْ الى أن نشفق عليهم ونرثي لحالهم . ولكن عقلي ، عقلي المسكين الاقليدسي الأرضي يؤكد لي ، على عكس ذلك ، أن العذاب موجود دون أن يكون هنالك مذنبون ، وأن جميع الأفعال الانسانية ينحدر بعضها من بعض بالضرورة ، وأن كل شيء ينقضي آخر الأمر ، وأن التوازن يقوم مرة أخرى من تلقاء نفسه . ذلك على الأقل وهمٌ أنشأه عقلي الاقليدسي ، أعرف هذا ... وأنا لا أقبل أن أحيا في عالم كهذا العالم . فيم يهمني أن أعلم أنه ليس هناك مذنبون ؟ انني في حاجة الى عدل ، والا دمرت نفسي . وهذا العدل الذي أطالب به ، أنا لا أريده في « لا نهاية » لا يمكن الوصول اليها ، وفي « أبدية » تفوقني ، وانما أنا أريد أن أراه على هذه الأرض ، أن أراه بعيني . لقد آمنت ، وأريد أن

أشهد انتصار الحقيقة ! فاذا كنت ميتاً ساعة انتصارها فلأُبعث حياً ! لسوف يسيء الي كثيراً أن يتحقق هذا المجد للانسان في غيابي . هل تألمت أنا من أجل أن أمهد الطريق بخطاياي وآلامي لانسجام مقبل لن ينتفع به الا آخرون ؟ انني أريد أن أرى الوعلة بعيني مستلقية أمام الأسد في هدوء وسلام ، وأن أرى الضحية مرتدة الى الحياة تعانق قاتلها . أريد أن أكون حاضراً حين ينكشف سر هذا العالم للجميع . ان هذا الانتظار هو القاعدة التي تقوم عليها جميع الأديان ، وأنا امرؤ مؤمن . ولكن الأطفال ... ما ذنب الأطفال ؟ كيف نسوغ عذاب الاطفال ؟ تلك مشكلة لا أجد الى حلها سبيلاً . أعود فأقول لك للمرة المائة : ان هناك في هذا العالم مشكلات كثيرة ، ولكنني اخترت هذه المشكلة ، مشكلة الاطفال ، لانها تتيح لي أن أعبر عما يشغل بالي ويقض مضجعي تعبيراً أوضح . قل لي : اذا كان على البشر أن يتألموا من أجل أن يمهدوا بألمهم للانسجام الكلي ، فلماذا يجب أن يتألم الأطفال أيضا ؟ لماذا حبس الأطفال في هذه الدائرة ، لماذا يجب عليهم هم أيضا أن يساهموا في الانسجام بعذابهم ؟ ذلك أمر لا سبيل الى فهمه اطلاقاً. ماذا جنوا حتى يجروا في هذه الزوبعة ؟ قد أسلم عند الاقتضاء بتضامن البشر في الخطيئة وتضامنهم في التكفير عنها ولكن الأطفال لم يشاركوا في الخطيئة فان قيل انهم يحملون في أجسادهم خطايا آبائهم وانهم متضامنون اذن مع آبائهم في هذه الخطايا قلت : هذه حقيقة لن تكون من هذا العالم على كل حال ولا يمكن أن يدركها عقل ! رب مازح خبيث يعترض بقوله ان الطفل سيشتد ساعده وسيقارف الخطيئة متى حان الوقت ولكنني أقول ان ذلك الصبي الذي ما يزال في الثامنة من عمره لما يشتد ساعده بعد وقد مزقته الكلاب ! آه يا أليوشا هيهات أن يكون في نيتي أن أجدف . انني أتخيل كيف سيتهلل الكون فرحاً حين ستدوي

أصوات السماء والأرض جميعا منشدة للخالق نشيد الشكر معاً وحين سيهتف جميع الأحياء وجميع من كانوا أحياء قائلين : « أنت على حق يا رب وقد فهمنا طرقك ! » • سوف تعانق الأم عندئذ الجلاد الذى أمر الكلاب بتمزيق ابنها وسوف يقول الثلاثة عندئذ من خلال دموع الحنان أنت على حق يا رب • ستنجلى عندئذ جميع الأسرار وسيكون ذلك اليوم يوم تمجيد المعرفة • ولكن ذلك بعينه هو العقدة لأننى لا أقبل هذا الحل للغز وأنا أسارع الى اتخاذ اجراءات ما زلت فى هذا العالم • قد يحدث يا اليوشا حين أشهد ذلك الانتصـــار النهائى للحقيقـة وحين أبعث حياً لأشهد ذلك الانتصـار أن أصبح أنا أيضا مع الجميع اذ أرى الأم والجلاد والطفل يتعانقون ويتصالحـــون : « أنت على حق يا رب ! » • ولكننى لا أريد أن أفعل ذلك وأحـــرص على أن أحمى نفسى سلفاً من ذلك الاستسلام ولهذا السبب ترانى أتنازل تنازلا حاسما عن الانسجام الأعلى• ان هذا الانسجام لا يعدل فى رأيى دمعـة واحـدة من دموع ذلك الطفل المعذب الذى كان يلطم صدره بقبضتى يديه فى مكان موبوء ويضرع الى الله الرحيم من خلال دموعه التى لا يكفر عنها شىء • نعم ما من انسجام مقبل سيكفر عن تلك الدموع ولا بد من التكفير عنها والا فلا يمكن أن يقوم انسجام ولكن بماذا يمكن التكفير عنها ؟ ما الذى يمكن أن يمحوها ؟ أهو القصاص الذى سينزل بالجانى ؟ فما قيمة هذا القصاص ؟ فيم يهمنى هذا القصاص ؟ اننى لا أريده ! اننى لا أطالب بتعذيب الجلادين فى الجحيم• ان جهنم لن تغير من الامر شيئاً ولن تنفى أن الطفل قد عذب • وأين عسى أن يكون الانسجام اذا كان ثمة جحيم ؟ اننى أحب أن أغفـر وأن أصـالح • اننى أتمنى أن لا يبقى فى الكون عـذاب • فاذا كانت دموع الأطفال أمراً لا بد منه ولا غنى عنه لاكمال مقدار الألم الذى سيكون دية للحقيقة فاننى أعلن جازماً أن الحقيقة لا تستحق أن يُدفع ثمنها باهظا

الى هذا الحد انني لا أريد أن تصالح الأم الجلاد الذي أمر كلابه بتمزيق جسد ابنها • ليس من حقها أن تغفر له• لها أن تتغاضى عن ألمها هي ، عن عذاب الأم العظيم الذي قاسته ، لها أن لا تحقد على الجاني اذا شاءت ولكن ليس لها أن تعفو عن التعذيب الذي نال ابنها حتى ولو عفا عنه ابنها • فاذا كان الامر كذلك ، اذا لم يكن من حق الضحايا أن تغفر فأين أين الانسجام ؟ قل لي : أين الانسجام ؟ هل في الكون فرد يجب عليه ويحق له أن يغفر ؟ انني لا أريد هذا الانسجام بل أرفضه حباً بالانسانية• انني أفضل أن تبقى آلام هذا العالم بغير تكفير • انني أؤثر أن يظل ألمي بغير فدية وأن يظل استيائي متأججاً بغير ارتواء ولو كنت على خطأ • ان الثمن المطلوب للانسجام باهظ جدا وهو فوق ما نطيق أن ندفع من ثمن ان بطاقة الدخول غالية مسرفة في الغلاء • لذلك أسارع فأردُّ بطاقتي• انني أشعر بأن عليّ أن أردها بأقصى سرعة لأنني انسان شريف وذلك ما أفعله• انني لا أجحد الرب يا أليوشا وانما أقتصر على أن أعيد اليه بطاقتي بكثير من الاحترام •

قال أليوشا بصوت رقيق وهو يخفض عينيه :

ـ هذا عصيان •

فقال ايفان بلهجة نافذة مؤثرة :

ـ عصيان ؟ لا أحب أن تحكم عليّ هذا الحكم• ان من المستحيل على المرء أن يحيا في العصيان ، وأنا امرؤ يحرص على أن يحيا • أجبني عن سؤال أليوشا ولكن أجبني بصراحة • فانني أحرص على جواب صريح عن هذا السؤال : لو كنت مهندس المصائر الانسانية وأحببت أن تبني عالماً تجد فيه الانسانية السعادة والهدوء والأمن أخيرا أفتشرع في هذا العمل اذا علمت أنه لن يتحقق الا اذا كان العذاب ثمنه ولو لم يكن الا

عذاب انسان واحد صغير بريء هو مثلاً تلك الطفلة التى كانت تلطم صدرها بقبضتى يديها ؟ لو كن البناء لا يمكن أن يقوم الا على تلك الدموع التي لا فدية لها تذرفها تلك البنية الصغيرة ، لو كان ذلك ضرورة لا مناص منها ولا يمكن أن يتحقق الهدف بدونها أفتظل توافق على أن تكون مهندس الكون فى تلك الشروط ؟

أجاب اليوشا بصوت جازم :

ـ لا ••• لا أوافق •

ـ وهل فى وسعك أن تسلم عدا ذلك بأن يقبل البشر الذين تبنى لهم هذا العالم أن يصبحوا سعداء على حساب آلام ودماء طفل بريء وأن يعرفوا السعادة الى الأبد بعد أن يقبلوا ذلك ؟

ـ لا ••• لا أستطيع أن أسلم بهذا •

كذلك قال أليوشا ثم صاح يقول فجأة وقد سطعت عيناه :

ـ أخى لقد سألتنى منذ لحظة هل فى الكون كائن فى وسعه ومن حقه أن يغفر ؟ ان هذا الكائن موجود يستطيع أن يغفر كل شيء وأن يغفر لجميع الناس لأنه وهب هو نفسه دمه البريء للانسانية بأسرها لقد نسيته أنت وهو هو الذى يقوم عليه البناء كله وهو الذى يقع عليه أن يصيح : « أنت على حق يا رب فلقد أدركت طرقك » •

ـ آه ••• انك تتكلم عن « ذلك المبرأ وحده من الخطيئة وعن دمه ! لا يا اليوشا أنا ما نسيته وانه ليدهشنى أن تنتظر هذه المدة الطويلة قبل أن تستشهد به فأمثالك فى العادة يبرزون هذه الحجة منذ بداية المناقشة ، اسمع يا اليوشا هل تعلم أننى نظمت قصيدة فى ذات مرة ؟ لا تسخر منى لقد فعلت ذلك منذ سنة فاذا وافقت على أن تضيع فى صحبتى بضع دقائق أخرى قلت لك هذه القصيدة •

ـ كتبت قصيدة ؟

ـ لا لم أكتبها (كذلك أجاب ايفان ضاحكاً) ولا كنت قادرا فى يوم من الأيام على أن أسطر بيتين من الشعر ولكننى تخيلت هذه القصيدة وحفظتها فى فكرى لقد تصورتها وأنا فى نوع من سورة النفس وستكون أنت أول قرائى أو قل أول المستمعين الى • ولماذا يجب على المؤلف أن يتنازل عن المستمع الوحيد الذى يملك أن يتـــلو عليه ما ألف (كذلك أضاف ايفان مبتسماً) أأقول القصيدة أم لا ؟

أجاب أليوشا :

ـ اننى أصغى اليك باهتمام وشوق •

ـ عنوان القصيدة « المفتش الكبير » • هى قصة خيالية ولكن يسرنى أن أقصها عليك •

٥

المفتش الكبير

بدأ ايفان كلامه يقول :

ـ لا بد من مقدمة . هـذا من التقاليد الأدبيـة (قال ايفـان ذلك ضاحكاً) . ألست مؤلفاً أنا أيضا ؟ ان الأحداث تجرى فى القرن السادس عشر . ولقـد كان رائجاً فى ذلك الزمان ادخال القـوى السماوية فى القصائد ، كما لا بد أنك تعلمت ذلك فى المدرسة . يكفى أن أذكّرك، حتى دون أن أستشهد بمثال دانتى ، بأن رجال الدين والرهبـان كانوا يقدمون تمثيليات تظهر فيها العذراء والملائكة والقديسون ، ويظهر فيهـا المسيح ، ويظهر فيها حتى الله نفسه . تمثيليـات ساذجة . وقد وصف فكتور هوجو فى روايته « أحدب نوتردام » * تمثيلية أخلاقية مجانية مُثلت للشعب فى قاعة « الأوتيل دوفيل » فى عهد لويس السادس عشر احتفالاً بميلاد ابنه البكر ، وكان عنوان التمثيلية هو « الرأى الصائب للعـذراء مريم المقدسة المنعمة » ، وفيها نرى العذراء تظهر بنفسها لاصدار رأيها الصائب وحكمها السديد . وعندنا فى موسكو* ، قبل عهد بطرس الأكبر، كانت أسرار من هذا النوع تُمثّل من حين الى حين ، وكانت تُستوحى من التوراة خاصة . وعدا هذه التمثيليات ، فقد انتشرت فى العالم طائفة من الأقاصيص أو القصائد يظهر فيهـا القديسون وتظهر فيهـا الملائكة والقوى السماوية الأخرى ، تبعاً للحاجات . وفى أديرتنا كانت تُترجم

وكانت تنسخ أشياء كثيرة ، بل لقد كانت تؤلف قصائد فى بعض الأحيان، حتى فى عهد الاحتـــلال التترى . فكذلك على سبيل المثال ، احتـفظ بقصيدة رهبانية (مترجمة عن اليونانية طبعا) عنوانها : « نزول العذراء الى الجحيم » * ، مليئة بلوحات تكاد تبلغ فى جرأتها وجسارتها لوحات دانتى . ففى تلك القصيدة تذهب العذراء الى المعذبين فى الجحيم يقودها رئيس الملائكة ميخائيل ، فتراهم وترى ما يقاسون من عذاب أليم ، وترى بينهم على وجه الخصوص طائفة عجيبـــة من الخطاة تتخبـط فى بحيرة مشتعلة ، فالذين يغوصون فى هذه البحيرة منهم لا يرجعون بعد ذلك الى سطحها قط ، ويقال عنهم « ان الله قد نسيهم » ، وذلك تعبير عميق زاخر بالقوة ؟ وقد استبدت بالعذراء شفقة قوية ، فسقطت باكية أمام عرش الرب تضرع اليه أن يعفو عن معذبى الجحيم ، وأن يغفر لهم جميعا بغـير تمييز . ان حديثها مع الرب شائق جدا ، فهى تضرع اليه وتلح وتأبى أن تنصرف ، فاذا أومأ الرب الى قدمى ويدى ابنها المثقوبة بالمسامير وسألها : « كيف أعفو عن هؤلاء الجلادين » ، أمرت جميع القديسين والشهداء والملائكة أن يركعوا معها وأن يسألوا العفو عن جميع الخطاة بغير استثناء. واستطاعت أخيرا أن تحصل على أن ينقطع عذاب جهنم كل سـنة بين الجمعة الحزينة وعيد الخمسـين ، وأن يسـارع المعـذبون عندئذ الى أن ينشدوا من قرارة الجحيم نشيد العرفان بالجميل : « أنت على حق يارب، وعادل حكمك . . » .

ان قصيدتى أنا كان يمكن أن تكون من هذا النوع لو أننى عشت فى ذلك العصر . ان الرب يظهر فى قصتى ، ولكنه لا ينطق بكلمـــة واحدة ، ولا يزيد على أن يجتاز المسرح . لقـــد انقضت خمسة عشر قرنا منذ أن وعد بأن يعود الى مملكته ، منذ أن كتب رسوله : « سأعود قريبا * . أما اليوم والساعة فان الابن نفسه لا يعرفهما ، وانما يعرفهما

أبى الذى فى السموات » ، على حد الأقوال التى نطق بها هو نفسه أثناء مروره بالارض • ولكن الانسانية ما تزال تنتظره بايمان واحد وحماسة لم تتغـــير ، بل ان الايمان قد قوى واشتد ، لأن خمســـة عشر قرنا قد انقضت منذ أن كفت السموات عن بذل ضمانات للبشر •

صدق صوت قلبك ايها الانسان

ان السموات لا تبذل ضمانات * •

فلا قيمة بعـد الآن الا ليقين القلب دليـــلا وبرهانا • صحيح أن المعجزات كانت كثيرة فى ذلك العصر • فلقد كان هنالك قديسون يبرئون المرضى بمعجـــزات فوق الطبيعة ، واذا صـدق ما يروى فى سير بعض الصالحين ، فان ملكة السموات قد ظهرت لهم بشخصها • ولكن الشيطان لم ينم ، وأخذت الانسانية تشك فى صدق هـــذه المعجزات • وظهرت عندئذ هرطقة رهيبة فى شـمال ألمانيا * فاذا بكوكب كبير « شبيه بشعلة (هو الكنيسة طبعا) يسقط على نبع المياه فتصبح المياه مرة » • لقد كان أولئك المجدِّفون الهراطقة ينكرون المعجزات • فازداد ايمان المؤمنين ، واشتدت حماستهم • وأخذت الانسانية ترفع أعينها الدامعـــة الى الرب منتظرةً مجيئه ، محبةً اياه بقلب حار ، مؤمِّلةً فيه ، ظامئة الى التألم من أجله والموت فى سبيله ، كما حدث فى الماضى ••• ان صلوات البشر ترتفع الى السموات حارةً منذ قرون طويلة قائلةً له : « تفضل بالمجىء الينـا يا رب » ، لذلك أراد الرب برحمتـه الواسـعة ، أن يعـود الى أولئك الذين يضرعون اليه هذه الضراعة • لقد ظهر حتى ذلك الحين لبعض الصالحين والشهداء والقديسين النساك كما تروى سيرة حياتهم • وفى بلادنا روسيا تغنى الشاعر تيوتشيف به فى هذه الأبيات (وكان يؤمن ايمانا عميقا بما يقول) :

**أيتها الأرض التي ولد فيك ملك السموات *
لقد طاف في كل جهة من جهاتك في صورة عبد ،
منحنيا تحت ثقل صليبه ،
يهب لك بركته الواسعة •**

ذلك كله صحيح ، أؤكد لك • لقد قرر الرب أن يظهر في هذه المرة لا لافراد من القديسين ، بل للشعب بأسره، لجمهرة الناس المغمورين الذين يتألمون في خطاياهم وعارهم ولكنهم يحبونه بقلب ساذج كقلب الاطفال • الأحداث تجري في اسبانيا ، بمدينة اشبيلية ، في أحلك عهود « التفتيش » ، أيام كانت أكوام الحطب تشتعل لاحراق المتهمين كل يوم في جميع أرجاء اسبانيا تمجيدا للرب* :

**في نيران رائعة *
كان يحرق الزنادقة الأشرار •**

لم يكن يقصد في هذه المرة أن يرجع الى الارض ذلك الرجوع الذي بشّرت به الكتب الدينية حين قالت انه سيرجع في آخر الدهور ، فيتجلى فجأة بكل مجده السماوي « كبرقٍ يسطع من الشرق الى الغرب*• فكل ما كان يريده هو أن يقضي بضع لحظات عابرة بين أبنائه في تلك الأماكن نفسها التي تزفر فيها النيران الموقدة لاحراق الهراطقة • لقد أراد بفعلٍ من أفعال محبته الالهية أن يظهر للناس مرةً أخرى في الصورة الانسانية التي اتخذها قبل ذلك بخمسة عشر قرنا أثناء حياته الأرضية التي دامت ثلاثة وثلاثين عاما • فهكذا نزل الى الشوارع الملتهبة من المدينة الجنوبية التي تم فيها أمس ، بأمر الكاردينال ، المفتش الكبير، احراقُ مائة من الزنادقة ، تمجيداً لله ، بمعاونة الأهالي وحضور الملك ورجال البلاط والفرسان وأمراء الكنيسة والسيدات الحسناوات وسائر

من يعدون ألمع أبناء المجتمع فى اشبيلية • وقد ظهر الرب خفيةً بدون ضوضاء ، ولكن الامر الغريب هو أن جميع الناس سرعان ما عرفوه • وها هنا مادة لأجمل أجزاء القصيدة : لماذا عرفه الناس جميعا ؟ لقد انجذب اليه الجمهـــور بقوة لا تقاوَم ، وأحاط به ، واحتشــــد حوله ، وتابع خطواته • فسار هو بين الجمهور صامتاً وهو يبتسم ابتسامة عطف لانهاية له • ان شمس المحبة تتقد فى قلبه ، ومن عينيه يشع الضياء وتشع القوة فينتشران فى المؤمنين ويشعلان المحبة فيهم • وهـــو يمد ذراعيه نحـو الشعب ليباركه • ان ملامسته ، وحتى ملامسة ثيابه ، تملك القدرة على ابراء المرضى • فهذا شيخ من الجمهور ، أعمى منذ طفولته ، يهتف قائلا على حين فجأة : « ردّ الىّ البصر يا رب حتى أستطيع أن أتأملك » فما هى الا لحظة حتى سقطت الغشاوة عن عينيه ، فاذا هو يرى الرب • وبكى الشعب تأثراً ، وأغرق بالقبلات الأرض التى مشى عليها • وأخذ الأطفال يرمون الأزهار أمامه منشدين : « رحماك أنقذنا » • وتعالت الصيحات من كل جانب تقول فى حماسة : « انه هو ، انه هو ، لا يمكن الا أن يكون اياه • » • ووقف فى الساحة أمام كاتدرائية أشبيلية لحظةً كان يؤتى الى المعبد ، بين عبرات الحضور ، بتابوت أبيض صغير مفتوح يرقد فيه جثمان بنيةٍ فى السابعة من عمرها هى البنت الوحيدة لرجل من عيون ســـكان المدينة • ان الميتة مغطاة بالأزهار • صاح الجمهور يقول للأم المحزونة : « سيحيى لك ابنتك » • وكان كاهن الكنيسة قد تقـــدم نحو التابوت ، فظهرت عليه الحيرة وقطب حاجبيه • فأجهشت أم البنيـــة الميتة باكيةً وارتمت على قدمى المسيح وضرعت اليه وهى تمد نحوه ذراعيها قائلة : « اذا كنت أنت هـــو حقاً ، فأحى ابنتى ! » • توقف الموكب ، ووضـع التابوت على البلاطات عند قدميـــه • فألقى على جثمان البنية نظرة تفيض بالعطف ، وتحركت شفتاه فى رفق تقولان مرة أخرى : « قومى أيتهـا

البنية » * فما ان نطق بهذه الكلمات حتى خرجت الطفلة من التابوت ، وجلست مبتسمةً ، ونظرت حولها بعينين محملقتين مدهوشتين • انها تمسك بيدها باقة من ورود بيضاء كانت قد وضعت على جثمانها• اضطرب الجمهور وصاح وبكى • وفى تلك اللحظة نفسها ظهر الكاردينال كبير المفتشين فى الساحة أمام الكاتدرائية • انه شيخ فى نحو السنة التسعين من عمره ، طويل الجسم منتصب القامة معروق الوجه غائر العينين ، غير أن فى عينيه شعلةً تسطع• انه لايرتدى الآن ثوب الكاردينالية الأرجوانى الفخم الذى ظهر به للشعب فى الليلة البارحة حين كان يُرمى الىالنيران أعداء الكنيسة الرومانية • وانما هو يلبس فى هذه المرة ثوب الكاهن ، المصنوع من خشن الصوف • وعلى مسافة منه يتبعه معاونوه العابسون وخدمه وحرس القداس الاحتفالى • وقف الكاردينال أمام الجمهور وتأمله من بعيد • لقد رأى كل شىء ، رأى التابوت عند قدمى المسيح ، ورأى البنية تُبعث حيةً ، فأظلم وجهه واكفهر • انه يقطب حاجبيه الكثيفين الأبيضين ، وان بريقاً متوحشاً كاسراً يومض فى عينيه • وهذا هو يشير الى المسيح بسبابته آمراً الحرس بأن يعتقلوه • ان هذا الرجل الذى عرف كيف يروّض شعباً مرتجفاً وأن يخضعه لجميع اراداته يبلغ من القوة أن الجمهور سرعان ما أسرع يبتعد أمام الزبانية ، فاذا بهؤلاء ، وسط صمت الموت الذى خيّم على حين فجأة ، يضعون أيديهم على المسيح ويقتادونه • وسجد الجمهور بحركة واحدة أمام المفتش الكبير الذى بارك الجمهور صامتا وانصرف • أُخذ السجين الى المبنى العتيق الذى يقام فيه القداس ، وحُبس فى زنزانة مظلمة ضيقة مقبّبة• انقضى النهار، وهبط الليل • هى ليلة من ليالى اشبيلية تلك الثقيلة الحالكة الخانقة الحارة • « الهواء معطر بعبق أشجار الرّند والليمون* » • وفجأةً ، فى الظلمات ، فُتح الباب الحديدى ، وتقدم المفتش العجوز يسير فى الممر

ببطء حاملا بيده شعلة • وقف لحظةً على عتبة الزنزانه وتفرس فى وجه السجين طويلا • ثم اقترب منه آخر الامر بخطى صامتة ، ووضع الشعلة على المنضدة وقال له :

« ــ أهذا أنت اذن ؟ أهذا أنت ؟ (ولكنه حين لم يتلق جوابا أسرع يضيف :) اسكت ! لا تقل شيئاً ! وما عَساك تعلمنى على كل حال ؟ اننى أعرف سلفاً كل ما قد تقوله لى • وبأى حق تريد من جهة أخرى أن تضيف أى شىء الى ما سبق أن قلته ؟ لماذا تجىء اليوم تزرع الاضطراب فى حياتنا ؟ ذلك أنك انما جئت لتبث فينا الاضطراب ما فى ذلك ريب ، وأنت لا تجهل ذلك • فهـــل تعلم مع هذا ما الذى ســـيقع غدا ؟ اننى لا أعرفك ، ولا أريد أن أعرفك • أأنت هو حقا ، أم لست الا طيفه ؟ سيان ••• لأننى سأحكم عليك بالاعـــدام وسآمر باحـــراقك مثلما آمر باحراق أسوأ الزنادقة • ان ذلك الجمهور نفسه الذى كان يقبل قدميك منذ بضع ساعات ، سيهرع غدا ، باشارة بسيطة منى ، فيورى لهيب النار، هل تعلم ذلك ؟

ألقى عليه الكاردينال هذا السؤال ثم أضاف يقول شارد الفكر نافذ النظرة دون أن يحول بصره عن سجينه لحظة واحدة :

« ــ لا شك أنك تعلم ذلك !

قال أليوشا الذى كان الى ذلك الحين يصغى الى أخيه صامتا ، قال وهو يبتسم :

ــ لست أفهم جيدا يا ايفان • أهذه تهاويل مضطربة أنشأها خيالك المحموم ، أم أنت تريد أن تقول ان الشيخ قد خدعه ظنه ، وان لُبْسةً ما قد أضلَّته ؟

قال ايفان ضاحكاً :

ـ لنسلِّم بأن هناك لُبْسةً ما ، ما دامت واقعية هـذا العصر قد دمغتك أنت أيضا الى حد لا تستطيع معه أن تقبل تهاويل خيالية غريبة. لنفرض أن هناك لبسةً ما ، اذا كنت تحرص على ذلك .

ثم أردف ايفان يقول وهو يضحك مرة أخرى :

ـ يجب أن لا ننسى أن هذا العجوز هو في التسعين من عمره ، وأن من الجائز أن يكون قد جُنَّ منذ زمن طويل في عزلته المتكبرة المستعلية. ولعل منظر السجين قد أدهشه . ولعل هذا كله لم يكن أيضا الا هذيان رجل عجوز قد أهاجه احراق المائة زنديق الذين أحرقوا في الليـلة البارحة ، أو أهاجته هلوسة من تلك الهلوسات التي تسبق الموت في بعض الأحيان . وانه ليستوي على كل حال أن يكون الامر أمر تهاويل خيالية أو أمر لُبْسة ، فانهما المهم أن هذا الشيخ سيقول في هذه المرة ، وهـو في التسعين من العمر ، سيقول ما في قلبه وما فكَّر فيه صامتا طـوال حياته .

ـ والسجين ؟ أهو صامت ؟ أهو ينظر الى زائره دون أن يفتح فمه بكلمة ؟

قال ايفان شارحا وهو ما يزال يضحك :

ـ على هذا النحو انما يجب أن تجري الأمور . ألم يُفهمه الشيخ العجوز أنه ليس من حقه أن يضيف شيئا الى ما سبق أن قاله في الماضي؟ بل ان هذا في رأيي سمة من السمات الاساسية للكاثوليكية الرومانية : « لقد عهدت برسالتك الى البابا ، ومن اختصاص البابا أن يقرر بعد الآن. فلا تأت الينا لبث القلق والاضطراب في حياتنا بغير طائل ، لا تأت الآن ، لا تأت قبل الساعة المحدَّدة على كل حال ! » . فهـذا ما يقوله صانعو الكنيسة الرومانية ، أو هذا ما يقوله اليسوعيون على الأقل . لقـد قرأت

هذا بنفسى فى كتب لاهوتييهم • ان العجوز قد ألقى عليه هذا السؤال : « هل من حقك أن تكشف لنا ولو عن سرٍ واحد من أسرار العالم الذى جئت منه ؟ » ثم لم ينتظر جوابه ، بل أضاف يقول فورا : « لا •• ليس من حقك أن تفعل ••• ليس لك أن تضيف شيئاً الى ما سبق أن قلت فى الماضى ، وذلك حتى لا تحرم البشر من تلك الحرية التى كنت تقدرها قدراً عظيما حين عشت على الأرض • ان كل كشف جديد قد تأتى به سيسىء الى حرية الايمان ، لأنه سوف يبدو معجزة من المعجزات ، وأنت قد رأيت منذ خمسة عشر قرناً أن ضمان حرية الايمان أمر أساسى • ألم تكن تردد على مسامعهم بغير كلال ولا ملال : « لقد جئتكم بالحرية » ؟• وأضاف العجوز يقول وهو يرسم على شفتيه ابتســامة مفكِّرة على حين فجأة : ولقد رأيتهم بعينيك ، هؤلاء البشر « الأحــــرار » ••• ان هذه الحرية هى من صنعنا ، وقد كلفتنا جهودا لا نهاية لها (كذلك أضاف العجوز وهو يلقى على المسيح نظرة قاسية) ، ولكننا أتممنا عملنا أخيرا باسمك • لقد اضطررنا خلال خمسة عشر قرنا أن نظل نتحرك جاهدين بهذه الحرية ، ولكن الامر انتهى الآن ، انتهى تماما ! ألا تظن أنه انتهى الى الأبد ؟ انك تنظر الىَّ بوداعة ولين ورفق ، فلا شك أنك تقدِّر أنك ان أظهرت استياءك كنت تشرفنى تشريفا لا أستحقه ! ألا فاعلم اذن أن البشر هم فى هذا اليوم بعينه أشد اقتناعا منهم فى أى وقت مضى بحريتهم الكاملة ، ومع ذلك فالواقع أنهم تنازلوا عنها ووضعوها فى أيدينا بكثير من المذلة ! ذلك هو عملنا ! أهذه هى الحرية التى كنت تنشدها لهم ؟

قاطعه أليوشا مرة أخرى قائلاً :

ـ مرةً أخرى أصبحت لا أفهم • أهو يسخر ؟ أهو يتهكم ؟

ـ كلا ••• انه لا يسخر ولا يتهكم البتة ! بالعكس : انه يتباهى، لنفسه ولصحبه ، بأنهم أوقفوا نمو الحرية فاستطاعوا أن يجعلوا الناس

بذلك سعداء • « ذلك أننا الآن ، للمرة الأولى، نستطيع أن نحلم للانسانية بالسعادة (انه يتكلم طبعا باسم محاكم التفتيش) • ان الانسان محمول بطبيعته على العصيان والتمرد • ولكن هل يستطيع المتمردون أن يكونوا سعداء ؟ لقد نُبهت الى هذا ولم تعوزك النصائح والتحذيرات ، ولكنك لم تشأ أن تحسب حسابها ، ونبذت الطريق الوحيدة التى كان يمكن أن تقود البشر الى السعادة • ومن حسن الحظ أنك حين بارحت هذه الارض عهدت الينا بمهمة اتمام رسالتك • لقد كلفتنا بأن نوجّه الانسانية وأن نرشدها • بذلت لنا وعدك ، وأقمت سلطتنا على كلمتك ، ووهبت لنا حق العقد والحل ، ولن تستطيع طبعا أن تنتزع منا هذا الحق بعد الآن • فلماذا جئت تعرقل عملنا فى هذا العالم ؟

قال أليوشا سائلاً :

ـ ماذا كان يعنى بقوله ان النصائح والتحذيرات لم تعوزه ؟

وأجاب ايفان :

ـ ذلك هو العنصر الأساسى فى التفكير الذى كان العجوز يريد أن يعرب عنه •

ـ تابع العجوز يقول : ان الروح الرهيب العميق ، روح الدمار والعدم ،قد خاطبك فى الصحراء ؛ وتروى الكتب المقدسة أنه أغواك ، أليس كذلك ؟ هل نستطيع فى الواقع أن نتخيل حقائق اكبر من الحقائق التى عرضها لك فى أسئلته الثلاثة ؟ لقد رفضت أنت تلك الحقائق آنئذ ، والكتب المقدسة تصفها بأنها « غوايات » • ومع ذلك ، لئن وُجدت على هذه الارض فى يوم من الايام معجزة كبرى ، معجزة صادقة ، فان تلك المعجزة انما تحققت فى ذلك اليوم بعينه ، وفى تلك الغوايات الثلاث • لقد كانت تلك الاسئلة معجزةً من المعجزات لمجرد أنها أُلقيت• لنتصور،

على سبيل الافتراض وحده، أن الأسئلة الثلاثة التي ألقاها الروح الرهيب قد تبددت دون أن تترك أثراً في الكتب المقدسة ، وأن علينا أن نعثر عليها اليوم وأن نعيد بناءها وأن نكتشفها من جديد حتى نضمها الى النصوص المقدسة • لنتصور أننا جمعنا لتحقيق هذا الهدف جميع حكماء الارض ـ رؤساء الدول وأمراء الكنيسة والعلماء والفلاسفة والشعراء ـ وقلنا لهم : « أوجدوا لنا ، تخيلوا لنا ثلاثة أسـئلة لا تكون على مستوى الحدث فحسب ، بل تلخص بالاضافة الى ذلك ، في ثلاث جمل انسانية بسيطة، كل مستقبل العالم والانسانية» • فهل تظن أن كل حكمة الارض المجتمعة في هؤلاء الرجال تقدر على أن تتصور ، ولو من بعيد ، شيئاً يشبه بقوته وعمقه ، تلك الأسئلة الثلاثة التي ألقاها عليك في الصحراء ذلك الروح القوي العميق ؟ ان تلك الأسئلة الثلاثة وتلك الحادثة المعجـزة ، أعني كون الأسئلة قد ألقيت ، تشهد بأن الأمر لم يكن أمر عقل انساني عادي، بل أمر فكر خالد مطلق • ذلك أنها تضم في ذاتها ، تشتمل في ذاتها على كل التاريخ المقبل للانسانية ، وتقدم رموزاً ثلاثة تنحل فيها جميع تناقضات الطبيعة الانسانية ، التي لا سبيل الى حلها • ان تلك الحقائق لم تكن ظاهرة آنئذ ظهوراً واضحاً ، لأن التطور الذي تطوره العالم بعدئذ لم يكن معروفا ؛ أما الآن ، بعد انقضاء خمسة عشر قرنا ، فاننا نرى أن كل شيء قد تضمنته وتنبأت به تلك الأسـئلة الثلاثة ، وأنها قد تحققت تحققاً يبلغ من الكمال والتمام أننا لن نستطيع أن نضيف اليها شيئاً أو أن نحذف منها شيئاً بعد اليوم •

» فاحكم في الأمر بنفسك : من ذا الذي كان على حق ، أأنت أم سائلك ؟ تذكر السؤال الأول من تلك الأسئلة الثلاثة ، لا نصه بل معناه العام : « تريد أن تمضي الى الناس ، وأنت تمضي اليهم خالي اليدين الا من وعد بحرية لا يستطيعون بحكم ما فطروا عليه من بساطة وحطة أن

يفهموها ، عدا أنهم بالاضافة الى ذلك يخشونها ويخافون منها ، لأنه ليس هناك ولم يكن هناك فى يوم من الأيام حالة لا يطيقها البشر والمجتمع مثلما لا يطيقان الحرية . هل ترى هـذه الحجارة فى الصحراء الوعرة المحرقة ؟ حوِّلها الى خبز تهرع اليك الانسانية كقطيع جائع ، وتصبح شـاكرة لك مطيعةً اياك ، ولكنها سـتظل ترتجف خوفاً من ان تسحب يديك وأن تُحرم هي من الخبز » . غير أنك لم تشأ أن تحرم الانسان من الحرية ، فرفضت العرض قائلاً لنفسك لا حرية صادقة حيث تُشترى الطاعة بالخبز . لقد أُجبت بقولك : ليس بالخبز وحده يحيا الانسان . أفكنت تجهل اذن أن روح الأرض سيثور عليك باسم هذا الخبز الأرضى نفسه ، وأنه سـيقاتلك ويغلبك ؟ وأن الجمهور سـيهرع عندئذ نحوه قائلاً : « من ذا الذى يستطيع أن يقيس نفسه بهذا الوحش الذى وهب لنا نار السماء ؟ » . لسوف تنقضى قرون ، فيأتى يوم تنادى فيه الحكمة الانسانية وينادى فيه العلم الانسانى بأن الشر لا وجود له ، وأن الخطيئة تبعاً لذلك لا وجود لها ، مؤكدين أن هناك جائعين فحسب . « أطعمهم تجعلهم فاضـلين ! » . بهذه الصـيحة انما سيحملون الراية ضدَّك وسيقوِّضون معبدك . وسيقيمون فى مكانه مبنى آخر ، هو « برج بابل » ثانٍ مهدَّد . صحيح أن البناء لن يتم ، كما لم يتم فى المرة الأولى ، ولكن كان فى وسعك مع ذلك أن توفر على الانسانية آلام هذه المحاولة الجديدة وأن تختصر من عذابها ألف سنة . ذلك أن البشر انمـا سيتجون الينا نحن بعد أن يجهدوا فى بناء برجهم مدة عشرة قرون ! سيجيئون باحثين عنا كما فعلوا فى الماضى ، وسيجدوننا فى الأقبية التى نكون قد لجأنا اليها (لأننا سنُضطهد وسنعذَّب من جديد) ، سيجيئون قائلين لنا : « أطعمونا ، لأن الذين وعدونا بنار السماء قد خدعونا » . وسننهى عندئذ بناء البرج ، لأن الذين سيُطعمون البشر يستطيعون وحدهم أن يتموا هذا العمل حتى

النهاية . وسوف نطعمهم ، سوف نطعمهم نحن ولا أحد سوانا ، وسوف نفعل ذلك باسمك ، كاذبين عليهم مستمدين سلطتنا منك . بدوننا لن يستطيعوا أن يعيشوا فى هذا العالم ، وسيظلون دوماً جائعين ساغبين . لن يهب لهم العلم خبزاً ما ظلوا أحرارا ، ولكنهم سينتهون الى أن يرموا حريتهم على أقدامنا قائلين : « استعبدونا ولكن أطعمونا » . سيدركون هم أنفسهم أن الحريه لا تتفق وخبز الأرض ، ولا تتيح أن يصيب كل منهم من هذا الخبز كفايته ، لأنهم لن يتوصلوا الى اقتسامه بالعدل فى يوم من الأيام . وسيقتنعون كذلك باستحالة أن يكونوا أحرارا ، لأنهم ضعاف فاسدون صغار النفوس سريعون الى التمرد والعصيان . لقد وعدتهم بخبز السماء ، ولكننى أسألك مرةً أخرى : هل يقاس خبز السماء بخبز الأرض فى نظر الكثرة التى ستظل الى الأبد فاسدة عاقة ؟ اذا كانت ألوف من الناس أو كانت عشرات ألوف من الناس مستعدةً لأن تتبعك فى سبيل خبز السماء فماذا تفعل الملايين والمليارات من الكائنات التى لن تحس بأنها قادرة على أن تتنازل عن خبز الأرض فى سبيل خبز السماء ؟ أتراك لا تعطف الا على بضع عشرات من ألوف النفوس الكبيرة القوية ، وهل يجب على ملايين البشر ، هل يجب على الجموع التى لانهاية لعددها ، كرمل البحر ، هل يجب على هؤلاء الذين هم ضعاف ولكنهم يحبونك أيضا ، أن لا يكونوا الا مادةً مسخرة للكبار والأقوياء ؟ اننا نحن نرى غير هذا الرأى ، وان الضعاف أعزة على قلوبنا . انهم شريرون عصاة ، ولكن هؤلاء أنفسهم هم الذين يصبحون فى آخر الأمر أكثر الناس طاعة وخضوعا . سوف يعجبون بنا ويعدوننا آلهة ، لأننا نكون قد رضينا، حين صرنا قادةً لهم، أن نحمل عنهم عبء حريتهم وأن نسيطر عليهم ، فالى هذا الحد ستكون هذه الحرية قد أصبحت كريهة فى نظرهم بتقدم الزمن ! وسوف نوهمهم مع ذلك بأنهم انما يطيعونك أنت وبأننا

نحكمهم باسمك . سوف نكذب عليهم فى هذه النقطة أيضا ، لأننا لن نسمح لك بعد الآن بأن تتدخل فى شئوننا.وسيكون هذا الكذب الضرورى عذابنا . ذلك ما كان يعنيه السؤال الأول فى الصحراء ، ولقد رفضت نداء الروح الجبار باسم الحرية التى وضعتها فى أعلى منزلة ، وفضلتها على كل شىء . ولقد كان ذلك السؤال يخفى مع ذلك كل سرّ هذا العالم . فلو قد رضيت أن تعطى الخبز ، اذن للبيّت ما تنتظره الانسانية انتظارا أبديا منذ عهود سحيقة ، ولهدّأت القلق الذى يعذب الفرد ويعذب الجماعة كليهما : « من نطيع ؟ » فلا رغبة أقوى ولا همّ أبقى لدى الانسان الذى أصبح حراً من همّ العثور على سيد يحكم بأقصى سرعة . ولكن الانسان يتطلع الى الخضوع لحقيقة مؤكدة لا تُجحد ، حقيقة يحترمها جميع الناس برضى اجماعى . ان حاجة هذه المخلوقات الضعيفة ليست الى اكتشاف قوة يمكن أن يطيعها هذا الفرد أو ذاك من الأفراد ، وانما الى اكتشاف حقيقة عليا يمكن أن يؤمن بها الجميع ، ويمكن أن ينحنى لها « الناس كافة » . فهذه الحاجة الى « الاشتراك » هى بعينها الهمّ الرئيسى الذى يعذب كل فرد ويعذب الانسانية جملةً ، منذ أقدم عهود التاريخ . فباسم هذا التطلع الى العبادة الجماعية المشتركة انما أفنت الشعوب بعضها بعضا خلال الأحقاب . كانت الشعوب تصنع آلهة ثم تأخذ تتشاتم : « اتركوا آلهتكم وتعالوا اعبدوا آلهتنا . والا فالموت لكم ولآلهتكم ! » . وسيبقى الحال على هذا المنوال الى نهاية العالم ؛ وحتى بعد زوال الآلهة سيظلون يسجدون لمعبودات جديدة . ولقد كنت تعلم هذا السر الأساسى من أسرار الطبيعة الانسانية ، فليس يمكن أن تجهل هذا السر ، ولكنك رفضت الراية الوحيدة التى تملك قوة جذب مطلق والتى قدّمت لك للتأدى بجميع البشر الى الانحناء أمامك بغير تردد — أعنى راية الخبز الأرضى . لقد أقصيت هذه الراية باسم الحرية وباسم

الخبز السماوى • فانظر الآن فيما صنعت ! انظر فيما فعلت باسم الحرية ! أعود فأقول لك انه لا قلق أرسخ فى قلب الانسان من قلق الحاجه الى العثور على من يستطيع أن يضحى له سريعا بالحرية التى وُهبت له ، هو المخلوق التعيس ، منذ ولد • ولكن لا سبيل الى التصرف فى حرية البشر الا بتهدئة ضميرهم • ولقد كان فى وسعك أن تتخذ الخبز رايةً لا تخطىء • اطعم الانسان يُطعْك ، فلا شىء فى هذا العالم أعزّ على الجحود من الحاجة الى الأكل • ولكن اذا استولى غيرك عندئذ على ضمير البشر تركوك وعدلوا حتى عن خبزك ليتبعوا ذلك الذى يكون قد أخضع نفوسهم • فى ذلك كان رأيك صحيحا • ان سرّ الوجود الانسانى ومبرّره ليسا فى ارادة الحياة ، بل فى الحاجة الى معرفة السبب الذى يدعو الانسان الى الحياة • فالانسان ما لم يكن على يقين من هدف حياته، لا يقبل أن يؤثر فى العالم بل يؤثر أن يدمّر نفسه ، ولو ملك الخبز وافراً كل الوفرة • تلك هى الطبيعة الانسانية • ولكن ما الذى حدث ؟ حدث أنك بدلاً من أن تسيطر على الحرية الانسانية أردت لها مزيدا من النمو • فهل نسيت اذن أن الانسان يؤثر هدوء نفسه بل ويؤثر الموت على أن تكون له ملكة حرية الاختيار فى معرفة الخير والشر ؟ لا شىء يخلب اللب فى الوهلة الأولى أكثر من حرية الضمير ، ولكن لا شىء فى الواقع يعذب الانسان أكثر مما تعذبه هذه الحرية • فبدلاً من أن تحمل للانسانية الأسس الراسخة الثابتة الباقية للهدوء النفسى والطمأنينة الروحية ، وبدلاً من أن توفر لها هذه الأسس الى الأبد ، عرضت عليها ما فى هذا العالم من أمور سرية غامضة خارقة تفوق طاقة القوى الانسانية، وكنت فى عملك هذا كأنك لا تحب البشر ، أنت الذى انما جئت مع ذلك لتهب لهم الحياة ! انك بدلاً من أن تسيطر على الحرية الانسانية وسّعتها ، وبذلك ضاعفت ، الى غير نهاية ، الآلام التى تولّدها هذه

الحرية فى نفوس البشر • أردتَ من البشر أن يمنحوك حبهم أحرارا، وأن يتبعوك بارادتهم ، مفتونين بشخصك • ألغيت القانون القديم الذى كان قاسياً ولكنه كان وطيداً راسخاً ، فأصبح على الانسان أن يميّز الخير والشر بنفسه ، مستلهماً حكم قلبه ، غيرَ مسترشد فى تردده الا صورتك أمام عينيه • أفلم تتنبأ اذن بأن البشر سينوءون بهــذا الحمل الرهيب ، حمل حرية الارادة ، فاذا هم آخرَ الأمر ينبــذون فى يوم من الأيام صورتك ويشكون فى تعاليمك ؟ لسوف ينادون فى النهاية بأن الحقيقة لم تكن فيك ، فمن المستحيل القاؤهم الى اضطراب أشد وعذاب أرهب من الاضطراب والعذاب اللذين ألقيتهم اليهما حين تركت لهم كل هــذه الأنواع من القلق ، وكل هذا العدد من المشكلات التى لاسبيل الى حلّها. لقد زودتهم أنت نفسك بالأسلحة اللازمة لتهديم مملكتك ، فليس لك أن تتهم أحداً بتدميرها • فهل هذا ما عُرض عليك مع ذلك ؟ ليس على الأرض الا قوى ثلاث تستطيع وحدها أن تتغلب على ضمير هؤلاء المتمردين الضعاف قرونا ، وأن تخضعه فى سبيل سعادته نفسها ، ألا وهى: المعجزة، والسر ، والسلطة • ولقد رفضت هذه القوى الثلاث جميعا وعلمت البشر بقدوتك أن يحتقروها • فحين نقلك الروح الرهيب (ابليس) الى سطح المعبد وقال لك : « اذا أردت أن تتأكد أنك ابن الرب فألق بنفسك فى الفضاء ، لأنه كُتب أن الملائكة ستتلقفه وتســنده فلا يقع ولا يتحطم ، وعندئذ تعلم أنك ابن الله وتبرهن على قوة ايمانك بأبيــك » * ، ولكنك رفضت هذا العرض ولم تلق بنفسك فى الفضاء • صحيح أنك تصرفت فى تلك اللحظة تصرفاً فيه ما فى تصرف اله من عظمة وجلال ، ولكن هل تتصور أن البشر ، وهم جنس ضعيف متمرد ، يملكون من القوة الروحية ما يملكه اله ؟ لقد فهمت فى تلك اللحظة أن حركة بسيطة هى أن تهم بالقاء نفسك فى الفضــاء كان ستعنى اغراء الرب ، فلو قمت بها

لكنت بطلب المعجزة تبرهن على قلة ايمانك ، فاذا حُرمت من الايمان تهشمت أسوأ تهشم على الأرض التى جئت لتخلصها وتنقذها ، وتهلل الروح المحتال جذلا وطرباً • ولكننى أعود فأسألك : هل أمثالك كثير فى هذا العالم ؟ هل وقع فى وهمك لحظة واحدة أن البشر يمكن أن يكونوا هم أيضا فوق اغراءٍ من هذا النوع ؟ هل فى طبيعة البشر أن يتنازلوا عن المعجزة وأن يعتمدوا على حكم القلب وحده فى الساعات العصيبة من الحياة ، أمام المشكلات الخطيرة الأليمة التى تعرض للنفس ؟ لقد كنت تعلم أن موقفك البطولى سينتقل بالكتب المقدسة الى آخر العصور، وكنت تأمل أن يقتدى البشر بك فيقبلوا أن يظلوا وحيدين مع الله لا يطلبون معجزة من المعجزات • ولكنك لم تقدر أن الانسان متى جحد المعجزة أسرع يجحد الرب ، لأن ظمأه هو الى العجائب لا الى الرب ؛ وأنه لكونه لا يستطيع أن يحيا بغير معجزات ، سيخلق بنفسه معجزات ، فيهوى ، ولو كان متمردا وكافرا وملحداً ، الى خرافات سخيفة ، تنطلى عليه أباطيل السحرة وخزعبلاتهم • انك لم تنزل عن الصليب حين دعاك الجمهور الى ذلك صائحاً من باب الاستهزاء : « انزل عن الصليب فنصدّق أنك أنت » • انك لم تنزل ، لأنك مرةً أخرى لم تشأ أن تستعبد البشر بالمعجزة ، وانما أردت أن يجيئوا اليك بدافع الايمان لا بتأثير العجائب • كنت تريد أن يهبوا لك محبتهم أحرارا لا أن ينصاعوا لك عبيدا أذهلتهم قوتك • هنا أيضا أسرفت فى تقدير البشر وأنزلتهم منزلة أعلى من منزلتهم ، ذلك أن البشر عبيد ، رغم انهم مفطورون على التمرد • انظر فيما حولك : ماذا أصبح البشر بعد انقضاء خمسة عشر قرنا ؟ ما عدد أولئك الذين رفعتهم الى مستواك ؟ أحلف لك ان الانسان أضعف وأسوأ مما ظننت ! هل يستطيع هو الوضيع أن يحقق ما حققته أنت ؟ انك حين احترمته ذلك الاحترام كله قد تصرفت تصرف من فقد عطفه عليه ،

لأنك سألته فوق ما يطيق ، أنت الذى أحببته أكثر من نفسك ! فلو أنك قدرته أقل مما قدرته اذن لطلبت منه أقل مما طلبت ، ولكان موقفك عندئذ أقرب الى المحبة ، لان العبء عليه يكون عندئذ أقل ثقلاً . ان الانسان ضعيف وجبان . لا يهمنى أن يكون الآن قد ثار فى كل مكان على سلطتنا ، وانه يرى فى عصيانه الآثم هذا مجداً يعتز به . ذلك غرور طفل ، ذلك غرور تلميذ . ان البشر يشبهون تلامذة صغاراً ثاروا فى المدرسة وطردوا معلمهم . ولكن فرحتهم لن تدوم ، وستكلفهم ثمناً باهظاً . سوف يهدمون المعابد ، وسوف يجرى الدم سيولاً على الأرض. وسوف يدركون عندئذ ، سوف يدرك هؤلاء الصبية الأغبياء ، أنهم ان خلقوا عصاة متمردين ، فليس يتيح لهم ضعفهم أن يعيشوا زمناً طويلاً فى التمرد والعصيان . وسيعترفون وهم يسكبون دموعاً باطلة أن الذى وهب لهم روح العصاة قد غرّر بهم وسخر منهم . سيقولون هذا محزونين مكروبين ، وسيكون هذا القول تجديفاً يجعلهم أعظم شقاء أيضا ، لأن الطبيعة الانسانية لا تحتمل التجديف ، ولابد أن تثأر لنفسها منه آخر الأمر . القلق ، الاضطراب ، العذاب ، ذلك هو المصير الذى كتب على البشر الآن ، بعد أن تحملت أنت كل ما تحملته فى الماضى من أجل أن تهب لهم الحرية ! ان رسولك الكبير* يروى أنه أبصر ، فى رؤيا ، جميع المشتركين فى البعث الاول ، فرأى اثنى عشر ألفا من كل سبط . لقد كانوا ، مهما يكثر عددهم ، أقرب الى آلهة منهم الى بشر : قاسوا ما قاسيت وعاشوا عشرات السنين فى الصحراء القاحلة ، وأضناهم الجوع ، واقتاتوا بالجراد والجذور . صحيح أن فى وسعك أن تعتز بأبناء الحرية هؤلاء الذين وهبوا لك محبتهم أحرارا ، وارتضوا طائعين مختارين أن يضحوا فى سبيلك بأنفسهم فى سورة رائعة . ولكن تذكر أن هؤلاء ليسوا الا بضعة آلاف ، وأنهم أشبه بآلهة منهم ببشر . والآخرون ؟ ما ذنب

الآخرين اذا هم لم يستطيعوا أن يحتملوا ما احتمله هؤلاء الأقوياء من محن ؟ هل تأثم النفس الضعيفة حين لاتعرف كيف تسمو الى فضائل مخيفة الى هذا الحد ؟ أتراك جئت من أجل هذه الصفوة وحدها ؟ أأنت لا تفكر الا فيها ولا يخطر ببالك من عداها ؟ اذا كان الأمر كذلك فهو سر يفوق ما نملك من قدرة على الفهم ؛ ومن حقنا فى هذه الحالة نحن أيضا أن نلجأ الى السر ، وأن نعلّم الجماهير أن الأمر الأساسى ليس هو المحبة ولا هو أن يقرر قلبهم تقريرا حراً ، وانما هو الخضوع الأعمى لما لا سبيل الى معرفته ، وأن يطيعونا اذن ولو عارضهم فى ذلك ضميرهم. وهذا بعينه هو ما فعلناه . أصلحنا خطأك الذى ارتكبته حين عدلت ذلك العدول البطولى عن المعجزة ، فبنينا عملك على ما هو « فوق الطبيعة » ، بنيناه على « السر » ، بنيناه على « المعجـزة » . وابتهج الناس اذ رأوا أنفسهم يُقادون من جديد كما يُقاد قطيع ، ورأوا أنفسهم يتحررون من تلك الهبة المشئومة التى وهبتها لهم فكانت مصدر أنواع من العذاب قاسوها . قل : هل كنا على صواب حين فعلنا وعلّمنا على هذا النحو ؟ هل يمكن أن يؤخذ علينا حقا أننا لم نحب الانسانية حباً كافياً ، بينما نحن اعترفنا بوهنها فى كثير من الاذعان والتسليم ، وخففنا عنها الحمل فى كثير من الالحاح حتى لقد أبحنا لها أن ترتكب الخطيئة لعلمنا بضعفها الروحى ، شريطة أن تستأذننا فى ذلك كل مرة ؟ فلماذا تجىء الآن لتبث الفوضى فى عملنا ؟ مالك تحدّق الىّ هكذا صامتاً بعينيك الرقيقتين النفاذتين ؟ أحرى بك أن تغضب . اننى لا أريد محبتك ، لأننى أنا نفسى لا أحبك . ولست أحاول أن أخفى عنك ذلك ، لأننى أعلم من ذا الذى أخاطب ، أليس كذلك ؟ ثم انك تعرف كل ما قد أقوله لك ، أقرأ ذلك فى عينيك . ففيم المواربة والحالة هذه ؟ ان سرنا لن يخفى عنك ، فلعل ما تريده اذن هو أن تسمع هذا السر من فمى ؟ ليكن لك ما تريد

ألا فاعلم أننا لسنا معك ، بل معه « هو » • ذلك هو سرنا • اننا منذ زمان طويل قد كففنا عن أن نكون معك ، وتحيزنا له «هو» • فمنذ ثمانية قرون قبلنا منه ما سبق أن رفضته أنت مستاءً ، أعنى الهبة الأخيرة التى عرضها عليك وهو يشـير لك الى ممالك الأرض* : لقد قبلنا أن نأخذ من يديه روما وأن نأخذ السيف من قيصر ، وأصدرنا قراراً بأن نكون لهذا العالم ملوكه الوحيدين ، رغم أننا لم ننجز الى الآن عملنا • ولكن من المذنب فى هذا ؟ ان هذا المشروع ما يزال فى أوله ، ولكنه بُدىء • ولا بد من الصبر طويلاً قبل أن نصل به الى غايته ، ولا بد من آلام كبيرة فى هذه الحياة الدنيا ، ولكننا سنبلغ هدفنا وسنصبح سادة الكون • وسيتاح لنـا عندئذ أن نفكر فى سعادة مشتركة تنعم بها الانسانية • لقد كان فى وسعك أن تقبل السيف من قيصر فى الماضى ، فلماذا رفضت تلك الهبة الأخيرة ؟ لو اتبعت الوصية الثالثة التى نصحك بهـا الروح القوى ، اذن لكان فى وسعك أن تحقق كل ما تتمناه الانسانية ، وهو أن تعـرف : من تطيع ، والى من تعهد بقيادة ضميرها ، وبأى وسيلة توحِّد جميع البشر فى مجتمع كمجتمع النمل ، واحد كبـير منظم • ذلك أن الحاجة الى الوحـدة الشاملة هو ثالث هموم النفس الانسانية وهو فى الوقت نفسه أقوى هذه الهموم طراً • ان الانسانية قد حاولت فى جميع الأزمان أن تنظم نفسها على أساس شامل • ان هناك أمماً كثيرة عظيمة كان لها تاريخ مجيد ، ولكن شقاءها كان كبيرا على مقدار نبلها ، لأنها أحست أكثر من غـيرها من الشعوب بالحاجة الى توحيد النوع البشرى • ان الغزاة الكبار ، من أمثال تيمورلنك وجنكيز خان ، الذين مروا على الأرض مرور اعصـار مخرب وعاصفة مدمرة ، كانوا يتوقون الى أن يصبحوا سادة العالم بأسره ، ولكن شوقاً عميقاً واحدا الى توحيد جميع الشعوب كان يحركهم دون أن يشعروا بذلك • فلو أنك قبلت قانون القاصرة ومقامهم ، لكان فى

وسعك أن تبنى الامبراطورية الشاملة وأن تكفل السلام للانسانية الى الأبد . على من يقع عبء حكم البشر ان لم يقع على أولئك الذين يحكمون النفوس منذ الآن ويملكون الأغذية الأرضية ؟ لقد أخذنا السيف اذن من قيصر ، واذا فعلنا ذلك فقد أنكرناك أنت لنتبعه «هو» . ستنقضى قرون طويلة فى فوضى التحلل الفكرى والعلم الباطل وأكل لحوم البشر ، ذلك أنهم ما داموا قد شرعوا فى بناء برج بابل بدوننا لا بد أن ينحدروا حتماً الى أكل لحوم البشر . ولكن « الوحش » سيجىء بعد ذلك الينا زاحفاً ، وسيلعق أرجلنا التى سيبللها بدموعه الدامية . وسوف نركبه ، ونرفع نحو السماوات كأساً نقشت عليه هذه الكلمة : « السر » . ويومئذ انما ستدق ساعة السلام والسعادة للانسانية . انك فخور بصفوتك المختارة ، ولكن الصفوة وحدها معك ، أما نحن فسوف نعرف كيف نحمل الطمأنينة الى جميع النفوس . وحتى بين أبناء هـــذه الصفوة المختارة ، حتى بين هؤلاء الأقوياء ، ما أكثر الذين كانوا يتطلعون الى خدمتك ، فانتظروك عبثاً ، ثم سئموا من هـــذا الصبر الطويل العقيم ، فوقفـــوا قوى فكرهم وحماسة قلبهم على غايات أرضية صرفة ، وانتهى بهم الأمر الى رفع راية حريتهم عليك ! ألست أنت الذى أعطيتهم راية الحرية هذه ؟ أما نحن الذين نهش على البشر بعصانا ، فان البشر سـيكونون ســعداء معنــا ، وسيعزفون عن التمرد علينا . ولن يبيد بعضهم بعضــاً كما يفعلون الآن فى كل مكان بفضل الحرية التى تركتها لهم . وسوف نعرف كيف نقنعهم من جهة أخرى بأنهم لن يكونوا أحراراً الا متى تنازلوا عن اســتعمال حريتهم ، وسنكون قد ألزمناهم بخضوع لا رجعة عنه . هل ما نقوله لهم هو الحقيقــة أم هو كذب ؟ انهم لن يلبثوا أن يدركوا أنه هو الحقيقــة ، لأنهم سيتذكرون العبودية والآلام التى قادتهم اليها حريتك . ان التحلل، وحق حرية النقد ، والعلم ، ان كل ذلك ســـيؤدى بهم الى طريق غير

نافذة ، لأنه سيلقيهم فى اضطراب لا مخرج منه ملىء بالألفاظ التى لا سبيل الى حلها ، زاخر بالمعجزات المحيّرة • فأما العصاه العنيفون منهم فسيدمرون أنفسهم من شدة الكرب ، وأما العصاة الضعاف فسيقتل بعضهم بعضاً • ولكن الجمهرة الكبرى من الضعاف ، وهم أشقى من أن يتمردوا ويعصوا ، فانهم سيزحفون على أقدامنا قائلين لنا : « أنتم على حق • اننا نعترف بهذا الآن ، لأنكم كنتم وحدكم تملكون أسراره • نحن نعود اليكم • انقذونا من أنفسنا ! » • وحين سيتلقون الخبز من أيدينا ، سيرون حق الرؤية انهم هم الذين أنتجوه بعملهم ، وأننا أخذناه منهم لنوزعه بعد ذلك بدون أية معجزة • سيفهمون أننا لم نقلب حجارةً الى خبز ، ولكنهم سيغتبطون بأنهم طعموا ، وسيغتبطون أكثر من ذلك بأنهم طعموا على أيدينا : لن ينسوا قط أن الخبز الذى صنعوه كان ، بدوننا ، يتحول فى أيديهم الى حجارة ، حتى اذا رجعوا الينا تحولت الحجارة خبزاً لهم• سيعرفون كيف يقدّرون بعد الآن قيمة الخضوع النهائى ! لم يكن من الممكن أن تكون حياتهم الا شقاء ، ما ظلوا لا يفهمون ذلك • فمن ذا الذى ساهم أكثر من غيره فى قلة الفهم تلك ؟ من الذى خرّب تلاحم القطيع وبعثره فى طرق مجهولة ؟ ولكن القطيع سيتجمع من جديد ، وسيعود الى طواعيته ، الى الأبد فى هذه المرة • وسوف نهب عندئذ لهذه الكائنات الضعيفة الجبانة سعادة متواضعة وادعة هى السعادة الوحيدة التى تناسبهم • سنعلمهم أخيراً أن لا يزهوا بأنفسهم ، لأنك قد رفعتهم فجعلتهم متكبرين • سنبرهن لهم على أنهم لا قوة لهم ولا شجاعة ، وأنهم أطفال يرثى لحالهم ، ولكن سعادة الأطفال هذه هى أعذب سعادة • سوف يصبحون خجولين ، وسوف ينظرون الينا نظرتهم الى حماة يحمونهم ، وسوف يتراصون حولنا خائفين كما تتراص أفراخ الدجاجة حول أمها • سوف يدهشهم ويرعبهم أن يلاحظوا قوتنا ، فخورين بأن لهم سادة يبلغون

هذا المبلغ من القوة والذكاء ، سادة عرفوا كيف يسيطرون على هـذا القطيع من البشر الذى لا تهدأ حركته ولا يحصى عدده • سوف يرتعشون خوفا أمام غضبنا ••• ســوف تتخدر عقولهم وتدمع أعينهم كالنســاء والأطفال • ولكنهم ، باشارة منا ، سوف ينتقلون بمثل هذه السرعة الى الفرح والمرح والغبطة ، ضــاحكين بهناءة ، مغنين كالصــبية الصغار • وسنجبرهم على العمل طبعاً ، ولكننا سنهيىء لهم فى ساعات فراغهم حياة أشبه باللعب ، فيها أغانٍ وجوقات وحتى رقصات بريئة • أوه ! وسنسمح لهم أيضا بأن يأثموا ما داموا ضعافاً الى هذا الحد من الضعف ، وسيحبوننا كالأطفال بسبب تسامحنا • سنقول لهم ان كل خطيئة يمكن التكفير عنها اذا هى ارتكبت بموافقتنا • سنبيح لهم أن يأثموا لأننا نحبهم ، أما العقاب فسنأخذه على عاتقنا ، لا بأس ••• لسوف يحبوننا على أننا مخلّصون لهم ، لأننا سوف نقبل أن نكون مســئولين عن خطاياهم وذنوبهم أمام الرب • وان يكتموا عنا سراً • سنبيح لهم أو نحظر عليهم ، تبعاً لدرجة طاعتهم ، أن يعيشــوا مع نسائهم أو خليــلاتهم ، وأن ينسلوا أو أن لا ينســلوا ، وسيخضعون لتوجيهاتنا فرحين • سيفضــون الينا بأخفى ما يعانون من آلام ، وأخفى ما يضطرم فى ضميرهم من أنواع العذاب • وسنفصل فى جميع الحالات ، وسيرتضون حلولنا سعداء، لانها ستحررهم من القلق الذى يعانيه المرء متى كان عليه أن يتخذ قرارا حراً • وسيكون جميع الناس سعداء ، جميع هؤلاء الملايين من البشر ، باستثناء بضع مئات من الألوف الذين ستقودهم : سنكون وحدنا أشقياء ، نحن الذين نملك السر • سيكون فى هذا العالم مئات الملايين من الأطفال السعداء ، لن يكون فيه الا مائة ألف من الأشقياء هم الذين أخذوا على عاتقهم تحمل عذاب المعرفة ، معرفة الخير والشر • وسوف يموت أولئك موتاً غامضاً، ينطفئون باسمك وادعين مسالمين ، فلا يجدون فى الحيــاة الآخرة الا

العدم • ولكننا سنعرف كيف نحتفظ بسر الموت ؟ ومن أجل سعادتهم سنلألىء أمام أبصارهم جمال المكافآت السماوية والحياة الأبدية • لئن كان بعد القبر حياة أخرى فلا شك أن هؤلاء الضعاف ليسوا من ستوهب لهم تلك الحياة الأخرى • ان النبوءات تزعم أنك ستعود فى يوم من الأيام لتحقق نصراً جديداً على الشر ، وأنك ستظهر محاطاً بمن اصطفيت من أصحاب النفوس القوية المتكبرة الذين أنقذتهم • لسوف نجيب عندئذ بأن هؤلاء انما أنقذوا أنفسهم وحدها ، أما نحن فقد جئنا بالخلاص للناس كافة • يقول ان الزانية الدنيئة التى تركب « الوحش » * وتحمل بيديها « كأس السر » ، سيجللها الخزى والعار ذات يوم وان الضعاف سيثورون من جديد فيمزقون رداءها الدينى الكاذب ويعرُّون جسدها « النجس »• ولكننى سأنهض عندئذ فأشير لك الى تلك الملايارات من الاطفال السعداء الذين يجهلون كل خطيئة ؟ ونحن الذين نكون قد أخذنا على عاتقنا أخطاءهم لنحقق سعادتهم ، سوف نمثل أمامك ونقول لك : « احكم علينا اذا كنت تستطيع ، اذا كنت تجرؤ ! » • ألا فاعلم اننى لا أخشاك • ألا فاعلم اننى عشت أنا أيضا فى الصحراء أقتات بالجراد وجذور النبات ، وأننى باركت الحرية التى وهبتها للبشر • وكنت أتهيأ لأن أدخل سلك صفوتك المختارة ، وأن أكون واحدا من الأقوياء المتكبرين الذين يتألف منهم جيش أتباعك الصغير ، وكنت أحترق شوقاً الى أن «أكمل عددهم»• ولكننى رجعت الى صوابى فى الوقت المناسب ، فأصبحت لا أريد أن أخدم عقيدة طائشة • لقد عدت عن الخطأ والضلال وانضممت الى صف أولئك الذين يعملون فى « اصلاح ما قمت أنت به » • تركت صفوف المتكبرين ، وانضممت الى المساكين لأعاون فى تحقيق سعادتهم • ان ما أعلنه لك اليوم سيتحقق ، وان مملكتنا ستُبنى فى هذا العالم • أعود فأكرر لك : انك سترى غدا هذا الجمهور المطيع ، هذا القطيع الطيِّع

يسرع باشارة منى الى اضرام ألسنة اللهب التى ستُحرق بها مزيدا من الاضرام باضافة فحم متقد الى النار • ذلك أننى سآمر بحرقك لأعاقبك على أنك جئت تدخل البلبلة فيما نقوم به من عمل • لئن وجد زنديق يستحق أن يهلك فى النار ، فهذا الزنديق هو أنت • غداً ستُحرق • انتهى كلامى • • »

صمت ايفان • كان قد تحمس أثناء الكلام ، فختم قصته بنوع من الاندفاع الجامح • حتى اذا فرغ من حديثه ظهرت فى شفتيه ابتسامة على حين فجأة •

وقد أصغى اليه أليوشا صامتاً ، ولكنه فى أواخر الحديث حاول مراراً ، وقد استبد به اضطراب داخلى عنيف ، أن يقاطع أخاه • ومع ذلك فقد كبح جماح نفسه حتى النهاية • وها هو ذا الآن يدع لاستيائه أن ينفجر ، ويكاد يثب عن مقعده • صاح وقد احمر وجهه احمرارا شديدا :

ـ ولكن ••• ولكن ••• ان قصيدتك تمدح المسيح فى الواقع بدلاً من أن تخزيه كما كنت تريد فيما يبدو • من ذا الذى يقبل تأويلك هذا للحرية ؟ أهكذا يجب أن تُفهم الحرية ؟ ان الكنيسة الأرثوذكسية لا تتصور الحرية أبداً على طريقتك هذه ••• انك تعرض تصور الذين يدينون بالكاثوليكية الرومانية ، بل ان هذا التصور ليس تصور جميع الكاثوليكيين ـ ذلك خطأ ! ـ وانما هو تصور أشرارهم فحسب ، هو تصور أعضاء محاكم التفتيش واليسوعيين ! ••• ثم ان صاحبك كبير المفتشين رجل لا صلة له بالواقع ، وانما هو شخصية خيالية لا يمكن وجودها • ما هى خطايا البشر التى يدعى أنه أخذها على عاتقه ؟ أين رأيت حملة السر هؤلاء الذين يزعم أنهم ارتضوا لا أدرى أى عذاب

في سبيل سعادة الانسانية ؟ أين وُجد هؤلاء ؟ انما نعرف اليسوعيين . لقد قيل فيهم سوء كثير ، ولكن هل هم يشبهون حقا الصورة التي ترسمها لهم ؟ انهم ليسوا كذلك البتة ... كل ما هنالك أنهم يمثلون جيش الكنيسة الرومانية من أجل أن يغزوا في المستقبل امبراطورية الأرض التي سيرأسها حبر روما برتبة امبراطور ... ذلك هو مثلهم الأعلى ، وهو لا يشتمل على سر ولا على ذلك الحزن النبيل الذي لا يُفهم ... انه الظمأ الى السيطرة والتسلط ؛ انه شهوة الفوز بخيرات الأرض الحقيرة ؛ انه الرغبة في استعباد الناس ... انهم يحلمون بالعودة الى نوع من نظام الرق يكونون فيه هم المالكين والمنتفعين ... ذلك هو طموحهم كله ! ولعلهم لا يؤمنون حتى بالله ... ليس صاحبك المفتش وليس عذابه النبيل الا خيالاً محضاً ...

قال ايفان ضاحكاً :

ـ لحظة ، لحظه ... لماذا تتحمس ؟ ثمرة من ثمرات خيالي ؟ لا أعارض في هذا . ذلك كله خيال طبعاً . ولكنني أرجو أن تسمح لي بالقاء هذا السؤال : هل تعتقد حقاً بأن الحركة الكاثوليكية في القرون الأخيرة لم تستلهم الا الظمأ الى السلطة والا شهوة الخيرات المادية الحقيرة؟ لا شك أن الأب بائيسي هو الذي قال لك هذا الكلام !

ـ بالعكس ! ان الأب بائيسي قد قال لي في يوم من الأيام كلاماً يشبه كلامك تقريبا ...

كذلك قال أليوشا ، ولكنه ما لبث أن أسرع يقول مستدركاً :

ـ أعني ... انه لم يقل ما قلته أنت بعينه البتة ...

قال ايفان :

ـ اسمع اسمع . هذا اعتراف له شأنه رغم قولك « بالعكس » !

كيف تستطيع أن تصدق أن أولئك المفتشين وأولئك اليسوعيين الذين تتكلم عنهم قد اتحدوا وتنظموا لا لشيء الا امتلاك الخيرات المادية الحقيرة ؟ لماذا لا يكون قد وجد بينهم فى يوم من الايام ولو انسان واحد من الصفوة المختارة يعذبه ألم نبيل ويستبد به حب الانسانية ؟ افرض أنه قد وجد ذات يوم ، فى عداد هؤلاء الطامعين الظامئين الى المباهج الارضيه السافله رجل واحد ، رجل واحد شبيه بصاحبى كبير المفتشين عاش فى الصحراء مثله واقتات بالجراد وجذور النبات وأضنى جسده وأماته فى سبيل الوصول الى الحريه والى الكمال . تخيل أن هذا الرجل قد أحب الانسانية طوال حياته واقتنع أخيراً بأن السعادة النفسية التى يقال ان السمو الروحى يحققها انما هى وهم باطل ما دام ملايين البشر الآخرين، وهم مخلوقات الهية مثله ، ما يزالون غارقين فى أقذار الفحش ، وأن حريتهم المزعومة ليست الا سخرية لاذعة مرة ، وأن هؤلاء العصاة المساكين لن يكونوا فى يوم من الايام عمالقة قادرة على اكمال بناء البرج ... أى أنهم لن يصلوا فى يوم من الايام الى حريتهم ، وأن حلم الانسجام والتناسق الذى حلم به المثالى الكبير لم يخلق لهذا النوع من الأوز ! ... تخيل أن هذا الرجل قد أدرك ذلك ، فعاد الى صوابه ، وانضم الى الناس الأذكياء ... أهذا فى رأيك افتراض مستحيل ؟

قال أليوشا فيما يشبه الغضب :

ـ الى من انضم ؟ من هم هؤلاء الناس الأذكياء ؟ انهم لا ذكاء لهم البتة ، وليس عندهم سر ولا ما يشبه السر ! هؤلاء زنادقة ... ذلك سرُّهم كله ! ان صاحبك المفتش لا يؤمن بالله ... الأمر بسيط !

ـ لنسلم بهذا . لقد فهمتَ أخيرا . صحيح ، انه أصبح لا يؤمن بالله ، ذلك كل سرِّه . ولكن أليس هذا عذابا بالنسبة الى رجل مثله

أفسد مستقبله بحياة التقشف فى الصحراء ثم لم يستطع أن يتحرر من حبه الانسانية ؟ لقد رأى فى أواخر أيامه بوضوح أن النصائح التى أسداها الروح الرهيب الكبير تستطيع وحدها أن تنظم على نحو مقبول بعض الشىء حياة العصاة الضعاف ، حياة هذه « المخلوقات الناقصة التى كانت للخالق تجربة ، وظفرت بالحياة سهواً وغفلة » . فلما اقتنع بهذه الحقيقة أدرك أن من الواجب اتباع الطريق الذى نصح به الروح العميق ، الروح الرهيب ، روح الموت والعدم . واذ كان منطقياً مع نفسه ، فقد أقرّ ضرورة الكذب على الناس وتضليلهم وخداعهم ، بغية السير بهم الى الموت والى العدم سيراً واعياً ، ولكن مع ترك أوهامهم لهم طوال الطريق ، حتى لا يكتشفوا الى أين يُسار بهم . فبهذه الطريقة يستطيع هؤلاء العميان المساكين أن يتوهموا على الأقل أثناء رحلتهم على الأرض أنهم سعداء . لاحظ أنه يرى نفسه مضطرا الى مقارفة هذا الكذب باسم ذلك الذى آمن به ايمانا مشبوبا طوال حياته . أفليس هذا عذاباً ؟ ألا انه لو اتفق أن وجد على مرّ العصور رجل واحد من هذا النوع بين صفوف « الجيش الظامىء الى السيطرة والى اللذات المادية الدنيئة » ، لكان فى هذا ما تُخلق منه مأساة حقة ! أكثر من ذلك : يكفى أن توجد شخصية واحدة من هذا النوع على رأس الكنيسة حتى توهب للكاثوليكية الرومانية روح وحتى تُنفخ فكرة موجِّهة فى فرقها الكثيرة وجماعاتها المتعددة وكهنتها ويسوعييها ، فكرةٌ عليا . أقول لك بصراحة : اننى على يقين من أن رجالاً من هذا النوع قد وُجدوا فى جميع الازمان بين قادة الكاثوليكية الرومانية ، وربما وجد منهم بين الباباوات انفسهم ! ومهما يكن من أمر ، فان ذلك العجوز اللعين الذى يصرّ ذلك الاصرار كله على حب الانسانية على طريقته يمكن أن يوجد فى أيامنا هذه ، مع عدد من أمثاله ، وأن لا يكون وجوده هذا مع أمثاله

نتيجة مصادفة ، بل ثمرة تفاهم واتفاق ، وأن يكون نوعاً من جمعية سرية أنشئت من زمن طويل للمحافظة على السر واخفائه عن أنظار الضعفاء والبؤساء ، وتأمين سعادتهم بذلك . لا بد أن يكون الأمر كذلك حتماً . هذا لا مناص منه . ويبدو لى من جهة أخرى أن الماسونيين الأحرار لا بد أن يكون لهم هم أيضا سر من هذا النوع يقوم عليه تنظيمهم . ولعل هذا هو السبب فيما يحمله لهم الكاثوليكيون من كره وبغض ، فهم يرون فيهم منافسين لهم يسيئون الى وحدة الفكرة ، بينما يجب أن لا يكون هناك الا قطيع واحد وراعٍ واحد ... ولكننى ألاحظ اننى فى دفاعى عن فكرتى أظهر بمظهر مؤلف عاجز عن احتمال نقدك . كفى هذا ...

لم يستطع أليوشا أن يمنع نفسه عن أن يسأله فى تلك اللحظة :

ـ أتراك تنتمى الى الماسونيين الأحرار ؟

ثم أضاف يقول :

ـ أنت لا تؤمن بالله .

ولكنه أضاف هذه العبارة بلهجة تنم عن حزن عميق فى هذه المرة . حتى لقد بدا له أن أخاه ينظر اليه وقد لاح فى وجهه السخر .

وسأله فجأة وهو خافض عينيه :

ـ كيف تنتهى قصيدتك ؟ أهى تقف عند هذا الحد ؟

ـ خطر ببالى أن أختمها على النحو التالى : صمت كبير المفتشين ينتظر من سجينه رداً . ان صمت السجين قد ثقل على نفسه . لقد اقتصر أسيره طوال مدة كلامه على أن يحدّق اليه بنظرة رقيقة نافذة ، عازماً عزماً واضحاً على أن لا يدخل فى مناقشة معه . كان العجوز يؤثر على ذلك أن يجيبه السجين ولو بكلمات لاذعة أو رهيبة . ولكن السجين لم

ينطق بكلمة واحدة • وهذا هو يقترب من العجوز فجأة فيطبع قبلة رقيقة على شفتيه الشاحبتين شحوب شفتى من بلغ من عمره التسعين • كان ذلك كل جوابه • ارتعش العجوز بتأثير هذه القبلة ، واختلج شيء ما في طرفي فمه • واتجه نحو الباب ففتحه وقال لسجينه : « اذهب الآن، ولا تعد بعد اليوم أبدا ، أبدا ! » • وأومأ له بيده الى « الشوارع المظلمة المقفرة من المدينة » • وانصرف السجين •

ـ والعجوز ؟

ـ حرقت القبلة قلبه ، ولكنه لم يعدل عن فكرته •

ـ التي هي فكرتك أيضا ، أليس كذلك ؟

بهذا صاح أليوشا يقول في مرارة • فأخذ ايفان يضحك • وقال :

ـ ما بك يا أليوشا ؟ ما هذا كله بجد • هي قصيدة سخيفة ألّفها طالب غبي لم يكن في يوم من أيام حياته قادراً على أن يسطر بيتين من الشعر • فلماذا تهتم بها هذا الاهتمام كله ، ولماذا توليها هذا الشأن كله ؟ أتراك ستظن أنني ذاهب الى الخارج لأنضم الى هؤلاء اليسوعيين ولأنخرط في صفوف أولئك الذين يدعون « اصلاح ما قام به المسيح » ؟ فيم يعنيني هذا كله ؟ لقد سبق أن قلت لك ان كل ما يعنيني هو أن أديم ابتهاجي الى الثلاثين من العمر ثم أرمي الكأس !

هتف أليوشا يقول ممتلئاً مرارة :

ـ وبراعم الربيع الغضة ، ماذا أنت صانع بها ؟ والقبور العزيزة عليك ، والسماء الزرقاء ، والمرأة التي تحب ؟ كيف ستعيش اذن ، وأين ستجد القدرة على أن تظل تحب ؟ انك بهذه الأفكار الجهنمية في رأسك وفي قلبك لن تستطيع ذلك ! بلى بلى ••• انك مسافر الى الخارج لتنضم اليهم ، والا فستقتل نفسك ••• انك لن تصمد !

قال ايفان ببطء وهو يبتسم ابتسامة باردة :

ـ فى نفسى قوة ستتيح لى أن أصمد مع ذلك •

ـ أية قوة ؟

ـ قــوة آل كارامازوف ••• قــوة الحطـة والخســة فى آل كارامازوف !

ـ ماذا اذن ؟ أتغرق فى العهر والفجور والفحش ، أتخنق الروح فى حضيض الجسد ؟ أهذا ما تفكر فيه ؟

ـ ربمــا ••• ولكننى سأعرف كيف أتحاشاه حتى الثلاثين من العمر • وبعدئذ •••

ـ ستعرف كيف تتحاشاه ؟ كيف ؟ هذا مستبعد ما دامت أفكارك هى هذه الأفكار •••

ـ بل سأعرف كيف أتحاشاه ، وذلك على طريقة آل كارامازوف أيضاً •

ـ على طريقة آل ••• أيكون ذلك باستيحائك النظرية القائلة ان « كل شىء مشروع » متى كان متفقاً والمصلحة ؟

قطب ايفان حاجبيه وشحب لونه شحوبا غريبا • وقال :

ـ آه ! أأنت تُلمع الى الفكرة التى عبَّرتُ عنها أمس عند شيخك، فكان أن أثارت استياء ذلك الشهم ميوسوف ••• تلك الفكرة التى تلقفها دمترى فصاغها تلك الصياغة الساذجة المفرطة فى السذاجة ؟ (أضاف ايفان ذلك وهو يبتسم ابتسامة متكلفة) ••• ليكن ! هو كذلك على وجه الاجمال ! كل شىء مباح • قلت ذلك ولن أنقضه • أما صياغة ميتيا فليست رديئة هى الأخرى •••

نظر اليه أليوشا صامتا •

واستأنف ايفان كلامه يقول بانفعال مباغت :

ـ كنت أحدث نفسى يا أخى بأننى سأحتفظ حين أســـافر بانسان واحد يحبنى على الأقل ، ولكننى ألاحظ الآن أن ليس لى فى قلبك مكان يا عزيزى المعتزل • أنا لن أنكر فكرتى القائله بأن « كل شىء مباح » ؛ ولكنك أنت ستنكرنى بسبب هـــذه الفكرة ، اذا صدق فهمى ، أليس كذلك ؟

نهض أليوشا واقترب من أخيه ، وطبع على فمه قبلةً رقيقة دون أن يقول شيئاً •

هتف ايفان يقول فى حماسة :

ـ هذا سطو أدبى • لقد سرقتَ الفكرة من قصيدتى • شكراً شكراً على كل حال • انهض يا أليوشــا • آن أوان الانصراف ، لى ولك على السواء •

خرج الأخوان ولكنهما توقفا على درجات باب الكاباريه •

قال ايفان بصوت جازم :

ـ اسمع يا أليوشا ••• اذا بقى فى نفسى من الحياة ما يكفى لأن أحب براعم الربيع النضرة ، فسيكون هذا بفضل ذكراك • سوف يكفينى فى ساعات الكمد واليأس أن أتذكر أنك ما تزال تحيا فى مكانٍ ما حتى أسترد حب الحياة فوراً • هل يرضيك هـذا ؟ عُدَّه تصريح حب ان شئت • والآن ••• ان طريقينا يفترقان • ستمضى أنت يمنةً ، وسأمضى أنا يسرة • كفى ثرثرات ، هل فهمت ؟ وحتى اذا لم أسافر غداً (وأنا أعتقد اننى سأسافر) ، فالتقينا مرةً أخرى ، فلا تعد الى هذه المسائل التى ناقشناها اليوم ، أرجوك • حذار من كلمة واحدة فى هذا الموضوع ! ولا تكلمنى أيضا عن دمترى فى المستقبل ، اننى أطلب منك هذا جازماً

قاطعاً . والأفضل أن لا تكلمني بعد الآن قط (كذلك أضاف يقول بعصبية مباغتة) . لقد استنفدنا كل ما كان علينا أن نقوله ، أليس هذا صحيحا ؟ وفي مقابل ذلك فانني أقطع لك هذا الوعد : حين سأقرر في الثلاثين من العمر أن « أرمي الكأس » ، فسوف أجيء لأراك مرةً أخرى ، حيثما كنت أعيش في ذلك الحين .. ولو كنت أعيش في أمريكا ... سأجيء اليك فنتناقش من جديد ... في وسعك أن تعوِّل على هـــذا . سأقوم برحلة خاصة لهذا الغرض . سيشوقني أن أراك عنــدئذ وأن أعرف ما الذي صرت اليه . ذلك عهد أقطعه على نفسي . وقد لا نلتقي قبـل انقضاء سبع سنين أو عشر ســـنين . اذهب الآن ، أسرع الى صاحبك «الأب سيرافيكوس» ، لأنه يحتضر . فاذا مات في غيابك فقد تحقد عليَّ لأنني أخَّرتك . الى اللقـــاء . قبلني أيضـــا ... هكذا ... والآن فاذهب ...

تركه ايفان وسار في طريقه دون أن يلتفت . ان هذا الانصراف المباغت يذكر بالطريقة التي ترك بها دمتري أخاه أليوشا أمس ، رغم أن الظروف مختلفة بعضها عن بعض كل الاختلاف . مسَّ هـذا التشابه الغريب فكر أليوشا مساً خاطفاً جداً ، فشـعر فجأة بحـزن وارهاق . لبث في مكانه بعض الوقت يتابع ببصره أخاه الذي كان يبتعد. لاحظ ، دون أن يعرف لماذا لاحظ ذلك في تلك اللحظة ، أن مشية ايفان كانت متمايلة بعض التمـــايل وان كتفه اليمنى تُرى من الظهـر أخفض من الكتف الأخرى . انه لم يلاحظ هذا يوماً من قبل . وأخيراً استدار هو أيضاً واتجه نحو الدير مسرعاً يكاد يركض ركضاً. كان الظلام قد هبط. شعر أليوشا بخوف غامض يجتاحه . لقـد نبت في نفســه احساس لم يستطع أن يستبين طبيعته . هبَّت الريح كما هبت في الليلة البارحة . وغمرته أشجار الصنوبر التي تبلغ السنة المائة من أعمـارها ، غمـرته

بحفيف شجي حزين حين دخل غابة المنسك • كان يركض • « الأب سيرافيكوس» ، أين تراه وجد هذا الاسم ؟ كذلك تساءل أليوشا •

ـ ايفان ، أخى المسكين ، متى عسى أراك ؟ ••• هذا هو المنسك ! آه ••• يارب ! نعم نعم ، سوف ينقذنى « الأب سيرافيكوس » ★ ••• سوف ينقذنى منه الى الأبد •

سوف يتساءل أليوشا مرارا أثناء حياته ، فى دهشة عميقة ، كيف أمكنه فى ذلك اليوم ، بعد أن ترك أخاه ايفان ، أن ينسى نسياناً تاماً أخاه دمترى ، مع أنه كان قد عزم عزماً أكيداً قبل ذلك ببضع ساعات على أن يعثر عليه مهما كلف الأمر ، ولو اضطر فى سبيل ذلك أن يعدل عن الذهاب الى الدير فى تلك الليلة •

٦

حيث لا سبيل الى الفهم بعد

اتجه ايفان فيدوروفتش ، بعد أن ودّع أليوشا ، الى مسكنه أي الى منزل أبيه فيدور بافلوفتش . ولكن الشيء الغريب هو أنه شعر فجأة بقلق لا يطاق ، يغزو نفسه ويزداد على قدر اقترابه من بيته . وليس القلق والحزن اللذان يشعر بهما هما اللذان يدهشانه، وانما يدهشه أنه لا يستطيع أن يحدد لهما سبباً . لقد سبق له كثيرا في الماضي أن أحس بحزن يستولى على نفسه ، ولا غرابة فى أن يكون حزيناً فى هذه اللحظة التى يتهيأ فيها للسفر بعد أن قطع صلته بكل ما يشده الى هذه المدينة ، والتى يهمّ فيها أن يسير فى اتجاه جديد مايزال يجهله . سوف يكون وحيدا من جديد ، وحيداً كل الوحدة كما كان من قبل ، مع آماله العريضة الواسعة ، لأنه ينتظر من الحياة أشياء كثيرة ، لعلها مسرفة فى الكثرة ، دون أن يعرف ما هى هذه الأشياء من جهة أخرى . وهو يشعر بأنه عاجز عن أن يرى هذه الآمال وحتى هذه الأشواق رؤية واضحة . غير أن الشيء الذى يعذبه فى هذه اللحظة ليس هو تلك الخشية من مستقبل غير محدد ، رغم أن هذه الخشية قائمة فى نفسه . تساءل قائلا : « أتراه هو الاشمئزاز الذى يوقظه فى نفسى منزل أبى ؟ لكأننى قد بلغت من كره هذا المنزل أننى لا أستطيع التغلب على

التقزز من الذهاب اليه رغم علمي بأنني أجتاز عتبته آخر مرة ••• ولكن لا ••• لا ••• ليس هذا سبب الارهاق الذى أشعر به الآن • أهـو اذن وداع أليوشا والحديث الذى جرى بيني وبينه ؟ لقد أصررت على الصمت سنين طويلة ، لا أتنازل أن أفتح فمي بكلمة لانسان ، ثم هأناذا أخرج جميع تلك السخافات دفعةً واحدة • » صحيح أن من الجائز أن يشعر لقلة تجربته وشدة غروره ، غرور المراهق ، بشيء من الحسرة والأسف على أنه لم يستطع أن يعبّر عن نفسه كما كان يتمنى أن يعبر، ولا سيما أمام انسان كأليوشا ينتظر منه فى قرارة نفسه أشـــياء كثـيرة • لا شك أن فى نفسه الآن شيئاً من الحسرة والأسف ، ذلك لابد منه •• ولكن ليس هذا ما يثقل على صدره الآن ويخنقه خنقاً ••• هناك شيء آخر ••• ولكن ما هو ؟ « ان غماً يملأ جـــوانب نفسى حتى ليكاد يثير غثيانى ، ولست أصل الى معرفة ما يعوزنى ومعرفة ما أريد • لعل الأفضل أن لا أفكر فى هذا الأمر ••• » •

حاول ايفان فيدوروفتش أن « لا يفكر فى هذا الأمر » ، ولكنه لم يفلح • ان الغم الذى يشعر به يتميز بهذا الطابع المثير وهو أن مصدره علة خارجية عرضية طارئة • ان ايفان يحس ذلك احساساً واضحاً • ان الأمر أمر شيء أو شخصٍ ـ لا يدرى ايفان على وجه الدقة ـ لايطاق وجوده فى نظر ايفان • ان ايفان يحس بضيق شبيه بالضيق الذى يثيره فى النفس أحيانا ، أثناء العمل أو أثناء حديث حار ، وجودُ شيء مزعج لم يره المرء رؤية واعيةً بعد ، ولكنه يغتاظ منه غيظاً يحاصره ويسـد عليه الأبواب الى أن يخطر بباله أخيرا أن يزيح سبب هذا الانزعاج الذى كثيرا ما يكون سبباً تافهاً : شيئا ليس فى مكانه ، منديلا ساقطا على الأرض، كتابا نُسى وضعه فى المكتبة ، الخ •

بلغ ايفان منزل أبيه أخيرا ، معتكر المزاج جدا ، مهتاج الأعصاب

احتياجا شديدا • وحين أصبح على مسافة خمس عشرة خطوة من باب الحديقة الحديدى ألقى نظرة على مدخل المنزل فأدرك على حين فجأة ما كان يحنقه ويعذبه طوال الطريق •

كان الخادم سمردياكوف جالساً على دكة قرب الباب الكبير يتمتع بطراوة الجو • فما ان لمحه ايفان فيدوروفتش حتى أدرك أن صورة هذا الخادم كانت قد لازمت خيـاله على غير علمٍ منه ، فكان يضيق ذرعاً بها ولا يطيقها • لقد اتضح كل شيء• فحين كان أليوشا يحدثه، فى الكاباريه، عن اجتماعه بالخادم ، شعر ايفان بانزعاج شديد ونفور قوى لم يلبثا أن استحالا الى غضب وحنق • ولقد انقطع عن التفكير فى سـمردياكوف أثناء الحديث الذى أعقب ذلك ، غير أن غيظاً ثقيلاً قد بقى فى قلبـه ، فلما ترك أليوشـا واتجه الى منزل أبيه استيقظ فيه ذلك الاحسـاس بالانزعاج دون أن يستطيع الاهتداء الى أصله • تسـاءل ايفان محتداً : « كيف يمكن أن يقلقنى هذا الجرو الغبى مثل هذا الاقلاق ؟ » •

والواقع أن ايفان فيدوروفتش كان قد كره هذا الرجل منذ زمن، ولا سيما فى الأيام الأخيرة • وكان يدرك هو نفسه أن العداوة التى يشعر بها نحو هذا الانسان تشبه أن تكون بغضاً ومقتاً • ولعل عداوته له قـد استفحلت واحتدت لأن موقف ايفان فيدوروفتش من الخادم كان عنـد وصوله الى مدينتنا يختلف عن هذا الموقف كل الاختلاف • لقـد أظهر ايفان فى ذلك الوقت شـيئاً من الاهتمام بالخـادم ، حتى لقد عدّه امرءاً طريفاً كل الطرافة ، وشجّعه على أن يتحدث اليه ، دون أن يفوته مع ذلك ما كان فى أحاديث هـذا الرجـل من بعض التفكك ، أو قل من بعض القلق ، وكان ايفان يتسـاءل : تُرى ما الذى يهزّ فكر هذا «المتأمل» على هذا النحو بغير انقطـاع ؟ لقد عالجا موضوعات فلسفية ، وناقشا ، فيما ناقشا ، مسألة الضياء من أين جاء فى أول يوم من أيام خلق

العالم ما دامت الشمس والنجوم والقمر لم تخلق الا فى اليوم الرابع من أيام الخلق ؟ وتساءلا : كيف يمكن تاويل هذه الآيه من التوراة ؟ ولكن ايفان فيدوروفتش لم يلبث أن لاحظ أن سمردياكوف لا يعبأ بالكواكب كثيرا وأن مسائل علم النجوم لا تعنيه كثيرا وان تكن جذابة. كان واضحا أن ما يشغل باله ويملأ رأسه هو غير هذا تماماً . وشيئاً فشيئاً ظهرت أنانيته وظهر غروره ، يفاقمهما أنه سريع التأذى على ادعاء وتبجح . فهـــذه الخصال لم تعجب ايفان ، وولّدت نفوره منه وكرهه له ، وبعد ذلك ، حين انبثقت المشكلات العائلية المعقدة بظهور جروشنكا وقيام المنازعات بين دمترى وأبيه ، أتيح لايفان أن يتحدث عن هــذه المصاعب مع الخادم ، فكان يستحيل عليه ، رغم أن سمردياكوف كان يتكلم عن هذه المشكلات دائماً باضطراب شديد ، أن يدرك ماذا كان يريد الخادم أن يقـــول ، وما هو الشيء الذى يتمناه هو نفسه . ان ما يلمحه المرء فى رغباته من بعد عن المنطق والرشاد ، على نحو غامض ، يثير الدهشة والاستغراب . كان سمردياكوف يستوضح كثيراً ، ويلقى بعض الأسئلة مواربأ ، لغرض فى نفسه من غير شك ، ولكن دون أن يفصح عن هذا الغرض ، وكان يصمت فجأة فى بعض الأحيان أو ينتقل الى موضوع آخـر فى وسـط الكلام . ولكن ايفان انما أصبح يحنقه خاصة أن سمردياكوف قد أخذ يرفع الكلفة بينه وبينه ، فهو يخاطبه فى غير تحرج ، وهو يمعن فى ذلك مزيداً من الامعان يوماً بعد يوم . وقد ولّد هذا الموقف فى نفس ايفان نفوراً شديداً وعداوة حاسمة وكراهية قاطعـــة . ليس معنى ذلك أن سمردياكوف يجيز لنفسه أن لا يكون مؤدباً مهذباً مع ايفان . بالعكس: لقد كان يصطنع فى مخاطبته كثيراً من الاحترام . ومع ذلك فقد انتهت الأمور بالخادم الى حيث اعتقد ، لا ندرى لماذا ، أنه متضامن مع ايفـان فيدوروفتش . فهو يتحدث اليه بطريقة خاصة ، كأن بين الرجلين تفاهماً

مضمراً سرياً ، وتواطؤاً قائماً منذ زمن طويل ، وروابط لا يعرفها أحد غيرهما ولا يفهمها من يحيط بهما . ولقد لبث ايفان مدة طويلة لا يفهم السبب الحقيقى الذى يثير حنقه المتزايد ، ثم لم يدركه الا منذ بضعة أيام .

أراد ايفان ، وقد استبد به الاشمئزاز والغضب ، أن يجتاز الباب دون أن يبدو عليه أنه رأى سمردياكوف . ولكن سمردياكوف نهض عن دكته ، فسرعان ما أدرك ايفان من وضعه أنه يريد أن يحدثه حديثاً خاصاً . نظر اليه ايفان وتوقف . وما أشد ما أحنقه توقفه هذا ! لقد كان ينوى منذ لحظات قليلة أن يمرّ دون توقف ، فلما رأى نفسه يتوقف شعر بغيظ شديد ! وأخذ ينظر بكراهية حاقدة الى هذا الوجه الممصوص الذى يشبه وجوه الخصيان ، والى هذا الشعر المصفف بكثير من العناية على الصدغين ، والى تلك الذؤابة المنتصبة على الرأس . وكانت عين سمردياكوف اليسرى التى تغضن حاجبها ، تغمز غمزة ماكرة ، فكأنه يقول : « قف ، لن أدعك تمر . ألا ترى أن هناك كلاماً يجب أن نتبادله نحن معشر الأذكياء ؟ » .

ارتعد ايفان غضباً ، وتمنى لو يصيح قائلا : « امض أيها الجرو ! أأنا من يكون صاحباً لرجل أبله من نوعك ؟ » . فما كان أشد دهشته حين رأى نفسه يخاطبه بطريقة تختلف عن هذه الطريقة كل الاختلاف !

ـ أما يزال أبى نائماً أم أنه استيقظ ؟

كذلك سأله برقة فيها اذعان وتسليم أدهشاه ؛ وعلى هذا النحو نفسه الذى لم يكن فى الحسبان أيضا ، رأى نفسه يجلس على الدكة .

وقد تذكر فيما بعد أن ذلك كاد يرعبه فى اللحظة الأولى . كان سمردياكوف واقفاً أمامه ، جاعلاً يديه وراء ظهره ، ينظر اليه نظرة فيها ثقة بل وفيها قسوة . وقال دون تعجل :

ـ انه ما يزال يرتاح •

قال ايفان يخاطب نفسه: «آها ! هو الذى يبادرنى بالكلام الآن !»•

وأردف سمردياكوف يقول بعد صمت ، وهو يغض عينيه فى تصنع ، ويقدم رجله اليمنى ، ويهز رأس حذائه الملمَّع :

ـ هل تعلم أنك تدهشنى يا سيدى ؟

فأجابه ايفان فيدوروفتش بلهجة خشنة قاسية ، وهو يحاول أن يسيطر على نفسه ، قائلا :

ـ ما الذى يدهشك ؟

ولكن ايفان شعر فى الوقت نفسه ، على اشمئزاز وتقزز ، أن فى نفسه استطلاعاً قوياً لن ينصرف قبل أن يرضيه •

واستأنف سمردياكوف كلامه قائلا وهو يرفع عينيه ، ويبتسم فى ألفة :

ـ لماذا لم تسافر يا سيدى الى تشرماشنيا * ؟

وكانت عينه اليسرى كأنها تقول : « ما دمت ذكياً هذا الذكاء كله فيجب أن تفهم سبب ابتسامتى » •

قال ايفان فيدوروفتش متعجباً :

ـ لأى غرض أذهب الى تشرماشنيا ؟

فأجابه سمردياكوف أخيرا :

ـ لقد رجاك فيدور بافلوفتش أن تسافر اليها فى كثير من الالحاح•

كان سمردياكوف يتكلم ببطء كأنه لا يولى جوابه هذا أى اهتمام• فكأنه يقول له : « اننى أجيبك بأى شيء ، بأول جواب يخطر على بالى ، لا لهدف الا أن أقول شيئاً ما » •

صاح ايفان فيدوروفتش يقول غاضباً ، منتقــلاً من الاذعان الى الحنق بدون تدرج :

ـ ما هذه الأساليب الغامضة الملتوية ؟ هلاّ تكلمت بوضوح ؟ ماذا تريد ؟

ردّ سمردياكوف قدمه اليمنى نحو قدمه اليسرى ، ونصب قامته ، ولكنه لم يتخلّ عن هدوئه ، وظل يبتسم •

ـ ليس هناك أى شىء هام ••• وانما تكلمت بغير هدف محدد أو غاية معينة •••

وساد صمت • صمت الرجلان كلاهما قرابة دقيقة • أدرك ايفان فيدوروفتش أن عليه أن ينهض وأن يغضب • وكان سمردياكوف واقفاً أمامه وقد بدا على وجهه كأنه يقــول له : « سنرى الآن هل تغضب أو لا تغضب » • ذلك ما شعر به ايفان على الأقل • وهمّ ايفان أخيرا أن ينهض • ففتح سمردياكوف عندئذ فمــه كأنه قد انتظر هــذه اللحظة ليتكلم •

قال فى بطء ، بصوت جازم ، وهو يقطّع كلامه :

ـ اننى فى وضع رهيب يا ايفان فيدوروفتش ، وأنا أتســاءل كيف يمكننى أن أخرج من المأزق •

ثم تنهد تنهدة كبيرة • عاد ايفان يجلس • واستأنف سمردياكوف كلامه فقال :

ـ لكأنهما فقدا كلاهمــا العقل • انهمــا يتصرفان تصرف أطفــال صغار • اننى أتكلم عن أبيك وعن أخيك دمترى فيدوروفتش • ســوف يأخذ فيدور بافلوفتش يعذبنى بأسئلته متى نهض من فراشه ، ســوف يسألنى فى كل لحظة : « هيه ؟ ألم تجىء ؟ لماذا لم تجىء ؟ » • وســوف

تستمر هذه الأسئلة الى منتصف الليل ، والى ما بعد منتصف الليل . واذا لم تجيء أجرافين الكسندروفنا (وفى رأيى أنها لا تنوى أن تجيء أبدا) ، فسوف يستأنف أسئلته فى صباح الغد متهجماً عليَّ : « لماذا لم تجيء ؟ متى تجيء ؟ » ، كأننى أنا المذنب . والقصة هى نفسها فى الجانب الآخر. فمتى هبط الغسق ، بل وقبل هبوط الغسق ، يأخذ أخوك دمترى بالاستعداد فيكمن فى مكان قريب مسلَّحاً ، ويقول لى: «انتبه أيها الوغد! حذار أيها الوغد ! لئن تركتها تدخل دون أن تنبئنى ، لأقتلنك أنت أول من أقتل ! » . حتى اذا انقضى الليل عاد يعذبنى بأسئلته كأبيك : « ألم تجيء بعد ؟ هل تجيء قريبا ؟ » . لكأنه يعدنى ، هو أيضا ، مسئولاً عن سلوك هذه السيدة ! الأمور تسير من سىء الى أسوأ ، وغضبهما كلبهما يزداد من ساعة الى ساعة . والخوف يحاصرنى حتى لأفكر فى قتل نفسى تخلصاً من هذا المأزق . اننى لا أتوقع منهما أى خير يا سيدى !

قال ايفان منزعجاً :

ـ ما كان ينبغى لك أن تحشر نفسك فى هذا الأمر ! لماذا ارتضيت أن تكون لدمترى فيدوروفتش مُخْبراً ؟

ـ كيف كان يمكننى أن أبقى بعيدا ؟ اننى لم أحشر نفسى فى الأمر ، اذا شئت أن تعرف ذلك . كنت أصمت ولا أجرؤ أن أرد ، ولكن أخاك ألح وأكرهنى على أن أكون له فى هذه القضية خادماً . وهو منذ ذلك الحين ما ينفك يكرر على مسامعى قوله : « لأقتلنك يها الوغد ، لأقتلنك اذا تركتها تمر ! » . أنا على يقين من أننى سأصاب غداً بنوبة طويلة .

ـ أية نوبة ؟

ـ نوبة صرع ، طويلة ، طويلة جدا . ربما دامت بضع ساعات ، وربما استمرت الى الغد . لقد سبق أن أصبت بنوبة امتدت ثلاثة أيام .

سقطت من الشونة • وبقيت ثلاثة أيام لا أفيق من الاغماء • يحدث لى هذا فجأة • وفى تلك المرة استدعى فيدور بافلوفتش الطبيب ، استدعى ذلك الدكتور هرتسنشتوبه ، فوصف لى ثلجاً على الجبين ودواء آخر •• وكدت أموت •

ـ يُقال ان نوبات الصرع لا يمكن التنبؤ بها • فكيف تزعم أنك ستصاب غداً بنوبة ؟

كذلك سأله ايفان باستطلاع يمازجه غيظ • فقال سمردياكوف :

ـ صحيح ••• لا يمكن التنبؤ بها •

ـ ثم انك عند تلك النوبة الطويلة قد سقطت من طابق الشونة •

ـ ذلك أننى أصعد الى ذلك الطابق كل يوم ، ومن الجائز جداً أن أسقط منه فى الغد أيضا • واذا لم أسقط من طابق الشونة ، فقد أسقط فى القبو ، لأننى أذهب الى القبو كل يوم للقيام بالخدمة •

تفرس فيه ايفان فيدوروفتش طويلا •

ثم قال بصوت خافت ولكن مع شيء من التهديد :

ـ يبدو أنك تدبر أمراً • ما الذى تريد أن تصل اليه ؟ أتراك ستتظاهر غداً بنوبة تدوم ثلاثة أيام ، هه ؟

كان سمردياكوف قد غض عينيه ، وعاد يهزّ رأس حذائه • وها هو ذا الآن يرجع رجله اليمنى ويقدم رجله اليسرى ويرفع رأسه ويقول بعد ضحكة صغيرة :

ـ هبنى دبرت لهم « مقلباً » من هذا النوع : ان هناك أسبابا وجيهة تدفعنى الى أن أفعل ذلك • لما كان من السهل على المرء أن يتظاهر بالصرع اذا كان يملك بعض التجربة ، فسيكون من حقى تماما أن ألجأ الى هذه

الوسيلة انقاذاً لحياتي • فاذا حدث أن فررت أجـــرافين الكسندروفنا أن تجيء الى أبيك ، فلن يستطيع أخوك أن يسأل رجلاً مريضا : « لماذا لم تبلغني ؟ » • سوف يستحي هو نفسه أن يفعل ذلك •

هتف ايفان فيدوروفتش يقول وقد تقبض وجهه غضباً :

ــ شيطان يأخذك ! لماذا تخـاف على جلدك أيهـا الجبان ؟ ليست تهديدات دمتري الا كلاماً في الهواء ! انه لن يقتلك • قد يقتل ، ولكنه لن يقتلك أنت على كل حال •

ــ بلى ! سيقتلني كذبابة ، وسيقتلني قبل أن يقتل أي انسان آخر! هناك مع ذلك شيء أخشاه أكثر من هذا أيضا : هو أن أُتهم بالتواطؤ معه اذا هو أقدم على ارتكاب عمل طائش مجنون في حق أبيك •

ــ علام تُتهم في هذه الحالة ؟

ــ سيُظن انني شريك لأنني أطلعته على تلك الاشارات السرية •

ــ أي اشارات تعني ؟ سحقاً لأساليبك المخاتلة هذه! هلاّ قلت كلاماً واضحا آخر الأمر ؟

بدأ سمردياكوف يقول مقطعاً كلامه كانما ليضفي على نفسه قيمة وشأناً :

ــ يجب أن أعترف لك بأن هناك سرا بيني وبين فيدور بافلوفتش • فمنذ بضعة ايام ، كما لعلك تعلم ذلك (وقد لا تعلم على كل حال !) ، تعوّد فيدور بافلوفتش أن يقفل الباب على نفســـه بالمفتاح ، منذ يهبط الليل ، ومنذ يهبط الغسق أحياناً • انك في الآونة الأخـيرة تصـعد الى جناحك في ساعة مبكرة ، وامس مثلا لم تخرج قط ؛ لذلك فلعلك لم تلاحظ شدة اعتصامه بغرفته الآن ، ومدى حرصه على احكام اغلاقها •

انه لايفتح الباب حتى لجريجورى فاسيلفتش اذا هو لم يتعرف صوته على وجه اليقين • ولكن جريجورى فاسيلفتش لا يجيء ، لذلك فأنا وحدى أخدمه في غرفته • هذا ما قرر أن يعمد اليه منذ اندفع فى تلك المغامرة مع أجرافين ألكسندروفنا • وتنفيذاً لأوامره • فاننى أترك المنزل أنا أيضا متى حلَّ الظلام ، وأمضى أقضى الليل في الملحقات ، ملزَماً بالسهر الى منتصف الليل على كل حال ، لأتربص وأخرج الى الفناء من حين الى حين بغية أن أرى ألم تجيء أجرافين الكسندروفنا • ذلك أنه ينتظرها منذ عدة أيام بالحاح هو الجنون • انه يفكر على النحو التالى : لا شك أنها تخاف منه ، من دمترى فيدوروفتش (وهو يسميه ميتكا) ، لذلك ستؤثر أن تجيء في الليل مارةً من الفناء • وأنا مكلف اذن بانتظارها كل مساء الى منتصف الليل والى ما بعد منتصف الليل • قال لى : « متى ظهرتْ كان عليك أن تسرع الىَّ ، فتقرع بابى أو نافذة الحديقة قرعتين أولاً ، قرعتين غير قويتين جـــدا ، هكذا : طق ، طق ؛ ثم ثلاث قرعات أكثر تقارباً : طق ، طق ، طق ؛ فاعلمَ عندئذ أنها جاءت ، فأفتح الباب برفق وهدوء • » • ثم شرح لى بعد ذلك اشارة أخرى استعملها حين يحـدث شيء استثنائى : أقرع فى أول الأمر قرعتين متقاربتين : طق طق ، وبعد برهة أقرع قرعةً ثالثة أقوى ، فيفهم عندئذ أنه وقع حادث مفاجيء وأننى أريد أن أكلمه ، فيفتح لى الباب ، فأروى له ما وقع • هذا اذا لم تجيء أجرافين ألكسندروفنا وانما أوفدت رسولاً برسالة ، أو اذا ظهر دمترى فيدوروفتش على مقربة من المنزل ، فبذلك أستطيع ابلاغه الأمر فوراً • انه يخاف دمترى فيدوروفتش خوفاً رهيباً وقد أمرنى بأن علىَّ ، اذا حدث أن كانت أجرافين ايفانوفنا فى المنزل مختليةً به ، فظهر دمترى فيدوروفتش على مقربة من المنزل ، أن أبلغه ذلك فورا بقرع الباب أو النافذة ثلاث قرعات • لقد علمنى اذن اشارتين : الأولى تتألف من خمس

قرعات ، ومعناها أن أجرافين ألكسندروفنا جاءت ، والثانية تتألف من ثلاث قـرعات ومعنـاها أننى أُريد أن أُكلمه حالاً • وقد جرَّب هاتين الاشارتين أمامى مرارا لا تعلمهما • واذ أن أحداً فى العـــالم لا يعرف هاتين الاشارتين ، الا أنا وهو ، فانه متى سمع الاشارة سيفتح الباب فورا بلا تردد ، وبدون أن يلقى أى سؤال (لأنه يخاف أن يُسمِع صوته) • والمشكلة الآن هى أن دمترى فيدوروفتش أصبح يعرف هاتين الاشارتين•

ـ من أين عرفهما ؟ أأنت كشفت له اذن عنهما ؟ فكيف تجرأت أن تفعل ؟

ـ كيف تجرأت ؟ من الخوف طبعاً ! وهل من سبيل الى الصمت معه ؟ كان لا ينفك يكرر على مسامعى فى كل يوم قوله : « أنت تكذب ! أنت تخفى عنى شيئاً • لأحطمن ساقيك ! » وعندئذ أطلعته على هاتين الاشارتين السريتين ليرى على الأقل اننى أطيعه ولا أعصى أمره ، وأن ليس عليه بعد الآن أن يتخيل أننى أُخفى عنه الحقيقة ما دمت أبوح له بهذه التفاصيل السرية •

ـ اذا كنت تقدِّر أنه ينوى أن يستخدم هاتين الاشارتين ليدخل ، فما عليك الا أن تمنعه من الدخول ••• الأمر بسيط •••

ـ فاذا اتفق أن كنت فى تلك اللحظة بعينها فاقداً وعيى بسبب نوبة صرع ؟ كيف أستطيع عندئذ أن أمنعه من الدخول ، هذا اذا كنت أملك الجرأة على اعتراضه وأنا أعرف ما يكون عليه فى تلك الحالة من ضراوة وعنف !

ـ سحقاً لك ولنوبة الصرع التى تتكلم عنها هذه ! كيف علمت أنه نوبة صرع ستصيبك غداً ؟ أتراك تضحك علىَّ ؟

ـ وهل أجرؤ أن أضحك عليك يا سيدى ؟ هل تظن أن بى رغبةً

في الضحك وأنا فيما أنا فيه من فزع ؟ ان الخوف بعينه هو الذى سيحدث لى هذه النوبة .

ـ طيب ... اذا كنت أنت مريضاً ، أمكن أن يتــولى الحراسة جريجورى ، وسوف يمنعه هو من الدخول فى جميع الأحوال .

ـ ولكننى ممنـــوع من اطلاع جريجـــورى فاسيلفتش على هاتين الاشارتين الا باذنٍ من السيد . أما عن امكان أن يســـمع جريجـورى مجيئه وأن يمنعه من الدخول فيجب أن أقول لك ان جريجورى مريض منذ أمس ، وان مارفا اجناتفنا تنوى أن تداويه فى الغد . على هذا اتفقا اليوم . وان لها فى مداواة زوجها طريقة غريبة جداً : انها تعرف مزيجاً من العقاقير تحتفظ به فى بيتها دائماً لمثل هذه الحالات ، وهو سائل قوى جداً تعرف سرَّه فيما يبدو وتصنعه من أعشاب تغليها فى الماء وتداوى به زوجها ثلاث مرات فى العام تقريبا حين يلح عليه مرض اللمباجو ويصبح شبه مشلول . انها تبلل بهذا السائل قطعة من قماش تأخذ تدلك بها ظهره على طوله خــلال نصف ســاعة الى أن ينتفخ الجـلد ويحمر ، حتى اذا فرغت من ذلك جرَّعته ما يبقى فى الزجاجة من هذا السائل بعد أن تتلو دعاءً معيناً ؛ ولكنها تبقى لنفسها من السائل مقدارا قليلاً تشربه مع زوجها انتهازاً للفرصة . ويجب أن أقول لك أيضا انهما ، بسبب عدم تعودهما الشراب ، ما يكادان يحسوان هذا الســائل حتى يســـقطا كلاهما حيث يكونان ، فينـــاما نوماً عميقاً خـــلال مدة طويلة . فاذا اســـتيقظا شعر جريجورى فاسيلفتش كل مرة بأنه شُفى من مرضه ، أما مارفا اجناتفنا فلا بد أن يصيبها صداع . فاذا نفذا فى الغد عزمهما على استعمال هــذا الدواء ، فانهما لن يسمعا شيئاً ، لأنهما ســـيناما ، ولن يمنعـــا دمترى فيدوروفتش من دخول المنزل .

صاح ايفان فيدوروفتش يقول :

ـ عجيب ! كل شيء يحدث في آن واحد . أنت تصاب بنوبة الصرع ، وهما ينامان نوما عميقا ! أمر لا يُصدّق !

ثم أضاف يسأله مقطباً حاجبيه فيما يشبه التهديد :

ـ أتراك رتبت هذا التصادف بالمكر والحيلة ؟

ـ علام أفعل ؟ انني لا شأن لي في كل ما يحدث ! كل شيء رهن بارادة دمتري فيدوروفتش وحده ، وبما يعزم عليه ويقرره . فاذا كان ينوي أن يوقع مصيبة فسيفعل ؛ واذا لم يكن ينوي فلست أنا من سيجره من يده ليدفعه الى ذلك دفعاً ، فيما أتخيل ، أليس كذلك ؟

عاد ايفان فيدروفتش يقول وقد اصفر وجهه غضباً :

ـ لست أرى لماذا يمكن أن يجيء دمتري الى هنا ، وأن يتسلل تسللاً ، اذا كانت أجرافين الكسندروفنا لا تفكر في المجيء الى أبي ، كما قلت هذا بنفسك . لقد أكدتَ لي أنت هذا منذ لحظة ، وكنت أنا على يقين منذ حللت هذا المنزل أن العجوز تراوده أوهام ، لأن هذه المخلوقة لن تجيء اليه في يوم من الأيام . فهلاّ قلت لي ما هي الغاية التي يمكن أن يتسلل دمتري الى هنا في سبيلها والحالة هذه ؟ تكلم ... انني أريد أن أعرف حقيقة ما يجول في خاطرك .

ـ انك تعرف هذه الغاية حق المعرفة ، وليس لما يجول في خاطري شأن فيها البتة . سوف يقتحم أخوك منزل أبيه حباً بالشر وحده أو من فرط سوء الظن . سوف يتساءل عما يجري في المنزل ، وسيحب من فرط نفاد صبره أن يفتش جميع الغرف كما فعل أمس ليتأكد من أنها ليست مختبئة في احداها . وهو يعلم حق العلم من جهة أخرى أن فيدور بافلوفتش قد أعدّ ظرفاً كبيرا يحوي ثلاثة آلاف روبل ، قد ختمه بثلاثة أختام وربطه بشريط معقود ، وكتب عليه بخط يده : « الى ملاكي

جروشنكا ، اذا هي رضيت أن تجيء » ، وأضـــاف الى هذه العبارة بعد ثلاثة أيام : « الى حمامتي الغالية » •

صرخ ايفان يقول خارجاً عن طوره :

ـ هذا سخف • لن يسرق دمتري مالاً ، ولن يقتل أباه لهـــذا السبب ! لقـــد كان يمكن أن يقتـــله أمس ، كمجنون مهتاج ، بسبب جروشنكا ، ولكنه لن يجيء الى هنا ليسرق •

ـ انه الآن في حاجة ملحة الى المال ، انه في ضيق شديد ، صدقني يا ايفان فيدوروفتش • لا تستطيع أن تتصور مدى رغبتـه في الحصول على مال (هكذا شرح سمردياكوف بهدوء كبير) • أضف الى ذلك أنه يعد هذه الآلاف الثلاثة حقاً له • لقد أكد لي ذلك أمس • قال : « ان أبي ما يزال مديناً لي بثلاثة آلاف روبل تماما » • ويجب أن لا يغيب عن بالك يا ايفان فيدوروفتش ، لأن هذا هو الحقيقة بعينها ، أن أجـرافين ألكسندروفنا تستطيع أن تحمل فيدور بافلوفتش على زواجها متى رغبت في ذلك أيسر رغبة • ومن الجائز جدا أن تراودها هذه الرغبة • يجب أن نقول هذا • لقد أسرفتُ أنا في التعجل حين أكدت أنها لن تجيء الى هنا ، مع أنها قادرة جدا على ان تسدّد الى هدف بعيد وأن تداور في سبيل أن تصبح سيدة حقة • لقد قال لها صاحبها التاجـر سامسونوف ، وأنا أعرف ذلك من مصدر مطلع موثوق ، قال لها بصراحة تامة ان هذا سيكون لها حلاً ذكياً ، وكان يضحك وهو يقول هـذا الكلام • ليست جروشنكا امرأة غبية ، ثق من ذلك ! لن تبـــلغ من الحماقة أن تتزوج رجلاً فقيراً مثل دمتري فيدوروفتش • فما قولك والحالة هذه يا ايفان فيدوروفتش ؟ ولعـــلك تقدر أن دمتري فـــدوروفتش ، اذا أصبحت أجرافين الكسندروفنا زوجة أبيه ، لن ينال روبلاً واحداً من ميراث أبيه بعد وفاته ، لا هـو ولا أنت ولا أخـــوك ألكسي • ذلك أن أجـرافين

الكسندروفنا لن تقبل هذا الزوج الا فى سبيل أن تنقل الى اسمها جميع ثروة أبيك ، جميع أملاكه العقارية ورءوس أمواله السـائلة . أما اذا حدث مكروه لأبيك فمات قبل أن يتم هذا الزواج ، فان كلاً منكم سينال على الفور أربعين ألف روبل ، بالتمام والكمال . ان دمترى سينال هذا المبلغ رغم أن أباه يكرهه ، وذلك لأن فيدور بافلوفتش لم يكتب حتى الآن وصيته ... وهذه التفاصيل كلها يعرفها دمترى فيدوروفتش ...

تقلص وجه ايفان فيدوروفتش ، وألمت به اختلاجة ، واحمر على حين فجأة ؛ وقال مقاطعاً سمردياكوف وهو يتنفس تنفساً ثقيلا :

ـ قل لى : لماذا كنت تريد أن ترانى مسافراً الى تشرماشنيا ؟ ما هى الغاية التى تسعى اليها ؟ لا يعلم الا الله ما سيحدث بعد سفرى فى هـذا المنزل !

فأجاب سمردياكوف يقول بلهجة هادئة متروية ، وهو يحدق الى ايفان فيدوروفتش مترقباً آثار كلامه فيه :

ـ هذا صحيح تماما .

قال ايفان يسأله وهو يبذل جهداً كبيراً من أجل أن يكظم غيظـه ويسيطر على نفسه :

ـ صحيح تماما ؟ ما معنى هذا ؟

ـ لئن قلت هذا الكلام ، فلأننى أشفق عليك وأرثى لحالك . اسمح لى أن أقول لك : لو كنت فى مكانك لآثرت أن أسافر على أن أجد نفسى مقحماً فى قضية من هذا النوع ...

كذلك أجاب سمردياكوف بلهجة طلقة ليس فيها شىء من تحرج، دون أ نيحول بصره عن ايفان فيدوروفتش الذى كانت عينـاه تقدحان شرراً .

وأعقب ذلك صمت .

ثم قال ايفان بعد لحظة وهو ينهض عن الدكة :

ـ لا بد أنك أبله ... أضف الى ذلك أنك وغد !

وكان يهمّ أن يجتاز الباب الحديدى ، ولكنه توقف فجأة والتفت نحو سمردياكوف . وحدث عندئذ شيء غريب : لقد عض ايفان على شفتيه متشنجاً ، وقبض يديه ، فكأنه يهم أن يهجم على الخادم . فأدرك سمردياكوف ذلك ، فارتجف ، وتراجع خطوة الى وراء. وانقضت ثوانٍ دون أن يصاب سمردياكوف بأذى . واتجه ايفان فيدوروفتش نحو الباب حائر الهيئة دون أن ينطق بكلمة . ثم صاح بعد ذلك يقول بصوت قوى، مقطّعاً ألفاظه ، وقد فاضت نفسه حنقاً :

ـ سأسافر غدا الى موسكو ، اذا كنت تحرص على أن تعرف ذلك. هذا كل شيء !

وقد أدهشه فيما بعد أن يكون قد شعر فى ذلك الظرف بالحاجة الى أن يخبر سمردياكوف بأنه مسافر .

أجاب سمردياكوف يقول وكأنه كان يتوقع أن يفضى اليه ايفان بهذا السر :

ـ هذه فكرة عظيمة ! ولكنك تظل معرّضاً للاستدعاء من موسكو ببرقية اذا حدث هنا شيء .

فتوقف ايفان مرة ثانية والتفت نحو سمردياكوف التفاتة قوية . فاذا بوضع سمردياكوف يتغير فجأة بمثل لمح البصر سرعةً . تبددت الألفة التى كان يصطنعها وتبدد الاهمال الذى كان يظهره ، تبددا بما يشبه السحر ... وعبّر وجهه عندئذ عن انتباه شديد ، كما عبّر عن انتظار ذليل خاضع ، وكأن عينيه المحدّقتان الى ايفان فيدوروفتش بالحاح غريب تسألانه : « ألن تقول شيئاً آخر ؟ ألن تضيف كلمة واحدة ؟ » .

فوعوع ايفان يقول رافعاً صوته بدون سبب ظاهر :

ـ اذا حدث شيء فيمكن أن أستدعي من تشرماشنيا أيضا •••

فتمتم سمردياكوف يقول بما يشبه الهمس ، وكأنه ضائع الفكر شارد اللب ، ولكنه لا ينقطع عن التحديق الى ايفان فيدوروفتش بالحاح :

ـ طبعاً ••• اذا حدث شيء ••• فستستدعي ••• من تشرماشنيا••

ـ الفرق الوحيد هو أن موسكو بعيدة ، أما تشرماشنيا فهي قريبة من هنا كل القرب • هل النفقات التي لا داعي اليها هي التي تقلقك ، أم أنت تحب أن توفر عليّ رحلة طويلة فتنصحني بأن أسافر الى تشرماشنيا بدلاً من أن أسافر الى موسكو ؟

ـ هو كذلك تماما !

هكذا تمتم سمردياكوف يقول بصوت مرتعش وهو يبتسم ابتسامةً خبيثة •

وكان يستعد لأن يتقهقر الى وراء • فما كان أشد دهشته حين رأى ايفان فيدوروفتش ينفجر ضاحكاً على حين فجأة ، ويتجه بسرعة نحو الباب وهو ما يزال يضحك • ولكن لو رآه ملاحظ يقظ منتبه في تلك اللحظة لأدرك أنه لم يكن يضحك هذا الضحك عن مرح وفرح • ثم انه هو نفسه ما كان ليستطيع أن يقول ما الذي كان يشعر به حينذاك • وكانت مشيته متقطعة ، وكان في حركاته شيء يشبه أن يكون حركات آلة •

٧

يلذ للمرء أحياناً أن يتحدث مع رجل ذكي

إن الحالة النفسية الغريبة التي كان فيها ايفان قد ظهرت في أقواله أيضاً . فانه ما ان دخل المنزل فلمح فيدور بافلوفتش في الصالون حتى صاح يقول له من بعيد وهو يلوّح بيده :

ـ أنا صاعد الى غرفتي رأساً . لن آتي اليك .

ومرّ بسرعة محاولاً أن لا ينظر الى أبيه .

لعل مشهد الشيخ كان في نظره عندئذ لا يطاق ، ولكن اظهاره هذه الكراهية بغير تحرج قد أدهش حتى فيدور بافلوفتش نفسه . وكان واضحاً أن هناك شيئاً مستعجلاً يريد الأب أن يفضي به الى ابنه ، لذلك هبّ الى لقائه . ولكنه بعد الكلمات اللطيفة التي سمعها من ايفان فيدوروفتش توقف حيث كان ، دون أن ينطق بكلمة ، وتابعه بنظرة ساخرة بينما كان يصعد السلم ويغيب في الطابق الأعلى .

وظهر سمردياكوف للعجوز في تلك اللحظة ، فسأله العجوز :

ـ ماذا به اليوم ؟

فقال سمردياكوف متهرباً :

ـ انه معتكر المزاج جدا !

ـ شيطان يأخذه اذن ! ألا فليعتكر مزاجه اذا كان ذلك يسره ! أما أنت فهيء السماور ثم انصرف • أسرع ! أما من جديد حتى الآن ؟

قال العجوز ذلك وبدأ الاستجواب الذى كان سمردياكوف قد اشتكى منه لايفان منذ قليل • انه يلقى عليه السؤال تلو السؤال عن المرأة التى ينتظر زيارتها • ولا داعى الى تكرار هذه الأسئلة هنا • وبعد نصف ساعة كان المنزل قد أُحكم اقفاله بالمفتاح ، وخلا العجوز الى جنونه ، فأخذ يسير فى غرفته طولاً وعرضاً ، منتظراً على نار كنار الحمى أن يسمع القرعات الخمس المتفق عليها اشارةً الى أن جروشنكا قد وصلت ، وهو ينظر من خلال النوافذ من حين الى حين ، فلا يرى فى الخارج الا الظلام •

انقضى شطر من الليل ، ولكن ايفان فيدوروفتش لم ينم بعد • كان يفكر ويتأمل• ولم يرقد على فراشه تلك الليلة الا فى نحو الساعة الثانية• لن نحلل مجرى الخواطر التى دارت فى رأسه ، لأن قراءة ما كان يعتمل فى نفسه عندئذ لم يحن حينها ، وسيأتى دورها فيما بعد • ثم ان وصف ما كان يجيش فى قرارة قلبه ليس بالأمر السهل ، لأن خواطره كانت غامضة ، وكانت مضطربة مسرفة فى الاضطراب خاصة • وكان يشعر هو نفسه بأنه قد فقد السيطرة على فكره • هذا عدا رغبات غريبة كانت تعذبه فى بعض اللحظات • من ذلك مثلاً أنه عند منتصف الليل قد شعر فجأة برغبة قوية فى أن ينزل وأن يخرج وأن يذهب الى الملحقات بغية أن يضرب سمردياكوف ضرباً مبرحاً • لماذا ؟ لو سألته هذا السؤال لما عرف بماذا يجيب على وجه الدقة ، ولكنه أصبح يكره هذا الخادم كرهاً شديدا ، كما لو كان قد ناله بأفدح الأذى وأشد الاهانة • ثم انه قد اتفق له فى أثناء تلك الليلة أن وافته نوبات خوف مذل لا تفسير له ، بلغ من ادخال الاضطراب فى نفسه أنه أحس بشلل مفاجىء فى قواه الجسمية•

وكان يشعر فى الوقت نفسه بصداع ودوار • واستولى عليه بغض غامض ، كما استولت عليه حاجة الى الانتقام لم تتضح ولم تتحدد • انه يشعر بعداوة حتى لأليوشا ، حين يتذكر الحديث الذى جرى بينه وبينه فى النهار • وكان يبدو له فى لحظات أخرى أنه يكره ذاته نفسها • أما كاترين ايفانوفنا فكأنه نسيها ، فلم تخطر على باله فى تلك الليلة الا مرة أو مرتين • وقد أدهشته قلة الاكتراث هذه فيما بعد ، لا سيما وأنه كان فى الصباح ، حين أعلن للمرأة الشابة صاخباً أنه مسافر غداً الى موسكو ، قد سمع صوتاً يدمدم فى قرارة نفسه (انه يتذكر هذا تذكراً واضحاً) قائلا له : « كذبت ! لن تسافر ! لن تستطيع فراقها بمثل هذه السهولة التى تتباهى بها الآن ! » • ومن بين ذكريات تلك الليلة ذكرى صغيرة ستظل تنبجس فى خياله كثيرا أثناء السنوات اللاحقة ، فتملؤه اشمئزازاً وتقززاً • لقد ظل يتذكر بوضوح كيف أنه نهض عن أريكته مراراً ففتح الباب بدون ضوضاء ، كأنه يخشى أن يُسمع ، وخرج الى فسحة السلم ، وأصاخ بسمعه يتجسس على حركات فيدور بافلوفتش الذى كان يمشى فى غرف الطابق الأرضى • كان يتنصت على حركاته بفضول غريب منحبس الأنفاس خافق القلب ، لا يدرى هو نفسه لماذا يتصرف هذا التصرف ، ولأى سبب يصيخ بسمعه اليه دقائق طويلة • لقد ظل طوال حياته بعد ذلك يصف سلوكه ذاك فى تلك الليلة بأنه « سلوك حقير » ، معتقداً فى دخيلة نفسه أن ذلك الفضول الغريب الذى كان يحركه حينذاك هو أكبر دناءة انحدر اليها فى حياته كلها • كان لا يشعر فى تلك اللحظات بأية عداوة خاصة نحو فيدور بافلوفتش نفسه ، وانما كان يريد أن يعرف ما يعمله فحسب ، محاولا أن يتصور ، بفضول قوى ، كيف يمشى أبوه فى غرفته محموما من نفاد الصبر ، وكيف يقترب من النوافذ المظلمة لينظر الى الخارج ، وكيف يتوقف بعد ذلك فى وسط

الحجرة منتظراً على أحر من الجمر أن يسمع الاشارة المتفق عليها • لقد خرج ايفان الى فسحة السلّم على هذا النحو مرتين • فلما عاد الهدوء يخيّم على كل شيء ، فأوى فيدور بافلوفتش الى فراشه ، فى نحو الساعة الثانية من الصباح ، قرر أن يرقد هو أيضا ، عازماً عزماً قوياً على أن ينام بأقصى سرعة ، لأنه كان يحس بأنه مهدود القوى • وسرعان ما غرق فعلاً فى نوم عميق لم تتخلله أحلام • واستيقظ فى الصباح مبكراً ، فى نحو الساعة السابعة ، وكان النهار قد طلع • فما ان فتح عينيه حتى أحسّ فى نفسه بسيل خارق من القوة ، فأدهشه ذلك كثيرا • وما هى الا لحظة حتى نهض عن سريره بوثبة واحدة ، ولبس ثيابه ، وأخرج حقيبته ، وأخذ يجمع أمتعته لا يضيع لحظة واحدة • وكانت الغسّاله قد جاءته بغسيله أمس • ابتسم ايفان فيدوروفتش راضيا حين لاحظ أن كل شىء يسير على خير حال ، وأن سفره المفاجىء لا يصطدم بأية عقبة غير متوقعة • ولقد كان هذا السفر مفاجئاً حقاً : فرغم أنه قد أعلنه أمس (لكاترين ايفانوفنا ، ولأليوشا ، ثم لسمردياكوف) ، فانه لم يفكر فيه البتة حين رقد على سريره (انه يتذكر ذلك الآن) ، ولم يكن يتنبأ بأن أول حركة سيقوم بها حين ينهض فى الصباح هى أن يجمع أمتعته تهيؤاً للرحيل • وسرعان ما امتلأت حقيبته وامتلأ كيس السفر • فلما أزفت الساعة التاسعة جاءته مرفا اجناتفنا تلقى عليه سؤالها المألوف : « أين تريد أن تتناول الشاى ، أهنا أم تحت ؟ » • فنزل ايفان فيدوروفتش الى الطابق الأرضى • كان يلوح عليه أنه يكاد يكون فرحاً رغم أن شيئاً من التعجل العصبى كان باديا فى حركاته وفى أقواله• وبعد أن سلّم على أبيه متودداً حتى لقد سأله عن صحته خاصةً ، أعلن ، قبل أن يجيبه أبوه عن سؤاله، انه مسافر الى موسكو بعد ساعة ، ورجا أن يؤمر باعداد الخيل • لم يظهر العجوز أية دهشة لاعلان ابنه سفره ونسى حتى أن يعبّر عما اصطلح

الناس على التعبير عنه فى مثل هذه الأحوال من أسف ، فكان ذلك لايخلو من قلة اللباقة • وفى مقابل ذلك لم يفته أن يفلق فجأة على أمر من أموره الخاصة ، ورأى أن ينتهز الفرصة ليكلمه فيه • قال :

ـ أوه ! كان ينبغى أن تبلغنى أمس • لا بأس على كل حال ••• سيتسع الوقت لحل هذه المسألة • أرجو أن تقدم لى هذه الخدمة يا بنى الشهم : توقف فى تشرماشنيا عابراً • لن يكون عليك ، حين تصل الى محطة فولفيا ، الا أن تعرج شمالا مسافة اثنى عشر فرسخاً فى أكثر تقدير ، فاذا أنت فى تشرماشنيا •

ـ مستحيل • صدقنى • ان المسافة من هنا الى محطة القطار أربعة وعشرون فرسخاً ، وقطار موسكو يسافر فى الساعة السابعة مساء ، فلا يكاد يتسع وقتى لادراكه •

ـ تسافر فى قطار الغد أو غداة الغد•أما اليوم فاذهب الى تشرماشنيا. أيصعب عليك الى هذا الحد أن تقدم هذه الخدمة الصغيرة لأبيك ؟ لولا اننى مضطر الى البقاء هنا لأسباب قاهرة لذهبت الى تشرماشنيا بنفسى منذ زمن طويل • الأمر مستعجل وهام جدا ، ولكننى لا أستطيع الابتعاد عن المنزل الآن ••• ان لى فى تشرماشنيا غابة من حصتين فى أراضى بيجتشوفو ودياتشيكنيو • والتاجران ماسلوف وابنه لا يعرضان على الا ثمانية آلاف روبل ثمناً لأشجارها المعدة للقطع ، على حين أن مشترياً آخر كان مستعدا فى العام الماضى لأن يدفع لى اثنى عشر ألف روبل بكل سرور • لم يكن ذلك المشترى من هذه المنطقة ، وهذا هو تفسير الأمر، فما من سبيل الى العثور على مشترٍ من أهل المنطقة ، لأن آل ماسلوف الذين يملكون مئات ألوف الروبلات يسيطرون على المقاطعة ويفرضون عليها ارادتهم فرض القانون• انهم «كولاك» ★ ومامن أحد يجرؤ أن يقف فى وجههم وأن يصمد لهم • ولكن القس يلنسكى كتب لى يوم الخميس

الماضى يقول ان رجلاً اسمه جورستكين قد جاء يعرض شراء الاشجار، والرجل تاجر هو أيضا ، وأنا أعرفه • انه من مدينة بوجريبونو ، وهو لا يخشى آل ماسلوف، لأنه ليس من سكان المنطقة• انه يعرض أحد عشر ألف روبل ثمناً للأشجار المعدة للقطع ، فهمت ؟ وقد ذكر لى القس أنه الآن فى تشرماشنيا الى حين ، وأنه سيبارحها بعد أسبوع • عليك أن تذهب اليه لتناقش الأمر معه •

ـ ما عليك الا أن تكتب للقس ، فيتم لك الصفقة !

ـ انه لا يفهم فى هذه الأمور شيئا ، ذلك هو المزعج • ان هذا القس رجل أعمى فى الشئون العملية• ان له قلباً من ذهب ، واننى لمستعد أن أودعه عشرين ألف روبل بدون وصل • ولكنه قصير النظر حتى لقد يخدعه صوص • ما هو من هذه الناحية برجل • وهو مع ذلك عالم كبير، هل تتصور هذا ؟ ان هيئة جورستكين هذا هى هيئة فلاح ، وهو يرتدى قميصاً أزرق ، لكنه وغد كبير من سوء حظنا جميعا ! انه يكذب كما يتنفس • حتى لقد يراكم الكذب بعضه فوق بعض لا لشىء الا لذة الكذب ! لقد روى منذ ثلاث سنين ، مثلاً ، أن امرأته ماتت ، وأنه تزوج أخرى • فهل تتصور أنه كان يكذب ؟ نعم لقد كان يكذب • حتى أن امرأته لم يخطر ببالها أن تموت • وهى ما تزال حية وما تزال تضربه كل يوم • فيجب أن تعرف أولاً أكان صادقاً أم كان كاذباً حين عرض أحد عشر ألف روبل ثمناً للأشجار •

ـ انك لتعلم جيدا أننى أنا أيضا لا أفهم فى هذه الأمور شيئا • ففيم يمكننى أن أنفعك ؟

ـ لحظة • انتظر • يمكنك أن تنفعنى ، لأننى سأطلعك على العلائم التى تستطيع الاعتماد عليها لتعرف حقيقة ما يدور فى نفس جورستكين• اننى أعرفه منذ عهد بعيد • عليك أن تنظر الى لحيته فتنفذ الى خفايا

سريرته . ان له لحية صغيرة حمراء مبعثرة ، فاذا أخذت هـــذه اللحية ترتعش بينما هو غاضب أثناء الكلام ، فاعلم أنه يقول صدقاً ويريد أن يتم الصفقة ؛ أما اذا رأيته يلاعب لحيته بيده اليسرى وهو يبتسم ، فاعلم أنه يراوغ ويمكر ويحاول أن يغش . لا تحاول أن تقرأ في عينيه . فليس في وسعك أن تعرف بهذه الوسيلة شيئا . انه وغد لئيم ، وما عيناه الا ماء عكر . وانما يجب عليك أن تنظر الى لحيته . سـوف أعطيـك رسالة ، فما يكون عليك الا أن تنـاوله الرسالة . وليس اسمه الحقيقي جورستكين وانما اســمه في الواقع لياجافي * . ولكن اياك أن تخـاطبه باسم لياجافي ، والا استاء استياء رهيبا . ومتى تم الاتفاق ورأيت الأمور تجري مجرى حسناً ، فأبلغني ذلك فورا : يكفي أن تكتب اليّ في هذه الحالة هذه العبارة : « ليس يكذب » . حاول أن تصر على الثمن الذي ذكرته لك ، وهو أحد عشر ألف روبل . ولا مانع أن تتنازل عن ألف روبل اذا اقتضى الأمر ، ولكن لا تتنازل عن أكثر من ذلك . هذا مال يهبط عليّ من السماء لأن المشترين نادرون في هذه الأيام . وأنا في حاجة ماسة الى هذا المبلغ . انك لا تسـتطيع أن تتصور مدى حاجتي الشديدة اليه . فمتى أبلغتني أن الامر جدّ ، وثبت الى هناك لأتم الصفقة بنفسي . سوف أستطيع أن أجد لهذا متسعا من الوقت . أما أن أذهب الى هناك منذ الآن ، فليس ينفعني هذا في شيء ، لأن من الجائز أن يكون القس قد استرسل مع خياله . هيه ؟ اتفقنا ؟ أتذهب أم لا ؟

ـ لا يتسع وقتي ، فلا تحرجني !

ـ أرجوك ، اصنع هذا الجميل لأبيك ! سأذكره لك ما حييت . أأنتم جميعا اذن بغير قلب ؟ ما قيمة يوم أو يومين زيادة ؟ الى أين تنوي أن تسافر ؟ الى البندقية ؟ ان البندقية لن تهوى الى قاع البحر خلال هذين اليومين ! كان يمكن أن أرسل أليوشا ، ولكن أليوشا لا يفهم في هـذه

الأمور شيئا • ولئن تجهت اليك فلأنك ذكى ، أنا أعرف ذلك • ما أنت بتاجر ، ولكنك ترى رؤية واضحة • المطلوب هو أن نعرف أهذا الرجل جاد فيما يقول أم غير جاد • أعود فأكرر أنه يكفى النظر الى لحيته ، فاذا ارتعشت كان يقول صدقا •

صاح ايفان يقول وهو يضحك ضحكة خبيثة :

ـ سوف يكون الذنب ذنبك أخيراً اذا أنا ذهبت الى تشرماشنيا هذه اللعينة •

تظاهر فيدور بافلوفتش بأنه لم يلاحظ النبرة المعادية فى كلام ابنه، ولكنه تشبث بهذه الصيحة على الفور فقال :

ـ اذن وافقت ، وافقت على أن تذهب الى تشرماشنيا • سأكتب الرسالة الصغيرة حالاً •

ـ لا أدرى بعد أأذهب أم لا أذهب • سأقرر ذلك أثناء الطريق •

ـ لماذا أثناء الطريق ؟ قرر حالا ! بادرةً طيبةً يا عزيزى ! فاذا سُوِّى الأمر وتمت الصفقة ، كتبت الىَّ سطرين تودعهما القس ، فيبادر الى ارسالهما الىَّ بغير ابطاء • ولك بعد ذلك أن تسافر الى البندقية ، فلن أمنعك • وسيعيدك القس الى محطة فولوفيا بعربته •••

تهلل العجوز فرحاً • وأسرع يكتب الى التاجر رسالة قصيرة • ثم أمر باعداد العربة • وجيء للرجلين بوجبة خفيفة باردة ، وجيء لهما بكونياك • ان عادة فيدور بافلوفتش أن يصبح فى لحظات السعادة منطلقاً كثير الكلام والحركة، ولكن كان يبدو فى هذه المرة أنه يحاول السيطرة على نفسه • وقد تحاشى أيضا أن يجيء على ذكر دمترى فيدوروفتش • ولم يكن يلوح عليه من جهة أخرى أنه متأثر لفراق ابنه ، وكان

صامتا كأنه أصبح لا يجد ما يقوله • فوجيء ايفان بذلك ، وقال يحدث نفسه : « لا شك أن وجودى يضايقه منذ زمن » • ومع ذلك فان العجوز حين شيّع ابنه الى درجات الباب بدا متأثرا بعض التأثر وتظاهر بأنه يريد أن يقبّله • ولكن ايفان أسرع يمد اليه يده ، راغبا فى تحاشى القبلات رغبة واضحة لا تخفى على الناظر • أدرك أبوه ذلك ، فلجم اندفاعته وأمسك عن تقبيله ؛ وأخذ يقول مردداً من على درجات الباب :

ـ كان الله فى رعايتك ، كان الله فى رعايتك • سوف تأتى لرؤيتى فى يوم من الأيام ، أليس كذلك ؟ أهلاً وسهلاً بك فى منزلى دائماً • اذهب ، وليكن المسيح معك !

ركب ايفان فيدوروفتش العربة • وصاح أبوه يقول له مرة أخيرة :

ـ فى أمان الله يا ايفان • لا تؤاخذ أباك !

وكان الخدم قد خرجوا للوداع • كان هناك سمردياكوف ومارفا وجريجورى • أعطى ايفان كلاً منهم عشرة روبلات • وحين استقر ايفان فى العربة أسرع سمردياكوف يرتب الأغطية • فقال له ايفان فيدوروفتش وهو يضحك ضحكة عصبية صغيرة :

ـ أرأيت ؟ هأناذا ذاهب الى تشرماشنيا أخيراً !

وكما حدث بالأمس ، تساءل ايفان لماذا شعر بالحاجة الى أن يبلغ سمردياكوف ذلك ، ولقد ظل يتذكر هذا الامر كثيراً فى المستقبل •

ـ صحيح اذن أنه يلذ للمرء أحيانا أن يتحدث مع رجل ذكى ، كما يقول الناس •

هكذا أجاب سمردياكوف بصوت قاطع جازم وهو يغرس في ايفان فيدوروفتش نظرة نافذة •

تحركت العربة ، وانطلقت تعدو • كان المسافر في البداية في حالة نفسية مضطربة ، وكان ينظـــر الى ما حوله بشراهة ، متـأملاً الحقول والروابي والأشجار • ومرَّ سرب من الأوز البرى فوقه ، محلقاً في السماء الصافية • فاذا بايفان يشعر بسعادة خفيفة على حين فجأة • فخاطب الحوذى ، واهتم اهتماماً قوياً بجواب أجابه الحوذى ، ومع ذلك رأى بعد بضعة لحظات أن الضجة قد حالت بينه وبين سماع كلامه ، وانه لم يدرك ما أراد هذا الموجيك أن يقول له • ولكنه صمت راضياً • الهواء نقى طرى ، نشيط بعض النشاط ، والسماء صافية لا غيوم فيها • وفي لحظة ما خطر بباله أليوشا وكاترين • ولكنه ابتسم ابتسامة رفيقة ، وتنهد على الطفلين العـزيزين اللذين غـابا ، وحدث نفســه قائلاً : « ســوف أراهما » • ولم يلبث أن وصل الى محطة العربات• فأبدلت خيله ، واستأنف طريقه الى فولوفيا • سأل ايفان نفسه فجأة : « لماذا قال لى انه يلذ للمرء أحيانا ان يتحدث مع رجل ذكى ؟ ماذا كان يعنى بذلك ؟ » • واستغرق هذا السؤال فكره استغراقاً كاملاً • « ثم ما كانت حاجتى الى ابلاغه انني ذاهب الى تشرماشنيا ؟ » • ووصـــلت العربة أخيراً الى فولوفيا ، فنزل ايفان • أحاط به أصحاب العربات ، فناقشهم وسـاومهم ، وانتهى الى تحديد أجر ايصاله بخيول ممتازة الى تشرماشنيا التي تبعد مسافة اثنى عشر فرسخاً في طريق زراعى • أمر بأن تُقرن الخيل ، ثم دخل الى المحطة ، فألقى نظرة على القاعة ، ثم اذا به يخرج فيقف على درجات الباب ويقول :

ـ لن أذهب الى تشرماشنيا • قولوا لى يا شباب : هل يمكنني أن أدرك قطار الساعة السابعة ؟

ـ ستدركه • هل نقرن الخيل ؟

ـ اقرنوها فوراً • هل منكم أحد يذهب الى المدينه غداً ؟

ـ طبعاً • مترى ذاهب اليها •

ـ هل لى منك بجميل تصنعه لى يا مترى ؟ اذهب الى أبى فيدور بافلوفتش كارامازوف ، وقل له اننى لم أذهب الى تشرماشنيا• هل تستطيع أن تفعل ذلك ؟

ـ لم لا ؟ اننى أعرف فيدور بافلوفتش منذ زمن طويل •

ـ خذ هذه المكافأة ، لأن من الجائز أن لا يعطيك شيئاً •

قال ايفان ذلك وهو يضحك فرحاً • فأجابه مترى وهو يضحك أيضاً :

ـ طبعا • أنا أعرف أنه لن يعطينى شيئاً • شكراً يا سيدى • سأذهب اليه حتماً •

فى الساعة السابعة من المساء ، استقر ايفان فى حافلة القطار الذى أقله سريعاً الى موسكو • « ألا فليبتعد عنى الماضى ! لقد قطعت صلتى الى الأبد والعالم الذى عشت فيه ، ولا أريد بعد اليوم أن أتذكره ! ألا فليختف هذا الماضى من نفسى ! ألا فلينقطع عن الوصول الى مسمعى أى نداء من الحياة التى أبارحها ! اننى أسافر لا ألوى على شىء ولا التفت الى وراء ! هيا الى مستقبل جديد ، الى أمكنة مجهولة ! » بهذا كان ايفان يحدث نفسه • ولكنه بدلاً من أن يشعر بالفرح ، أحس بمضض شديد يقبض صدره ، وامتلأ قلبه بحزن أليم لم يشعر بمثله من قبل• ظل طوال الليل يفكر ويتأمل ، وسط قرقعة القطار الذى كان يجرى بسرعة كبيرة• وعند الفجر ، بينما كان القطار يقترب من موسكو ، خرج ايفان من

خدره فجأة ، ودمدم يقول :

ــ أنا انسان تعيس !

أما فيدور بافلوفتش فقد شعر بسعادة كبيرة بعد أن ودّع ابنه ، وظل خلال ساعتين فى حالة قريبة من الهناءة والغبطة ، يفرغ فى جوفه قدحاً من الكونياك بين الفينة والفينة . غير أن حادثاً أليماً قد حدث فى المنزل بعد ذلك ، فاذا هو يبدل الحالة النفسية التى كان عليها العجوز تبديلاً كاملاً ، واذا هو يغرقه فى اضطراب شديد . ان سمردياكوف الذى ذهب الى القبو قد سقط من على أول درجة ، وتدحرج الى أسفل الدرج . ومن حسن الحظ أن مارفا اجناتفنا كانت فى فناء المنزل عندئذ ، فعرفت هذه النازلة التى وقعت . انها لم تدرك ضجة السقوط ، ولكنها سمعت تلك الصرخة الغريبة الخاصة التى تعرفها منذ عهد بعيد ، أعنى الصرخة التى تنطلق من صدر المريض بالصرع عند أول النوبة . لقد كان يستحيل أن يعرف أحد هل وافت النوبة سمردياكوف حين وضع قدمه على السلم فكان لا بد أن يتدحرج الى آخر الدرجات لأنه أغمى عليه ، أم أن السقوط والارتجاج الذى نشأ عن السقوط هما اللذان سببا له نوبة الصرع . المهم على كل حال ان سمردياكوف وُجد فى قاع الكهف تهزه تشنجات قوية ويخرج من فمه زبد . وقد ظُن فى أول الأمر أنه قد جُرح حين سقط ، وأن ساقه أو ذراعه قد كسرت ، ولكن تبيَّن أن « الله قد سلَّمه » على حد تعبير مارفا اجناتفنا ، فلم يُصب بأى أذى . ومع ذلك كان نقله من القبو الى الهواء الطلق شاقاً . وقد أمكن نقله أخيراً بفضل الجيران الذى هرعوا يساعدون . وحضر فيدور بافلوفتش مهمة النقل بل وساعد فى حمل المريض ، وهو يشعر بقلق شديد واضطراب عظيم .

ظل سمردياكوف غائباً عن وعيه . وكانت التشنجات تنقطع أحياناً

ولكنها ما تلبث أن تعود بعد قليل • وأجمع الرأى على أن الأمور ستجرى في هذه المرة كما جرت فى السنة الماضية حين سقط سمردياكوف من طابق الشونة • وتذكروا أن الدكتور هرتسنشتوبه قد وصف له حينذاك ثلجاً يوضع على جبينه ، وكان ما يزال فى القبو بعض الثلج ، فتولت مارفا اجناتفنا أمر العناية بالمريض، حتى اذا كان المساء استدعى فيدور بافلوفتش الدكتور هرتسنشتوبه ، فلم يلبث الدكتـور أن جاء ، فبعـد أن فحص المريض فحصاً دقيقاً (وهو أكثر أطباء المنطقة دقة وأشدهم عناية ، كمـا أنه من أحق الناس بالاحترام ، وقد طعن فى السن كثيرا) ، أعلن أن النوبة خطيرة يمكن أن « تعرض الحياة للخطر » ، وأضاف الى ذلك أنه لم يفهم الحالة كثيرا بعد ، ولكنه سيرجع من الغد ، فيصف دواءً جديدا اذا اتضـح أن الاجـراءات السابقة لم تجـد المريض نفعاً • وأُرقد سمردياكوف في ملحقات المنزل، فى غرفة تتاخم غرفة جريجورى ومارفا اجناتفنا • وفى أثناء ذلك النهار عرف فيدور بافلوفتش سلسلة متصلة غير منقطعة من المكدرات والمنغصات ، أولها وجبة الطعام التى أعدتها مارفا اجناتفنا والتى كان حساؤها ، اذا قيس بحساء سمردياكوف ، لا يفضل كثيرا « ماء الغسيل » ، أما لحم طيورها فكان من القسوة بحيث لا يمكن مضغه ؛ وحين لام رب المنزل مارفا اجناتفنا على ذلك لوماً مراً وان يكن مسوّغاً ، أجابت المرأة بأن الدجاجة عجوز ، كما أنها هى مارفا لم توظف فى منزل رب البيت طباخة ! وفى المساء حلّ بفيدور بافلوفتش مكدّر جديد : أُبلغ أن جريجورى ، وهو مريض منذ يومين ، قد لزم سريره وأن مرض اللمباجو الذى يعانى منه قد جمّده تماما • وأسرع فيدور بافلوفتش يحتسى شايه ، وسجن نفسه فى المنزل وحيدا • انه فى حالة ترقب مهموم مغموم ، وانه لمضطرب اضـطرابا شديدا • فهو يعتقد أن جروشنكا ستأتى فى هذا المساء نفسه ، وهـو يكاد يكون من ذلك على

يقين ، لأن سمردياكوف قد أكد له في ساعة مبكرة من الصباح « أنها وعدت بالمجيء هذه المرة » كان قلب العجوز الفاسق يخفق خفقانا يكاد يحطم صدره ، وهو يمشي بلا توقف خلال غرفه المقفرة ، مصيخاً بسمعه الى كل ركن من الأركان ؛ ذلك أن عليه أن يكون يقظاً كل اليقظة ، لأن من الجائز أن يرقب دمتري فيدوروفتش مرور المرأة الشابة ، فمتى قرعت النافذة (وكان سمردياكوف قد أكّد لفيدور بافلوفتش ، منذ يومين ، أنه قد ذكر لها أين ومتى يجب عليها أن تقرع) كان عليه أن يهرع الى الباب لا يضيّع لحظة واحدة ، ولا يجعلها تنتظر في غير داع الى انتظار ، لأنها قد تخاف في الظلام فتهرب لا سمح الله ! كان فيدور بافلوفتش قلقا اذن ، ولكن نفسه لم يهدهدها في يوم من الأيام أمل أعذب من هذا الأمل : ألم يكن في وسعه أن يؤكد بما يشبه اليقين أنها ستأتي أخيراً في ذلك اليوم ؟!

الباب السادس: الراهب الروسي

١

الشيخ زوسيما وضيوفه

دخل أليوشا غرفة الشيخ قلقاً قد هدّ قلبه الألم ، ولكنه توقف على العتبة وقد استبدت به دهشة قوية : فانه بدلاً من أن يرى المريض المحتضر الذى لعله غاب عن وعيه ، رأى الشيخ جالساً فى مقعد • صحيح أن وجه الشيخ مرهق من التعب ، ولكن هذا الوجه ما يزال يعبر عن الشجاعة والمرح • وقد تحلق حول الشيخ زوار كان الشيخ يحادثهم وديعاً هادئاً رابط الجأش فرحاً • والحق أنه لم ينهض الا قبل وصول أليوشا بربع ساعة • أما الزوار فكانوا قد اجتمعوا فى الحجرة منذ زمن طويل ، منتظرين صحوة الشيخ ، لأن الأب بائيسى كان قد أكد لهم أن «المعلم سينهض حتماً من أجل أن يتحدث آخر مرة الى أحبة قلبه، كما أعلن ذلك هو نفسه ووعد به فى هذا الصباح • » • ان الأب بائيسى يؤمن بهذا الوعد ، ويؤمن بكل ما قد يقوله الشيخ المحتضر ، وقد بلغ من قوة ايمانه أنه لو رأى الشيخ هامداً لا يتحرك ولا يتنفس ، لما صدّق أن الشيخ مات ، ما دام الشيخ قد وعده بأنه سينهض مرة أخرى ليودعه ، أو لتوقع أن يرتد الشيخ الى الحياة براً بوعده • وقد صرّح له الشيخ زوسيما بوضوح كبير فى الصباح ، قبل أن ينام « انه لن يموت الا بعد أن

يسعد مرة أخرى بالتحدث الى أعزته ، وبعد أن يرى من جديد تلك الوجوه التى أحبها، وبعد أن يفتح قلبه لهؤلاء جميعا آخر مرة»• والذين اجتمعوا لسماع ذلك الحديث الذى يغلب على الظن أنه آخر حديث ، انما كانوا أقدم أصدقاء الشيخ وأشدهم اخلاصاً له• انهم أربعة : الراهبان الكاهنان جوزيف وبائيسى ، والأب ميشيل ، رئيس رهبان المنسك ، وهو راهب كاهن أيضاً ، ما يزال شاباً بعض الشباب ، متواضع الأصل ، ليس على جانب كبير من العلم ، ولكنه صلب النفس ، قوى الايمان بسيط ساذج ؛ ولئن كان قاسى المظهر ، فان فى قلبه حساسية عميقة يحاول أن يكبتها حياءً وخجلاً • أما الزائر الرابع فهو الأخ آنتيم ، وهو راهب قصير ، طاعن فى السن شديد التواضع ، قد خرج من بيئة فلاحين فقراء ، لا يكاد يعرف القراءة والكتابة ، رقيق دائماً ، صموت يندر أن يكلم أحداً • وهو خاضع مذعن أكثر من أى انسان آخر ، وكأن عظمة الوجود الرهيبة التى لا يستطيع فكره أن يرقى اليها قد روّعته الى الأبد • لقد كان الأب زوسيما يحب هذا الراهب المرتعد الخائف حباً كثيراً ، وقد أظهر له خلال حياته كلها احتراماً عظيماً ، رغم أنه ليس فى هذا العالم الا قلة من الناس كان يمكن أن يخاطبها أقل مما يخاطب هذا الراهب المتواضع • ولقد عاش فى صحبته مع ذلك سنين كثيرة ، لأنه طاف معه جميع أرجاء روسيا المقدسة • حدث ذلك منذ زمان بعيد ، منذ ما يقرب من أربعين عاماً ، أيام كان زوسيما يبدأ حياة الرهبنة بين جدران دير مظلم فقير فى مقاطعة كوستروما • فبعد أن دخل زوسيما ذلك الدير بزمن كثير ، كُلِّف بأن يرافق الأخ آنتيم فى جولاته لجمع الصدقات لهذا الدير الفقير •

كان هؤلاء الزوار جالسين فى حجرة الشيخ الثانية ، أعنى الحجرة التى كان يتخذها مهجعاً له ، والتى كانت كما ذكرنا ضيقةً جداً ، تبلغ

من الضـــيق أن الرهبان الأربعة (والراهب المبتدىء بورفير الذى ظل واقفاً) ولم يكادوا يجدون فيها متسعاً لهم. لقد جاءوا بكراسيّهم من الغرفة الأخرى وصفوها حول مقعد الشيخ • كان الغسق يهبط ، وكانت تضىء الغرفة مصابيح الزيت والشموع الموقدة أمام الأيقونات • فلما لمح الشيخ أليوشا الذى لبث واقفا على عتبة الباب من شدة اضطرابه ، ابتسم له ابتسامة فرحة ومدّ اليه يده قائلاً له :

ـ طاب يومك يا بنى الطيب ، ياعزيزى أليوشا الوديع • أجئت اذن ؟ لقد كنت أعلم أنك ستجىء!

فاقترب أليوشا منه ، وانحنى له حتى الأرض ، وأجهش باكياً • كان شىء ما يتمزق فى قلبه ، وكانت نفسه منقبضة انقباضاً شديداً ، فهو يتمنى أن ينفجر ناشجاً •

قال الشيخ مبتسما وهو يضع يده اليمنى على رأس أليوشا :

ـ ما بك ؟ لمّا يحن حين البكاء علىّ بعد • هأنت ذا ترانى أتحدث فى هدوء • ومن يدرى ؟ فقد أعيش عشرين عاما أخرى كما تمنت لى ذلك بالأمس تلك المرأة الطيبة العزيزة التى جاءت من فيشيجوريا وكانت تحمل بين ذراعيها صغيرتها اليزابث • اسأل الله أن يحرس الأم والبنية ! (رسم الشيخ اشارة الصليب وهو ينطق بهذه الكلمات) • هل حملت قرشها يا بورفير الى حيث قلت لك أن تحمله ؟

كان الشيخ يشير الى مبلغ الستين كوبك التى تصدقت بها أمس تلك المرأة الفرحة المعجبة بالشيخ من أجل أن يهبها « لمن هو أفقر منها » • ان الصدقات التى من هذا النوع انما يتصدق بها أصحابها فى العادة على أثر نذر ينذرونه أحرارا فلا بد لهم من اقتطاعه من حصيلة عملهم• وقد أمر الشيخ فى ذلك المساء نفسه بأن يحمل بورفير هذا المبلغ الزهيد الى

امرأة فقيرة من ساكنات المدينة ، هى أرملة لها ولدان قد احترق منزلها فى الآونة الأخيرة فأصبحت منـــذ ذلك الحين تستعطى لتعيش • أسرع بروفير يقول انه نفذ الأمر فأعطى المرأة الفقيرة ذلك المبلغ قائلاً انه من « محسنة لم تشأ أن تذكر اسمها » •

تابع الشيخ كلامه يقول لأليوشا :

ـ انهض يا صديقى العزيز لأراك قليلاً • هل ذهبت الى ذويك ، وهل رأيت أخاك ؟

دُهش أليوشا من سؤال الشيخ عن أحد أخويه بمثل هذا الالحاح• ولكن أى الأخوين يقصد ؟ هل يُستنتج من ذلك أن الشيخ انما أرسله الى المدينة أمس واليوم بسبب هذا الأخ ؟

أجاب أليوشا قائلاً :

ـ رأيت أحد أخوى ؟

ـ أقصـد أخاك الأكبر ، أخـاك ذاك الرهيب الذى سجـدتُ له أمس •

ـ ذاك لم أره الا أمس ، ولم أستطع أن ألقاه اليوم •

ـ حاول ن تهتدى اليه بسرعة • عد الى المدينة من الغد لرؤيته • دع كل شىء ، ولكن رتب أمورك لادراكه • ربما كان لا يزال فى الوقت متسع لتجنب مصيبة • لقد انحنيت أمس للآلام الكبرى التى تنتظره •

وصمت الشيخ فجأة ، وشرد فكره كأنه يحلم • لقد كانت أقواله غريبة • وهذا هو الأب جوزيف الذى شهد بالأمس تحية الشيخ لدمترى يبادل الأب بائيسى نظرة • ولم يستطع أليوشا أن يتمالك نفسه ، فصـاح يقول وقد استولى عليه انفعال شديد :

ـ أبى ومعلمى ! ان ما قلته الآن يبدو غامضاً مسرفاً فى الغموض ... ما هى المحن التى تنتظره ؟

ـ لا تحاول أن تعرف ذلك . لقد تراءى لى بالأمس أننى أدرك شيئاً رهيباً ... لقد قرأت مصيره فى نظرته . رأيت فى لحظة معينة تعبيراً خاصاً فى عينيه ... تعبيراً أرعشنى بسبب المصير الذى يهيء هذا الانسان له نفسه . سبق لى مرةً أو مرتين فى الماضى أن لاحظت ذلك التعبير فى نظرة الناس انعكاساً لمصيرهم المقبل ، فتحقق ذاك المصير وا أسفاه ! ولقد أرسلتك اليه يا أليوشا آملاً أن تستطيع كلمةً أخوية أن تساعده بعض المساعدة. ولكن مصيرنا جميعا هو بين يدى الرب. « ان لم تقع حبة الحنطة فى الأرض وتمتْ فهى تبقى وحـدها ، ولـكن ان ماتت تأتى بثمـر كثير » * احفظ هذه الحقيقـة . أما أنت يا أليوشـا فكثيراً ما باركتك فى فكرى بسبب تعبير وجهك (كذلك أضاف الشيخ يقـول وهو يبتسم ابتسامة عذبة وديعة) . اليك رأيى فيك : سوف تترك الدير ، وسـوف تعيش فى العالم كراهب . سيكون لك أعداء كثيرون ، ولكنهم سيحبونك هم أيضا . ان الحيـاة تخبىء لك آلاماً كثيرة ، ولكنك بهذه الآلام انما ستسعد وستبارك الوجود . وستحمل الآخرين أيضا على أن يباركوه ، وذلك هو الشيء الأساسى . ذلك هو رأيى فيك وحكمى عليك .

ثم التفت الشيخ الى زواره فقـال يخاطبهم وهو يبتسـم ابتسامة ودوداً :

ـ يا آبائى ومعلمىّ ، اننى لم أقل الى الآن حتى لهذا الفتى لمـاذا يستعذب قلبى وجهه . فسأسر اليكم الآن بهذا . كنت أرى فى قسماته ذكرى الماضى ونذير المستقبل . ففى فجر حياتى ، حين كنت لا أزال فى سن الطفولة ، كان لى أخ أكبر مات أمام عينى فى ريعان شبابه ولمّا يكمل

السنة السابعة عشرة من عمره • ولقد رسخ فى اعتقادى أثناء حياتى ، شيئاً بعد شيء ، أن هذا الأخ قد كان له فى تحديد مصيرى دور حاسم ، وأنه كان لى نذيراً واشارة من الملأ الأعلى ، ويقينى أننى لولاه لما سرت فى طريق الرهبنة ولا اخترت الدرب الذى قادنى الى السعادة • ان هذا التجلى الأول للعناية الالهية قد حدث فى فجر أيامى، وهأناذا أرى تكرره فى خاتمة المطاف من طريقى • انه لشيء بارز ، يا آبائى ومعلمىَّ ، أن ألكسى الذى لا يشبه أخى ذاك كثيرا بوجهه ـ فانه ليس له منه الا بعض السمات الخارجية ـ قد بدا لى شبيهاً به كل الشبه من الناحية الروحية وياطالما حسبته ذلك الأخ المراهق نفسه الذى كان لى فى الماضى وقد آب الىَّ الآن أوبةً سرية فى أواخــــر أيامى ذكرى من الماضى ونداءً الى التأمل ، حتى لقد دُهشت أنا نفسى فى بعض الأحيان من غرابة هـــذه الظاهرة ودهشت من غرابة الحلم الذى كان يغرقنى فيه • هل تسمعنى يا بورفير ؟ (كذلك قال يخاطب الراهب المبتدىء المكلف بخدمته) • كم من مرةٍ لاحظت فيك تعبيراً عن الحزن لأننى أحب ألكسى أكثر ممــا أحبك • فهأنت ذا تعرف سبب ذلك الآن • ولكن اعلم أننى أحبك كثيرا أنت أيضا ، وطالما أحزننى حزنك • يا ضيوفى الأعزاء ، اسمحوا لى أن أحدثكم عن أخى الفتى ذاك ، لأننى لم أعرف فى حياتى طيفاً أحب من طيفه الى قلبى ، ولا أشد تأثيراً فى نفسى ، ولا أصـــدق نبوءةً فى كل شأن من شئونى • ان قلبى ممتلىء به فى هذه اللحظة ، لأننى أرى فيــه حياتى مرة أخرى رؤية كاملة كأننى أعيشها من جديد •••

يجب أن أنبه القارىء هنا الى أن هذا الحديث الأخير الذى أجراه الشيخ مع أصدقائه الذين تحلقوا حوله فى آخر يوم من أيام حياته قد حُفظ بعضه مكتوباً • ذلك أن ألكسى فيدوروفتش كارامازوف قد سجله بعد موت الشيخ بقليل • لا أستطيع أن أقطع على وجه اليقين بأن ما رواه

ألكسى هو نص ذلك الحديث تماما ، وأن ألكسى لم يضف الى النص فقرات استمدها من أحاديث سابقه لمعلمه . ويجب أن نلاحظ من جهه أخرى أن ما سجله الكسى يوهم بأن الشيخ قد ألقى خطابا متصلاً حتى يروى قصة حياته لزواره ، مع أن الشهادات تجمع على أن الأمور جرت فى الواقع مجرى آخر يختلف عن هذا المجرى بعض الاختلاف فى ذلك المساء . فالحديث قد كان عاما ، ورغم أن أصدقاء الشيخ لم يقاطعوه كثيرا ، فقد تدخلوا فى الحديث يضيفون كلمة شخصية وملاحظات شخصية وربما مسارّات عن حياتهم هم . ثم انه لم يكن من الممكن أن يتكلم الشيخ بلا توقف ، لأن أنفاسه كانت تتقطع دائما ، ولأن صوته كان يضعف على حين فجأة ، ولقد اضطر مرارا أن يمضى الى سريره يستريح عليه مفتوح العينين بينما ضيوفه فى أماكنهم لم يبارحوها . ولقد تخللت الحديث ، مرةً أو مرتين ، قراءة آيات فى الأناجيل قرأها الأب بائيسى جهراً . ويجب أن نذكر أن أحداً من الحضور لم يتنبأ بأن الشيخ سيموت فى تلك الليلة نفسها ، لا سيما وأنه قد بدا عليه فى ذلك المساء الأخير أنه قد استرد قوة جديدة على أثر نومه أثناء النهار ؛ وهذه القوى التى استردها على هذا النحو قد شدت أزره وعززت عزيمته طوال الحديث الذى أجراه مع أصدقائه . كان ذلك أشبه بوقدة أخيرة من الحياة أذكت روحه اذكاءً قوياً ، ولكنها أذكتها وقتاً قصيراً جداً ، لأن روحه فاضت دفعةً واحدة على حين فجأة . وعن هذا سأتكلم فيما بعد على كل حال . أما الآن فحسبى أن أقول اننى آثرت أن أسقط التفاصيل من هذا الحديث ، وأن أقتصر على ما رواه الشيخ ، معتمدا على المخطوطة التى خلفها ألكسى فيدوروفتش كارامازوف . فذلك أقرب الى الايجاز وأبعد عن الاملال ، رغم أن أليوشا ، كما سبق أن قلت ذلك ، قد ضمّن مادوّنه فقرات كثيرة استمدها من أحاديث سابقة له مع الشيخ .

٢

حياة الشيخ زوسيما ، مستمدة من المسارّات التي جمعها ودونها الكسي فيدوروفتش كارامازوف

(أ) أخو الشيخ زوسيما

آبائي

ومعلميّ الأحبة ! ولدت بمـــدينة ف ... فى مقاطعة نائية بشمال روسيا . كان أبى من طبقة النبلاء ، ولكنه من صغار النبلاء ، ولم يكن يحتل رتبة عالية فى سلم رتب الدولة . وقد مات ولمّا أتجاوز السنة الثانية من عمرى ، فليس فى ذهنى أية ذكرى عنه . وقد ترك لأمى منزلاً من خشب ، ليس بالكبير ، وترك لها رأس مال متواضعاً ، ولكنه كافٍ لأن تعيش مع أولادها فى منجى من العوز . كنا ولدين . أخى الأكبر ، مارسيل ، وأنا ، زينوفى . كان أخى أكبر منى بثمانية أعوام . وكان جامح الطبع شديد النزق ، ولكنه كان طيب القلب ، لا يسخر من الآخرين قط ، وكان كثير الصمت الى حد غريب ، ولا سيما مع ذويه ، أى معى ومع أمى ومع الخدم . وكان فى المدرسة مجداً مجتهداً يبرهن على أنه ينعم بذكاء قوى . ومع ذلك كان لا يألف رفاقه فى المدرسة كثيراً ، ولكنه لا يشاجرهم أيضا . تلك هى على الأقل الذكرى التى حفظتها أمى عنه . وقبل نهايته بستة أشهر ، بينما كان يدخل السنة الثامنة عشرة من عمره ، توثقت الصلة بينه وبين رجلٍ كان يعيش فى مدينتنا حياة اعتزال ،

رجل يشبه أن يكون منفياً سياسياً ، لأنه أُجبر على أن يغادر موسكو بأمر سام ، وأن يحدِّد اقامته في مدينتنا بسبب آرائه اللبراليه . كان هـذا الرجل عالماً كبيراً وفيلسوفا تقدره الأوساط الجامعية قدراً كبيراً . وقد شعر بشعور الصداقه نحو أخي مارسيل ، لا أدري لماذا ، فكان يستقبله كثيراً في منزله . فقضى أخي عند هذا الرجل سهرات طويلة ، على مدى فصل الشتاء كله ، الى أن استُدعي الرجل الى سان بطرسبرج بطلب منه ، ليُعهد اليه بمنصب رسمي ، لأنه كان ذا صلات عالية . كان هذا في وقت الصيام الكبير ، وقد رفض أخي أن يصوم ، مستهزئاً بالعبادات متهكماً عليهـا مستخفاً بها محقِّرا لهـا ، حتى لقـد قال « هذه سخافات وأباطيل وترهات ، لأن الله لا وجود له » ، فما كان أشد رعبنا جميعاً من هـــذا الكلام ، أنا وأمي والخدم ! لقــد شعرت حين سمعت قوله ذاك بهول رهيب ، رغم أنني لم أكن قد تجاوزت السنة التاسعة من عمري في ذلك الحين . وكان جميع خدمنا ، وهم أربعة فحسب ، أقناناً اشتريناهم من رجل من مالكي الأطيان كنا على صلة به . وما زلت أتذكر اليوم الذي باعت أمي فيه احدى خادماتنا ، وهي الطباخة العجوز العرجاء أوفيميا ، بسبعين روبلاً ورقاً ، واستخدمت بدلاً منها خادماً ليست من الأقنان . وها هو ذا أخي يُصاب بمرض أثناء الأسبوع السادس من الصيام الكبير. لقد كان أخي ضعيف البنية كثير المرض ، مستعداً للاصابة بالسل . انه قصير القد نحيل القامة هزيل الجسم ، ولكنه وسيم الطلعة جميل الوجه. تُرى هل أصابه برد ؟ المهم أن الطبيب الذي كان يعالجه قد أسرَّ الى أمي خفيةً أن مارسيل مصاب بسل يتفاقم تفاقماً سريعا وأنه لن يعيش الى آخر الربيع . فأخذت أمي تبكي وتضرعت الى مارســيل محاذرةً (حتى لا تروِّعه خاصةً) أن يتناول القربان المقدس في عيد الفصح . ذلك أنه لم يكن قد اضطر بعدُ الى ملازمة الفراش . فأجابها أخي غاضبا

وحقّر الكنيسة وأهانها وشتمها ثم أطرق يفكر سارد اللب • لقد أدرك خطورة حالته حين رأى الحاج أمي عليه أن يذهب الى الكنيسة لتناول القربان المقدس ما دام لا يزال يملك من القوة ما يسمح له بذلك • ثم انه كان يعرف منذ زمن طويل أنه مريض ، حتى لقد قال لنا منذ مايقرب من عام ، بينما كنا على المائدة أنا وهو وأمي : « انني لن أعيش زمناً طويلاً ، وقد لا أكون معكم بعد سنة » • وها قد تحقق ما كان يوجسه • انقضت أيام ودخلنا الأسبوع المقدس • فاذا بأخي يذهب الى الكنيسه منذ صباح الثلاثاء قائلاً لأمي : « انني أذهب الى الكنيسة من أجلك أنت يا أماه ، وذلك حتى تطمئني بالاً وتهدئي نفساً • » • فبكت أمي ، فرحاً في أول الأمر ، وحزناً وألماً بعد ذلك • وحدثت نفسها قائلة : « لا شك أن نهايته قريبة ما دام قد حدث هذ التبدل فيه » • ولم يتح له أن يكثر من الذهاب الى الكنيسة ، لأنه اضطر الى ملازمة الفراش ، فصار يعترف ويتناول في المنزل • لقد جاء الفصح متأخراً في ذلك العام • الأيام صافية مضيئة ، والهواء عبق معطّر • أذكر أن أخي كان يسعل في جميع الليالي ، ولا يكاد ينام • حتى اذا طلع الصباح ارتدى ملابسه وحاول أن يجلس على أريكة • وفي هذه الصورة انما أراه الآن : جالساً ، وديعاً ، رقيقا ، مبتسما ، مريضا جدا ولكنه مرح جداً ، سعيد جدا في الظاهر • لقد تبدلت نفسه تبدلاً كبيرا ، فبدا لي هذا التبدل خارقاً • قالت له الخادم العجوز يوما : « اسمح لي يا بني العزيز أن أشعل شمعة أمام الأيقونة في غرفتك » • ما كان لأخي أن يرضى بهذا من قبل ، وربما نفخ على الشمعة فأطفأها • ولكنه قال يومئذ للخادم العجوز : « اشعلي يا عزيزتي ، اشعلي ! ألا ما كان أشد شذوذي حين كنت أمنعك من ذلك ! أنت تصلين أمام الأيقونة ، وأنا أيضا أصلّي لله حين أنظر اليك ، لأن مرآك يبهج قلبي ، ونحن كلانا نصلي اذن لاله واحد • » • بدت لنا تلك الأقوال غريبة

حينذاك . وكانت أمي لا تنفك تبكي خفية ، وتجفف دموعها قبل أن تدنو منه ، محاولة أن تصطنع هيئة فرحة . فكان يقـــول لها في بعض الأحيان : « لا تبكي يا أماه ، يا ملاكي الصـــغير ، فلسوف أعيش زمناً طويلاً ، ولسوف أبتهج معكم ، فجميلة هي الحياة ، وزاخرة بالســـعادة والفرح ! » وكانت أمي تقول له عندئذ محتجة : « أين السعادة ، وأنت تصاب بالحمى في كل ليلة ، وتسعل حتى ليكاد ينفجر صدرك ؟ » ، فيعود يقول لها : « لا تبكي يا أماه ، فالحياة جنة نحن فيها جميعا ، ولكننا لا نريد أن نعترف بذلك ، فلو ارتضينا أن نسلّم به لأصبحت الحياة جنة منذ اليوم » . كانت هذه الأقوال تدهشنا ، لأنه كان يتكلم مقتنعاً بما يقوله اقتناعاً عجيبا . وكنا نتأثر من هذا الكلام تأثراً قوياً ، فتترقرق في أعيننا الدموع . وكان يزورنا بعض الأصحاب فاذا هو يقول لهم : « يا أعزائي ، يا أصدقائي الطيبين ، ماذا فعلت حتى أستحق حبكم ؟ كيف تستطيعون أن تحبوا شاباً مثلي ؟ ولماذا لم أعرف من قبل كيف أفهم عاطفتكم وكيف أقدرها ؟» . وكان يكرر للخدم دائما قوله : « لماذا تخدمونني يا أصدقائي الأعزة الطيبين ؟ ما الذي يجعلني أستحق أن تخدموني ؟ اذا منّ عليّ الله فأبقاني حياً ، فلأخدمنّكم أنا ، لأن علينا أن يخدم بعضنا بعضا في هذه الحياة الدنيا . . » . فكانت أمي تهز رأسها حين تسمعه يتكلم على هـــذا النحو ، فتقول له : «ان المرض هو الذي يوحي اليك بهذه الأفكار يابني» ، فيجيبها قائلا : « أماه ، يا فرحة حياتي ! أنا أعلم أن العالم لا يمكن أن يوجد ما لم يكن هناك سادة وخدم ، ولكنني أتمنى أن أكون خادم خدمي ، وأن أخدمهم كما يخدمونني ؛ وأحب أن تعلمي أيضا ، ان كلاً منا مذنب في حق الآخرين ومسئول عن جميع آلامهم . وأنا أكبر ذنباً من سائر الناس ! » . لم تستطع أمي أن تمنع نفسها من الضحك حين قال لها هذا

الكلام • وكانت تبكي وتضحك في آن واحد • سألته : « هلاّ قلت لى كيف تكون أكبر ذنبا من سائر الناس ! ان العالم ملىء باللصوص والقتلة، أما أنت فان وقتك لم يتسع حتى لارتكاب ذنب ومقارفة اثم ! فكيف يمكنك أن تتهم نفسك هذا الاتهام ؟ » • قال أخي: « أماه! ياحملى الوديع ! (ذلك أنه كان يجد عندئذ ألفاظاً للملاطفة لا تخطر بالبال) ، يا فرحتى الكبيرة ، يا حمامتى اللطيفة ! أؤكد لك أن كل انسان فى هذه الحياة الدنيا مرتكب جميع الذنوب ، فى حق جميع الناس ! لا أدرى كيف أشرح لك هذا الأمر ، ولكننى أحسه ، أحسه احساسا قويا عنيفا الى حدّ العذاب • كيف رضينا أن نعيش حتى الآن غاضبين بغير انقطاع، لا نفهم من الحياة شيئا ؟ » • وكان يستيقظ كل يوم وقد ازداد قلبه رقة وحنانا ، وطفحت نفسه فرحاً ومحبة • وكان الطبيب العجوز آيسنشمدت، يعوده أحيانا • فسأله أخى ذات يوم ضاحكا : « هيه يا دكتور ! أأعيش الى الغد ؟ » فأجابه الطبيب : « ستعيش لا الى الغد فحسب ، وانما ستعيش أياما وأشهراً بل وسنين • » ، فهتف عندئذ يقول : « ما خير أن يعيش المرء أشهرا وسنين ؟ ان يوما واحدا لكاف من أجل أن يعرف الانسان كل سعادة هذا العالم • يا أصدقائى الأعزاء ! نحن مجانين اذ نتشاجر ونتباهى ويحقد بعضنا على بعض لاساءة نالته • ألا فلنخرج الى الحديقة فنبتهج ويحب بعضنا بعضاً ! ألا فليتغن كل منا بفضائل أخيه ! ألا فلنتعانق ونبارك الحياة ! » • قال الطبيب لأمى حين شيعته الى درج الباب : « لن يعيش ابنك طويلا • لقد اختل من المرض عقله • » • وكانت غرفته تطل على الحديقة الظليلة المليئة بالاشجار الكبيرة التى نبتت على فروعها البراعم؛ وكانت أوائل عصافير الربيع التى وصلت منذ زمن قصير تزقزق وتغرد تحت نوافذه ، فكان يتأملها طويلا ويعجب بها كثيرا ، حتى لقد أخذ فى ذات يوم يستغفرها هى أيضا قائلا لها : «أيتها العصافير التى خلقها الله ،

أيتها الطيور الصغيرة ، اغفرى لى أنت أيضا ، لأننى أذنبت فى حقك ! » .
وبدا لنا هذا أمرا لا سبيل الى فهمه قط ، وكان هو يبكى عطفاً وحناناً .
وقال شارحا : « نعم ، لقد كانت عظمة الله مبســوطة أمامى : الطيور والأشجار والمراعى والسماوات . كان كل شىء يتغنى بعظمة الله ويسبح بحمده . الا أنا ، فقد كنت أعيش فى الخزى والعار ، مسيئاً الى شرف الخليقة ، لأننى لم أكن أرى جمال الحياة وسناءها . » . فكانت أمى تقول له باكية : « انك تتهم نفسك بخطايا كثيرة » ، فيقول لها : « أماه يا فرحة نفسى ، اننى من سعادة لا من حزن أبكى . وددت لو أكون مذنباً فى حق العصــافير الصغيرة ! لا أســتطيع أن أشرح لك هذا ، لا أعرف كيف أشرح لك حبى اياها . ألا فلأكن مذنبــاً فى حقكم جميعــا ، فتغفروا لى عندئذ جميعا . تلك هى الجنــة . ألست الآن فى الجنة ؟ » .

وكان يقول أشياء أخرى أصبحت لا أتذكرها . دخلت ذات يوم الى غرفته وكان وحده . كان ذلك فى المساء ،والجو صـــاح مضىء ، والشمس الغاربة تغرق الغرفة بأشعتها المائلة . فلما رآنى أشار الىَّ أن اقترب ، ثم وضع يديه على كتفى وتأملنى طويلاً متفرساً فى عينى ، وقد بدا فى وجهه حب وحنان. وانقضت على ذلك دقيقة دون أن ينطق بكلمة ثم أسبل يديه وقال لى : « هيّا العب الآن وابتهج ! اننى أريد أن تحيا عنى ! » . خرجت ومضيت ألعب ؛ ولكننى كثيرا ما فكرت أثناء حياتى ، والدموع فى عينى ، فى هذا الامر الذى أصدره الىَّ ، وهو أن أحل محلَّه فى هذا العالم . وفى مرات كثيرة بعـــد ذلك عبَّر عن عواطف رائعة سامية رفيعة ، لم نكن نفهمها كثيرا فى ذلك الحين . وانطفأ فى الاسبوع الثالث بعد عيد الفصح ، واعيا كل الوعى ، صاحيا كل الصحو؛ ورغم أنه أصبح لا يتكلم فى أواخر أيامه ، فقد ظل على ما كان عليه حتى

النهاية ، ينتظر الينا سعيدا فرحا مبتسما ، ويبحث عنا وينادينا بعينيه • وقد تكلم الناس عن موته كثيرا فى مدينتنا • وأثر هذا الحادث فى نفسى ولكن بدون افراط ، وان أكن قد ذرفت دموعا سخينةً يوم الجنازة • لقد كنت صغيرا جدا ، كنت طفلا ، ولكن ذكرى هذا الأخ ستظل قائمة فى أعماق قلبى ، لتنتصب أمامى متى آن الأوان ، نداءً من الملأ الأعلى • هكذا جرت الأمور فعلاً •

ب ـ أثر الكتب المقدسة فى حياة الاب زوسيما *

بقيت وحيدا مع أمى • ولم يلبث أصدقاء طيبون أن قالوا لها انها تحسن صنعاً ، بعد أن لم يبق لها الا ابن واحد ، وما هى محرومة من الموارد ، أن ترسل هذا الابن الى سان بطرسبرج للدراسة ، على غرار ما تفعل أسر نبيلة أخرى ؛ وأكد هؤلاء الأصدقاء أنها ، اذا هى احتفظت بابنها الى جانبها فى مدينة صغيرة ، تعرّضه للحرمان من مستقبل لامع • وأقنعوا أُمى أخيرا بأن تسجلنى فى « مدرسة المرشحين » ببطرسبرج ، لأكون فى المستقبل ضابطا من ضباط الحرس الامبراطورى• وقد ترددت أمى كثيراً فى العزم على فراق ابنها الاخير ، ولكنها اتخذت قرارها أخيرا وهى تبكى، معتقدةً أنها بذلك تؤمّن سعادتى• وقادتنىالى سانبطرسبرج فألحقتنى بمدرسة الاعداد العسكرى هذه ، ثم لم أرها منذ ذلك الحين ، لأنها ماتت بعد ثلاث سنين ؛ وهى فى أثناء تلك الفترة لم تنقطع عن البكاء حزناً على ابنها الفقيد ، ولا انقطعت عن الارتعاد قلقاً على مصير ابنها الباقى • وقد احتفظ خيالى بذكريات مضيئة عن المنزل الذى عشت فيه مع أمى ، لأن أصفى مشاعر القلب الانسانى هى المشاعر التى يكون قد أحسَّها فى سنى طفولته • الأمر كذلك دائماً متى كان الحب والوفاق

مسيطرين على حياة الأسرة • ولكن ذكريات الطفولة يمكن أن تكون ذكريات سعيدة حتى فى الأسر الممزقة متى كانت النفس قادرة على أن ترى وأن تجتنى من عناصر الوجود ما هو طيب نبيــــل • ولقد ارتبطت الكتب المقدسة بذكريات طفولتى ، لأننى كنت أهتم بها أثناء طفولتى فى المنزل اهتماما كبيرا • كنت أملك كتابا فيه صور جميلة عنوانه : « مائة وأربع قصص مستمدة من التوراة والانجيل » * ، وفى هذا الكتــاب انما تعلمت القراءة • وما يزال هذا الكتاب عندى حتى الآن • هو هنــاك على الرف ، وأنا أحافظ عليه محافظتى على أثر ثمين جدا من آثار الماضى• على اننى أتذكر أن الانفعال الدينى الأول الذى شعرت به * انما كان قبل تعلمى القراءة ، ولم أكن قد تجاوزت الثامنة من عمرى حينذاك • لقد قادتنى أمى الى الكنيسة للصلاة فى «أسبوع آلام السيد المسيح» (لا أدرى الآن أين كان أخى حينــذاك) ، وكان ذلك فى يوم من أيام الاثنين • النهار صحو ، والشمس ساطعة ، وما زلت أرى حتى هذه اللحظة ، كأن الأمر قد وقع أمس ، ما زلت أرى أدخنــة البخور تتصاعد بطيئة نحــو القبة ؛ وفى أعلى الكنيسة كانت أشعة شمس الاله تنفذ من نافذة ضيقة هابطة نحونا ، فكانت أدخنة البخور كأنها تندفع لاستقبالها أمواجاً متسقة، ثم تنصهر فى الضـــياء الذهبى أخيرا • كنت أتأمل هذا المشهد معجباً ، وأحسست أن بذرة « كلمة الرب » تغرس فى نفسى • وتقدم مراهق الى وسط المعبد • كان يحمل كتــاباً كبيرا يبلغ من الثقــل أن الفتى كان يبدو أنه ينوء بحمله • وضع الفتى الكتاب على منضدة الترتيل ؟ ثم فتحه وأخذ يقرأ • فهمت فى ذلك اليوم ، لأول مرة فى حياتى ، ما يُقرأ فى الكنيسة : كان يعيش فى أرض عوص رجل تقى صالح يملك ثروات طائلة ، ونوقاً لا حصر لعددها ، وقطعان خراف وحمير • وكان أولاده سعداء فرحين ، وكان يحبهم كثيرا ، ويصلى من أجلهم للرب • هــل

ارتكب هؤلاء الأولاد خطيئة ما في سعادتهم ؟ ذلك أن ابليس مثل يوما أمام الرب وقال له انه طاف الارض كلهـا وما تحت الارض • فسأله الرب : « هل رأيت عبدي أيوب ؟ » • وتباهى الرب أمام ابليس بقداسة عبده العظيم أيوب • ولكن ابليس ضحك وأجاب : « مكّني منه فترى أنه سيعصيك وسيلعن اسمك » • فمكّن الرب ابليس من عبده الأمين الذي كان يحبه الرب كثيراً ؛ فضرب لشيطان قطعانه ، وضرب أولاده ، ودمر ثرواته ، وأرسل اليه جميع المصائب دفعة واحدة ، كأن صاعقة من عند الله قد نزلت على داره • مزّق أيوب ثيابه ، وارتمى على الارض صائحاً : « لقد خرجت من بطن أمي عاريا ، وعاريا سأعود الى الارض • وهب الرب لي كل شيء ، والرب يسترد ما وهب • تبارك اسم الرب ، الآن وفي كل حين » • يا آبائي ومعلميّ ، سامحوني اذا رأيتموني أسكب العبرات في هذه اللحظة • ان طفولتي تنبثق الآن أمامي ، حتى ليخيل الى أنني أتنفس كما كنت أتنفس في طفولتي بذلك الصدر الصغير ، صدر الطفل الذي لم يتجاوز السنة الثامنة من عمره • ان ذلك الانفعال نفسه الذي أحسست به يومذاك يغزوني في هـذه اللحظة ، فاذا أنا مدهوش مفتون كما كنت مدهوشا مفتونا في ذلك اليوم البعيد بالكنيسة • لقد أحدثت تلك النوق تأثيرا قوياً في خيالي ، وأذهلتني قصة الشيطان الذي كلم الرب ، وشدهني قرار الرب أن يمكّن الشيطانَ من عبده الأمين ، وكذلك هتاف العبد مخاطباً ربه : « تبارك اسمك ، رغم أنك تعاقبني » • ثم تصاعدت في الكنيسة أغنية رقيقة جـدا : « سمع الله لصلاتي » • وارتفعت أدخنة البخور ، وركع المصلون • ومنذ ذلك الحين أصبحت لا أستطيع أن أقرأ تلك القصة المقدسة ــ وقد حدث لي هذا أمس أيضا ــ الا وتنسكب الدموع من عيني • ما أروع العظمة والسرّ الخارقين اللذين ينبعان من هذا النص ! لقد اتفق لي أن سمعت نقـداً

لهذا النص من أناس يقبّحون الدين ويلبونه ، أناس أعماهم غرورهم وصلفهم ، فهم يسخرون مما لا يفهمون ؟ قالوا : « كيف يمكّن الربُ الشيطانَ من قديسه الأثير ، فيستهزىء الشيطان بالقديس ، ويخطف أولاده ، ويرسل اليه الأمراض ، ويغطى جسمه بالجروح ، حتى صار يزاح القيح عن قروحه بشقفة من فخار ؟ أكل هذا من أجل أن يتباهى الرب أمام الشيطان قائلاً : « انظر ماذا يستطيع أن يتحمله واحد من أوليائى الصالحين فى سبيل محبتى ! » ؟ لقد غاب عن هؤلاء الناقدين أن عظمة هذه القصة انما هى فى هذا السرّ الذى يتأكد فيها ! ان المظاهر العرضية للحياة الارضية تلامس فى هذه القصـــة الحقيقة الأبدية التى لا ندركها . فمن خلال ما يبدو لنا على أنه واقع الأرض ، يتجلى فعل قوة أبدية تفوق هذا الواقع . ان الخالق فى هذه القصـــة يتصرف كما تصرف فى الايام الاولى من الخلق حين قال انه أبدع فيما صنع . انه ينظر الى أيوب فيبهجه أنه خلقه . وأيوب الذى يمجد الرب لا يخدم الرب وحده بل يخدم الخليقة أيضا ، من عصر الى عصر ومن جيل الى جيل ، فذلك هو ما يُسّر له . رباه ما أروعه سفراً ، وما أروعها تعاليم! ما أعظم الكتب المقدسة ، وما أكبر تلك القوة المعجـــزة التى توقظها فى الانسان ! لكأنها صورة الكون والانسان نفسه . كل شىء قد قيل فيها وأعلن لقرون . ما أعظم الأسرار التى تكشف عنها وتحلها ! ان الرب يرد السعادة الى أيوب ، ويهب له ثروات جديدة ؛ وتنقضى أعوام فيولد له أولاد آخرون يحبهم أيضا . رباه ! قد يتساءل متســـائل : « فكيف استطاع أن يحبهم وقد غاب أبناؤه الأول الى غير رجعة ؟ هل يمكن أن يشعر بأنه سعيد حقاً بين أولاده الجدد ، مهما يكونوا أحبةً فى قلبه ، اذا هو تذكر أولئك الذين غابوا الى الأبد ؟ » . الحق أنه كان يستطيع أن يشعر بالسعادة ، لأن الآلام القديمة تهدأُ بمرور الزمن ، ويطامنهـا

سرّ الطبيعة الانسانية الكبير ، وتستحيل شيئاً فشيئاً الى افراح ساجية • ان العدم الذى يغلى فى سن الشباب يفسح المجال فى الشيخوخة لهدوء ساكن • اننى أبارك فى جميع الأيام طلوع الشمس ، وان قلبى ليبتهج بشروقها كما كان يبتهج به فى الماضى ، ولكننى أوثر اليوم مجد الكوكب الغارب وأشعته المائلة التى توقظ فى نفسى ذكريات بعيدة عذبة ، وتحيى أطياف الماضى الحبيبة من حياة طويلة سعيدة • ففوق هذه الذكريات تحلق الحقيقة الالهية التى تهدىء وتصالح وتبرىء ! سوف أموت ، أنا أعرف ذلك وأفهمه ، ولكننى أحس فى كل يوم بأن الحياة ما تزال توهب لى ، وأن حياتى الأرضية تندفع نحو حياة جديدة ، أبدية ، مجهولة، هى منذ الآن قريبة يملأ الاحساس بها نفسى فرحاً ، ويهز قلبى هزاً قوياً• يا أصدقائى ومعلمىّ ! لقد سمعت من يقول ، سمعت ذلك مرارا وأسمعه الآن أكثر من أى وقت مضى ، ان الكهنة ، ولا سيما كهنة الأرياف يشكون مرّ الشكوى من أن راتبهم غير كاف ، ومن أن منزلتهم الاجتماعية وضيعة ، قائلين بل كاتبين ـ وقد قرأت ذلك بعينىّ ـ أنهم أصبحوا عاجزين عن شرح الانجيل للشعب ، بسبب قلة رزقهم • « اذا جاء لوثريون أو هراطقة فأضلوا رعايانا ، فليفعلوا ذلك ، لأننا لا نجنى من الرزق ما يكفينا » • هكذا يقولون • يا عدالة السماء ! ألا اننى لأسأل الرب أن يربى راتبهم هذا الذى يحرصون عليه ذلك الحرص كله (لأن شكواهم لا تخلو من حق) ولكننى أقول مخلصاً : من المسئول عن هذا الوضع ان لم نكن نحن المسئولين عنه الى حدٍ ما ؟ اننى أسلم بأن القس فى الريف مثقل بأعباء العمل ، وليس فى وقته من الفراغ ما يمكنه من الاهتمام بالشعب • ولكننى أرى أن وظيفته وعمله لا يشغلانه الى الحد الذى يعجز فيه عن أن يقف على الرب ولو ساعةً من وقته فى الأسبوع• ثم انه لا يعمل طوال السنة بلا انقطاع • ألا فليجمع فى داره ، مرةً فى

الاسبوع ، والأفضل أن يكون ذلك فى المساء ، ألا فليجمع الأطفال فى أول الأمر ، فاذا بآبائهم يعلمون ذلك فيجيئون هم أيضا • لا حاجة الى أن يكون هناك مكان خاص يُعقد فيه هذا الاجتماع • ما على القس الا أن يجمع الناس فى منزله الفقير نفسه • وليس له أن يخاف ، فانهم لن يفسدوا مسكنه ! ما ساعةً فى الأسبوع ؟ ألا فليفتح التوراة المقدسة فيقرأ لهم فيها بغير فصاحة مصطنعة أو كلام متفيهق ! فليقرأ قراءةً بسيطة طبيعية ، مبتهجاً بأن الناس يسمعونه ويفهمونه ، ممتلئاً بحب النص المقدس • وفى وسعه أن يتوقف عن القراءة من حين الى حين ليشرح معنى كلمة لا يعرف معناها أبناء الشعب • وليكن على يقين من أنهم سيفهمون بسرعة ، لأن الروح الارثوذكسيه تحس الحقيقة احساسا سريعا • ان القصص التى تروى حياة ابراهيم وسارة ، واسحق وربيكا ، ويعقوب الذى ذهب الى عند لابان ، وقال بعد أن اصطرع مع الرب فى الحلم : « هذا مكان رهيب » ، ان هذه القصص ستمضى قدماً الى القلب النقى ، قلب البسطاء الذين لم تفسدهم الحياة بعد • يجب أن تقص عليهم ، وعلى الأطفال خاصةً ، قصة الفتى الجميل الفتان يوسف ، النبى الكبير ، مفسِّر الأحلام ، كيف باعه اخوته ثم زعموا لأبيهم أن وحشاً أكله ، وأظهروا أباهم على ثيابه تدليلاً على صدق قولهم ؛ وكيف سافر اخوته بعد ذلك الى مصر التماسا للخبز ، وكان يوسف قد أصبح فيها عظيماً من عظماء رجال فرعون ، ولكنهم لم يعرفوه ، فاضطهدهم ، واتهمهم وحبس بنيامين الفتى رغم ما بكنه لهم من حب : « اننى أحبكم ، وانى لأعذبكم وأنا أحبكم » • ذلك أنه لم يستطع أن ينسى اليوم الذى باعه فيه اخوته لأناسٍ من تجار العبيد ، فى سهل مقفر ، قربَ بئر ، بينما كان يضرع اليهم باكيا عاقفاً ذراعيه أن لا يتركوه للعبودية فى أرض غريبة • فلما رآهم بعد ذلك العدد الكبير من السنين أحسَّ بحبه لهم ينبعث فى

قلبه ، ولكنه عذبهم بسبب تلك الذكرى المرة ، وتركهم أخيرا وانصرف، لأنه لم يعد قادرا على أن يحتمل الشكاة التى تصدر عن قلبه هو نفسه • وارتمى على سريره وأجهش باكيا ؛ ثم جفف وجهه وعاد اليهم هادىء النفس مشرق المحيا وقال لهم : « يا اخـــوتى ، أنا يوسف أخوكم » • وليقرأ القس للناس تتمة القصة : كيف سُرَّ يعقوب حين عرف أن ابنه لم يمت ، وكيف سافر هو أيضا الى مصر ، هاجراً الارض التى وُلد فيها ، ومات على تراب غير تراب وطنه ، تاركاً فى وصـــيته أكبر وعد سيتحقق للانسانية على مدى العصور ، كاشفاً عن السر الذى كتمه طول حياته فى قلبه المتواضع الوجل ، ألا وهو الوعد الذى يبشر الانسانية بأنه سيولد فى يوم من الأيام انسان هو أمل العالم ، وهو للانسانية مخلّصها وفاديها ! يا آبائى ومعلمىَّ ! اغفروا لى أننى أذكركم ، كتلميذ صغير ، بأشـياء تعرفونها منذ زمان طويل ، ويمكنكم أن تعلّموننيها بأحسن مما أفعل فناً وعلماً ! لقد اندفعت مع الحماسة• واغفروا لى دموعى، لأننى أحب هذا السفر • واذا استطاع الكاهن أن يبكى هو أيضا أثناء القـراءة ، فلسوف يرى مدى أثر ذلك فى نفوس سامعيه قوة انفعال وعمقَ عاطفة• ألا ان بذرة لتكفى مهما تكن يسيرة • فاذا بُذرت فى قلب البسطاء ، لم تفن بعد ذلك يوماً ، وانما هى تعيش فى نفوســـهم وتظل تثمـر طوال حياتهم ، من أعماق ظلمات ضلالاتهم وخطاياهم ، نبعاً من ضـياء ومن حقيقة أبدية ، ذكرى خفية ونداءً مستسراً • لا حاجة الى شروح طويلة واستطرادات متعالمة يتيه فى شعابها الفكر • ان أبنـــاء الشعب يفهمون الأمور ببساطة كبيرة • أتظنون أنهم عاجزون عن ذلك ؟ قوموا اذن بهذه التجربة ، اقرأوا لهم تلك القصة الجميلة المؤثرة ، قصة أستير الرائعـة وفاستى المتكبرة ، أو اقرأوا لهم تلك المغـامرة المعجزة ، مغامرة يونس فى جوف الحوت • ولا تنســـوا كذلك رموز الرب ، ولا سيما رموز

الانجيل كما وردت فى كتاب القديس لوقا (وذلك ماكنت أفعله دائما)، واقرأوا لهم في كتاب الشهداء حياة ألكسى ولى الله ، وكذلك حياة كبرى الشهيدات مريم القبطية • فلسوف ترون مدى تأثير هذه القصص البسيطه فى قلوبهم ! تكفى ساعة فى الأسبوع ، ساعه واحدة ، رغم قلة الراتب• فاذا ارتضى الكاهن بذل هذا الجهد لم يلبث أن يدرك أن لتعبنا نفساً كريمة تعترف بالجميل • لسوف يرد اليه الفلاح معـروفه مضاعفاً مائة مرة • لسوف يتذكر نشاط الكاهن وقراءاته المؤثرة ، فاذا هو يهب من تلقاء نفسه الى مساعدته فى أعماله فى الحقل أو المنزل • ولسوف يمحضه احتراماً متزايداً ؟ وهذه المزايا ، مجتمعةً ، تساوى زيادة فى الدخل ، ذلك حل يبلغ من السهولة فى الواقع أن المرء يستحى أحيانا أن يقترحه، مخافة أن يُضحَك عليه • ومع ذلك فهذه هى الحقيقة • ان من لا يؤمن بالله لا يؤمن بشعبه أيضاً • ولكن الذى لا يشك فى شعبه ، لن يلبث أن تتجلى له قداسة روح الشعب ، ولو لم تخطر على باله يوما قبل ذلك • ان مثقفينا الملحدين ، الذين أصبحوا غرباء عن الأرض التى أنبتتهم ، لن ينقذهم ولن يردهم الى طريق الرشاد الا شعبنا الذى ستتأكد قوته الروحية فى يوم من الأيام • ما قيمة أقوال المسيح اذا لم تسـندها قوة القـدوة ؟ ألا ان الشعب ليهلك ويفنى ما لم تنجده الكلمة الالهيـــة ، لأن الشعب ظامىء الى حقيقة دينية ، والى مثل أعلى أخلاقى رفيع • فى أثناء شبابى ، منذ أكثر من أربعين عاما ، طفت أرجاء روسيا بصحبة الأب آنتيم نجمـع المعونات لديرنا الفقير • ففى ذات يوم ، توقفنا ليلا عند شاطىء نهر كبير من الأنهار الصالحة للملاحة ، بين الصـــيادين • فجلس الى جانبنا فتى مليح الوجه هو فلاح فى نحو الثامنة عشرة من عمره كان يتعجل الالتحاق بعمله فى الغد ، لأنه قد استؤجر لجر سفينة تجارية • كان الفتى ينظر أمامه حالماً بعينيه الصـافيتين الحلوتين • الليلة سـاجية حارة ، هى ليلة

مشرقه مضيئة من ليالى سهر تموز . ومن النهر العريض تتصاعد أبخرة تحمل الينا طراوة منعشة . وتنبجس سمكه الى سطح الماء من حين الى حين ، فتتلاطم الأمواج تلاطماً خفيفا . سكتت العصافير ، فكأن الطبيعه كلها تصلى لله صامتة في هذه الهدأة التى ترين من حولنا على الأرض والسماء . ونحن وحدنا لم ننم ، أنا وهذا الفتى . تحدثنا عن جمال خلق الله وعن سره ، عن الأعشاب والنمل والحشرات والنحل ، عن جميع هذه المخلوقات التى تعرف طريقها جميعا فى هذا العالم ، دون أن يكون لها ذكاء ، فاذا هى بهذا العلم المعجز تشهد بعظمه صنع الله وتساهم فى كل لحظة ، بعملها المتواضع ، فى تحقيق الغايات العليا للخالق . فلاحظت أن هذا الشاب اللطيف المحبب قد تأثر تأثراً قوياً وأن نفسه التهبت حماسة وحميًا . وأسرّ الىّ بأنه يحب الغابات وطيورها ، لأنه كان هو نفسه يربى الطيور ويعرف تغريد جميع أنواعها، ويعرف كذلك وسائل اجتذابها . قال لى : « لا شىء أروع من الغابة ، وكل شىء فى الطبيعة جميل على كل حال » فأجبته قائلاً : « هذا صحيح. كل شىء فى خليقة الله رائع ومؤثر ، لأن كل شىء فيها حق . انظر الى الحصان مثلاً ، هذا الحيوان النبيل المتعلق بالانسان ذلك التعلق كله ، أو انظر الى البقرة الخاضعة المطرقة التى تطعمه وتعمل من أجله . ما أعذب هذه الحيوانات الأليفة ، ما أكرم عاطفتها نحو أصحابها الذين كثيرا ما يضربونها بغير شفقة ، ما ألطف الوداعة والثقة اللتين تتجليان فى نظراتها ! أليس هذا جميلاً ؟ انه لأمر مؤثر فى النفس أن نتذكر أن هذه الحيوانات هى بلا خطيئة ، لأن كل ما فى الكون برىء كامل الا الانسان . لقد كان المسيح مع الحيوانات ، قبل أن يجىء ليخلصنا » . فسألنى هذا الفتى : « هل تعتقد حقاً أن المسيح معها أيضا ؟ » فأجبته قائلا: « وكيف لا يكون الأمر كذلك ، ما دامت الكلمة للجميع . ان كل

مخلوق ، ان كل من تنفس ، حتى أحقر ورقة من أوراق الأشجار ، يشهد بعظمة الخالق ويسبّح بحمده . ان كل شيء في الطبيعة يندفع نحو المسيح ، ويناديه على غير شعور ، لأنه يملك هذه الفضيلة السرية ، وهي أنه بغير خطيئة . انظر في الغابة الى الدب ، المخيف الضاري دون أن يكون مسئولاً عن ذلك ! ... » قلت له هذا وقصصت عليه أن دباً اقترب ذات يوم من قديس عظيم كان يعيش معتزلاً في حجرة وسط الغابة . فأشفق الناسك على الوحش الجائع ، فهبّ الى لقائه بغير وجل ، ومدّ اليه قطعه من خبز قائلاً له : « كُل في سلام ، وليكن المسيح معك » ، فابتعد الوحش الضاري طائعاً دون أن يلحق بالقديس أي أذى . تأثر الفتى تأثراً شديدا من أن الدب انصرف دون أن يهجم على القديس ومن أن المسيح كان معه . وصاح يقول : « ما أروع هذا ! ما أروع كل شيء اذن في خلق الله ! » . وظل مطرقاً مفكراً خلال مدة طويلة ، غارقاً في تأملات لطيفة وأحلام عذبة . رأيت أنه فهمني . ثم استلقى قريبا مني ونام نوما بريئاً هادئاً . بارك الرب في الشباب ! صليت من أجله قبل أن أنام أنا أيضا . ربّ ابعث السلام والأمن والضياء الى جميع مخلوقاتك !

ج ـ ذكريات سني الشباب التي عاشها الشيخ زوسيما في العالم . المبارزة

لبثت في « مدرسة المرشحين » بسان بطرسبرج زمناً طويلاً يقرب من ثماني سنين . ان التربية التي تلقيتها في تلك المدرسة قد كبتت في نفسي كثيرا من مشاعر الطفولة ، ولكنني لم أنس تلك المشاعر حقاً . وفي مقابل ذلك أكسبتني هذه التربية أفكارا وعادات جديدة جعلت مني انسانا يكاد يكون متوحشا ، انساناً قاسيا غبياً . وبتعلم اللغة الفرنسية تزينت بآداب المجتمع وطُليت بطلاء من حضارة . أما الجنود الذين كانوا

يخدموننا فقد كنا جميعا ، وأنا أيضا ، نعدّهم بهائم ؟ ولعلني كنت أسبق من غيري في ذلك ، لأنني كنت في كل أمر من الأمور أكثر تأثراً بالبيئة من سائر رفاقي . ولما أصبحنا ضباطا كنا مستعدين لأن نبذل دمنا في سبيل شرف كتيبتنا ، ولكننا كنا نجهل كل الجهل ما هو الشرف حقاً . ما من أحد منا كان يملك أية فكرة عنه ، فلو قيل لنا ما هو الشرف حقاً لرفعنا أكتافنا استخفافا واحتقاراً . وكنا نكاد نعتز بما ننهمك فيه من سكر ومجون ، وما نندفع فيه من وقاحة واستهتار ، ونكاد نعده مجداً من الأمجاد . ليس معنى هذا أننا كنا في قرارة أنفسنا أشراراً . فلقد كان في هؤلاء الشباب خير طبيعي فطري ، ولكنهم كانوا يسلكون سلوكاً سيئاً ، وكنت أنا في ذلك شراً من سائر رفاقي . وفي تلك الفترة استلمت ثروتي ، فأخذت أعيش على ما يريد لي هواي وخيالي وعلى ما تشاء لي نزواتي وبدواتي ، مندفعاً اندفاع الشباب بغير أي تحفظ أو قصد . لقد مخرت ناشراً جميع أشرعتي . ولكن الشيء الغريب هو أنني كنت أقرأ في كثير من الأحيان ، حتى لقد كنت أجد في القراءة لذة ومتعة . ومع ذلك لم أفتح التوراة يوما غير أنني لم أفارقها ، وانما كنت أحتفظ بها قريبةً مني في تنقلاتي ، كأنما أنا أنوي أن أقرأها « في يوم من الأيام وساعة من الساعات ، في شهر من الأشهر وسنة من السنين في المستقبل » . وبعد أربع سنين من الخدمة ، وجدت نفسي في مدينة ك ... التي كانت كتيبتنا تعسكر فيها . ان المجتمع في هذه المدينة كبير العدد متنوع الملأ . وكان أكثر هؤلاء أناساً أغنياء لطافاً يعيشون حياة فرح وبهجة . وقد أحسنوا استقبالي لأنني مرح بطبيعتي . يضاف الى ذلك أنهم كانوا يعدونني ثرياً ، وذلك أمر يقدره المجتمع قدراً عظيماً . وهنا انما حدث لي حادث كان له أثر حاسم في مصيري . فقد تولهت بحب فتاة جميلة ذكية نبيلة الخلق يتمتع أهلها باحترام كبير ، فهم ينعمون بالثراء ، ولهم

صلات عالية • وقد أحسن أهلها وفادتي • وأحسست أن الفتاة ليست غير مكترثة بوجودي ، فالنهب خيالي من ذلك التهابا شديدا • ولقد أدركت فيما بعد أنني لم أكن أحبها فعلاً ، وانما كنت مفتتناً بذكائها وسمو طبعها ورفعة خلقها ، وتلك أمور ما كان لها الا أن تؤثر في نفسي • وقد منعتني أنانيتي من خطبتها ، اذ صعب عليّ أن أتنازل في مثل تلك السن من ريعان الشباب عمّا في حياة العازب الحرة المتحللة ، من اغراءات • لذلك اقتصرت على بعض التلميحات الخفية ، وأرجأت الخطوة الحاسمة الى ما بعد • وفي أثناء ذلك تلقيت أمرا عسكريا بالسفر مدة شهرين الى مقاطعة أخرى • فلما عدت عرفت أن الفتاة تزوجت في غيابي • لقد تزوجت رجلاً غنيا من أصحاب الأملاك في منطقة مجاورة ، وهو أكبر مني سناً ولكنه ما يزال شاباً ، كما أن له صلات في العاصمة وفي المجتمع الراقي ، وذلك ما لم يكن لي مثله • ثم انه عدا هذا رجل لطيف محبب جدا مثقف جدا ، على حين أن ثقافتي أنا كانت ناقصة نقصاً كبيراً • وقد بلغت من الاضطراب لهذا الحادث ما جعلني أتصور أنني فاقد بسببه صوابي • وكان أنكى ما آلمني انني علمت أن الرجل خطيب الفتاة منذ زمن طويل • ولقد حدث أن قابلته فعلاً في منزل أهلها مرارا كثيرة دون أن يخطر ببالي شيء ، من شدة ما أعماني غروري • وقد أحنقني هذا الأمر وأغاظني أكثر من أي شيء عداه • تساءلت : كيف ؟ أيعلم ذلك جميع الناس الا أنا ؟ وشعرت من ذلك بحقد شديد • لقد شعرت بالدم يصعد الى جبهتي حين تذكرت تصريحات الحب التي أوشكت أن أقولها لها مرارا • ان الفتاة لم توقفني بل تركتني أتكلم دون أن تنبئني بأنها مخطوبة • فاستنتجت من ذلك أنها كانت تسخر مني وتضحك عليّ • وقد فهمت فيما بعد أن الأمر لم يكن كذلك قط وتذكرت أنها ، على خلاف ما توهمت ، كانت تقاطعني في كل مرة مازحة ، وتغير موضوع

الحديث ، غير أنني عجزت في ذلك الحين عن أن أحكم في الأمر حكماً سليماً صحيحا ، فكنت أحترق توقاً الى الانتقام •

واني لأتذكر الآن ، بغير قليل من الدهشة ، أن ذلك الغضب وذلك التوق الى الانتقام اللذين شعرت بهما كانا شاقين على نفسي ، لأن خفة طبعي كانت لا تتيح لي أن أظل حاقداً على الناس مدة طويلة • فصرت أحرّض استيائي وحنقي تحريضا مصطنعا من أجل أن أصل أخيرا الى اندفاع أحمق غير انساني• ارتقبت فرصةً أنتقم فيها لنفسي ، واستطعت في ذات مساء ، بينما كنا في مجتمع غفير ، أن أهين «غريبي» في أمر لاعلاقة له في الظاهر بشخصي • سخرت من رأيه في موضوع حدثٍ كان قد وقع وهزّ أفكار الناس كثيراً في ذلك العهد* ـ كنا في عام١٨٢٦ ـ وكانت سخرباتي ـ في رأي الحضور ـ مُحكمة حاذقه فكهه ـ ثم طلبت منه أن يصفي حسابه معي بمبارزتي ، وبلغت من الفظاظة والغلظة أثناء ذلك انه لم يملك الا أن يقبل التحدي رغم كل ما بيني وبينه من مسافة ، فأنا أولاً أصغر منه سناً ، وأنا ثانيا ضابط صغير لا قيمة له في حين أنه يحتل هو مركزا اجتماعيا عالياً جداً • وقد علمت فيما بعد أن شيئا من الغيرة قد دفعه الى قبول التحدي • فمن جهة أولى كان هو قبل ذلك الحين ، أثناء خطوبته ، قد ساءته ملازمتي لخطيبته ؟ وهو من جهة ثانية يخشى الآن ، اذا علمت زوجته بأنه تحمل اهاناتي دون أن يبارزني ، أن تحتقره على غير ارادة منها ، وأن يتزعزع من ذلك حبها له • ولم ألبث أن عثرت على شاهدٍ لي بغير عناء ، وهو رفيق من رفاقي كان ملازماً في كتيبتي نفسها• ولقد كانت المبارزات رائجة جدا بين الضباط في ذلك الزمان ، رغم أنها محظورة محرّمة ، وهذا يدل على مدى ترسخ الأحكام الاجتماعية الباطلة في النفس الانسانية • كنا في أواخر شهر حزيران (يونيو) ، وحُدّد الغد موعدا للقاء ، في الساعة السابعة من الصباح ، على أرض مهجورة

خارج المدينة • ووقع لى فى ذلك المساء حادث لا أستطيع الا أن أعده تدخلاً من القدر • فحين عدت الى مسكنى فى ساعة متأخرة من الليل مهتاجا اهتياجا شديدا ، ثرت على الجندى الذى يخدمنى ، واسمه آتانازى، ثورة شديدة ، وصفعته بكل قوتى مرتين ، حتى أخذ الدم يسيل من وجهه • ان آتانازى يخدمنى منذ زمن غير طويل ، ولقد سبق أن ضربته من قبل ، ولكننى لم أضربه بوحشيه حيوانية كهذه المرة • صدِّقونى يا أصدقائى الأعزاء اذا قلت لكم : اننى ما زلت الى اليوم ، بعد أكثر من أربعين عاما ، لا أستطيع أن أتذكر سلوكى حينذاك الا وأشعر بخزى وعار وألم عميق • وقد رقدت فنمت زهاء ثلاث ساعات • فلما استيقظت كان الصبح قد تنفس • فأسرعت أرتدى ملابسى لأن النوم قد طار من عينى ، واقتربت من النافذة ففتحتها • ان النافذة تطل على الحديقة • وقد أخذت الشمس تطلع فى الأفق • والجو جميل طرى ، والعصافير تغرد • سألت نفسى : « لماذا هذا الاحساس الغريب فى نفسى بالخزى والعار والاشمئزاز ؟ ألأنى سأسفح دم انسان ؟ لا ••• يبدو أن هذا ليس هو السبب • أأكون اذن خائفا من الموت أخشى أن أُقتل ؟ لا ، لا ، ليس هذا هو السبب ، ليس هذا هو السبب أبدا ••• » وفجأة أدركت علة ذلك الضيق الذى كنت أشعر به : لقد كنت أحس بعذاب فى ضميرى لأننى ضربت آتانازى فى الليلة البارحة • تراءى لى المشهد بجميع تفاصيله على حين بغتة : كان آتانازى واقفاً أمامى ، منتصب القامة ، مرفوع الرأس ، جاعلاً يديه على درزة سرواله ، وأنا أهوى على وجهه بالصفعة تلو الصفعة بكل ما أوتيت من قوة • وكان هو يحدِّق أمامه كأنه فى استعراض عسكرى ، ولا يجرؤ أن يرفع ذراعه ليحمى وجهه رغم أنه يرتجف عند كل صفعة • انظروا الى أى حالة يمكن أن يُردَّ الكائن الانسانى ! كيف يستطيع انسان أن يرضى ضرب أخيه الانسان ؟ يا لها

من جريمة ! شعرت كأن ابرة تنفذ فى جسمى • اننى أرى الآن كيف كنت واقفاً أمام النافذة مشـــدوهاً مصعوقاً • كانت الشمس فى الخارج تتلألأ ، وكانت عصافير صغيرة تغرد ببراءة ، مسبحةً بحمد الرب ••• وهأنذا أخفى وجهى بيدىّ على حين فجأة ، وأرتمى على سريرى ناشجاً منتحباً • لقد عاودتنى فى تلك اللحظة ذكرى أخى مارسيل ، وخطـرت ببالى الكلمات التى قالها للخدم قبل موته بقليل : « يا أصدقائى الطيبين ، ماذا فعلت حتى أسـتحق أن تخدمونى ؟ ما الذى يجعلنى جـديرا بعاطفتكم ؟ » • وقلت لنفسى : « ما الذى يجعلنى أنا أيضا جديرا بأن يخدمنى قرينى الانسان ؟ » • وحاصرت هذه الفكرة عقلى فجأة • فأخذت أتساءل : « لماذا يجب على انسان شبيه بى ، انسانٍ خُلق مثلى على صورة الله ، أن يكون خادمى ؟ ما الذى جعلنى جديرا بذلك ؟ » • لقد طرحت على نفسى هذا السؤال لأول مرةٍ فى حياتى • « أماه ، يا حَمَلى الوديع ، ان كل انسان مرتكب جميع الذنوب فى حق جميع النـاس ••• البشر لا يعرفون هذا ••• ولو ارتضـوا أن يعترفوا به لأصبحت الأرض جنةً منذ الآن » • تساءلت من خلال دموعى : « أيجوز حقاً يا رب أن أكون مرتكباً جميع الذنوب ، وأن أكون أكبر النـاس اثماً ؟ انى اذن لأسوأ الناس طراً ! » • وتراءت لى الحقيقة فجأة فى ضياء باهر ! ما الذى كنت أريد أن أفعله ؟ أن أقتل انسانا طيبا ذكيا نبيل الخلق لم يمسسنى بسوء ولم يلحق بى أذى ، وأن أحرم زوجته من السعادة الى الأبد فى الوقت نفســه ، فأسلمها للعذاب وأدمِّر روحها ! وكنت أثناء استسلامى لهذه التـأملات راقداً على سريرى ، دافناً وجهى فى الوسائد ، لا ألاحظ أن الوقت كان ينقضى • وها هو ذا رفيقى الملازم يظهـــر فى غرفتى فجأة حاملاً الىّ المسدسات • قال لى :

ـ أنهضت من نومك ؟ أحسنت ••• ما يزال فى الوقت متسع • هيَّا بنا !

اضطربت ، وزاغ لبى ، لكننى تبعته ؛ وفيما كنا نوشك أن نركب العربة التى كانت تنتظر أمام المنزل ، عدلت عن الركوب فجأة ، وقلت لرفيقى شارحاً :

ـ انتظرنى لحظة ، أنا عائد الى البيت لأجىء بمحفظة نقودى التى تركتها فيه •

وأسرعت قدماً الى الغرفة الصغيرة التى يسكنها خادمى الجندى • قلت له :

ـ آتانازى ! لقد صفعتك على وجهك مرتين أمس • سامحنى !

ارتعش حين سمع كلامى كأنه قد خاف • وشعرت عندئذ أن ذلك ليس كافيا ، وأن بادرتى لا تتناسب والأذى الذى ألحقته به ، فاذا أنا أخضع فجأة لاندفاعة مباغتة فأرتمى على قدميه بملابسى الفخمة حتى لامست جبهتى الأرض ، وأقول له صائحاً :

ـ سامحنى يا آتانازى

بدا آتانازى مصعوقاً ، وأخذ يقول :

ـ يا صاحب النباله ••• يا أبتاه ••• يا مولاى ••• كيف يمكنك أن ••• أنا لست جديراً بهذا ! •••

وأخذ يبكى هو نفسه ، كما بكيت أنا منذ قليل ، دافناً وجهه فى يديه • واستدار نحو النافذة ، مرتعشاً من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، غارقاً بدموعه • وهرعت ألحق برفيقى الملازم الذى كان ينتظرنى فى العربة • صحت أقول للحوذى :

ـ سِرْ ...

وأضفت مخاطباً رفيقى :

ـ هل تريد أن ترى الغالب ؟ انه أمامك !

كنت أشعر بحماسة شديدة ، وظللت أضحك بغير انقطاع أثناء الطريق ، وأتكلم بلا توقف ، أخبط فى الكلام خبط عشواء ... لا أدرى ماذا قلت ! وكان رفيقى ينظر الىّ راضياً مرتاحاً . قال لى :

ـ أرى انك شجاع ! لسوف تشرّف بزّتنا العسكرية .

ووصلنا الى أرض المعركة ، حيث كنا ننتظر . وضعنا أنا وخصمى على بعد اثنتى عشرة قدماً . وكان عليه هو أن يطلق النار أولاً . وقابلته جذلاً فرحاً ، وأنا أنظر الى عينيه فأشعر أن قلبى يفيض حباً له . لم تطرف عينى . كنت واثقاً مما سأفعله . أطلق النار . خدشت الرصاصة خدى خدشاً خفيفاً ، ولامست أذنى ملامسة .

صحت أقول :

ـ الحمد لله ! انك لم تقتل أخاك .

ثم تناولت مسدسى فرميته ورائى فى اتجاه الغابة .

قلت :

ـ هذا ما أفعله بالمسدس .

ثم التفت نحو خصمى وقلت له :

ـ سيدى ! اغفر لى اننى أسأت اليك بغير سبب لطيشى وخفتى ، ثم أجبرتك على أن تطلق علىّ النار . أننى لا أساويك ولا أعدلك ،

فأنت خيرٌ مني عشر مرات ، وربما أكثر من ذلك • قل هذا عن لساني للانسان الذى تقدره أكثر من أى انسان آخر فى هذا العالم •

فما ان نطقت بهذه الكلمات حتى أخذ الثلاثة يصرخون •

قال خصمى وقد بدا عليه حتى شيء من الغضب :

ـ ما معنى هذا ؟ ما كان ينبغى أن تزعجنى اذا لم تكن تنوى أن تقاتل •

فأجبته قائلاً بمرح :

ـ لقد كنت حتى الأمس غبياً أحمق ، ولكننى صرت ذكياً عاقلاً بعد ذاك •

فقال :

ـ أما انك كنت بالأمس غبياً أحمق ، فهذا أمر أسلِّم به ؛ وأما أنك أصبحت ذكياً عاقلاً ، فهذا ما لا يبدو صحيحاً اذا نحن نظرنا الى سلوكك •

قلت وأنا أصفق بيديّ :

ـ مرحى ! اننى أوافقك على ما تقول • لقد استحققت أن أسمع هذا الكلام •

قال ملحاً :

ـ أأنت عازم على أن تطلق النار يا سيدى أم لا ؟

فأجبته :

ـ لن أفعل • ولك أن تطلق مرةً ثانية اذا كنت تحرص على ذلك، ولكنك تحسن صنعاً اذا أنت لم تطلق •

اضطرب الشاهدان ، ولا سيما صاحبى •

ـ كيف تجرؤ على أن تلطخ شرف كتيبتنا بالعار ؟ آتطلب الصفح وأنت على أرض المعركه ؟ آه ... ليتنى تنبأت بهذا ! ...

كففت فى هذه المرة عن الضحك ، وقلت لهم جميعا وأنا أنظر فى أعينهم :

ـ سادتى ! أعجيب" الى هذا الحد حقا أن يوجد فى أيامنا هذه رجل يستطيع أن يندم على خطيئة ارتكبها ، وأن يعترف بها أمام الناس ؟

فصاح صاحبى يقول من جديد :

ـ لا ... ولكن هذا لا يكون على أرض القتال .

فاستأنفت كلامى قائلاً :

ـ أهذا ما يدهشكم اذن ؟ لقد كان يجب علىّ فى الواقع أن أعتذر اليه منذ وصلت ، قبل أن يطلق علىّ النار ، وذلك لأجنبه ارتكاب خطيئة قاتلة . ولكن من المؤسف أننا قد نظمنا حياتنا على تصورات تبلغ من السخف أنه كان يستحيل علىّ أن أفعل ذلك ان صح التعبير ، فاننى ما كنت لأستطيع أن أتكلم آملاً أن أُفهم حق فهمى الا بعد أن أطلق علىّ النار من على بعد اثنتى عشرة قدما ؛ والا لكان يمكن أن تعدونى جبانا غير جدير بأن يُسمع كلامى اذا أنا اعتذرت اليه منذ وصولى قبل أن يطلق .

ثم هتفت فجأة أقول مندفعاً بكل نفسى :

ـ أيها السادة ! تأملوا خلق الله من حولكم : السماء الصافية ، والهواء النقى ، والعشب الطرى ، والطيور المغردة ! ان الطبيعة تنبسط أمامكم رائعة بغير خطيئة . ونحن وحدنا ، معشر الأغبياء الأدنياء ، لا نستطيع أن نرى أن الحياة جنة . يكفى أن نعقد النية على أن نعرف

هذه الحقيقه حتى يبدو لنا العـالم فورا بكل سنائه وبهائه وجماله • ألا فلنتعانق ولنبك •••

كنت أوشك أن أبكى ، ولكننى أمسكت وقـد انقطعت أنفاسى • شعرت بانفعال شديد لذيذ ، وكان قلبى يفيض سعادةً لا عهد لى بمثلها من قبل •

قال خصمى :

ـ كلامك فيه عقل وشرف ••• لا شك فى أنك انسان طـريف جدا •••

فأجبته ضاحكا :

ـ اسخر منى الآن ، ولكنك ستطرينى فى المستقبل •

قال :

ـ بل أنا مستعد لأن أثنى عليك منذ الآن • اسمح لى أن أمد اليك يدى ، لأنك فيما يبدو لى انسان صادق جدا •

قلت :

ـ لا ••• لا تمدد لى يدك الآن ••• وانما تمدها لى فى المستقبل ، بعد أن أصلح نفسى وأستحق تقديرك ••• يومئذ تصافحنى وتكون على حق اذا صافحتنى •

وعدنا الى المنزل • كان شاهدى حانقاً فهو لا ينفـك يقرعنى فى العربة • أما أنا فكنت أقبّله • وما أن علم رفاقى بما حدث حتى اجتمعوا ليحكموا علىّ • قال بعضهم :

ـ لقد لطخ شرف بزتنا العسكرية بالعار ، فعليه أن يستقيل •

ودافع بعضهم الآخر عني قائلاً :

ـ ولكنه صمد أمام اطلاق النار عليه دون أن يختلج .

فقال الآخرون :

ـ غير أنه جبن بعد ذلك ، وخاف استئناف تبادل الرصاص ، فاعتذر على أرض المعركة .

فأجاب المدافعون عني قائلين :

ـ لو أنه خاف لأطلق النار أولاً قبل أن يعتـــذر ، أما وأنه رمى مسدسه في الغابة محشواً بالرصاص فهذا دليل أن الأمر ليس كذلك ، وانما هو شيء آخر جديد طريف .

وكنت أصغي اليهم ، فتملؤني أقوالهم فرحاً ، ثم قلت لهم آخـــر الأمر :

ـ يا أصدقائي ورفاقي الأعزة ! لا يقلقنكم أمر استقالتي ، فقـــد أرسلتها الى المكتب منذ هـــذا الصباح ، وسأدخـــل الدير متى قُبلت الاستقالة .

فما ان ســـمعوا هذه الكلمـات حتى انفجـروا يضحكون ضحكاً صاخباً .

ـ كان ينبغي أن تقول هذا من قبل . الآن اتضح كل شيء . ليس يحاكم راهب .

كان رفاقي يضـــحكون ولكن بغـــير خبث ؛ انهم يضحكون وهم يشعرون نحوي بشيء من العطف والحنان . ومنذ تلك اللحظة أصبحوا جميعا يظهرون لي المحبة والمودة ، حتى أعتاهم اتهاماً لي وأقساهم حكماً عليَّ . واحتفلوا بي في الكتيبة طوال الشهر الذي انقضى بين تقديمي

الاستقالة واحالتي على التقاعد • كانوا يقولون :

ـ هذا راهبنا •

وأصبح كل واحد منهم يخاطبني بأقوال فيها محبة وعطف ، محاولا أن يصرفني عما عزمت عليه ، بل ومشفقاً عليّ راثياً لحالي •

ـ لماذا تفسد حياتك هذا الافساد ؟

ـ لا بل انه شجاع • لقد جابه اطلاق النار عليه وكان في وسعه أن يرد ، ولكن لا شك أنه رأى في منامه حلماً أثناء الليلة التي سبقت يوم النزال فقرر أن يدخل الدير •

وكان الامر كذلك في المدينة أيضا • لقد كان الناس في الماضي يحسنون استقبالي وكفى • أما بعد ذلك الحادث فقد أصبحوا يهتمون بي جميعا • انهمرت عليّ دعواتهم الى ولائم يقيمونها لي • صحيح أنهم يسخرون قليلاً من قراري ، ولكنهم يحبونني • ويجب أن أذكر أن السلطات قد أغمضت أعينها عن حادث مبارزتنا ، رغم أن هذه المبارزة أصبحت مدار حديث الناس جميعا ، وذلك لأن خصمي يمت الى جنرالنا بقربى قريبة • ثم انه ما من دمٍ قد سفح ، وقد استقلت ••• لذلك عُدّت المغامرة أشبه بمزاحة • وقد تجرأت فقررت أن أعبّر عن آرائي بغير تحرج ، رغم سخريات أبناء المجتمع الراقي التي لم تكن سخريات خبيثة شريرة والحق يقال ، بل كانت سخريات بريئة طيبة ••• وكانت تجري تلك الأحاديث عادةً في المساء ، بحضور السيدات ، لأن اهتمام النساء بي كان أكبر من اهتمام الرجال ، فكان يحلو لهن أن يصغين الى كلامي ، وكنّ يجبرن رجالهن على أن يصغوا اليّ كما يصغين هنّ •

كنت أُسأل بلهجة ساخرة :

ـ كيف تزعم أننى مرتكب جميع الذنوب فى حق جميع الناس ؟ أأنا الذى اقترف أخطاءك مثلاً ؟

فكنت أجيبهم بقولى :

ـ لا تستطيعون أن تدركوا هذه الحقيقة اليوم ، لأن المجتمع قد سار منذ زمان بعيد فى طريق خطأ ، فرفع الى مصاف الحقائق ضلالات مشئومة ، وطلب من أعضائه أن يتبنوا هذه الأحكام . هذا أنا مثلاً : لقد أردت مرة فى حياتى أن أتصرف تصرفاً صادقاً ، فاذا أنا أصبح فى نظركم رجلاً ملتاث العقل . ومهما تحبونى ، فانكم تظلون تسخرون منى .

قالت سيدة المنزل ضاحكة :

ـ كيف يمكن أن لا يُحَب فتى مثلك ؟

كان الجمع غفيراً جداً فى ذلك المساء ، ولمحت فجأة ، بين السيدات الحاضرات ، تلك المرأة التى أردت بسببها أن أبارز ، والتى كنت أحلم أن تكون خطيبتى قبل ذلك بقليل . لم أكن قد لاحظت وصولها . وها هى ذى تنهض وتدنو منى وتمد الى يدها وتقول لى :

ـ اسمح لى أن أقول لك اننى ، أنا ، لا يخطر ببالى لحظة أن أسخر منك . بالعكس : اننى لأحرص على أن أعرب لك عن شكرى متأثرة أصدق التأثر ، أن أعبّر لك عن تقديرى واحترامى للسلوك الذى سلكته فى ذلك الظرف .

وجاء الى زوجها أيضا ، وتبعه سائر المدعوين . كادوا يقبلوننى جميعا . اجتاح الفرح نفسى . ولاحظت خاصة ، بين الأشخاص الذين أظهروا لى مودتهم وعاطفتهم ، سيداً متقدما فى السن بعض الشىء ، كنت أعرف اسمه منذ زمن ، ولكننى لم أُقدَّم اليه ، فلم أخاطبه قبل ذلك المساء بكلمة واحدة .

د ـ الزائر العجيب

كان يشغل منصبا هاما فى مدينتنا منذ سنين كيرة • انه شـــخص مرموق ، غنى ، يتمتع باحترام عام ، اشتهر ببره واحسانه ، فقد وهب لملجأ الفقراء ولمأوى الأيتام مبالغ ضخمة • وكان عدا ذلك يساعد عددا كبيراً من الفقراء ، متخفيا متكتماً ، حتى أن ذلك لم يُعرف الا بعد موته• انه فى نحو الخمسين من عمره ، وهو قليل الكلام ويوشك مظهره أن يكون قاسيا • وقد تزوج منذ عشر سنين فحسب ، وامرأته ماتزال شابه ، وله منها ثلاثة أولاد كانوا صغارا فى ذلك الحين •

فى غد ذلك المساء الذى جرى فيه الحديث ، كنت فى منزلى ، فاذا بالباب يُفتح فجأة ، واذ بى أرى هذا السيد يدخل علىّ •

يحسن أن أذكر هنا أننى كنت فد غيَّرت مسكنى • فاننى بعـــد احالتى على التقاعد قد استأجرت غرفة فى دار أمرأة عجـوز هى أرملة موظف من الموظفين ، فكانت خادمة هـــذه العجوز تقوم على خدمتى • والحق اننى تركت منزلى القديم فى يوم المبارزة نفسه ، فما ان رجعت الى منزلى فى ذلك الصباح حتى صرفت آتانازى وأرســـلته الى الثكنة ، لأننى أصبحت لا أجرؤ أن أنظر اليه بعد الذى حدث بيننا • انظروا الى مدى هيمنة الأفكار السائدة على انسان من أبناء المجتمع لم يتهيأ للحيـاة الروحية الأخلاقية ! ان هذا الانسان يمكن أن يحمر خجلاً حتى من أنبل الأفعال وأجدرها بالاحترام •

قال لى هذا السيد :

ـ لقد أتيح لى أن أسمعك عدة مرات فى منازل صـــديقة كثيرة ، فكنت أصغى الى كلامك باهتمام عظيم فى كل مرة • واننى لأحب أن

أحظى بمعرفتك لأتحدث معك بمزيد من التفصيل . فهل تمنّ عليّ بهذا الفضل ؟

أجبته قائلاً :

ـ ذلك يسرني أعظم السرور ، وهو لى شرف كبير .

ومع ذلك فقد شعرت بشيء من الخوف . لقد أوحى اليّ هـذا الرجل خوفاً عميقا . صحيح أنني كنت قد ألفت أن يكون لى مستمعون كثيرون ، وأن هؤلاء المستمعين كانوا فى كثير من الأحيـان يصغون الى كلامى باستطلاع واهتمام ، ولكن ما من أحد منهم قد واجهنى حتى ذلك الحين بهيئة فيها هذا الجـد كله وهذا النفـاذ كله . أضف الى ذلك أن الرجل قد جاء الى بيتى بنفسه .

قال لى بعد أن جلس :

ـ لقـد تبينت فيك قوة خلقيـة كبيرة ، لأنك لم تخش أن تخدم الحقيقة فى ظروف تعرّضك لاحتقار الجميع .

فأجبته :

ـ لعلك تقدرنى فوق قدرى فى هذه القضية .

فقال :

ـ لا ... فان القيام بعمل كهذا العمل أصعب مما تظن .

وتابع يقول :

ـ لقد أثر سلوكك فى نفسى تأثيرا قويا ، وهذا هو السبب الوحيد الذى دفعنى الى زيارتك . أحب لو أسألك أن تصف لى ـ ما لم تر ذلك فضولاً منى فى غير محله ـ ما شعرتَ به لحظةَ قررت أن تعتذر اليه على أرض القتال ، اذا كنت تتذكر مشاعرك . أرجو أن لا تعزو سؤالى هذا الى طيش منى ، فهناك أسباب خفية تدفعنى الى القاء هـذا السؤال عليك ، وسأشرح لك هذه الأسباب اذا شاء الله أن يقرب بيننا .

كانت أثناء استرساله فى هـــذا الكلام أنظر اليه بانتباه ، فشعرت فجأة باطمئنان اليه وثقة به ؛ حتى لقـــد أحسست أنا أيضا باســتطلاع قوى ، لأننى قدرت أن فى حياته سراً • قلت له :

ـ قبل أن أذكر لك ما شعرت به أثناء اعتذارى الى خصمى على أرض المعــركة ، أحسب أن من المفيـــد أن أروى لك كيف تسلسلت الأحداث منذ البداية تسللاً لا يعرفه أحد الى الآن •

وأطلعته على ما وقع لى مع آتانازى ، ورويت له كيف أننى سجدت أمامه ، وقلت أختم كلامى :

ـ تستطيع أن تفهم بعد هذا أن موقفى فى لحظة المبارزة كان سهلاً ، لأننى كنت قد رجعت الى الاحساس بالحقيقة وأنا فى منزلى ، فلما سرت فى هذا الطريق لم يكن علىّ الا أن أتابع المضىّ فيه ؛ وسلوكى بعد ذلك لا يتصف بأنه لم يكلفنى أى عنــــاء فحسب ، بل كان الى ذلك مصحوبا باحساس بالسعادة والفرح •

أصغى الرجل الى كلامى بانتباه ، وكان فى نظرته الىّ مودة كبيرة وحب عظيم • قال :

ـ هذا كله شائق جدا ، وسأعود اليك لأتحدث معك مرارا •

وأصبح يجيء الىّ كل مساء تقريبا • وكان يمكن أن تتوثق بيننا عرى الصداقة ، لو أنه حدثنى عن نفسه أيضا • ولكنه لم يكد يفضى الىّ بشىء عن حياته ، وكان لا يزيد على أن يسألنى عن حياتى أنا • ومع ذلك فقد أحببته كثيرا ، وفتحت له قلبى كله ، قائلاً لنفسى اننى فى غير حاجة البتة الى معرفة سرّه ، وحسبى أن أعلم أنه رجل صادق مستقيم• وأرضانى أن أرى رجلاً أكبر منى سناً ، رجلا يبلغ هذا المبلغ من الجد،

ثم هو لا يحتقر صحبة شاب مثلى ، بل يجىء اليه فى منزله ••• وقد تعلمت منه أشياء هامة كثيرة ، لأنه كان على جانب كبير من الذكاء •

قال لى فجأة ذات يوم :

ـ أما أن الحياة جنة ، فذلك ما أفكّر فيه منذ زمان طويل •

وسرعان ما أضاف قوله :

ـ بل اننى لا أفكر الا فى هذا •

ونظر الىّ مبتسماً •

ـ حتى اننى أشد اقتناعا بذلك منك ، لأسباب ستعرفها فيما بعد • كذلك أضاف يقول بعد قليل •

وقدّرت وأنا أصغى اليه انه ربما كان يريد أن يفضى الىّ ببعض أسراره •

واستأنف كلامه قائلاً :

ـ ان كلاً منا يحمل فى نفسه جنةً مدفونةً • ان هذه الجنة قائمة فى نفسى وان تكن مختبئة • وحسبى أن أريد ، حتى أجعلها تنبجس منذ اليوم فأحتفظ بها طوال حياتى •

كان يتكلم بشىء من الحماسة ؟ وفى نظـــرته المنصبة علىّ رأيت ما يشبه أن يكون سؤالاً مستسراً عجيبا • وتابع كلامه يقول :

ـ انه لصحيح كل الصحة أن كل انسان مرتكب كل الذنوب فى حق كل الناس ، هذا عدا خطاياه الخاصة • تلك حقيقة كبرى عبَّرت عنها ، ولا يسعنى الا أن يدهشنى أنك استطعت أن تكتشـــفها كاملةً ،

دفعةً واحدة . ومن المحقق أن ملكوت السموات سيكون واقعا لا حلماً فحسب ، فى اليوم الذى تفهم الانسانية فيه هذه الحقيقة .

فهتفت أقول بمرارة :

ــ متى يحدث هذا ؟ هل يجيء ذلك اليوم حقا ؟ أليس ذلك أملاً لا أكثر ؟

ــ أأنت لا تؤمن بهذا اذن ؟ أتبشر بالحقيقة ثم تستسلم للشك ؟ ألا فاعلم أن ما تسميه أملاً سيتحقق لا محالة . كن من ذلك على ثقة ! على أن هذا لن يتحقق اليوم ، لأن لكل فعل ميقاته فى الزمان بحكم قوانين صارمة . لا بد أن تتغير الانسانية تغيراً نفسيا وأخلاقيا . لن يكون من الممكن أن يتبدل العالم ما لم يكتسب البشر روحا جديدة ، وما لم يتجهوا فى طريق جديد . لن يكون على الارض أخوة ما لم يشعر البشر بأنهم اخوة حقاً . لن يستطيع البشر فى يوم من الايام أن يقتسموا ثرواتهم بالعدل اذا هم لم يستوحوا الا العلم ومصالحهم . ان كل واحد سيجد نصيبه أصغر مما يستحق أن يكون له من نصيب ؟ وان الحسد والحقد سيسودان فيدفعان البشر الى أن يفنى بعضهم بعضا . تسألنى متى يتحقق ملكوت السموات على الأرض . فاعلم أن ملكوت السموات سيتحقق على الارض فى يوم من الايام ، ولكن ذلك لن يكون قبل انتهاء « عهد العزلة » .

ــ أية عزلة تعنى ؟

ــ العزلة التى يعيش فيها البشر ، وتتجلى فى جميع الميادين ، ولا سيما فى عصرنا هذا . ان عهد العزلة هذا لم ينته ، حتى انه لم يصل الى ذروته . ان كل انسان فى هذا العصر يجهد فى سبيل أن يتذوق الحياة كاملةً ، مبتعداً عن أقرانه ، ساعياً الى السعادة الفردية . ولكن هيهات

أن تؤدى هذه الجهود الى تذوق الحياة كاملة ، فهى لا تقود الا الى فناء النفس فناء كاملا ، ولا تقود الا الى نوع من الانتحار الروحى بعــزله خانقــة • لقــد انحــل المجتمع فى عصرنا الى أفراد يعيش كل منهم فى جحره كوحش ، ويهرب بعضهم من بعض ، ولا يفكرون الا فى أن يخفوا ثرواتهم بعضهم عن بعض • وهم يصلون من ذلك الى أن يكره بعضهم بعضا ، والى أن يصبحوا جديرين بالكره هم أيضا • ان الانسان يكدّس الخيرات فوق الخيرات فى العــزلة ، وتسره القــوة التى يحسب أنه يملكهــا بذلك ، قائلاً لنفســـه ان أيامه قد أصبحت بذلك مؤمّنــة مضمونة ؟ انه لا يرى ، لحمـــاقته ، أنه كلما أوغل فى التــكديس كان يغوص فى عجز قاتل • ذلك أنه يتعود أن لا يعتمد الا على نفسه ، ويفقد ايمانه بالتعاون ، وينسى فى عزلته القوانين التى تحكم الانسانيه حقــا ، وينتهى من ذلك الى أن يرتعد فى كل يوم خوفا على ماله الذى أصبح فقدانه يحرمه من كل شىء • لقد غاب عن البشر تماما فى أيامنا هــذه أن الأمن الحقيقى فى الحياة لا يتحقق بالعزلة ، وانما يتحقق باتحــاد الجهود وتناسق الأعمال الفردية • ان عهد العزلة الرهيب هذا سينتهى حتما فى يوم من الايام ، وسيفهم البشر فجـــأة مدى تناقض العزلة مع طبيعتهم الحقيقية ، وستهب على الانسانية يومئذ نفحة جديدة ، وستتساءل الانسانية مدهوشـــة يومئذ : كيف أمكنها أن تعيش طوال هــذه المدة فى ظلمات الضلالة لا ترى النور ؟ وعندئذ سوف تظهر علامه ابن الانسان فى السموات ••• وانما المهم أن نحافظ على عَلَمه الى أن يجىء ذلك الحين ، وأن نحاول ، ولو بالقدوة الفــردية ، أن نخلّص النفس من عزلتها بزرع المحبة الأخوية دون أن نخشى اتهامنا بالغباء • ما ينبغى أن ندع لهذا الأمل العظيم أن يموت •••

هكذا كانت تنقضى ليالينا فى أحاديث مشبوبة متحمسة • وأصبحت

أهمل مجتمع المدينة شيئاً بعد شيء ، وأصبحت لا ألبي دعوات الناس الا لماماً • ثم أن الحماسة لشخصي كانت قد بدأت تزول • لقد عفت « موضتي » • ولست أقول ذلك لائما ولا عاتبا ، لأن الناس ظلوا يحبونني ويحسنون وفادتي • ولكن يجب أن نعترف بأن « الموضة » تلعب في المجتمع دورا كبيرا • أما زائري العجيب فقد أصبحت أحمل له مع مرور الزمن اعجابا شديدا • كنت أشعر أمام ذكائه بنشوة قوية ووجد عظيم، وكنت أحس أنه ينضج مشروعا سرياً أو يتهيأ لعمل كبير • ولعله قدّر فيّ أنني لا أتدخل فيما لا يعنيني فضولا ، فانني لم أحاول ، لا على نحو مباشر ولا على نحو غير مباشر ، أن أستدرجه الى حيث يُسرُّ اليّ بشيء من أمره• ولكنني لاحظت أخيرا أن سره يثقل على صدره ، وأنه يحترق شوقاً الى أن يفتح لي قلبه ، أو ذلك هو على الأقل ما شعرت به شعوراً واضحا كل الوضوح بعد شهر • قال لي يوما :

ـ هل تعلم أن الناس في المدينة يثرثرون كثيرا عنا ، وأنهم يدهشون لزياراتي المتكررة لك ؟ لا ضير على كل حال ، فان كل شيء سيتضح قريبا •

وكان يتفق له في بعض الأحيان أن ينتابه اضطراب شديد ، وكان في مثل تلك اللحظات ينهض في الغالب لينصرف • وكان في مناسبات أخرى يطيل التحديق اليّ ، ويلقي عليّ نظرات نافذة ، فأقول لنفسي عندئذ : « ها ••• سيتكلم » ، ولكنه ما يلبث أن يغير الحديث ، ويتطرق الى موضوعات لا قيمة لها ، أو يقول أشياء معادة مكرورة • وكان يشكو من صداع في كثير من الاحيان • وفي يوم من الايام ، بعد أن تكلم بكثير من الحرارة ، رأيته يصفرُّ على حين فجأة ، ورأيت وجهه يتقلص ، ورأيته يتفرس فيّ تفرساً غريباً • قلت له قلقاً :

ـ ماذا بك ؟ أأنت مريض ؟

ذلك أنه كان قد شكا من صداع منذ قليل •

فقال :

ـ أنا ••• هل تعلم ؟ أنا ••• أنا قاتل ! •••

وابتسم بعد أن أفلتت منه هذه الكلمة ولكن وجهه كان قد اصطبغ بزرقة ضاربة الى سواد • « ما هذه الابتسامة ؟ » • برق هذا السؤال في ذهني ونفذ الى قلبي ، قبل أن يتسع وقتي لأن أرد بشيء • ولكنني شحبت أنا أيضا •

صحت أسأله :

ـ ماذا تعني ؟

فاستأنف كلامه يقول وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

ـ هأنت ذا ترى كم كلفني هذا الاعتراف الاول من عناء ! ولقد تم الاعتراف الآن ، وستكون متابعته أسهل وأيسر ••• فهيّا أتابع •••

لبثت زمناً طويلا لا أصدق ما كان يقوله لي ؟ ولم أستطع أن أصل الى التصديق الا شيئا فشيئاً ، بعد أن رجع الي ثلاث أمسيات متتاليات، فروى لي القصة بجميع تفاصيلها • ظننته في أول الامر مجنونا ، ثم أدركت الحقيقة أخيرا بمرارة قوية ودهشة عميقه • لقد ارتكب هذا الرجل فعلا جريمة قتل رهيبة منذ أربعة عشر عاما : قتل امرأة شابة غنية ، جميلة جدا ، كانت أرملة رجل من مالكي الاطيان ، وكان لها في مدينتنا قصر تقيم فيه من حين الى حين • لقد افتتن هذا الرجل بها افتتاناً شديدا ، وتوله بها تولهاً مشبوبا ، وصارحها ذات يوم بحبه ، وحاول أن يقنعها بزواجه • ولكنها كانت تحب رجلا آخر هو ضابط في الجيش عالي الرتبة واسع الشهرة كان عندئذ في الريف وكان عليها أن تلحق

به قريبا • لذلك رفضت عرض صاحبى ، ورجته أن لا يجيء اليها بعد ذلك اليوم أبدا • فلما صرفته بهذه الخشونة ، وأصبح لا يستطيع أن يزورها ، تسلل ذات ليله الى منزلهـا الذى كان يعـرف ترتيبه ، مارا بالحديقة والسطح ، متهورا أشد التهور ، معرضا نفسه لأن يُكتشف • ولكن الحظ واتاه ، كما يحدث هذا كثيرا فى الجرائم الجريئة ، فنفـذ الى دارها من كوة فى السطح ، ثم هبط السلم المؤدى من طابق السقف الى شقة السيدة • كان يعلم أن الباب الذى يوجد فى أسفل هذا السلم يظل مفتوحا فى كثير من الأحيان بسبب اهمال الخدم • وعلى هذا انمـا كان يعوّل صاحبى ، فصدق حسابه • فلما صار فى الشقة اتجه فى الظلام الى غرفة نوم السيدة ، التى كان يشتعل فيها سراج • وشاءت المصادفة أن تكون وصيفتا السيدة قد خرجتا فى ذلك المساء ، دون أن تستأذناها ، وذلك لحضور حفله صغيرة تقيمها صـــديقة لهما تحتفل بعيـد ميلادها وتسكن غير بعيد • أما الخدم والخادمات فقد كانوا ينامون فى الملحقات بالحديقة ، أو فى المطبخ بالطابق الأدنى • فلما رأى المرأة الشابة نائمة اضطرم هـــواه واستعر ، فاذا بغيرة حانقة ظامئـة الى الانتقام تشب فى قلبه ، واذا هو يقترب من السيدة كالسكران ، ويغمـــد فى قلبها سكيناً وهو لا يدرك ماذا يفعل • لم يتسع وقت السيدة حتى لاطلاق صرخة • ورتب الرجل أموره بمكر شيطانى وحيل رهيبة من أجل أن تقع الشبهات كلها على ساكنى المنزل • لم يرض أن يستولى على محفظة القتيل ، وانما فتح أدراج صندوقها مستعينا بمفاتيح وجدها تحت وسادتها ، فاختـار من محتويات هذه الأدراج أشياء هى ما يمكن أن يسرقه خادم جاهل • لم يمد يده الى السندات والصكوك والاوراق التى لها قيمة كبيرة ، وانمـا سرق الأموال النقدية ، وسرق الحلى الذهبية مسترشدا بحجمها ووزنها ، محتقراً التحف التى يفوق ثمنها ثمن الحلى الذهبية كثيرا • وسرق كذلك

بعض الاشياء التذكاريه التى سنتحدث عنها فيما بعـــد • حتى اذا أتم جريمته على هذا النحو ، خرج من الدار متبعاً نفس الطريق الذى اتبعه فى الدخول • ولم يخطر ببـال أحـد على الاطلاق ، لا فى الغـد حين اكتشفت الجريمة ، ولا فى أية لحظة من لحظات حياته ، أن يكون هــو الجانى • وكان الناس يجهلون حبه للمرأة القتيل على كل حال ، لأنه كان شديد الصمت قليل الكلام ، ولم يكن له أصدقاء يمكن أن يسِرّ اليهم بشئونه • كان الناس يعدونه أحد أصدقاء القتيل لا أكثر ، حتى أنهم كانوا لا يعدونه من أصدقائها الحميمين ، لأنهم لم يروه فى منزلها خلال الأسابيع التى سبقت المأساة • وانصبت الشبهات رأساً على خادم قن اسمه بطرس ، وكانت جميع الظروف تشير اليه وتتهمه • كان هـذا الخادم لا يجهل أن المتوفاة ــ التى لم تكن تخفى ما عقدت نيتها عليه ــ تريد أن تدخله فى قائمة الفلاحين الذين ستقدمهم للخدمة العسكرية ، أولا لأنه عازب ، وثانيا لأنه سيء السلوك • وقد سمعه الناس فى احدى الخمارات يطلق أقوالاً يهدد فيها مولاته بالقتل وهو فى حالة سكر شديد وحنـق قوى • وفى غداة الجريمة ، وُجد على الطريق ، غيرَ بعيد عن الضيعة ، فاقدَ الوعى من شدة السكر ، فى جيبه سكين ويده اليمنى ملطخة بدم • وقد فسَّـر هو ذلك بأن أنفــه رعف ، ولكنه لم يُصدَّق • واعترفت الوصيفتان بأنهما غابتا عن المنزل فعلاً ، وأقرّتا بأنهما تركتا باب الدار مفتوحاً عن سهو وغفلة • وجاءت تفاصيل أخرى مؤيدة لقرائن الاتهام هذه ، فاعتقل الخادم البرىء ، وأودع السجن ، وكان سيمثل أمام القضاء لولا أنه أصيب بحمى حارة بعد أسبوع ، ثم مات فى المستشفى قبل أن يفيق من غيبوبته • وأُغلق التحقيق ، ولم يبق الا تسليم الأمر لله •••
وظل جميع الناس ، القضاة ورجال السلطة وأبناء المجتمع فى المدينة ، مقتنعين بأن الجريمة لا يمكن أن يكون قد ارتكبها أحـــد غير الخادم المتوفى • وعندئذ انما بدأ العقاب •

وقد أسر الى الزائر العجيب ، بعد أن أصبح صديقى ، أنه لم يعرف عذاب الضمير فى الاونه الاولى . صحيح أنه تألم زمنا طويلاً ، ولكن ألمه كان حسرةً على أنه قتل المرأة التى يحبها وعلى أنه فقد الى الأبد كل أمل فى أن يسعد بقربها ، وكانت نار الحب ما تزال تكوى عروقه . أما أنه سفح دماً وقتل انسانا فذلك أمر لم يزعجه كثيراً ، ولم يكن يفكر هو فيه الا نادرا . كان اذا تصور أن تلك المرأة كان يمكن أن تصبح زوجة رجل آخر غيره لا يطيق أن يحتمل هذا التصور؛ وكان لهذا السبب موقناً بأنه كان يستحيل عليه أن يتصرف الا كما تصرف . وقد هزَّه اعتقال الخادم فى أول الأمر ، ولكن مرض المتهم ووفاته لم يلبثا أن ردَّا اليه هدوءه وطمأنينته ، اذ كان واضحاً (هذا ما كان يقوله لنفسه) أن الخادم لم يمت بسبب اعتقاله أو بسبب صدمة نفسية ، وانما مات بسبب البرد الذى أصابه أثناء هروبه ، حين بات ليلةً بكاملها على الأرض الرطبة فاقدَ الوعى من السكر . أما المال والأشياء المسروقة فانه لم يأبه لها قط ، لأنه (هذا ما كان يقوله لنفسه أيضا) لم يسرقها طمعاً بل تمويهاً . ثم ان قيمة هذه الأشياء المسروقة لم تكن كبيرة جدا ، وسرعان ما وهب لمأوى الفقراء الذى أنشىء فى المدينة فى الآونة الأخيرة مبلغاً يساوى قيمة الأشياء المسروقة بل يفوقه كثيراً . وقد فعل ذلك ليهدىء ضميره فى موضوع السرقة ، ومن الغريب أنه استطاع أن يهدئه فعلاً خلال مدة طويلة من الزمن كما أسرَّ هو الىَّ بذلك . واندفع يزاول نشاط مهنته اندفاعاً قوياً فغرق فى هذا النشاط ، واستطاع أن يحصل على أن يُعهد اليه بمهمة صعبة متعبة مضنية شغلته خلال سنتين ؛ واذ كان رجلا جمَّ النشاط فائض القوة فقد أمكنه أن ينسى الجريمة التى ارتكبها نسيانا يشبه أن يكون كاملا . وكان اذا راودته ذكراها يبادر الى طرد هذه الذكرى . وقد انصرف أيضا الى البر والاحسان فدعم

وأنشأ أعمالا خيرية في مدينتنا ، وذاع صيته في العواصم ، فانتخب عضوا في الجمعيات الخيرية بموسكو وسان بطرسبرج . غير أن قلقا أليما قد استيقظ في نفسه بمرور الزمن ، وأخذت ذكرى الماضي تحاصره محاصرة ما تنفك تزداد الحاحاً وما تنفك تنقص اندفاعه في العمل . وتعرف في تلك الفترة الى امرأة شابة جميلة ذكية ، أعجبته كثيراً فقرر أن يتزوجها، آملاً أن يستطيع هذا الزواج أن يطرد كآبته ويبدد قلقه . كان يقول لنفسه انه اذا دخل حياة جديدة وأصبح ينهض، في همة ونشاط ، بواجباته نحو امرأته وأولاده الذين سينجبهم منها ، فانه سيستطيع أن يتخلص من شبح الماضي الذي يحاصره تخلصا تاما . ولكن ما كان يتوقعه لم يتحقق، وانما تحقق نقيضه . فانه منذ الشهر الاول من حياته الزوجية شـــعر بهذه الفكرة تعذبه وتقض مضجعه : « صحيح أن زوجتي تحبني . ولكن كيف عساها تتصرف اذا هي عرفت الحقيقة ؟ » . وحين أسرَّت اليـه أول مرة أنها ستصبح أماً اضطرب وقال لنفسه : « أأهب الحياة أنا الذي قتلت ؟ » . ثم لما كبر أولاده ، أصبحت تهاجمه وتلازمه أسئلة أخرى : « كيف أجرؤ أن أحبهم وأن أربيهم وأنشئهم كأنني أستاذ يعلم الفضيلة، في حين انني ارتكبت جريمة قتل ؟ » . وكان أولاده على غاية من الظرف والجمال ، ولكنه كان اذا اشتهى أن يلاعبهم يقول لنفسه : « لست جديرا بأن أتأمل وجوههم الحلوة الطاهرة التي تتلألأ فيها براءة نفوسهم . . » . وأخيرا انبجس أمام ضميره طيف المرأة التي قتلها ، انبجس وعيداً غامضاً كأنه نداء الدم المسفوح يهيب الى الانتقام ! وأصبحت توافيه في الليـل أحلام ثقيلة وكوابيس مرهقة . ومع ذلك استطاع بفضل قوة قلبه وثبات جنانه أن يحتمل هذا العذاب زمناً طويلاً ، واستطاع أن يقبله قائلاً لنفسه انه سيكفِّر بآلامه الخفية عن خطيئته . ولكن أمله هذا قد خاب. فان القلق الداخلي ما انفك يزداد ويتفاقم . والناس في المجتمع يحترمونه

تقديرا لبره واحسانه ، مع بهيبهم قسوة طبعه وانغلاق نفسه • ولكنه كان يزداد شعورا بالارهاق كلما ازداد شعورا باحترام الناس له• وقد اعترف لى بأنه فكر فى الانتحار غير مرة • غير ان قرارا اخر قد أخذ ينضج فى نفسه ، قرارا بدا فى أول الأمر حلماً طائشاً مجنوناً ولكنه ما زال يستولى على وجدانه ويترسخ فى ضميره حتى اصبح لا يستطيع أن يصرف عنه فكره • كان يقول لنفسه : « يجب أن أسلم نفسى للقضاء ، يجب أن أعترف بجريمتى ، يجب أن أتهم نفسى أمام جميع الناس بأننى قاتل • » • وظل ثلاث سنين يحمل فى خياله هذا الحلم الذى يعاوده فى صور جديدة بغير انقطاع • وانتهى الى الاقتناع بأنه سيشفى روحه وسيسترد أمنه الداخلى الى الأبد ، اذا هو اعترف بجريمته • ولكن ما ان تأصل هذا الاقتناع فيه حتى غزا الرعب قلبه ، فأصبح يقول لنفسه : «كيف أفعل مثل هذا ؟ » • وفى ذلك الحين انما وقعت المبارزة بينى وبين ذلك الرجل •

قال لى الزائر العجيب :

ـ حين نظرت اليك وجدت فى نفسى القوة على أن أعزم أمرى وأتخذ قرارى •

فهتفت أسأله وأنا أضمُ يدىّ احداهما الى الأخرى :

ـ هل يمكن حقاً أن يكون حادث تافه كهذا الحادث قد ولّد فى نفسك عزيمة كهذه العزيمة ؟

فأجابنى قائلا :

ـ ان هذا القرار قد نضج فى نفسى خلال ثلاث سنين ، ولم تزد مبارزتك على أن أخرجته الى النور • اننى ازاء المثل الذى ضربته أنت قد استحييت من ضعفى وحسدتك •

كذلك قال بلهجة تشبه أن تكون قاسية . قلت :

ـ لن يصدّقوك ، فبعد أربعة عشر عاماً ...

ـ عندى براهين ، براهين رهيبة ، لا يمكن دحضها ... سأقدم هذه البراهين .

بكيت وعانقته .

وقال لى بعد ذلك كأنه يخاطب انسانا يتعلق به مصيره :

ـ أجبنى مع ذلك عن سؤال ، سؤال واحد : ما الذى سيحدث فى هذه الحالة لزوجتى وأولادى ؟ قد تموت زوجتى حزنا . أما أولادى فانهم لن تسقط عنهم نبالتهم ولن يحرموا من أموالهم ، ولكنهم سيظلون الى الأبد أولاد سجين محكوم عليه بالأشغال الشاقة . وأية ذكرى سيحفظونها عنى ؟

صمت فلم أقل شيئاً .

وأردف يقول :

ـ سيكون علىّ أن أنفصل عنهم وأن أتركهم الى الأبد !

لم أجب بشىء ، وكنت أتلو صلاةً بصوت خافت . ونهضت أخيراً وقد امتلأت نفسى رعباً وفزعا . سألنى وهو ينظر الىّ :

ـ هيه ؟

قلت :

ـ سلّم نفسك للقضاء ! كل شىء سينقضى وتبقى الحقيقة وحدها. وسيفهم أولادك حين يكبرون مدى ما احتجت اليه من نبل وسموِ روحى فى سبيل اتخاذ هذا القرار .

تركنى فى ذلك المساء وقد بدا عليه واضحا أنه قرر أن يعترف بجريمته • ولكنه ظل خلال الأسبوعين اللذين أعقبا ذلك ، يجىء الىّ كلّ مساء تقريبا ، ويستعد كل يوم لتحقيق ما عقد النية عليه ، حتى اذا جاء الغد جبن فى آخـــر لحظة عن تحقيق عزمه • وكان تردده يقلقنى ويعذبنى • انه يبدو فى بعض الأحيان ثابت الجنان صـــلب العزيمة ، فها هو ذا يقول فى رقة وحنان :

ــ أنا أدرى أننى سأعرف الجنة متى اعترفت بجريمتى • لقد عشت أربعة عشر عاماً فى الجحيم • أريد أن أتألم • سأقبل المحنة وسأستأنف الحياة • الكذب لا يؤدى الا الى الظلمات ، وهو يسد الطريق نحو الضياء الى الأبد ! أنا الآن لا أجـــرؤ أن أحب حتى أولادى فكيف بالناس ! سيفهم أولادى ••• آه يا رب ! سيفهمون ما قاسيت ولن يدينونى !

ــ سيفهمون القرار الذى اتخذته ، وسيستحسنونه جميعا ، ان لم يكن فورا ففى المستقبل حتما • انك بهذا العمل تخدم الحقيقة ، تخدم حقيقة أعلى من الواقع الأرضى •

انصرف بعد ذلك وقد رضيت نفسه واشتد أزره ، ولكننى رأيتــه فى الغد عائدا الىّ وقد شحب وجهه وتشعثت هيئته ، فقال لى بلهجة فيها سخرية :

ــ كلما دخلت عليك أحسست أنك تتفرس فىّ كمن يقول لنفسه: « لم يقرر بعد ! » • صبرك ولا تتسرع فى احتقارى : ان انفاذ هـــذا الأمر أصعب مما تظن • ومن يدرى ؟ فقد أعدل عنه أخيراً ! أحسب أنك لن تمضى تشى بى !

والحق أننى لم أكن أتفرس فيه مستطلعا ، فلقـــد كنت لا أكاد

أجرؤ أن أنظر اليه • كانت هذه المأساة الداخلية تمرضني ، وكنت أهم أن أبكي في كل حين ، حتى لأوشك أن أُحرم النوم •

قال يوما حين وصل الي :

ـ تركت امرأتي منذ هنيهة • هل تستطيع أن تفهم ما معنى هذه الكلمة : امرأتي ؟ ••• لقد صاح أولادي يقولون لي حين خرجت من المنزل : « عد بسرعة يا بابا لتقرأ معنا في كتاب الحكايات » • لا ••• انك لا تستطيع أن تفهم هذا • ان شقاء غيرنا يبدو لنا خفيفا •

وسطعت عيناه واختلجت شفتاه • وضرب المائدة فجأة بقبضة يده ضربة بلغت من القوة أن الأشياء التي كانت عليها أخذت تهتز • أن هذه البادرة تبدو أمرا خارقا من رجل يبلغ ما يبلغه هو من وداعة ورقة في العادة •

هتف يقول :

ـ أهذا ضروري فعلا ؟ أهو مفيد حقا أن أشي بنفسي ؟ ما الداعي الى هذا الاعتراف ولم يُحكم على أحدٍ بسبب جريمتي ، ولم يرسل بريء الى السجن بدلا عني ، وقد مات ذلك الخادم من مرض ؟ أما الدم المسفوح فانني أكفر عنه بآلامي وعذابي • ثم انهم لن يصدّقوني ، وسيبعدون الأدلة التي يمكن أن أقدمها • ففيم أشي بنفسي ؟ هلاّ قلت لي فيم أشي بنفسي ! انني مستعد لأن أتألم طوال حياتي من تلك الجريمة في نفسي ، شريطة أن لا أجر زوجتي وأولادي معي الى الشقاء • هل من العدل أن أجبرهم على مشاركتي في العقاب ؟ ألا ترى أننا قد ضللنا طريق الرشاد ؟ أين الحقيقة ؟ وهل هؤلاء الناس جميعا قادرون حقا على أن يدركوا الحقيقة ، وعلى أن يقدروها ويحترموها كما يجب أن تقدّر وأن تحترم ؟

قلت أخاطب نفسي : « رباه ! انه يهتم بتقدير الناس في مثل هذه هذه اللحظة ! » • واجتاحت نفسي عندئذ شفقة شديدة عليه حتى بدا لي أنني مستعد لأن أشاطره مصيره لو كان ذلك يخفف عذابه • لقد انقلبت سحنته انقلابا رهيبا • وما كان أشد انصعاقي حين أدركت لا بعقلي في هذه المرة ، بل بروحي وقلبي ، مدى ما يكلفه مثل هذا القرار من ثمن باهظ !

هتف يقول :

ـ قرَّرْ مصيري •

فأجبته هامساً :

ـ سلِّم نفسك للقضاء !

كان صوتي واهناً ضعيفا ، غير أن فيه حزماً وصلابة • ثم تناولت الكتاب المقدس من على المائدة ـ في ترجمته الروسية ـ ودللته على هذه الفقرة من انجيل يوحنا ، الاصحاح ١٢ ، الآية ٢٤ : « الحقَّ الحقَّ أقول لكم : ان لم تقع حبة القمح في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها • ولكن ان ماتت فهي تأتي بثمر كثير » • وكنت قد وقعت على هذه الآية قبل زيارته بلحظات • قرأ الآية وقال :

ـ هذه هي الحقيقة •

ولكنه ابتسم بعد ذلك بمرارة ، وصمت لحظة ثم قال :

ـ ما أكثر ما يجد المرء في هذه الكتب ! ما أسهل ما يوضع تحت أنفك كلام كهذا الكلام ! فمن ذا الذي كتب هذا كله ؟ هل يمكن أن يكون الذين كتبوه بشراً ؟

قلت :

ـ نعم • ولكنهم كتبوه بوحى من الروح القدس •

عاد يقول مبتسما مرةً أخرى ، ولكن ابتسامته فى هذه المرة يكاد يكون فيها كره :

ـ مهما تتكلم !

فتحت الانجيل على موضع آخر ، وأريته الآية ٣١ من الاصحاح ١٠ ، « الرسالة الى العبرانيين » • فقرأ : « مخيف هو الوقوع فى يدى الله الحى » •

فرمى الكتاب وأخذ جسمه كله يرتعد • قال :

ـ هذه آية رهيبة • يجب أن أعترف لك بأنك أحسنت اختيارها للمناسبة •

ونهض قائلا :

ـ الوداع • أغلب الظن أننى لن أجيء اليك بعد اليوم • سنلتقى فى الجنة • لقد « وقعت اذن فى يدى الرب الحى » مدة أربعة عشر عاما• يظهر أن علىَّ أن أسمِّى هذه الفترة من حياتى هكذا • غدا سأضرع الى تينك اليدين أن تتركانى •••

وددت لو أقبله ، ولكننى لم أجرؤ • كانت قسمات وجهه متقبضة وكانت نظرته ثقيلة • خرج • تساءلت : « الى أين يمضى هذا الانسان الآن يا رب ! » ، وارتميت جاثيا على ركبتى أمام أيقونة العذراء • صليت باكيا لأم الرب التى تخف الى الشفاعة والحماية • انقضى نصف ساعة دون أن أكف عن الدعاء والبكاء • أوشك الليل أن ينتصف • هذا باب الغرفة يُفتح فجأة ، وهذا صاحبى يظهر من جديد • أذهلتنى رؤيته •

سألته :

ـ من أين جئت ؟

ـ نسيت ••• أظن أنني نسيت عنـــدك شيئا ••• هو منديل في أغلب الظن • وهبني لم أنس شيئا ، فان هذا لا يمنعنا من أن نتحدث •••

جلس • بقيت واقفا أمامه • قال لي :

ـ اجلس أنت أيضا •

أطعته • لبثنا على هذه الحال بضع دقائق لا نتكلم • كان يحدّق الي ّ • وفجأة ، ضحك ضحكة صغيرة ••• أتذكر ذلك ••• ثم نهض ، واقترب مني ، وعانقني بحرارة ••• وقال يخاطبني في هذه المرة بصيغة المفرد :

ـ تذكّر أنني جئت اليك هذه الليلة • لا تنس ذلك • فهمت ؟

تلك أول مرة يخاطبني فيها بصيغة المفرد• ثم خرج • قلت لنفسي: « انه فاعل غدا » •

لم يخطىء ظني • كنت أجهل في ذلك المساء أنه يحتفل غداً بعيد ميلاده • انني لا أخرج منذ حين الا لماماً ، فلم يذكر لي أحد ذلك • كان يقيم في كل سنة حفلة كبيرة في منزله يدعو اليها كل أبناء المجتمع الراقي من أهل المدينة • وكذلك فعل في هذه السنة • حتى اذا انتهى العشاء تقدم الى وسط الصالة ، ممسكاً بيده ورقةً كتب عليها اعترافاته موجهةً الى رؤسائه • كان رؤساؤه حاضرين الحفلة • قرأ تصريحه بصوت عالٍ ، ذاكراً جميع تفاصيل الجريمة التي ارتكبها منذ أربعة عشر عاما • وختم قراءته قائلا :

ـ أنا شيطان رجيم • وقد قررت أن أبعد نفسي عن المجتمع • لقد مستني النعمة الالهية • أريد أن أتألم •

ثم وضع على المنضدة جميع الأدلة التى احتفظ بها خـلال تلك السنين ، والتى يأمل أن يبرهن بها الآن على قيامه بجريمته : حلى المرأة القتيل ، التى سرقها تمويهاً ودفعاً للشبهات ، والصليب والنيشان (الذى يضم صورة خطيب المرأة القتيل) ودفترا ورسالتين ؟ فأما الرسالة الأولى فهى من الخطيب يبلغ فيها خطيبته أنه آتٍ قريبا ، وأما الثانية فهى جوابٍ لم تتم كتابته وقد تركته على منضدتها لترسله الى خطيبها فى الغد. ماذا كان هدفه من أخذ هاتين الرسالتين ؟ وماذا كان الدافع الذى دفعه بعد ذلك الى أن يحتفظ خـلال تلك السنين كلها بهـذه الأدلة التى تتهمه وتعرِّضه للخطر بدلا من أن يتلفها ؟ مهما يكن من أمر ، فاليكم ماحدث: ذُهل الحضور من اعترافاته ، وانتابهم جزع ، ولكنهم رفضوا أن يصدقوا هذه الاعترافات . صحيح انهم أصغوا اليه بكثير من الانتباه والاستطلاع، ولكنهم انما أصغوا اليه اصغاءهم الى انسان مريض . وبعـد بضعة أيام كانت المدينة كلها مجمعةً على أن المسكين قد فقد عقله . ولئن لم يكن فى وسع رؤسائه ورجال السلطة أن لا يتابعوا الأمر ، فقد أرتأوا أخيراً أنه لا مجال لتحريك القضاء . ذلك أن الرسالتين والأشياء التى قدمها ان كانت تبعث على التفكير ، فلا يمكن أن يُبنى عليها وحدها اتهام ، حتى ولو ثبت أنها للقتيل ، فمن الممكن أن تكون القتيل قد عهدت اليـه بها كصديق . وقد علمتُ فيما بعد أن أصدقاء الضحية وأقرباءها قد تعرفوا هذه الأشياء ، فلم يبق حول ذلك شك . ولكن القضية لم تُحرَّك رغم هذا ، فقد عُلم بعد خمسة أيام أن المسكين قـد مرض وأن حياته فى خطر . لا أستطيع أن أقول ماذا كان مرضه . وقد تحدث النـاس عن اضطرابات قلبية . ومهما يكن من أمر ، فان الأطباء قد فحصوا حالتـه العقلية أيضا ، وذلك بالحاحٍ من امرأته ، فانتهوا الى أنه مصاب ببداية جنون . ولم أكشف عن اعترافاته لى طبعا ، رغم أن جميع الناس قـد

حاصرونی بالأسئله • وحين أردت أن أزوره مع ذلك أُغلق دونی بابه ، وكانت امرانه خاصةً هی التی حالت بینی وبینه • قالت لی : «أنت الذی أدخلت الاضطراب والاختلال الی عقله ! لقد كان دائماً قاتم المزاج ؛ وأصبح ضطرابه النفسی وسلوكه الغريب يقلقاننا منذ عام ، فجئت أنت فأجهزت علی عقله ! أنت الذی حشوت رأسه بهذه الأفكار ! انه منذ شهر لا يكاد يخرج من عندك !

ولم يكن هذا شأن امرأته وحدها ••• هل تصدقون هذا ؟ لقد هاجمتنی المدينة كلها عندئذ وأغرقتنی لوماً وتقريعاً •

ـ هذه خطيئتك !

هذا ما كان يقوله لی الناس فی كل مكان •

وكنت أصمت فلا أجيب ، وكنت فی قرارة نفسی سعيداً • ذلك أننی أدركت أن الرب قد أشفق علی الرجل الذی أدان نفسه وأراد أن يلقی جزاءه • أما جنونه المزعوم ، فما كان لی أن أصدقه • وسُمح لی أخيرا بأن أراه ، لأنه أعرب هو نفسه عن هذه الرغبة ملحاً من أجل أن يودّعنی • فحين دخلت عليه أدركت منذ اللحظة الأولی أن ساعاته لا أيامه وحدها ، معدودات • كان واهناً ضعيفا أصفر الوجه مرتعش اليدين يتنفس بكثير من العناء • ولكن نظرته تعبّر عن الفرح والهدوء وثبات الجنان • قال لی :

ـ انتصرت الحقيقة ! اننی انتظرك منذ مدة طويلة ، لماذا تأخرت فی المجیء ؟

أخفيت عنه أننی مُنعت من مقاربته •

ـ لقد أشفق علیّ الرب فنادانی اليه • أنا أعلم أننی سأموت ، ولكن روحی قد عرفت السعادة والسلام والطمأنينة أخيرا ، لأول مرة

بعد تلك السنين الطويلة كلها • لقد وجدت الجنة فى نفسى منذ تكلمت مستوحياً ضميرى • أصبحت لا أُخشى أن أحب أولادى وأن ألاطفهم وألاعبهم • ان الناس ترفض أن تصدقنى ؛ ما من احد يريد أن يسلم بأننى قاتل ، لا زوجتى ولا قضاتى • وأولادى لن يصدقوا هـــذا ، هم أيضا • سوف أموت ، ولكن اسمى سيظل فى نظرهم طاهرا لم يدنّس ولم يُلطّخ • أوه ؟ اننى أشعر بالله الآن ، وان قلبى لمبتهج كأننى فى الجنة ••• لقد قمت بواجبى •••

لم يستطع أن يكمل كلامه ، فقد انتابه اختناق ، غير أنه شدّ على يدى بحرارة ، ونظر الىّ صامتا ، وقد سطعت عيناه بلهيب • لم نتمكن من اطالة حديثنا ، لأن امرأته قد نفـد صبرها ، فهى تشق البـــاب بغير انقطاع • واتسع وقته مع ذلك لأن يدمدم قائلا :

ــ هل تتذكر أننى جئت اليك فى ذلك المساء ، عند منتصف الليل؟ لقد أوصيتك عندئذ بأن لا تنسى ذلك ••• فهل تعلم ماذا كان هدفى حين جئت اليك فى تلك الساعة ؟ كان هدفى أن أقتلك !

ارتعشت •

ــ فبعد أن تركتك ، لبثت أطوف فى الشوارع على غير هدى زمناً طويلا أصارع نفسى ، فاذا أنا أشعر فجأة بكرهٍ لك بلغ من القوة أننى أحسست أن قلبى يوشك أن ينفجر • قلت لنفسى : « بسببه وحده انما أنا مضطر الى الاعتراف الآن • لقــد أصبح قاضىّ ، ولن أستطيع أن أفلت من العقاب غدا لأنه يعلم كل شىء » • ليس معنى هذا أننى كنت أخشى أن تشى بى (ان هذه الفكرة لم تخطر ببالى فى لحظة من اللحظات) ولكننى كنت أقول لنفسى اننى لن أستطيع أن أنظر اليك بعد ذلك اذا أنا لم أسلم نفسى للسلطات • وسيان أن تكون فى هذه المدينة وأن تكون فى أقصى الأرض • أصبحت لا أُطيق أن أتصور أنك تعيش فى مكانٍ ما

عالماً بأمري حاكما عليّ مُدينا اياي. فأخذت أكرهك ، كما لو كنتَ علة شقائي ، كما لو كنت مسئولاً عما أنا فيه . ورجعت اليك متذكراً أن عندك على المائدة خنجرا . وجلست ، ودعوتك أن تجلس أنت أيضا ، ولبثت دقيقة طويله أفكر وأنا أحدّق اليك . بديهي أن حيـــاتي كانت ستتحطم على أي حال لو قتلتك ، وأنني كنت سأنتهي نهاية شقية ، سواء اعترفت بالجريمة الأخرى أم لم أعترف. ولكن ذلك لم يخطر ببالي في تلك اللحظة ، لأنني لم أكن أهتم بالعـــواقب . كنت أكرهك ، وكانت تحرقني رغبة قوية في أن أثأر منك لكل ما كنت قد قاسيته من عـذاب . أما ما عـــدا ذلك فكان لا يعنيني . ثم انتصر الرب في تلك الدقيقة على الشيطان في قلبي . ولكن اعلم أن الموت لم يقترب منـــك في يوم من الأيام كما اقترب منك في تلك الليلة .

مات الرجل بعد أسبوع . وشيعت المدينة كلها جثمانه الى المقبرة. وألقى الكاهن كلمات مؤثرة . وانتحب المنتحبون حزناً عليه ، واشتكوا مرّ الشكوى من المـــرض الذي أماته . وبعـــد الجنـازة قاموا عليّ . وأصبحوا منذ ذلك الحين لا يدعونني الى منازلهم . غـــير أن عددا من الأشخاص ، كانوا قلةً في أول الأمر ثم تكاثروا بسرعة بعد ذلك ، قد انتهوا الى الاقتناع بصـدق اعترافاته ، فكانوا يجيئـون اليّ في كثير من الأحيان يزعجونني بأسئلتهم عنه ، وقد امتلأت نفوســـهم فضولا شديدا وخبثاً خفياً . ان الانسان يحلو له يرى رجلاً صالحا يســقط ويتلطخ شرفه . أبيت أن أتكلم مع ذلك ، ثم لم ألبث أن بارحت تلك المـــدينة مبارحة تامة . وبعد خمسة أشهر منّ عليّ الرب فوجهني في طـــريق اليقين والنور ؛ بوركت اليد الخفية التي قادت خطاي نحو الهدف . أما صاحبي ذاك ميشـيل ، خادم الرب ، الذي كان عاثر الحظ ، فقد ذكرته في صلواتي كل يوم منذ ذلك الحين ، وما زلت أذكره فيها حتى هـذه الساعة .

٣

بعض التعاليم التي عبر عنها الأب زوسيما في أحاديثه

هـ ـ حديث عن الراهب الروسى
والدور الذى يمكن أن يقوم به .

ما الراهب يا اخوتى ومعلمىّ ؟ ان بعض النــاس فى الأوساط المثقفة ينطقون بهــذه الكلمة فى أيامنا هذه ساخرين ، وان بعضهم لآخر يعدها مسبة واهانة . وسوء الفهم هذا ما ينفك يتفاقم بمرور الزمن . صحيح أن بين الرهبان ـ يجب علىّ أن أعترف بهــذه الحقيقة وا أسفاه ! ـ كسالى وفجرةً وفاســقين . فأولئك أناس أفاقون أشقياء ارتموا فى الأديرة . والمتنورون من أبناء المجتمع يدلُّون علينـا بهذا ليعدونا رجالاً وانين ، لا خير فيهم ولا نفع منهم ، وليعاملونا كما يعامَل طفيليون ومتســولون لا شرف لهم . ولكن ما أكثر المتواضعين الوادعين بيننا مع ذلك ! ما أكثر الذين لايطمحون الا الى أن يصلوا للرب صلاة حارة فى عزلتهم الهادئة ! ان الناس لايلقون بالاً الى هؤلاء كما يلقون بالاً الى أولئك ، حتى أنهم لايأتون على ذكرهم ولا يتكلمون عنهم البتة . ألا ما أشد الدهشة التى سيشعر بها أولئك الثالبــون المشنّعون اذا هم

علموا أن روسيا المقدسة انما سينقذها مرةً أخـــرى فى يوم من الأيام هؤلاء الرهبان المتواضعون الظامئون الى العزله والصلاة! ان هؤلاء الرهبان يستعدون صامتين « لليوم والساعة ، للشهر والسنة » التى سيحين حينهاء هم الآن يسهرون على صورة المسيح ، محاولين بكثير من التقى والخشوع فى حياتهم المغمورة ، أن يحافظوا على ما لهذه الصورة من سناء ونقاء ، فهم يعيشـــون فى الحقيقة الالهية وفقاً لتعـــاليم آباء الكنيسة والرسل والشهداء • حتى اذا دقت الساعة ذكروا البشر برسالته الى الانســانية المترنحة • ان هناك فكرة عظيمة هى قاعدة حياتهم • انها النجمه التى ستطلع يوما من المشرق •

ذلكم هو رأيى فى الرهبان • أأكون على ضلال ، أيكون حكمى قائما على عجب وغرور ؟ انظروا الى العلمانيين ، هؤلاء الذين يعيشون فى المجتمع ويعدون أنفسهم أعلى من رجال الدين : ألم يدنسوا نفوسهم ويخونوا الحقيقة الالهيـــة ، هم الذين خلقوا على صورة الرب ؟ انهم يملكون العلم ، ولكن العلم لا يعرف الا ما تدركه الحواس • أما الكون الروحى ، أما العنصر الأسمى فى الطبيعة الانسانية ، فقد رفضوه ونبذوه، واطرحوه وأدانوه ، شاعرين بنوع من فرح الانتصار ، بل وبنوع من الكره والبغض • ان العالم يعتز بالحرية ، ولا سيما فى أيامنا هـــذه ، ولكن ما الذى تؤدى اليه هذه الحرية ، وما الذى نراه يتأكد باسمها ؟ عبودية النفوس والانتحار الأخـــلاقى ••• يقول النـاس : « ان لك حاجات ، فعليك أن تسعى الى ارضائها ، لأن حقوقك لا تقل عن حقوق الأغنياء والكبار • لا تخش رغباتك ، بل أكثر عددها • » • تلكم هى عقيدة هذه الأيام • هكذا يتصور الناس الحرية فى هـــذا العصر • فما الذى يؤدى اليه هذا الحق المزعوم فى اكثار المرء رغباته ؟ انه يؤدى لدى الأغنياء الى العزلة والموت النفسى ، ويؤدى لدى الفقراء الى الحسد

والقتل • ذلك أن الناس قد أعطوا حقوقا ، ولكنهم لم يُعلّموا بعدُ وسائل تحقيق الغلبة لها ووسائل ارضاء حاجاتهم • يزعم بعضهم أن التطور الطبيعي يقود الانسانية نحو مزيد من الاتحاد ، فازالة المسافات بالمكتشفات الحديثة ، وانتشار الفكر في الهواء ينميان الاحساس بالأخوة والتضامن • واحسرتاه ! لا تدعوا لهذه الأوهام أن تخدعكم ! ما من وفاق يمكن أن يقوم على أسس من هذا النوع • اننا اذا تصورنا الحرية على أنها قدرة الفرد على اكثار حاجاته وارضائها بسرعة ، كنا نشوّه طبيعة الانسان ، ونثير فيه حاجات باطلة لا سبيل الى تحقيقها ، ونخلق له عادات حمقاء وأحلاماً مجنونة • ان الناس لا يعيشون اليوم الا في الحسد اشباعا لشهواتهم أو ارضاء لغرورهم • ان اقامة الحفلات ، والخروج في النزهات ، والتمتع بالمآدب، واقتناء العربات الفاخرة ، والظهور بالمظاهر الخلابة وامتلاك الخدم الأقنان ، ان ذلك كله يبدو لأبناء المجتمع ضرورة لا غنى لهم عنها ، وحاجةً لا يبالون في سبيلها أن يضحوا بحياتهم وشرفهم ، وأن يتخلوا عن حب الانسان أخاه الانسان ، حتى ليؤثرون أن ينتحروا على أن يتنازلوا عنها • وهذا يصدق أيضا على من لا يملكون ثراءً طائلاً • أما الفقراء فانهم يخنقون بالسكر ، الى حين ، ما يشعرون به من حسد ، وما يدركونه من استحالة ارضاء رغباتهم • ولكن سيأتي يومٌ يسكرون فيه بدمٍ لا بخمر • فالى هذا انما يُدفعون • اني لألقي عليكم هذا السؤال : هل هؤلاء الرجال أحرار ؟ لقد عرفت في الماضي مثقفاً كان « يناضل في سبيل فكرة » • وقد أسرَّ اليَّ هذا الرجل في ذات يوم أنه حين حُرم من التدخين في السجن بلغ ألمه من هذا الحرمان أنه أوشك أن يخون « فكرته » في سبيل التدخين • وكان يزعم أنه يريد أن « يناضل في سبيل الانسانية » • هل نصدق أن رجلاً كهذا الرجل يمكن أن يمضي بعيدا في بذل الجهد ؟ انه عاجز الا عن اندفاعات

مؤقتة وعمل مباشر ، أما الثبات والاستمرار فلا طاقة له بهما . فهل غريب بعد هذا أن البشر لم يجدوا الحرية بل العبوديه ، وأنهم بدلاً من أن يخدموا الانسانيه وأن يوحّدوها قد سقطوا الى « العزلة » ، كما قال لى فى شبابى زائرى العجيب ومعلمى ذاك ؟ لهذا نرى العالم الآن بسبيل أن يفقد اليوم حس الاخلاص للانسانية ، حس الوحدة الانسانية والأخوة الانسانية ، ويبلغ من ذلك أن هذه الأشواق الكبرى أصبحت لا تثير الا ابتسامات هى ابتسامات من أصبح لا يؤمن بالأوهام ... وأنّى للانسان فعلاً أن يتحرر من عاداته المكتسبة ، وماذا يمكن أن يصير اليه الانسان الذى استعبدته حاجاته ، اذا كنا قد علمناه أن يرضى الشهوات الكثيرة التى يخلقها هو نفسه ؟ ان انسانا هذا شأنه انما يعيش فى عزلة روحية . وهل تعنيه الجماعه فى هذه الحالة ؟ ذلك ما وصل اليه البشر: جمعوا ثروات فوق ثروات ، أما الفرح فقد تناقص فى قلوبهم .

ولا كذلك الطريق التى يسير فيها الراهب . كثيرا ما يسخر الناس من الطاعة والصيام والصلاة ، مع أن الطاعة والصيام والصلاة هى فى الواقع السبيل الوحيدة الى بلوغ الحرية الحقيقيه : اننى حين أضحى بحاجاتى الزائدة ، وحين أسيطر بالطاعة على ارادتى المزهوة الأنانية ، انما أرتفع بعون الله الى الحرية الروحيه التى تهب لى الفرح النفسى . أيّهما أكثر تأهباً للنضال فى سبيل فكرة عظيمة ، ألغنى الذى يعيش فى عزلته الروحية أم الراهب الذى تحرر من استبداد العادات والحاجات المادية ؟ ان بعض الناس يأخذون على الرهبان أنهم معتكفون ، فهم يقولون لهم : « لقد اعتزلتم العالم لتضمنوا سلامتكم وراء جدران دير ، ونسيتم تضامنكم مع البشر اخوتكم ، ونسيتم واجب خدمة الانسانية » . لسوف نرى من الذى سيخدم قضية الأخوة الانسانية خيرا من غيره . ألا انهم هم الذين يعيشون فى العزلة ، لا نحن ، ولكنهم لا يدركون ذلك . ومن

بيننا انما خرج ، منذ أقدم العصور ، أولئك الرجال الذين ناضلوا فى سبيل سعادة الشعب • فلماذا لا يكون الامر على هذا النحو اليوم ؟ لسوف يُرى هؤلاء الرهبان المتواضعون الذين يلتزمون قواعد الصيام والصمت، لسوف يُرون فى يوم من الايام يهبون للقيام بعظائم الأعمال • ان الشعب هو الذى سينقذ روسيا ، وان الرهبان الروس قد ظلوا متحدين بشعبنا اتحادا قوياً فى جميع الأزمان • اذا كان الشعب فى العزلة فنحن فى العزلة أيضا • ان ابن الشعب يؤمن بما نؤمن به نحن • أما مثقفونا الملحدون ، فانهم لن يصلوا الى شيء فى روسيا ، ولو صدقت قلوبهم وكانوا ينعمون بذكاء عبقرى • تذكروا هذا : ان الشعب سيقوم أخيرا على الملحدين وسيغلبهم • سوف تسترد روسيا العظيمة وحدتها الروحية فى الأرثوذكسية • اسهروا على الشعب ، وصونوا طهارة روحه • ربوه فى صمت • تلكم هى رسالتنا أيها الرهبان ، لأن هذا الشعب يحمل فى نفسه الله •

و ـ حديث عن السادة والخدم
هل يمكن أن يصبحوا اخوة فى الروح ؟

انه لصحيح ، وا أسفاه ، أن الشعب يعيش فى الخطيئة هو أيضا • ان عوامل الانحلال والتفسخ تتابع عملها ، وان الشر ينتشر ساعة بعد ساعة ، لأن عدواه تأتى من الطبقات العليا ، فاذا بالصغار والفقراء يقعون فى العزلة هم أيضا • اننا نرى ظهور المحتكرين والمستغلين • والتجار يزدادون ظمأً الى مظاهر المجد • انهم يريدون أن يُعدّوا مثقفين ، مع أنهم لا يملكون أية ثقافة فى الواقع • وهم يحسبون أنهم يصلون الى ذلك باظهار احتقارهم للعادات القديمة ، ويبلغون فى هذا حد الشعور بالخجل والعار من ايمان آبائهم • انهم يختلفون الى مجتمع الأمراء ،

مع أنهم ليسوا الا فلاحين متدهورين • ان الادمان على الخمر يهلك روح شعبنا الذى لا يستطيع التحرر منه • ما أشد قسوة حياة المرأة وحتى حياة الاطفال فى الاسر الفقيرة ! ان الاسراف فى شرب الخمرة هو سبب ذلك • لقد رأيت أطفالا يعملون فى المصانع وهم لمّا يكادوا يبلغون العاشرة من أعمارهم : انهم ضعاف هزيلون مقوّسو الظهور قد فسدت أخلاقهم منذ الآن • القاعات الخانقة الموبوء هواؤها ، ضجة الآلات ، العمل الذى لا تتخلله راحة كافية ، الأحاديث البذيئة التى يسمعها الطفل فى هذه البيئة ، المشروبات الكحولية ، ذلك كله لا يخلق مناخا صالحا لنفس الطفل• ان الأطفال فى حاجة الى الشمس ، والألعاب، والقدوة الحسنة ، وحد أدنى من العاطفة والحنان ! يجب أن تنتهى هذه الحالة أيها الرهبان ، وأن يتخلص الاطفال من العذاب ! امضوا الى الناس وعظوهم حتى تزول هذه الشرور بأقصى سرعة • ولكن الله سينقذ روسيا رغم كل شىء • ذلك أن ابن الشعب ان تدهور وأصبح لا يشعر بالقدرة على العدول عن هذه الخطايا الرهيبة ، فانه يعلم على الأقل أن سوء سلوكه هذا لا يرضى الرب ، وأنه يخطىء اذ ينقاد للشر• ان شعبنا لم يفقد ايمانه بالخير • انه مؤمن بالله ، وهو يبكى ندماً على خطاياه بدموع صادقة • وليس هذا حال أبناء المجتمع الراقى وا أسفاه ! فهؤلاء يدعون اقامة العدالة بمعونة عقلهم وحده ، مستلهمين تعاليم العلم مستغنين عن المسيح بعد اليوم • حتى لقد نادوا منذ الآن بأنه لا خطيئة ، بأنه لا جريمة • ولا شك أنهم من وجهة نظرهم على حق : فاذا لم يكن هنالك اله ، لم يكن هنالك خطيئة ! فى أوروبا تثور الشعوب على الأغنياء وتريد أن تقاتلهم بالقوة ؟ وقادتها تقودها فى كل مكان الى اراقة الدماء قائلةً لها ان غضبها حق وعدل • ألا ان « الغضب ملعون لأنه قاس » • ان روسيا سيخلّصها الرب ، كما سبق أن خلّصها الرب مرارا فى

الماضى • وسيأتى الخلاص من الشعب ، سيأتى الخلاص مما يملكه الشعب من روح الاذعان لمشيئه الله ، ومن ايمان بوجود الله • فيا آبائى ومعلمى ، صونوا ايمان شعبنا ، لان ما ابشركم به الآن ليس حلماً من الاحلام • لطالما شدهت أثناء حياتى كلها مما يتمتع به شعبنا الروسى العظيم من كرامة صادقة ونبل كبير • لقد رأيت هذا بنفسى ، وكنت شاهدا عليه ، وفى وسعى أن أؤكده لكم ، رغم الخطايا الكثيرة والمبائس الشديدة التى يعيش فيها • ان الفقراء والصغار لم يصبحوا عبيدا فى بلادنا ، بعد قرنين من الرق ، بل حافظوا على مسلك الحرية ، دون أية غطرسة مع ذلك ؛ ولم تعصف بنفوسهم روح الحسد والانتقام • لسان حالهم يقول : « أنت غنى ، وأنت فى مرتبه عاليه ، وأنت ذكى ، وأنت صاحب موهبة• اننى أعلم ذلك ، وأسأل الله أن يحميك ! اننى أحترمك، ولكننى لا أنسى أننى أنا أيضا انسان • واذا احترمتك دون أن أحسدك، فاننى أؤكد أمامك كرامتى الانسانية » • لئن كانوا لا يقولون هذا الكلام صراحة (لأنهم لا يحسنون التعبير عما بأنفسهم) ، فان هذا الموقف النفسى يتجلى فى سلوكهم • رأيت ذلك ، وكنت شاهداً عليه • صدقونى اذا قلت لكم : ان الروس تزخر نفوسهم بالحقيقة النبيلة على قدر ما يكونون فقراء صغارا • ذلك أن الذين اغتنوا منهم قد أصبحوا محتكرين ومستغلين وفسدت أخلاق أكثرهم منذ الآن، وهذا أمر نُسأل عنه نحن انفسنا بعض الشىء بسبب اهمالنا وضعف نشاطنا وهمتنا• ولكن الرب سينقذ ذويه ، لأن روسيا عظيمة باذعانها لمشيئة الله • اننى أحلم بمستقبلنا ، فيبدو لى أحيانا أننى أراه : سيأتى يوم يشعر فيه أفسد أغنيائنا أخيرا بالخجل والعار من ثرواته أمام الفقير ؛ وسيبرهن الفقير يومذاك ، بعد أن يرى ندم الغنى ومذلته ، على حسن الفهم هو أيضا ، فيترك له خيراته فرحا ، مستجيبا بالحب للتوبة النبيلة يتوبها ذاك الذى

أنعم عليه القدر • صدقونى أن هذا ما سيكون ، لأن هذا هو ما يقودنا اليه التطور • لن يكون هناك مساواة الا فى الشعور بكرامة الانسان الروحية ، وهذه حقيقة غير مفهومة الا فى بلادنا • لسوف تسود الأخوه متى أصبح البشر اخوة بالقلب ، وبدون هذه الأخوه لا يمكن أن يكون هناك قسمة عادلة • ألا فلنحتفظ فى أنفسنا بصورة المسيح ، حتى تشرق على العالم فى يوم من الأيام درةً تشع ضياء • آمين ، آمين !

يا آبائى ومعلمىّ ، لقد اتفق لى فى الماضى أن عانيت تجربةً تهز النفس هزاً قوياً • حينما كنت أجوب روسيا ، التقيت فى مدينة ك •••، وهى مركز مقاطعة ، بخادمى الجندى آثانازى الذى لم أكن قد رأيته منذ ثمانى سنين ، أى منذ اليوم الذى صرفته فيه الى الثكنة • لقد لمحنى مصادفةً فى السوق فعرفنى فهرع الىّ وقد استخفه الفرح :

ـ أهذا أنت يا مولاى ، أنت ، أنت ؟ هل يمكن حقـــا أن تكون أنت ؟

وقادنى الى منزله • كان قد تحرر من الجنـدية وتزوج وأنجب طفلين ، وهو يعيش مع أسرته من تجارة صغيرة على بسطة • ان مسكنه ضيق ولكنه نظيف مضىء • فلما أجلسنى ، سخّن السماور واستدعى امرأته ، كأن زيارتى عيد له • وقدم الىّ ولديه قائلا :

ـ باركهما يا أبانا •

فأجبته :

ـ أأنا من يباركهما ؟ ما أنا الا راهب متواضع • سأدعو الله لهما• أما أنت يا آثانازى بافلوفتش ، فانى ما كففت عن الدعاء لك كل يوم ، منذ ذلك الحادث الذى وقع بيننا ، لأن كل شىء قد بدأ يومذاك •

شرحت له ما وسعنى أن أشرح • فكان ينظـر الىّ مدهـوشا ،

لا يستطيع أن يفهم أن مولاه القديم ، الضابط ، موجود الآن أمامه بمسوح راهب بسيط • حتى لقد أخذ يبكي • سألته :

ـ لماذا تبكي يا من لم أنسه قط ؟ ألا ان الأفضل أن تسر وتفرح يا عزيزى لأن الطريق الذى اخترته لنفسى طريق جميل مضىء •

كان لا يتكلم وانما هو يتنهد تنهداً ويهز رأسه بعطف قوى وتأثر شديد • وسألنى :

ـ ماذا صنعت بثروتك ؟

فأجبته :

ـ وهبتها للدير الذى نعيش فيه حياة مشتركة •

وودعتهم بعد أن شربنا الشاى ، فاذا هو يعطينى خمسين كوبكا للدير ؛ واذا هو يدسُّ فى يدى خمسين كوبكا أخرى ، خلسةً ، وهو يقول :

ـ هذه لك أنت • فما دمت راهبا تضرب فى الأرض فقد تنفعك فى الطريق •

قبلت صدقته ، وحييته وحييت امرأته ، وانصرفت مبتهج القلب ، أحدث نفسى قائلاً : « لا شك أنه مثلى فى هذه اللحظة ، يتنهد تارة ويبتسم تارة أخرى ، هازاً رأسه متسائلاً كيف جمع الرب بيننا من جديد » • ولم أره منذ ذلك الحين • لقد كنت سيده وكان خادمى ، ولكننا حين تعانقنا أثناء لقائنا بمحبة وحنان قد أعدنا اقامة الاخوة الانسانية الكبرى بيننا • لطالما فكرت فى هذا الأمر بعد ذلك ، وانى لأتساءل اليوم : « لماذا لا يكون من الممكن أن يتحقق الاتحاد بين الروس على هذه الطريقة البسيطة الصادقة نفسها فى يوم من الايام متى آن الأوان؟» • اننى أعتقد بأن هذا الاتحاد العظيم سيتم وأن ساعته اقتربت •

وانى لأضيف ما يلى فى موضوع الخدم : كان يتفق لى فى السنين

الأولى من شبابي أن أغضب على الخدم : « سكبت الطباخه الحساء ساخناً مفرطا في السخونه ؛ الخادم لم ينظف ثيابي بالفرشاة » • ولكن ذكرى أخي العزيز قد بعث في نفسي نورا ، لان اقواله كانت تعاودني دائما : « أأنا جدير بأن يخدمني الانسان ؟ هل يحق لي أن أعده أدنى مني لانه فقير جاهل ؟ » • وقد أدهشني بعد ذلك أن معاني بسيطة هذه البساطة واضحة هذا الوضوح لا تعرض لعقولنا الا متاخرة • ان الحياة تصبح اليوم مستحيلة ما لم يكن هناك سادة وخدم • فلا أقلّ من أن نجعل سلوكنا يُشعر خدمنا بأن خدمتهم ايانا لا تُنقص حريتهم • لماذا لا نصبح خدماً لخدمنا ؟ انهم اذا لاحظوا أننا لا نتكبر عليهم أي تكبر ، سيتحررون من الشك فينا ومن محاذرتنا• لماذا لا نعدهم أقرباء ولا نستقبلهم في أسرنا مبتهجين بوجودهم بيننا ؟ ان هذا الموقف يمكن اتخاذه منذ الآن ، ويمكن أن يكون قاعدةً للاتحاد العظيم الذي سيتحقق للانسانية في المستقبل ، يومَ يشعر الانسان أنه ليس في حاجة الى أن يكون له خدم ، ويوم يحاول أن لا يرد أقرانه البشر الى العبودية كما يفعل الآن ، وانما يتطلع بكل نفسه الى أن يصبح خادماً لجميع الناس عملاً بروح الانجيل • أتظنون أنه حلم باطل أن يراودنا الأمل في أن نرى البشر أخيرا ينشدون السعادة في السمو النفسي وممارسة المحبة ، بدلا من السعي الى الملذات المتوحشة في النهم والفجور وحب الظهور وفي ذلك الظمأ الحاسد الى الارتفاع فوق الآخرين ؟ أما أنا فانني أؤمن ايمانا راسخا بأن هذا ليس أملاً باطلاً ، وأن الزمان الذي سيتحقق فيه هذا الأمل قد اقترب • ان الناس يرفعون أكتافهم ويسألونكم ساخرين : « متى يأتي هذا الزمان ، وهل ما نراه الآن في العالم يسمح بمثل هذه التنبؤات ؟ » • انني أعتقد بأننا سنحقق هذا العمل العظيم بمعونة المسيح • ما أكثر الأفكار التي بدت في الماضي مستحيلة التحقيق ، والتي عُدت قبل عشر سنين أفكارا

حمقاء طائشة ، ثم اذا هى تنتصر فجاة على الارض وتنتشر فى كل مكان، لأن ساعة تحققها قد دقت وكانت خافية مستسرة ! ذلكم ما سيكون فى بلادنا ، وسيشرق نور شعبنا على الانسانية ، وسيهتف جميع البشر عندئذ قائلين : « ان الحجر الذى رماه البناءون ورفضوه قد أصبح حجر الزاوية فى البناء » • أما الساخرون المستهزئون فاننا نستطيع أن نلقى عليهم بدورنا هذا السؤال : « اذا كانت جميع أشواقنا أضغاث أحلام ، فهلاّ قلتم لنا متى تقدرون أن تشيدوا بناءكم وأن تنظموا أنفسكم على العدل بمعونة العقل وحده مع رفض المسيح ؟ » • قد يجيبون بأنهم هم الذين سيقيمون الوحدة الانسانية ، ولكن السذج منهم هم الذين يؤمنون بهذا الكلام ، حتى ليمكن أن يدهش المرء من بساطة هؤلاء • الحق أن فى أفكارهم من الخيال الباطل ما ليس فى أفكارنا نحن • انهم يأملون أن يقيموا العدل فى هذا العالم ، لكنهم وقد رفضوا المسيح سوف ينتهى بهم الأمر الى اشعال الحريق وسفك الدم فى كل مكان ، لأن العنف يستدعى العنف ؛ ومن يشهر السيف يهلك بالسيف • ما لم نؤمن بوعد المسيح ، فان البشر سيبيد بعضهم بعضاً ، الى أن لايبقى منهم على قيد الحياة الا اثنان وهذان الاثنان سيكونان عاجزين من غطرستهما عن التفاهم ، فاذا بأحدهم يقتل الثانى آخر الأمر ثم يقتل نفسه • ذلكم ما سيحدث اذا لم يتحقق وعد يسوع بوقف المذبحة حباً بالضعفاء والمسالمين الوديعين • حين كنت ما أزال أرتدى البزة العسكرية بعد المبارزة ، تحدثت فى المجتمع كثيراً عن الخدم ، فكان السامعون يُدهشون من كلامى ويسألون :

ـ هل علينا أن ندعوا خدمنا الى الجلوس على أريكة ، وأن نقدم اليهم الشاى •

وقد أجبت عن هذا السؤال مرة بقولى (نى أتذكر هذا) :

ـ لم لا ، ولو من حين الى حين ؟

فسخر الحضور مني • الا أن سؤالهم يدل على خفه عقـــولهم • ان اجابتي لم تكن واضحة جداً ••• أنا أسلّم بهذا ••• ولكن يخيل اليّ اليوم أن قد كان فيها شيء من حقيقة •

ز ـ حديث عن المحبة والصلاة ، ومعرفة الحياة الآخرة

لا تنس أن تصلي أيها الشاب • فاذا كانت صلاتك صادقة صاحبها في كل مرة شعور جديد ، وولّد هذا الشعور الجديد فكرةً جديدة كنت تجهلها الى ذلك الحين ، فكرةً ستشد أزرك وتقوي عزيمتك بعد ذلك • وستدرك عندئذ أن الصلاة تربية للنفس • تذكر أيضاً أن تردّد كلّ مساء وكلما استطعت الى ذلك سبيلاً : « هب رحمتك يا رب لكل الذين يمثلون أمامك الآن » • ذلك أن ألوفاً من البشر يبارحون الأرض في كل ساعة ، في كل دقيقة ، وتمضي أرواحهم تمثل أمام الخالق • ما أكثر الذين قضوا منهم نحبهم في العزلة ، بعيدين عن نظر أي صديق، ممتلئي القلب مرارة وحزناً ، لأن أحداً لن يأسف على رحيلهم ، حتى أن حياتهم ستكون قد انقضت دون أن يراها أحد • لن يعلم أحد غـداً أنهم عاشوا • فاذا بصلاتك تصعد فجأة الى الرب من الطرف الأقصى من الأرض تدعو لروح من الأرواح ، رغم انك لم تعرف هذه الروح ، ولا هي تعرف من أنت • لسوف تتأثر هذه الروح من ذلك تأثراً عظيماً حين تمثُل جزعةً أمام الاله العلي القدير • سوف تعلم أن أحداً يصلي لله من أجلها هي أيضاً ، سوف تعلم أن على الأرض انساناً واحـــداً على الأقل يتشفع لها ويحبها • وسينظر الرب عندئذ اليكما بمزيد من التسامح ، لأنك قد أشفقت على ذلك الميت ، وسيكون الرب أكثر رحمةً به ، لأن

حبه أوسع من حبك ، واحسانه أعظم من احسانك • وسيعفو الله عنه بسببك •

يا اخوتى ، لا تحتقروا البشر لخطاياهم ، أحبوهم رغم خطاياهم ، فبذلك تعرفون المحبة العظمى التى هى على صورة محبة الرب • أحبوا خلق الله جملةً ، وأحبوا كل ذرة من الرمل على حدة ، وكل ورقة شجرة ، وكل شعاع ضوء ! أحبوا الحيوانات ، أحبوا النباتات ، أحبوا كل موجود • انكم حين تحبون الخليقة تنفذون الى السر الالهى الذى تضمه ، والمعرفة التى تحصلون عليها بهذا ستنمو بعد ذلك ، ثم ما تنفك تكبر فى كل يوم ، فاذا حبكم يعم الكون بأسره ، ويصبح شاملا • أحبوا البهائم لأن الرب قد وهب لها بذرة فكر وأودع فى قلبها فرحا بريئاً • لا تعكروا هناءها ، لا تعذبوها ، لا تبئسوها ، لا تخالفوا ارادة الخالق • أيها الانسان ، لا تحملنك كبرياؤك على التعالى على الحيوانات ، فهى بلا خطيئة ، أما أنت فانك مع عظمتك تدنس الأرض بوجودك وتخلف أثراً نجساً حيث تمر • ذلك شأننا جميعا وا أسفاه ! ذلك شأننا جميعا ، بغير استثناء تقريبا — أحبوا الأطفال خاصة ، لأنهم بلا خطيئة ، لأنهم أشبه بالملائكة ؛ انهم يعيشون لفرحة قلوبنا وتطهير نفوسنا ، كقدوة مضيئة الى جانبنا • ويل للذين يسيئون الى الأطفال ! لقد علمنى الأب آنتيم أن أحبهم : كان هذا الراهب المتواضع ، يشترى بالكوبكات التى توهب لنا أثناء طوافنا ، يشترى حلوى يوزعها على الأطفال • كان لا يستطيع أن يراهم دون أن تهتز نفسه اهتزازا عميقا • كذلك كان هذا الانسان •

ان شكاً يراودنا فى بعض الأحيان ، ولا سيما حين نرى الخطيئة فنتساءل عندئذ : « أنرد بالقوة أم بالحب المتواضع ؟ » • عليك دائماً بالرفق واللين • فمتى اخترت الرفق واللين الى الأبد ، استطعت أن تستولى على

الأرض بأسرها • ان الحب المتواضع قوة هائله ، أقوى من سائر القوى، ليس لها مثيل في العالم • راقب سلوكك في كل ساعة وفي كل دقيقة من اليوم ، حتى تشع الطهارة منك • قد تمر قرب طفـــل وقد عصف بك الغضب ، فتفلت من لسانك كلمة سيئة : لعلك لم تلاحظ وجود الطفل ، ولكن الطفل رآك ، والصورة النجسة الخبيثة التي تركتها له ستبقى في قرارة قلبه البريء • أنت لم يخطر ببالك شيء ، ولكنك قد بذرت بذور الشر في هذا الكائن الصغير ، ولا شك أن البـــذرة السيئة ستطلع يوما فتجلب له الشـــقاء • كل ذلك لأنك لم تراقب نفسك بحضور الطفل ، ولأنك توانيت عن تعهد الحب اليقظ الفعال في نفسك • الحب يا اخوتي معلم كبير ، ولكن يجب أن نعرف كيف نملكه • انه لا يكتسب بسهولة ؛ وانما يحصل عليه الانسان بثمن باهظ ، بجهد متصل طويل • ذلك أن المقصود ليس هو أن تحب موقتاً ومصـادفةً ، بل أن تحب حباً مستمراً مطّرداً • ان أي انسان ، حتى المجرم ، يمكن أن يشـعر بحب طارىء عابر • لقد كان أخي يستغفر العصافير ، وقد يبدو هذا سخيفا من أول نظرة ، ومع ذلك كان أخي على حق ، لأن الحيـــاة أشبه ببحر محيط تختلط فيه وتتمازج فيه جميع الأمواج • ان ضربة تقع على مكان من الأمكنة تترجع آثارها في أقصى الطرف الآخر من الأرض • هل استغفار العصافير أحمق الى هـــذا الحد ؟ لو كنتَ خيراً مما أنت الآن ، لشعر العصفور بمزيد من الأمن والطمأنينة في قربك • ان الطفل وكل كائن حي آخر سيكون أسعد حالاً وأهدأ بالاً قربك اذا توافـرت في قلبك ولو قطرة واحدة أخرى من الطيبة • أعـود فأقول : ان الكون أشـبه بأوقيانوسٍ جميعُ أجزائه متواصـــلة • فمتى أدركتَ هـــذه الحقيقة استغفرتَ العصافير أنت أيضا • اذا أدركت هـذه الحقيقة تملكك حب واسع يملأ قلبك سعادة ووجداً فاذا أنت تسألها ، تسأل العصـــافير ، أن

تغفر لك خطاياك • فتعهد بالتنميه والاذكاء هده الحماسة الروحية وهذا الوجد ، دون أن تخشى أن تعد مجنوناً فى نظر الناس •

يا أصدقائى اسألوا الرب أن يهب لكم الفــرح • كونوا فرحين كالأطفال ، كالعصافير الصــغيرة فى السماء • لا تدعوا للاضــطراب أن يستولى عليكم ، ولا لخطايا البشر أن تصرفكم رؤيتهــا عن جهودكم ؛ لا تخشوا من ضلالاتهم أن تجعــل عملكم عقيماً أو أن لا تســمح له بالظهور • لا تقــولوا قط « ان الشر فى هذا العــالم قوى ، وان الظلم منتصر ، وان الأشرار مسيطرون ، على حين أننا نحن معزولون لا حول لنا ولا قوة ولا سلطان ، وان القوة الشريرة ستدمرنا قبــل أن نستطيع القيام بعمل صالح » • لا تدعوا لهذا اليأس يا أبنائى أن يستولى عليكم • وليس هنالك الا سبيل واحدة تنفع المرء فى حماية نفسه منه ، ألا وهى أن يعــد نفسه مســئولا ً عن جميع خطايا البشر • وتلك هى الحقيقة يا أصدقائى • فمتى اعترفتم بأنكم مســئولون عن كل شىء تجاه جميع الناس ، أدركتم أن الأمر هو كذلك حقا ، وأن ذنبكم ليس وهماً صوّره لكم الخيال • أما اذا ألقيتم على عاتق غيركم ما هو فى الواقع نتيجة كسلكم وتوانيكم وضعفكم ، انتهيتم الى الســقوط فى هوة التكبر الشــيطانى ، وأخذتم تدمدمون متمردين على ارادة الله • سأقول لكم رأيى فى التكبر الشيطانى : انه لعسير علينا أن ننفذ الى دلالته الحقيقية أثناء حياتنا الأرضية، ونحن لهذا ميالون بطبيعتنا الى الوقوع فى الخطأ ، فاذا نحن نتكبر تكبر الشيطان ظانّين أننا بذلك نكبر ونحقق عملاً رائعاً جديراً بالاعجاب • ان المعنى الحقيقى لكثير من عواطفنا القوية واندفاعات قلبنا يفوتنا أثناء حياتنا الأرضية على كل حال • فلا تستسلموا للاغراء ولا تظنوا أن الجهل يمكن أن يكون لكم مسوّغاً • على ان « القاضى الأعلى » سيحاسبكم عما كان فى وسعكم أن تعرفوه ، لا عمّا يفوق عقولكم • ستدركون هذا فى حينه ،

وستكفون عندئذ عن المناقشة بحضور الحقيقة التى ستعرفونها • لقد كتب علينا أن نضرب فى الأرض ، وما لم لكن صورة المسيح الغالية نصب أعيننا، فسنهلك بسبب أخطائنا كما هلك لنوع الانسانى قبل الطوفان • هناك أشياء كثيرة تبقى خافية عنا فى هـذا العالم ، ولكننا فى مقابل ذلك قد أوتينا معرفة الحياة الآخرة والصلات التى تربطنا بعالم أعلى وأفضل : والجذور العميقة لعواطفنا وأفكارنا انما تمتد فى السماء لا فى الأرض على كل حال • لذلك يعلّم الفلاسفة أن ماهية الأشياء لا يمكن ادراكها فى هذه الحياة الدنيا • لقد أخذ الرب بذوراً من عالم الغيب فنثرها على الأرض ليزرع حديقته ، فنبت كل ما كان يمكن أن ينبت ، ولكن الموجودات التى نبتت على هذه الأرض لا تحيا ولا تبقى حية الا بوعى الصلة التى تربطها بالعالم الآخر السرى • حتى اذا ضعف هذا الوعى أو زال ، مات عندئذ ما يكون قد طلع فيها ، فلا تكترث بعد ذلك بالحياة ، أو هى تكره الحياة • ذلكم هو رأيى على الأقل •

ح - هل يجوز للمرء أن يحكم على أقرانه ؟

الايمان الذى لا يتزعزع

تذكر خاصة أنه ليس من حقك أن تحكم على قرينك كائناً من كان • ما من أحد يستطيع أن يجعل نفسه قاضيا على مجرم قبل أن يدرك أنه ، وهو القاضى ، لا يقل اجراما عن الجانى الماثل أمامه ، وأنه ربما كان هو المسئول الأول عن الخطأ الذى ارتكبه هذا الرجل • حتى اذا أدرك ذلك استطاع أن يحكم • قد يبدو هذا الرأى باطلا ، ومع ذلك فهذه هى الحقيقة • فلو قد استطعت أن أكون عادلا على الدوام ، لكان من الجائز

أن لا يرتكب هذا الرجل جريمته • فاذا أمكنك أن تلقى على عاتقك جناية الجاني الماثل أمامك ، وأن تجعل حكمك في قلبك ، فافعل ذلك بغير تردد واقبل أن تتألم نيابة عنه • أما الجاني فدعه ينصرف دون أن توجه اليه لوماً • استلهم هذه القاعدة في السلوك ما وسعك ذلك ، ولو نصبك القانون قاضيا له ، لأن المذنب سينصرف بعد ذلك ليدين نفسه ادانة أقسى من ادانتك اياه • واذا ظهر لك أنه لم يحس رفقك به ، واذا ردّ على حبك بالسخرية ، فلا تدع لموقفه هذا أن يغضبك : فانما يدل هذا الموقف على أن ساعته لم تدق بعد ، وأنها ستحين في المستقبل • وهبها لن تحين أبدا، فلا تهتم كثيرا بذلك ، لأن شخصا آخر سيعترف يوما بذنبه وسيتألم منه ، وسيدركه ، وسيدين نفسه بنفسه ، فاذا بالحقيقة تتأكد رغم كل شيء • صدّق ما أقوله لك ، صدّقه تصديقا جازما قاطعا ، لأن هذا هو الأساس الحق الذى يقوم عليه الأمل ويقوم عليه ايمان القديسين •

لا تقعد عن العمل ولا تدع لهمتك أن تفتر • فاذا تذكرت ، بعد أن رقدت في سريرك لتنام ، أنك أغفلت القيام بواجب من الواجبات ، فانهض فورا لتدارك هذا النسيان • واذا رأيت نفسك محاطا بأناس أشرار لا يحسون ، ويرفضون أن يسمعوا لك ، فارتم على أقدامهم واستغفرهم، لأنك أنت الذى تحمل ذنب عنادهم في الحقيقة • واذا شعرت بأنك عاجز عن أن تخاطب الأشرار بالحسنى ، فاخدمهم صامتا متواضعا دون أن تيأس قط • واذا هجرك جميع الناس وطردوك شر طردة ، فاسجد على الارض حين تصبح وحيدا واغمرها بقبلاتك • اسق الارض بدموعك ، فتحمل هذه الدموع ثمارا ، ولو لم يرك أو يسمعك في عزلتك أحد • حافظ على ايمانك حتى النهاية ، ولو كان عليك أن تبقى الانسان الوحيد الذى يحافظ عليه • اذا تنكر سائر الناس لعقيدتهم ، فثابر أنت على المضى في طريق التضحية واستمرّ في تمجيد الله يا آخر مؤمن ، فقد يلقاك مؤمن

آخر ، فتصبحا اثنين ، وهذا كافٍ لعودة الكون حياً بالحب : سوف تتعانقان عندئذ وقد امتلأت نفساكما عاطفة ، وسوف تسبحان بحمد الله فاذا الحقيقة تتأكد بكما رغم أنكما لستما الا اثنين •

اذا اتفق أن أثمت فأخذ الندم على ارتكابك الأخطاء يعذبك ويرهقك ارهاقا شديدا ، فليبهجك أن تتذكر أن هناك انسانا صالحا لم يرتكب اثماً، وقل لنفسك مغتبطاً سعيدا : لئن وقعت أنا فى الشر ، ان ثمة انسانا غيرى قد ظل طاهرا لم يتلوث •

واذا ملأك خبث البشر استياء وألما عنيفاً رغم ذلك ، حتى صرت تتمنى معاقبة المجرمين انتقاما ، فصن نفسك من هذه العاطفة بكل ما تملك من قوة ، وابحث لنفسك عن آلام مباشرة كأنك مسئول عن جرائم هؤلاء الناس • اقبل هذه الآلام وتحملها • فذلك يهدىء قلبك ويطمئن نفسك • سوف تدرك أنك آثم فعلا ، لأنك كنت تستطيع أن تهدىء هؤلاء الناس بالقدوة ، ولو كان عليك أن تبقى الانسان الوحيد الذى يعيش بلا خطيئة، ثم لم تفعل ••• فلو أنك اتبعت طريق النور هذا فى حياتك ، لاستطاع الآخرون أن يروا طريقهم بنور طهارتك ، ولأمكن الانسانَ الذى تتهمه اليوم بالجريمة أن يبقى شريفا طاهرا • قد يحدث مع ذلك أن تكون أنت قدوة حسنة ثم يرفض الآخرون الخلاص الذى يأتيهم من نورك ، فلا يتزعزعن ايمانك حينذاك ، ولا يراودنك شك فى أن الحقيقة السماوية منتصرة آخر الأمر • اعلم أن البشر سيُنقَذون غدا ان لم يمكن انقاذهم اليوم • واذا لم يمكن انقاذهم أثناء حياتهم ، فسيُنقَذ أبناؤهم من بعدهم، لأن نورك لن يزول وسيبقى بعد مبارحتك هذا العالم • قد يزول الرجل الصالح ، ولكن نوره باق لا يزول • ثم ان الناس لا يقبلون الخلاص الا بعد موت ذلك الذى أراد أن يخلصهم • ان البشر لا يعترفون بأنبيائهم

بل يقلتونهم ، ولكن البشر فى مقابل ذلك يحبون شهداءهم ويقدسون أولئك الذين استشهدوا بأيديهم • ففى المستقبل وفى الانسانية بمجموعها انما يجب عليك أن تفكر حين تبذل ما تبذل من جهودك لا تنتظر ثواباً على الخير الذى تعمل ، لأن نصيبك فى هذا العالم كبير حتى بدون هـذا الثواب : لسوف تعرف نفسُك الفرحَ الحق الذى لا يوهب الا للصالحين• لا تخش العظماء ولا الأقوياء • كن عاقلا حكيما كريما على نفسك فى كل ظرف • التزم القصد والاعتدال • اعلم أن هناك آجالاً تفرض نفسها على تشوقنا الى العمل ، وتقيد بهذه الآجال • لُذْ بالصلاة فى العزلة • تعلم كيف تحب الارتماء على الارض وتقبيلها • قبِّـــل الأرض بغير كلال • وأحبَّها بكل نفسك • انشر حبك على كل ما يوجـــد • اندفع فى الحب واسعَ الى حماسة القلب • اسق الأرض بدموع فرحك ، واحببْ هذه الدموع • لا يخجلنك وجدك • قدِّر هذا الوجد ، لأن الله مصدره ، فهو هبة كبرى لا توهب فى هذه الحياة الدنيا الا للمصطفين •

ط ـ حديث عن الجحيم والنار الابدية

تامل صوفى

يا آبائى ومعلمىَّ ، لقد تساءلت : « ما الجحيم » ، فأجبت : « هــو عذاب الانسان من أنه أصبح لا يستطيع أن يحب » • ففى المكان والزمان اللانهائيين ، تتاح للكائن الروحى الذى يظهر على الارض ، لحظةٌ وحيدة يمكنه فيها أن يقول : « أنا موجود وأنا أحب » • مرةً واحدة ، مرةً واحدة توهب لهذا الكائن الحى القدرة على أن يختار طريق الحب الفعال الحى ، وقد وهبت له الحياة لهذه الغاية مع ما تشتمل عليه الحياة من زمان

وآجال . وهذا الكائن الذي أُغدقت عليه هذه النعمة قد رفض النعمة التي لا توصف ، ولم يقدرها حق قدرها ، ولم يتمتع بها ، بل استخف بها وآثر أن تخلو نفسه من الحس . ان هـذا الكائن يرى ابراهيم بعد أن يبارح الارض ، ويتحدث مع رب العائلة ، كما ورد في رمز لازار والفتى الشرير . انه يرى الجنة ويعلم أنه سيمثل أمام الرب ؟ واذا كان يعذبه شيء فانما يعذبه أنه سيمثل أمام الخالق دون أن يكون قد أحب ، وأنه سيسير الى جانب مخلوقات مُحبة احتقر هو حبها . ذلك أنه الآن يرى ويدرك ، فيقول لنفسه : « أنا الآن أعلم ، ورغم انني اليوم ظامىء الى الحب فلن يكون لحبي قيمة ولن تكون فيه تضحية، لأن حياتي الأرضيه قد انتهت ، ولن يأتي ابراهيم فيهدىء بقطرة من ماء الحياة (أي باعطائي حياةً أرضية جديدة فعالة شبيهه بالسابقة) ظمئي الى الحب الروحي لذي يحرق الآن نفسي بعد أن ازدريته على الارض : لن تكون بعد اليوم حياة، لن يكون بعد اليوم وقت ! انني أتمنى الآن أن أضحي بوجودي في سبيل غيري ، ولكن فات الأوان ، لأن الحياة التي كان يمكن أن أضحي بها قد انقضت الى غير رجعة ، فالهوة تفصل بيني وبينها الى الأبد » . كثيرا ما يتكلم الناس عن نار الجحيم وهم يفهمونها بالمعنى المادي . انني لا أريد أن أبحث هذا السرّ الذي يملأ نفسي رعباً وهولاً ، ولكنني أتصور أن هذه النيران لو كانت محسوسة مادية اذن لابتهج بها المعذبون ، لأن الألم الجسمي يتيح لهم عندئذ أن ينسوا ، ولو لحظةً قصيرة ، العذاب الروحي الرهيب . ثم ان تخليصهم من عذاب نفوسهم مستحيل ، لأنه عذاب داخلي لا خارجي ، فلا يمكن أن يناله تأثير الآخرين . وهبنا استطعنا أن نجرّدهم من هذا العذاب ، فان شقاءهم سيزداد من ذلك فيما يخيل اليّ . هب العادلين في السماء غفروا لهم حين رأوا آلامهم ، وهبهم نادوهم اليهم بحب لا نهاية له ؟ انهم سيضاعفون بذلك آلامهم ، لأنهم سيوقظون فيهم

مزيدا من الظمأ الحار الى الحب المتبادل والعرفان والنبل ، فى وقت أصبحوا فيه عاجزين عن ذلك الى الأبد . على أننى أتصور، خاشع النفس ذليلا ، أن شعورهم بهذا العجز سيخفف عنهم آخر الأمر بعض التخفيف، واليكم كيف يكون ذلك : انهم حين يقبلون حب الصالحين دون أن يكونوا قادرين على أن يردوه بمثله ، سيجدون فى التسليم بهذا التفاوت بينهم وبينهم وفى الوضع الذى سيمليه عليهم الشعور الصادق بأنهم دونهم، سيجدون فى ذلك معادلاً أو صورة للحب الفعال الذى ازدروه على الأرض، وسيصبحون قادرين عندئذ على فعل يذكّر بفعل النفس المحبة.. يؤسفنى ، يا آبائى ومعلمىّ ، أن لا أستطيع التعبير عما بنفسى بمزيد من الوضوح . ولكن ويل للذين أنهوا حياتهم على هذه الأرض بأنفسهم ، ويل للمنتحرين ! أحسب أنه ليس هناك من يفوق هؤلاء شقاءً ! يقال انه اثم أن ندعو الله لمن قتل نفسه بارادته ، وواضح أن الكنيسة تطرد من حضنها ذلك الذى قتل نفسه بارادته . ولكننى أشعر مع ذلك ، فى سريرة نفسى ، أنه يجوز الدعاء للمنتحرين ، لأن المسيح لن يسوءه افراط فى الحب . لقد دعوت طوال حياتى للمنتحرين ، أعترف لكم بهذا الآن يا آبائى ومعلمىّ ، وما زلت أدعو لهم كل يوم .

لا شك أن فى الجحيم أيضا معذَّبين أصروا على صلفهم وضراوتهم وظلوا لا يتأثرون بالحقيقة رغم أنهم أصبحوا يعرفونها ويرونها ساطعة كل السطوع . ان بينهم أناساً رهيبين قد اتحدوا بالشيطان وانضموا الى عصيانه . انهم يقبلون الجحيم بفرح مظلم ولا يستطيعون أن يشبعوا منه . أولئك يتعذبون ويريدون أن يتعذبوا . فقد لعنوا أنفسهم بأنفسهم اذ لعنوا الله والحياة . انهم يقتاتون بكرههم المتكبر الصلف اقتيات الجائعين فى الصحراء بدمائهم يمتصونها . ان غليلهم لن يشفى يوما ، وهم يرفضون المغفرة الى الأبد ، لاعنين الرب الذى يناديهم . انهم لا يستطيعون الا أن

يشعروا بحنق مسعور حين يتأملون الاله الحى ، ويتمنون أن لا يوجد ، ويودون لو يفنى الخالق نفسه مع الخليقة كلها . هؤلاء سيظلون يحترقون الى الأبد بنيران كرههم منادين الموت والعدم فى غير طائل . ولكن لن يوهب لهم أن يموتوا ...

هنا تنتهى مخطوطة ألكسى فيدوروفتش كارامازوف. وأعود فأقول: هذا عمل غير مكتمل ، هذه أجزاء متفرقة . فالاشارات التى تتصل بحياة الشيخ زوسيما مثلاً لا تتناول الا الفترة الأولى من شباب الشيخ . وان شذرات من تعاليمه ومن الآراء التى أطلقها فى عهود مختلفة وبتأثير مناسبات شتى ، قد جُمعت هنا وصُهرت كما يرى القارىء ذلك واضحا . والأقوال التى نطق بها الشيخ فى الساعات الأخيرة من حياته لم تُنقل نقلاً كاملاً وانما عُرضت عرضا موجزا فيما يظهر ، بحيث تؤدى روح ذلك الحديث الأخير وتبرز عناصره الأساسية مزيدا من الابراز بمعونة أقوال أخرى استمدها الكسى فيدوروفتش من تعاليم شيخه السابقة . وقد وافت الشيخَ منيته على نحو لم يكن فى الحسبان حقاً . فرغم أن جميع الأشخاص الذين اجتمعوا حوله فى ذلك المساء قد أدركوا أن وفاته قريبة، فان أحداً منهم لم يتنبأ بأنها ستوافيه على هذا النحو المباغت . وكما سبق أن قلت فان أصدقاءه قد اعتقدوا حين رأوا ما رأوا من شجاعته وميله الى الكلام طوال تلك الليلة أن صحته ستتحسن تحسناً ملحوظاً وان يكن عابراً موقتاً ؛ ولا شىء كان يسمح لأحد ، الى ما قبل موته بخمس دقائق (كما رُوى هذا بدهشة فيما بعد) ، أن يتنبأ بأن وفاته وشيكة . ولكن بدا عليه فجأة أنه يحس بألم شديد فى صدره ، واصفر وجهه ، وشد

يده شداً قوياً على قلبه . نهض جميع الحضور وهرعوا اليه . وظل هو رغم الألم ينظر الى أصدقائه مبتسما . وترك نفســه ينزلق برفقٍ عن كرسيه ، فجثا على ركبتيــه ، ثم ســجد جاعــلاً وجهــه على الأرض ، وبسط ذراعيه بنوعٍ من الوجد الجذل. وقبّل الأرض بعدئذ ، ولفظ روحه على نحو ما أورد هو نفسه فى تعاليمه ، مصلياً فى اندفاعة عظمى من فرح هادىء مطمئن . انتشر نبأ وفاته فورا فى الصومعة والدير . وقام أصدقاؤه والأشخاص المختصون بتكفينه على ما توجبه الطقوس القديمة ، ثم اجتمع أعضاء الرهبنة فى الكنيسة . وقد عُـرف موت الشيخ فى المدينة قبل أن يطلع الفجر ، كما أكد الناس ذلك فيما بعد . ومهما يكن من أمر، فقد تحدث الملأ عن موته فى كل مكان منذ الساعات الأولى من الصباح، وازدحم فى الدير جمع غفير من المواطنين . سنعود الى الكلام عن هــذا فى الباب التالى ، وحسبنا أن نشير هنا ، مستبقين تتمة هذه القصة ، أن حادثاً غير منتظر قد وقع قبل نهاية النهار ، فأحدث فى نفوس سكان الدير وفى نفوس سكان المدينة على السواء أثراً يبلغ من الغرابة ومن الاقــلاق ومن العنف أن ذكراه ما تزال حتى يومنا هذا ، بعد انقضاء ذلك العــدد الكبير كله من السنين ، ما تزال حية فى أذهان جميع الذين عاشوا تلك الساعات المضطربة القلقة ...

الجزء الثالث

الباب السابع: اليوشا

١

رائحة الجثة

أعدّ جثمان الأب زوسيما للدفن وفقاً للطقوس المقررة. وقد جرت العادة ، كما تعلمون ، بأن لا يُغسل رفات الرهبان والنساك • يقول كتاب الطقوس في هذا الصدد : « اذا نادى الرب راهبا اليه ، فعلى الأخ المكلف بزينة المتوفى أن يدلكه بماء فاتر ، بعد أن يرسم اشارة الصليب باسفنجه على جبينه وصدره ويديه وقدميه وركبتيه ، وهذا كل شيء • » • وقد تولى الأب بائيسى القيام بهذه المهمة بنفسه وفقاً للطقوس• فلما فرغ من تدليك جسمه ألبسه مسوح الرهبنة ، وكفنه بالجبة بعد أن شقها قليلاً بحيث يجعلها في صورة صليب ، كما تأمر الطقوس بذلك• ووضع على رأسه بعدئذ طاقية مزينة بصليب ذى ثمانية أفرع ، تاركاً الطاقية تسفر عن الوجه ، مغطياً الوجه ببرقع أسود ؛ ووضع صورة المخلِّص بين يدى المتوفى • حتى اذا انتهى تكفينُ الجثمان على هذا النحو سُجِّى عند الصباح فى تابوت سبق اعداده منذ زمن طويل • وأريد أن يُترك التابوت طوال النهار فى حجرة الشيخ (الحجرة الكبيرة التى اعتاد الشيخ أن يستقبل فيها الرهبان والزوار العلمانيين) • واذ أن المتوفى فى رتبة « هيروشيموناكوس » ، فقد كان على الرهبان الكهنة وعلى الشمامسة أن يقرأوا أمام رفاته الانجيل لا المزامير • فشرع الأب

جوزيف في القراءة بعد قداس الجنازة فورا . أما الأب بائيسى الذى حل محلّه ، باصرار منه ، أثناء بقية النهار وأثناء الليلة التالية ، فقد كان في تلك الآونة مهموما جدا (مثلما كان كبير النساك) من ذلك الاضطراب الشديد ، الخارف ، « غير اللائق » ، المشوب بنوع من انتظار محموم ، الذى استولى على الرهبان وعلى جموع الناس الغفيرة التى هرعت من المدينة ومن الفنادق المجاورة للدير . كان ذلك الاضطراب ما ينفك يزداد قوة وظهوراً ، فاضطر الأب بائيسى وكبير النساك الى بذل جميع جهودهما في سبيل أن يهدئا النفوس المهتاجة ما أمكنت التهدئة . وما ان طلع النهار تماماً حتى أخذ يفد من المدينة أشخاص يصطحبون مرضى ، مرضى من الأطفال خاصة ، كأن جميع الناس كانوا ينتظرون هذه اللحظة آملين أن يروا ظهور معجزة الشفاء التى لا بد في اعتقادهم من أن تصدر عن جثمان الشيخ . في تلك اللحظة انما تجلى مدى تعود الناس على اعتبار الشيخ ، حتى أثناء حياته ، قديساً صادقاً عظيماً . ولم يكن جميع المؤمنين الوافدين من المدينة ينتمون الى الأوساط الشعبية . وبدا للأب بائيسى أن هذا التوقع العظيم الذى يتوقعه المؤمنون والذى يتجلى بهذا القدر من التسرع ونفاد الصبر وهذا القدر من الصراحة حتى لكأنه مطلب من المطالب ، بدا للأب بائيسى أن هذا التوقع فيه شيء من مجافاة الأدب والحشمة ؛ ورغم أن الأب بائيسى قد تنبأ بهذا التوقع منذ زمن طويل ، فان القوة التى يتجلى بها هذا التوقع الآن قد تجاوزت جميع تنبؤات الأب بائيسى . فكان يتجه الى الرهبان المتحمسين فيقول لهم « ان انتظار معجزة كبيرة مباشرة دليل على عواطف طائشة يُفهم صدورها عن علمانيين ولكنها لا تليق برهبان » . وكان هؤلاء لايسمعون له كثيرا ، وذلك أمر لاحظه الأب بائيسى قلقاً . ومع هذا كان الأب بائيسى هو نفسه (تلك حقيقة يجب أن نعترف بها اذا أردنا الصدق) ،

رغم استيائه الشديد من مظاهر نفاد الصبر هــذه التى يرى فيها خفة وطيشاً ، كان هو نفسه يحس فى قرارة ضميره بهذا الانتظار نفسه الذى يشعر به المضطربون المهتاجون ، وكان لا بد له أن يعترف لنفسه بذلك. على أن رؤية بعض الأشخاص قد ساءته كثيرا ، لأن وجودهم قد أيقظ فى نفسه شكوكا غامضة لم تنشأ والحق يقال الا من احساسات مبهمة . من ذلك أنه شعر بنفور داخلى شديد (سرعان ما لام نفسه عليه) حين لمح بين الجمهور المحتشد فى حجرة الشيخ ، حين لمح راكيتين وراهب أوبدورسك الذى طالت اقامته فى الدير . لقــد بدا الرجلان كلاهما مشبوهين فى نظر الأب بائيسى ، رغم أن هنــاك أشخاصا آخرين كانوا مشبوهين مثلهم أيضــا . وكان راهب أوبدورسك يتميز بكثرة ذهابه وايابه . فهو يُرى فى كل مكان مستطلعاً سائلاً أو مصغياً أو مدمدماً على نحو سرى . وكان وجهه يعبر عن نفاد الصبر نفاداً شديداً يوشك أن يستحيل فى بعض اللحظات الى اهتياج وحنق ، لأن الحادث الذى يتوقع الناس فى كثير من الاندفاع والحماسة والحميَّا أن يحدث قــد تأخر حدوثه . أما راكيتين فقــد عُلم فيما بعد أنه ان جاء الى الصومعة فى ساعة مبكرة هذا التبكير من الصباح ، فلأن السيدة هوخلاكوفا هى التى طلبت منه ذلك صراحة . ان هذه المرأة التى تتصف بالطيبة ولكن تعوزها قوة الطبع ، قد أحست بفضول شديد يقرصها قرصاً حين علمت بموت الشيخ عند استيقاظها من النوم ، وبلغت من شدة الفضول أنهــا لمعرفتها بأن مجيئهــا الى الصــــومعة لن يكون مقبولاً قد أسرعت توفد راكيتين موصيةً اياه بأن يلاحظ كل شيء وأن ينبئهــا حالاً ، فى رسالة يبعث بها اليها كلَّ نصف ساعة ، بكلِّ ما قد يحدث . كانت الســيدة هوخلاكوفا تعد راكيتين شابا شديد التقى قوى الايمان ، فالى هذا الحد

كان راكيتين بارعا فى الحظوة برضى الناس حاذقا فى اتخاذ المظاهر التى تطابق رغباتهم متى وجد فى ذلك مصلحةً له .

بدأ النهار صاحيا مضيئا مشمسا . والحجاج الذين وصلوا الى الدير يزدحمون حول القبور ، ولكن بعضـــهم قد تفرقوا فى جوار الدير . وحين طاف الأب بائيسى فى الصومعه ، تذكر أليوشا فجأة ، وتذكر أنه لم يره منذ مدة طويله ، منذ الليل على كل حال . فما ان خطر بباله هذا حتى لمحه فى ركن ناءٍ قرب السياج جالساً على الحجر من قبر راهبٍ مات منذ سنين وعُرف أثناء حياته بشدة تعبده وقسوة كفـاراته . كان أليوشا قد أدار ظهره للصومعة واتجه برأسه نحو السياج، وكأنه يختبىء وراء شاهدة القبر . فلما اقترب الأب بائيسى رأى أليوشا قد وضع وجهه فى يديه وأخذ يبكى بكاءً مراً وان يكن صامتاً ، وأن جسمه كان يهزه الانتحاب . لبث الأب بائيسى واقفاً قربه بضع لحظات . وقال له أخـيرا بصوت متأثر :

ـ هدىء روعك يا بنى . ما بك ؟ عليك أن تبتهج لا أن تبكى . أفتجهل أن هذا اليوم هو أجمل وأعظم من جميع الأيام التى وُهب له أن يعرفها ؟ أنسيت أين هو فى هذه اللحظة ؟ هلاّ فكرت فى هذا !

رفع أليوشا عينيه فرأى الأب بائيسى وجهه محتقناً بالدموع كوجه طفل ؛ ثم تحول أليوشا دون أن ينطق بكلمة وأخفى وجهه فى يديه من جديد . قال الأب بائيسى مطرقاً مفكراً :

ـ قد تكون على حق مع ذلك ! ابك فى سلام يا بنى لأن المسيح هو الذى يرسل اليك هذه الدموع .

ثم أضاف يقول بصوت خافت كأنه يخاطب نفسه :

ـ ستساهم انتحاباتك المؤثرة فى تهدئة روعك ، وستبعث الفـرح فى قلبك النبيل .

ثم ابتعد ممتلىء النفس عطفاً على أليوشـــا وحبا له • والحق أنه سارع ينصرف لأنه أحس أنه يوشك هو نفسه أن ينفجر ناشجاً وهــو ينظر الى الفتى •

كان الوقت ينقضي ، وكانت صلوات الجنــازة وقداساتها تتعاقب وفقاً للنظام المقرر • ولمح الأب بائيسى الأب جوزيف قــرب التابوت ، فحل محله فى قراءة الانجيل • ولكن ما ان دقت الساعة الثالثـة بعـد الظهر حتى وقع الحادث الذى أشرت اليه فى ختام الباب السابق • وقد جاء هذا الحادث على غير ما يتوقع جميع الناس ، وجاء مخالفا مخالفـة مذهلة لما كانوا يأملونه ، وبلغ من ذلك أن ذكراه وذكرى جميع التفاصيل التافهة التى رافقته قد ظلت حيةً الى أيامنا هذه فى أذهان سكان مدينتنا وسكان المنطقة المجــاورة كما سبق أن قلت • وأحب أن أسـوق هنا ملاحظة خاصة بى : انه ليشق على نفسى أن أتكلم عن هذا الحادث المقلق الذى لا بد أن يهز النفوس رغم أنه فى حقيقة الامر طبيعى ويمكن فهمه جدا ؛ وكان فى وسعى أن أسكت عنه حتما لولا أنه قد أحدث تأثيرا قوياً جدا ــ فى اتجاه محدد تحديدا واضحا ــ فى نفس وقلب البطـل الرئيسى (وان يكن البطل المقبل) الذى تدور عليه أحداث هذه القصة، أعنى أليوشا • لقد اضطرب أليوشا من هذا الحادث اضطرابا رهيبا ، والى هذا العهد انما يرجع انعطاف حياته النفسية ، لأن عقله الذى أوشك أن يهزه الحادث ، قد خرج من الأزمة منتصرا ، ثابتا منذ ذلك الحين الى الأبد ، متجهاً نحو هدف معين محدد •

وهأنذا أصل الى الوقائع : حين أُرقد جثمان الشيخ فى تابوت بعد تكفينه قبيل الفجر ، ووضع التابوت فى الغرفة الأولى من بيت الشــيخ ــ وهى حجرة الاســتقبال ــ فان أحــد الأشخاص الحـاضرين سأل ألا يُستحسن فتح النوافذ • ان هذا السؤال الذى ألقاه صاحبه كسـؤال

عابر وهو يشعر بما يشبه الخجل ، قد ظل بغير جواب ولم يكد ينتبه اليه أحد • والذين سمعوه رأوا أن فكرة صدور رائحة تفسخ من جثمان ميت كهذا الميت تبلغ من السخف أنها لا تستحق فى أبعد تقـدير أكثر من أن يرفعوا أكتافهم مشفقين (أو أن يبتسموا محتقرين) ازاء مايتصف به الذهن الذى أمكن أن تخطر له من قلة الايمان وشدة الطيش وفرط الغباوة • أليس ما يُنتظر من قداسة الشيخ هو نقيض هذا تماما ؟ ولكن الذى حدث هو أن الأشخاص الذين دخلوا الحجرة ابتداءً من الظهر قد أخذوا يلاحظون ملاحظات كتموها فى أول الأمر عن غيرهم واحتفظوا بها لأنفسهم ، خشية أن ينقلوا الى الآخرين شعورا لا يكادون يصدقونه؟ غير أن الظاهرة التى أُدركت ادراكا غامضا فى البداية قد تأكدت فى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر تأكداً بلغ من الوضـــوح أنه أصبح يستحيل الشك فيها ، فاذا الخبر ينتشر فى الصومعة على الفور ، واذا هو يشيع بين المتدفقين من أنواع الحجاج ، واذا هو يصل الى الدير فى الوقت نفسه تقريبا فيغرق الرهبان فى دهشة شديدة وحزن مبرِّح • وانتقل النبأ من الدير الى المدينة فأحدث اضـطرابا فى النـــاس ، المؤمنين منهم والملحدين على السواء • لقد انتصر الملحدون • وأما المؤمنون فمنهم من كان ابتهاجه أشد من ابتهاج غير المؤمنين أيضا ، لأن الانسان « يحلو له أن يرى سقوط الرجل الصالح وتلطخ شرفه بالعار » كما قال المتوفى فى أحد أحاديثه • وما وقع هو أن رائحة تفسخ قد صدرت عن التابوت خفيفةً فى أول الأمر ، ثم ما زالت تشتد وتشتد ساعة بعد ساعة ؟ فمـا حانت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى أصبحت واضحة كل الوضوح ، وما فتئت تشتد بعد ذلك • عبثاً تحاولون أن تجدوا فى حوليات ديرنا ذكرى اضطراب فاضح عنيف كالاضطراب الذى استولى على الرهبان منذ أن عُرف الحادث ، والذى ما كان يمكن تصوره فى أى ظرف آخر من

الظروف . وبعد انقضاء عدد كبير من السنين ظل حتى أعقل الرهبان وأحصفهم يشعرون بدهشة شديدة وروع هائل حين يتذكرون تفاصيل وقائع ذلك النهار ، والفوضى التى أطاشت العقول ، وما نشأ عن ذلك لدى رهبان الدير من موقف غير لائق . كثيرا ما حدث فى الماضى أن رهباناً عُرفوا باستقامة الحياة وطهارتها ، أن رجالاً يعظمهم جميع الناس ويخافون الله ، قد ماتوا أتقياء أنقياء ، ثم لوحظت مع ذلك حول جثمانهم المسكين بعض الافرازات ، كما يحدث هذا لجميع الموتى فى هذه الحياة الدنيا ، ولكن الأمر لم يصدم عندئذ أحداً بل ولا أدهش أحداً . صحيح أن الأذهان تحتفظ عندنا أيضا بذكرى رهبان متوفين منذ زمان طويل ، يتناقل الناس عنهم أن بقاياهم لم تظهر عليها أية علامة من علامات التفسخ ؛ وقد أحدث ذلك فى نفوس الرهبان أثرا عظيما ، فكانوا يتحدثون عنه معجبين ، وكانوا يحرصون أشد الحرص على حفظ ذكرى هذه الوقائع المعجزة التى تشهد بالقداسة ؛ وكانوا يقدّرون أن مزيدا من المجد سيتحقق فى المستقبل لقبور هؤلاء الأخيار المختارين فى الساعة التى يشاء فيها الله ذلك . فهكذا كان شأن القديس يعقوب مثلاً ، الذى عاش مائة وخمس سنين والذى بقيت ذكراه حيةً فى ديرنا . لقد كان يعقوب ناسكاً كبيراً ، اشتهر بفرائض الصمت والصيام التى كان يلزم بها نفسه ؛ وقد مات منذ زمن بعيد ، فى السنين الأولى من القرن التاسع عشر ؛ وأصبح قبره الآن محل تعظيم خاص ، فسكان الدير يقودون الحجاج الى زيارته قبل سائر القبور ، مشيرين بكلام يحمل معانى السر والاعجاب الى الآمال الكبيرة المعقودة على مثوى ذلك الرجل الصالح (على ذلك القبر انما لمح الأب بائيسى ، فى الصباح ، أليوشا) . وعدا ذلك الراهب الذى توفى منذ سنين كثيرة ، هناك راهب آخر مات منذ عهد غير بعيد كثيرا ، وخلّف فى الدير ذكرى كهذه الذكرى . انه الشيخ العظيم

فارسونوف الذى خلفه الأب زوسيما ، والذى كان يعده جميع الحجاج الذين يزورون الدير « يوروديفوى » • ان الناس يروون عن كل من هذين الراهبين أن الناظر اليه فى تابوته كان لا يشعر الا بأنه نائم نوماً ، وأنه دُفن دون أن يفسد جثمانه ؛ بل وأن نوراً كان يشع من وجهه • حتى أن بعض الناس ذهبوا الى حد القول فى الحاح واصرار ان رفاته كان ينشر روائح عطرة • ومع ذلك ، رغم هـذه الذكريات الموحيه ، فان من العسير على المرء أن يدرك السبب الذى دفع الرهبان فى ذلك اليوم الى أن يقفوا موقفا يبلغ هذا المبلغ من الخفة والطيش والسخف والعداوة ازاء تابوت الشيخ زوسيما • أما أنا فأعتقد أن الأسباب كثيرة متنوعة ، ولكنها تعمل جميعا فى اتجاه واحد • ويحسن أن نذكر ، من بين هذه الأسباب ، المعاداة الشديدة لنظام المشايخ هذا الذى كان يعد بدعة مشئومة ، وهى عداوة قد ترسخت عميقةً فى نفوس عدد كبير من الرهبان • وهناك سبب آخر لعله أهم الأسباب ، هو الحسد الذى كانت تثيره قداسة الشيخ التى بلغت أثناء حياته من الرسوخ أنه كان يبدو من غير الجائز أن يناقش أحد فيها • فلئن أيقظ الشيخ تعلقا عميقا به ، ولئن عرف كيف يكسب محبة عدد كبير من الرهبان برقة روحه لا بمعجزاته، ولئن أحاط به أناس أخلصوا له كل الاخلاص ، فلقد خلق من حوله ، رغم ذلك وربما بسبب ذلك ، حُسَّاداً كثيرين أصبحوا أعداء ألدّاء شيئاً بعد شيء ، فبعضهم يخفى هذه العداوة وبعضهم يعلنها • ولقد كان له أعداء من هذا النوع لا فى صفوف رهبان الدير فحسب ، بل بين غير رجال الدين أيضا • انه لم يسىء يوما الى أحـــد ، ولكن الناس كانوا يتساءلون : « لماذا يُعدُ قديساً عظيماً ؟ » • وكان هذا السؤال كافياً بترديده المستمر الى أن يخلق من حوله بغضاً لا تنطفىء جذوته • ذلكم فى رأيى هو السبب الذى جعـــل كثيرا من الرهبان يبتهجـون ابتهاجا

شديدا حين علموا أن جسمه يصدر رائحة تفسخ ، وأن هـذه الرائحة قد بدأت تصدر عن الجسم بعد برهة قصيرة ، لأنه لم ينقض على موته يوم. أما الرهبان المؤمنون بالشيخ المخلصون له ، الذين ظلوا يقدسونه الى ذلك الحين ، فقد أحسوا بحادثة التفسخ هذه نوعاً من اساءة نالتهم هم أنفسهم، واهانة لحقت بهم شخصيا . اليكم كيف جرت الأمور على وجه الدقة : منذ اللحظة التى ظهرت فيها أولى علائم التفسخ ، أصبح من اليسير على المرء أن يحزر ، من هيئة الرهبان الذين كانوا يدخلون حجرة المتوفى ، الهدف الذى دخلوا من أجله . كانوا يدخلون فيمكثون بضع لحظات ثم يسرعون خارجين ليؤكدوا النبأ لمن كانوا يزدحمون أمام الباب ؛ فبعض هؤلاء يهزون رءوسهم بحزن وأسى ، وبعضهم لا يكلفون نفسهم حتى عناء اخفاء الفرح الخبيث الذى يسطع فى نظراتهم الكارهة . ولم يخطر ببال أحد أن يؤاخذهم ، وما من صوت ارتفع يدافع عن الشيخ ، وذلك أمر يثير الدهشة فى الواقع ، لأن المعجبين بالشيخ كانوا أكثرية الدير رغم كل شىء . ولكن يظهر أن الرب كان قد قرر فى هـذه المرة أن يسمح للأقلية بالانتصار الى حين . ولم يلبث أن تدفق الى الحجرة رجال علمانيون ينتمى أكثرهم الى الأوساط المثقفة ، فاما أن الفضول هو الذى يدفعهم الى ذلك ، واما أن أصـدقاءهم قد أرسلوهم يستطلعون الخبر اليقين . أما أبناء الشعب فقد كانوا أميل الى النأى والابتعاد ، رغم أن عددا كبيرا منهم قد تجمهر على أبواب المنسك . ومهما يكن من أمر فمما لا شك فيه أن سيل الزوار العلمانيين قد ازداد ازديادا ضخما بعد الساعة الثالثة على أثر شيوع النبأ الفاضح . وهنـاك أشخاص ما كان لهـم أن يجيئوا بمناسبة وفاة الشيخ ، ولكنهم هرعوا الى الدير مع ذلك وليس لهم من هدف الا أن يتحققوا من صدق النبأ بأنفسهم ، وكان بينهم رجال من كبار موظفى الدولة . يجب أن نذكر مع ذلك أن سلوك المستطلعين

الفضوليين لمّا يعكر جو الحشمة صراحة حتى ذلك الحـــين ، فما زال الأب بائيسى يستطيع أن يتلو آيات الانجيل جهراً بلهجة ثابتة وهيئـة قاسية دون أن يبدو عليه أنه يلاحظ شيئا ، رغم أنه قد لاحظ منذ بعض الوقت أن شيئا خارقا يحدث . ولكن ها هى ذى ملاحظات قد أخذت تصل الى مسامعه . ان أصحابها يبدونها خجلة وجلة أول الأمر ، فهم يهمسون بها همساً ، غير أنها ما تنفك تلح وتتجرأ فاذا هو يسمع هـذه الملاحظة بوضوح : « يبدو أن حكم الله لا يؤيد دائما حكم البشر » . ان الذى جازف فقال هذه الكلمات أول القائلين هو رجل علمانى متقدم فى السن موظف فى البلدية يعد على جانب كبير من التقى والورع . على أن هذا الرجل لم يزد على أن كرر جهراً ما كان الرهبان يسر به بعضهم الى بعض همساً فى الآذان منذ وهلة طويلة . ان هؤلاء الرهبان لم ينتظروا طويلا من أجل أن يفصحوا عن هذه الفكرة التى تعبر عن تبدد الأوهام ، والأنكى من ذلك أنهم كانوا يفصحون عن هذه الفكرة وقـد بدت فى وجوههم امارات النصر والظفر التى كانت تزداد قوة ووضوحا من دقيقة الى دقيقة . وما لبثت مراعاة اللباقة أن زالت فكأن الجميع أصبحوا يحسون أن من حقهم أن لا يقيموا لها وزناً بعد الآن . « كيف أمكن أن يحدث هذا ؟ » كذلك كان يتساءل بعض الرهبان وهم يصطنعون فى أول الأمر هيئة الحزن فكان رهبان آخرون يسارعون الى الجواب قائلين : « لقـد كان جسمه نحيلا هزيلا معروقا ، كله عظام ، فمن أين يمكن أن تأتى هذه الرائحة ؟ » ـ « معنى ذلك أن الرب قد أراد أن يدل على عـــدم رضاه » . وكانت آراؤهم هذه تُقبل فوراً بغـــير نقاش ، لأنه اذا كان التفسخ ظاهرة طبيعية تحدث دائما بعد وفاة خاطىء فانها لا تحدث فى العـادة الا بعد أربع وعشرين ســـاعة على الأقل ، ولا تظهر بمثل هذه السرعة .

أما وأن تفسخ الشيخ قد سبق الطبيعه فلا بد أن نرى فى ذلك عملاً من أعمال الله واشارة آتية من السماء • ذلك برهان كان يبدو مفحماً • ولقد حاول الراهب الكاهن جوزيف ، أمين مكتبة الدير الدى كان صفى الشيخ وأثيره وكان رجلا دمثاً لطيفا رقيق الحاشية ، حاول أن يسوق بعض الحجج والأدلة جوابا على تلك الأقوال المسيئة • قال فيما قال : « ان هذه الآراء لا يؤخذ بها فى كل مكان وان ما يقال من أن أجساد الصالحين لا تتفسخ ليس من صلب العقيدة الأورثوذكسية وانما هو مجرد ظن • ففى مراكز الاورثوذكسية الصافية النقية مثل مونت آثوس لا يقام كبير وزن لرائحة الجثة ولا يعد عدم التفسخ علامة نهائيه على مجد القديس وانما يعتمد هنالك على لون العظام بعد أن تثوى الأجساد زمنا طويلا فى الارض وبعد أن تكون قد تفسخت فى التراب تفسخاً تاماً فاذا صارت العظام بمضى الزمن الى صفرة كصفرة الشمع كان ذلك دليلا قاطعا على أن الرب قد مجد المتوفى أما اذا أصبحت العظام سوداء استُدل من ذلك على أن الرب قد حكم على المتوفى بأنه لا يستحق ذلك الشرف ، ذلكم هو الأساس الذى يُبنى عليه الرأى فى مونت آثوس وهو مكان مقدس جدا حافظت فيه الأورثوذكسية فى كل الأزمان على صفائها ونقائها » • بذلك ختم الأب جوزيف كلامه ولكن أقوال هذا الراهب المتواضع لم تحدث أى صدى ولم تزد على أن أثارت فى أكثر تقدير ملاحظات ساخرة فقال بعض الرهبان : « تلك بدع العلماء لا نريد أن نسمعها » • وأضاف آخرون : « سوف نبقى أوفياء للتقاليد أمناء عليها والبدع كثيرة فى زماننا هذه أفينبغى لنا أن نقلدها جميعا » • وقالت طائفة ثالثة فى استهزاء : لا يقل ما كان عندنا من قديسين عما كان عند رهبان مونت آثوس وقد نسى هؤلاء كل شىء ابان الحكم التركى وفسدت الاورثوذكسية عندهم منذ زمن طويل • يضاف الى ذلك أنهم

لا يملكون حتى نواقيس » • انصرف الأب جوزيف حزينا • ثم انه لم يعبر عن رأيه بكثير من الجزم والقطع بل عبر عنـه مترددا كأنه ليس مقتنعا به كل الاقتناع هو نفسه • وما كان أشد اضطرابه اذ ثبت له أن ريح عداوة قد هبت على الرهبان وأن روح التمرد على نظام المشايخ قد عاد الى الظهور • وصمتت جميع الاصوات الرزينة المعتدلة شيئا بعد شيء على أثر هزيمة الأب جوزيف حتى لقد حدث أن أولئك الذين كانوا قد أحبوا زوسيما وكانوا قد خضعوا لنظام المشايخ بحماسة شديدة ، ذعروا على حين فجأة وأصبحوا لا يكادون يجرؤون حين يلتقون على أن يتبادلوا نظرة خجلى• أما خصوم هذا النظام الذين يصفونه بأنه بدعة مفسدة فقد شعروا بانتصار وراحوا يختالون تباهيا وها هم يقـــولون فرحين فرحاً خبيثاً : « عند موت الأب فارسونوف لم تلاحَظ علائمُ تفسخ بل كانت جثته تنشر روائح عطرة • على أنه لم يستحق نعم الرب بصفته شـيخا وانما استحقها بفضل طهارة حياته لأنه كان رجلا صالحاً » • وانطلقت الألسن من عقالها فهى لا تتردد الآن عن انتقاد الشيخ المتوفى بل وعن اتهامه فهؤلاء بعض الرهبان الأغبياء يقولون : « كانت تعاليمه خطأ • كان يزعم أن الحياة فرح عظيم لا مصدر حزن وينبوع دموع » • وهؤلاء رهبان آخرون يقولون بمـزيد من الغبـاء : « كان رجـلا عصريا • كان لا يؤمن بنار جهنم » وهؤلاء حساد يقولون : « لم يكن يتقيد بالصيام تقيداً شديداً • كان يسمح لنفسه بأكل الحلوى وكان يتناول مع الشاى مربى الكرز • كان يتلذذ بذلك • كثيرا ما كانت سيدات ترســـل اليه حلوى ومربى • أيليق بناسك أن يشرب شاياً ؟ وهؤلاء أسوأ الرهبـــان قصداً يقولون حانقين : « كان متكبراً • كان يظن نفسه قديسا • كان الناس يجثون أمامه وكان هو يقبل آيات الاحترام هـــذه ويعدها واجبا له على الآخرين » • وهؤلاء ألد أعداء نظام المشايخ يضيفون بصوت خافت ولهجة

شرسة : كان يمتهن حرمة سر الاعتراف» ان أكثر هؤلاء الأعداء الألداء لنظام المشايخ هم بين الرهبان أكبرهم سناً وأشدهم تقشفاً وأعظمهم تقيداً بكفارات الصيام والصمت • كانوا أثناء حياة الشيخ قد انتهوا الى الاذعان والرضوخ ولكنهم يطلقون الآن لأحقادهم أعنتها وذلك يثير القلق كثيرا لأن لآراءهم تأثيرا قوياً في الرهبان الشبان الذين ظلت أفكارهم في هذا المجال رجراجة • كان راهب أوبدورسك ، الراهب الصغير الوافد من سان سيلفستر ، يصيخ بسمعه الى هذه الأقوال كلها منتبهاً انتباهاً سديداً متنهدا تنهدا عميقا ، هازاً رأسه ، قائلا لنفسه : « يبدو أن الأب تيرابونت كان على حق أمس » • وهذا هو الأب تيرابونت يظهر هو نفسه على حين فجأة كأنما ليكمل اضطراب النفوس وبلبلة الأفكار •

سبق أن قلت انه كان لا يترك الا نادراً حجرته الخشبية الواقعة قرب خلية النحل وانه كان يغيب عن الكنيسة فترات طويلة • ولكن سكان الدير كانوا يغضون البصر عن اخلاله هذا بالنظام ، بحجة أنه انسان ساذج بريء والحق أنهم كانوا يعدون أنفسهم مضطرين أخلاقيا ان صح التعبير الى غض الطرف عن شذوذ سلوكه فانه ليكاد يبدو غير لائق أن يطالب ناسك كبير مثله يلزم نفسه بالصيام والصمت مدداً طويلة ذلك الطول كله ويقضي أياما كامله وليالي طويلة في الصلاة والتهجد (لقد كان يتفق له أن ينام على ركبتيه) ، أن يطالب بالخضوع للطقوس العامة والشعائر المتبعة اذا هو أراد أن يتحلل منها فلو أراد أحد أن يزعجه لقال الرهبان : « انه أقدس منا جميعا وهو يفرض على نفسه كفارات أقوى كثيرا مما نلزم به أنفسنا من فرائض فاذا لم يأت الى الكنيسة فلا شك أن هنالك أسباباً تدفعه الى ذلك• ان له فرائضه الخاصة التي يوجبها على نفسه• لذلك كان يُترك هذا المعتزل العجوز وشأنه تحاشيا لاحتجاجات الرهبان ودمدماتهم وكان معروفا لدى الناس أن الأب

تيرابونت يكره الشيخ زوسيما • ولم تلبث الشائعة التى تقول : « ان حكم الله لا يؤيد حكم البشر دائما وانه قد سبق الطبيعه فى تفسخ جثمان الشيخ » ، لم تلبث هذه الشائعه أن وصلت الى حجرته النائية المنعزله وأغلب الظن أن راهب أوبدورسك الذى زاره البارحه وخرج من عنده مذعورا كان من أوائل الذين نقلوا اليه النبأ • وقد ذكرت أيضا أن الأب بائيسى الذى ظل يتابع قراءة الانجيــــل أمام التابوت ثابت الجنان بغير اضطراب والذى كان لا يمكن أن يرى وأن يسمع من مكانه هذا ماكان يجرى خارج الغرفة ، قد حزر مع ذلك فى قرارة نفسه الشىء الأساسى مما كان يجرى خارج الغرفة لأنه يعرف الروح المسيطرة على بيئته حق معرفتها • لم يدع الأب بائيسى لنفسه أن يضطرب وانتظر ما سيحدث دون أن يرتاع متنبئاً بعواقب هذه الحركة بما أوتى من بصيرة نافذة وفكر سديد غير أن ضجه خارقة آتية من الممر قد شدت انتباهه على حين فجأة ، وهى ضجة لا يخفى فى هذه المرة أنها تنافى اللياقة • انفتح الباب على مصراعيه وظهر الأب تيرابونت فى العتبـــة • ان عددا كبيرا من الرهبـان بينهم بعض العلمانيين كانوا يسيرون وراء الأب تيرابونت ولكنهم آثروا أن يتوقفوا فى أسفل درجات المدخل فهم يـُرون من الغرفة • لقد قرروا أن لا يدخلوا الغرفة وفضلوا أن يشهدوا من بعد ما سيقوله الأب تيرابونت وما سيفعله • ذلك أنهم كانوا يتنبأون بأن الأب تيرابونت لم يجىء عبثاً وانهم ليشعرون بشىء من الارتياع رغم جرأتهم وجسارتهم • توقف الأب تيرابونت فى العتبة ورفع ذراعيه فرئيت عندئذ العينان الحادتان المستطلعتان عينا راهب أوبدورسك الصغير الذى لم يستطع مقاومة الاغراء وجازف وحده فاجتاز درجات المدخل وراء الاب تيرابونت ليرى ما سيحدث من كثب ولا كذلك الآخرون فقد تراجعوا قليلا وهم يشعرون بخوف مفاجىء حين انفتح الباب مقرقعاً • صرخ الأب تيرابونت بقوة وهو رافع ذراعه قائلاً :

ـ اخرجوا من هنا يا شياطين •

وأسرع يرسم اشارات الصليب كبيرة وهو يتجه الى جدران الغرفة الأربعة جداراً بعد جدار • ورسم اشارة الصليب كذلك أمام كل زاوية من زوايا الغرفة وسرعان ما أدرك جميع الذين تبعوا الأب تيرابونت دلالة هذه الحركة فلقد كانوا يعرفون أنه يفعل هذا دائماً فى أى مكان يذهب اليه ولا يرضى أن يقول كلمة أو أن يجلس فى قاعة قبل أن يطرد الشيطان وكان يردد كلما رسم اشارة الصليب :

ـ ابتعد أيها الشيطان ! أخرج من هنا ! غوروا أيها الأبالسة لأننى أطردكم •

هكذا كان يزأر الشيخ تيرابونت •

وكان يرتدى ثوباً خشناً يزنره حبل وكان صدره الأشيب الشعر يظهر من شق قميصه المصنوع من الخيش أما قدماه فكانتا حافتين تماماً واذا حرك ذراعيه سُمع صليل السلاسل الحديدية الثقيلة التى كان يحملها على جسمه • توقف الأب بائيسى عن القراءة وتقدم نحو الأب تيرابونت هادئاً على وضع انتظار وسأله أخيرا وهو يلقى عليه نظرة قاسية :

ـ ماذا جئت تصنع هنا أيها الأب المحترم ؟ لماذا تشوش النظام ؟ فيم بث الفوضى فى الرعية المسكينة ؟

صرخ الأب تيرابونت يقول منقلب السحنة :

ـ لماذا جئت ؟ تريد أن تعرف لماذا جئت ؟ فماذا تظن اذن ؟ لقد جئت لأطرد ضيوفكم ، لأطرد الشياطين النجسة ! أردت أن أرى هل استضفتم شياطين كثيرة فى غيابى • سأطردهم جميعا بالسياط •

أجابه الأب بائيسى هادئاً دون انفعال :

ـ تحسب أنك تطرد الشيطان مع أنك ربما كنت تخدمه !من ذا الذي يستطيع أن يقول عن نفسه انه قديس ؟ أتراك أنت أيها الأب المحترم ؟

قال الأب تيرابونت مرعداً :

ـ أنا لست بقديس قط ! أنا رجل دنس ! ولكنني أنا لا أستريح على مقاعد وثيرة ولا أحاول أن أحمل الناس على عبادتي كاله • ان الناس في أيامنا هذه يستهزئون بالدين المقدس ويجحدونه • ان صاحبكم المتوفى ، هذا القديس (كذلك أضاف يقول ملتفتاً نحو الرهبان المحتشدين عند المدخل مشيراً باصبعه الى تابوت الشيخ) كان لا يؤمن بوجود الشياطين لقد كان يصف لمن مستهم الشياطين أدوية تنظف الأمعاء فهل عجب بعد هذا أن تتكاثر الشياطين عندكم تكاثر العنكبوت في زوايا الجدران ؟ أما قديسك فانه يتفسخ الآن وتلك في نظرنا اشارة من السماء •

والحق أن في حياة الأب زوسيما حادثة من هذا النوع فان راهباً من الرهبان قد رأى الشيطان في منامه عدة مرات ثم أخذت هذه الرؤى تحاصره في اليقظة أيضا ففاتح الشيخ بذلك فنصحه الشيخ بأن يكثر من الصلاة والصيام • فلما لم تنفعه هذه الوسيلة وصف له دواء ً ونصحه في الوقت نفسه بأن لا ينقطع عن الاكثار من التعبد • وقد شُده من هذا عدد كبير من الرهبان وأخذوا يتحدثون فيه هازين رءوسهم استياءً واستنكاراً • وكان الأب تيرابونت أشدهم ثورة حين أسرع الوشاة يبلغونه بما فعله الشيخ من أمر يعد « خارقا » في حالة من هذا النوع •

قال الشيخ بائيسي بلهجة صارمة :

ـ ابتعد أيها الأب ! ان الحكم لله لا للبشر وان « الاشارة الآتية الينا من السماء » يمكن أن يكون لها معنى يفوق عقلنا فلا تستطيع أنت ولا أستطيع أنا ولا يستطيع أحد هنا أن يجازف فيؤولها • ابتعد أيها الأب وكفاك تشويشاً للرعية !

كذلك ردد الأب بائيسى ملحاً •

واستأنف الراهب المندفع يقــول وكأنه فقد كل سـيطرة له على نفسه :

ـ كان لا يعتقد بفرائض الصيام كما يليق براهب من رتبته • ذلك هو معنى الاشارة السماويه ، هذا واضح وضوح النهـار ومن الاثم أن نحاول انكاره • كان يتنعم بالحلوى التى كانت تمتلىء بها جيوب السيدات اللواتى يزرنه • كان يملأ بطنه بالشاى ويحشوه بالعصائد• أما روحه فقد كانت تفيض كبرياءً وزهوا • ذلك هو السبب فى أن الرب قد أرسل اليه هذا العار •

أجاب الأب بائيسى رافعاً صوته هو أيضا :

ـ أقوالك طائشة يا أب ! اننى لأعجب بقسوة صيامك وشدة تقـاك ولكنك ترسل الكلام جـزافا بغير روية كشاب علمـــانى يعوزه النضج والتأمل والتدبر •

وختم الأب بائيسى كلامه قائلاً بصوت مجلجل :

ـ اخرج من هنا •

قال الأب تيرابونت مرتبكاً بعض الارتباك ولكن دون أن يهـــدأ غضبه :

ـ سأمضى ! طيب ••• أنتم رجال علماء • أنتم بكبرياء عقلـكم المسعورة ترتفعون فوق بساطتى • لقد جئت الى الديرأمياً • والقليل الذى كنت أعرفه فى الماضى نسيته منذ ذلك الحين • لقد شاءت رحمة الرب نفسه أن تصوننى أنا الضعيف من دنس عقلكم •••

ظل الأب بائيسى هادئا ينتظر التتمة بصلابة وثبات •

صمت الأب تيرابونت لحظة ثم اذا بوجهه يظلم على حين فجأة و ذا به يحمل يده اليمنى الى خده ويقول بصوت ضعيف وهو ينظر الى تابوت الشيخ :

ـ غداً ينشدون له النشـــيد العظيم « ربنا هب انا من لدنك عونا وارحمنا » أما حين سأقطس أنا فسيكتفون بتلاوة آيات بسيطة قائلين كانت حياته هادئة وادعة * .

كذلك قال بصوت تخالطه الدموع وتستثير الشفقة . ثم صرخ يقول كمن جن جنونه :

ـ ضيّعتكم الكبرياء والثقة ! ما هذا المكان الا عدم !

واستدار على عقبيه فجأة وهو يحرك ذراعيه وهرول يهبط درجات السلم الصغير . ظهر التردد على الجمهـــور الذى كان ينتظره تحت ثم تبعه بعضهم فورا وتوقف آخرون اذ رأوا أن باب الغرفة قد ظل مفتوحا وأن الأب بائيسى الذى شـــيع الأب تيرابونت الى درجات المدخل كان يلاحظهم صامتا ولكن العجوز المنـــدفع المتحمس لم يكن قد أفرغ كل ما فى جعبته فها هو ذا يتوقف بعد أن سار عشرين خطوة ويلتفت نحو الشمس الغاربة رامياً ذراعيه فى الهواء ثم يتهاوى على الأرض كأن قوة خفية قد حصدته :

ـ انتصر ربى ! تغلب المسيح عند غياب الشمس .

كذلك زأر يقول بصوت مسعور وهو يمد ذراعيه نحو الكوكب .

ثم جعل وجهه الى الأرض وأخذ يبكى بكاء طفـــل مهتز الجسم محركاً ذراعيه كأنما ليعانق الأرض . هرع الجميع اليه وسُمع صراخ وسمع بكاء عطف فكأن حمياه قد انتقلت الى الجمهور . وهتفوا يقولون من كل جهة من الجهات بغير تحفظ ولا اعتدال :

ـ هذا هو القديس الحق • هذا هو الصالح الحق •

وأضاف آخرون يقولون بغضب شديد :

ـ اليه انما يجب أن تسند المشيخة •

فبادرت أصوات أخرى تقول على الفور :

ـ لن يقبل أن يصبح شيخا • سيرفض هـو نفسه • لن يرضى أن ينضم الى هذه البدعة اللعينة • ما هو بمن سيقلد هذا الجنون •

لا يدرى أحد بماذا كان يمكن أن ينتهى هذا كله لو أن الناقوس لم تدوّ أصـواته فى تلك اللحظة منـادية الرهبـان الى القداس • رسم الجميع اشارة الصليب ونهض الأب تيرابونت ورسم اشارة الصليب كبيرةً عريضة ليحمى نفسه من الشر الخفى واتجه نحو غرفته دون أن يلتفت وهو يطلق صرخات مضطربة لا اتساق فيها • تبعته قلة قليلة من الرهبان ولكن أكثر الرهبان تفرقوا مسرعين الى العبادة • وعهد الأب بائيسى الى الأب جوزيف باتمام القراءة وابتعد هو أيضاً • ان الصرخات المحمومة التى أطلقها المتعصبون لم تستطع أن تهزه كثيرا ومع ذلك شـعر بحزن خاص يغزو قلبه فجأة فدهش من هذا ووقف يتساءل : « ما مصدر هذا العناء الذى يرهقنى » • فما كان أشدّ استغرابه حين أدرك فورا أن سبب ذلك انما هو حادث يبدو فى الظاهر تافهاً لا قيمة له : فبين صفوف الجمهور الذى كان يضطرب منذ هنيهة عند مدخل الغرفة لاحظ الأب بائيسى وجـود أليوشا الذى كان يبدو مضطربا اضطرابا شديدا منفعلا انفعالا قويا (انه يتذكر هذا الآن) فشعر من ذلك بما يشبه ألماً يطعن قلبه • تساءل الأب بائيسى مدهوشا دهشة قوية : « هل يمكن حقا أن يكون هذا الشاب قد احتل كل هذا المكان فى نفسى ؟ » • وفيما هو يتساءل هذا التساؤل مر أليوشا غير بعيد عنه • كان يغذ الخطى ولكنه لم يكن متجهاً نحو الكنيسة•

التقت نظراتهما فسرعان ما أشاح أليوشا عينيه وخفضهما نحو الأرض وأدرك الراهب العجوز من النظر الى هيئة الفتى وحدها ما كان يجرى فى نفسه من تبدل .

هتف الأب بائيسى يسأله :

ــ أتراك تركت لنفسك أن تهتز وتضطرب أنت أيضا ؟

ثم أضاف يقول بمرارة :

ــ أتراك انضممت الى صف الذين يشكون ؟

توقف أليوشا وألقى على الأب بائيسى نظرة مترددة ثم أشاح عينيه وأطرق الى الأرض من جديد . لقد وقف مواربا ليتحاشى نظرة محدثه وجهاً لوجه . وكان الأب بائيسى يرقبه بانتباه .

قال الأب بائيسى :

ــ الى أين أنت ذاهب ؟ هذه ساعة القداس .

ولكن أليوشا ظل لا يجيب . وتابع الأب بائيسى أسئلته :

ــ ألعلك تترك الدير ؟ أبدون أن تنبئنا ! أبدون أن تتلقى المباركة ؟

فاذا بأليوشـــا يطلق على حين فجأة ضحكة صـــغيرة مصنوعة ، ويشخص ببصره الى الراهب الذى كان يسأله . ان هناك شيئاً غريبا بل غريبا جدا فى النظرة التى ألقاها فى تلك اللحظة على الرجل الذى عهد به اليه أثنـــاء موته مرشـــده الروحى المتوفى ، معلم قلبه وفكره ، شيخه المحبوب . ها هو ذا يحرك يده فجأة ، دون أن يجيب ، باشارة تنم عن أنه أصبح لا يهمه أن يرعاه أحد . ثم اتجه نحـــو مخرج المنسك بخطى سريعة .

دمدم الأب بائيسى يقول بصوت خافت وهو يتابعه بنظره مدهوشاً دهشة أليمة :

ــ ستعود .

٢

دقيقة كهذه الدقيقة

لا شك في أن الأب بائيسى لم يخطىء حين قدر أن « ابنه العزيز » سيعود ؛ حتى لقد فهم فيما يبدو (لا فهماً كاملاً والحق يقال ، لكنه فهم فيه كثير من نفاذ البصيرة) الحالة النفسية التي كان عليها أليوشا . ولكن يجب علىّ أن أعترف مع ذلك بأنني لو أردت أن أشرح على وجه الدقة معنى تلك الدقيقة الغريبة المبهمة من الحياة الداخلية التي عاشها بطلي الذي أحبه كثيرا والذي ما يزال في ريعان الشباب ، لكان ذلك صعبا علىّ كل الصعوبة . انني أستطيع طبعا أن أجيب عن ذلك السؤال المرير الذي ألقاه عليه الأب بائيسى «أتراك أصبحت في صف من يشكون؟»، أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال واثقاً : « لا ، انه لم يكن يشك ! » . وأكثر من ذلك أن اضطرابه كان يعبر عن نقيض هذا تماما : لئن شعر بقلق فذلك لأن ايمانه كان كبيرا . لقد قلق أليوشا قلقا شديدا ، وبلغ قلقه من الايلام أنه ظل بعد سنين طويلة بعدُ ذلك اليوم المشئوم أزخر أيام حياته بالألم والحزن . ولو سئلت : « هل يمكن حقا أن يشعر بكل ذلك الحزن والقلق لا لشيء الا لأن جثمان شيخه قد فسد قبل الأوان بدلا من أن يحقق معجزات شفاء ؟ » ، لأجبت بغير تردد : « نعم ، ذلك بعينه هو سبب حزنه » . ولكنني أرجو القارىء مع ذلك أن لا يتسرع

كثيرا فيستهزىء بصفاء قلب بطلى . لست أميل من جهتى الى أن ألتمس له سماحة القارىء ، أو أن أنتحل لايمانه الساذج عذرا من شبابه أو نقص دراسته أو قلة ما حصّل من تقدم فى العلوم فى المدرسة ، بل أقف الموقف المضاد بغير تردد فأقول : انني أشعر نحو بساطته باحترام كبير. صحيح أن شبابا غيره ، شبابا أكثر تعقلاً وأشد حذرا فى اندفاعات روحهم ، شبابا يحبون حبا حاراً ولا شك ، غير أنهم يحبون بغير هوى شديد ، شبابا يحسنون التحكم بحركات قلبهم فى ذكاء واثق مستقيم لكنه مع ذلك مسرف فى التعقل اذا قيس بأعمارهم (وهو تبعا لذلك ضئيل القيمة) ، واضح أن شبابا كهؤلاء كان يمكن أن يتقوا الاضطراب الذى وقع فيه بطلى . ولكن لأن ينساق المرء أحيانا مع اندفاع قد يكون طائشا ولكنه مستلهم من حب كبير ، فذلك فى رأيى أنبل وأكرم من أن يكون عاجزا عن الشعور بمثل هذه العواطف . وهذا يصدق خاصةً على الشباب ، لأن الشاب الذى يفرط فى التروى لا يوحى بثقة عميقة وليس له قيمة كبيرة . ذلك رأيى أنا على الأقل . رب أناس رصينين يعترضون قائلين : « فالى أين نصير اذا آمن جميع الشباب بمثل هذه الآراء ؟ ليس صاحبك أليوشا بمن تضرب به مثلاً أو تقدمه قدوة » . وانى لأجيب هؤلاء قائلاً : « لقد كان أليوشا يؤمن بحرارة وحماسة ، كان يؤمن ايمانا مقدسا لا يتزعزع ، ولكن ليس يخطر ببالى أن ألتمس له بسبب ذلك أعذارا . . . »

ومع ذلك ... مهما أؤكد (وربما كنت فى هذا التأكيد مفرطاً فى التسرع) اننى لن أحاول أن أسوّغ سلوك بطلى أو أن ألتمس له الأعذار ، فاننى أرانى مضطرا ، رغم كل شىء ، الى أن أقدم بعض الايضاحات تسهيلاً لفهم قصتى . اليكم ما أريد أن أقوله : ليس غياب المعجزة هو ما أسلم أليوشا للاضطراب . ان أليوشا لم ينتظر ، نافد

الصبر ، ظهورَ ظاهرة فوق الطبيعة ، عن خفة وطيش . انه لم يكن في حاجة الى ذلك لثبوت صدق اعتقاده ثبوتا مظفرا (لا هذا على كل حال)، ولا ليتاح لفكرة قائمة في ذهنه أن تنتصر بمزيد من السهولة على رأى يعارضها . أبدا ! ان ما كان يعنيه في هذا الأمر قبل كل شيء آخر ، بل ودون كل شيء آخر ، انما هو مصير انسان ، مصير هذا الانسان وحده، أعني شخص الشيخ الذى كان أليوشا يحبه ، شخص الرجل الصالح الذى كان أليوشا يعجب به ويبجله . ان ما في قلبه الفتي من قدرة على الحب ، وان ما كان يشعر به نحو « جميع الأشياء وجميع الناس » من مودة وعاطفة وحنان ، قد تركز في تلك الفترة ، أعني أثناء تلك السنة ، على انسان واحد هو شيخه الحبيب الذى مات الآن ولكنه كان قد أصبح - ربما بشيء من الافراط - القطب الوحيد الذى يجتذب أعمق عواطفه. صحيح أن هذا الشيخ ظل يتجسَّد في نظره أرفع مثل أعلى انساني ، خلال مدة بلغت من الطول أن قوى طبيعته الشابة وأشـــواق نفسه كان لابد أن تتجه الى الشيخ وحده حتى لتنسيه في بعض الأحيان « جميــع الأشياء وجميع الناس » (سوف يتذكر فيما بعد أنه في ذلك اليوم الحزين قد نسي نسيانا تاما أخاه دمترى الذى كان يرغب أمس في رؤيته ، رغبة حارة قوية ؛ كما أن القرار الذى اتخذه أمس والذى يحرص عليه أشد الحرص ، وهو أن يرد الماتتي روبل الى والد ايليـــوشا ، قد غاب عن ذهنه تماما) . ولكنني أعود فأقول مرة أخرى : ليست المعجزات هي ما كان أليوشا في حاجة اليه ، وانما كان أليوشا في حاجة الى « عـدالة عليا » ، وهذه العدالة العليا قد أوذيت في نظره ايذاءً شديدا . فهـذا لا غيره هو ما كان يؤلم قلب أليوشا ايلاما قاسيا . لقد كان هـذا طعنةً موجعة رهيبة . ليس بالأمر المهم أن تكون هذه « العدالة » قد ترجمت في ذهنه ، بتأثير البيئة الطبيعي ، توقعاً لمعجـــزة لا بد أن تتحقق قرب

جثمان القائد الروحي الذى كان يبكيه . ألم تكن هذه المعجزة هي ما يأمله جميع الناس فى الدير ، وفى طليعتهم أولئك الذين كان أليوشا يعترف بتفوقهم العقلى عليه ، كالأب بائيسى مثلاً ؟ لذلك لم يتردد أليوشا فى أن يعبِّر عن أمله على نحو ما كانوا يعبرون ، دون أن تشوشه شكوك أو تأملات . وقد نضج هذا التوقع فى نفسه خلال سنة كاملة عاشها فى الدير حتى أصبحت طبيعية كعادة . ولكن ظمأه كان الى عدالة لا الى معجزات ! وهذا هو الانسان الذى كان فى عاطفة أليوشا فوق جميع البشر فى العالم بأسره يتجلل بالعار فجأة ويسقط فى الخزى بدلاً من أن ينال المجد الذى يستحقه ! لماذا ؟ من هو القاضى الذى اتخذ هذا القرار وأصدر هذا الحكم ؟ من الذى يمكن أن يكون قد اتخذ هذا القرار حقا ؟ تلكم هى الأسئلة التى داهمت نفسه البريئة التى تعوزها الخبرة والتجربة وأخذت تسومها سوء العذاب . كان لا يطيق ، دون أن يشعر بالمذلة ودون أن يعصف به الغضب ، أن يرى أصلح الصالحين فريسة استهزاء شرير وتهكم خبيث يصبه عليه جمهور طائش هو دونه كثيرا . كان يمكن أن يقبل أن لا تحدث أية معجزة وأن لا يقع أى شيء خارق للطبيعة ، تلبيةً لما يتوقعه جميع الناس . ولكن لماذا يجلّل الشيخ بالخزى والعار ، لماذا هذا التفسخ الذى يحدث قبل الأوان ، و « يسبق الطبيعة » كما كان يقول الرهبان الأشرار ؟ هل كان ضروريا أن تُهيأ لهؤلاء الأشرار فرصة أن يروا فى هذا التفسخ « اشارة » يسارعون الآن الى تأويلها كما يحبون ويشتهون وراء الأب تيرابونت ؟ ومن ذا الذى خوّلهم الحق فى أن يعمدوا الى استدلالات من هذا النوع ؟ أين العناية الالهية فى هذا كله وأين يد الله ؟ لماذا امتنع الرب عن التدخل فى اللحظة التى كان فيها تدخله ألزم ما يكون وأوجب ما يكون (فى رأى أليوشا)

حتى لكأنه استسلم هـــو نفسه أمام قوى الطبيعة المـــاديه العمياء التى لا ترحم ؟

ذلكم ما كان ينزف منه قلب أليوشا • كان فى تلك الساعة ، كما سبق أن قلت ، لا يفكر الا فى ذلك الانسان الذى هو أحب انسان الى قلبه فى العالم ، وهـــذا الانسان هو من جُلِّل بالخـزى والعار الآن ، وغُضَّت قيمته وأُنزل الى الدرك الأسفل • اننى أسلم بأن هذا الفتى قد برهن ، حين كان يدمدم هذه الدمدمة ، على أنه طائش العقل مخطىء الرأى ، ولكننى أعود فأقول مرة ثالثة (ولتتهمونى بخفة العقل أيضا اذا شئتم) : اننى ليسعدنى أن أليوشا قد أعوزه القصد والاعتدال فى تلك الساعة من حياته ، لأن العقل يستيقظ دائماً فى وقت مبكر لدى الانسان الذى لم يُحرم من الذكاء ، فاذا لم يتغلب عليه الحب فى مثل هذه اللحظة فى قلب فتىً مراهق ، فمتى عساه ينتصر فى هـــذا لعالم ؟ على أننى لا أستطيع أن أصمت عن عاطفة أخرى غامضة مضطربة قد مست نفس أليوشا مساً عابرا فى تلك الدقيقة القلقة الأليمة من حياته • ولعل كلمة « عاطفة » ليست هى الكلمة المناسبة • هو « شىء » كان يندبه ، هو شعور شاق مرتبط بذكرى الحـــديث الذى قام أمس بينه وبين ايفان والذى يعاود فكره فى هذه اللحظة الحرجة بالحاح محاصر • لست أُعنى قط أن عناصر ايمانه الأساسية ، الفطرية ان صح التعبير ، قد أُصـــابها أى تزعزع ••• لا ••• انه يحب الهه الآن كما كان يحبه من قبل ، وانه ما يزال يؤمن بالهه وان كان يدمدم متذمراً فى بعض اللحظات • ولكن ذلك الاحساس المقلق السىء الذى شعر به بعد ذلك الحديث رأساً قـد استيقظ الآن فى نفسه من جديد ، وأخذ يحاول الخـروج الى سـطح شعوره بقوة ما تنفك تتزايد •

هبط المساء أثناء ذلك ، وخيَّم الظلام • وهذا راكيتين الذى كان

يجتاز غابة الصنوبر ليذهب من الصومعة الى الدير يلمح أليوشا على فجأة ، مستلقيا تحت شجرة ، جاعلاً وجهه الى الأرض ، ساكناً لا ي فكأنه نائم • اقترب ر كيتين منه وناداه :

ـ أهذا أنت يا ألكسى ؟ أيمكن حقا أن •••

كذلك قال راكيتين مدهوشا ؛ ولكنه أمسك فجأة عن الكلا أن يتم جملته •

كان يريد أن يقول : « أيمكن حقا أن تصير من ذلك الى ه الحال ؟ » •

لم يرفع أليوشا عينيه نحو راكيتين، ولكن راكيتين أدرك من يسيرة تحركها جسم أليوشا ، أن أليوشا قد سمعه • استأنف ي يقول وقد أخذت الدهشة التى يعبر عنها وجهه تستحيل شيئا فشي ابتسامة ساخرة :

ـ ماذا بك ؟ ماذ دهاك ؟ اسمع يا أليوشا ! اننى أبحث عنـك ساعتين فى كل مكان • لقد اختفيت من هناك بغتة • فماذا تصنع أهى سخافة جديدة ؟ أنظر الى على الأقل •••

رفع أليوشا رأسه ، وجلس مسنداً ظهره الى الشجرة • لم يبكى ، ولكن الألم كان يُقرأ فى قسمات وجهه ، وكان فى عينيه على أنه لم يكن ينظر الى راكيتين وانما هو يحدّق الى شيء فى - قال راكيتين :

ـ هل تعلم أن وجهك قد تغير تمـاما ؟ لم يبق فيه أثر من الودعة التى كنت توصف بها ؟ أتراك غاضبا من أحد ؟ هل أساء أحد ؟

قال أليوشا دون أن ينظر اليه أيضا ، قال وهو يحرك يده باشارة تعبر عن التململ والتبرم :

ـ انصرف !

قال راكيتين :

ـ أوه ! أوه ! أهكذا أصبحنا الآن اذن ؟ نغضب ونصرخ كسائر الناس ! عجيب ! من ذا الذى يمكن أن يصدق صدور هذا عن مثل هذا الملاك ؟ طيب يا أليوشا ... فى وسعك أن تعتز بأنك أدهشتنى ... أقول لك هذا صادقا كل الصدق . لقد أصبحت منذ زمن طويل لا أدهش من شىء هنا . على أننى كنت أظنك انسانا مثقفا ...

أخيرا رفع أليوشا اليه عينيه ، غير أن فى هيئته الآن ذهولاً فكأنه لم يفهم جيدا ما قاله صاحبه . وعاد راكيتين يهتف قائلا وقد استبدت به دهشة شديدة من جديد :

ـ أكلُّ هذا لأن صاحبك العجوز قد مات ؟ أكنت تظن حقاً اذن أنه كان سيحقق معجزات ؟

فصرخ أليوشا يقول بصوت حانق :

ـ كنت أظن ، وما زلت أظن ، وأريد أن أظن ، وسأظل أظن ! ... أيكفيك هذا الآن ؟

ـ ولكننى لا أريد شيئا يا عزيزى ! عجيب ! ان صبياً فى الثالثة عشرة من عمره لا يؤمن بهذه الأمور فى أيامنا هذه . لك ما تشاء على كل حال ... هأنت ذا اذن غاضب من الله ، ثائر عليه ثورة معلنة ! كموظف مستاءٍ من أنه نُسى عند ترفيع ، أو حرم من وسام فى احتفال! هذا أنتم ! ...

تفرس أليوشا في راكيتين طويلاً ، وهو مغمض عينيه نصف اغماض ، وومض في عينيه برق ... غير أن هذا ليس الآن حنقاً وغيظا من راكيتين . ثم قال وهو يحمل نفسه على الابتسام :

ـ لست ثائرا على الهي ، ولكنني « أرفض قبول الخليقة » . ذلك كل شيء .

فكر راكيتين لحظة في هذا الجواب ثم سأله :

ـ ترفض ؟ ماذا تعني ؟ ما هذا الكلام المضحك أيضا !

لم يجب أليوشا . قال راكيتين :

ـ كفانا كلاما في ترهات . لنفكر في الأمور الهامة : هل أكلت اليوم ؟

ـ لا أتذكر ... يبدو أنني أكلت ...

ـ تدل هيئتك على أنك في حاجة الى استرداد قواك . ان منظرك يثير الشفقة عليك . قيل لي انك لم تنم طول الليل . يظهر أنكم قد عقدتم اجتماعا كبيرا . ثم حدث ذلك الهرج كله ، وقامت تلك الاحتفالات والطقوس كلها ... ان في جيبي بعض المقانق ، حملته احتياطا حين جئت الى هنا . ولكن أظن أنك لا تأكل المقانق ، أليس كذلك ؟

ـ هات المقانق .

ـ هيه هيه ... هذا أمر جديد ... هذه ثورة أصولية ، ثورة بمتاريس ! هِمْ ... ما هذا بقليل أيها الأخ ، هل تعلم ؟ طيب ... تعال معي الى بيتي ... أنا أيضا في حاجة الى قليل من الخمرة ... انني مرهق ... أنت لا تشرب خمرة ، أليس كذلك ؟ اللهم الا أن ..

ـ سأشرب خمرة •

قال راكيتين وهو ينظر الى صاحبه مدهوشا :

ـ هه ؟ ••• هذا كثير ••• المقانق سلمنا بها ••• ولكن أخمرة أيضا ؟ هذه أمور عظيمه حقا • يجب أن لا تفوت الفرصة • هيا بنا !

نهض أليوشا دون أن ينطق بكلمة ، وتبع راكيتين •

ـ لو علم أخوك ايفان بهذا لدهش هو • بالمناسبة : لقد سافر ايفان فيدوروفتش الى موسكو هذا الصباح ، هل كنت تعرف ذلك ؟

قال أليوشا بغير اكتراث :

ـ أعرفه •

وانبثقت صورة دمترى فجأة فى خياله ، ولكنها لم تلبث فيه الا لحظة قصيرة • لقد أحس احساسا غامضا بوجود أمر مستعجل لا يحتمل أى ابطاء ، هو التزام أخلاقى ، هو واجب رهيب يجب أن يقوم به ، ولكن هذه الذكرى لم تُخرجه من خدره ؛ لقد اجتازت فكره دون أن تبلغ قلبه ثم لم تلبث أن بارحته • ومع ذلك فان هذه الواقعة التفصيلية ستعاود ذاكرته كثيرا فيما بعد •

ـ لقد نعتنى أخوك المهذب اللطيف ايفان ذات مرة بقوله « تافه ليبرالى لا موهبة له » • أما أنت فقد أسمعتنى فى يوم من الأيام أننى أفتقر الى « الاستقامة » • طيب ! سنرى قريبا ما قيمة مواهبكم واستقامتكم أنتم (أضاف راكيتين قوله هذا هامسا كأنه يخاطب نفسه) •

ثم أردف يقول بصوت عالٍ :

ـ لنتحاش المرور بالدير ولنتجه رأسا الى المدينة مجتازين الممر

الضيق ... هيم ! وسأثب لحظة الى منزل السيدة هوخلاكوفا أثناء الطريق . تصور أننى قصصت عليها تفصيلا كل ما جرى هنا ، فاذا هى تجيبنى منذ قليل فى بطاقة كتبت عليها بالقلم الرصاص (هذه السيدة تعشق كتابه البطاقات) : « انها ما كان لها أن تتوقع من عجوز مبجّل كالشيخ زوسيما ... أن يصدر عنه ... مثل هذا السلوك ! ... » . هذا ما كتبته بالحرف : « السلوك » ! هى أيضا حاقدة عليه شخصيا بسبب ما وقع . هذا أنتم !

قال راكيتين ذلك ثم صاح فجأة يقول وقد توقف عن السير ، وامسك أليوشا من كتفه ، وحدّق اليه بعينين متفرستين :

ـ هل تعلم يا أليوشا ؟

لقد استبدت براكيتين فى تلك اللحظة فكرة جديدة انبثقت فى ذهنه ؛ وكان واضحا رغم هيئته الضاحكة أنه ما زال لا يجرؤ أن يعبر عنها من فرط ما يصعب عليه أن يصدق ما كان عليه أليوشا من حالة نفسية هى فى نظر راكيتين خارقة غير متوقعة .

وعزم أمره أخيرا فقال بصوت متردد غير مطمئن :

ـ أليوشا ، عزيزى ! هل تعلم أين يجب علينا أن نذهب كلانا أولاً ؟

ـ نذهب الى حيث تشاء . يستوى عندى كل شىء .

فقال راكيتين وهو يرتجف لهفه وخشية :

ـ لنذهب الى جروشنكا ! هل توافق ؟

فأجاب أليوشا هادئاً بغير تردد :

ـ لنذهب الى جروشنكا اذا أردت !

كاد راكيتين أن يثب الى وراء من فرط ما بدت له هـــذه الموافقة السريعة مستغربة • وصاح يقول مذهولا :

ـ هكذا ؟ عظيم ! •••

ولكنه لم يلبث أن ثاب الى نفســـه ، فأمسك أليوشا من ذراعه ، وأسرع يجره نحو الممر الضيق ، خشية أن يتراجع أليوشا عن قراره• وسارا صامتين ، لأن راكيتين يتحاشى الآن أن يفتح فمه مخافة أن يعكّر ما كان عليه أليوشا من حسن الاستعداد والقبول • غير أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يدمدم بعد لحظة قائلا :

ـ ما أعظم ما ستشعر به جـــروشنكا من سرور برؤيتك ! أوه ! لسوف تكون سعيدة !

ولكنه سرعان ما صمت •

على أن راكيتين لم يحاول أن يجذب أليوشا الى منزل جروشنكا ليسر جروشنكا • ان راكيتين رجل جاد ، فهو لا يحاول أمراً من الأمور دون أن يرى فيه نفعاً له • ولقد كان فى تلك اللحظه يخضع لباعثين اثنين • فأما الباعث الأول فهو أنه يحب أن ينتقم : انه يريد أن يشـــهد « تدنس الرجل الصالح » ، انه يريد أن يرى « سقوط » أليوشا من « القداسة الى الاثم » ، وذلك أمر كان راكيتين يتلذذ به منذ الآن • وأما الباعث الثانى فهو هدف مادى سيحقق له ربحاً كبيراً ، وسنأتى على ذكره فيما بعد •

قال راكيتين فى سره وهو يشعر بفرح خفى خبيث : « اذن لقــد جاءت دقيقة كهذه الدقيقة فى حياته • ويجب أن لا نفوت هذه الدقيقة ، لأنها تعدنا بمنافع كثيرة وفوائد جمة » •

٣

البصلة

تقيم جروشنكا في قلب المدينة قرب «ميدان الكنيسة» في منزل المرأة موروسوفا ، وهي أرملة تاجر أجّرت جروشنكا جناحا مبنيا من خشب في فناء منزلها ؛ والمنزل من حجر ، وهو واسع له طابق فوق الطابق الأرضي ، لكنه متسخ ليس في مظهره كثير من رواء . وصاحبته العجوز تعيش فيه وحيدة مع قريبتين لها طاعنتين في السن هما أيضا ؛ وهي تملك من الثراء ما كان يمكن أن يعفيها من تأجير جناح الفناء ، والناس في المدينة يعلمون جميعا أنها لم تقبل سكنى جروشنكا في منزلها (منذ أربع سنين) الا ارضاءً لقريبها التاجر سامسونوف الذي يميل الى الشابة ويرعاها ويحميها . والناس في المدينة يؤكدون أن العجوز الغيور على الشابة ، انما أراد في أول الأمر حين أسكن أثيرته في منزل موروسوفا ، أن يجعلها تحت اشراف العجوز اليقظة التي كلفها بأن تراقب سلوكها . ولكن سرعان ما ظهر أن هذا السلوك ليس في حاجة الى أن يراقَب ، وقد أصبحت العجوز آخر الأمر لا تهتم بجروشنكا ، ولا تراها الا نادرا ، ولا تزعجها بالسؤال تلو السؤال من باب البحث والتقصي والتفتيش . ولقد انقضت الآن أربع سنين على اليوم الذي جاء فيه التاجر العجوز الى هذا المنزل بالصبية الخجول التي لا يزيد عمرها على ثمانية عشر عاما ، والتي لقيها في مركز الاقليم وكانت عندئذ نحيلة الجسم ضعيفة البنية

كثيرة الوجوم حزينه النفس • ان مياهاً كثيرة قد جرت تحت الجسور منذ ذلك اليوم • وكان الناس فى مدينتنا لا يعرفون الا أشياء قليلة عن ماضى الفتاة ، وكان ما يرددونه من معلومات عنها تعوزه الدقة ويعوزه الوضوح ، ولم تزدد هذه المعلومات بعد ذلك كثيرا ، حتى فى العهد الذى أصبح فيه أمر « الحسناء الرائعة » ، أجرافين ألكسندروفنا ، يهم عدداً كبيراً من الاشخاص عندنا • كان يقال ان ضابطا مجهولاً قد أغراها وأغواها فى السنة السابعة عشرة من عمرها ، ثم لم يلبث أن هجرها وسافر وتزوج غيرها ، فتركت الصبية الشقية للعار والبؤس • وكان يزعم أيضا أن جروشنكا ، رغم أن التاجر العجوز يعيلها ، انما تنتمى الى أسرة محترمة من رجال الدين ، وانها بنت قسيس كان محالاً على الاستيداع ، أو كانت تقال أشياء من هذا القبيل • المهم ان اليتيمة الحساسة المذلة المسكينة قد استحالت فى غضون أربع سنين الى حسناء روسيه بضه الجسم ، زاهيه الألوان ، جمة النشاط ، جريئة جسور ، لا تخلو من وقاحه ، حاذقة فى شئون الأعمال ، شرهة الى المال ، بخيلة حذرة فى آن واحد • وكان يقال أيضا انها استطاعت خلال هذه المدة القصيرة أن تجمع رأس مال صغيرا ، بوسائل ليست شريفة أمينة دائما • على أن هناك أمرا يجمع الناس عليه : هو أن جروشنكا امرأة يستحيل نيلها ، فما من رجل واحد باستثناء حاميها العجوز ، استطاع أن يتباهى بأنه حظى منها بشىء خلال تلك السنين الأربع • والأمر محقق لا ريب فيه ، ذلك أن رجالاً كثيرين قد سموا الى الحظوة بنعمها ، ولا سيما فى السنتين الأخيرتين ، فلم يظفر أحد منهم بطائل ، وباءت جميع محاولاتهم بالاخفاق ، حتى أن بعضهم قد اضطر الى الانسحاب وهو موضع هزء وتهكم بسبب ما تتصف به السيدة من عزيمة صلبة وروح ساخرة • وقد عرف أيضا أنها أصبحت تهتم بالأعمال ، ولا سيما منذ

سنة ، وأنها تبذل فيها مقدرات كبيرة وتبرهن فيها على كفاءات عظيمة ، حتى أن كثيرا من الناس أصبحوا يصفونها بقولهم «يهودية» • ليس معنى هذا أنها كانت تقرض بالربا ، ولكن عُرف مثلاً أنها كانت تشترى بالاشتراك مع فيدور بافلوفتش كارامازوف سندات قديمة بعشر قيمتها ثم تتوصل بعد ذلك الى تحصيل قيمتها كاملةً ، أيّ تتقاضى مبالغ تساوى عشرة أضعاف ما دفعت • وكان العجوز سامسونوف الذى تورمت ساقاه وأصبحتا عاجزتين عن الحركة منذ عام ، رجلاً أرمل يضطهد أبناءه ويسومهم سوء العذاب ، ولكنه يملك عدة مئات من ألوف الروبلات ؛ ومع ما يتصف به من بخل وقسوة لا ترحم ، فقد وقع تحت تأثير الفتاة التى كان لا يمن عليها فى أول الأمر الا بما « يسد الرمق » أو بما يوجبه « الصيام الكبير » على حد تعبير الساخرين المستهزئين ، الى أن استطاعت جروشنكا أن تتحرر ، ولا سيما بفضل ما أوحته اليه من ثقة عظيمة بوفائها له • ان هذا العجوز ، وهو رجل من كبار رجال الاعمال (ولقد توفى منذ زمن طويل) كان له طبع خاص أهمُّ ملامحه البخل والقسوة الشديدة • فرغم ما كان لجروشنكا من تأثير كبير عليه ــ حتى أصبح لا يستطيع الاستغناء عنها ــ فانه لم يترك لها مالاً كثيرا ؛ ولو قد هددته جروشنكا بالقطيعة لما تزحزح عن موقفه فى هذا المجال • على أنه قد أعطاها أثناء حياته مبلغا غير كبير من المال ، فلما علم الناس فى المدينة بذلك دُهشوا جميعا • قال لها وهو يعطيها ثمانية آلاف روبل « أنت امرأة ذكية ، فسوف تعرفين كيف تربين هذا المبلغ باستثماره • ولكن اعلمى اننى ، عدا ما أنفقه عليك لا عالتك التى سأستمر فى تأمينها ، لن أعطيك شيئا أثناء حياتى ، ولن أوصى لك بشىء فى وصيتى بعد مماتى »• وقد تمسك الرجل بقوله : مات تاركا كل ثروته لأبنائه الذين عاملهم أثناء حياته ، هم وزوجاتهم ، معاملة الخدم • أما جروشنكا فقد أبى حتى

أن يأتى على ذكرها فى وصيته • هذه التفاصيل كلها قد عُرفت فيما بعد• ولكن الرجل قد ساعد جروشنكا فى مقابل ذلك بنصائحه فى استثمار رأس مالها الشخصى الصغير » ، ودلّها مراراً على أعمال رابحة وصفقات نافعة • فلما تولّه فيدور بافلوفتش بحب جروشنكا التى عرفها بمناسبة صفقة طارئة ، ولما انتهى به الأمر على نحو لم يكن فى حسبانه هو نفسه الى الهيام بها هياماً أفقده كل عقله تقريباً ، فان العجوز سامسونوف الذى كان مريضاً جداً وكان يشارف على نهايته ، لم يزد على أن ضحك من ذلك • ان من الأمور البارزة أن جروشنكا كانت صريحة مع العجوز صراحة تامة طوال مدة العلاقة بينهما ؛ ويبدو أن العجوز كان هو الانسان الوحيد الذى تعامله جروشنكا هذه المعاملة وتصارحه هذه المصارحة • ولكن حين توله دمترى فيدوروفتش آخر الأمر هو أيضاً بجروشنكا ، انقطع حاميها العجوز عن الضحك ؛ بل لقد اعتقد أن من واجبه أن ينبه المرأة الشابة ناصحاً محذرا ، فقال لها بلهجة جادة قاسية : « اذا كان عليك أن تختارى بين الاثنين ، الأب وابنه ، فاختارى الأب ، ولكن على شرط أن يتعهد الوغد بزواجك وأن يهب لك مبلغاً مناسبا منذ البداية • أما الكابتن ، فدعيه ، لأنه لا يناسبك • • » • بهذا خاطب العجوز المحب لملذات الحياة صاحبته جروشنكا بينما كان يحس بوشك نهايته ، ولقد مات فعلاً بعد ذلك بخمسة أشهر • ولنذكر عابرين أن أحداً من الناس لم يكن يعرف على وجه الدقة ماذا كان موقف جروشنكا من كارامازوف الأب وكارامازوف الابن ، رغم أن أشخاصا كثيرين كانوا فى ذلك الوقت على علم بالمنافسة الفظيعة بين الأب وابنه على الفوز بحظوة المرأة الشابة • أما خادمتا جروشنكا فقد شهدتا فى الدعوى (بعد الكارثة التى سنتحدث عنها فيما بعد) أن آجرافين ألكسندروفنا لم تكن تستقبل دمترى فيدوروفتش الا خوفاً ، لأنه كان قد « هدّد بقتلها » • ان لجروشنكا خادمتين : احداهما

طباخة هرمة جدا كانت فى الماضى تخدم أسرتها وهى الآن مريضة وتكاد تكون صماء ، والثانية فتاة لطيفة فى العشرين من عمرها كانت بمثابة وصيفة لها ، وهى حفيدة الطباخة العجوز . وكانت جروشنكا تعيش حياة فقيرة فى مسكن داخله بسيط متواضع جدا . انها تشغل فى الجناح ثلاث غرف أثاثها من خشب الأكاجو ، استأجرته جروشنكا من مالكة المنزل أيضا ، وهو من طراز أثاث عام ١٨٢٠ .

حين وصل راكيتين وأليوشا الى مسكن جروشنكا كان الظلام قد خيم ، ولكن الغرف لم تشعل فيها الأضواء بعد . كانت جروشنكا مضطجعة فى الصالون على أريكة طويلة ثقيلة لها مسند من خشب الأكاجو ، قد غطيت بجلد صلب ، ونال منها الزمن فاهترأت وتنقبت فى عدة مواضع . ان المرأة الشابة مسندة رأسها على وسادتين أخذتهما من سريرها ؛ مستلقية على ظهرها ، ساكنة ، جاعلة ذراعيها تحت شعرها ، مرتدية ثوبا من حرير أسود ـ كأنها تنتظر زيارة أحد ـ ملفعة شعرها بقبعة رائعة من تخريم ، ملقية على كتفيها وشاحاً من تخريم أيضا قد ثبتته بدبوس حلية كبيرة من ذهب . واضح أنها كانت تنتظر أحداً ، لأن وضعها كان يدل على نفاد الصبر نفاداً محموما . وكان وجهها يبدو شاحبا ، وكانت عيناها تسطعان ، وكانت شفتاها تحترقان ، بينما كان طرف قدمها يلطم ذراع الأريكة لطماً موقعاً ينم عن تململ الانتظار . فما ان دخل أليوشا وراكيتين مسكنها حتى استولى عليها اضطراب شديد . لقد سمعاها ، وهما فى الممشى ، تثب عن أريكتها وتقف على قدميها وتصيح بلهجة فيها ذعر وهلع :

ـ من هنا ؟

وها هى ذى الخادمة الشابة التى فتحت لهما الباب تهرع الى سيدتها على الفور لتقول لها :

ـ ليس هو • هما شخصان آخران •

دمدم راكيتين يقــول وهو يمسك أليوشـا من ذراعيه ليقوده الى الصالون :

ـ ماذا دهاها ؟

كانت جروشنكا واقفه قرب الأريكة وهى ما تزال مذعورة بعض الشيء • ن ضفيرة كثيفة من شعرها الكستناوى قــد خرجت من تحت قبعتها وتهدلت على كتفها اليمنى ، ولكن جروشنكا لم تنتبه اليها أول الأمر ولم ترفعها الا بعد أن تفرست فى القادمين وعرفتهما •

قالت جروشنكا :

ـ هه ! أهذا أنت يا راكيتا ؟ لقد روّعتنى ! ومن هذا الذى جئتنى به ؟ يا لها من مفاجأة !

كذلك صاحت جروشنكا حين رأت أليوشا •

قال راكيتين وهو يصطنع هيئة منطلقة حرة ، هيئة رجل يشعر أن بينه وبين ربة المنزل من المعرفة الحميمة ما يجيز له أن يصــدر الأوامر نيابةً عنها :

ـ هلا أمرت باشعال الشموع •

ـ طبعا طبعا ••• الشموع ••• الشموع ! فينيا * ، ائته بشمعة !•• لقد أخترتَ اللحظة المناسبة لتجيئنى به !

كذلك هتفت تقول جروشنكا مرةً أخرى وهى تومىء برأسها الى أليوشا •

ثم التفتت نحو المـرآة ، فتناولت الضــفيرة المتهدلة بكلتا يديها ،

وأسرعت تثبتها على رأسها • كان يبدو عليها أنها غير راضية • قال راكيتين مستاءً :

ـ لعلني جئت في غير الأوان المناسب ؟

فقالت جروشنكا وهي تبتسم لأليوشا :

ـ كلا ••• ولكنك روّعتني يا راكيتا ، هذا كل شيء • لا تخف مني يا عزيزي الطيب أليوشا • ليتك تعرف مدى سعادتي برؤيتك ، أنا التي لم أكن أتوقع مجيئك • أما أنت يا راكيتا فقد روعتني منذ هنيهة ، لأنني ظننت أن ميتيا هو الذي كان يريد أن يقتحم بابي • لقد خدعته في هذا المساء ، وأجبرته على أن يحلف لي بأنه يصدقني ، بينما كنت أكذب عليه • ذلك أنني زعمت له أنني سأقضي السهرة كلها عند عجوزي كوزمتش أساعده في اجراء حساباته الى ساعة متأخرة من الليل • انه يعلم أنني أذهب الى كوزما كوزمتش مرةً كل أسبوع لتنظيم دفاتره ، نغلق علينا باب الغرفة ، فيأخذ هو باجراء عمليات الجمع مستعينا بعداد ، وآخذ أنا بتسجيل ما يمليه عليّ من أرقام ، لأنني الانسان الوحيد الذي يوليه ثقته• ان ميتيا يعتقد بأنني الآن عند العجوز، على حين أنني مضطجعة هنا في انتظار رسالة • انني لأتساءل لماذا سمحت لكم فينيا بالدخول • فينيا ! فينيا ! أسرعي الى الباب الكبير ، وألقي نظرة على الخارج لتتأكدي من أن الكابتن لا يحوم حول المنزل • جائز أن يكون قد اختبأ ليتجسس عليّ • انني أخاف منه خوفا قاتلاً !

ـ ليس هناك أحد يا أجرافين ألكسندروفنا ، فلقد درت حول المنزل منذ لحظة ، وأنا أنظر من شق الباب من حين الى حين ، لأنني أرتعد من الخوف أنا أيضا •

ـ هل خشب النوافذ مغلق يا فينيا ؟ يجب اسدال الستائر هكذا

(قالت هذا وأسدلت الستائر الكثيفة بنفسها الى النصف) حتى لا يلاحظ نوراً فى النوافذ . اننى خائفة من أخيك خوفاً رهيباً فى هذا اليوم يا أليوشا .

كانت جروشنكا تتكلم بصوت عالٍ رغم قلقها وخوفها ، وكان يُلاحظ فيها شيء من حماسة .

سألها راكيتين :

ـ لماذا تخافين ميتيا كل هذا الخوف فى هذا المساء ؟ ما عهدتك وجلةً معه ، فانما أنت تسيِّرينه بعصا فى العادة .

ـ قلت لك اننى أنتظر رسالة ، رسالة ثمينة ، فما ينبغى أن يجيء ميتيا الآن . ثم انه لم يصدقنى حين زعمت له اننى ذاهبة الى كوزما كوزمتش ، لقد أحسست بذلك . لا بد أنه أختبأ فى مكان ما وراء حديقة فيدور بافلوفتش ليترصدنى . هذا أفضل . فهو فى هذه الحالة لن يجيء الى هنا . أما كوزما كوزمتش فقد ذهبت اليه فعلاً ، وقد رافقنى ميتيا حتى باب منزله ، وزعمت له أننى سأبقى هناك الى نصف الليل ، ورجوته ملحةً أن يجيء ليصحبنى فى العودة الى بيتى . عندئذ تركنى ، فمكثت عند العجوز عشر دقائق ، ثم رجعت الى البيت راكضة . أوف ! ما أشد ما كنت أخشى أن ألقاه فى الطريق !

ـ لأى مناسبة تزينت هذه الزينة كلها ! انها لقبعة رائعة هذه القبعة التى أرى ...

ـ غريب أمرك يا راكيتا ! قلت لك اننى أنتظر رسالة ، فمتى وصلت الرسالة أسرعت أخرج لا يؤخرنى أن أتحدث معكم . لقد تزينت استعدادا للحظة المناسبة .

ـ الى أين تذهبين ؟

ـ تحب أن تعلم ذلك ؟ الاكثار من العلم ضرر يا عزيزى !

ـ ياه ! أنت فرحة جدا . ما رأيتك على هذه الحال فى يوم من الأيام . لقد تجملت وتزينت كأنها ذاهبة الى حفلة رقص !

كذلك قال راكيتين وهو يفحص بنظره جروشنكا .

قالت له :

ـ ماذا تعرف أنت عن حفلات الرقص ؟

ـ وأنت ؟ هل تعرفين عنها أكثر مما أعرف ؟

ـ أنا ؟ شهدت حفلة رقص مرةً واحدة فى حياتى . حدث ذلك منذ ثلاث سنين ، حين زوّج كوزما كوزمنش ابنه . كنت أشاهد الحفلة من أعلى الشرفة . على أننى لن ألهو بمناقشتك يا راكيتا بينما عندى ضيف نادر هذه الندرة ، ضيف هو أمير حقا ! يا أليوشا ، يا ملاكى الصغير ، اننى لا أصدق عينىّ ! كيف أمكن أن يجىء الى بيتى ؟ الحق اننى لم أتوقع ولا كنت أحلم أن أراك فى منزلى ! لم أصدّق فى يوم من الأيام أن من الممكن أن تجيئنى ، أعترف لك بذلك ! انك لم تختر اللحظة المناسبة ، ومع ذلك فأنا سعيدة كل السعادة برؤيتك ! اجلس على هذه الأريكة .. يا عزيزى ، يا شمس مضيئة ! اننى مذهولة ... ليتك قد خطر ببالك يا راكيتا أن تجيئنى به أمس ، أو أمس الأول ... لا بأس على كل حال ... أنا سعيدة رغم كل شىء ! ... بل ربما كان مجيئه اليوم ، فى مثل هذه اللحظة ، خيراً من المجىء بالأمس ...

جلست جروشنكا على الأريكة قرب أليوشا بخفة ونشاط وحرارة، وأخذت تنظر اليه فى نشوة ووجد . كانت تشعر حقا بسعادة لرؤيته ، ولم تكذب حين أكدت له ذلك . كانت عيناها تسطعان ، وكانت تضحك،

ولكن بمرح فيه كثير من اللطف والكياسة . لم يكن أليوشا يتوقع أن يرى فى وجهها مثل هذا التعبير عن الطيبه ... انه لم يرها حتى الآن الا نادراً ، وكان رأيها فيهـا رأياً فظيعاً . كانت ثورتها المتوحشة على كاترين ايفانوفنا بالأمس قد قلبت نفسه رأساً على عقب ، لذلك أدهشه الآن أشد الدهشه أن يرى فيها انسانا مختلفا كل الاختلاف . انه رغم الحزن الشديد الذى يرهقه لم يستطع أن يمنع نفسه عن التحديق الى المرأة الشابة والتفرس فيها . كانت حركاتها وآدابها قد تغيرت عما كانت عليه بالأمس وتحسنت تحسنا ملحـوظا : ليس فى صـوتها الآن تلك النبرات الرخوة التى أصبحت الآن سريعة بسيطة مباشرة واثقة . هى الآن تشع طيبة وتنطلق على سجيتها طبيعية بلا تعمل ، رغم ما يبدو من أنها مضطربة اضطرابا شديدا .

قالت مدمدمة :

ـ رباه ! يا لها من مغامرات كثيرة فى يوم واحد ! اننى أتسـاءل يا أليوشا لماذا أنا سعيدة برؤيتك هـذه السعادة كلها ؟ أؤكد لك اننى أجهل أنا نفسى سبب هذه السعادة .

قال راكيتين متدخلاً وهو يبتسم ابتسامة صغيرة :

ـ أأنت تجهلينه الى هـذا الحد من الجهل ؟ لا شك فى أنك لم تلحـّى طوال هذه المدة فى طلب الاتيان به ، دون باعث يدفعك الى ذلك. لقد نقرت أذنىّ من طول ما سألتنى أن آتى به اليك ، فلا بد أن يكون لك فى ذلك هدف .

ـ كان لى هدف حقا ، ولكن لم يبق لى هدف الآن . فات الأوان. ماذا أقدم اليكما من طعام أو شراب ؟ لقد أصبحت طيبة يا راكيتا ، هل تعلم ذلك ؟ هلاّ جلست يا راكيتا ؟ لماذا تظل واقفا ؟ ها .. أأنت جلست

اذن ؟ لا خوف على راكيتا من أن ينسى نفسه ! ها هو ذا قد اتخذ له مكانا فى قبالتنا يا أليوشا ، مستاءً من أننى لم أدعه الى الجلوس قبل أن أدعوك أنت . انه سريع التأذى ، هل تعرف هذا ؟ انه رهيب فى سرعة تأذيه ! (هذا ما أضافته ضاحكة) . لا تزعل يا راكيتا ! أنا اليوم طيبة جدا ! ولكن أنت يا صغيرى أليوشا ، لماذا تبدو حزينا هذا الحزن كله ؟ ألعلنى أخيفك ؟

قالت له ذلك ونظرت فى عينيه وهى تبتسم ابتسامة لاهية .

قال راكيتين :

ـ هو حزين لأنه أُغفل فى الترقيات .

ـ أية ترقيات ؟

ـ انتشرت من شيخه رائحة تفسخ .

ـ انتشرت ؟ ما هذه السخافات التى تقولها ؟ لا شك أنك تريد أن تغمز وتلمز ... أنا أعرفك ! اسكت أيها الأبله .

ثم قالت لأليوشا :

ـ هل تسمح لى يا أليوشا بأن أقعد على ركبتيك .. هكذا ؟

قالت ذلك ثم قعدت على ركبتيه بوثبة واحدة وهى تضحك وتلامسه ملامسة رقيقة كقطة صغيرة .

ثم أحاطت عنقه بذراعها اليمنى فى عطف وحنان . وأردفت تقول :

ـ سأعرف كيف أدخل البهجة الى قلبك يا فتاى الصغير التقى . حقاً ... هل تسمح لى بأن أبقى على ركبتيك ؟ ألا تغضب ؟ اذا شئتَ قمتُ .

صمت أليوشا ولم يجرؤ أن يتحـــرك . لقد سمع قولها : « اذا شئتَ قمتُ » ، ولكنه لم يجب وشعر كأنه مشلول . ومع ذلك لم يحس بما يمكن أن يتخيله رجل مثـــل راكيتين الذى كان يتأمله بطرا . ان الألم العميق الذى يملأ قلبه قد جمّد أحاسيسه ، ولو كان يستطيع أن يرى ما بنفسه رؤية واضـــحة لأدرك أنه كان فى تلك اللحظة محصنا تحصينا قويا من جميع الفتن وجميع الاغراءات الممكنة . ومع ذلك ، رغم ذهوله عن حاله ورغم الألم الذى كان يرهقه ، فقد أدهشه شعور جديد غريب نبت فى نفسه : وهو أن هذه المرأة ، هذه المرأة «الرهيبة» لاتخيفه الآن كما كانت تخيفه من قبل ، ولا تبعث فى نفسه ذلك الذعر الذى كان يحسه حتى ذلك الحين متى خطرت بباله المرأة فى المناسبات النادرة التى كان يمكن أن تخطر بباله المرأة ! بل ان ما يحدث الآن هو عكس ذلك تماما : ان هذه المرأة الشابة التى كان يخشاها أكثر مما يخشى سائر النساء ، والتى تحيطه بذراعيها جالسةً على ركبتيه ، توقظ فى نفســـه شعورا مختلفا عن ذلك الشـــعور كل الاختـلاف ، شعورا فريدا غير متوقع ، شعورا هو استطلاع قوى يُحسن الى حالته الروحية حقاء انه ، خاصةً ، لا يشعر بأى خوف ، لا يشعر بأى أثر من آثار جزعه الماضى، وهذا ما كان يدهشه بالرغم منه .

هتف راكيتين يقول :

ـ كفاكِ كلاماً فى ترهات . خير من هـــذا أن تسقينا شيئا من الشمبانيا . لقد وعدتنى بذلك ، هل تتذكرين ؟

ـ صحيح . وعدتك بذلك. لقد قطعت له على نفسى عهداً يا أليوشا لأسقينَّه شمبانيا يومَ يجيئنى بك ، هل تفهم ؟ هلموا بنا ، سأشرب أنا نفسى شمبانيا . فينيا ، فينيا ، هاتينا بتلك الزجاجة التى تركهـــا ميتيا ،

اسرعى ! سأسقيكم شمبانيا مهما أكن بخيلة ! ما هذا من أجلك يا راكيتا ، فما أنت الا خيارة فاسدة ، بل من أجله هو ، من أجل أميرى ! سأشرب معكما ، رغم أن فكرى فى مكان آخر . أريد أن أقصف !

عاد راكيتين يسألها مستطلعاً ملحاً ، وهو يبذل جهــــدا كبيرا فى سبيل أن يظهر بمظهر من لا يلاحظ السخريات التى تصبها عليه :

ـ ماذا حدث لك اليوم ؟ ما هذه الرسالة التى تنتظرنيها ؟ هل الأمر سر ؟

فقالت جروشنكا وقد عاودها قلقها فجأة :

ـ ليس الأمر سراً ، ثم انك على علم به .

وأدارت رأسها نحو راكيتين وابتعدت قليلا عن أليوشا مع بقـائها قاعدةً على ركبتيه محيطةً بذراعها عنقه ، وقالت :

ـ سيصل ضابطى يا راكيتين ، ضابطى الجميل !

ـ أعرف أنه سيصل ، ولكننى كنت أظن أنه ما يزال بعيدا .

ـ هو الآن فى موكرويه ، وسيبعث الىّ من هناك رسـولاً . ذكر لى ذلك فى رسالة تلقيتها أمس . فأنا أنتظر الآن هذا الرسول .

ـ غريب ! لماذا فى موكرويه ؟

ـ شرح هذا يطول . يكفيك الآن ما علمت .

ـ وذلك الشجاع ميتيا ؟ هل يعلم بالامر ؟

ـ لا يعلمه طبعا . وهو لا يشتبه فى شىء . لو علم لقتلنى . ولكننى أصبحت لا أخاف منه . اننى لا أعبأ بخنجـــره . اسكت يا راكيتا .

لا تحدثني بعد الآن عن دمتري فيدوروفتش • لقـــد أساء الىّ كثيرا • لا أحب أن أفكر في هذه الأشياء بعد اليوم • أوثر أن أهتم بأليوشا • انني أنظر اليه ، فيبتهج بذلك قلبي ••• هلاّ ضحكت قليلاً يا ملاكي • كن أكثر فرحاً ، شاركني سعادتي ، اهزأ بحماقتي ••• آ ••• ها هو ذا يبتسم أخير ••• لقد ابتسم لي ! ما أجمل هذه الوداعة في نظرته • هل تعلم يا أليوشا ؟ لقد كنت أخشى أن تزعل مني بسبب تلك القصة التي حدثت في ذلك اليوم عند الآنسة • لقد تصرفت نحوها تصرف وحش خبيث ! هذا صحيح • ولكنني مسرورة رغم كل شيء بما حدث • كان هذا سيئاً من جهة حسناً من جهة ثانية • (أضافت ذلك ضاحكة ثم وجمت على حين فجأة وطاف بابتسامتها شيء من القسوة) • روى لي ميتيا كيف صرخت تقول بعد انصرافي : « هذه البنت تستحق أن تجلد على مرأى من الناس » • لقد أرادت أن تعرفني أملاً في أن تسيطر عليّ • كانت تظن أنها ستغريني وستفتنني بفنجان من الشوكولاته ••• لا ••• لا ••• لقد أحسنتُ صنعاً اذ تصرفت كما تصرفت • كل ما أخشاه هو أن تكون أنت قد زعلت مني •••

بهذا ختمت كلامها وهي تضحك ضحكة خفيفة •

قال راكيتين مدهوشا دهشة عميقة :

ـ يبدو أنها تخشى رأيك حقا يا أليوشا ! انها تخاف منك ، من دجاجة مثلك !

ـ هو في نظرك دجاجة لأنك ••• لا ضمير لك ! هذا كل شيء • أما أنا فأحبه بكل نفسي ، هل فهمت ؟ هل تصدقني يا أليوشا اذا قلت لك انني أحبك صادقة مخلصة ؟

ـ يا لخالعة العذار ! هذا تصريح بحبٍ يا أليوشا ، تصريح بحبٍ لك أنت !

ـ لم لا يكون كذلك ما دمت أحبه ؟

ـ وصاحبك الضابط ؟ والرسول الآتى من موكرويه ؟

ـ هذان أمران مختلفان .

ـ ذلك ما تقوله النساء دائما فى مثل هذه الحالة .

أجابته جروشنكا بقوة وحرارة :

ـ لا تحنقنى يا راكيتا . هذان أمران مختلفان . أنا أحب أليوشا حباً آخر . صحيح أننى قد رسمت خططاً شريرة بشأنك يا أليوشا ، لأننى منحطة عنيفة قاسية . ولكننى كنت فى لحظات أخرى أعدك بمثابة ضميرٍ لى ، وكثيرا ما كنت أحدث نفسى قائلة : « لا بد أنه يحتقرنى بسبب سلوكى . » ، وقد قلت لنفسى هذا الكلام أمس الأول حين رجعت من عند الآنسة . لقد لاحظتك منذ زمن طويل يا أليوشا . ان ميتيا يعلم هذا . لقد ذكرته له . وهو يفهمنى . هل تصدق يا أليوشا أنه يتفق لى أحيانا حين أنظر اليك أن أشعر بالخجل فجأة ، بالخجل من نفسى ... كيف استطعت أن تدخل الى قلبى على هذا النحو ؟ لقد نفذت الى قلبى . أما منذ متى ، فلا أدرى فى الواقع ...

دخلت فينيا فى تلك اللحظة ، ووضعت على المائدة صينية عليها زجاجة شمبانيا مفتوحة وثلاث كئوس ملأى .

هتف راكيتين يقول :

ـ وصلت الشمبانيا ! أنت مهتاجة كثيرا فى هذا المساء يا أجرافين ألكسندروفنا ، حتى أصبحت لا تسيطرين على نفسك . ومتى أفرغت

هذه الكأس فسوف ترقصين ، ترالالا ! ••• ولكننى ألاحظ أن الشمبانيا لم تقدم وفقا للأصول • ان الزجاجة فاترة ، والسدادة منزوعة ، والخادم قد ملأت الكئوس فى المطبخ • لا بأس ••• سنشربها على كل حال •

واقترب راكيتين من المائدة ، فتناول كأساً وأفرغها فى جوفه دفعةً واحدة ثم ملأها من جديد ، وقال وهو يمر على شفتيه بلسانه :

ـ لا يتمتع المرء بالشمبانيا كل يوم • جاء دورك يا أليوشا • ألا فلنر مقدرتك ! أى نخب نشرب ؟ ربما نخب أبواب الجنة ؟ تناولى هذه الكأس يا جروشا واشربى معنا نخب أبواب الجنة !

ـ أبواب الجنة ؟ ماذا تعنى ؟

وتناولت جروشنكا كأسا ؛ وكذلك فعـــل أليوشا فجـرع جرعة ووضع الكأس على المائدة وقال مبتسما ابتسامةً عذبة :

ـ أوثر أن لا أشرب •

فصاح راكيتين قائلاً :

ـ فماذا كان تباهيك اذن ؟

وقالت جروشنكا :

ـ لن أشرب أنا اذن • ثم اننى ليست بى رغبـــة فى الشراب • تستطيع أن تفرغ الزجاجة وحدك اذا شئت يا راكيتا • واذا قرر أليوشا أن يشرب شربت أنا أيضا •

قال راكيتين ساخرا :

ـ يا للعواطف الرقيقة ! انها بهذا تجثو على ركبتيها • ان له هو عذراً على الاقل ، فهو حزين النفس ، أما أنت فأى عذر يمكن أن تنتحلى؟ لقد تمرد هو على الهه وأراد أن يأكل مقانق •

ـ ماذا وقع له ؟

ـ مات شيخه هذه الليلة ••• الأب زوسيما ••• ذلك القديس •

ـ ماذا ؟ الشيخ زوسيما مات ؟ لم أكن أعرف ذلك •

قالت جروشنكا هذا صائحة ، ورسمت على نفسها اشارة الصليب بتقى وورع • وأردفت تقول منفعلةً على حين فجأة كالمذعورة :

ـ آه ••• يا رب ! وأجلس على ركبتيه فى مثل هذا اليوم ؟

ثم أسرعت تنهض ، ومضت تجلس على الأريكة • حدّق اليها أليوشا بنظرة طويلة دهشة ، وانبسطت أسارير وجهه قليلاً ، وقال يخاطب راكيتين بصوت قوى حازم :

ـ لا يضايقنى بموضوع ثورتى المزعومة على الله يا راكيتين • اننى لا أحب أن أغضب منك ، ومن أجل هذا أرجوك أن تبرهن على نبل النفس أنت أيضا • لقد فقدتُ كنزاً لم تملكه أنت فى يوم من الايام ، لذلك لن تستطيع أن تفهمنى • خير لك أن تقتدى بها : هل رأيت كم دارتنى ورعتنى ؟ لقد جئتُ الى هنا لأقابل انسانة شريرة ، لألقى روحاً خبيثة ، وكنت أتمنى ذلك أنا نفسى ، لأننى كنت فى تلك اللحظة جبانا شريرا • ثم اذا أنا ألقى أختاً صادقة ، جوهرة ثمينة ، نفساً صافية محبة ••• دارت مشاعرى ، وأحاطتنى بالرعاية • عنك أتكلم يا أجرافين ألكسندروفنا • لقد وهبتِ لى الجرأة على أن أحيا •

أخذت شفتا أليوشا تختلج وصمت مختنقا •

قال راكيتين وهو يضحك ساخرا :

ـ لكأنها أنقذتك ! ألا فاعلم اذن أنها كانت تنوى أن تبلعك !

قالت جروشنكا مندفعة :

ـ كفى يا راكيتين . واسكتا كلاكما الآن . لا تقل شيئا يا أليوشا ، لأن أقوالك تشعرنى بالخزى والعار . أنا فى الحق خبيثة لا طيبة كما تظن . أما أنت يا راكيتا فأريد أن تسكت لأنك تكذب . جائز أننى نويت فى السابق تلك النية الجبانة وهى أن أبلعه لقمةً واحدة ، ولكنك مع ذلك تكذب ، لأن هذا قد مضى الآن ... لا أريد أن أسمع صوتك يا راكيتا !

كانت جروشنكا تتكلم مضطربةً اضطرابا شديدا .

قال راكيتين بصوت صافر وهو ينظر اليهما مدهوشا :

ـ لقد فقدا كلاهما العقل . لكأنهما مجنونان ! أترانى وقعت فى مستشفى للمجانين ؟ أصبحا عاطفيين ، وما هى الا لحظة حتى يطفقا باكيين .

قاطعته جروشنكا تقول :

ـ سوف أبكى ، نعم سوف أبكى . لقد دعانى أخته ، لن أنسى هذا ما حييت ! اعلم يا راكيتا أننى مهما أكن شريرة ، فقد وهبت بصلة * .

ـ أية بصلة ؟ حقا لقد فقدا العقل .

كان راكيتين يستغرب اندفاعاتهما الحماسية ، ويحس بالاهانة ، رغم أنه كان يمكن أن يدرك أن الظروف قد جمعت هذين الانسانين على نحو من شأنه أن يبث فى نفسيهما الاضطراب . ولكن راكيتين ، السريع جدا الى ادراك كل ما يمسه ، يجد عناءً فى فهم عواطف الآخرين واحساساتهم أولا لأنه قليل الخبرة بحكم شبابه ، وثانيا لأنه على جانب عظيم من الأنانية .

التفتت جروشنكا نحو أليوشا وهي تضحك ضحكة عصبية وقالت له :

ـ ها قد رأيت يا أليوشا أنني تباهيت أمام راكيتا بأنني قدمت بصلة. ولكنني سأتكلم معك صادقة مخلصة بغير تفاخر . الأمر أمر أسطورة : هي قصة جميلة قصتها عليّ في طفولتي ماترين التي تعمل عندي اليوم طباخة . اليك القصة : كان هناك في الماضي امرأة عجوز شريرة جداً ؛ فلما ماتت هذه العجوز وكانت لا تملك أية فضيلة يمكن أن تشفع لها في يوم الحساب ، فقد أمسكتها الشياطين وألقتها في بحيرة من نار . وعندئذ أخذ حارسها الملاك يفكر . تساءل : « ما الذي يستطيع أن أفعله لانقاذها ؟ ألا يمكنني أن أكتشف فضيلةً أذكرها عنها للرب ! » ، فاذا هو يتذكر حادثة جرت لهذه المرأة في حياتها ، فقال للرب : « لقد انتزعت من حديقتها بصلة في ذات يوم ووهبتها لشحاذ . » فقال الرب للملاك الحارس : « خذ هذه البصلة ، ومدّها الى هذه المرأة في بحيرة النار ، ومرها أن تتشبث بها ، ثم شدها لتخرجها من اللهب . فاذا استطعت أن تخرجها ذهبت الى الجنة ، أما اذا تقطعت البصلة فستبقى المرأة حيث هي » . أسرع الملاك الى المرأة ومد اليها البصلة وقال لها : « تمسكي بهذه البصلة فأخرجك من النار » . وأخذ يشد بكل ما أوتي من قوة ، وكاد يخرج المرأة من بحيرة النيران حين لاحظ المذنبون الآخرون أنه كان بسبيل انقاذها ، فتمسكوا بها بغية أن يخرجوا من البحيرة معها . ولكن العجوز كانت شريرة جدا ، فركلتهم بقدميها وهي تصرخ : « انما يراد انقاذي أنا لا انقاذكم أنتم . هذه البصلة بصلتي أنا لا بصلتكم أنتم » . فما ان نطقت العجوز بهذه الكلمات حتى تقطعت البصلة ، فسقطت المرأة العجوز في البحيرة من جديد . وما تزال تحترق في النار حتى الآن . أما الملاك فقد انصرف باكيا . انني أحفظ هذه الاسطورة على ظهر القلب؛

احتفظت بها لأننى شبيهة بتلك المرأة العجوز الشريرة • لقد تباهيت أمام راكيتا بأننى وهبت بصلة • أما لك أنت فأقول متواضعة اننى ان كنت قد وهبت بصلة مرةً فى حياتى فذلك كل ما فعلته ، وليست تتعدى طيبتى هذه الحدود • فلا تمدحنى اذن يا أليوشا ، ولا تظن أننى طيبة • أنا شريرة ، شريرة جدا ، واننى لأمتلىء بشعور الخزى والعار حين أسمعك تكيل لى المديح • وهأناذا أعترف لك بكل شىء يا أليوشا : لقد بلغت من فرط الرغبة فى أن أراك عندى أننى كنت لا أعرف ما عساى فاعلة لأحض راكيتين على أن يجيئنى بك • ووعدته أخيرا بأن أعطيه خمسة وعشرين روبلا اذا هو اصطحبك الى منزلى • لحظةً يا راكيتا !

أسرعت جروشنكا تقترب من المنضدة ، ففتحت درجاً ، وتناولت محفظة نقودها ، وأخرجت منها ورقة بخمسة وعشرين روبلاً •

هتف راكيتين يقول مرتبكا ارتباكا شديدا :

ـ ما هذا السخف ؟ كان ذلك هزلاً لا جداً •

ـ خذ المال يا راكيتا ! أنا مدينة لك به ! لن ترفضه ! لقد ألححت علىّ لأعطيك هذا المبلغ •

ورمت اليه الورقة •

قال راكيتين بصوت أجش وهو يحاول أن يسيطر على اضطرابه وارتباكه وخجله :

ـ لأكوننّ حماراً اذا أنا رفضت • انما وجد الأغبياء فى هذا العالم لمصلحة الأذكياء •

قالت جروشنكا :

ـ والآن أسعدْنى بسكوتك يا راكيتا • ان ما سأقوله الآن لا يصلح

لأذنيك . اجلس هناك ، فى الركن ، ولا تقل بعد هذه اللحظة شيئاً . أنت لا تحبنا فما عليك الا أن تلزم الصمت .

قال راكيتين بلهجة معاديه دون أن يحاول اخفاء غضبه :

ـ وفيم أحبكما ؟

ودسّ الورقة النقدية فى جيبه ، ولكنه شعر بحرج شديد أمام أليوشا . كان يقدّر أن يتقاضى مكافأته فيما بعد ، على غير علمٍ من أليوشا ، فاذا بالعار الذى يشعر به الآن يجعله خبيثاً شرساً . كان قد رأى أن من الحذق حتى ذلك الحين أن لا يستفز جروشنكا ، ولكنه بدأ يغضب الآن . قال :

ـ لا يحب المرء بغير باعث على الحب ، فما الذى يجعلكما تستحقان حبى ؟

ـ أحبّ بغير سبب ، مثل أليوشا !

ـ من قال لك ان أليوشا يحبك ؟ ماذا صنع من أجلك ؟ قليلاً من الفهم على الأقل ! ...

كانت جروشنكا فى وسط الغرفة ، وكانت تتكلم متحمسةً بصوت تداخله فى بعض اللحظات نبرات هسترية .

ـ اسكت يا راكيتا ! انك لا تفهم فى هذه الأمور شيئاً . ثم اننى لا أريد بعد الآن أن ترفع الكلفة بينى وبينك وأن تخاطبنى بصيغة المفرد. اننى أمنعك أن تفعل هذا فى المستقبل . من أجاز لك أن ترفع الكلفة الى هذه الدرجة ؟ ابق فى ركنك واسكت ، لأننى أعدك بمثابة خادم لى. والآن يا أليوشا ، سأقول لك الحقيقة كاملةً ، لتعلم اننى انسانة شريرة سيئة ! لك انما أعترف هذا الاعتراف ، لا لراكيتا ! لقد أردتُ ضياعك

يا أليوشا ، أقول لك هذا لأنه هو الحقيقة بعينها ! ولقد تصورت لهذا الأمر خطة راسخة ، وكنت أبلغ من شدة الحرص عليه أننى حرضت راكيتا بالمال على أن يجيئنى بك . ما هو السبب الذى دفعنى الى أن أريد ضياعك ؟ انك لم تلاحظ شيئا ، ولم يخطر ببالك شىء ، وكنت تشيح بوجهك عنى . كنت اذا لقيتنى تغض طرفك . أما أنا فقد نظرت اليك أكثر من مائة مرة ، وسألت جميع أصدقائى عنك . انطبعت ملامح وجهك فى قلبى . كنت أقول لنفسى : « انه يحتقرنى . انه يأبى حتى أن يرفع عينيه الىّ » . وشعرت من ذلك بغيظ بلغ من فرط القوة أننى دُهشت أنا نفسى . قلت : « لماذا الخوف من هذا الصبى الغر ؟ لآكلنه لقمة واحدة ، ولأضحكن بعد ذلك كثيرا . » . ان نوعا من الحنق المسعور قد اضطرم فى نفسى غضبا منك وحقدا عليك . هل تصدق هذا ؟ لا يستطيع أحد أن يأخذ علىّ شيئاً فى هذه المدينة ، لن يجرؤ أحد أن يشتبه فىأجرافين ألكسندروفنا فيسىء فيها الظن اذا هى استقبلت رجلا فى بيتها . ليس فى حياتى الا ذلك العجوز الذى ارتبطت به وبعته نفسى . لقد جمع الشيطان بيننا . غير أن ذلك العجوز هو الرجل الوحيد الذى حظى بى . ومع ذلك كنت مستعدة لأن أشذ عن هذه القاعدة من أجلك . كنت أتهيأ لأن أبلعك ، لأستطيع أن أضحك ما شئت أن أضحك بعد ذلك . فانظر مدى ما أتصف به من خبث وشر أنا التى دعوتنى أختك . وهذا صاحبى الذى غشنى وأغوانى يبلغنى أنه قادم ، وأنا أنتظر رسالةً منه . هل تعلم ماذا كان هذا الرجل فى حياتى ؟ لقد جاء بى كوزما الى هنا منذ خمس سنين . كنت أعيش فى أول الأمر هاربةً من الناس أخشى أن يرانى أحد وأن يسمعنى أحد . كنت هزيلة الجسم غبية العقل ، وكنت لا أكف عن البكاء فى ليل ولا نهار . كنت أبقى مؤرقة مسهدة ليالى برمتها أحدث نفسى قائلة : « أين هو فى هذه الساعة ،

الرجل الذى أغوانى ؟ لا شك أنه يضحك علىّ ويسخر منى مع امرأة أخرى • آه ••• ليتنى أستطيع أن ألقـــاه يوما ! ليدفعنّ عندئذ ثمـن ما جنت يداه ! » • وكنت أبكى على وسادتى فى الظلمات وأحلم بالثأر والانتقام • كنت أســـتثير ألمى عامدةً لأملأ نفسى كرهاً وحقداً • كنت أخرج فى الليل قائلة : « لسـوف يرى ! لسـوف يرى ! ليندمنّ على ما فعل ! » • ثم أدركت فجأة عجزى • وأصبحت اذا تصورت أنه يسخر منى ويضحك علىّ ، أو اذا تصورت أنه قد نسينى نسيانا تاما ـ وهـذا أنكى ـ أسقط عن سريرى على الارض وأظل أتدحرج منتحبةً مرتجفة بكل جسمى حتى مطلع الفجر • فاذا أشرق الصباح نهضت وأنا أشـد ضراوة من كلب ، نهضت وأنا مستعدة لأن أوذى أول انسان يقـع عليه بصرى • وانقضت السنون ، وأخذت أجمع المال ، وأصبحت بلا رحمة، وسمنت • ماذا تظن ؟ هل تظن أننى غـــدوت بذلك أهدأ بالاً وأكثر تعقلاً ؟ لا ••• ما من أحد يرى ما أعانى ، ما من أحد فى الكون بأسره يتصور ما أقاسى : ما يزال يحدث لى حتى اليوم ، كما كان يحـدث لى منذ خمس ســـنين ، حين كنت صـبية يافعة ، أن أشد على أسنانى فى سريرى ليلاً ، وأن أستمر فى البكاء الى الصباح ، مرددة قولى : «ليدفعنّ ثمن ما جنت يداه ! » • هل تسمعنى ؟ فاحكم علىّ الآن : لقد وصلتنى منه منذ شهر رسالة أولى يبلغنى فيها أنه ترمل ، وانه يريد أن يرانى ، وانه يأمل أن يصل قريبا • صُعقت فى الوهلة الأولى وحطمنى الانفعال • ثم قلت لنفسى فجأة : « سيعود ، ولن يكون عليه الا أن يصـــفر حتى أهرول اليه ككلب ، مجلَّلة بالخزى ، مطعونة القلب ، طالبةً الصفح والغفران ! » •وتســـاءلت عندئذ : « أأكون جبانة وضـــيعة الى هذه الدرجة ؟ أأرضى أن أذل نفسى هـــذا الاذلال ؟ » • وقد اســـتبد بى من الغضب على نفسى طوال هذا الشهر ، خشية أن أسقط فى مثل ذلك

الجبن ومثل تلك الخطه ، ما جعلنى أصبح أخبث نفساً وأميل الى الشر مما كنت كذلك خلال السنوات الخمس الماضيات. هل أدركت يا أليوشا مدى ما تتصف به نفسى من سوء وشر وعنف ؟ اننى أذكر لك الحقيقة كلها . لقد اتخذت دمترى سلوى لنفسى حتى لا أركض الى لقاء الآخر . اسكت يا راكيتا ! ما أنت من يحكم علىّ ! وما أنت من أكلم ! كنت قبل وصولك يا أليوشا راقدة على الأريكة أتهيأ لمواجهة قدرى ، ولن تعرف قط ما كان يجرى فى قلبى . قل للآنسة يا أليوشا أن لا تأخذ علىّ المشهد الذى وقع أمس الأول ... ما من أحد فى العالم يستطيع أن يفهم الحالة النفسية التى أعانيها منذ شهر ، ما من أحد يستطيع أن يتصور هذه الحالة النفسية ... ذلك أن من الممكن أن أحمل خنجرى فى هذا المساء لأذهب الى الموعد ... اننى لم أعزم أمرى بعد ...

بعد أن أفضت جروشنكا بهذا الاعتراف الذى « يُرثى له » ، لم نستطع أن تتمالك نفسها ، فاذا هى تنقطع عن الكلام ، وتغطى وجهها بيديها ، وتتهالك على الأريكة ، وتأخذ تنتحب على الوسادة كطفل صغير .

نهض أليوشا واقترب من راكيتين ، وقال له :

ـ لا تزعل يا ميشا ! لقد أهانتك ولكن ما ينبغى لك أن تغضب منها . على المرء أن يعامل الطبيعة الانسانية بالتسامح والرحمة ، وأن يشارك لناس عذابهم وآلامهم ...

قال أليوشا هذا الكلام باندفاعة من قلبه لا سبيل الى مقاومتها . كان شعر بحاجته الى اطلاق انفعاله حراً لا يعوقه عائق ؛ ولئن خاطب بهذا لكلام راكيتين ، فلقد كان يمكن أن يتحدث وحيدا لو لم يكن راكيتين هناك . ولكن راكيتين ألقى عليه نظرة باردة ساخرة ، فتوقف أليوشا عن لكلام . قال راكيتين وهو يبتسم ابتسامة كارهة حاقدة :

ـ شيخك هو الذى حشا رأسك بهذه الأفكار ، فتريد أن تقدمها الىّ بدورك الآن يا أليوشا ، يا راهباً صغيراً !

ـ لا تستهزىء يا راكيتين ، دع السخريات ، ولا تقل سوءاً فى الشيخ الراحل ! انه خير من جميع البشر الذين عاشوا على هذه الارض.

كذلك قال أليوشا والدموع فى صوته . ثم تابع كلامه يقول :

ـ لا أقول لك هذا الكلام قاضيا بل متّهَماً هو شر المتهمين طراً. ما أنا أمام هذه المرأة ؟ لقد جئت الى بيتها عاقداً نيتى على الضياع ، قائلاً لنفسى فى جبن وصغار وحطة « لا ضير ... لا ضير ... » ، فاذا هى، هى التى تألمت خلال خمس سنين ، تغفر كل شىء ، وتنسى كل شىء ، وتبكى بعد أقل من خمس دقائق ، لا لشىء الا لأن رجلاً مجهولاً قال لها كلمة مودة صادقة ! ان الرجل الذى أساء اليها كل تلك الاساءة ، وألحق بها كل ذلك الأذى ، قد عاد وأومأ اليها ، فاذا هى تغفر له على الفور ، فرحةً سعيدة مستعجلةً لقاءه . أما الخنجر فثق أنها لن تحمله! لا ... لا ... أنا لا أساويها ، أنا لا أعدلها . لا أدرى يا ميشا هل أنت طيب نبيل كطيبها ونبلها ، أما أنا فلست كذلك بحال من الاحوال . هذا درس تلقنته اليوم ... ان هذه المرأة أعظم منا بالحب ... هل كنت تعرف ما روته لنا الآن ؟ انك لم تكن تعرفه حتماً . والا لأدركت كل شىء منذ زمن طويل ... وتلك الأخرى التى آذتها هى أُمس الأول ، يجب عليها أن تغفر لها هى أيضا ! سوف تغفر لها متى علمت ، وستعلم ... ان هذه النفس لمّا تستردّ هـدوءها وطمأنينتها بعـــد ، فينبغى أن تدارى وأن تراعى ... لعل فيها كنوزاً لا تخطر ببال ...

صمت أليوشا منقطع الأنفاس . وكان راكيتين ينظر اليه مدهوشا

رغم حنقه • ما كان ليتوقع مثل هذا الكلام الطويل من الراهب المبتدىء البسيط !

قال راكيتين صائحاً وهو يضحك ضحكة وقحة :

ـ يا للمحامى البـــارع ! أتراك وقعت فى حبهـــا ؟ يا أجرافين ألكسندروفنا ، ان صاحبنا الصائم قد توله بحبك ، وهام غراما بك • هنيئاً لك بالنصر !

أنهضت جروشنكا رأسها عن الوسادة ، وألقت على أليوشا نظـرة حنوناً أشرق بها وجهها المحتقن بالدموع على حين فجأة •

ـ لا تكترث له يا أليوشا ، يا ملاكى • أنت ترى ما هو ، فلا داعى الى مناقشته •

كذلك قالت جروشنكا ، ثم التفتت نحو راكيتين وقالت له :

ـ كنت أنوى يا ميشيل أوسيبوفتش أن أعتذر اليك عن الكلمــات الجارحة التى قلتها لك ، ولكننى أعدل عن ذلك الآن •

وعادت تخاطب أليوشا فقالت له وفى وجهها فرح :

ـ أليوشا ، اجلس هنـــا ، بجانبى ، هكذا ، قريبا منى • قل لى يا أليوشا (تناولت يده ونظرت فى عينيه مبتسمة) ، قل لى : أما زلت أحبه ؟ أما زلت أحب الآخر ؟ أقصد الرجل الذى أغوانى ••• لقد كنت قبل مجيئك ألقى على نفسى هذا السؤال فى الظلام ، محاولةً أن أقـــرأ فى أعماق قلبى : أمازلت أحبه ؟ أضىء طريقى يا أليوشا • هذه ســاعة اتخاذ القرار • اننى أكل أمرى اليك • هل يجب علىَّ أن أغفر له ؟

قال أليوشا مبتسماً :

ـ ولكنك غفرت له وانتهى الأمر !

فدمدمت جروشنكا تقول واجمة مفكرة :

ــ صحيح . لقد غفرت له . ما أجبن قلبي !

ثم هتفت تقول :

ــ انني أشرب نخب هذا الجبان الكبير ، قلبي !

وتناولت من المائدة كأس شمبانيا ، وأفرغته في جوفها دفعةً واحدة، ثم ألقته طائراً على الأرض . تحطم الكرستال ، ورنت شظاياه . ومرةً أخرى ظهر في طرفي فمها شيء من قسوة . قالت بصوت أجش مثقل بتهديدات غامضة ، قالت وهي تخفض عينيها كأنها تخاطب نفسها :

ــ لعلني لم أغفر له بعد . ان قلبي يتهيأ للمغفرة ، وسأحاول أن أقاومه . آه يا أليوشا ! ما كان أعظم تلذذي بالدموع التي سكبتها طوال خمس سنين . ان عذابي هو ما أحب . انني أحب ألمي ، ولا أحبه هو !

قال راكيتين متهكماً :

ــ لست أتمنى أن أكون اياه !

ــ لن تكون اياه أبداً يا راكيتا ، أبدا ... اعلم هذا . أنت ستنظف لي حذاءي . ذلك ما تصلح له أنت في أكثر تقدير . النساء اللواتي هنّ من نوعي لم يخلقن لك ، ولا له أيضا على كل حال ...

ــ ولا له أيضا ؟ فلمن تزينت اذن ؟

ــ لا تأخذ عليّ تزيني يا راكيتا ! أنت لا تعرفني ! سأنزع ثوبي وزينتي اذا عنّ لي هذا ، سأرميهما فورا ، هل تفهمني ؟ (كذلك صرخت بصوت حاد) . أنت لا تعرف يا راكيتا الهدف الذي من أجله تزينت .

من يدرى ؟ ربما ذهبت اليه فقلت له : « انظر ! انظر ماذا أصبحت ! »• لقد تركنى وأنا فى السابعة عشرة من عمرى ناحلةً مصدورةً بكاءة • سأجلس قربه ، أغريه وأغويه ، وأضرم نار الهوى فى قلبه ، أقول له : « هيه ! ألست اليوم جميلة ؟ أأنت تعجب بى الآن ؟ اكتف اذن بالاعجاب، لأن المسافة بعيدة بين الكأس والشفتين ! » • ربما كان هذا هو السبب فى أننى تزينت يا راكيتا (بهذا ختمت جروشنكا كلامها لراكيتين وهى تضحك ضحكة خبيثة) • أنا عنيفة يا أليوشا ، أنا شريرة • سوف أنزع ثوبى ، وأشوه نفسى ، وأحرق وجهى وأخدده بطعنات موسى لأدمر جمالى ثم أمضى أتسول • ليس يتوقف الا علىَّ أنا أن أبقى هنا فى هذا المساء، فلا أذهب لا الى هذا ولا الى ذاك • واذا شئت رددتُ منذ الغد الى كوزما كوزمتش جميع الهدايا التى أهداها الىَّ ، والمال الذى أعطانيه ، ثم أمضى أعمل طوالى حياتى لأجنى رزقى عاملةً بسيطة • هل تظن أننى لن أفعل شيئاً من هذا يا راكيتا ؟ هل تظن أننى لا أجرؤ على ذلك ؟ بل سأفعله ، سأفعله ! لا تُهجنى والا فعلته فورا ! ••• أما الآخر ، فسأطرده ، سأمد له لسانى استهزاءً ، سأنسل من بين أصابعه !

قالت هذه الكلمات الأخيرة بصوت ثاقب ، يوشك أن يكون هستريا، ثم لم تتمالك نفسها فاذا هى تدفن وجهها فى يديها من جديد ، وتتهالك على الوسادة ناشجة منتحبة • فنهض راكيتين من مكانه فجأة وقال :

ـ آن أوان الانصراف • لقد تأخرنا ، وسوف تغلق أبواب الدير •

فانتفضت جروشنكا وصاحت تسأل أليوشا بدهشة أليمة :

ـ أتمضى الآن يا أليوشا ؟ أتعبث بى اذن هـذا العبث ؟ لقـد بثثت الاضطراب فى نفسى ، وعريت أعصابى ، ثم تتركنى لأبقى وحيدة ، وحيدة كما كنت من قبل ، فى هذه الظلمات !

قال راكيتين بصوت ساخر :

ـ لن يقضى الليلة عندك على كل حال ! اللهم الا أن يكون راغبا فى ذلك حريصا عليه ! وفى هذه الحالة سأعرف كيف أعود وحدى •

فصرخت جروشنكا تقول فى غضب :

ـ اسكت أنت أيها النفس الخبيثة ! انك لم تعـــرف فى يوم من الأيام كيف تكلمنى كما كلمنى هو اليوم •

فقال راكيتين يسألها حانقاً :

ـ فما هى الأشياء الخارقة التى قالها لك ؟

ـ نسيت ، لا أعرف ، لا أتذكر كلماته ، ولكن كلماته مضت الى قلبى رأساً ، وهزت نفسى هزاً قوياً ••• لقد أخذته بى شفقة ورحمة ، فكان أول انسان يرثى لحالى ، كان الانسان الوحيد الذى رثى لحالى ! لماذا لم تأت من قبل يا ملاكى ؟ (كذلك سألت أليوشا وهى تجثو على ركبتيها أمامه فيما يشبه الوجد) • لقد انتظرتك طوال حياتى • كنت أعلم ، كنت أحس أننى سألتقى فى يوم من ايام بانسان مثلك يعرف كيف يغفر لى • كنت واثقة من أن أحدا سيحبنى آخر الامر أنا أيضا ، لغرضٍ آخر غير عارى •••

سألها أليوشا وهو يبتسم ابتسامة فيها حنان ورقة ، ويميـــل عليها ويتناول يدها :

ـ ماذا فعلت حتى أستحق هذا كله ؟ أنا انما قدمت اليك بصلة ، بصلة حقيرة ، هذا كل شىء ، هذا كل شىء •••

وتوقف أليوشا عن الكلام وطفق يبكى •

وفى تلك اللحظة سُمعت ضجة فى الممر • ان أحداً قد دخل الى

البيت • نهضت جروشنكا مذعورة ذعراً شـــديداً • وأسرعت فينيا الى الغرفة تهتف فرحةً لاهثة :

ـ آنستى ، عزيزتى ، آنستى الطيبة، وصل الرسول ! لقد أُرسلت من موكرويه عربة تستقلينها ، ومضى الحوذى تيمـوتى يبدل الخيل • هناك رسالة لك يا آنستى ، رسالة ، رسالة ••• هذه هى !

كانت فينيا تمسك الرسالة بيدها وتلوح بها فى الهواء وهى تتكلم• انتزعت جروشنكا الرسالة منها وأدنتها من الشمعة • هى بطاقة قصيرة جدا لا تضم الا بضعة أسطر قرأتها جروشنكا بلمحة عين • ثم صـاحت تقول وقد شحب وجهها شحوبا شديدا وتقبض وجهها بابتسامة أليمة :

ـ لقد صفر لى • لقد صفر لى • ازحف أيها الكلب الصغير !

وظلت مترددة خلال هنيهة قصيرة ، ثم ازدحم الدم فى وجنتيهـا فاحمرتا حتى صارتا بلون الأرجوان ، وهتفت تقول :

ـ سأذهب ! انتهت تلك السنون الخمس من حياتى • وداعاً وداعاً ! وداعاً لك أنت أيضا يا أليوشا • لقد تقرر مصيرى • اذهبوا ، انصرفوا الآن جميعا ، ولتغيبوا عن عينى الى الأبد ! ••• ان جروشنكا تبدأ حياة جديدة • لا تحمل لى حقداً ، أنت أيضا يا راكيتا • من يدرى ؟ قد أكون ذاهبة الى الموت ! آه ••• أحس بأننى سكرى على حين فجأة •••

ثم لم تحفل بهما وركضت الى غرفة نومها •

جمجم راكيتين يقول :

ـ لقد طردتنا ••• فلننصرف ••• ضقت ذرعا بهذا الصراخ تطلقه امرأة هسترية • فلنمض قبل أن يُستأنف الصراخ •••

انقاد أليوشا انقياداً آلياً • كانت العربة فى فناء المنزل • خيـــول

تُحل ، وأناس منهمكون على ضـــوء مصباح . وأمام البـاب أفراس جديدة . وما ان هبط أليوشا وراكيتين درجات المدخـــل حتى فتحت نافذة غرفة النوم ، فاذا جروشنكا تصيح قائلة بصوت رنان :

ـ عزيزى أليوشا ، أبلغ أخاك دمترى تحيتى ، وقل له أن لا يحقد على هذه الوغدة ، أنا . كرر على مسامعه هـــذه الكلمات عن لسانى : « وهبت جروشنكا نفسها لرجل بائس ، لا لك أنت النبيل » ؛ قل له أيضا اننى أحببته ساعة ، ساعة واحدة ، فليتذكر تلك الساعة مدى الحياة ، ان جروشنكا هى التى تأمره بذلك .

ختمت جروشنكا كلامها شبه باكية وأسرعت تغلق النافذة .

غمغم راكيتين وهو يضحك ساخراً :

ـ هـِمْ ... هـِمْ ... تغمد سكينا فى قلبه ، فى قلب أخيك ميتيا ثم هى تريد أن يتذكرها مدى الحياة . يا للسادية !

لم يجب أليوشا . وكان يبدو عليه أنه لم يسمع .انه يسـير الى جانب رفيقه بخطى حثيثة . ولقد كان فى الواقع ذاهلاً يمشى كآلة . شعر راكيتين بألم شديد كأن أحدا قد غرز اصبعه فى جرح له لم يلتئم . ليست هذه هى الخاتمة التى كان يأملها للقاءِ بين أليـوشا وجروشنكا . لقد جرى كل شىء على غير ما كان يتنبأ ؛ ولم يتحقق ما تمنى بكثير من الحرارة أن يتحقق . قال وهو يحاول أن يسيطر على اعتكار مزاجه :

ـ صاحبها الضابط بولندى . على أنه ليس الآن بضابط . لقـد عمل زمناً فى ادارة الجمارك على الحدود الصينية . هو طـِرح حقير ما فى ذلك ريب . يُقال انه طرد من وظيفته . وأغلب الظن أنه علم أن جروشنكا قد جمعت بعض المال ، فها هو ذا يعود ... هـــذه هى المعجزة كلها !

ما يزال أليوشا صامتا • ولم يطق راكيتين صبراً ، فقال وهو يضحك ضحكا ساخرا خبيثا :

ـ هيه ! هل هديتها الى الحق ، هذه الخاطئة ؟ هل رددت المرأة الضالة الى سبيل الرشاد ؟ هل طردت الشياطين السبعة من روحها ، هه ؟ هذه هي المعجزة التى انتظرها الناس طويلاً منذ هذا الصباح ••• لقد تحققت !

قال أليوشا متألماً :

ـ اسكت يا راكيتين !

ـ أبسبب هذه الروبلات الخمسة والعشرين انما تحتقرنى الآن ؟ أترانى بعت صديقا ؟ ما أنت بيسوع المسيح فيما أعلم ولا أنا بيهوذا الأسخريوطى !

ـ أؤكد لك اننى لم أكن أفكر فى هذا الامر • أنت الذى تذكرنى به الآن •

كذلك قال أليوشا ، فغضب راكيتين فى هذه المرة غضبا كاملا ، وأعول يقول :

ـ شيطان يأخذكم جميعا ! انى لأتساءل ما كانت حاجتى الى الارتباط بك ! لا أريد أن أعرفك بعد الآن • امض فى سبيلك وحدك !

ومال فجأة فسار فى شارع آخر وترك أليوشا وحيدا فى الليل •

خرج أليوشا من المدينة واتجه الى الدير خلال الحقول •

٤

عرس قانا

حين وصل أليوشا الى الصومعة كان الوقت متأخراً جدا بالنسبة الى الأنظمة المتبعة فى الدير • وسمح له الراهب البواب أن يدخل من ممر خفى • كانت الساعة التاسعة قد دقت ، وكان كل شىء يستريح بعد نهار مضطرب ذلك الاضطراب كله • تسلل أليوشا وجلاً الى الغرفة التى سُجِّى فيها تابوت الشيخ • كان الأب بائيسى وحيدا فى الغرفة ما يزال يقرأ الانجيل • وكان الراهب المبتدىء بروفير الذى أتعبه الحديث الطويل فى الليلة البارحة وأتعبته انفعالات النهار ، ينام فى الغرفة المجاورة على الارض نوما عميقا يتيحه له شبابه• ولم يلفت الأب بائيسى رأسه رغم أنه سمع دخول أليوشا • اتجه أليوشا الى الركن الذى يقع على يمين الباب ، وجثا على ركبتيه ، وأخذ يصلى• كانت نفسه طافحة ، غير أن المشاعر المختلفة التى عاناها أثناء النهار تختلط الآن فى نفسه اختلاطا مبهما دون أن تكون لأحدها غلبة ، وانما هى تتعاقب ويطرد بعضها بعضا فى حركة مطردة هادئة • وشعر أليوشا بانفعال رفيق عذب يجتاح نفسه ، فكان العجيب فى الامر أنه لم يستغرب ذلك الانفعال • انه يرى أمامه التابوت الذى يضم جثمان الراحل

المحبوب ، يراه من جديد ، ولكن الألم الثقيل الذى كان يجثم على صدره طوال الصباح قد حلت محله الآن عاطفة هادئة وادعة • انه حين وصل قد ركع أمام التابوت ركوعه أمام هيكل ، غير أن فرحاً عذباً يملأ الآن روحه ويفيض من قلبه • كانت احدى نوافذ الغرفة قد تُركت مفتوحة، فمنها يدخل الى الغرفة هواء طرى منعش • قال أليوشا يحدث نفسه : « لا بد أن الرائحة قد اشتدت ما داموا قد قرروا فتح النافذة • » • غير أن فكرة رائحة التفسخ التى أثارت فى نفسه عند الصباح ذلك الاضطراب كله وذلك التمرد كله ، والتى كانت تبدو له رهيبة فظيعة مهينة للقدْر مخلة بالكرامة ، أصبحت الآن لا تزعجه ولا تشعره بشىء من الحرج • أخذ أليوشا يصلى صامتا • ولكنه لاحظ بعد برهة أنه يصلى صلاة آلية• ان نتفاً متناثرة من أفكار تلامس ذهنه ملامسة وتومض فى خياله كشرارات ثم ما تلبث أن تنطفىء ليحل محلها غيرها • وقد أخذ فى بعض اللحظات يصلى بحرارة وحماسة ، شاعرا بحاجة قوية عنيفة الى أن يشكر وأن يحب ••• ولكن فكره ما يلبث أن ينصرف الى شىء آخر ، فاذا هو يغرق فى أحلام غامضة مبهمة تنسيه الصلاة وتنسيه التأمل الذى قطع الصلاة• أصاخ بسمعه فى لحظة من اللحظات الى قراءة الأب بائيسى ، ثم أدركه التعب ، فاذا هو ينحدر شيئا فشيئا الى وسنٍ هادىء رفيق •

« وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليـــل وكانت أم يسوع هناك •• » *

« عرس ؟ ما العرس ؟ وثارت فى فكره زوبعة من الخواطر • هى أيضا سعيدة ••• ذهبت الى احتفال ••• لم تحمل الخنجر ••• ما كان ذلك منها الا قولاً طائشاً ••• يجب أن نغفر الأقوال الطائشة ، لأنهـا تهدىء النفس ••• وبدونها يصبح ألم الانسان أشد من أن يطاق •••

غاب راكيتين فى شارع صغير ••• لسوف يغيب فى شوارع صغيرة ما ظل لا يفكر الا فى الاهانات التى تناله هو ••• أما الطـــريق فهى عريضة لاحبة مشرقة مضيئة ••• مستقيمة طاهرة ••• نقية نقـــاء البلور ••• والشمس هى التى تسطع فى نهايتها ••• ماذا يقرأ الآن ؟ » •

« ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له : ليس لهم خمر ••• »

« ها ••• نعم ، لم أتابع القراءة ، مع أننى كنت لا أحب أن تفوتنى هذه الفقرة ، اننى أحبها كثيرا : عرس قانا ، المعجزة الأولى ••• كانت تلك معجزة ، معجزة الهية ••• لم يجيء يسوع للحزن ، بل للفرح ••• أفرح قلب الناس بتلك المعجزة الاولى ••• « الذى يحب البشر ، يحب فرحهم أيضا • » ••• ذلك ما كان يردده الشيخ الراحل بغـير انقطاع ••• ذلك تعليم من تعاليمه الرئيسية ••• لا يستطيع الانسان أن يحيا بغير فرح ، كذلك يقول ميتيا ••• نعم يا ميتيا ••• كل ما هو عظيم وجميل يشيع منه الغفران الشامل ••• انه هو الذى كان يقول هذا أيضا ••• »

« ••• قال يسوع :

« قال لها يســوع : مالى ولك يا امرأة ! لم تأت ســـاعتى بعد • قالت أمه للخدام : مهما قال لكم فافعلوه ! »

« افعلوا ••• كان ذلك لفرح أناس فقراء ، فقراء مغمورين ، فقرا جدا ، جدا ••• لا شك أنهم كانوا فى فقر مدقع ما دام الخمـــر قد أعوزهم حتى لعـرس ••• يؤكد المؤرخـــون أن الأهالى الذين كانوا يعيشون فى ذلك العصر على ضفاف بحيرة طبرية وفى المناطق المجاورة

لها كانوا أفقر الناس فى هذا العالم ... هـــذه امرأة عليـــا كانت فى العرس ، هى أم يسوع، تشعر فى قلبها بأنه لم ينزل الى الارض الا لهدف واحد هو أن يقوم بتضحيته الهائلة ، وأن نفسه قادرة على أن تشارك فى الفرح البسيط الساذج الذى يحسه هؤلاء الناس المتواضعون المبرأون من المكر ، الذين دعوه بمحبة الى حضور عرسهم الذى لا تألق فيه . قال لها يسوع وهو يبتسم ابتسامة رقيقة : « لم تأت ساعتى بعد » (لا شك أنه ابتسم فى تلك اللحظة ابتسامة لا نهاية لرقتها وعذوبتها) ... أجاء اذن الى الارض ليزيد الخمر فى أعراس الفقراء ؟ ومع ذلك لم يتردد، ولبى رجاءها ... »

« قال لهم يسوع املأوا الأجران ماء ، فملأوها الى فوق . ثم قال لهم استقوا الآن وقدموا الى رئيس السقاة فقدموا ، فلما ذاق رئيس السقاة الماء المتحول خمرا ولم يكن يعلم من اين هى بينما الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا ، دعا العريس وقال له : كل انسان يضع الخمر الجيدة اولا فمتى سكروا وضـــع الرديئة ، أما أنت فقـــد ابقيت الخمر الجيـــدة الى الآن . » .

« ولكن ما هذا ؟ ما معنى هذا ؟ لماذا تتسع الغرفة فجأة ؟ ... آه.. حقاً ... هو الزواج ... هذا عرس ... طبعا .. هؤلاء هم المدعوون ... وهذان هما العريسان ، والجمهور الفرح .. ولكن أين هو اذن ذلك الساقى الحكيم جداً ؟ وهذا ، من هذا ؟ من هذا ؟ الغـرفة تتسع مزيدا من الاتساع ... من ذا الذى ينهض على المائدة الكبرى هناك ؟ كيف هو ؟ أيكون هو أيضا هنا ؟... كنت أحسب أنه فى تابوته .. بلى ! انه هو بعينه ... نهض ... رآنى ... ها هو ذا يقبل علىّ ... رباه ! » .

واقترب فعلاً من أليوشا ، الشيخ الناحل المخدّد وجهـه بغضون

صغيرة . كان فرحاً ، وكان يضحك ضحكا رقيقا حلواً . لقد اختفى التابوت . والشيخ يرتدى الملابس التى كان يرتديها أمس أثناء ذلك الحديث الاخير مع أصدقائه . ان وجهه يشرق مودة ومحبة ، وان عينيه تلتمعان . « كيف أمكن أن يكون هنا ، فى هذه الحفلة ؟ أدعى اذن الى عرس قانا ؟ » . كذلك تساءل أليوشا . فسمع صوتا لطيفا يقول له من فوقه ، صوتا ألف أليوشا أن يسمعه :

ـ نعم يا بنى ، لقد دُعيت أنا أيضا ، دُعيت ونوديت . لماذا تختبىء فى ذلك الركن ؟ لا يكاد يراك أحد . تعال ، وكن منا ...

هو صوته ، صوت الشيخ زوسيما ... لا شك أنه الشيخ ، مادام يناديه . ومدّ الشيخ يده الى أليوشا الراكع ، فنهض أليوشا . وتابع الشيخ المعروق كلامه قائلا :

ـ ألا فلنبتهج ! لنشرب الخمر الجديد ... انه خمر فرح جديد، فرح عظيم جدا ... هل ترى جميع هؤلاء المدعوين ؟ هذا هو الخطيب، وهذه هى الخطيبة ، وهذا هو الساقى الحكيم جدا ، يذوق الخمر المدهشة . لماذا تنظر الىّ هكذا ؟ لقد وهبت بصلة فقُبلت فى هذه الحفلة. كثيرون هنا هم الذين لم يهبوا الا بصلة ، بصلة صغيرة جدا ... كيف الأحوال عندنا ؟ أنت أيضا ، يا بنى الطيب الوادع ، لا بد أنك وهبت اليوم بصلة لجائعة مسكينة . ابدأ مهمتك ، واجه عملك ، يا صغيرى اللطيف ! هل تراه هو ؟ هل ترى يسوع ، شمسنا ؟

دمدم أليوشا يقول :

ـ أنا خائف ... لا أجرؤ أن أنظر اليه .

ـ لا تخف منه . هو مخيف بعظمته التى ترفعه فوقنا ، هو مخيف

بالعلو الذى هبط منه الينا ، ولكن لطفه لا نهايه له • لقد جعل نفسه شبيهاً بنا ، وارتضى بالمحبة أن يشاركنا فرحتنا ، وأحال الماء خمراً حتى لا تنقطع سعادة الضيوف • وهو ينتظر مدعوين آخرين ، وما ينفك يدعو منهم المزيد الى الأبد • انظر • ها هم يجيئون بالخمر الجديد ، ها هم يحملون الأوانى •••

كان قلب أليوشا يحترق احتراقا وقد امتلأ بفرح شديد يصاقب الألم ، وانبجست من عينيه دموع حماسة ••• ومدّ ذراعيه ، وأطلق صرخة ، واستيقظ من نومه •••

التابوت ما يزال فى مكانه ، والنافذة ما تزال مفتوحة ؛ وصوت الأب بائيسى ما يزال يُسمع وقورا هادئا وهو يقرأ الانجيل ببطء • ولكن أليوشا لم يصغ اليه • كان قد نام على ركبتيه • والغريب أنه الآن واقف على قدميه • وها هو ذا يتقدم فجأة ، كأن قوة خفية تدفعه دفعاً ، فاذا هو يصبح قرب التابوت بعد ثلاث خطوات سريعة ، حتى لقد لامس كتف الأب بائيسى دون أن يلحظ ذلك • رفع الأب بائيسى عينيه وألقى على أليوشا نظرة قصيرة ، ولكنه سرعان ما استأنف قراءته ، اذ أدرك أن الفتى كان فى حالة غريبة • وقف أليوشا أمام التابوت نصف دقيقة : تأمل التابوت ، تأمل المتوفى الساكن الذى غُطى وجهه ببرقع، ووُضعت بين يديه أيقونة ، ولُفّ رأسه بقبعة يزينها صليب ذو ثمانية أفرع • لقد سمع أليوشا صوته قبل بضع لحظات ، وما يزال هذا الصوت يترجع فى أذنيه • ان أليوشا يصغى وينتظر ••• أتراه يسمعه من جديد ؟ وفجأة ، استدار أليوشا وخرج من الغرفة •

لم يتوقف عند درجات الباب بل هبطها مسرعا • كانت نفسه التى تطفح حماسة ، فى حاجة الى فضاء وحرية • هذه قبة السماء تعلوه ممتدةً

فى جميع الجهات الى غير نهاية ، مزدحمةً بنجوم تسطع أشعتها سطوعاً هادئاً . ان المجرة ، التى لا تكاد تُرى بعد ، تمتد من السمت الى الأفق . وان ليلة طرية هادئة صامتة ساجية ، يبدو أنها تلف الأرض بأكملها . والأبراج البيضاء والقبب المذهبة من الكنائس تبرز على قاع لازوردى . وأزهار الخريف الغنية تبدو نائمة فى أحواضها التى تحف بالمنزل . ان سكينة الارض تتحد بسكينة السماء ، وان سر الحياة والنجوم يرفرف على العالم ... تأمل أليوشا هذا المنظر ، فاذا هو يتهالك على الأرض فجأة كمن خارت قواه .

لم يعرف أليوشا لماذا عانق الارض ، ولماذا شعر بمثل هذه الحاجة الى أن يغمرها بالقبل . كان يقبلها باكياً ، فيرويها بدموعه ، حالفاً بكثير من الحماسة ليحبنَّها على الدوام ، ليحبنها أبد الدهر ... « اسق الأرض دموعَ الفرح ، وأحبب دموعك » ، كذلك قال له صوت فى أعماق نفسه . لماذا هذه العبرات ؟ كان أليوشا يبكى من الحماسة ، حتى لقد كان يبكى لهذه النجوم التى تنظر اليه من قرارة اللانهاية ، ولم « يكن يشعر بخجل من هذا الوجد الذى ملأ نفسه » . ان الصلات الخفية التى تشده الى هذه العوالم البعيدة ، كانت تهتز عندئذ فى قلبه ، وكان يطير فرحاً من شعوره بنشوء « هذا الاتصال بينه وبين الملأ الأعلى » فى نفسه . كان يشتهى أن يغفر كل شىء لجميع الناس ، وأن يستغفر أيضا لا لنفسه وحدها بل لجميع الناس ، وعن كل شىء . ومرة أخرى قال صوت فى أعماق نفسه : « ان آخرين سيسألون لى اللطف » . وشعر فى الوقت نفسه باحساس واضح جدا ، احساس يشبه أن يكون جسميا ، أن نفحةً قوية خالدة كانت تهبط من قبة السماء ، وتجتاح كيانه كله شيئاً بعد ، شىء ، كفكرة تبزغ فى روحه لتحكمها الى الأبد . كان أليوشا قد سقط على الأرض فتى واهناً ضعيفاً ، ولكنه حين نهض الآن أحس بأنه

مناضل جسور على مدى ما بقى له من أيام فى هذه الحياة • واختلط وعيه لهذا التبدل المفاجىء الذى وقع له ، اختلط بحماسته ، فاذا هو فى حالة نفسية جعلته لا ينسى تلك الدقيقة فى يوم من الايام • وقد ظل يؤكد بعد ذلك باقتناع عميق « أن أحداً قد زار نفسه فى تلك اللحظة» •

وبعد ثلاثة أيام ترك الدير متبعاً وصية الشيخ الراحل الذى « أرسله الى العالم » •

الباب الثامن : ميتيا

١

كوزما سامسونوف

إنّ دمتري فيدوروفتش الذي « أمرت » جروشنكا ، وهي تطير نحو حياة جديدة ، بأن يُبلغ سلاماً أخيراً ، مع المطالبة بأن يحفظ الى الأبد ذكرى ساعة قصيرة من حبٍ وهبته له ، كان يجتاز هو أيضا ، رغم جهله بما كان يحدث للمرأة الشابة ، كان يجتاز فترة عصيبة من الاضطراب الشديد والقلق الرهيب • انه يعيش منذ يومين في حالة نفسية لا سبيل الى وصفها ، حتى ليكاد يصاب باحتقان في الدماغ على حد التعبير الذي استعمله هو فيما بعد • لم يستطع أليوشا أن يهتدي اليه وأن يعثر عليه حين بحث عنه في الصباح ؛ ولا هو جاء بعد ذلك بقليل الى الموعد الذي كان قد ضربه لأخيه ايفان في الكاباريه • وقد صمت أصحاب الدار التي كان يقيم فيها ، نزولاً على ارادته وتنفيذا لأوامره • وظل هو خلال يومين يضرب في الارض على غير هدى وبغير راحة « مصارعاً قدره ساعيا الى خلاصه » ، كما صرّح بذلك فيما بعد • حتى لقد غاب عن المدينة بضع ساعات بسبب أمر مستعجل ، رغم أنه كان يرى أن الابتعاد في مثل هذه اللحظة وترك جروشنكا بلا رقابة أمرٌ

رهيب • سوف نذكر هذه الظروف المختلفة بتفاصيلها بعد قليل ، وحسبي الآن أن أسرد أهم وقائع هـــذين اليومين الرهيبين ، هـــذين اليومين الأخيرين اللذين سبقا سقوط الكارثة على حياته ذلك السقوط القــاسي المفاجيء •

صحيح أن جروشنكا قد أحبته خلال ساعة من الزمان حباً صادقاً، ولكنها في مقابل ذلك قد عذبته مرارا بقسوة لا رحمة فيها • وأنكى ما في الامر أنه لم يستطع أن يفهم عواطفها الحقيقية فهماً واضحا • ولم يكن له أي أمل في أن يكتشف هذه العواطف لا بالملاطفات ولا بالقوة• ولو قد حاول ذلك لعاندته في جميع الاحوال ولتركته غاضبة حانقة • كان هو يشعر بذلك شعورا كاملا • وكان يدرك أنها تجتاز هي نفسها في تلك الساعة أزمة عصبية وأنها تتخبط في حيرة شديدة ، فهي توشك أن تعزم أمرها دائما ثم تتردد كلَّ مرة في آخر لحظة ؛ وكان يقدِّر ـ وليس يخلو تقديره هذا من حق ـ أنها كانت في بعض الأحيان تكرهه وتكره غرامه بها • لعله لم يكن مخطئاً في هذا ، ولكن السبب الحقيقي للقلق الذي تعانيه جروشنكا كان يفوته• وكانت المسألة التي تعذبه انما ترتد في الواقع الى هذا الاختيار بين شخصين لا ثالث لهما : « اما هو ميتيا ، واما فيدور بافلوفتش » • وهنا يحسن أن نوضح النقطة التفصيلية التالية: كان ميتيا مقتنعا اقتناعا مطلقا بأن فيدور بافلوفتش مســـتعد لأن يتزوج جروشنكا (ولعله عرض عليها ذلك) ، وكان لا يتخيـــل في لحظة من اللحظات أن العجوز الفاسق قد خطر بباله أن يصل الى تحقيق أغراضه دون أن يضحي بشيء الا ثلاثة آلاف روبل • هكذا كان يفكر دمتري على أساس ما يظن أنه يعرفه من طبع جروشنكا • لذلك كان من الممكن أن يقدر أن ما تعانيه المرأة الشابة من قلق وتردد انما يرجع الى أنهــا لا تدري من تختار منهما ، جاهلةً أيهما أنفع لها وأجدى عليها • أما

أن يعود فى القريب ذلك « الضابط » ، ذلك الرجل المشئوم الذى احتل هذا المكان كله فى حياة جروشنكا والذى كانت جروشنكا تنتظر وصوله بذلك القدر كله من نفاد الصبر وشدة الخوف ، فان دمترى لم يخطر بباله هذا الامر مرةً واحدة خلال تلك الأيام ، مهما يبد ذلك غريبا • صحيح أن جروشنكا أصبحت منذ زمن طويل لا تكلمه فى هذا الامر، ولكن دمترى كان يعلم أن صاحب جروشنكا قد كتب اليها ، لأنها أطلعته على الرسالة التى تلقتها منه منذ شهر، وكان يعرف بعض ما تضمنته هذه الرسالة • لقد أطلعته جروشنكا على الرسالة بدافع القسوة ، فما كان أشد دهشتها حين رأت أنه لم يول الرسالة أى اهتمام فى أول الامر ، ولا اكترث لها • انه لمن العسير أن نشرح السبب الذى جعل دمترى لا يحفل بالرسالة ولا يقيم لها وزناً كبيرا • لعل ذلك يرجع ، ببساطة ، الى أنه قد بلغ من شدة رزوحه تحت وطأة هول تنافسه مع أبيه على هذه المرأة أنه كان يستحيل عليه أن يتخيل مصيبة أكبر من تلك المصيبة وشقاءً أعظم من ذلك الشقاء ، فى تلك الفترة على الأقل • أضف الى ذلك أنه كان لا يتصور أن من الممكن أن يعود خطيبٌ بعد غياب خمس سنين ، وأنه كان لا يصدق خاصةً أن يعود قريبا • هذا الى أن رسالة « الضابط » لم تتضمن اشارة الى مجيئه الا بكلمات غامضة : لقد كانت الرسالة لا تحتوى الا أمورا عامة ومناجيات غائمة وتصريحات عاطفية • يجب أن نذكر أن جروشنكا قد أخفت عنه الأسطر الأخيرة التى يشير فيها كاتب الرسالة الى عودته القريبة بشىء من الوضوح • وكان دمترى يتذكر عدا هذا أنه لاحظ أن المرأة الشابة ، حين أطلعته على الرسالة ، قد أظهرت على غير ارادة منها احتقارها للرجل الذى كتب اليها الرسالة من أقاصى سيبريا • ولم تفض جروشنكا الى دمترى بعد ذلك بأى شىء عن الاتصالات التى تمت بينها وبين ذلك الرجل ، الى أن نسى دمترى

وجوده شيئاً بعد شيء . فكان لا يشغله الا اعتقاده بان الصراع الحاسم بينه وبين فيدور بافلوفتش يبدو وشيكاً مهما يحدث من أمر ، فلا بد أن تحل هذه المسألة على أى حال من الأحوال قبل سائر المسائل . وكان ينتظر على أحر من الجمر قلقاً ، أن تتخذ جروشنكا قرارها من دقيقة الى دقيقة ، وكان يقدر انها ستتخذ هذا القرار فجأة بما يشبه الوحي أو الالهام ، فتقول له ذات يوم : « خذني ، أنا لك الى الأبد » ، وينتهى كل شيء ، فيقبض عندئذ عليها ، ويمضى بها الى آخر العالم . نعم ... ليأخذنَّها عندئذ فوراً الى أبعد مكان ممكن ، ليأخذنها الى أقصى روسيا ان لم يأخذها الى أقصى الأرض ؛ وسوف يتزوجان ويستقران مجهولين لا يعرفهما أحد ، ولا يمكن أن يهتم بهما أحد بعد ذلك لا هنا ولا هناك . ولسوف تبدأ عندئذ حياة جديدة ! كذلك كان دمترى لاينى يحلم متحمساً بالحياة الجديدة ، الحياة « الفاضلة » (الفاضلة خاصة) . لقد كان فى ظمأ شديد الى هذا التجديد ، الى هذا الانبعاث ، لأنه كان يتألم تألماً قوياً من الحمأة الحقيرة التى تردى اليها وغاص فيها بارادته ؛ وكان ، ككثير من الرجال فى مثل هذه الحالة ، يؤمن بالخلاص عن طريق تغيير البيئة : فلا يرى هؤلاء الناس ولا يعيش فى هذا الوسط بعد الآن . كان يتصور أنه متى ترك هذا المحيط تغير كل شيء بين عشية وضحاها ، وبدأت حياة جديدة على أسس جديدة . ذلك كان أمله ، والى هذه الغاية انما كانت تتجه أحلامه نافدَ الصبر .

غير أن هذا الحل لا يمكن أن يتحقق الا اذا اتخذت جروشنكا القرار الأول ، القرار السعيد التى تختاره فيه من دون أبيه . وهناك قرار ثانٍ ما يزال من الممكن أن تتخذه جروشنكا ، هناك حل آخر رهيب يمكن أن يتحقق ، هو أن تقول له مثلاً على حين فجأة : « اغرب عنى الآن ، فلقد اتفقت مع فيدور بافلوفتش اتفاقا نهائيا وقررت أن أتزوجه،

فلا حاجة بي اليك بعد اليوم • » • ففي هذه الحالة ••• في هذه الحالة ••• لقد كان ميتيا لا يعرف هو نفسه ما قد يحدث عندئذ ، ولقد ظل لا يعرف ذلك الى آخر دقيقة ••• علينا أن نذكر هذه الحقيقة تبرئةً له • انه لم يعقد نيته على شيء ، ولم يفكر في ارتكاب جريمة • كان لا يزيد على أن يراقب ويترصد ويتربص ويتجسس ، ويتعذب بغير انقطاع ، ولكنه لا يتصور الا الحل الأول ، ولا يتنبأ الا بالخاتمة السعيدة، ويطرد من ذهنه كل فكرة أخرى • على أن هناك صعوبة أخرى كانت تنبجس عندئذ وتجعله قلقاً مهموما مغموما ؛ ذلك أن عقبة جديدة تقف عثرة في طريقه حتى حين يتحقق الحل الأول السعيد ، عقبةً خارجية طبعا ، ولكنها عقبة رهيبة يستحيل تذليلها على كل حال •

هب جروشنكا قالت له : « أنا لك ، خذني » ، فما عساه يفعل من أجل أن يرحل معها ؟ أين يجد المال اللازم للسفر ؟ ان الأموال التي هيأتها له دفعات فيدور بافلوفتش قد نفدت نفاداً تاما • صحيح أن جروشنكا تملك مالاً ، ولكن ميتيا كان يشعر عندئذ على حين فجأة بكبرياء شديدة تستيقظ في نفسه ، كبرياء عنيفة لا تنثني ولا تلين • لقد كان يحرص أشد الحرص على أن يتحمل هو نفقات الرحيل ، وأن يبدأ معها حياة جديدة بماله ، ويرفض أن يعيش عالةً عليها • كان لا يطيق أن يتصور أن يأخذ من مالها شيئاً ، وكان اذا تصور ذلك يبلغ من شدة الألم حدَّ الاشمئزاز من نفسه • لن أحاول أن أشرح هنا هذه الحالة النفسية ولا أن أحلّلها ، وحسبي أن أقرر ان هذه كانت عاطفته ، وان هذا كان شعوره • جائز جدا ن يكون هذا الموقف قد أملاه عليه ، على غير شعور منه ، ما قاساه ضميره من عذاب خفي منذ أن استولى على المبلغ الذي ائتمنته عليه كاترين ايفانوفنا • لقد كان دمتري يقول لنفسه في بعض الأحيان ، كما اعترف بهذا فيما بعد : « أنا وغد حقير في نظر

الأولى ، وسأصبح وغداً حقيرا فى نظر الثانية . اذا علمت جروشنكا بالأمر ، فلن ترضى بنذل مثلى » . ولكن أين عساه يجد المال اللازم والحالة هذه ؟ أين عساه يجد المال الذى يحتاج اليه هذا الاحتياج الفاجع كله ، والذى بدونه سيتعرض كل شىء للخطر ، وبدونه لن يمكن أن يتحقق أى هدف ؟ « أكل هذا بسبب مسألة مالية حقيرة ؟ آه ... يا للشقاء ! » .

سأستبق الآن القصة فأشير الى أن متری ربما كان يعلم أين يمكنه أن يجد هذا المبلغ ، وربما كان لا يجهل فى أى مكان يوجد هذا المبلغ. ولن أدخل الآن فى سرد التفاصيل التى ستعرض فى حينها . غير أننى سأبين ، على نحو قد لا يكون واضحاً وضوحاً كافيا (ولكن لا ضير !) ، ماذا كانت الصعوبة الكبرى فى نظره : لقد كان يرى أن عليه ، حتى يستطيع أن يأخذ المبلغ المخبأ فى مكان ما ، حتى يكون « من حقه » أن يستولى على هذا المبلغ ، كان يرى أن عليه أولا أن يردّ الثلاثة آلاف روبل التى يدين بها لكاترين ايفانوفنا . « والا لم أكن الا سارقا صغيرا، الا لصاً حقيراً ، وسيستحيل علىّ عندئذ أن أبدأ حياة جديدة » . كذلك كان يقول ميتيا لنفسه ، ولهذا قرر أن يقلب العالم رأساً على عقب اذا لزم الأمر ، من أجل أن يستطيع ردّ المبلغ الى كاترين ايفانوفنا . وقد اختمر هذا القرار فى نفسه فى الأيام الأخيرة ، أثناء الساعات التى أعقبت لقاءه أليوشا فى الطريق ، بعد أن علم من أخيه بأمر الاهانة التى ألحقتها جروشنكا بكاترين ايفانوفنا ، فهتف يقول : «قل هذا عن لسانى لكاترين ايفانوفنا اذا كان ذلك يمكن أن يهدىء روعها » . ولقد شعر أثناء تلك الليلة ، وهو على ما هو عليه من اضطراب شديد ، « بأنه يحسن صنعاً اذا هو قتل أحداً وسلبه ما معه فى سبيل أن يرد الى كاتيا مالها » . قال يخاطب عندئذ نفسه : « ألا فلأصبح قاتلاً ولصاً فى نظر ضحيتى وفى

نظر جميع الناس ، ألا فلأُرسَل الى سجون الأشغال الشاقة بسيبريا ، في سبيل أن لا تستطيع كاتيا أن تقول عني انني لم أخنها فحسب ، وانما سرقتها أيضا وسطوت على مالها لأهرب مع جروشنكا وأبدأ بذلك حياة جديدة . لا أطيق أن تقول عنيّ كاتيا هـــذا الكلام ! » . ذلك ما كان يحدث به ميتيا نفسه وهو يكز أسنانه ، وكان من حقه فعلاً أن يخشى أن يصاب باحتقان في دماغه . ولكنه كان ، حتى تلك اللحظة على الأقل، ما يزال يكافح ...

والامر الغريب أنه كان من الممكن أن يبدو له أن الهـدف الذي يسعى اليه لا يمكن تحققه وانه لم يبق له الا أن يياس ، فمن أين يمكنه الحصول على مثل هذا المبلغ الكبير من المال بينما هو يتخبط منذ الان في فقر مدقع وبؤس أسود . ومع ذلك ظل يأمل حتى النهاية ، واثقاً من أنه سعيثر على مبلغ الثلاثة آلاف روبل هذا ، وأن هذا المبلغ سيهبط عليه من السماء عند الحاجة . فكذلك يفكر على وجه العموم أولئك الذين لم يعرفوا في حياتهم الا تبديد ما ورثوا ، مثل دمتري ، والذين يجهلون كل شيء عن طريقة جني الرزق وتحصـــيل المال . ان مشاريع خيالية عجيبة تغلي وتفور في ذهنه منذ أن ترك أليوشا قبل يومين ، وقد اختلطت في عقله أبسط المعاني واضطربت أيسر الأفكار ، فبدأ مساعيه بمشروع هو أسخف ما يمكن أن يتخيله الخيال من مشاريع . ومن الجائز على كل حال أن تكون أشد الأفكار شذوذا وأكثرها اغرابا وأعمقها ايغالاً في عالم الأوهام هي التي تفرض نفسها أكثر من غيرها على أناس من نوعه في ظروف كظروفه ، وتبدو لهم سهلة التحقيق . لقد قرر دمتري أن يذهب الى التاجر سامسونوف ، حامي جروشنكا ، ليعـــرض عليه « صفقةً » ويحصل منه فورا على الثلاثة آلاف روبل سلفةً على الربح. كان دمتري لا يخامره شك في قيمة مشروعه من الناحيـــة التجارية ،

وانما كان يتساءل كيف عسى يستقبله العجوز • وكان دمترى يعرف العجوز وجهاً ، ولكنه لم يكلمه يوما حتى ذلك الحين • وكان مقتنعا منذ زمن طويل ، على كل حال ، سواء أكان اقتناعه هذا خطأ أم صوابا ، بأن هذا العجوز الفاسق الذى وضع احدى قدميه فى القبر منذ الآن ، لن يعارض فى أن تبنى جروشنكا لنفسها حياة شريفة بتزوج رجل «يستحق الثقة» • كان يقول لنفسه : « أغلب الظن أن العجوز لن يرى أى ضير فى هذا ، بل لعله يتمناه ويساعد فى تحقيقه اذا عرضت الفرصة • • » • وكان يعتقد أيضا ، على أساس شائعات غامضة وعلى أساس أقوال أفلتت من جروشنكا ، أن سامسونوف يؤثره على فيدور بافلوفتش زوجاً للمرأة الشابة فى المستقبل • وربما كان بعض قرائى يرون أن حسابا كهذا الحساب من جانب دمترى ، وما عقد عليه النية من استلام خطيبته من يدى حاميها ان صح التعبير ، يدلان على أن دمترى فيدوروفتش يفتقر الى رقة الشعور وأناقة السلوك افتقارا شديدا ، وأنه امرؤ تخلو نفسه من وساوس الضمير خلواً عجيباً • ولكننى أجيب على هذا بقولى ان ميتيا كان يرى أن ماضى جروشنكا قد دُفن الى الأبد • لقد كان شقاؤه وسقوطه يوقظان فى نفسه شفقة عظيمة ورحمة لا حدود لها • لقد دفعته حرارة الهوى الى الاعتقاد بأن جروشنكا ستبعث بعثاً جديدا وتصبح امرأة جديدة متى صارحته بحبها وقررت أن تتزوجه ، وأنه سيُبعث هو نفسه بعثاً جديدا ، فيكون فى وسعهما كليهما أن يبدءا حياة مبرأة من كل اثم ، حياةً كلُّها فضيلة : لسوف يغفر كل منهما لصاحبه أخطاءه ، ويعيشان حياة جديدة كل الجدة • أما كوزما سامسونوف فكان دمترى يرى أنه قد لعب فى حياة جروشنكا ابان صباها دوراً مشئوماً و لاشك ، وأنه لم يحبها على كل حال ، ولكن دمترى كان يرى أيضا أن كوزما ــ وهذا هو الأمر الأساسى ــ قد « انقضى » هو أيضا ، فلا يُحسب بعد الآن •

أضف الى ذلك أنه لم يكن يستطيع كثيراً فى اللحظة الراهنة أن يرى فى هذا العجوز رجلاً ، فلقد كان معلوما فى المدينة أن كوزما ليس اليوم الا خرقة بالية ، وكان الناس لا يجهلون أنه لم تبق له بجروشنكا الا علاقات أبوية ان صح التعبير ، وذلك منذ زمن غير قصير ، منذ ما يقرب من عام • صحيح أن موقف ميتيا هذا فيه كثير من السذاجة ، ولكن ميتيا كان على جانب عظيم من السذاجة حقاً رغم جميع عيوبه • فكذلك كان يظن لبساطته أن العجوز كوزما الذى يشعر بأنه يوشك أن يبارح هذا العالم كان يحس بندامة صادقة على سلوكه مع جروشنكا؛ وأن جروشنكا ليس لها فى هذا العالم فى هذه اللحظة صديق أشد اخلاصاً وأكثر تنزها من هذا العجوز الذى أصبح الآن لا يُخشى منه أذى •

ففى غداة الحديث الذى جرى بين ميتيا وأليوشا على الطريق ، ذهب ميتيا الذى لم يغمض له جفن طوال الليل ، ذهب الى منزل سامسونوف فى الساعة العاشرة من الصباح ، وأعلن عن نفسه • المنزل مبنى حزين المظهر ، عظيم الاتساع ، له طابق فوق الطابق الأرضى ، وله ملحقات كثيرة وجناح فى الفناء • ان الطابق الأرضى يسكنه ابنا التاجر المتزوجان ، وأخته الطاعنة فى السن ، وابنته التى لم تتزوج • أما الجناح الذى فى الفناء فيسكنه اثنان من مستخدميه فى تجارته ، أحدهما ذو عائلة كبيرة • ان أولاد سامسونوف ومستخدميه تضيق بهم مساكنهم ، بينما الطابق الأعلى وقف على سامسونوف وحده ، الذى كان يرفض حتى أن تشاركه فيه ابنته • ومع ذلك كانت ابنته هذه تعتنى به وترعاه ، وكان عليها ، فى ساعة محددة ، وكلما ناداها ، أن تذهب اليه وأن تصعد السلم رغم مرض الربو الذى تشكو منه منذ زمن طويل • ان الطابق الأعلى الذى يسكنه العجوز يتألف من حجرات واسعة متتابعة ، مؤثثة على الطراز الذى كان يحبه التجار فى الماضى ، قد اصطفت على طول جدرانها مقاعد

متشابهة ثقيـــلة من خشب الأكاجو ، وعُلِّقت فى ســقوفها ثريات من الكرستال مجللة بأغطية ، ووضعت فى زواياها مرايا قاتمه • ان هــذه الحجرات خاليه من السكان الآن ، لأن العجوز المريض أصبح لايغادر غرفة نومه الصغيرة التى تقع فى آخر البيت والتى تخدمه فيها خادم عجوز تقمط رأسها دائماً بمنديل ، و « صبى » ينـــام على دكه فى الدهليز • وقد أصبحت ساقاه المتورمتان لا تكادان تتيحان له أن يمشى ، فهو يكتفى بأن ينهض عن كرسيه بمساعدة الخادم العجوز من حين الى حين ليسير بضع خطوات فى الغرفه • وهو قاسى الطبع متجهم المزاج لا يتكلم الا قليلاً حتى مع هذه الخادم •

فلما أُبلغ زيارة « الكابتن » ، رفض أن يستقبله فى أول الأمر ؛ ولكن ميتيا ألحَّ أن يراه ، فسأل العجوزُ الصبيَّ هل يبدو على الزائر أنه سكران أو هل يظهر عليه أنه يسعى الى فضيحة • فقال الغلام :

ـ لا ••• ما هو بسكران ، ولكنه لا يريد أن ينصرف •

فرفض العجوز مرة أخرى أن يُفتح بابه • ولكن ميتيا لم يفقد سيطرته على نفسه ولم يذهب صبره ، لأنه كان قد تنبأ بالأمر ، وتزود سلفاً بقـلم وورقة • فها هو ذا يكتب على الورقة « أن القضـــية قضية مستعجلة تتصل بأجرافين ألكسندروفنا من كتب » ، ويرسل الورقة الى التاجر العجوز • فكَّر سامسونوف بضع لحظات ، ثم أمر الصبى بادخال الزائر الى الصالون ، وأسرع يرسل الخادم العجوز فى الوقت نفسه الى ابنه الأصغر آمراً اياه أن يصعد اليه فورا ، فسرعان ما حضر الابن دون أن ينطق بكلمة • انه رجل طـــويل القامة عريض الجسم قـــوى قوة هرقلية ، حليق اللحية يرتدى الزى الألمانى (أما سامســـونوف نفسه فكان يرتدى قفطانا وكانت له لحية) • ان جميع أفراد الأسرة يرتعدون

خوفا أمام الأب • ولقد استدعى العجوز ابنه القوى هـــذا لا خوفاً من الكابتن ، فانه لا تعوزه الشجاعه ، ولكن ليكون هنالك ساهد ذا لزم أن يكون هناك شاهد • وها هو ذا يتسند على ابنه وعلى الصبى فيظهر أخيرا فى عتبة الصالون كتله مائجه • وربما كان ينبغى أن نســلّم بأنه كان يشعر بكثير من الاستطلاع والفضول •

ان الصالون الذى كان ميتيا ينتظر فيه هو غرفة واسعة كالحه ، من شأن مظهرها وحده أن يقبض الصـــدر ويهيء النفس للحزن ، وهى مزدانة بثلاث ثريات كبيرة مجلله بأغطية ، وسماط من اللوحات تصطف فى القسم الأعلى من الجدران المصنوعة من مقلّد المـــرمر • كان ميتيا جالساً على كرسى قرب الباب ينتظـــر أن ينقرر مصيره وهــو فى حالة عصبية شديدة• فلما ظهر العجوز فى الباب المقابل له على مسافة عشرين مترا ، نهض فجأة وتقدم نحوه بخطى واسعة حازمة هى خطى جندى • لقد كان حسن الهندام ، يرتدى ردنجوتاً معقود الأزرار ، ويحمل بيديه قبعة مدوّرة ، ويلبس قفازين سوداوين ، تماما كما كان قبل ثلاثة أيام فى الدير عنـــد الشيخ أثناء لقائه بفيـــدور بافلوفتش وأخويه • انتظره العجوز واقفاً ، رصين المظهر وفور الهيئة ، وشعر ميتيا حين اقترب منه أنه كان يتفرس فيه ويفحصه بانتباه • وقد خطف بصره ما كان قد أصاب وجه كوزما كوزمتش من تورم شديد منذ زمن • ان شفة كوزما السفلى، وهى شفة سميكة ، تتدلى الآن تدلـياً • انحنى سامسونوف أمام ضيفه صامتا رصينا ، وأشار له الى مقعد أمام كنبة جلس عليها هو بتهالك بطىء مستندا الى ابنه مطلقا من صدره بعض الأنين • فسرعان ما شعر ميتيا أمام هذه الجهود الأليمة التى يبذلها العجوز ، بعذاب الضمير من أنه ، وهو الشاب التافه ، قد أجاز لنفسه أن يزعج شخصية مرموقة كهذه الشخصية الكبيرة •

قال العجوز أخيرا بعد أن استقر على الكنبة :

ـ ماذا تريد يا سيدى ؟

وقد ألقى هذا السؤال بصوت بطىء قاس ، مجزئاً مقاطع كلماته، ولكنه ألقاه بلهجة مؤدبة مهذبة .

ارتعش ميتيا ، وأراد أن ينهض ، ولكنه عاد يجلس فورا ، وبدأ شروحه متكلما بسرعة كبيرة وعصبية سديدة ، مكثرا من الحـــركات والاشارات ، لأنه كان فى حالة اهتياج عظيم . فمن رآه أحس أنه أمام رجل اندفع الى آخر مدى يحاول أن يجد مخرجاً من مأزقه وأنه مستعد لأن يلقى نفسه فى الماء اذا أخفق . ولا شك أن العجوز سامسونوف قد لاحظ ذلك من أول نظرة ، ولكن وجهه ظل باردا هادئا رصينا مغلقا كأنه وجه تمثال .

ـ لا شك أن كوزما كوزمتش المحترم جدا قد سمع عن منازعاتى مع أبى فيـــدور بافلوفتش كارامازوف الذى ســـلبنى ميراثى من أمى المرحومة ... ان المدينة كلها تلغط فى هذا الأمر منذ زمن طويل ، لأن الناس هنا قد تعودوا هذه العادة البشعة وهى أن يهتموا بما لا يعنيهم .. ولا شك أنك علمت من جروشنكا ـ معذرة ، أردت أن أقول أجرافين ألكسندروفنا التى أحترمها وأبجلها الى غير حد ...

بهذه الكلمات بدأ ميتيا حديثه ، ثم لم يلبث أن اضـطرب . على أننى لن أنقل هنا أقواله كلمة كلمـــة ، وحسبى أن ألخص مضمونها الأساسى . اليكم ما ذكره دمترى : لقد ذكر أنه استشار منذ ثلاثة أشهر محاميا من البندر (كان ميتيا يتعمد أن يستعمل فى شروحه تعابير رائجة فى البيئة التى ينتمى اليها سامسونوف) . قال :

ـ ذهبت الى بافل بافلوفتش كورنيلودوف الشـــهير الذى لعـلك

تعرفه يا كوزما كوزمتش ••• هو انسان عريض الجبهة ••• له ذكاء يشبه أن يكون ذكاء رجل دولة ••• انه يعرفك أيضا ••• وقد أثنى عليه ثناءً عظيما •••

هنا اضطرب ميتيا من جديد وأرتج عليه • ولكنه كان يثوب الى نفسه فى كل مرة ، منتقلاً الى فكرة جديدة بدون تدرج • عاد يقول ان كورنيبلودوف هذا ، بعد أن أصغى الى شروح ميتيا ، ونظر فى الأوراق التى وضعها بين يديه (لم تكن شروح ميتيا بصدد هذه الأوراق واضحة ، وانما هو مرّ على هذا الجزء من حديثه مروراً سريعاً ، رأى ، فيما يتعلق بقرية تشرماشنيا ، وهى القرية التى كان يجب أن تئول اليه مع اننى لم أستطع أن آخذ من هذا الرجل القاسى الا سبعة عشر ألف على العجوز النذل ،وأن هذه الدعوى يمكن أن تضع العجوز فى مأزق صعب ••• « لأن جميع الطرق ليست مسدودة ، ولأن القضاء يعرف كيف يجد الطريق التى تؤدى الى الهدف » ؟ أى أن من الممكن الحصول بهذه الوسيلة من فيدور بافلوفتش على مبلغ يصل الى عشرة آلاف روبل من قبيل التعويض ، لأن تشرماشنيا تساوى فى الواقع خمسة وعشرين ألف روبل ، وحتى ثمانية وعشرين ألف روبل حتماً •

ـ ثلاثون ألف روبل ، ثلاثون ألف روبل يا كوزما كوزمتش ، مع اننى لم أستطع أن آخذ من هذا الرجل القاسى الا سبعة عشر ألف روبل ، تصور ! ولكننى آثرت أن لا أرفع دعوى، لأننى لا أفهم فى شئون المخاصمات شيئاً ••• فلما وصلت الى هذه المدينة رأيتنى ألاحَق وأطارَد (هنا اضطرب ميتيا أيضاً وأسرع يقفز الى موضوع آخر) ••• هل تقبل ، فى هذه الشروط ، يا كوزما كوزمتش المحترم ، أن أتنازل لك عن جميع حقوقى عند هذا الشيطان الرجيم ، على أن تدفع لى فى مقابل ذلك ثلاثة آلاف روبل فحسب ؟ ••• انك لا تجازف بشىء على

الاطـــلاق ، أؤكد لك ذلك صـــادقاً ، وأحلف لك عليه بشرفى ... بالعكس : لسوف تُردُّ اليك هذه الثلاثة آلاف ستة أو سبعه ... وانما المهم أن تتم هذه الصفقة كلهـا « اليوم » . اننى مســتعد لأن أوقع عقداً مسجلاً لدى الكاتب بالعدل ، أو شيئاً من هذا القبـيل ... أى اننى مستعد لكل شيء ... أعطيك الأوراق التى ستحتاج اليها ، وأتنازل لك عن جميع الحقوق التى تريدها ... نبرم العقـد فوراً ، فى هذا الصـباح ان أمكن ، اذا كنت تستطيع ذلك ... ثم تعطينى الثلاثة آلاف روبل ... أنت الذى تعد أغنى رجـــل فى هذه المدينة ... وبذلك تنقذنى وتهب لى فرصة تحقيق مشروع سامٍ جداً نبيل جـــداً فى الواقع ... فاننى أضمر عواطف رقيقة لانسانة تعرفها أنت وتسهر عليها وترعاها رعاية الأب ابنته ؛ وما كان لى أن أجيء اليك لولا علمى بأنك قد أصبحت لها بمثابة الأب حقاً . واذا شـئنا الدقة فى التعبير وجب أن نقول ان رجالاً ثلاثة يتصادمون هنا ، لأن القدر قوة هائلة رهيبة يا كوزما كوزمتش . فلنكن واقعيين يا كوزما كوزمتش ، لنكن واقعيين ! واذ انك أصبحت منذ زمن طويل لا تُحسب فى عداد المتصادمين ، فلم يبق هنا لك الا خصمان يتنازعان . اننى أعبر عما بنفسى تعبيراً أخرق ، أنا أعرف ذلك ، ولكننى لست بأديب . المهم أنه لم يبق هنالك الا أنا من جهة ، وذلك الشيطان الرجيم من جهة أخرى . فاختر الآن : أتختـــارنى أنا أم تختار ذلك الشيطان ؟ كل شيء متـوقف عليك منــذ الآن . انك تملك فى يديك مصائر ثلاثة أشخاص ، وعليك أنت أن ترمى النرد فتفصل فى الأمر.. اعذرنى اذا رأيتنى أرتبك ولا أحسن التعبير : ولكنك ستفهمنى ولا شك. اننى أرى من نظرات عينيك المحترمتين أنك ستفهمنى ، فان لم تفهمنى فلن يبقى لى الا أن ألقى نفسى فى الماء ، هذا هو الأمر ...

قطع ميتيا حديثه الغـــريب المدهش فجأة بعـــد أن نطق بجملته

السخيفة تلك : « هذا هو الأمر » ، ونهض عن مكانه بوثبة واحدة ينتظر الردّ على عرضه المضحك • لقد أحس على حين بغتة وهو يختم تلك الجملة ، أن كل شيء قد ضاع الى غير رجعة ، وأنه قد ارتكب على وجه الخصوص حماقة كبرى • قال يحدث نفسه مضطرباً مرتبكاً متحيراً « غريب ! كنت حين وصولى أحسُ أن الفكرة رائعة ، فاذا هى لا تسفر فى النهاية الا عن غباء » وكان العجوز أثناء تدفق ميتيا فى الكلام ، يحافظ على هدوء وضعه ، ويلاحظ محدثه وقد لاح فى عينيه تعبير بارد برودة الثلج • فلما أنهى ميتيا كلامه ، جعله العجوز ينتظر الجواب دقيقة ، ثم قال له بلهجة حازمة موئسة :

ـ متأسف يا سيدى ! اننى لا أتعاطى أعمالا من هذا النوع •

أحس ميتيا بساقيه تنثنيان ! وتمتم يقول وهو يبتسم ابتسامة يرثى لهـا :

ـ ولكن يا كوزما كوزمتش ، ما عسى أصير اليه فى مثل هـذه الحالة ؟ لقد هلكتُ اذن ، ألا تصدق ذلك ؟

ـ آسف •••

لبث ميتيا جامداً ساكن النظـرة ، ولكنه لاحظ عندئذ شيئا من الانفراج فى عضلات وجه سامسونوف ، فارتعش وعاوده الأمل فجأة • قال العجوز :

ـ أنا يا سيدى لم أتعود تعاطى أعمال كهذه ، فاننى أكره الدعاوى وأمقت المحامين ••• ومع ذلك فى وسعى أن أدلك ، اذا شئت ، على شخص يمكنك أن تتجه اليه وتتكل عليه •••

فدمدم ميتيا يقول :

ـ من هـو ؟ آه ••• يا رب ! انك تردُّ الىَّ الحيـاة يا كوزما كوزمتش !

ـ ليس هذا الرجل من هنا ، وليس يقيم الآن فى هذه المدينة أيضا. انه فلاح يتعاطى تجارة الخشب . اسمه لياجافى . وهو يتفاوض منذ سنة مع فيدور بافلوفتش على ثمن الأشجار التى آن قطعها فى قريتك تلك نفسها تشرماشنيا ، ولكنهما لم يتفقا على الثمن كما لعلك تعلم ذلك . وقد جاء الى المنطقة من جديد ، وهو يسكن الآن عند القس ايلنسكى فى قرية ايلنسكى التى تبعد اثنى عشر فرسخا عن محطة فولوفيا . وقد كتب الىّ فى موضوع الأشجار هذه مستنصحاً . وأحسب من جهة أخرى أن فيدور بافلوفتش يعتزم الذهاب اليه . فاذا أنذرت فيدور بافلوفتش وعرضت على لياجافى ما عرضته علىّ الآن ، فمن الجائز أن ...

فقاطعه ميتيا قائلاً بحماسة :

ـ ولكن هذه فكرة عبقرية ! ذلك هو الرجل الذى أنا فى حاجة اليه ؟ هذه الصفقة صفقته ! انه يساوم على السعر ، ويُطلب منه مبلغ باهظ ثمناً لأشجار يقطعها ، فاذا هو يجد بين يديه أوراقا تجعله مالكاً للمنطقة بأسرها ! هاهاها ! ...

انفجر ميتيا يضحك ضحكته الصغيرة الجافة على نحو لم يكن فى حسبان العجوز ، فلم يملك العجوز الا أن يرتعش قليلا .

واستأنف ميتيا كلامه قائلا وهو يغلى ويفور أملاً :

ـ كيف أشكر لك جميلك يا كوزما كوزمتش ؟

فقال سامسونوف وهو يحنى رأسه :

ـ لا داعى الى الشكر .

ـ أوه ! انك لا تعلم ... لقد أنقذتني من اليأس ... قلبي هو الذي هداني اليك ... والآن ، الى ذلك القس !

ـ لا داعي الى الشكر .

ـ انني ذاهب الى هناك ! سأركض الى هناك ركضاً ! لقد أسرفت في الاستفادة من لطفك وذوقك وكياستك ، بينما أنت مريض موجع.. أوه ! لن أنسى جميلك ما حييت . ان روسياً هـــو الذي يعدك بذلك ، رو .. سياً ...

ـ طيب .

أراد ميتيا أن يمسك يد العجوز ليصافحها شـاكراً ممتناً ، ولكنه لاحظ وميضا خبيثا في عيني العجوز في تلك اللحظة ، فأمسك فـورا ، وأرخى يده ، غير أنه سرعان ما لام نفسه على سوء ظنه ، وقال لنفسه : « لا بد أن يكون متعبا ... » ، وهتف يقول بصوت مدوٍ :

ـ هذا من أجلها يا كوزما كوزمتش ، هذا في سبيلها !

ثم حيَّا العجوزَ بانحناء ، واستدار ، واتجه نحـــو الباب بخطى واسعة دون أن يلتفت بعد ذلك . كان ينبض حماسة . قال لنفســـه : « ظننت أن كل شيء قد ضاع . ولكن ملاكي الحارس أنقذني . فحين يدلني رجل خبير من رجال الأعمال على هذا الطريق (ما أنبل نفسه ، وما أعظم مهابته !) ، فمعنى ذلك أنني ربحت القضية ... ما ينبغي أن أضيع دقيقة واحدة . سأذهب الى هناك حالاً . ثم أعود قبل الليل ... نعم قبل الليل . آه ... أصبح الأمر في جيبي ! ذلك أن العجوز لايمكن أن يكون قد سخر مني على كل حال ! » . بذلك كان ميتيا يحدث نفسه وهو يتجه الى بيته . ولم يكن يمكنه في الواقع أن يتصـــور الا أحـد أمرين لا ثالث لهما : فاما أن المسألة مسألة حل مضمون يوصي به رجل

له خبرة سامسونوف الذى كان على علم بالموقف وكان عدا ذلك يعرف لياجاقى هذا ــ يا له من اسم غريب ! ــ واما أن العجوز قد سخر منه وضحك عليه ! والحق أن هذا الافتراض الثانى كان هو الصحيح • لقد ظل العجوز سامسونوف زمناً طويلا بعد وقوع الكارثة يضحك كلما تذكر أنه دبَّر مكيدة لهذا « الكابتن » • ان سامسونوف انسان سيء الطوية قاسى القلب ساخر النفس ، كثيرا ما يخالط الكرهَ فى نفسه مرض • ترى هل فعل ذلك بسبب ما رآه عند ميتيا من حماسة شديدة وحميا عظيمة واعتقاد ساذج بأنه ، هو سامسونوف ، يمكن أن تنطلى عليه هذه العروض الخداعة تصدر عن رأس محموم و « سلة متقوبة » من هذا النوع ؟ أم أنه فعل ذلك بسبب ما شعر به من غيرة على جروشنكا التى جاء هذا « الولد الطائش الفاجر » يسأله المال باسمها من أجل مشروع سخيف مضحك ؟ لا أدرى أى الدافعين فعل فى نفس الشيخ حين كان ميتيا يقف أمامه شاعرا بانثناء ساقيه هاتفا فى غباء أنه هلك ! المهم أن سامسونوف انما ألقى عليه فى تلك اللحظة نظرات خبيثة وقرر أن يضحك عليه ويسخر منه •

وما ان انصرف ميتيا حتى التفت كوزما كوزمتش الى ابنه ، وقد شحب لونه من شدة الغضب ، فأمره بأن يفعل كل ما يجب فعله حتى لا يستطيع هذا الشاب الرث أن يظهر فى منزله مرةً أخرى فى المستقبل وأن لا يُسمح له بدخول الفناء ، والا •••

ولم يكمل كوزما كوزمتش تهديده ، ولكن ابنه ارتعد خوفا ، رغم أنه سبق أن رآه غاضبا مرات كثيرة • وظل العجوز بعد ذلك ساعةً كاملة فريسةَ حنق شديدٍ يرتعش منه جسمه كله • حتى اذا جاء المساء أحسَّ بألم ووهن ، فنادى الممرِّض الذى يجرعه أدويته •

٢

لياجافي

كذلك كان يردد ميتيا على نفسه • ولكنه لم يكن قد بقي معــه مال لاستئجار خيول • ان في جيبه بضعة قروش ، فذلك كل ما بقي له من سـنى الثراء التي عاشها ! لكنه تذكر أن عنده في البيت ساعة قديمة من فضــه ، متعطلة منذ زمن طـويل • فحملها الى تاجـــر ساعات يهودى ، له دكان قرب السوق ، فاشتراها منه هذا التاجر بسـتة روبلات • هتف ميتيا يقول لنفسه متحمسا : «لم أكن آمل أن أحصل على هذا المبلغ كله ! » (أصبحت حماسة ميتيا لا تفتر !) ، وعاد الى مسكنه بالمبلغ مسرعاً ، وأكمله باقتراض ثلاثة روبلات من أصحاب الدار التى يقيم فيها • ولقد قبل أصحاب الدار أن يقرضوه راضين مسرورين ، رغم أنهم كانوا هم أنفسهم في عسر، وذلك لأنهم يحبونه كثيراء وأبلغهم ميتيا ، وهو على ما هو عليه من فرح طافح ، أن مصيره سيتقرر ، وشرح لهم ، ببضع كلمات سريعة جداً ، « الخطة » التي عرضها على سامسونوف والقرار الذى اتخذه سامسونوف ، والآمال التى أشرقت فى نفسه ، الخ • وكان هؤلاء الناس الطيبون على علم سابق ببعض أسراره ، وهذا هو السبب فى أنهم كانوا يعدونه واحدا منهم ، فهو « سيد » لا يتكبر ولا يتعالى • فلما أن جمع ميتيا تسعة روبلات على هذا النحو ، أمر بخيول

للسفر الى فولوفيا • ولكن هذا ألّف واقعة ثابتةً ستُذكر فيما بعد : « في عشية الحادثة ، لم يكن ميتيا يملك قرشاً واحداً ، حتى لقد اضطر ، من أجل الحصول على شيء من المال ، أن يبيع ساعته وأن يستدين ثلاثة روبلات من أصحاب الدار ، وذلك كله تشهد به شهود • » •

انني أذكر هنا هذا الظرف الذي ان تظهر خطورة شأنه الا فيما بعد •

كان ميتيا ، أثناء انطلاق الخيول به الى فولوفيا بسرعة ، مشرق الآمال متهلل النفس • كان يتنبأ فرحاً بأن « جميع هذه الشئون » ستسوّى أخيرا • ومع ذلك كان يقلق ويرتعش خوفا في بعض اللحظات حين يتساءل ما عسى تصير اليه جروشنكا أثناء غيابه • هبها قررت في ذلك المساء نفسه أن تذهب الى فيدور بافلوفتش ؟ انه بسبب هذا الافتراض انما قرر أن لا ينبئها بأمر سفره ، كما أنه أمر أصحاب داره أن لا يكشفوا لأحد عن المكان الذي سافر اليه اذا هم سئلوا عن ذلك • «يجب أن أعود قبل هبوط الليل ، مهما كلف الأمر ، مهما كلف الأمر » • كذلك كان يكرر لنفسه بينما كانت العربة تنطلق به الى فولوفيا مسرعة وتهزه هزاً قوياً • وكان يحدث نفسه أثناء تعجله المحموم هذا قائلاً : « أما لياجافي هذا ، فسوف أعود به معي ، لابرام العقد » • ولكن حلمه لن يتحقق على ما رسم له من « خطط » وا أسفاه !

فهو أولاً قد وصل متأخراً ، لأنه سلك ، ابتداء من فولوفيا ، طريقا من الطرق التي تصل بين القرى الصغيرة ، فلم يقطع اثني عشر فرسخاً بل ثمانية عشر • ثم ان القس ايلنسكي لم يكن في بيته لأنه كان قد ذهب الى ضيعة مجاورة • فلما عثر عليه ميتيا أخيرا في تلك الضيعة التي تابع طريقه اليها بخيوله المكدودة المنهوكة ، كان الليل قد أوشك أن يهبط • وسرعان ما ذكر له هذا الكاهن ، وهو رجل لطيف خجول

المظهر ، أن لياجافى قد نزل عنده فعلاً فى أول الأمر ، ولكنه يقيم الآن فى سوخوى بوزيبولوك ، وأنه سيبيت هذه الليلة فى عزبة حارس الحراج لأن له أعمالاً يجب أن ينجزها هناك . فتوسل اليه ميتيا أن يصحبه فورا الى لياجافى وأن « ينقذه » بذلك ، فتردد القس فى أول الأمر ، لكنه وافق أخيرا على أن يرافقه حتى سوخوى بوزيبولوك ، وكان واضحا أن الفضول هو الذى دفعه الى هذه الموافقة . ومن سوء الحظ أنه نصح بقطع الطريق سيراً على الأقدام ، لأن المسافة لا تزيد على فرسخ واحد أو « أكثر قليلاً » . وكان طبيعيا أن يقبل ميتيا هذا الاقتراح ، فأخذ يسير بخطى مديدة على عادته فى السير ، فكان الكاهن العاثر الحظ مضطراً الى أن يماشيه راكضاً أو شبه راكض . ان هذا الكاهن رجل ما يزال غض الاهاب ، وهو فى أحاديثه شديد التروى والتعقل والحذر . وسرعان ما أطلعه ميتيا على مشاريعه ، عرضها له بحرارة وسأله بعض النصائح فى أمر لياجافى ، بالحاح عصبى ، وظل يتكلم على هذا النحو طول الطريق . فكان القس يصغى الى كلامه بانتباه ، ولكنه كان ضنيناً بالأجوبة ، يقتصر على أن يكرر فى الجواب على أسئلة ميتيا الملحة : « لا أعلم ، مع لأسف . أنى لى أن أعلم ! » . ولما حدثه ميتيا عن نزاعه مع أبيه فى موضوع الميراث ، ذعر القس ، لأنه كان مرتبطاً بفيدور بافلوفتش من بعض النواحى فيما يبدو ؟ ومع ذلك سأل ميتيا عن سبب اطلاقه اسم لياجافى على هذا الفلاح جورسكين ، وذكر له أن هذا الفلاح لا يسميه أحد بهذا الاسم رغم انه اسمه فعلاً ، لأنه يستاء استياءً شديداً من مناداته بهذا الاسم ، وانه لا غنى عن مخاطبته باسم جورسكين « والا فلن تفلح معه فى شىء ، بل ولن يسمع لك » . بهذه العبارة ختم القس كلامه ، فدهش ميتيا قليلاً ، وأجاب بأن هذا الاسم هو الاسم الذى ذكره له سامسونوف نفسه. فلما سمع الكاهن ذلك أسرع يغيرّ الحديث.

ولعله كان يحسن صنعاً لو أفصح لميتيا عن الشك الذى راوده والشبهة التى خطرت بباله : لئن أرسله سامسونوف الى هذا الفلاح مطلقاً عليه اسم لياجافى ، فمن الجائز جدا أن يكون قد فعل ذلك سخراً به وضحكاً عليه ؟ ولا بد أن يكون فى الأمر شىء « يعرج » على كل حال . ولكن ميتيا لم يكن فى وقته متسع للتلبث على « مثل هذه السفاسف » . فهو يغذ السير ويمشى بخطى مديدة ، ولم يدرك أن المسافة التى قطعها ليست فرسخاً ولا فرسخاً ونصف فرسخ ، بل ثلاثة فراسخ على الأقل ، لم يدرك ذلك الا حين وصل الى سوخوى بوزيولوك . ومع ذلك كبح جماح غضبه وسيطر على حنقه . ودخل الرجلان العزبة التى كان حارس الحراج ، وهو رجل يعرفه القس ، يشغل نصفها ، بينما كان نصفها الثانى الذى يفضل لأول عناية وصيانة والذى يفصله عن النصف الأول دهليز ، موضوعاً تحت تصرف جورسكين ؛ ومضى الرجلان الى جورسكين رأساً بعد أن أشعلا شمعة . كانت الغرفة مدفأة تدفئة شديدة ، وعلى مائدة من خشب السنديان يُرى سماور منطفىء وصينية وفناجين وزجاجة « روم » فارغة وابريق ما يزال فيه بقايا خمر ، وكسرات خبز . أما لياجافى فكان مستلقيا على دكة ، قد لف سترته واتخذها وسادة ، وكان يشخر شخيراً ثقيلا . نظر اليه ميتيا متحيراً ، ثم قال فى قلق :

ـ يجب ايقاظه طبعا ! ان القضية التى جئت من أجلها ملحة ، وأنا فى عجلة من أمرى ، لأن علىّ أن أرجع فى هذا اليوم نفسه .

صمت القس والحارس ولم يقولا رأيهما . واقترب ميتيا من النائم وأخذ يحاول ايقاظه ، فكان يهزه هزاً قوياً ، ولكنه لم يظفر بشىء ؛ ولاحظ بعد برهة أن الرجل سكران ، فقال :

ـ هو سكران ، فماذا عساى أصنع ؟ ما عساى أصير ؟ يا رب !

واذ بلغ الذروة من نفاد الصبر ، شد الشاخر من ذراعيه ، ثم شده

من ساقيه ، ثم انهض رأسه ، ثم أجلسه على الدكة ، فلم يستطع أن يستطع أن ينتزع منه بعد جهود طويلة الا بضع دمدمات تتخللها شتائم مقذعة رغم اضطرابها •

قال القس أخيراً :

ـ خير لك أن تنتظر ، فما هو فى حالة تمكنه من المناقشة •

وقال الحارس :

ـ لقد ظل يشرب طول النهار •

فصاح ميتيا يقول :

ـ آه ! يا رب ! لو علمتما مدى حاجتى اليه ، وفى أى ظرف أنا ! •••

قال القس :

ـ لا حيلة فى الأمر ، لا بد من الانتظار الى صباح غد •

ـ الى غد ؟ انك لا تفكر فى الأمر ! هذا مستحيل !

واشتد به الكرب فأراد أن يهز السكران من جديد ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك ، لأنه أدرك أن جهوده عبث لا فائدة منه • وقد صمت القس فأصبح لا يقول شيئاً ؛ أما الحارس فكان شديد النعاس فسكت كذلك كالح الوجه عابس الهيئة •

قال ميتيا وقد بلغ أوج الحيرة والاضطراب :

ـ الحياة تهيء للانسان فى بعض الأحيان مهازل فاجعة مبكية من هذا النوع !

وكانت قطرات من العرق تسيل على جبينه • وانتهز القس لحظة هدنة وهدوء فأوضح كيف أن ايقاظ النائم لن ينفع فى شىء ، لأنه لن يكون قادرا على المناقشة وهو فيما هو فيه من سكر شديد • وختم القس كلامه قائلا :

ـ وما دام الأمر الذى جئت من أجله هاماً ، فالأفضل أن ترجئه الى الصباح •

فوافق ميتيا على هذا الاقتراح وهو يحرك ذراعيه معبراً عن العجز• قال :

ـ طيب يا أبى • سأبقى هنا مع الشمعة أرقب اللحظة المواتية ، فمتى استيقظ كلمته •

وأضاف يقول ملتفتاً نحو الحارس :

ـ وسأدفع لك ثمن الشمعة ، وسأدفع لك أيضا أجر قضاء الليلة هنا • سوف تتذكر دمترى كارامازوف •

ثم عاد يخاطب القس فسأله :

ـ ولكن أين تنام أنت يا أبى ؟

فأجابه القس بقوله :

ـ الأمر بسيط • أعود الى بيتى •

وأضاف يقول مومئاً الى الحارس :

ـ سيعيرنى فرسه • والآن نعمت مساءً • أرجو لك التوفيق كله•

وذلك ما كان • عاد القس الى بيته على الفرس ، سعيدا بخلاصه من ميتيا • وكان فى أثناء الطريق يحرك رأسه قلقاً بعض القلق ، متسائلا

ألا يحسن به أن يبلغ فيدور بافلوفتش أمر هذه القضية العجيبة منذ الغد، قائلاً لنفسه : « انه اذا علم بالأمر لسوء الحظ ، فقد يغضب مني فيمنع عني خيراته . » . أما الحارس فقد حك رأسه وعاد الى غرفته دون أن ينطق بكلمة .

جلس ميتيا على الدكة مترقباً اللحظة المواتية كما قال ، وقد هبط عليه حزن عميق شمله كضباب كثيف . وأراد أن يفكر وهو على ماهو عليه من ارهاق شديد وكرب لا حدود له ، ولكن أفكاره كانت تتهرب .

ان الشمعة تذوب ببطء ؟ وهذا جدجد يغني في مكانٍ ما ؟ والهواء قد أصبح خانقاً في الغرفة المدفأة تدفئة زائدة . وفجأة تراءت لخيال ميتيا حديقة أبيه ، والممر الذي يقع خلف الحديقة ، وتراءى له باب يُفتح خلسةً في المنزل ، وتراءت له جروشنكا تتسلل من الباب ... فاذا هو يثب عن الدكة واقفاً ! ...

دمدم يقول وهو يصرف بأسنانه :

ـ يا للمأساة !

ثم دنا من النائم بخطوات آلية ، وأخذ يتفرس في وجهه . انه فلاح نحيل ما يزال شاباً ، شديد استطالة الوجه ، مضفور الشعر ، لذقنه لحية طويلة رقيقة ، يرتدي قميصاً هندياً وصديرة سوداء تتدلى من جيبها سلسلة ساعة من فضة . تأمل ميتيا وجهه ، فشعر بكره شديد لهذا الرجل ، وأحنقته ضفائره خاصةً ، لا يدري لماذا ! وبدا له أنه أمر لا يطاق ، أمر مذل مهين أن يكون عليه ، هو ميتيا الذي جاء لأمر مستعجل هام ضحى في سبيله بكل شيء ، أن يكون عليه أن ينتظر هنا ممزَّق القلب هماً ، بينما هذا الكسلان « الذي يتوقف عليه مصيري في هذه الساعة يغط في النوم كأن شيئاً لم يكن ، وكأنه على كوكب آخر . »

صاح ميتيا يقول فجأة :

ــ آه ... يا لسخريه القدر !

وطاش صوابه فهجم على الفلاح السكران مرة أخرى يريد أن يوقظه . انه الآن حافد عليه فها هــو ذا يهزه بكل ما أوتي من قوة ، وها هو ذا يصدمه ، بل ها هو ذا يضربه . ولكن جميع جهوده ذهبت سدى ! فلما رأى بعد خمس دقائق من الجهود الضائعة أنه لا سبيل الى ايقاظه ، عاد الى مكانه وجلس شاعراً باضطراب عاجز وهو يكرر قوله :

ــ يا للسخف ! يا للغباء !

ثم اذا هو يضيف الى ذلك فجأة دون أن يعرف لماذا :

ــ يا للذل أيضا ! يا للعار !

وأخذ يشعر بصداع رهيب في رأسه . وتساءل لحظة : « أأعدل ؟ أأرجع ؟ » ولكنه أجاب يقــول : « بل سأنتظر الى الصــباح . سأبقى خصيصا ، خصيصا ! سيستحق الأمر أن أكون قد جئت الى هنا ... ثم ما عساى أفعل لأرحل بغير خيل ؟ أوه ! ما أسخف هذا كله ! ... » .

وكان صُداع رأسه ما ينفك يشتد أثناء ذلك . وظل ساكناً جامداً دون أن يلاحظ النعاس الذي كان يستولي عليه شيئا بعد شيء ، ونام آخر الأمر جالساً . لا بد أنه نام على هذه الحال ساعة أو ساعتين ، فلما استيقظ كان يشعر بألم فظيع في الرأس ، ألم لا يطاق ، حتى ليوشك ميتيا من فرط شدته أن يصرخ . كان صدغاه يطنان طنينا ، وكان يحس بوجع في القذال . فلما فتح عينيه لم يستطع أن يسترد حواسه ، وانقضت برهة طويلة قبل أن يفهم ما به ، ثم أدرك على حين فجأة أن الغرفة المــدفأة تدفئة زائدة تمتلىء برائحة قوية هي رائحة فحــم محترق ، وأنه كاد يموت اختنــاقا . وكان السكران ما يزال يغــط في نومه على الدكة .

وكانت الشمعة التى انصهرت انصهارا تاما تهم أن تنطفىء . صرخ ميتيا وأسرع الى غرفة الحارس مترنح الخطى . فسرعان ما استيقظ الحارس، ولكن لم يبد عليه أنه انفعل كثيرا حين علم بما حدث ، وانما مضى يتخذ الاجراءات اللازمة ببرودة وقلة اكتراث ، فدهش ميتيا من ذلك حتى كاد ينفجر غضبا . وصاح يقول مضطربا اضطرابا شديدا :

ـ لقد مات ، مات ...

فتُح الباب ، وفتحت نافذة ، ودخل الهـــواء الى الغرفة ،ونظفت مدخنة المدفأة المسدودة . ومضى ميتيا فجـــاء بقادوس ماء فأغطس فيه رأسه ، ثم تناول خرقة فبللها بالماء ووضـــعها على جبين لياجافى . فكان الحارس ينظر اليه أثناء ذلك هادئاً هدوءاً يوشك أن يشتمل على احتقار ؛ وقال بلهجة متجهمة بعد أن اكتفى بفتح نافذة :

ـ هذا كافٍ .

ثم رجع الى غرفته ينام ، تاركاً لميتيا سراجاً مشـــتعلاً . ظل ميتيا يتحرك قرابة نصف ساعة الى جانب السكران الذى يوشـك أن يكون مختنقاً ، وظل يجدِّد له الكمادات المبتلة مرة بعد مرة ، وقرر أن يستمر على هذه الحال حتى الصـــباح . ولكنه جلس ليستريح لحظه قصـــيرة ، فسرعان ما أغمض عينيه ، واضطجع على الدكة دون أن يلاحظ ذلك ، ولم يلبث أن نام على الفور نوماً ثقيلاً .

فلما اســتيقظ كان الوقت ضحى . لقد دقت الســاعة التاسـعة ، والشمس تسطع من خلال نافذتى الغرفة الصغيرتين ؛ والفلاح المضفور الشعر قد ارتدى ثيابه كاملة ، وجلس الى المائدة التى كان عليها سماور جديد وابريق خمر جـــديد قد أُفرغ نصفه منذ الآن (كان الابريق الأول فارغاً ليس فيه قطرة واحدة) ، فنهض ميتيا بوثبة واحدة ، وأدرك

منذ النظرة الأولى أن الفلاح اللعين قد سكر من جـــديد ، وأن سكره سيكون فى هذه المرة عميقا لا برء منه ولا علاج له • ظل ميتيا يحدِّق الى الفلاح دقيقةً محملق العينين • أما الفلاح فكان يلاحظ ميتيا صامتاً، بشيء من الخبث والمكر ، الى هدوء مهين ، بل والى ثقة مستخفة محتقرة، فيما بدا لميتيا • قال له ميتيا :

ـ معذرة •• أعتقد •• لا بد أن حارس الحراج قد أخبرك ••• أنا الليوتنان دمترى كارامازوف ، ابن العجوز كارامازوف الذى تفاوضه فى أمر ثمن أشجار الغابة •••

فأجابه الفلاح يقول بيقين هادىء وثقة كاملة مقطعا كلامه :

ـ أنت تكذب ! هذا غير صحيح !

ـ كيف ؟ أنا أكذب ؟ انك تعرف فيدور بافلوفتش مع ذلك !

فقال الفلاح رخوَ الفم :

ـ أنا أجهل من هو فيدور بافلوفتش !

ـ كيف هذا ؟ لقد ساومته على ثمن أشجار الغابة التى ستقطع • هلاَّ استيقظت أخيراً ؟ هل ثبت الى رشـدك ! ان الأب بولس ايلنسـكى هو الذى جاء بى الى هنا • تذكر ••• ولقد كتبت أنت الى سامسونوف، فأرسلنى سامسونوف اليك •

كذلك قال ميتيا لاهثاً مختنقاً • فعاد لياجافى يقول له :

ـ أنت ••• تك ••• ذب •

فأحس ميتيا بقشعريرة باردة فى ظهره •

ـ أرجوك ! ليس الأمر مزاحاً • لعلك سكران قليلا • حاول أن تتكلم جاداً ••• افهمنى •• أو •• أو •• أصبحت لا أفهم !

ـ أنت صبّاغ ! هذه هى مهنتك !

ـ أرجوك ، أتوسل اليك ! أنا كارامازوف ، دمترى كارامازوف ، وقد جئت أعرض عليك صفقة ... صفقة رابحة ... رابحة جدا لك ... صفقة تتعلق بهذه الأشجار نفسها التى ستقطع ...

أخذ الفلاح يلاعب لحيته بوقار ورصانة . ثم قال :

ـ هـــذا كذب ! لا شك أنك قد تواطأت على جـريمة وتريد أن تدحرجنى . أنت نذل ، نعم نذل .

قال ميتيا محتجاً وهو يعقف ذراعيه كمداً ويأساً :

ـ أؤكد لك أنك مخطىء !

عندئذ أغمض الفلاح عينيه نصف اغماض ماكرا ، وهو ما يزال يلاعب لحيته . ثم قال :

ـ تاتاتا ... انى لأوثر أن تقول لى ما هـو القـانون الذى يجيز للناس أن يقترفوا النذالات . هل تسمعنى يا نذل ؟ أنت نذل ، هـل تفهم ؟

تقهقر ميتيا وقد أظلمت نفســه اظلاماً شـديدا . وعندئذ برقت فى ذهنه فكرة مفاجئة ، « كأن أحداً ضربه على جبينه » ، كما روى هـو ذلك فيما بعد . لقد اتضح كل شىء فى فكره الآن . « كان ذلك الهاماً مباغتاً ، فأدركت كل شىء » . تساءل ميتيا ، مذهولاً ، كيف أمكن أن يُساق ، هو الرجل الذكى رغم كل شىء ، كيف أمكن أن يُساق الى وضع سخيف هذا السخف ، وكيف أمكن أن يندفع فى مغامرة كهذه المغامرة ، وأن يستمر فيها قرابة أربع وعشرين ساعة ، وأن يشغل نفسه بلياجافى هذا واضعاً على جبينه كمادات مبللة ... « انه سكران ، سكران

سكراً فظيعاً ، وسيظل يشرب على هذا النحو أسبوعاً بكامله ••• فعلام أنتظر مزيدا من الانتظـار ؟ وماذا اذا كان سامسونوف قد ســـخر منى وضحك عليّ بارسالى الى هنا ؟ وماذا اذا هى ••• أثناء هذه المدة ••• قد •• آه •• يا رب ! ماذا صنعت بنفسى ؟! •• » •

كان الفلاح ينظر اليه هادئا ضاحكا • فلو قد كان ميتيا فى ظرف غير هذا الظرف اذن لانقض على هذا الأبله خانقاً فصرعه ، ولكنـه كان يشعر فى تلك اللحظة أنه ضعيف كطفل • فها هو ذا يتجه نحو الدكة بخطى بطيئة ، فيرتدى معطفه ، ويخرج من الغرفة دون أن يقول كلمة واحدة • ولم يجد حارس الحراج فى الغرفة الأخرى ، فتناول من جيبه خمسين كوبكا فوضعها على المنضدة ثمناً للشمعة وأجراً للمبيت وتعويضا عن الازعاج • وخرج من العزبة ، فوجد نفسه فى قلب الغابة دون أن يكون هناك شىء يمكن أن يستهديه فى معـــرفه طريقه ؛ فسار على غير هدى ، لأنه لم يتذكر حتى الجهة التى جاء منها ، فلم يعرف أيتجه يمنةً أم يتجه يسرة حين يخرج من منزل الحارس • انه لم يلاحظ الطريق فى الليلة البارحة من شدة تعجله • وهـــو الآن لا يشعر بأية رغبة فى الانتقام ، حتى ولا من سامسونوف • انه يسير فى ممر الغابة الضيق ، خاوى الرأس زائغ النظرة ، كأنه يبحث عن « فكرة ضائعة » ، ولا يهمه أن يعرف الى أين كان ذاهبا ! ان فى وسع طفـل صـــغير أن يقلبه على الأرض فى تلك اللحظة بسهولة ، من فرط ما كان يعانى من ارهاق جسمى ونفسى معاً • ومع ذلك خرج أخيرا من الغابة ، فوجد نفسه فجأة أمام حقول محصودة عارية تنبسط على مدى البصر • قال فى نفسه وهو مايزال يسير قدماً دون أن يلوى على شىء : « كأن اليأس والموت قد مرّا بهذا المكان ! » •

وأنقذه فلاحون • ان عربة تنقل تاجراً عجـــوزاً كانت تسير على

طول الطريق الذى يصل بين قرى صغيرة • فلما بلغته العربة سأل حوذيّها عن الدرب ، فاتفق أن كان الحوذى ذاهبا الى فولوفيا أيضا • وسرعان ما تم الاتفاق بينه وبين الحوذى ، فركب ميتيا الى جانب المسافر العجوز • وبعد ثلاث ساعات وصلت العربة الى محطة فولوفيا ، فلاحظ ميتيا على حين فجأة ، بعد أن أمر بخيلٍ تقله الى المدينة ، أنه يكاد يموت جوعاً ؛ فبينما كانت الخيل تقرن ، أمر لنفسه بطبق من عجة التهمه التهاماً مع قطعة كبيرة من الخبز ، ثم انقض على سجق وجده جاهزاً ، وشرب ثلاث أقداح صغيرة من الفودكا • حتى اذا استرد بذلك قواه ، شعر بتجدد شجاعته ، واستعاد صحو ذهنه •

الخيل تجرى ، وميتيا يحض الحوذى على مزيد من السرعة ، ويهيىء فى الوقت نفسه « خطة » جديدة ، خطةً « لا تخطىء » فى هذه المرة ، من أجل الحصول على « هذا المبلغ اللعين » قبل نهاية ذلك اليوم. هتف يقول مشمئزاً اشمئزازاً عميقا : « كيف يمكن أن يهوى مصير انسان بسبب هذه الثلاث آلاف روبل الحقيرة ؟ • لأجدنَّها فى هذا اليوم نفسه ! » • وكان يمكن أن يجعله هذا التصميم سعيدا ، لولا أن التفكير فى جروشنكا كان يحاصره • « ما الذى صارت اليه ؟ ماذا حدث لها ؟» • كان هذا السؤال يطعنه فى كل لحظة كشفرة مسنونة • ووصلت العربة أخيرا ، فأسرع ميتيا الى جروشنكا رأساً •

٣

مناجم الذهب

هذه الزيارة انما تحدثت جروشنكا الى راكيتين مذعورة . كان قد سرّها ، وهى تنتظر الرسالة التى يعرف القارىء أمرها ، أن ميتيا لم يظهر منذ يومين ، وكانت تقول لنفسها انه قد لايجىء قبل رحيلها باذن الله . ولكنه ظهر على حين فجأة . والقارىء يعرف التتمة، يعرف كيف تعللت له بضرورة ذهابها الى كوزما كوزمتش حالاً، «لاجراء بعض الحسابات» ، وكيف رجته أن يرافقها ، وكيف استقطعته على نفسه وعداً ، حين تركته أمام منزل التاجر العجوز ، بأن يجىء فى منتصف الليل لاصطحابها الى منزلها . وقد سعد ميتيا بهذه التسوية ، قال لنفسه : « ما دامت ستقضى السهرة عند كوزما كوزمتش ، فلن تذهب الى فيدور بافلوفتش » ، ولم يلبث أن أضاف يحدث نفسه قائلاً : « اللهم الا أن تكون كاذبة . . » ولكنه كان يعتقد بأنها صادقة . انه ينتمى الى تلك الفئة من الغيورين الذين يتخيلون أفظع الأشياء متى ابتعدوا عن المرأة المحبوبة ، ويعانون عذاباً رهيباً من تصور « خيانتها » لهم أثناء غيابهم . ولكن ميتيا كان متى التقى بجروشنكا مرة أخرى مضطرباً قلقاً يائساً معذب النفس من يقينه بأنها خانته ، لا يلبث أن يسترد شجاعته حين يرى

وجهها الضاحك الرفيق المرح ، فاذا هو يطرد من فكره كل شيء ، ويشعر بالخجل من غيرته ، ويلوم نفسه على قلة الثقة •

بعد أن قام ميتيا بمرافقه جروسكا الى منزل سامسونوف أسرع يعود الى بيته • ان هناك مسائل كثيرة بقي عليه أن يحلها قبل حلول الغد ! وكان يشعر على الأقل بأن حملاً ثقيلاً قد انزاح الآن عن صدره• غير أنه لم يلبث أن قال لنفسه : « ينبغي لي أن أسأل سمردياكوف ، بأقصى سرعه ممكنة ، هل حدث شيء في الليلة البارحة ، هل ذهبت جروشنكا الى فيدور بافلوفتش أمس ؟ » • هكذا اشتعلت الغيرة في قلبه المعذب من جديد ،قبل أن يتسع وقته للعودة الى بيته •

الغيرة ! « ليس عطيل غيوراً ، انه واثق » ، كذلك قال بوشكين • ان هذه الملاحظة البسيطة تشهد بعمق عبقرية شاعرنا القومي • ان ما عاناه عطيل من قلق النفس واضطراب الأفكار ناشيء عن انه « فقد ايمانه بمثله الأعلى » • ولكن عطيل ما كان له أبداً أن يرضى لنفسه هوان المرابطة في مكان ما من أجل أن يتجسس ويترصد ويترقب : انه أكثر ثقة من أن يفعل ذلك • بالعكس : كان لا بد من دفعه ومن تقديم البراهين له ، ومن تحريضه بالأدلة الدامغة لحمله على تصور الخيانة • ولا كذلك الغيور الحق • لا يستطيع المرء أن يتخيل مدى ما يمكن أن يهوى اليه الغيور من درك الدناءة والحطة دون أن يشعر بأى خجل من ذلك • وليس معنى هذا أن الغيورين أناس يتصفون بحقارة النفس حتماً • لا ••• رب رجل نبيل القلب نقيّ الحب مخلص العاطفة ، يرتضى مع ذلك أن يختبىء تحت السرير ، وأن يرشى أناساً قذرين ، وأن يستخدم أحط أنواع التجسس ! وما كان لعطيل أبداً أن يذعن للخيانة ــ أقول يذعن للخيانة ولا أقول يغفرها ــ رغم أن له نفساً رقيقة بريئة كنفس طفل صغير • ولا كذلك الغيور الحق ! ما من شيء الا ويمكن أن يذعن له

الغيور وما من شيء الا ويمكن أن يغفره عنــد الحاجه • ان الغيورين أسرع الناس الى الغفران ، والنساء يعرفن هذا ! هم قادرون ملاً على أن يمسحوا خيانة مشهودة (بعد أن يثوروا ثورة عنيفة في البدايه طبعاً) ، وقبلات وعناقات رأوها بأعينهم ، شريطة أن يستطيعوا أن يقولوا لأنفسهم ان « هذه آخر مرة » وان الغريم سيغيب وانه سيرحل الى بلد في آخــر العالم ، أو انهم سيمضون هم أنفسهم بحبيبتهم الى منطقه نائيه لا يستطيع الخصم الكريه أن يدركها فيها يوما • ثم لا تدوم المصــالحة أكثر من ساعة طبعاً ، ذلك أنهم ، ولو اختفى الخصم ، ما يلبثــون أن يكتشــفوا خصما جديدا منذ الغد ، فاذا هم يستأنفون عذاب أنفسهم بسبب هــذه « الخيانة » الجديدة • رب متسائل يتساءل : ما هي في نظرهم قيمــة حب يقتضي هذه الاحتياطات كلها، ويتطلب هذه المراقبة الدائمة المتصلة، وهل المرأة التي يتصورون خيانتها تستحق منهم هذا الحب كله • ألا ان هذا السؤال بعينه هو مالا يلقيه الغيورون الحقيقيون على أنفسهم ، مع أن منهم أناساً لهم نفوس ساميه رفيعة • وهناك أمر جدير بالملاحظة أيضا : ان ذوي العواطف النبيلة من هؤلاء الغيورين يستطيعون ، وهم مختبئون في ركن من الأركان للتجسس والمباغتة ، يستطيعون أن يفهموا تماما ، « لنبل قلوبهم » ، أنهم ينحدرون الى الخزي والعار ، ولكنهم مع ذلك لا يشعرون بشيء من عذاب الضمير ، ما ظلوا مختبئين في أوكارهم على الأقل •

ما ان رأى ميتيا صاحبته جروشنكا حتى شعر بغيرته تتبدد وتزول، وحتى أصبح واثقا كريما سمحا خلال بضع لحظات ، بل لقد مضى في هذا الى حد احتقار نفسه بسبب تلك الشكوك الأثيمة التي ساورته وذلك يدل على أن حبه لتلك المرأة كان فيه عنصر أسمى كثيرا مما كان يظن هو نفسه ، وأن الشهوانية والتعلق الجسدي اللذين حدث عنهما أخاه

أليوشا ، ليسا جوهر ذلك الحب • ولكن ما ان غابت جروشنكا عن عينيه حتى عاد يتصور فيها جميع حقارات الخيانة ودناءاتها ، دون أن يشعر أثناء ذلك بأى ندم أو عذاب ضمير •

استبدت به الغيرة اذن من جديد • وكان عليه أن يستعجل على كل حال • كان عليه قبل كل شيء أن يجد قليلا من المال لسدّ حاجاته المباشرة : ان الروبلات التسعة التى جمعها فى الليلة البارحة كانت قد نفدت فى تلك الرحلة ؛ والمرء لا يستطيع أن يفعل شيئاً حين لايكون فى جيبه قرش واحد كما يعلم ذلك جميع الناس • ولقد فكّر ميتيا ، أثناء وضعه خطته الجديدة فى العربة ، فكّر فى الوسيلة التى تمكنه من الحصول على بضعة روبلات بلا ابطاء • انه يملك مسدسين رائعين من المسدسات التى تستعمل فى المبارزات ، ولم يكن قد رهنهما حتى الآن ، لأنه يحرص عليهما حرصا شديدا • وكان قد تعرف منذ زمن ، فى كاباريه «العاصمة الكبرى » ، بموظف شاب عازب غنى كان فيما يقال يهوى جمع الأسلحة على اختلاف أنواعها هوى شديدا ، فهـــو يشترى مسدسات وبنـدقيات وخناجر يعلقها فى جدران غرفته ، ويدعو ضيوفه الى مشاهدتها والاعجاب بها ، معتزاً بأن يشرح لهم نظام كل مسدس وطريقة حشوه بالرصاص ، وطريقة التصويب به ، الخ • ذهب ميتيا الى هـــذا الموظف الشاب دون تفكير كثير ، وعرض عليه أن يستودعه مسدسيه رهناً على قرض قـدره عشرة روبلات ، فسرّ الموظف سرورا عظيما ، وحاول اقناع ميتيا بأن يبيعه هذين السلاحين ، ولكن ميتيا رفض التخلى عنهما ، فدفع له الموظف عندئذ عشرة روبلات قائلاً انه لن يتقاضى فوائد عن هذا القرض بحـال من الأحوال • وافترق الرجلان صـــديقين • وأسرع ميتيا الى جناحه الذى يقع خلف منزل فيدور بافلوفتش بغية أن يلقى سـمردياكوف • وبهذا أثبت ميتيا واقعة جـــديدة هى أنه « قبـــل حدوث الحادث الذى

سنتحدث عنه طويلاً فيما بعد ، قبل حدوث ذلك الحادث بثلاث ساعات أو أربع لم يكن فى جيبه كوبك واحـــد ، فقرر أن يرهن فى سبيل الحصول على عشر روبلات مسدسين كان يحرص عليهما أشد الحرص، ثم اذا هو بعد ذلك ببضع ساعات يملك ألوف الروبلات ••• » ولكننى أسبق بهذا تتمة القصة ، فلأعد الى حيث وصلت منها •

علم ميتيا فى منزل ماريا كوندراتيفنا (جارة فيـدور بافلوفتش) بنبأ مرض سمردياكوف فاضطرب اضطرابا شديدا وقلق قلقـا عظيما • أصغى الى قصة سقوطه فى القبو ، ونوبة الصرع ، ووصول الطبيب ، ومبادرة فيدور بافلوفتش • وأُبلغ أيضا نبأ سفر ايفان فيدوروفتش الى موسكو فى مطلع الصباح ، فبدا عليه اهتمام شديد بهذه الواقعة التفصيلية. قال يحدث نفسه : « لا بد أن ايفـــان قد مرّ بفولوفيا قبلى » • غـير أن مرض سمردياكوف قد أحدث فى نفسه قلقاً كبيرا ومخاوف خطيرة • فأخذ يسائل المرأتين قائلا : « فما العمل الآن ؟ من عساى أكلف بمراقبة المنزل واطلاعى على ما يجرى ؟ ألم تلاحظا شيئا فى مســـاء أمس ؟ » • وأدركت المرأتان فوراً ما الذى يحـاول أن يعرفه فطمأنتاه ما وسعهما أن تطمئنـاه • قالتـا له مؤكدتين : « لم يجىء أحـد • وقد أمضى ايفـان فيدوروفتش الليلة كما اعتاد أن يمضيها ، وجرى كل شىء على ما يجب ». وجم ميتيا مفكرا • لا بد من حراسة فى هذه الليلة أيضا • الأمر واضح• ولكن أين يرابط ؟ أيرابط هنـا فى الحـــديقة ، أم يرابط أمام منزل سامســـونوف ؟ وقرر أخيراً أن يراقب المكانين كليهمـا ، وفقاً لما توجبه الظروف ، ولكن المهم قبل كل شىء ، قبل كل شىء ، هو أن •••

وقد آن فعلاً أوان تنفيذ « الخطه » الجديدة ، الجدية فى هـــذه المرة ، التى رسمها فى العربة • ان هذا المشروع لا يمكن تأجيله • فقرر ميتيا أن يقف على هذا المشروع ساعة من الزمن و قال يحدث نفســه :

« بعد ساعة واحـــدة أكون قـد سوّيت كل شيء ، ثم أذهب الى منزل سامسونوف أسأل أما تزال جروشنكا عنده ، ثم أعود الى هنا فورا لأبقى حتى الساعة الحادية عشرة ، وبعـــد ذلك أذهب الى منزل سامسونوف ثانية لأصحبها الى بيتها » • على هذا النحو حل ميتيا الصعوبة •

وأسرع الى بيته فاغتسل ونظف ثيابه بالفرشاة ، وارتدى ملابســه وذهب الى السيدة هوخلاكوفا • فهناك كانت « خطته » ، واحزناه ! كان ميتيا قد قرر أن يقترض الثلاثة آلاف روبل من تلك السيدة • حتى لقد راوده على حين فجأة يقين عجيب خارق من أنها لن تمنع عنه هذا المبلغ • رب متسائل يتساءل : اذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يخطر بباله أن يتجه قبل هذا الوقت الى هذه المرأة التي تنتمي الى بيئته على الأقل ، ولماذا آثر أن يتجه الى سامسونوف الذي يجهل ميتيا طبيعة تفكيره ولا يعرف بأي لغة يخاطبه ! يحسن أن نذكر هنا أن ميتيا كان قد انقطع منذ شهر عن التردد الى منزل هذه السيدة التي كان لا يعرفها كثيرا على كل حال • وكان يعلم عدا ذلك أنها لا تطيقه ، ذلك أنها قد ناصبته العداء منذ البداية في الواقع ، لسبب بسيط هو أنه كان خطيب كاترين ايفانوفنا • لقـــد كانت تتمنى أن تقطع كاترين صـلتها به لتتزوج ايفـــان فيدوروفتش «الشاب المثقف ، اللطيف ، المحبب ، الذي يملك روح الفروسية ويتمتع بآداب راقية » ، على حين أن آداب ميتيا كريهة مقيتة • ثم ان ميتيا قـد سخر منها مرارا كثيرة وقال عنها « انها كثيرة الحركة والحماسة والكلام بمقدار ما هي قليلة الثقافة » • ولكن فكرة قد ومضت في ذهنه وميض البرق في الصباح ، فقـال لنفســه : « ما دامت تكره أن أتزوج كاترين ايفانوفنـا وما دام هذا الزواج يثير حنقها الى هذا الحد (كان لا يجهل أن استياء السيدة هوخلاكوفا من هذا الزواج يبلغ حد الهستريا) ، فلا يمكن أن ترفض اقراضي هذه الثلاثة آلاف روبل التي ستتيح لي ان

أفصم علاقتى بكاتيا ، وأن أرحل من هنا الى الأبد • » • وكان ميتيا يقول لنفسه أيضا : « ان نساء المجتمع هاته ، وهن صاحبات نزوات دلَّلتهن الأقدار ، لا يرفضن بذل جميع التضحيات المالية في سبيل هوى غريب من أهوائهن العجيبة ! » • ان « الخطة » التى وضعها لاقتراض هـذا المبلغ من السيدة هوخلاكوفا لا تختلف عن خطة البارحة : سوف يعرض عليها أن يتنازل لها عن حقوقه فى قرية تشرماشنيا ، ولكنه لا ينوى فى هذه المرة أن يبسط الأمر على أنه صفقة تجارية ، ولا يهدف الى اغراء هذه السيدة ، كما حاول اغراء سامسونوف ، بأنها ستربح ستة آلاف أو سبعة آلاف روبل ؛ وانما يكون التنازل عن الحقوق ، فى هذه الخطـة الجديدة ، بمثابة ضمانة سخية للقرض الذى سيُتفق عليه • وكان كلما ازداد تفكيرا فى هذا المشروع ازداد حماسةً له ، وذلك ما يحدث له دائما حين يتخذ قرارا جديدا • انه يتحمس فى البداية لكل مشروع من مشاريعه • ومع ذلك شعر ، وهو يصعد درجات الباب من منزل آل هوخلاكوف ، بقشعريرة فى ظهره ، واجتاحت نفسه عندئذ عاطفة قلق رهيب وخوف شديد : لقد أدرك فى تلك اللحظة ، بيقين رياضى ، أنه يقامر بآخر ورقة يملكها ، فاذا لم تفلح هذه المحاولة ، فلا أمل بعد ذلك، « اللهم الا أن أذبح أحداً وأسلبه ثلاث آلاف روبل ، وبدون ذلك فلا مخرج لى ••• » • كذلك قال ميتيا لنفسه • وكانت الساعة هى السابعة والنصف حين شدّ الجرس •

بدا كل شىء يجرى على ما يحب ويشتهى فى أول الأمر : فما ان أُبلغت السيدة هوخلاكوفا وصوله حتى أمرت بادخاله • فدُهش ميتيا من سرعة استقباله ، وقال لنفسه : « لكأنها كانت تنتظرنى » • وما كاد يدخل الصالون حتى هرعت اليه وأعلنت له فجأة أنها كانت تنتظره •••

ـ كنت أنتظرك ، كنت أنتظرك ! لا شىء كان يسمح لى بأن أتنبأ

بزيارتك ، أعتقد أنك تقدر ذلك بسهولة • ومع هـــذا كنت أنتظرك • فاعجب بما أملك من صدق غريزة المرأة يا دمترى فيدوروفتش ، لأننى كنت واثقة ، منذ هذا الصباح ، بأنك ستزورنى •

قال ميتيا وهو يجلس بخراقة :

ـ حقاً ان هذا يثير الدهشة ، يثير أكبر الدهشة ••• ولكننى جئت من أجل قضـــية خطيرة ، خطـيرة خطـورة رهيبة ••• بالنسبة الىّ •• •• طبعا •• يا سيدتى ••• بالنسبة الىّ وحدى ••• لذلك أسارع ف •••

ـ أعرف أن السبب الذى دفعك الى المجىء سبب خطير يا دمترى فيدوروفتش • وليست المسألة هنا مسألة تنبؤات أتنبــؤها ، لأننى أكره ذلك الايمــان الرجعى بما هو فوق الطبيعــة (لعلك على علمٍ بمغــامرة الشيخ زوسيما) ••• وانما الأمر حساب رياضى : كان لا بد أن تجىء الىّ حتما بعد كل ما جرى مع كاترين ايفانوفنا ، لم يكن فى وسعك أن لا تجىء • هذه رياضيات •••

ـ أو فلنقل هذا واقعية يا سيدتى • لكن واقعيين ••• اسمحى لى أن أبسط لك بايجاز •••

ـ الواقعيــــة ••• قلتها يا دمترى فيـــدوروفتش ! أنا من أنصار الواقعية بعد اليوم ! آه ••• لقد شُفيت من مرض الايمان بالمعجـزات ، صدقنى ! أنت لا تجهل طبعا أن الشيخ زوسيما قد مات !

قال ميتيا بشىء من الدهشة :

ـ لم أكن أعلم شيئاً عن ذلك •

وطافت بخياله صورة أليوشا • قالت السيدة هوخلاكوفا :

ـ مات هذه الليلة ••• تصور أن •••

قاطعها ميتيا قائلاً :

ـ سيدتي ، أنا لا أعرف الا شيئاً واحدا : هو أنني في وضع عصيب وأن كل شيء سينهار اذا أنت لم تساعديني ، وسأكون أنا أول من ينهار. اغفري لي خشونة لغتي ، ولكنني في قلق محموم ؟ ان بي حمى حقا ..

ـ أعرف ذلك ، أعرف ذلك ، أعرف أن بك حمى . أنا مطلعة على كل شيء ، وما كان يمكن أن تكون حالتك النفسية غير ما هي اليوم. كل ما قد تقوله لي الآن ، أنا أعرفه سلفاً . انني أفكر في مصـــيرك منذ زمن طويل يا دمتري فيدوروفتش . كنت ألاحظ حياتك ، وأدرسها.. هه ! أنا طبيبة نفوس ، خبيرة ٌ جدا ... صدقني يا دمتري فيدوروفتش!

عاد ميتيا يقول وهو يبذل جهدا من أجل أن يبدو لطيفا محببا :

ـ سيدتي ، لا شك عندي في أنك طبيبة خبيرة . ولكنني أنا أيضا مريض خبير . انني مقتنع اقتناعا قويا بأنك ستساعدينني في اتقاء هـلاك كبير ، ما دمت قد قد اهتممت بمصيري ذلك الاهتمام كله . فاسمحي لي لهذا أن أبسط لك أخيراً الخطة التي تجرأت أن أجيء لأبسطها لك .. وأن أقول لك بهذه المناسبة نفسها انني آمل منك ... لقد جئت ياسيدتي من أجل أن ...

ـ لا تشرح ... هذا أمر ثانوي ! لن تكون أول شخص أساعده يا دمتري فيدوروفتش ! لا شك أنك سمعت عن ابنة عمي بلمسوفا. كان زوجها الذي تدمرت حالته المالية قد انهار انهيارا على حد التعبير الصادق الذي استعملته أنت منذ هنيهة. فنصحتها بتعاطي تربية الخيول، فأصبحت حالتها اليوم مزدهرة ازدهارا عظيما . هل تفهم في شئون تربية الخيـول يا دمتري فيدوروفتش ؟

صاح ميتيا يقول نافد الصبر ثائر الأعصـــاب ، حتى لقـد همّ أن ينهض :

ـ لا يا سيدتي ، أبدا ... لا أفهم في هذا المجال شيئا ! أتوسل اليك يا سيدتي أن تصغي الي لحظة . دعيني أتكلم دقيقتين فحسب ، لأعرض لك مشروعي . ثم انني لا أملك الا وقتا قصيرا جدا ، أنا مستعجل غاية الاستعجال (كذلك أعول ميتيا يقول بصوت هستري ، اذ حزر أنها ستقاطعه ، وأمل أن يستطيع منعها من مقاطعته برفع صوته). لقد جئت اليك لأنني قد بلغت ذروة الكرب واليأس ، وأردت أن أرجوك أن تسلفيني ثلاثة آلاف روبل ، ولكن بضمانة قوية وطيدة يا سيدتي ، بشروط موثوقة تماما . وهأنذا أشرح لك الموضوع ...

قالت السيدة هوخلاكوفا وهي تحرك ذراعيها كأنما تطرد الشروح التي هم بها ميتيا :

ـ تشرح فيما بعد ، فيما بعد ... ستقول لي هذا كله فيما بعد . ثم انني أعرف سلفاً كل ما قد تذكره لي ، سبق أن قلت لك هذا . أنت في حاجة الى مال ، أنت تطلب ثلاثة آلاف روبل ، ولكنني سأعطيك أكثر من ذلك ، أكثر كثيرا ، لأنني أريد أن أنقذك يا دمتري فيدوروفتش . ولكنني أطالبك في مقابل ذلك بأن تطيعني .

وثب ميتيا من مقعده من جديد ، قائلاً بانفعال شديد :

ـ آه ! سيدتي ! هل يمكن أن تكوني طيبة الى هذا الحد ؟ آه ! لقد أنقذتني ! يا رب ! لقد انتزعت انسانا من ميتة عنيفة يا سيدتي ، من ميتة انتحار بطلقة مسدس ... اسوف أظل شاكراً لك الى الأبد ...

عادت السدة هوخلاكوفا تقول ، وهي تنظر بابتسامة مشرقة الى وجه ميتيا المتحمس :

ـ لأعطينك أكثر كثيرا من ثلاثة آلاف روبل ؟

ـ أكثر كثيرا ؟ لست في حاجة الى كل هذا . ليس بي حاجة الا

الى هذه الثلاثة آلاف الشقية ! وأريد من جهتي أن أعطيك ضمانة لهذا القرض ، وأن أعبر لك عن شكر لا حدود له • ان المشروع الذى أحب أن أبسطه لك هو •••

فقاطعته السيدة هوخلاكوفا التى كان وجهها يشرق بفرحة الاحسان المتواضعة :

ـ كفى ! أنا لا أنكث عهداً • لقد وعدتك بأن أنقذك ، وسأفعل • سأخرجك من مأزقك كما أخرجت بلمسوفا • ما رأيك فى مناجم الذهب يا دمترى فيدوروفتش ؟

ـ مناجم الذهب يا سيدتى ؟ لم أفكر فى هذا الأمر يوماً حتى الآن •••

ـ أما أنا فقد فكرت فيه من أجلك ! لقد وزنت جميع جوانب المسألة • اننى ألاحظك منذ شهر لهذا الغرض • ظللت أفحصك أكثر من مائة مرة عابراً ، فكنت أقول لنفسى فى كل مرة : « هذا رجل نشيط فعّال يمكن أن ينجح فى مناجم الذهب » ، حتى لقد أنعمت النظر فى مشيتك ، فاستنتجت أنك ستكتشف مناجم كثيرة •

لم يملك ميتيا الا أن يسأل السيدة هوخلاكوفا مبتسماً :

ـ استنتجت ذلك من مشيتى يا سيدتى ؟

فأجابت السيدة هوخلاكوفا :

ـ نعم ، من مشيتك أيضا • هل تستطيع أن تنكر يا دمترى فيدوروفتش أن فى الامكان معرفة طبع الشخص من مشيته ؟ ان العلوم الطبيعية تعلمنا هذا • آه ••• ما أكثر ما أصبحت واقعيه الآن ! فمنذ ذلك اليوم ، منذ تلك القصة التى حدثت فى الدير والتى هزتنا هزاً قوياً ،

أصبحت لا أؤمن الا بالواقعيه ، بالوا .. قعية ، وأصبحت أريد أن أقف حياتى على نشاط عملى . لقد شفيت من الغيبية الى الأبد . « كفى ! » ، كما قال تورجنيف * .

ـ ولكن ماذا عن تلك الثلاثة آلاف روبل التى تفضلت فوعدتنى بها كريمة سخية !

قالت السيدة خلاكوفا بقوة وحرارة :

ـ ستحصل عليها ، تستطيع أن تعدها فى جيبك منذ الآن . لا ثلاثة آلاف ، بل ثلاثة ملايين ، وخلال فترة وجيزة يا دمترى فيدوروفتش ! اليك المشروع الذى أقترحه عليك : تكتشف مناجم ذهب فتثرى ثراء عظيماً وتصبح من أصحاب الملايين ؟ ثم تعود الينا رجلاً كبيراً من رجال العمل والفعل ، تصبح رجلاً محركاً لغيرك من الناس ، تنقذنا من خدرنا وكسلنا ، وتقودنا نحو الخير . هل يجب أن نترك جميع هذه المبادرات لهؤلاء اليهود ؟ ستبنى عمارات ، وستخلق صناعات ، وستساعد الفقراء ، وسيغمرك هؤلاء الفقراء بالدعوات والبركات ... اننا نعيش فى عصر السكك الحديدية يا دمترى فيدوروفتش . وستعلم وزارة الخزانة ، التى تتخبط فى مصاعب ضخمة ، ستعلم بوجودك فتناديك وتعتمد عليك . ان سقوط عملتنا الورقية قد حرمنى من النوم ! ذلك جانب من طبيعتى لا يعرفه الناس كثيراً ...

قاطعها ميتيا قائلاً وهو يوجس قلقاً شديداً :

ـ سيدتى ! سيدتى ! من الممكن جداً أن أتبع نصيحتك ، وهى نصيحة سديدة جدا فى الواقع ... سأتبع هذه النصيحة حتما فيما بعد ... سأذهب الى مناجم الذهب هذه ... وسأعود مرة أخرى لنتحدث فى أمرها ... أما الآن ... فلنتكلم فى تلك الثلاثة آلاف روبل التى تكرمت ف ... آه ! ان هذا المبلغ سيخرجنى من جميع المصاعب !

ليتنى أستطيع الحصول عليه فى هذا اليوم ... ذلك أننى ، كما ترين ، لا أملك وقتاً أضيِّعه ... لا يوما ، ولا ساعة ...

قاطعته السيدة هوخلاكوفا تأمره بلهجة قاطعة :

ـ كفى ، كفى ! أجبنى : أتذهب الى مناجم الذهب أم لا ؟ هل عزمت أمرك ؟ أريد جوابا واضحا دقيقا !

ـ سأذهب يا سيدتى فيما بعد . سأذهب الى حيث تريدين ياسيدتى ! أما الآن ...

صاحت السيدة هوخلاكوفا تقول :

ـ انتظر !

وهرعت نحو مكتبها الأنيق ذى الأدراج الكبيرة ، فأخذت تفتحها درجاً درجاً بسرعة ، باحثة فيها عن شىء ما .

قال ميتيا محدثا نفسه وقد كاد ينشق قلبه : « الثلاثة آلاف ! وبدون ضمانة ، بدون رهن ، بدون وصل ، ما أنبلها امرأة ! ولكن ليتها كانت أقل ثرثرة ... » .

وهتفت السيدة هوخلاكوفا تقول عائدة اليه :

ـ هاك ... هاك ما كنت أبحث عنه .

هو أيقونة صغيرة جدا من فضة ، ذات حبـــل ، كالأيقونات التى تحمل أحيانا تحت القميص مع الصليب .

وشرحت السيدة هوخلاكوفا قائلة برصانة :

ـ هذه الأيقونة من كييف . لقد لمست هذه الصورة رفات القديسة بارب ، الشهيدة العظيمة . فاسمح لى أن أعلِّقها لك بنفسى ، لتباركك فى حياتك الجديدة ، ومشاريعك المقبلة .

قالت له ذلك ، ووضعت الأيقونة حول عنقه ، وجهدت أن تعدلها. أحنى ميتيا رأسه متحيراً ، وأخذ يساعدها ، وأفلح أخيرا فى أن يدس الصورة تحت الياقة ورباط العنق وأن يضعها على صدره .

عندئذ قالت السيدة هوخلاكوفا بلهجة فيها أبهة :

ـ والآن هلمّ الى مناجم الذهب .

وعادت تجلس .

قال ميتيا :

ـ سيدتى ! أنا متأثر جدا ... لا أدرى كيف أشكر لك هـذه العواطف الكريمة وهذه المشاعر النبيلة ... ولكن ليتك تعلمين مدى استعجالى ! ... ان ذلك المبلغ الذى انتظره من كرمك وأنا ممتلىء القلب بالأمل يا سيدتى ... آه ... ما أطيبك ، ما أعظم عطفك علىّ ! (بهذا هتف ميتيا فى سورة صادقة) ... اسمحى لى أن أعترف لك .. بأمر تعرفينه منذ زمن طويل على كل حال ... اننى أحب امرأة فى هذه المدينة ... لقد خنت كاتيا .. أقصد كاترين ايفانوفنا . وا أسفاه ! كان سلوكى معها خالياً من الخلق والشرف ... تولهت هنا بامرأة أخرى ... امرأة لعلك تحتقرينها ، فأنت على علم بالأمر ، أعرف ذلك ... ولكن يستحيل علىّ أن أتركها ، يستحيل ! لذلك كانت هـذه الثلاثة آلاف روبل ...

قاطعته السيدة هوخلاكوفا قائلة بلهجة قاطعة :

ـ دعك من هذا . دع النسـاء خاصةً ! مناجم لذهب ، ذلك هو هدفك بعد اليوم ، ولا شـأن للنساء هناك ! فيما بعد ، حين ترجع غنياً مجللاً بالمجد ، تختار حليلةً من بنـات أرقى مجتمع : فتاةً عصرية ،

مثقفة ، متحررة من الآراء الشـائعة • وفى ذلك الحين ستكون مشكلة المرأة ، هذه المشكلة التى يتحدث النـاس عنها كثيراً فى هذه الأيام ، ستكون قد حُلَّت ، وستظهر فى روسيا امرأة جديدة •••

قال ميتيا وهو يضم يديه احداهما الى الأخرى فى هيئة المتوسل :

ــ ولكن ليس هذا ، ليس هذا ما •••

ــ بل هو هذا ، هو هذا يا دمترى فيدوروفتش ! هو هذا ولا شيء سواه ! هنالك السعادة التى تنشدها دون أن تعرف أنت نفسك ذلك • اننى مطلعة اطلاعاً واسعاً على مشكلة المرأة •ان تحرر المرأة ، وحتى وصولها الى الحيـاة السـياسية ، هو مثلى الأعلى • ان لى ابنة يا دمترى فيدوروفتش ، والناس لا يعرفوننى كثيراً فى هـذا المجال • لقد كتبت فى هذا الى شتيدرين* • ان هذا الكاتب قد كشف لى أموراً كثيرة ، كثيرة جداً ، أموراً لا تخطر على البال ، عن رسالة المرأة ، فوجهت اليه فى العام الماضى كتـاباً لم أذكر فيه اسـمى ، كتـاباً من سطرين : « أقبلك بحرارة ، يا عزيزى المفكر الكبير ، باسم المرأة العصرية • استمر ! » وذيلت الكتاب بهذا التوقيع : «أم» • خطر ببالى أن أوقّع : «أم عصرية» ، ولكننى اكتفيت ، بعد تردد ، بكلمة الأم ، لأن فيها جمالاً روحياً أعظم يادمترى فيدوروفتش ؟ هذا عدا أن كلمة « عصرية » كان يمكن أن تذكره بمجلته « المعاصر » ، وأن توقظ فى نفسه ذكريات أليمة بسبب الرقابة التى تسود الآن ••• ولكن ماذا بك ؟ ماذا جرى لك ؟

كان ميتيا قد وثب عن مقعده • وها هو ذا يضم يديه احداهما الى الأخرى أمامها صائحاً بضراعة طائشة :

ــ سيدتى ! لسوف تبكيننى اذا تأخرت مزيداً من التأخر عن تنفيذ ما تكرمت فوعدتنى به •••

ـ ابك يا دمترى فيدوروفتش ، لا تخش أن تبكى ! ان هـذه العواطف تشرفك ... ما يزال طـريقك طويلاً ! ستحسن الدموع اليك . سوف تعـود يوماً وسوف تكون سعيدا . ستجيئنى من أعماق سيبريا خصيصا لأشاركك فرحتك ...

أعول ميتيا فى هذه المرة يقول :

ـ اسمحى لى أخيراً أن أقـول كلمة . أرجـوك مرةً أخيرة أن تجيبينى : هل يمكننى أن أتلقى هذا المبلغ منك اليوم ؟ والا ففى أى يوم تأمرين أن أجيء لأخذه ؟

ـ عن أى مبلغ تتكلم يا دمترى فيدوروفتش ؟

ـ عن الثلاثة آلاف روبل التى تكرمت فوعـدتنى بها ... منذ قليل ...

ـ ماذا ؟ ثلاثة آلاف روبل ؟ آه ... لا ... أنا لا أملك هـذا المبلغ .

كذلك قالت السيدة هوخلاكوفا بدهشة هادئة .

صعق ميتيا . وقال :

ـ كيف هذا ؟ لقد وعدتنى منذ برهة ... منذ هنيهة قصيرة ... حتى لقد قلت اننى أستطيع أن أعد هذا المبلغ موجودا فى جيبى .

ـ آه .. لا ... لا شك أنك أسأت فهمى يا دمترى فيدوروفتش . لا ، لا ، انك لم تفهمنى . لقد قلت ذلك الكلام بصدد مناجم الذهب . صحيح أننى وعدتك بأكثر كثيراً من ثلاثة آلاف روبل ، تذكرت هـذا الآن ، ولكننى كنت لا أفكر عندئذ الا فى مناجم الذهب .

صاح ميتيا يقول بغباء :

ـ والمبلغ ؟ والثلاثة آلاف روبل ؟

ـ اذا كنت قد جئت من أجل اقتراض مال ، فيجب أن أذكر لك اننى لا أملك مالا ً• اننى الآن خالية الوفاض تماما يا دمترى فيدوروفتش. حتى اننى فى شجار مع وكيلى ، وقد اضطررت أن أقترض خمسمائة روبل من ميوسوف منذ بضعة أيام • لا ، لا ، لا أستطيع أن أسلفك شيئاً • واعلم عدا ذلك يا دمترى فيدوروفتش أننى لو كنت أملك مالا ً لما أسلفتك أيضا ، أولا لأننى لا أقرض أحداً قط ، فالدين خصام دائماً ؛ واذا أقرضت غيرك ، فلا أقرضك أنت ، لأننى أريد لك الخير ، وأريد أن أنقذك ، وما أنت فى حاجة الا الى شىء واحد : المناجم ، المناجم ، المناجم !

زأر ميتيا يقول :

ـ شيطان يأخذ المناجم !

وهوى بقبضة يده على المنضدة يضربها بكل ما أوتى من قوة •

ـ آى ••• آى •••

كذلك أنَّت السيدة هوخـــلاكوفا مرتاعة وهى تهرب الى آخـــر الصالون •

بصق ميتيا من فـــرط حنقه • وبخطى سريعة ، اجتاز الغرفة ، وخرج من المنزل ، وأوغل فى الشارع المظلم • انه يسير الآن كمجنون ، ويلطم صدره بقبضة يده ، على ذلك الموضع نفسه الذى لطمه منذ يومين بحضور أليوشا حين لقيه فى الشارع ساعة الغسق • لماذا يلطم صـــدره هذا اللطم ، « على هذا الموضع نفسه » ، وماذا كان معنى هذه الحركة ؟

ذلك أمر لم يفصح عنه لأحد ، حتى ولا لأليوشا . هـذا سره فى تلك الساعة ، ولكنه كان يعلم أنه ، لأسباب يكتمها ، انما يسـير الى هاوية العار ، الى انهيار حياته ، الى الانتحار . ذلك ما سيحدث حتماً اذا هـو لم يحصل على هذه الثلاثة آلاف روبل ليرد الى كاترين ايفانوفنا مالها ، ولينزع عن صدره ، « عن هذا الموضع بعينه من صدره » ، الخزى الذى يخنقه ، الحمل الذى يبهظه ، والذى يرهق ضميره أشد الارهاق . ان هذا كله سيتضح مزيدا من الاتضاح فيما بعد . والآن وقد انهار آخر أمل من آمال هذا الرجل القوى الجسم ، فانه ما ان ابتعد بضع خطوات عن منزل السيدة هوخلاكوفا ، حتى انفجر يبكى على حين فجأة ناشجاً كطفل صغير . وها هو ذا يمسح دموعه بقبضتى يديه وهو فيما هو فيه من اضطراب . وعلى هذه الحال انما وصل الى الميدان ، حيث أحس بغتةً أنه قد صدم شيئاً ما ، وسرعان ما سمع أناتٍ شاكية صادرة عن عجوز كاد يقلبها .

ـ يا رب ! كاد يقتلنى ! هلاّ نظرت أين تسير أيها الوغد !

صاح ميتيا يقول وهو يتفرس وجه المرأة العجوز فى الظلام ؟

ـ كيف ؟ أهذا أنت ؟

لقد عرف ميتيا فى هذه المرأة العجوز ، خادمةَ كوزما كوزمتش الطاعنة فى السن التى لاحظها فى منزله الليلة البارحة .

سألته العجوز بصوت أصبح لطيفا على حين فجأة :

ـ ومن أنت يا بنى ؟

ـ أنت فى خدمة كوزما كوزمتش ، أليس كذلك ؟

ـ هـذا صحيح يابنى ، وأنا ذاهبة الآن الى بروخورتش ... لا أستطيع أن أميِّزك فى هذا الظلام ...

قال ميتيا وهو يرتجف قلقاً وخوفاً :

ـ قولى لى يا أماه : هل أجرافين الكسندروفنا عندكم الآن • لقد أوصلتها الى منزلكم منذ قليل •

ـ لقد جاءت يا بنى فمكثت لحظة ثم انصرفت •

فصرخ ميتيا :

ـ انصرفت ؟ كيف هذا ؟ الى أين ذهبت ؟

ـ لم تمكث عندنا الا دقيقة ، قصّت خلالها على كوزما كوزمتش قصة مضحكة ثم لم تلبث أن انصرفت •

زأر ميتيا يقول :

ـ أنت تكذبين أيتها العجوز اللعينة •

فصاحت المرأة تقول مذعورة :

ـ آى ••• آى •••

ولكن ميتيا كان قد غاب •

أسرع ميتيا يركض بخطى كبيرة نحو منزل آل موروسوف• كانت جروشنكا قد سافرت منذ ربع ســـاعة الى موكرويه ، وكانت فينيا فى المطبخ مع جدتها ماترين الطباخة ، حين ظهر « الكابتن » فجأة فى المنزل• فلما رأته أطلقت صرخات ارتياع وجزع •

أعول ميتيا يسألها :

ـ ها ••• تصرخين ؟ أين هى ؟

ولكن قبل أن يتسع وقت فينيا ، التى شحب لونها شحوبا شديدا من الذعر ، لأن تنطق بكلمة واحدة ، ارتمى ميتيا على قدميها قائلاً لها :

ـ فينيا ، قولى لى ، أناشدك يسوع المسيح ، الى أين ذهبت ؟

ـ لا أدرى يا سيدى ، لست على علم بشيء أيهـــا العزيز دمترى فيدوروفتش • ولو قتلتنى لما استطعت أن أقول لك أكثر من هذا • ثم انك قد خرجت معها منذ قليل •

كذلك أكدت فينيا متدفقة فى كلامها •

قال ميتيا :

ـ ولكنها عادت •

ـ لا ، لا ، يا عزيزى دمترى فيدوروفتش ، لم تعد ، أحلف لك بالله انها لم تعد !

صرخ ميتيا يقول :

ـ تكذبين ! وانى لأحزر من ذعرك وحده الى أن ذهبت ؟

وأسرع يركض فى الشارع من جديد • فما كان أسعد فينيا بأنها تخلصت منه بمثل هذه الســهولة ! فلقد أدركت حق الادراك أنه كان سيسومها سوء العذاب خلال ربع ســاعة ، لولا استعجاله الشــديد • على أنه قد فاجأ فينيا وماترين العجوز ، حين انصرافه ، بحــركة لم تكن فى الحسبان : كان هناك على المائدة هاون ومدق من نحاس ، ولكن المدق ليس كبيراً • فبينما كان ميتيا يضع يده على قبضة الباب راكضا ليخرج ، مد يده الأخرى فتناول المدق اختطافا ودسـّه فى جيب سترته •

هتفت فينيا تقول وهى تضم يديها احداهما الى الأخرى :

ـ رباه ! سيقتل أحدا •

٤

في الظلام

إلى اين كان يركض ؟ ذلك سؤال يحزر جوابه: « أين عساها تكون ان لم تكن عند فيدور بافلوفتش ؟ لا شك أنها ذهبت اليه رأساً بعد أن غادرت منزل سامسونوف • الحيلة واضحة ، والكذب مفضوح ! » • كانت هذه الأفكار تغلى فى رأس ميتيا •

تحاشى ميتيا أن يمر بحديقة ماريا كوندراتيفنا • قال لنفسه : « يجب أن لا ترانى ماريا بحال من الأحوال !••• يجب أن لا أنبهها••• والا وشت بى فوراً ، وأبلغت أننى هنا ••• لسوف تخوننى حتماً • لا شك فى أنها متواطئة معهم • وكذلك سمردياكوف • لقد اشتروا جميعاً ! » • لذلك سلك طريقاً آخر : دار دورة طويلة ، فمرّ بالشارع الصغير الذى يقع خلف منزل فيدور بافلوفتش ، واجتاز شارع دمتريفسكا ، وعبر الجسر الضيق الصغير ، فوصل بذلك الى مكان خال غير مأهول يقع وراء الفناء • ان هذا المكان يحدّه سياج بستان مجاور من جهة ، ويحده من الجهة لأخرى السور العالى الذى يحيط بمنزل فيدور بافلوفتش • واختار ميتيا لتخطى ذلك السور الموضع الذى يُروى أن البزابث سمردياشتايا قد تخطت السور منه فى الماضى• قال ميتيا لنفسه :

« اذا استطاعت تلك أن تتخطاه ـ لا يدرى الا الله لماذا ـ فكيف لا أفلح أنا فى تخطيه ؟ » • واستطاع فعلاً من أول وثبة ، أن يتشبث بذروة السور بيده ، وأن يرتفع بعد ذلك باندفاعة قوية ، فاذا هو يصبح فى أعلى السور ، فيركب عليه ركوبه على حصان • ان حمامات المنزل قريبة جدا من ذلك المكان ، ومنه ترى نوافذ الدار المضاءة • قال ميتيا يحدث نفسه : « طبعا !••• ان فى غرفة نوم العجوز نوراً • معنى هذا أنها عنده ! » • ووثب بعد ذلك الى الحديقة • ورغم علمه بأن جريجورى مريض ، وبأن مرض سمردياكوف قد لا يكون تمارضا ، وأن أحداً من المنزل لا يمكن اذن أن يسمعه فى هذه اللحظة ، فقد لطا متجمعا على نفسه بدافع الغريزة ، وجمد لا يتحرك ، وأصاخ بسمعه • ان صمتا كصمت الموت يخيم على المكان وما حوله • لا نأمة ، ولا نسمة ••• هدوء مطلق، كأنما عن قصد وعمد •••

« الصمت وحده يهمهم » • خطر هذا البيت من الشعر ببال ميتيا• وقال يحدث نفسه : « آمل أن لا أكون قد سُمعتُ لحظةَ قفزت ! ولكن يظهر أننى لم أُسمع » • وبعد أن لبث على هذه الحال دقيقة لا يتحرك ، تسلل بخطى وئيدة خلال الحديقة ، سائرا على العشب حتى يخنق كل ضجة • كان يتحاشى الأشجار والأدغال ، ويتقدم بطيئا ،ولا يضع قدمه الا محاذراً ، ويصيخ بسمعه الى أيسر صوت • فلم يصل الى النافذة المضاءة الا بعد خمس دقائق • وتذكر أن تحت النوافذ أشجار بيلسان ورباطٍ كثيفة تمتد أغصانها الى علو كافٍ • وكان الباب الذى يفضى من الحديقةَ الى داخل المنزل على الجهة اليسرى من الواجهة مغلقاً ، فانتبه ميتيا الى ذلك انتباهاً خاصاً وسجله فى ذهنه عند مروره • ووصل أخيرا الى الشجيرات فاختبأ وراءها حابساً أنفاسه • قال لنفسه : « يجب أن أتلبث هنا بضع لحظات ، فلعلهم قد سمعوا صوت وقع خطواتى ، فأخذوا

يصيخون بأسماعهم للتأكد ... أرجو أن لا أسعل أو أعطس ... » .

وانتظر دقيقتين ، خافق القلب خفقاناً شـديداً ، حتى لتكاد تنقطع من ذلك أنفاسه . ثم قال لنفسه : « لا ... لا أستطيع أن أبقى هنا . ان دقات قلبى لن تهدأ ، فلا يمكننى أن أنتظر مزيداً من الانتظار » . كان ميتيـا مختبئاً فى ظل مجمـوعة الأشجار التى ينيز الضـوء لآتى من النافذة جانبها الخلفى . ورأى نفســه يدمدم قائلاً دون أن يعرف لماذا : « ما أشد الاحمرار فى أثمار أشجار الرباط هذه ! » . ثم أخذ يدنو من النـافذة بخطى كخطى الذئب ، حتى اذا بلغها انتصب واقفاً على رءوس الأصابع . بدت له غرفة نوم فيدور بافلوفتش كلها . انها غرفة صغيرة ، تنقسم قســـمين بحاجزين أحمرين ، كان فيدور بافلوفتش يسميهما « الصينيين » . قال ميتيـا لنفســه : « الحاجزان الصينيان .. لا شك أن جروشنكا تختبىء وراءهما » . وأخذ ميتيا ينعم النظر فى أبيه . كان الأب يلبس ثوباً جديداً للمنزل من حرير مخطط ما رآه عليه ميتيا من قبل ، ويشد على خصره حزاماً من حرير أيضاً ينتهى بعقد ؛ وتحت ياقة الثوب يُرى قميص أنيق نظيف جداً مصنوع من نسيج رقيق ناعم وله أزرار من ذهب ؛ وكان فيدور بافلوفتش يضع على رأسه الضماد المصنوع من قماش أحمر الذى سبق أن رآه أليوشا . قال ميتيا لنفسه : « لقد تجمل وتزين » . وكان أبوه واقفاً قرب النافذة واجماً شارد اللب . وها هو ذا يرفع رأسه على حين فجأة مصيخاً بسمعه كأنما لينصت ؛ فلما لم يسمع شيئاً اقترب من المائدة فصبَّ نصف قدح من الكونياك وأفرغه فى جوفه ، ثم تنفس تنفساً عميقاً ملء رئتيه . وفكَّر بضع لحظات ، ثم اتجه نحو المرآة بخطى ذاهلة ، فأزاح بيده اليمنى المنديل الذى يخفى جبينـه ، وأخـذ ينعم النظر فى النـدبات والبقع الزرق التى لم تختف بعـد . قال ميتيـا لنفسه : « أغلب الظن أنه وحيـد ليس عنده أحـد » . وفى تلك اللحظة

ابتعد فيدور بافلوفتش عن المرآة ، والتفت فجأة نحـــو النافذة ، وأخذ ينظر الى الخـارج • فما كان من ميتيا الا أن ارتمى فى الظـلام بوثبة واحدة •

وقال ميتيا لنفســه : « من الجـائز أيضـاً أن تكون مختبئـة وراء الحاجزين ،وربما كانت نائمة • » • فما ان تراءى له هـــذا الافتراض حتى شعر بطعنة تنفذ فى قلبه • وابتعد فيدور بافلوفتش عن النافذة • « لا شك انه يترقبها هى اذ ينظر من النافذة الى الخـارج • فليست اذن عنده ! والا فما له وللظلمات يمعن النظر فيها متفرساً مستطلعاً ! واضح أن نفاد الصبر يحرقه حرقاً » • وعاد ميتيا يقترب ، وأخذ يرصد أباه • كان العجوز قد جلس الى المائدة ، وكان واضحاً عليه أنه خائب الرجاء يائس النفس • ووضع كوعيه أخيراً على المائدة ، وأسند خده الى راحة يده اليمنى • فكان ميتيا يفحصه بنوع من النهم !

وقال بصوت خافت جداً : « وحيد ! انه وحيد ! فلو كانت معه ، لكان وجهه وجهاً آخر » • ومن عجائب قلب الانســان ما شـعر به ميتيا حينذاك : لقد أحسَّ فجأة حين أدرك أن جروشنكا ليســت هناك ، نوع من خيبة الأمل عجيب لا يُفهم ! فقال يشرح لنفسه : « لا ••• ان ما أحسه من اهتياج لا يرجع الى اننى لا أراها ، وانما يرجع الى أننى لا أملك أية وســيلة للتأكد على وجه اليقين من أنها مع العجوز أو أنهـا ليست معه » • وقد تذكر ميتيا فيما بعد أن فكره فى تلك اللحظة كان على جانب عظيم من الصحو والصـفاء ، فلا تفوته نـاردة ولا واردة ، حتى ليدرك أدق تفاصيل الموقف • ولكن القلق كان يجتاح نفسه بمزيد من القوة شيئاً بعد شيء ، لأنه ليس من أمره على يقين ، حتى أصبح لا يطيق هذا الوضع •

تساءل : « أهي هنا أم لا ؟ » • واشتعل حنقه • وها هو ذا يعزم أمره على حين فجأة ، فيمد ذراعه ، وينقر على الزجاج نقرات الاشارة المتفق عليها مع سمردياكوف وهي : نقرتان متباعدتان ، فثلاث نقرات متقاربة ، دلالةً على أن « جروشنكا قد وصلت » • فانتفض العجوز ، ورفع رأسه ، ووثب من مكانه ، واندفع نحو النافذة • فارتمى ميتيا فى الظلام •

دمدم فيدور بافلوفتش يسأل بصوت مرتجف :

ـ أهذا أنت يا جروشنكا ؟ أنت ؟ أين أنت يا ملاكى ؟ أين أنت يا حبى ؟ أين أنت ؟

وكان يختنق من فرط الانفعال •

قال ميتيا لنفسه : « انه وحيد » •

واستأنف العجوز يسأل :

ـ أين أنت اذن ؟

وكان الأب وهو يرسل هذا السؤال يميل برأسه من النافذة حتى الكتفين ناظراً الى جميع الجهات • وها هو ذا يضيف قوله :

ـ تعالى ! لقد أعددت لك مفاجأة حلوة • تعالى فأريك المفاجأة •

قال ميتيا فى سره : « هى الظرف الذى يضم الثلاثة آلاف روبل » •

ـ ولكن أين أنت اذن ؟ لعلك قرب الباب ؟ سأفتح لك الباب •

وكاد يسقط من النافذة من شدة ميله عليها ليرى المرأة الشابة فى الظلام من جهة الباب الذى يفضى الى الحديقة على اليمين • ولو قد اتسع الوقت لحظة أخرى اذن لأسرع الى الباب حتماً دون أن ينتظر جواب

جروشنكا . كان ميتيا يرقبه من قرارة مخبئه بغير حركة . كان يراه من جانب . فكان وجهه الكريه المقيت ، وكانت جوزة عنقه ، وكان أنفه الأقنى ، وكانت شفتاه اللتان تبتسمان بانتظار نبق ، كان ذلك كله يبرز فى ضوء ساطع يسقط عليه مواربا من المصباح الموجود فى الجهة اليسرى من الغرفة . فاذا بكره عنيف فظيع يغلى فى قلب ميتيا فجأة ، فيقول فى نفسه : « هذا هو ، هذا هو غريمى ، هذا هو خصمى ، هذا هو جلادى ، هذا هو عدو حياتى ! » . انها سورة الحنق المباغت المسعور الحاقد الظامىء الى الانتقام ، الذى تحدث عنه الى أليوشا بما يشبه التنبؤ أثناء حديثهما فى الجناح قبل أربعة أيام جوابا على سؤال أليوشا له : « كيف يمكن أن يخطر ببالك أن تقتل أباك ؟ » . لقد أجابه يومئذ قائلا : « لا أدرى ، أصبحت لا أدرى . قد لا أقتل ، ولكن من الممكن أن أقتل . أخشى أن يصبح فى نظرى كريها على حين فجأة بوجهه المقيت فى تلك اللحظة . اننى أكره جوزة عنقه ، وأنفه ، وعينيه ، وضحكته الصغيرة المستهترة . انه يثير فىّ تقززا جسميا . ذلك هو ما أخشاه خاصة . قد لا أستطيع أن أكبح جماح نفسى » .

وكان التقزز الجسمى الذى يحس به ميتيا لا حدود له . فاذا هو ، دون أن يدرك ماذا يفعل ، يخرج من جيبه مِدقّ الهاون على حين فجأة ...

سوف يقول فيما بعد ان الله كان ساهرا عليه فى تلك الدقيقة . ففى تلك اللحظة نفسها استيقظ جريجورى فاسيلفتش فى سريره الذى كان قد اضطجع عليه مريضا . كان جريجورى قد لجأ فى المساء الى استعمال الدواء الذى ذكره سمردياكوف فى حديثه مع ايفان فيودوروفتش ، أى دلّك جسمه بمعاونة امرأته بخليط من الخمر ومغلىّ أعشاب قوى

ثم شرب ما تبقى من هذا الخليط ، بينما كانت مارفا اجناتيفنا تقرأ عليه دعاءً سرياً بصوت خافت • ثم رقد وذاقت مارفا اجناتيفنا الدواء أيضاً ، ولكنها لم تلبث أن نامت الى جانب زوجها نوماً عميقاً على الفور ، لأنها لم تألف شرب الكحول ، ولم تتعوده • أما جريجوري فقد استيقظ من نومه فى وسط الليل على غير توقع ، وفكّر لحظة ، ثم اذا هو يجلس على سريره رغم أنه أحس بألم شديد فى المنطقة الحقوية • فلما فكر من جديد ، نهض وأسرع يرتدى ثيابه • من الجائز أن يكون قد شعر بعذاب الضمير لأنه نام بينما بقى البيت بغير حارس يحرسه « فى فترة خطرة الى هذا الحد » • وكان سمردياكوف الذى صرعته النوبة ، راقداً بلا حراك فى الغرفة الصغيرة المجاورة • ولم تتحرك مارفا اجناتيفنا ، فقال جريجورى لنفسه وهو يلقى نظرةً عليها : « انها لم تتحمل الدواء » ثم خرج الى درجات الباب وهو يئن• كان لايستهدف الا أن يلقى نظرة على الخارج، لأنه كان لا يحس أنه قادر على المشى ، بسبب الألم الشديد الذى كان يشعر به فى الكليتين والساق اليمنى • ولكنه تذكر فى تلك اللحظة نفسها أنه لم يقفل باب الحديقة الحديدى فى المساء • ان جريجورى رجل دقيق المواعيد منظم السلوك ، لا ينحرف أبداً عن القواعد التى فرضها على نفسه الى الأبد ولا عن العادات التى أخذ نفسه بها خلال سنين • وها هو ذا يهبط درجات الباب عارجاً متلوياً من الألم ، ويتجه الى الحديقة• وكان باب الحديقة الحديدى مفتوحاً حقاً • أتراه لاحظ شيئا يثير الانتباه أو سمع صوتاً لا يُتوقع ؟ فلما لفت رأسه فجأة نحو اليسار ، رأى النافذة فى غرفة نوم مولاه مفتوحة ، ولم ير أحداً عليها ؟ فتساءل : « كيف تكون النافذة مفتوحة ولسنا فى فصل الصيف ؟ » ، ولمح فى تلك اللحظة نفسها ظلاً يتحرك فى الحديقة على مسافة أربعين خطوةً منه • كان هناك رجل يهرب فى الظلام • صاح جريجورى يقول : « رباه ! » ، ثم نسى فجأة

ألمه ، واندفع يركض ليقطع على الهارب طريق الفرار ، فسلك أقصر طريق ، لأنه يعرف الحديقة أكثر مما يعرفها الرجل الذى يطارده • لقد اتجه الهارب نحو الحمامات ، فدار حولها ، ثم اندفع صوب الحائط • وكان جريجورى يركض بأقصى سرعة دون أن يغيب الرجل عن بصره، فوصل الى السور فى اللحظة التى كان فيها الرجل المجهول يتسلق السور ؛ وها هو ذا يطلق صرخة قوية وقد خرج عن طوره ،ويمسك احدى ساقى الرجل بكلتا يديه •

لم يخطئه حدسه ؛ عرف الرجل : انه ذلك الشيطان الرجيم « قاتل أبيه » •

زأر العجوز يقول :

ــ يا قاتل أبيه ! •

ولكنه لم يستطع أن يقول أكثر من ذلك : فها هو ذا يهوى على الأرض مجندلاً •

قفز ميتيا الى الحديقة من جديد ومال على الخادم الذى جند له • وكان ميتيا يمسك المدق النحاسى بيده ، فرماه على العشب ذاهلاً • سقط المدق على مسافة خطوتين من جريجورى ، لا بين الحشائش ، بل فى الممر، أى فى أبرز موضع يُرى • ولبث ميتيا بضع لحظات يتأمل جسم الخادم العجوز الدامى رأسه ، ومدَّ يده يجس الرأس • لقد تذكر ميتيا فيما بعد ، تذكراً واضحاً ، أنه شعر فى تلك اللحظة بحاجة قوية لا تقاوم ، الى « التأكد تأكداً كاملاً » : هل كُسرت جمجمة جريجورى أم أن الأمر لا يعدو أن يكون قد أُغمى عليه بسبب الضربة التى أصابت صدغه • ولكن الدم الحار كان يتدفق فيغرق أصابع ميتيا المرتجفة • وتذكر ميتيا فيما بعد أنه أخرج من جيبه منديلاً نظيفاً كان قد تزود به

حين ذهب الى السيدة هوخلاكوفا ، فوضعه على وجه جريجورى ، محاولاً بغباء أن يقطع سيلان الدم على جبينه وخديه • فسرعان ما ابتل المنديل بالدم خلال بضع ثوانٍ • فأسرع ميتيا يتساءل فجأة وقد ثاب الى رشده : « ما بقائى هنا ؟ » ثم أضاف يقول يائساً : « وكيف يمكننى أن أعرف الآن هل كُسرت الجمجمة أم لا ؟ وما جدوى هذا على كل حال ؟ ما وقع فقد وقع ••• ولقد كان العجوز متهوراً فنال ما يستحق ! » • بهذا ختم ميتيا كلامه بصوت عالٍ ، ثم اندفع نحو الســـور ، فتسلقه ، وقفز الى الشارع الضيق ، وانصرف راكضاً • وكان لا يزال يمسك بيده اليمنى منديله المبلل بالدم ، فدسَّه فى جيب سترته دون أن يهـــدىء سرعة ركضه • كان يعدو عدوا شديداً يوشك أن يقطع أنفاسه ؛ ولســـوف يتذكر عدة مارة صـــادفوه فى الشوارع أنهم رأوا فى تلك الليلة رجلا يهرب فى الظلام طائش العقل •

اتجه ميتيا من جديد الى منزل آل موروســـوف • كانت فينيا قد أسرعت ، بعد انصرافه ، الى بيت البواب نازير ايفانوفتش فتوسلت اليه «باسم يسوع المسيح أن لايدع «للكابتن» أن يدخل المنزل مرة أخرى ، لا فى هذا المساء ولا فى الغد » ، فوعدها نازير ايفـــانوفتش بأن يلبى رجاءها ، ولكنه اذ اضطر أن يذهب الى مالكة المنزل فى الطابق الأعلى ، عهد بمراقبة الفناء الى ابن أخيه ، وهو فتى فى العشرين من عمره كان قد وصل من الريف مؤخراً ، ونسى أن يوصيه بما كان يجب أن يوصيه به بشأن الكابتن ، فلما وصل دمترى طرق الباب ، ففتح له الشاب الفلاح فعرفه ، لأن ميتيا كان قد أعطاه « بقاشيش » كبيرة مرات كثيرة ، وتركه يدخل ، حتى لقد أسرع يبلغه ، وهو يبتسم ابتسامة تودد ، أن « أجرافين الكسندروفنا ليست فى بيتها » • فسأله ميتيا بحرارة :

ـ فاين هى يا بروخور ؟

فقال له الشاب :

ـ سافرت الى موكرويه منذ أكثر من ساعتين ، وتولى تيموتى قيادة الخيل •

صاح ميتيا يسأله :

ـ ماذا ذهبت تصنع هناك ؟

ـ لا أدرى يا سيدى ! ضابط استدعاها وأرسل اليها عربة تقلها •

كان ميتيا قد انقطع عن الاصغاء اليه • فلقد أسرع يدخل البيت كالمجنون باحثاً عن فينيا •

٥

قدر مفاجئ

كانت فينيـــا فى المطبخ مع جدتها ، وكانت المرأتان تستعدان للنوم . وقد اعتمدتا على يقظـة نازير ايفانوفتش ، فأهملتا مرة أخـــرى اقفال البـاب بالمفتاح . اقتحم ميتيا الغرفة ، وارتمى على فينيا، فقبض على عنقها ، وزأر يسألها خارجاً عن طوره :

ـ قولى لى حالاً ، مع من هى فى موكرويه الآن ؟

فأطلقت المرأتان صرخة حادة . وجمجمت فينيا تقول بسرعة وقد استحوذ عليها هلع رهيب :

ـ سأقول كل شيء يا دمترى فيدوروفتش العزيز ، سأتكلم ، لن أخفى شيئاً . لقد ذهبت جروشنكا الى لقاء ضابطها فى موكرويه .

صرخ ميتيا يسألها :

ـ أى ضابط ؟

فأسرعت تجيبه :

ـ الضابط الذى عرفته فى الماضى ، منذ خمس سنين ... الضابط الذى تركها وسافر .

أعتق ميتيا عنق فينيا • ولبث أمامهـــا لحظة لا ينطق بكلمة ، وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة الموت، وعبّـرت نظرته عن أنه أدرك الحقيقة الآن على حين فجأة ، وأنه فهم كل شيء وحزر كل شيء دفعة واحدة. ولكن فينيا المسكينة لم يخطر ببالها في تلك اللحظة أن تلاحظه لتعلم هل أدرك الحقيقة فعلاً أم هو لم يدركهـا • لقد ظلت جالســة على صــندوق كما كانت حين وصول ميتيا ، ولبثت ترتعش جامدة على ذلك الوضع نفســه مادّة ذراعيها كأنما لتحمى نفسها • وكانت عيناها اللتان اتسعت حدقتاهما من الجزع تحدقان الى ميتيا الذى كانت يداه حمراوين من الدم ، وكان ميتيا أثنـاء الطريق قد اضطر أن يمسح بيديه العــرق الذى كان يتصبب من وجهه ، فكانت بقع الدم تُرى كذلك على جبينه وعلى خده اليمنى • وشعرت فينيا أنها توشك أن تصــاب بنوبة عصـــبية • وكانت العجوز الطباخة التى وثبت عن مكانها تنظر الى المشهد مذعورة النظرات ، نصف مجنونة من شدة الهلع • وبعد دقيقة من صمت تهالك ميتيا على كرسى قرب فينيا •

كان ميتيا لا يفكر • انه الآن أقرب الى أن يكون خائفا مذهولاً • كان كل شيء قد اتضح : انه ذلك الضابط • وكان ميتيا على علم بوجود هذا الضابط مع ذلك وكان لا يجهل أنه كتب الى جروشنكا منذ شهر ، وقد عرف ذلك من جروشنكا نفسها • فخلال شهر اذن ، خلال شـــهر كامل ، ظلت هذه المؤامرة تدبر من وراء ظهره ، الى أن وصل الخصم الجديد ، دون أن يكون ميتيا قد اهتم بهذا الأمر أو اكترث له أو قلق منه • كيف أمكنه أن لا يفكر فى هذا الضابط يوماً ، ولماذا نسيه نسياناً تاماً بعد أن رأى رسالته ؟ كان هذا الســـؤال يعذب ميتيا كأمر عجيب غريب ، ويبعث فى نفسه خوفاً ورعباً •

وهاهوذا ميتيا يخاطب فينيا على حين فجأة برقة ولطف وكياسة ،

كطفل طيب خجول ، دون أن يتذكر كيف داهمها وقسا عليها منذ لحظات . أخذ يلقى عليها أسئلة واضحة دقيقة يُستغرب صدورها عن رجل فى مثل حالته فكانت فينيا تجيبه عن كل سؤال بلطف عظيم وبشاشة كبيرة ، رغم أنها لم تستطع أن تحوّل بصرها المذعور عن يديه الداميتين، حتى لقد بدا عليها أنها تحرص على أن لا تكتمه شيئاً وأن لا تخفى عنه شيئاً . ولاح شيئاً فشيئاً أنها تجد مسرة فى أن تكشف له عن جميع التفاصيل ، لا بقصد ايلامه ، بل عن رغبة صادقة منها فى أن تكون نافعةً له . قصت عليه أحداث النهار تفصيلاً ، وذكرت له زيارة راكيتين وأليوشا ، وحكت له كيف أنها كُلِّفت بالترقب والترصد ، وروت له سفر جروشنكا ، وردّدت على مسامعه التحيات التى حرصت المرأة الشابة على أن تكلف أليوشا من النافذة بأن ينقلها اليه ، بغية « أن يتذكر على مدى حياته الساعة التى أحبته فيها » . فلما وصلت فينيا الى هذه النقطة من حديثها ابتسم دمترى ، واحمر خداه الشاحبان بضع ثوان. وتجرأت فينيا عندئذ فسألته دون خوف فى هذه المرة :

ـ لماذا أرى يديك ملوثتين بالدم يا دمترى فيدوروفتش ؟

فأجابها ميتيا ذاهلاً :

ـ آ ... نعم ... صحيح .

وألقى على يديه نظرة ذاهلة .

ولكنه سرعان ما نسى السؤال الذى أُلقى عليه ، وغرق فى الصمت . لقد انقضى نصف ساعة على وجوده هنا . ان الرعب الذى اجتاحه قبل بضع لحظات قد تبدد الآن ، وبدا على ميتيا أن قراراً حازماً لا رجعة عنه قد استولى عليه وحلّ محل ذلك الرعب . وها هوذا ينهض فجأة ويبتسم حالمَ النظرة ذاهل اللب شارد الفكر .

سألته فينيا وهى تشير الى يديه :

ـ ماذا وقع لك يا سيدى ؟

وكانت فينيا تتكلم بلهجة فيها عطف وشفقه ، كأن ميتيا ليس له أحد أقرب منها اليه فى لحظة الشقاء هذه التى يمر بها •

نظر ميتيا مرة أخرى الى يديه • ثم أجابها وهو ينظر اليها نظرة غريبة :

ـ هو دمٌ يا فينيا ••• دم انسانى ••• الله وحده يعرف لماذا سُفح هذا الدم ••• ولكن اعلمى يا فينيا أنه يوجد هنالك سور عالٍ (وكان ميتيا ينظر اليها فى تلك اللحظه نظرة من يلقى عليها «فزورة»)، سور رهيب ••• وغداً ، عند الفجر ، حين تبدأ الشمس مسيرتها ، سيقفز ميتيا ذلك السور ••• انك لا تفهمين يا ميتيا أى سور أعنى ••• لا ضير ••• ستعرفين ذلك غداً ، وستفهمين عندئذ كل شيء ••• أما الآن ، فوداعاً ! لن أكون عقبةً فى طريق سعادتها ، سأعرف كيف أمحى ••• عيشي واسعدى يا فرحتى ، يا ضيائى ••• لقد أحببتنى ساعة ، ولسوف تتذكرين ميتنكا كارامازوف طوال حياتك ••• تعلمين أنها كانت تنادينى ميتنكا !

قال ميتيا هذه الكلمات وخرج من المطبخ فظهر على فينيا أن انصرافه هذا قد أرعبها أكثر مما أرعبها وصوله حين اقتحم الغرفة وهجم عليها •

وبعد عشر دقائق تماماً كان دمترى فيدوروفتش يمثل أمام بطرس ايلتش برخوتين ، الموظف الشاب الذى استودعه المسدسين رهناً • كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف ، وكان بطرس ايلتش قد احتسى الشاى ، وارتدى ردنجوته ليمضى يلعب البلياردو قليلاً فى كاباريه

« العاصمه الكبرى » ... وصل اليه ميتيا فى اللحظة التى كان يهم فيها أن يخرج . فما ان رأى الشاب يديه الداميتين حتى صرخ مدهوشاً .

ـ ماذا وقع لك ؟

ـ لا شىء ! جئت أردُّ اليك مالك واسترد المسدسين . لقد قدمت لى خدمة كبيرة أنا مستعجل جداً يا بطرس ايلتش ، فلا نضيعن الوقت.

كانت دهشة بطرس ايلتش ما تنفك تزداد : ذلك أنه رأى فى يدى ميتيا كدسة أوراق نقدية ، وأغرب ما فى الأمر أن ميتيا كان يمسك كدسة الأوراق النقدية كما لا يمسكها أحد : كان قابضاً عليها بيده اليمنى التى يقدمها الى أمام كأنما ليعرضها . وقد صرّح الخادم الشاب الذى يعمل فى منزل الموظف ، صرّح فيما بعد أن دمترى فيدوروفتش قد دخل المنزل وهو على هذه الحال ، وأن أغلب الظن اذن أنه كان فى الشارع أيضاً يحمل حزمة الأوراق النقدية (وهى أوراق من فئة المائة روبل) بيده على هذه الصورة بحيث يراها الناس بسهولة .

كان ميتيا يشد على الأوراق النقدية بأصابعه المدماة . وقد ذكر بطرس ايلتش للأشخاص الذين سألوه فيما بعد عن المبلغ هل هو ضخم، ذكر أن من الصعب تقديره بالنظر وحده ، وأن من الجائز أن يبلغ ألفى روبل وربما ثلاثة آلاف روبل ، غير أن الكدسة كانت كبيرة على كل حال ، كانت سميكة جداً . أما دمترى فيدوروفتش فلقد كان ، كما ورد فى الشهادة التى أدلى بها هذا الموظف الشاب فيما بعد ، « فى حالة غير طبيعية ، ولكنه لم يكن ثملاً ، وانما كان شديد الاندفاع ، عميق الذهول، رغم أن منظره يُشعر فى الوقت نفسه بأنه كان يُركز ذهنه على فكرة تشغله ، فهو يبدو مفكراً باحثاً عن حل لا يفلح فى الوصول اليه . وكان عدا ذلك مستعجلاً جداً ، وكان يجيب بأجوبة مباغتة ، وجمل قصيرة ، غريبة . وكان يمكن أن يُظن فى بعض اللحظات أنه فرح لا حزين » .

صاح بطرس ايلتش يســـأل من جديد وهو يتفرس فى زائره مذهولاً :

ـ ولكن ماذا بك ؟ ماذا فعلت حتى تلطخت بالدم هذا التلطخ كله ؟ أتراك سقطت على الأرض ؟ أنظر الى نفسك فى المرآة •

قال له ذلك وأمسكه من كوعه ودفعه نحو مرآة •فلما رأى ميتيا وجهه دامياً ارتعش وقطب حاجبيه • ودمدم يقول حانقاً :

ـ هه ! لم يكن ينقص الا هذا •••

وأسرع ينقـل الأوراق الماليـة من يدها اليمنى الى يده اليسرى ، وأخرج منديله من جيبه بحـركة متشنجة • كان هذا المنديل (الذى استعمله ميتيا فى مسح وجه جريجورى) ملطخاً بالدم ، وكانت طياته قد التصقت بعضها ببعض التصاقاً قوياً فلم يفلح ميتيا فى فضها ، فرمى المنديل على الأرض غاضباً وهو يسأل بطرس ايلتش قائلاً :

ـ أليس عندك خرقة ••• أمسح بها ؟

ـ تمسح ؟ أأنت تلوثت بالدم تلوثاً فحسب ؟ ألست جريحاً اذن ؟ اذا كان الأمر كذلك فتعال اغتسل • سأعطيك طشت ماء •

ـ شكراً •• ولكن أين أضع هذا ؟

قال ذلك وهو يشير الى حزمة الأوراق المالية ، ســـائلاً بطرس ايلتش بنظراته كأن بطرس ايلتش هو الذى يقع على عاتقه أن يقرر ماذا يفعل ميتيا بماله • قال بطرس ايلتش :

ـ ضع المال فى جيبك ••• أو ضـــعه على المائدة هنا ••• فلن يأخذه أحد •

ـ فى جيبى ؟ طبعا فى جيبى ••• عظيم •••

ثم صاح يقول فجأة كأنه يخرج من ذهوله :

ـ هذا كله سخيف ! ... لا ... يجب أن نسوّى تلك المسألة أولاً ... هات المسدسين ... اليك المال ... اننى فى حاجة ماسة الى المسدسين ... وأنا مستعجل جداً ... ليس هناك لحظة أستطيع أن أضيعها .

قال ذلك ومدّ الى الموظف ورقةً بمائة روبل كانت أولى أوراق الحزمة . فقال له بطرس ايلتش :

ـ لا أستطيع أن أبدلّها لك ... أليس معك نقود صغيرة ؟

فأجابه ميتيا :

ـ لا ...

ولكنه جس ورقتين أخريين أو ثلاث ورقات أخرى كأنه غير متأكد من صحة جوابه ، ثم أضاف :

ـ لا ... ليس عندى أوراق صغيرة ... هى جميعاً واحدة .
قال ذلك ونظر الى بطرس ايلتش مرتبكاً .
سأله الموظف الشاب :
ـ من أين جاءتك هذه الثروة كلها ؟
ثم أضاف يقول :

ـ انتظر ! سأرسل الصبى الى مخزن آل بلوتنيكوف . انهم يغلقون متجرهم فى ساعة متأخرة ، وسيبدلون لنا هذه الورقة . هيه ! ميشا !

كذلك نادى الصبىّ وهو يفتح الباب .

هتف ميتيا يقول فيما يشبه الالهام المباغت :

ـ مخزن آل بلوتنيكوف ؟ فكرة رائعة •••

ثم قال يخاطب الصبى الذى دخل الغرفة فى تلك اللحظة :

ـ ميشا ؟ أركض الى متجر آل بلوتنيكوف * ، وقل لهم ان دمترى فيدوروفتش يبلغكم تحياته ، وانه سيجىء اليكم بنفسه بعد قليل ••• وقل لهم أيضاً هذا : أن يحضروا شمبانيا بانتظار وصولى اليهم • نعم ••• ثلاث دستات شمبانيا ••• وليحزموها كما فعلوا فى المرة الأخيرة حين سافرت الى موكرويه ••• لقد طلبت يومئذ أربع دستات (كذلك أضاف يقول فجأة وهو يلتفت الى بطرس ايلتش) • وهم يعلمون على كل حال ، يا ميشا ••• لا تهتم بشىء (هكذا استأنف كلامه مخاطباً الصبى) ••• ها نعم ! قل لهم أيضاً أن يضيفوا جبناً ، وفطائر من ستراسبورج ، وأسماكاً مدخنة ، وشرائح من فخذ الخنزير ، وكافياراً ، أى شيئاً من كل ما عندهم فى مخزنهم ، بحيث يكون ثمن المجموع مائة أو مائة وعشرين روبلاً كما فى المرة السابقة ••• وقل لهم كذلك أن لا ينسوا الملبس والسكاكر الذوابة والكمثرى ، وبطيختين أو ثلاثاً ••• لا بل تكفى بطيخة واحدة ••• ولكن لا بد فى مقابل ذلك من شوكولاتة وسكر شعير ، وفاكهة مربية وكارامل لين ، تماماً كالمرة الماضية ؟ فيكون الثمن مع الشمبانيا حوالى ثلاثمائة روبل ••• تماماً كالمرة السابقة ••• هل ستتذكر ياميشا ؟ أليس اسمه ميشا ؟ (وجّه هذا السؤال الى بطرس ايلتش) •

قال بطرس ايلتش الذى كان يصغى اليه ويلاحظه قلقاً :

ـ لحظة ! ••• أليس الأفضل أن تأمرهم أنت باعداد الأشياء ؟ لا شك أن الصبى سيخطىء •

ـ سيخطىء ، سيرتبك ! أوه ! ميشا ! كنت أريد أن أقبّلك منذ

الآن شكراً لك ••• اسمع : اذا لم تخطىء فى تنفيذ المهمة ، فلك منى عشر روبلات • هيا أسرع ••• لا تنس الشمبانيا خاصـــةً ، يجب أن يحضّروا كثيراً من الشـــمبانيا ••• وكذلك من الكونيـاك ••• أبيض وأحمر ••• تماماً كالمرة الســـابقة • هم يعرفون ما طلبته فى المرة السابقة •

قاطعه بطرس ايلتش قائلاً وقد نفد صبره :

ـ هلاّ تركتنى أتكلم آخر الأمر ؟ أعود فأقول لك : حسبُ الصبى أن يجيئنا بالنقود ، وأن يوصيهم بأن لا يغلقوا متجرهم قبل وصولك • وستذهب اليهم فوراً ، فتعمل ما يجب بنفسك • اعطنى هذه الورقة ••• والآن هيّا يا ميشا ، وأسرع ••• فهمت ؟

يبدو أن الموظف كان حريصاً على أن يسرع فى صرف ميشا الذى كان ينظر محملق العينين الى الزائر الذى تلطخت يداه وتلطخ وجهـه بالدم وحملت أصابعه المرتعشة حزمة من الأوراق المالية • كان الغلام واقفاً أمام ميتيا فاغر الفم ، ولعله لم يفهم شيئاً مما كان يقال له •

فلما انصرف الغلام قال بطرس ايلتش بلهجة جافة :

ـ والآن تعال اغتسل • ضع المال على المائدة أو ضعه فى جيبك ••• هكذا ••• اقترب ••• اخلع عنك هذا الردنجوت !

وساعده فى خلع الردنجوت ، فاذا هو يصيح فجـأة من جديد قائلا :

ـ أنظر ••• الردنجوت أيضاً ملوث بالدم •

ـ ليس هو ••• ليس هو الردنجوت ••• الكمُ وحده اتســخ قليلاً فى هذا الموضع ••• وهنا أيضاً ••• ذلك لأننى هنا انما دسست

المنديل ، فنضح الدم ••• ولا بد أننى قعدت عليه عند فينيا ، فرشح الدم من الجيب •

كذلك راح ميتيا يشرح الأمر فى سورة من ثقة عجيبة • فقطب بطرس ايلتش حاجبيه • وقال متذمراً :

ـ هأنت ذا دبرت أمرك ! أتراك اقتتلت مع أحد ؟

وابتدأ التنظيف • تناول بطرس ايلتش جرةً وأخذ يسكب الماء• فكان ميتيـــا من فرط تعجله لا يحسن « تصبين » يديه (كانت يداه ترتعشان ؛ تذكر بطرس ايلتش ذلك فيما بعد) ، فأمره الموظف الشاب بأن يعيد الكرة فيصبِّن يديه من جديد • كان الموظف فى تلك اللحظـة يسيطر على ميتيا ، وكان سلطانه عليه يقوى شيئا بعد شيء • يحسن أن نشير هنا الى أن هذا الشاب لم يكن خجول الطبع •

ـ أنظر : لقد نسيت أن تنظف ما تحت الأظافر • وادلك وجهك الآن • أكثر من هذا ! هنا على الصدغين ، وقرب الأذن أيضاً ••• هل تنوى أن تنصرف لابساً هذا القميص ؟ والى اين تريد أن تذهب ؟ ألا ترى أن الكم اليمنى ملأى بالدم ؟

فقال ميتيا وهو يفحص الكم :

ـ حقا ! انها ملطخة •

ـ بدِّل اذن ملابسك الداخلية •

ـ لا يتسع وقتى • ســأدبر هذا الأمر : أثنى طرف الكم نحو الداخل ، فلا يُرى الدم ••• هكذا •••

كذلك أجاب ميتيا بتلك الثقة نفســها ، وهو يجفف وجهــه ويديه ويرتدى ردنجوته •

ـ قل لى الآن ما وقع لك ؟ هل اقتتلت مع أحد ؟ مع من اقتتلت ؟ أفى الكاباريه ، كما حدث هذا من قبل ؟ أتراك اقتتلت مرة أخرى مع ذلك الكابتن نفسه الذى جررته الى الشارع وأخذت تضربه ضرباً مبرحاً؟ (ذكر بطرس ايلتش ذلك المشهد بلهجة لائمه) • من ذا ضربت اليوم ••• أم تراك قتلت أحداً ؟

ـ سخافات !

ـ سخافات ؟ ماذا تعنى ؟

قال ميتيا :

ـ دعك من هذا الأمر •

ثم استدرك يقول مبتسماً وقد ثاب الى نفسه :

ـ دست امرأة عجوزاً فى الميدان •

ـ دست امرأة عجوزاً •

ـ بل رجلاً عجوزاً •

كذلك صحح ميتيا أجابته ضاحكاً ، وصارخاً كأنه يكلم رجلاً أطرش • وكان يسدد نظراته الى عينى بطرس ايلتش •

ـ رجل عجوز ••• امرأة عجوز ! ••• أصبحت لا أفهم ! ••• أتراك قتلت أحداً ؟

ـ لا بل تصالحنا • تضاربنا في أول الأمر ثم تصالحنا بعد ذلك • حدث ذلك هناك • وافترقنا صديقين • ثم انه غبى أبله ••• أوه ! لقد غفر لى وعفا عنى ••• لابد أن يكون قد صفح عنى فى هذه الساعة ••• ولو قد نهض ، لما أمكن أن يغفر لى ••• هه ••• فليذهب الأبله الى

الشيطان ! هل تسمعنى يا بطرس ايلتش ؟ فليذهب الى الشيطان ! لا أريد أن أهتم به بعد الآن ، لا أريد أن يخطر ببالى فى هذه اللحظة !

كذلك صاح ميتيا يقول بلهجة قاطعة . قال بطرس ايلتش :

ـ لا أحب أن أكون كثير الفضول ... ولكن أية لذة تجد فى التشاجر مع أول قادم ؟ ... وفى سبيل ترهات وسفاسف ، كما حدث مع ذلك الكابتن ؟ تقتتل ثم تمضى تلهو وتقصف ، ذلك طبعك حقاً ! ثلاث دستات شمبانيا ! أين تقدر أن تشرب هذا كله ؟

ـ أعطنى المسدسين بسرعة . أنا مســتعجل جداً ، أحلف لك ! كنت أود لو أثرثر معك يا عزيزى ، ولكن ليس فى وقتى متسع . ثم فيم الثرثرة ؟ لقد فات أوان الـكلام الآن . آه !... ولكن ! أموالى ، أين أين وضعتها ؟

كذلك هتف يقول وهو يفتش جيوبه واحداً بعد آخر .

ـ أموالك على المائدة ... هناك ... وضعتها على المائدة بنفسك. هل نسيت ؟ لكأن المــال ليس له أى شأن عندك حقاً ! أما مســدساك فهاكهما . انى لأستغرب أن تكون قد رهنتهما لاقتراض عشر روبلات عند العصر ، ثم اذا بك تقبض بيديك الآن على ألوف . كم معك على وجه الدقة ؟ ألفان ، ربما ثلاثة آلاف ؟

أجاب ميتيا ضاحكاً :

ـ ثلاثة آلاف .

ودس الحزمة فى جيب سرواله .

ـ سوف تضيعها هكذا ؟ أتراك اكتشفت منجم ذهب ؟

صـــاح ميتيـــا يقول بصوت قوى وهو ينفجر بضحك صاخب مجلجل :

ـ مناجم ، مناجم ذهب ! هل تهمك المنـــاجم يا عزيزى الشهم برخوتين ؟ اننى أعرف هنا سيدة تعطيك ثلاثة آلاف روبل على الفور اذا أنت مضيت باحثاً عن المناجم • لقد أعطتنى أنا ثلاثة آلاف روبل ، فالى هذا المدى يذهب جنونها بالمناجم ! هل تعرف السيدة هوخلاكوفا ؟

ـ أعرفها بالنظر ، وبالسمعة أيضاً • أهى التى أعطتك الثلاثة آلاف روبل ؟ أعطتكها هكذا ؟

كذلك سأله بطرس ايلتش وقد بدا فى وجهه أنه لم يصدق زعم صاحبه •

ـ اذا كنت لا تصدق ما أقول فاذهب اليها غداً منذ الفجر ، ساعة يرتقى فيبوس قبة السماء مسبحاً بحمد الرب ممجداً عظمته بشـــبابه الخالد • اذهب اليها فاسألها ألم تعطنى ثلاثة آلاف روبل ، وســـوف تعلم •

ـ لا أتدخل فى علاقاتك • وما دمت تؤكد ذلك جازماً فلا بد أن يـكون صحيحاً ••• ولكنـك ما ان استلمت المبلغ حتى أخـذت تلهو وتقصف وتبدد ، بدلاً من أن تذهب الى سيبيريا ! ••• الى أين تنوى أن تذهب فى هذه الساعة ؟

ـ الى موكرويه •

ـ الى موكرويه ؟ ايلاً ؟

قال ميتيا فجأة :

ـ كان العالم ملك يمينى ، فأصبحت لا أملك الآن شيئاً !

ـ لا تملك شيئاً ؟ وهذه الثلاثه آلاف روبل ؟

ـ لا قيمة لها عندى ! ألا فليذهب المال الى الشيطان ••• وانما أنا أتكلم عن طبع النساء •••

فكر النساء سريع التصديق *

وقلبهن كثير التقلب فاسد

ان أوليس هو الذى قال هذا ، وأنا أوافقه فى الرأى كل الموافقة•

ـ لا أفهمك •

ـ أظن أنك تحسبنى ثملاً ؟

ـ لا ثملاً ، ولكن ربما أسوأ من ذلك •

ـ أنا ثمل بالمعنى المجـــازى يا بطرس ايلتش ، لأن روحى هى السكرى • ولكن كفى هذا الآن •••

ـ ماذا تفعل ؟ أتحشو مسدسك ؟

ـ نعم أحشوه •

كان مينيا قـــد فتح علبة المسدسين فعلاً ، فبعـــد أن سكب باروداً فى خرطوشة ، دسَّ الخرطوشة فى المسدس ؛ وقبل أن يضع الرصاصة فى السبطانة ، أمسكها بين اصبعين وأخذ ينعم النظـــر اليها فى ضـــوء الشمعة •

سأله بطرس ايلتش الذى كان يراقبه بفضول قلق :

ـ لماذا تنظر الى الرصاصة ؟

ـ هى نزوة لا أكثر ••• لو كنت تنوى أن تُسكن هذه الرصاصة فى دماغك ، أفما كنت تنظر اليها حين تحشو المسدس ؟

ـ أنظر اليها ؟ لماذا ؟

ـ ما دامت ستنفذ فى جمجمتى أنا ، فانه ليهمنى أن أرى هيئتها قليلاً ! ... هذه سخافات أقولها على كل حال ، لا أدرى ماذا أصابنى .

ثم أضاف يقول بحرارة وهو يدخل الرصاصة ويرسخها بالمشاقة :

ـ انتهى ! ما هذا كله الا سخافات يا عزيزى بطرس ايلتش ، سخافات لا أكثر ... ليتك تعلم مدى ما فى هذا كله من غباء . أعطنى ورقة بسرعة !

ـ هذه ورقة .

ـ بل أريد ورقاً نظيفاً أكتب عليه . هذا يصلح على كل حال .

وتناول ميتيا ريشةً من على المنضدة ، فكتب على الورقة سطرين بسرعة ، وطوى الورقة أربعة أرباع ، ودسّها فى أحد جيوب صديريته . وبعد ذلك أعاد المسدسين الى العلبة ، وأقفلها بالمفتاح واحتفظ بها فى يده . ثم راح ينظر الى بطرس ايلتش ملياً ، وهو يبتسم ابتسامة حالمة . وقال :

ـ والآن أمضى ؟

ـ الى أين ؟ قف ! ألعلك تفكر فعلاً فى ارسال هذه الرصاصة الى رأسك ؟

كذلك سأله بطرس ايلتش متدخلاً ، وقد اشتد قلقه .

ـ هذه الرصاصة ؟ يا للغباء ! ألا فاعلم أننى أريد أن أحيا ، لأننى أحب الحياة ! اننى أعظم حباً لفيبوس وضفائره الذهبية وحرارته من أن

يخطر ببالى الانتحار ... قل لى يا عزيزى بطرس ايلتش : هل تستطيع أنت أن تمّحى ؟

ـ أن أمحى ؟ ماذا تعنى ؟

ـ نعم أن تمّحى ، أن تزول من الدرب . أن تخلى الساحة للانسان الذى تحبه والانسان الذى تكرهه ؟ وأن تحب حتى ذلك الذى كان عليك أن تكرهه ... أن تبتعد عن طريقهما قائلاً : « هيّا اسعدا ، وليحرسكما الله ، أما أنا فسوف ...

ـ سوف .. ماذا ؟

ـ لا شىء ! فلأمض ...

ـ أحسب أننى سأبلغ أقرباءك ليمنعوك من السفر . ماذا عساك فاعلاً فى موكرويه ؟

كذلك قال بطرس ايلتش وهو يتفرس فى ميتيا . فأجابه ميتيا :

ـ فى موكرويه امرأة ... امرأة ... هأنت ذا عرفت الآن مافيه الكفاية يا بطرس ايلتش ! حسبك هذا !

ـ اسمع لى : أنت انسان متوحش ، ولكنك كنت دائماً محبباً الى قلبى . فأنا الآن شديد القلق عليك ...

ـ شكراً يا أخى ! أتقول اننى متوحش ؟ هذا صحيح ! ذلك ما كنت أدعيه دائماً : متوحشون ، متوحشون ... آ ... هذا ميشا قد عاد . كنت قد نسيته .

وصل ميشا لاهثاً يحمل النقود . فذكر أن آل بلوتنيكوف قد «هبوا يتحركون ويعملون » ، فهم يحملون الزجاجات ويهيئون السمك ويجلبون الشاى ، وأن كل شىء سيكون قد تم اعداده بعد بضع دقائق .

تناول ميتيا ورقة ماليه بعشرة روبلات ، فمدّها الى بطرس ايلتش ، ورمى للصبى ورقة أخرى بتلك القيمه نفسها .

ـ مستحيل ! لا أسمح لك بأن تعطيه « بقاشيش » فى دارى . فان ذلك سيفسده . أعد هذا المال الى جيبك ولا تبدده . قد تحتاج اليه فى القريب . اننى لأتنبأ بأن تعود الىّ منذ الغد لتستدين عشرة روبلات ... ولكن لا ... لا تدسّ جميع هـــذه الأوراق فى جيب السروال ، والا ضاعت منك !

ـ هيه يا صديقى ! ليتنا نذهب الى موكرويه معاً . ما رأيك ؟

ـ ما ذهابى أنا الى هناك ؟

ـ اسمع ! سنفتح احدى الزجاجات لنشرب تمجيـداً للحيـاة . اننى فى حاجه الى شرب شىء من السمبانيا . فلنشرب معاً ! أظن أننا لم نشرب معاً فى يوم من الأيام ! وأنا أحرص على هذا وأصر عليه !

ـ لك ما تشاء ! فلنذهب اذن الى الكاباريه . لقد كنت أنوى أن أذهب الى هناك .

ـ لا الى الكاباريه ! ليس فى وقتى متســـع . سنشرب عند آل بلوتنيكوف ، فى الحجرة التى وراء الدكان . سألقى عليك « فزورة » ، هل توافق ؟

ـ ألقها .

أخرج ميتيا من جيب صديرته الورقة التى كان قد طواها ووضعها فيها ، ففض الورقة وأطلع عليها الموظف الشاب . فقرأ هذا الجملة التالية التى كتبها عليها ميتيـــا بأحرف كبيرة : « اننى أعاقب نفسى مكفّراً عن حياتى كلها ، وأقبل هذا العقاب » .

قال بطرس ايلتش بعد أن قرأ الجملة :

ـ أحسب حقاً أن عليّ أن أبلغ أقاربك ! سأقوم بهذا !

ـ لن يتسع وقتك يا عزيزى ! هلمّ نشرب ! ذلك أفضل !

يقع متجر آل بلوتنيكوف فى ناصية الشارع قريباً جداً من دار بطرس ايلتش . انه أكبر « بقالية » فى المدينة ، وهو مشروع تجارى مزدهر ناجح يحسن أصحابه ادارته ؛ وفى هذا المتجر يباع كل شىء ، كما فى المخازن الكبرى بالعاصمة : خمور من « أقبية الاخوة السيف » ، فاكهة ، سيجار ، شاى ، سكر ، بن ، الخ . وفيه يعمل ثلاثة مستخدمون مقيمون ، وغلامان متجولان يحملان السلع الى منازل الزبائن . لقد أصيب اقليمنا بفقر شديد ، وغادره أثرياء المالكين ، وبارت التجارة فيه ، ولكن مخازن البقالة ظلت مزدهرة ، حتى ليمكن القول انها تزداد ازدهاراً سنةً بعد سنة : ان السلع التى من هذا النوع لا تعدم من يشتريها فى كل زمان .

كان آل بلوتنيكوف ينتظرون وصول ميتيا الى مخزنهم نافدى الصبر ، لأنهم يتذكرون ما اشتراه منذ بضعة أسابيع من سلع كثيرة ، اذ ابتاع ، دفعةً واحدة ، من الخمور والبضائع ما بلغت قيمته بضع مئات من الروبلات عداً ونقداً (وما كان لهم بطبيعة الحال أن يبيعوه شيئاً بالدين)؛ وهم لم ينسوا أيضاً أنه كان يحمل بيده ، كما فى هذه المرة ، حزمة أوراق مالية ضخمة ، وأنه كان يرميها لهم دون أن يساوم ودون أن يفكر فى فائدة تلك السلع الكثيرة التى اشتراها . وقد رُوى بعد ذلك فى المدينة كلها أنه « حين ذهب الى موكرويه بصحبة جروشنكا ، قد أنفق فى ليلة واحدة وفى النهار الذى أعقب تلك الليلة مبلغ الثلاثة آلاف روبل كله ، ثم عاد من ذلك القصف بغير قرش واحد فى جيبه ، كما ولدته أمه

تماماً » • ذلك أنه قد استأجر فرقة من الغجر (كانوا يعسكرون أيامئذ على مقربة من بلدتنا) ، فرتب هؤلاء أمرهم بحيث يسلبونه مئات ومئات من الروبلات ، ومن أجل أن يمتحوا أعداداً كبيرة من الزجاجات ، مستغلين سكره • وقد روى الناس أيضاً ، في معرض السخر من ميتيا ، أنه قدم شمبانيا لفلاحي موكرويه ، وأنه أشبع بنات الحي فطائر ستراسبورجية وأنواعاً من الحلوى • وكان الناس يتندرون أيضاً ، ولا سيما في الكاباريه (ولكن لا بحضور ميتيا ، والا تعرضوا للمخاطر) ، كانوا يتندرون بتلك الواقعة التي ذكرها هو نفسه على رءوس الأشهاد ، وهي أنه لم يحظ من جروشنكا ، من قبيل المكافأة له على تلك الرحلة ، الا بقبلة من قدمها ، ولا شيء غير ذلك » •

حين اقترب ميتيا وبطرس ايلتش من البقالية وجدا على بابها مركبة ترويكا مجهزة تماماً ، مزينه العدة بأجراس ومفارش ، وعربة مزودة بغطاء مريح • وكان الحوذي آندره ينتظر ميتيا متربعاً على مقعده وكان في الدكان منذ ذلك الحين صندوق خشبي كبير قد ملىء تقريباً بالسلع التي أمر بها ميتيا ، وكان أصحاب المتجر لا ينتظرون الا وصول ميتيا لتسمير الصندوق ووضعه في العربة •

دهش بطرس ايلتش ، فسأل ميتيا :

ـ من أين جاءت مركبة الترويكا هذه ؟

فأجابه ميتيا :

ـ لقد التقيت بآندره حين كنت آتياً اليك ، فأمرته بأن ينتظرني مع الخيول أمام البقالية • فلقد كان علي أن لا أضيع وقتاً • ان تيمودي هو الذي قادني في المرة السابقة ، ولكنه سافر في هذا المساء مع ساحرة ، دون أن يحفل بي ••• ترالالا ••• هل سنتأخر كثيراً يا آندره ؟

أسرع آندره يجيب :

ـ لن يسبقونا الا ساعة واحدة فى أكثر تقدير .. بل أقل من ذلك ! ... ساعة قصيرة ! لقد قرنت خيول تيمودى بنفسى ، وأنا أعرف سرعتها . لأقودنَّك بسرعة غير تلك السرعة يا دمترى فيدوروفتش ! هل تظن أنهم يمكن أن يقاسوا بنا ؟ لن يصلوا قبلنا بساعة كاملة .

كذلك قال آندره مؤكداً بحرارة ، وهو رجل ما يزال شاباً ، أحمر الشعر ، جاف الجلد ، يرتدى قميصاً ويحمل قفطانه على ذراعه .

ـ لك منى خمســون روبلاً « بقشيشاً » اذا لم تتأخر أكثر من ساعة !

ـ اعتمد علىَّ يا دمترى فيدوروفتش. ساعة ؟ سيكون من حقهم أن يعتزوا ويفتخروا اذا هم سبقونا بنصف ساعة ؟

أخذ ميتيا يتحرك فى المتجر فى فوضى مضطربة ، متنقلاً من طلب الى طلب آخر قبل انهـاء الطلب الأول . فرأى بطرس ايلتش أن من واجبه أن يتدخل محاولاً تخفيف اندفاعه والحدَّ من جنونه .

قال ميتيا آمراً :

ـ أريد أن يكون الثمن اربعمائة روبل على الأقل ، تماماً كالمرة السابقة . أربع دستات شمبانيا ، هل تسمعون ؟ لا أُريد أن تنقص زجاجة واحدة !

ـ صرخ بطرس ايلتش :

ـ قف ! ما عساك صانعاً بكل هذا العدد من زجاجات الشمبانيـا ؟ ماذا يحتوى هذا الصندوق الخشبى ؟ لا يمكن أن يكون فيه ما يساوى ثمنه اربعمائة روبل .

أسرع المستخدمون يشرحون له ، بلهجه متلطفة ، أن هذا الصندوق الأول لا يحتوى الا ست زجاجات من الشمبانيا ، وانه يحتوى كذلك « الأشياء الضرورية جداً » كالمقبلات ، والملبس ، والحلوى ، الخ ••• أما « الغلات » الأساسية فستحزم على حدة ، ثم ترسل كالمرة السابقة على ترويكا أخرى تصل بعد « دمترى فيدوروفتش بأقل من ساعة » •

قال ميتيا ملحاً :

ــ بعد ساعة واحدة ، لا أكثر من ذلك • وستضعون فيها أكبر قدر ممكن من الجاتو والكارامل • ان البنات هناك يعشقن الجاتو والكارامل •

كذلك أضاف يقول بحرارة :

قاطعه بطرس ايلتش يقول شبه غاضب :

ــ أوافق على الكارامل ! ولكن ما عساك صانعاً بأربع دستات من زجاجات الشمبانيا ؟ تكفيك دستة واحدة وتزيد !

وأخذ بطرس ايلتش يساوم ،وطلب أن يرى الفاتورة ، وتحرك كثيراً ، ثم لم يستطع آخر الأمر أن ينقذ الا مائة روبل ، فتقرر أن لايزيد ثمن البضائع المشتراة على ثلاثمائة روبل •

ثم صاح بطرس ايلتش يقول وقد نفد صبره وضاق ذرعاً :

ــ شيطان يأخذكم ! ما أغبانى اذ أتدخل فى هذه الأمور ، وأقحم نفسى فيها ! بدّد مالك كما تشاء ، وارمه من النافذة اذا حلا لك ذلك ، ما دمت قد كسبته بغير جهد !

فقال له ميتيا وهو يجره الى الغرفة التى تقع خلف الدكان :

ــ هدىء روعك يا معلمى ! سيأتوننا الآن بزجاجة ترطب حلقينا !

قل لى يا بطرس ايلتش : لماذا لا تسافر معى ؟ أنت شاب شهم ، واننى لأحب أمثالك من الرجال •

جلس ميتيا على مقعد أمام مائدة مغطاة بمفرش غير نظيف • وجلس بطرس ايلتش قبالته ، وجيئا بالشمبانيا • واقترحت عليهما محارات « من نوع فاخر وصلت مؤخراً » ، فقال بطرس ايلتش رافضاً الاقتراح فى غضب :

ـ دعونى من محاراتكم ، فاننى لا أحب المحار •

وقال ميتيا :

ـ لا يتسع وقتنا لأكل المحار ، ثم اننى لا أشتهى أن آكل الآن محاراً •

ثم التفت يقول لبطرس ايلتش وقد تحمس على حين فجأة :

ـ اسمع يا صديقى ، اننى اكره كل هذه الفوضى •

ـ ومن ذا الذى لا يشمئز منها ؟ ثلاث دستات من زجاجات الشمبانيا ••• ولمن ؟ لفلاحين ؟ ألا ان هذا ليثير التقزز ويبعث الغثيان !

ـ ليس هذا ما أعنيه • فانما أنا أقصد الفوضى التى تشوش النظام الأعلى ، نظام النفس ، نظام الروح ! لقد أعوزنى دائما ذلك النظام ••• ليس فى نفسى انسجام ••• ولكن انتهى الآن كل شىء ، فعلام الندم والأسف ؟ فات الأوان ! لا بأس ! ••• لم تكن حياتى كلها الا فوضى طويلة ، وقد آن لى أن أدخل عليها شيئاً من النظام • اننى أستعمل استعارات وكنايات رديئة ، هه ؟

ـ بل قل انك تخرف ! •••

قال ميتيا :

المجد للخالق فى الخلق

المجد للخالق فى نفسى *

لقد نظمت هذا البيت من الشعر فى الماضى ، انبجس منى فى ذات يوم انبجاس دمعة ... أوه ! لم يكن هو اليوم الذى جررت فيه الكابتن من لحيته !

ــ لماذا تتكلم عن ذلك الكابتن ؟ انه ! ...

ــ لماذا ؟ لماذا ؟ آه ... ما كل شىء الا دخان ! كل شىء يتبدد ! كل شىء يزول آخر الأمر !

ــ اسمع ! ان مسدسيك يقلقانى ...

ــ ما المسدسات الا دخان ! اشرب ، وكفّ عن قول هذه السخافات! اننى أحب الحياة ... اننى أسرف فى حب الحياة ، حتى لأخجل من ذلك! كفى ! فلنشرب يا عزيزى ، فلنشرب نخب الحياة ، نخب الحياة ! لماذا أنا معجب بنفسى ! اننى شرير ، ولكننى راض عن نفسى ! ومع ذلك يعذبنى أن أحب نفسى هذا الحب رغم صغارى ودناءتى ! اننى أبارك الخليقة ، واننى مستعد لأن أسبح بحمد الخالق ، وأن أتغنى بعظمته ، ولكن ... يجب أولاً سحق حشرة خبيثة حتى لا تسمم حياة الآخرين ... هيه يا أخى ! فلنشرب نخب الحياة ! أى شىء أفضل من الحياة ؟ لا شىء أفضل من الحياة ، لا شىء ! المجد للحياة ، والمجد المكتى ، ملكة الملكات !

ــ لك ما تشاء ! فلنشرب نخب الحياة ، ولنشرب نخب ملكة قلبك.

وأفرغ كل من الرجلين كأساً . كان ميتيا ، الحذر المهذار فى آن واحد ، يبدو حزيناً ، كأن هماً ثقيلاً يجثم على صدره وليس يستطيع طرده .

ـ ها ••• هاهوذا ميشا ، ها هوذا غلامك ميشا قد دخل ! تعال الى هنا أيها الصبى الطيب ! اشرب كأساً معنا ، تمجيداً لفيبوس وضفائره الشقراء ، تمجيداً للشمس التى ستطلع غداً •••

قال بطرس ايلتش محتجاً حانقاً :

ـ أأنت مجنون ؟ أتسقيه هو شمبانيا ؟

فقال ميتيا :

ـ اسمح له بأن يشرب مرةً واحدة ! لسوف يسرنى هذا •

ـ ولكن ••• الخلاصة ••• ما دمت تصر ! •••

أفرغ ميشا قدحاً ، وسلّم ثم انصرف •

قال ميتيا :

ـ هكذا سيتذكرنى مدة أطول على الأقل ••• اننى أحب المرأة ، أحب المرأة ! ما المرأة ؟ هى ملكة الأرض •• أوه ! اننى أحس بحزن يا بطرس ايلتش ، أحس بحزن رهيب • هل تتذكر ذلك المقطع من مسرحية هملت : « أشعر بحزن يا هوراسيو ، أشعر بحزن شديد ••• وا أسفاه ! مسكين يوريك ذاك ! » • لعلنى أنا يوريك ! اننى فى هذه اللحظة بعينها يوريك • وبعد ذلك سأكون الجمجمة •

كان بطرس ايلتش يصغى اليه صامتاً • وصمت ميتيا أيضاً •

ثم اتجه بالكلام فجأة الى المستخدم يسأله شارد اللب وقد رأى فى الركن كلباً صغيراً طويل الشعر متدلى الأذنين أسود العينين :

ـ لمن هذا الكلب ؟

أجاب المستخدم :

ـ هو لفارفارا ألكسيفنا ، صاحبة المتجر . نسيته هنا منذ قليل . سيكون علينا أن نذهب به اليها .

قال ميتيا حالماً :

ـ رأيت فى الماضى كلباً يشبهه كل الشبه ... كان ذلك فى الكتيبة ... ولكن ذلك الكلب كان مكسور الساق ... بالمناسبة يا بطرس ايلتش ، كنت أريد أن أطرح عليك سؤالاً : هل اتفق لك أن سرقت فى حياتك ؟

ـ يالها من فكرة !

ـ افهمنى ! أقصد السرقة الحقيقية ... أن تأخذ مالاً من جيب شخص آخر ، لا من الدولة ، فجميع الناس يسرقون الدولة ... هذا شىء معروف ، وأنت أيضاً تسرق الدولة ، لاشك عندى فى ذلك ...

ـ سحقاً لك ...

ـ هل سرقت مع ذلك ؟ من جيب ، أو من محفظة ؟ ...

ـ سرقت فى طفولتى قطعة نقدية بعشرين كوبكاً من أمى . كان عمرى تسع سنين . أخذت القطعة النقدية من على المائدة ، دون أن يرانى أحد ، وأخفيتها فى قبضة يدى .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ لا شىء . احتفظت بها ثلاثة أيام ، ثم شعرت بالخجل والعار ، فرددتها معترفاً بالسرقة .

ـ ثم ؟

ـ جُلدت كما أستحق . ولكن لماذا هذه الأسئلة ؟ أتراك سرقت ؟

قال ميتيا وهو يغمز غمزة ماكرة :

ـ سرقت !

فسأله بطرس ايلتش قلقاً :

ـ ماذا سرقت ؟

ـ سرقت عشرين كوبكاً من أبى . كان عمرى تسع سنين . ثم رددتها .

قال ميتيا ذلك ثم نهض فجأة .

صرخ الحوذى آندره يقول من باب المتجر :

ـ آن أوان السفر يا دمترى فيدوروفتش .

ـ هل كل شىء جاهز ؟ هيَّا بنا !

قال ميتيا ذلك ، وأخذ يتحرك هنا وهناك . وأضاف يقول :

ـ بضعة أسطر أخرى وأتم القصيدة ! كأساً من الخمر لأندره ! بسرعة ! واعطوه أيضاً كأس كونياك ! ... أما العلبة (علبة المسدسات) ، فضعوها تحت المخدات . استودعك الله يا بطرس ايلتش ، ما ينبغى لك أن تؤاخذنى .

ـ ولكنك ستعود غداً ؟

ـ نعم نعم ، سأعود .

قال مستخدم وهو يهرع الى ميتيا :

ـ اسمح لى أن أقدم اليك الحساب .

ـ آ ... نعم ... الحساب ... طبعاً !

أخرج ميتيا من جيبه حزمة الأوراق المالية ، فسلّ منها ثلاث ورقات من فئة المائة روبل ، ورماها على البسطة باهمال ، ثم اتجه مسرعاً نحو الباب ، فرافقه جميع مستخدمي المتجر ، وشيعوه متمنين له رحلة سعيدة وهم ينحنون لها انحناءً كبيراً . وكان آندره قد أفرغ كأساً من الكونياك، فهاهوذا يسعل لينظف حلقه ، ثم يصعد الى مكانه من العربة . ولكن بينما كان ميتيا يهم أن يستقر في العربة ، انبجست فينيا راكضة لاهثة ، فضمت يديها احداهما الى الأخرى ، وجثت على ركبتيها أمامه ، وهتفت تتوسل اليه قائلة :

ـ سيدى العزيز دمترى فيدوروفتش ، ملاكى ، لا تصب الآنسة بسوء ، لا تنلها بأذى ! ألا ما كان أغبانى حين قصصت عليك كل شيء ! ولا تسيء اليه هو أيضاً ، القديم ... لأنه عرفها قبلك . وهو ينوى أن يتزوج أجرافين ألكسندروفنا ، لقد جاء من سيبريا لهذا الغرض ... سيدى العزيز دمترى فيدوروفتش ، لا تحطم حياتهما ، لا تسفح دم أخيك الانسان !

قال بطرس ايلتش يخاطب نفسه : « آ ... هذا بيت القصيد فى الحكاية كلها ... ستحدث مشاجرة هناك . استبان الآن كل شيء . أصبح كل شيء واضحاً . . » . ثم هتف يقول بصوت عالٍ :

ـ دمترى فيدوروفتش ! أعد الىّ هذين المسدسين فى الحال اذا كنت رجلاً . هل تسمح يا دمترى ؟

فأجابه ميتيا :

ـ المسدسين ؟ لحظة يا عزيزى ... سأرميهما أثناء الطريق فى غدير . وانهضى أنت يا فينيا . لا تركعى أمامى . ان ميتيا لن يقتل ، ان ميتيا ، هذا الصبى الغبى ، لن يحطم حياة أحد بعد الآن .

ثم أردف يقول بعد أن استقر في المركبة :

ـ اسمعي يا فينيا ، لقد أهنتك منذ قليل ، فأرجو أن تغفري لي . اغفري لهذا الشقي البائس ... على أنه يستوي أن تغفري وأن لا تغفري ... لم يبق لهـذا قيمة ... هيَّا يا آندره ، ولتجر المركبة بأقصى سرعة .

رفع آندره سوطه ، فجلجلت الأجراس .

ـ استودعك الله يا بطرس ايلتش ، لك مني آخر دمعة ! ...

قال بطرس ايلتش يخاطب نفسه وهو يتابع بنظره مركبة الترويكا التي أخذت تبتعد : « ليس بسكران ، ولكن ما أشـد الاضطراب في أقواله » . وقد أراد بطرس ايلتش أن يبقى في المتجر ليراقب شحن الخمور والمئونات على عربة أخرى ، لأنه كان يحس أنهم سيغشـون ميتيا . ولكنه شعر بحنق على نفسه فجأةً ، لاهتمامه بهذه التفاصيل ، وبصق من شدة غضبه ، واتجه نحو الكاباريه ليلعب البلياردو قليلاً كما كان ينوي ذلك .

وقال في نفسه أثناء الطريق : « انه رجل أبله ، ولكنه طيب » . أما ذلك الضابط ، أما صاحب جروشنكا « القديم » ذاك ، فقد سبق أن سمعت عنه . هل عاد اذن ؟ ... ولكن ما القول في المسدسين ، المسدسين ... ألا فليحل الرجلان نزاعهما ... ولن يحدث شيء على كل حال . سيصرخان كثيراً ، وسيسكران ، وسيقتتلان ، ثم يتصالحان . ليسوا جادين ، لا هؤلاء ولا أولئك ... كلمات جوفاء ! « سوف أتنحى عن طريقهما ... » « انني أعاقب نفسي ... » ... دعنا من هذا ! لن يفعل من ذلك شيئاً . لقد ردد أقوالاً من هذا النوع مائة مرة في الكاباريه حين كان ثملاً . وهو في هذه المرة لم يشرب « نفسي سكرى ... » ؟

ان جميع أمثاله من القاصين يحبون العبارات الرنانة الطنانه • أأنا مربيه أخيراً ؟ لقد تشاجر على عادته ، فدمي وجهه • ولكن من ذا الذى تشاجر معه ؟ سأعرف هذا فى الكاباريه حتماً • وذلك المنديل المدمَّى ؟ ••• لقد تركه فى غرفتى ••• ولكن لا قيمة لهذا كله على كل حال ! ما لى ولهذا كله ! » •

وصـــل بطرس ايلتش الى الكاباريه معتكر المزاج جـداً ، وأخذ يلعب البلياردو فوراً • وأشرق مزاجه أثناء اللعب شيئاً بعد شىء ، وشرع فى اللعب مرة أخـرى ، وأخذ يقص على أحد ملاعبيــــــه أن دمترى كارامازوف أصبح يملك مبلغاً كبيراً من المال مرة أخرى ، وأنه رأى فى يديه بأم عينه ثلاثة آلاف روبل • وأضاف أن ميتيا قد سافر فى هذه المرة أيضاً الى موكرويه ليقصف فيها مع جروشنكا • أصغى السامعون الى هذه الأنباء بفضول شديد ، وسرعان ما أخذوا يتناقشون بحرارة ، دون مزاح، ويتكلمون بلهجة فيها جد عجيب • حتى لقد انقطع لعب البلياردو •

ـ ثلاثة آلاف روبل ؟ من أين جاء بها ؟

أخذ الحضور يمطرون بطرس ايلتش بوابل من الأسئله • ولم يصدقوا حكاية مناجم الذهب التى اقترحتها السيدة هوخلاكوفا •

ـ أليس من الممكن أن يكون قد سرق أباه العجوز ؟

ـ ثلاثة آلاف روبل ! هذا أمر يثير الاشتباه !

ـ لقد تباهى فى هذا المكان نفسه بأنه سيقتل العجوز ، وسمعه جميع الناس ، حتى لقد تحدث فى تلك المناسبة نفسها عن ثلاثة آلاف روبل ••

كان بطرس ايلتش يصغى ، وأصبحت أجوبته موجزة مقتضبة على حين فجأة ، حتى لكأنه يتهرب من الكلام • ولم ينطق بكلمة واحدة عن الدم الذى رآه على وجه ميتيا ويديه ، رغم أنه كان ينوى أن يتحدث عن

ذلك حين ذهب الى الكاباريه • وبدىء لعب البلياردو مرة ثالثة ، وانصرف الحديث عن ميتيا •

حتى اذا انتهت اللعبة الثالثة ، أعلن بطرس ايلتش أنه لا يحب أن يلعب مزيداً من اللعب • ثم وضع عصا البلياردو ، وخرج حتى دون أن يتعشى ، خلافاً لما كان ينتويه • فلما وصل الى الميـــدان توقف لحظة ، وتساءل مدهوشاً منزعجاً كيف أمكن أن يخطر بباله أن يذهب الى دار فيدور بافلوفتش ليعرف هل وقع له شيء • « يا للحماقة ! سأوقظ جميع الناس ، وأحدث فضيحة ، مع أن هذا كله ليس الا تخيلاً ! وما شأني أنا ؟ أأنا خادمهم ؟ » •

وعاد الى منزله حانقاً مزيداً من الحنق • وفجأة خطرت بباله فينيا• قال لنفسه في حسرة : « ما أغباني ! ان فينيا هي الشخص الذي كان يجب أن أسأله ، ولو فعلتُ لقالت لي كل شيء ! »• وشعر عندئذ برغبة قوية في أن يكلمها ، وبلغت هذه الرغبة من القوة انه انعطف فجأة ، وهو في منتصف الطريق الى داره ، فاتجه نحو منزل آل موروسوف الذي تقيم فيه جروشنكا • فلما وصل الى الباب طرقه ، فاذا بالطرقات التي ترجّعت في صمت الليل ترده فجأة الى الواقع ، واذا بحنقه يشتد لأنه يقوم بمسعى غير لائق• قال في نفسه وهو يشعر بحرج يوشك أن يكون أليماً: «سوف أحدث فضيحة » • ولكنه لم ينصرف ، بل استأنف طرق الباب ، بكل ما أوتي من قوة في هذه المرة • دوّت طرقات الباب في الشارع كله • فردّد يقول : « لا ضير ! لسوف أظل أطرق الباب الى أن يفتحوا ! » ، بينما كان سخطه على نفســـه يزداد لدى كل طرقة جديدة • لكنه كان يستأنف الطرق بمزيد من القوة •

٦

هـا أنا ذا

كان دمترى فيـدوروفتش يتجـه نحـو موكـ
بسرعة عظيمة • ان المسـافة تزيد قليـلا
عشرين فرسخاً • ومن الممكن ، بفضـل
عدو خيول آندره ، قطع هذه المسـافة
وربع ساعة • وأنعشت سرعة الجرى فكر ميتيا • كان الهواء قوياً ، و
نجوم كبيرة تتلألأ فى سماء بلا سحب • فى تلك الليلة ، وربما فى
الساعة ، انما تهالك اليوشا على الأرض ، « حالفاً بحـرارة ليحبنّـ
الأبد » • كان ميتيا يشعر بضيق شديد ، ولكن نفسه ، رغم ثقل الـ
التى تعذبها ، كانت لا تنصرف فى تلك اللحظة الا الى المرأة الحبيبة
ملكته التى يتعجل لقاءها ليتأملها مرةً أخيرة • حسبى أن أقرر ما
كان لا يخطر ببال ميتيا أن يناضل للاحتفاظ بهذه المرأة • وسواء أصـ
كلامى أم كذبتموه ، فان الحقيقة تجبرنى أن أقول ان هذا الغيور لم
يشعر بأية عاطفة من عواطف العداوة نحو القادم الجـديد ، نحو
الخصم الذى لم يكن فى حسـبانه ، نحو هذا « الضـابط » الذى
حيـاته بهذه القسوة الشـديدة • لو حاول أى انسان آخـر أن
محل ميتيا لدى جروشنكا ، لأسرع ميتيا يرد بحنق غيـور مسعـ
ولتلطخت يداه بالدم من جديد • أما تجاه هذا الانسان الذى هو «

رجل » في حياة جروسنكا فان ميتيا كان لا يشعر بأية غيرة ، ولا بأيه عداوة ، أثناء ما كانت مركبه الترويكا تقله الى موكرويه • ولم يكن قد رآى ذلك الرجل بعد • « الأمر واضح • انها على حق • هو أول حب في حياتها ، هو الرجل الذي لم تستطع أن تنساه يوماً خلال خمس سنين • معنى هذا أنها لم تنقطع عن حبه طوال تلك المدة • أما أنا ، فماذا جئت أعمل في حياتها ؟ ما أنا عندها ؟ ابتعد يا ميتيا ! تنحَّ عن طريقها ! ثم ما قيمة هذا كله اليـــوم ، ما دام مصيري قد تقرر ، ما دام كل شيء سينتهي بالنسبة الى ، حتى ولو يكن هو هناك ، حتى ولو لم يجيء ذلك الضابط ؟ •• » •

بهذه العبارات تقريباً انما كان يمكن أن يعبِّر ميتيا عن المشاعر التي كانت تجيش في نفسه ، لو كان قادراً على التفكير في تلك الآونة• ولكن ميتيـا لم يكن يفكر • ان القـرار الذي اتخذه انما وافاه على حين فجأة ، دون أي تفكير ، فاذا هو يقبله دفعةً واحدة مع جميع النتــائج التي تترتب عليه ، أثناء انفعاله ذاك الذي أيقظه في نفسه ما كشفت له عنه فينيا من أمور • ومع ذلك ما يزال ميتيا يشعر بضيق واختناق ، وما يزال يشعر باضطراب أليم : ان قراره لم يردَّ السكينة والطمأنينة والسلام الى نفسه • ان أشياء كثيرة تربطه بذلك الماضي •

كان يقول لنفسه في بعض اللحظات : « ما أغرب هذا ! »

كان ميتيا قد نطق بحكم نهائي على مصيره ، كان قد كتب على ورقة قـوله : « انني أعـاقب نفسي ، وأنا أقبـل هـذا العقاب » ، وان هـذه الورقة موجودة الآن في جيبه ، معدَّة لأن تستعمل ؟ وان مسدسه محشو، وهو يعلم حق العلم ما الذي سيفعله في صباح الغد ، حين يطلع «فيبوس ذو الضفائر الذهبية » فيدفيء الأرض من جديد بأولى أشعته • ومع ذلك ••• لم يكن ميتيا يستطيع أن ينفصل عن ذكرياته التي تلازمه وتحاصره

وتعذبه . فكان يقول متألماً : لا سبيل الى النسيان ؛ وكان الشعور بهذه الاستحالة يملؤه كمداً ويأساً . ولقد أوشك في لحظة من اللحظات ، أثناء هذه الرحلة ، أن يأمر آندره بالتوقف ، وأن يفرغ من الأمر كله ؛ يخرج من العربة ، ويطلق على نفسه رصاصة دون أن ينتظر الغد . ولكن هذه النية لم تلبث أن تبددت ، كما تنطفيء شرارة طائرة . وكانت مركبة الترويكا « تنهب به الأرض نهباً » ، فكلما اقتربت به من غايته ، كانت صورة تلك المرأة تنفذ فيه مزيداً من النفاذ بقوة طاغية مستبدة مستأثرة ، طاردةً جميع أشباح الرعب التي تملأ قلبه . « أوه ! أريد أن ألمحها مرة أخيرة ، ولو من بعيد ، عابرةً ... انها في هذه الساعة معه ، وسأراهما كليهما ، هي وحبيبها الأول ، وسأتأملهما ، ذلك هو كل ما أتمناه الآن ! » لم يشعر نحو هذه المرأة في يوم من الأيام بمثل الحب الذي يشعر به الآن ، لم يشعر نحوها في يوم من الأيام بمثل ما يشعر به الآن من عاطفة رقيقة حنون لا حدود لها ، من عاطفة الخضوع والمذلة التي تدفعه الى أن يريد نسيان ذاته ، والتضحية بنفسه في سبيلها .

هتف يقول فجأة وقد استبدت به حماسة تشبه أن تكون هذياناً :

ـ سأتنحى من طريقهما .

العربة تعدو منذ قرابة ساعة . ميتيا صامت . وآندره ، وهو فلاح مهذار في العادة ، لا يتكلم أيضاً ، كأنه يخاف خوفاً غامضاً من أن يقطع الصمت . فهو لا يزيد على أن يحرّض بصوته أحصنته الكمت النحاف على عصبية . وفجأة هتف ميتيا يقول بقلق شديد :

ـ آندره ! ماذا لو وجدناهم نائمين ؟

في تلك اللحظة انما خطر بباله هذا الاحتمال الذي لم يكن قد ساوره قبل ذلك .

ـ جائز جداً أن يكونوا فى هذه الســـــاعه راقدين يا دمترى فيدوروفتش •

قطب ميتيا حاجبيه مغتاظاً حانقاً• ماذا ؟ أيجيء حاملاً هذه العواطف ••• ثم يكونون نائمين نوماً هادئاً ••• هى أيضاً ••• ربما الى جانبه ! وغلى الغضب فى قلب ميتيا •

صرخ يقول خارجاً عن طوره :

ـ اجلد يا آندره ! مزيداً من الاسراع ، مزيداً من الاسراع أيضاً•

قال آندره بعد صمت :

ـ ما أحسب أنهم ناموا • لقد أسرّ لى تيموتى أن جمعاً غفيراً قد اجتمع هذا المساء فى موكرويه ؟

ـ فى محطة العربات ؟

ـ بل فى نزل آل بلاسنونوف ، وهو محطة عربات أيضاً •

ـ أعرف • أتقول انهم جمع غفير ؟ كيف هذا ؟ من أين جاءوا ؟

كذلك هتف ميتيا يسأل الحوذى وقد شدهه هذا النبأ الذى لم يكن يتوقعه •

ـ يبدو أنهم جميعاً أناس محترمون على ما قال تيموتى : اثنان منهم جاءا من المديــــنة ولا أدرى من هما ، فان تيموتى لم يذكر لى ذلك ؛ واثنان من هنا ، ثم اثنان آخران هما مســـافران عابران فيما يظهر ، ثم شخص آخر أيضاً اذا صح فهمى • وهم يلعبون بالورق ، على ما يدعى تيموتى •

ـ بالورق ؟

ـ نعم • وما داموا قد أخذوا يلعبون بالورق ، فلا يعقل أن يكونوا قد ناموا • ان الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة الآن •

صرخ ميتيا يقول من جديد بعصبية :

ـ اسرع ، أسرع مزيداً من الاسراع •

واستأنف آندره كلامه بعد صمت فقال :

ـ قل لى يا سيدى • هناك أمر أحب أن أسألك عنه ، ولكنى أخشى أن أغضبك •

ـ ما هو هذا الأمر ؟

ـ ان فيدوسيا ماركوفنا قد ارتمت على قدميك منذ قليل متوسلة اليك أن لا تلحق أذى بمولاتها وبشخص آخر ••• فياسيدى ، ما دمت أنا أقودك الى هناك ، فان ضميرى ••• لا تؤاخذنى يا سيدى ••• اذا كنت غبياً فيما أقول •••

فأمسكه ميتيا من كتفيه فجأة ، وسأله وهو فريسة اضطراب نفسى شديد :

ـ أنت حوذى ، أليس كذلك ؟ أنت حوذى •

ـ نعم ، حوذى •••

ـ فأنت تعلم اذن ما معنى التنحى عن الطريق ، واخلائه • هل يستطيع حوذى أن يمضى الى أمام ، رافضاً أن يمر الآخرون ؟ هل يستطيع أن يقول لغيره : لسوف أدوسك ولا أتخلى لك عن الطريق ؟ انه لا يستطيع ذلك ، أليس هذا صحيحاً ؟ ليس لحوذى أن يدوس المارّة ••• لا يجوز للمرء أن يدوس أحداً ، لايحق لأحد أن يحطم حياة غيره • ومن يدمّر حياة شخص آخر ، فانه لا يبقى عليه الا أن يعاقب نفسه

بنفسه بعد ذلك ••• اذا هو دمّر حيـــاة أحد ، فلمض ••• فلينل العقاب !

تكلم ميتيا جيّاش النفس ، شديد الاندفاع ، ورغم أن آندره دُهش من أقواله ، فانه لم يقطع الحديث قال :

ــ صحيح جداً ما تقوله يا سيدى دمترى فيدوروفتش • أنت على حق ، ما ينبغى لأحد أن يدوس البشر ، ولا أن يعذبهم ؛ وما ينبغى له أن يدوس الحيوانات أيضاً ولا أن يعذبها ، فالحيوانات مخلوقات كسائر مخلوقات الله التى تتنفس ! أنظر الى الخيول مثلاً : ان من الناس من يضربونها بغير طائل ، ويستحثونها أكثر مما يجب • ان بعض الحوذيين فى بلادنا لا يعرفون القصد والاعتدال ، وهم بذلك يسيرون كالمسعورين لا أدرى الى أين وكيف ؟

قاطعه ميتيا قائلاً وهو يضحك ضحكته الصغيرة الجافة :

ــ لعلهم يفعلون هذا ليصـــلوا الى جهنم بسرعة أكبر • قل لى يا آندره : انك انسان طيب القلب بسيط النفس (وأمسكه من كتفيه مرة أخرى) هل تعتقد أن دمترى فيدوروفتش كارامازوف ســـيذهب الى جهنم ؟

ــ لا أدرى يا سيدى الطيب ، ذلك متوقف عليك أنت ••• اسمع يا سيدى : حين مات ابن الله على الصليب ، نزل رأساً الى جهنم فخلّص جميع الخاطئين الذين كانوا يقاسون فيها عذاب السعير • وقد تشـــكى الجحيم عندئذ ، مخافة أن لا يســـتقبل خاطئين بعد ذلك • فقـال الرب للجحيم : « اطمئنى يا جهنم ، فانك ستستقبلين بعد الآن شخصيات كبيرة: ستستقبلين أمراء وقضاة عظاماً وأغنياء ، وستمتلئين من جديد كما كنت ممتلئة فى الماضى ، الى اليوم الذى أرجع فيه الى هذا العالم » • ان هذا الكلام هو الحقيقة ، لأن الرب قاله •••

ـ هذه اسطورة شعبية جميلة • أجلد الحصان الأيسر يا آندره !

استأنف آندره كلامه وهو يصفق بسوطه فوق الحصان الأيسر ؛ قال :

ـ أولئك هم الناس الذين أعدت لهم جهنم • أما أنت يا سيدى فنحن نعدك طفلاً ••• ذلك هو رأينا نحن ••• مهما تكن عنيفاً غضوبا ••• وانك لعنيف غضوب ما فى ذلك ريب ••• فان الرب سيغفر لك لأنك انسان بسيط •

ـ وأنت يا آندره ، هل تغفر لى ؟

ـ ليس هناك ما أغفره لك يا سيدى ، فانك لم تسىء الىّ •

ـ اننى أسألك هل تستطيع أن تغفر لى نيابةً عن الجميع ، أن تغفر لى أنت ، فى هذه اللحظة ، على هذا الطريق ؟ هل تغفر لى باسم الجميع ؟ أجبنى يا ابن الشعب !

ـ سيدى ! لقد بدأت أخاف ••• انك تتكلم كلاماً غريباً جداً •••

كان ميتيا قد أصبح لا يصغى اليه ، فهو الآن يصلى صلاة حارة ، مدمدماً بنوع من حماسة عنيفة وحشية :

ـ يارب ! اقبلنى رغم خطتى ، ولكن لا تحكم علىّ • اللهم اسمح لى أن أجىء اليك دون أن أمثل أمام محكمتك ••• لا تحكم علىّ ، مادمت قد حكمت على نفسى بنفسى ••• لا تحكم علىّ ، لأننى أحبك يا رب ! اللهم اننى خبيث دنىء ، ولـكنى أحبك • وحتى فى الجحيم ، اذا أنت أرسلتنى الى الجحيم ، سأظل أحبك ، وسأظل أهتف لك بحبى الى الأبد، ولكن دع لى أن أحب حبى الأرضى حتى النهاية •••• اسمح لى أن أظل أحب ، فى هذه الحياة الدنيا ، خمس ســاعات أخرى ، الى أن تطلع

شمسك الدافئة ... انني أحب ملكة قلبي ، ولا أملك أن امتنع عن حبها اللهم انك تراني كلي في هذه اللحظة . سوف أهرع اليها ، فأرتمي عند قدميها ، وأقول لها : لقد كنت على حق حين نبذتني ، وداعاً ... انسي ضحيتك ، ولا تدعي لذكراي أن تعذبك يوماً ! » .

صاح آندره يقول وهو يومىء الى القرية بسوطه الممدود في آخر ذراعه :

ـ هذه موكرويه !

فمن خلال ليل شاحب ، كانت تُرى رؤيةً ضعيفة ، كتلةٌ مظلمة ، هي كتلة منازل القرية المبعثرة على رقعة واسعة. ان سكان قرية موكرويه يبلغ عددهم ألفي نسمة . ولكن كل شيء كان غارقاً في النوم . وليس يرى الناظر الا بضعة أنوار تخترق الظلام هنا وهناك .

صرخ ميتيا يقول محموماً :

ـ أسرع ، أسرع مزيداً من الاسراع .

فقال آندره وهو يشير بسوطه الى نزل آل بلاستونوف ، الذي يقع عند مدخل القرية ، والذي كانت نوافذه الست المطلة على الشارع مضاءة اضاءة قوية :

ـ لم يناموا بعد .

فكرر ميتيا كلام الحوذي فرحاً :

ـ لم يناموا بعد ! اجر بالعربة جرياً سريعاً يا آندره ، حتى ترن جلاجلها فيكون لدخولي ضجة وجلبة . ألا فليعلم الجميع من الواصل ! هو أنا ... هأناذا وصلت !

كذلك صرخ ميتيا وقد بلغ ذروة الاهتياج .

استحث آندره حصانيه المكدودين ، فوصلت العربة الى باب النزل مفرقعة فرقعة قوية ، وهنالك استوقف الحوذى الحصانين الهزيلين وقد أوشكا أن يموتا تعباً • وثب ميتيا من العربة فى اللحظة التى كان فيها صاحب النزل يهم أن يرقد فى فراشه فلما سمع فرقعة العربة ظهر على عتبة الباب يريد أن يرى من عسى يصل فى مثل هذه الساعة بمثل هذه السرعة • هتف ميتيا يسأله :

ـ أهذا أنت يا تريفون بوريستش ؟

مال صاحب النزل الى أمام ليستطيع أن يميز فى الظلام ملامح وجه القادم ، ثم نزل درجات المدخل راكضاً ، وهرع الى الزائر بحماسة مجاملة ، وهو يقول :

ـ ماذا ؟ أهذا أنت يا عزيزى دمترى فيدوروفتش ؟ ما أعظم فرحى برؤيتك من جديد !

ان تريفون بوريستش هذا فلاح قوى البنية مربوع الجسم متوسط طول القامة ضخم الوجه ، تعبر قسماته فى العادة عن قسوة وغيظ ، ولا سيما حين يكلم فلاحى موكرويه ، ولكنه يملك قدرة فذة على تغيير سحنته فوراً ، وعلى اصطناع هيئة المجاملة الشديدة والملاطفة المفرطة متى آنس منفعة وربحاً • انه يرتدى ثياباً على الزى الروسى ، فقميصه مقلوب الياقة ، وصديريته مطرزة • ورغم أنه قد جمع كثيراً من المال ، فلقد كان لا يحيا الا لجمع المزيد من الثراء ، وتحقيق المزيد من الارتفاع • ان أكثر من نصف فلاحى موكرويه مدينون له ، واقعون فى شباكه ، خاضعون لتسلطه • كان يستأجر الأراضى من ملاكى المنطقة ، وكان يشترى بعض هذه الأراضى أيضاً ، فيجبر الفلاحين على العمل فيها سداداً لما له عليهم من ديون لا يصلون الى التخلص منها أبداً • وهو أرمل له أربع بنات

كبيرات ، احداهن مات عنهـا زوجها فهى تعيش عنـــد أبيها مع طفلين صـغيرين ، ويعاملها أبوها معامله خادمه ؛ والثـــانيه زوجة موظف من الموظفين ، فالداخل الى المنزل يستطيع أن يرى على جدار احدى غرفه صورة فونوغرافيه صغيرة لهذا الخادم من خدم الدولة بلباسه الرسمى الذى يزدان كتفاه بشارات القصب * • أما البنتان الأخريان ، فهما فى أيام أعياد المنطقة أو أثناء الزيارات تختالان بأثواب زرقاء أو خضراء ذات أذيال طويلة على آخر « موضه » ، ولكنهما تنهضان في الغداة منذ الفجر كسائر الأيام ، لتكنسا الغرف وتصبا الماء أو تنظفا الغرف بعد رحيل النزلاء الذين شغلوها • وكان تريفون بوريستش ، رغم المال المخبأ الكثير الذى جمعه ، يبتهج كثيراً لكل فرصه تمكنه من استلاب أموال مبذر من المبذرين • وهو يتذكر انه سلب دمترى فيدوروفتش ، منذ أقل من شـــهر ، مائتى روبل ان لم يكن ثلاثمائة روبل ، فى يوم واحد ، حين تلبث هذا فى نزله ليقصف ويتلف ماله مع جروشنكا • لذلك استـــقبله هذه المرة بفرح فائض ، مدركاً من طريقــة وصــول المركبة الى البـــاب على هذا النحو الصاخب ، أن الفريسة ستكون سهلة •

ـ عزيزى دمترى فيدوروفتش ، هأنت ذا عندنا من جديد !

فقاطعه ميتيا يسأله :

ـ لحظة يا تريفون بوريستش • قل لى الأمر الأساسى أولاً : أهى هنا ؟

فسأله صاحب المنزل الذى فهم ما يعنيه ميتيا حق الفهم وكان يحدق اليه بنظرة نافذة :

ـ أجرافين الكسندروفنا ؟ هى هنا ••• أيضاً !

ـ مع من ؟ مع من ؟

ـ مع نزلاء عابرين ••• موظف لا شك أنه من أصل بولندى ••• يظهر هذا من لهجته ••• انه هو الذى أرسل خيلاً لتجىء بها الى هنا ••• وشخص آخر هو صاحب البولنـــدى ، أو رفيق رحلته فحسب ، لا أدرى ••• وهما كلاهما يرتديان ملابس مدنية •••

ـ هل يقصفون ؟ هل يملكون مالاً ؟

ـ يقصفون ؟ دعك من هذا الكلام ! هم أناس عاديون •••

ـ عاديون ؟ والآخرون ؟

ـ هناك سيدان من المدينـة ••• كانا عائدين من تشرنايا ، فتلبثـا هنا لقضاء الليل • أحدهما شاب هو قريب ميوسوف فيما يبدو ، ولكننى نسيت اسمه ••• أما الثانى فأحسب أنك تعرفه أيضـــاً : انه الملاك ماكسيموف الذى ذهب يحج الى دير كنيستكم فيما يدعى ، وهو الآن يرافق ذلك الفتى قريب السيد ميوسوف فى الطريق •••

ـ أهذا كل شىء ؟

ـ نعم ، ليس هناك أحد عدا هؤلاء •

ـ اسكت يا تريفـون بوريستش • شىء واحـد يهمنى : ماذا تفعل هى الآن ؟

ـ وصلت منذ وقت غير طويل ، وهى الآن معهم •

ـ أهى مرحة ؟ أهى تضحك ؟

ـ لا ••• انها لا تضحك كثيراً فيما لاحظت • حتى لقد بدا لى أنها حزينة • وكانت تلاعب شعر الشاب •

ـ شعر الضابط ، ذلك البولندى ؟

ـ دعك من هذا الكلام ! ليس البولندى شاباً ولا هو ضابط • أنا لم أقصد البولندى ، بل الشاب ••• قريب ميوسوف ؟ مالى نسيت اسمه ؟

ـ لعل اسمه كالجانوف ؟

ـ تماماً ، كالجانوف •

ـ طيب ، سوف أرى • قلت أنهم يلعبون بالورق ، أليس كذلك ؟

ـ كفوا عن اللعب • لقد تناولوا الشاى ، وأمر الضابط بخمور •

ـ لحظة يا تريفون بوريستش ! هذه كلها أمور ثانوية ، وسأحكم على الموقف بنفسى • أجبنى الآن عن الشىء الأساسى : هل فى القرية غجر ؟

ـ لم يبق غجر يا دمترى فيدوروفتش ! لقد طردتهم السلطات • غير أن عندنا فى مقابل ذلك يهوداً يعزفون على الرباب والكمان • هم الآن فى رودجستفنسكا ، ولكن يمكن استدعاؤهم فيجيئون حتماً •

ـ استدعهم حالاً • ويجب كذلك ايقاظ البنات ، كما فى المرة السابقة ، ولا سيما ماريا تلك ، ثم ستيبانيد وايرين • سأدفع للجوقة مائتى روبل •

ـ بهذا المبلغ أوقظ لك أهل القرية بكاملها ، ولو كانوا نائمين كالأموات • ولكن هل يستحق هؤلاء الفلاحون وهاته البنات أن يُدفع لهم مبلغ ضخم كهذا المبلغ ؟ هؤلاء رعاع لا يستحقون هذه الملاطفات ! لم يخلق فلاحونا لتدخين السيجار وقد قدمتَ لهم سيجاراً• هؤلاء أناس نتنون • أما النساء فهن جميعاً قذرات وسخات • انى لأوثر أن أرسل اليك بناتى ، ولو بالمجان ، على أن أدعك تبعثر هذا المال كله•ان بناتى نائمات الآن ، ولكنى سأوقظهن ، سأوقظهن ركلاً بقدمى اذا اقتضى

الأمر ، وسأجبرهن على أن يغنين لك • لا أستطيع أن أتصور كيف قدمت شمبانيا لأولئك الفلاحين ! ذلك أمر يبعث على الشفقة !

ــ تريفون بوريستش ! ألا تتذكر أنني انفقت هنا أكثر من ألف روبل في المرة الماضية ؟

ــ كيف لا أتذكر ؟ بل لقد أنفقت هنا ثلاثة آلاف روبل يا ضيفي العزيز •

ــ اذن فاعلم أنني أملك الآن مثل ذلك المبلغ نفسه • أنظر !

قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية وأدناها من أنف صاحب المنزل • ثم أضاف قوله :

ــ اسمع الآن وحاول أن تفهم : بعد ساعة سيصل خمر ومقبلات وفطائر وسكاكر • فاحمل هذا كله فوراً الى فوق • أما ذلك الصندوق الخشبي الموجود تحت مقعد آندره فيجب أن تنقله الى هناك أيضاً ، فتفتحه وتقدم الشمبانيا حالاً • ولكن لا تنس أن الأمر الأساسي هو البنات ، البنات ! وأريد حتماً أن تجيء ماري تلك ! •••

واتجه ميتيا الى العربة فأخرج من تحت المخدات علبة المسدسين •

ــ سأدفع لك دينك عليَّ يا آندره • اليك خمسة عشر روبلاً ، أجرَ العربة ، واليك خمسين أخرى « بقشيشاً » ••• مكافأة لك على اخلاصك ، وتقديراً لصداقتك ••• تذكر البارين كارامازوف !

قال آندره بلهجة مترددة :

ــ لا أجرؤ يا بارين * ••• انني أقبل خمسة روبلات مكافأة ، لا أكثر من ذلك • مستحيل ••• هذا تريفون بوريستش شاهد عليَّ •• اغفر لي حماقتي •••

سأله ميتيا وهو يشقله بنظره :

ـ ممَّ تخاف !

ثم صرخ يقول متذمراً وهو يلقى اليه خمسة روبلات :

ـ أنت وشأنك ! اذهب الى الشيطان ! والآن يا تريفون بوريستش خذنى برفق وهدوء الى موضع أستطيع منه أولاً أن أتفحصهم جميعاً على مهل دون أن يرونى . أين هم الآن ؟ أظن أنهم فى الغرفة الزرقاء ، أليس كذلك ؟

ألقى تريفون بوريستش على ميتيا نظرة فلقة ، ولكنه أطاعه صاغراً فقاده فى حذر خلال دهليز ، ودخل غرفة كبيرة تتاخم الغرفة التى كان فيها النزلاء ، فأبعد الشمعة التى كانت تضىء تلك الغرفة ؛ ثم أدخل ميتيا الى الغرفة المظلمة بغير ضجة ، وأجلسه فى ركن معتم جداً يسهل عليه منه أن يتفحص المتحادثين دون أن يُرى . غير أن ميتيا لم يمكث مدة طويلة ليتأملهم : فما ان رآها حتى أخذ قلبه يخفق خفقاناً شديداً يكاد ينفجر منه صدره ، وحتى اضطرب بصره فلا يكاد يرى . كانت جالسة على مقعد قرب المائدة ، وكان الشاب كالجانوف يجلس قريباً منها على الكنبة ، وهو فتى حسن الهيئة وسيم الطلعة . كانت جروشنكا ممسكة يده وكأنها تضحك ، بينما كان هو ينافس ماكسيموف ممتعض الوجه ، وكان ماكسيموف هذا يجلس الى الطرف الآخر من المائدة قبالة جروشنكا أما « هو » فقد كان جالساً على الكنبة نصف مضطجع ، وكان يدخّن غليوناً . وفى جانب ، على كرسى مستند الى الجدار ، لاحظ ميتيا رجلاً آخر لا يعرفه . ان الشخص المسترخى على الكنبة يبدو رجلاً بدين

الجسم عريض الوجه ، قصير القامة فى أغلب الظن ، أما الثانى فهو طويل جداً . على أن ميتيا لم يتسع وقته لأن يرى أكثر من ذلك . لقد انقطعت أنفاسه ، ولم يستطع أن يمكث زمناً أطول ، فوضع العلبة على المنضدة ، ودخل الغرفة الزرقاء التى كان يجلس فيها المتحادثون وهو يشعر ببرودة فى ظهره . رأته جروشنكا أول من رآه ، فصاحت تقول :

ـ آى ...

٧

الصديق القديم الذي لا يمكن جحوده

تقدم ميتيا من المائدة بخطى كبيرة سريعة لا يلوى على شيء . وبدأ كلامه يقول بصـــوت قوى جداً ، بصوت يكاد يكون صراخاً ، ولـكنه يتلعثم عند كل كلمة :

ـ أنا ... لا ... لا شيء ... لا تخافوا ، لن أفعل شيئاً ... (ثم قال ملتفتاً نحـو جروشـــنكا التى مالت على كالجانوف مذعورة وتشبثت بذراعه) ... لا شيء ... أنا ... أنا هنا عابر كذلك ... سأمكث حتى الصباح فقط ... يا سادتى ، هل تأذنون لمسافر ضلّ طريقه فى هذا المكان ... ان يجالسكم ، حتى الصباح فحسب ، ولآخر مرة ... فى هذه الغرفة نفسها ...

وجّه ميتيا هذا السؤال الى الرجل القصير السمين الذى كان يدخّن على الكنبة . فما كان من هذا الا أن أقصى الغليون عن شـــفتيه بوقار ، وأجاب بصوت قاس :

ـ « يا سيد » ، هذا اجتماع خاص ، وفى النزل حجرات أخرى.

فتدخل كالجانوف فجأة يقول :

ـ أهذا أنت يا دمترى فيدورفتش ؟ فلماذا هذه الكلفة كلها ••• اجلس ••• أهلاً بك !

فأجابه ميتيا مسرعاً فرحاً :

ـ يومك سعيد أيها الصديق العزيز ، أيها الصديق الذى لا نظير له • لقد شعرت نحوك دائماً بكثير من الاحترام •

ومدَّ اليه يده من فوق المائدة •

قال كالجانوف ضاحكاً :

ـ أوه ! يالها من قبضة قويه ! لقد أوشك أن يحطِّم أصابعى •

فقالت جروشنكا مرحةً وهى تبتسم خجلى :

ـ هذه طريقته فى المصافحة دائماً •••

لقد أدركت جروشنكا من النظر فى هيئته أنه لن يعمد الى شىء من العنف • وكانت تتفحصه باستطلاع قوى تداخله بقية من قلق • ان شيئا ما فى تعبير وجه ميتيا قد خطف بصرها وأسر انتباهها ، لا سيما وأن دخوله على هذا النحو قد بدا لها غريباً جداً •

وانبرى الملاَّك ماكسيموف بدوره ، فقال بصوته المتعاذب :

ـ يومك سعيد يا دمترى فيدوروفتش !

وبدا على ميتيا أنه سعيد بمصافحته أيضاً • قال له متدفقاً فى كلامه:

ـ أهذا أنت ؟ ما أسعدنى برؤيتك ! أيها السادة ! أيها الســـادة ! أنا ••• (وقد توجه بكلامه من جديد الى السيد الذى يدخن الغليون ، وكان واضحاً أنه يعده أهم شخص فى هذا الجمع) ••• أنا قد أسرعت الى هنا ، لأقضى ليلتى الأخيرة ، لأقضى ساعاتى الأخيرة فى هذه الحجرة،

في هذه الغرفه نفسها ••• التى أتيح لى فيها ، أنا أيضاً ، أن أعبد ملكتى!
(ثم هتف يقول بحماسه) اغفر لى يا سيدى • لقد آليت حين جئت الى هنا ••• أوه ! لا تخش شيئا ، لأن هذه الليلة هى ليلتى الأخيرة ! فلنشرب أيها السيد ، فلنشرب نخب صداقتنا ! سوف يجيئوننا بخمر • ولقد حملت معى هذا (قال ذلك وهو يخرج من جيبه كدسة الأوراق الماليه ، لا يدرى أحد لماذا !) ••• اسمح لى أيها السيد ••• اننى أريد موسيقى ، أريد صخباً ، أريد حركة ، تماماً كالمرة الماضية • ان دودة الأرض ، ان دودة الأرض التى لا نفع لها ولا فائدة منها ستكف قريباً عن الزحف على الأرض ••• لسوف تختفى وتزول ••• أريد أن استحضر فى ليلتى الأخيرة هذه ذكرى أجمل يوم من أيام حياتى ! •••

كان ميتيا يختنق اختناقا • أراد أن يقول أشياء أخرى كثيرة ، ولكنه لم يستطع أن يفصح عن ذات نفسه الا بصيحات غريبة عجيبة • لبث البولندى جامداً لا يتحرك ، منقّلا بصره بين ميتيا وكدسة الأوراق وجروشنكا ، وقد ظهرت عليه حيرة شديدة وبلبلة كبيرة • قال :

ــ اذا وافقت ملكتى •••

قالت جروشنكا مقاطعة :

ــ ما أسخفكما كليكما بهذه الطريقة فى الكلام ! أ أنا ملكة ؟ انكما لتضحكانى ! اجلس هنا يا ميتيا • ماذا كنت تعنى حين قلت ان هذه الليلة هى آخر لياليك ؟ لا تروّعنى ، أرجوك • لن تروّعنى ، أليس كذلك ؟ اذا كففت عن تخويفى فسوف أكون سعيدة بمجيئك •••

هتف ميتيا يقول رافعاً ذراعيه فى الهواء :

ــ أنا ؟ أنا أروّعك ؟ أوه ••• اعبرى ••• اعبرى ••• لن أكون عقبةً فى طريقك •••

وما ان قال ذلك حتى ارتمى فجـأة على كرسى وأجهش يبـكى ، محولاً رأسه ، شاداً بيديه ظهر الكرسى كأنه يعانقه . ذلك ما فعله ميتيا على نحو لم يكن يتوقعه أحد ، ولا كان يتوقعه هو نفسه .

سألته جروشنكا بلهجة العتب :

ـ ما هذا ؟ ما هذا؟ ماذا تفعل ؟ ذلك هو سلوكه حين يأتى الىّ . يأخذ يقول أشياء لاتُفهم على حين فجأة ، حتى لقد انفجر ناشجاً منتحباً فى ذات مرة ... وها هو ذا يعيد الآن الكرة . ألا تستحى ؟ لماذا البكاء؟

ثم أضافت تقول بلهجة ملغزة ، وهى تشـــدد كلماتها بشىء من الحنق :

ـ لو كان هنالك ما يدعوك الى البكاء على الأقل ...

قال ميتيا :

ـ أنا ... أنا لا أبكى ... هيه ! يومكم سعيد جميعاً !

واستدار فجأة على كرسيه وانفجر ضاحكاً . ليست ضحكته الآن تلك الضحكة الجافة المعهودة فيه ، ولكنها ضحكة تشبه أن تكون صامتة، ضحكة عصبية ، ممتدة ، مشدودة ، متوترة ، كانت تهز جسمه كله .

قالت جروشنكا ملحة :

ـ أيضاً ؟ هلاّ كنت أكثر مرحاً ، أكثر مرحاً ! اننى ســـعيدة جداً بمجيئك يا ميتيا ، سعيدة جداً جداً ، هل تسمعنى ؟

ثم قالت بلهجة آمرة وهى تتجه بكلامها الى جميع الحضور فى ظاهر الأمر ، وان كان كلامها منصرفاً الى الشخص المضطجع على الـكنبة فى الواقع :

ـ أريد أن يبقى معنا ! أريد ذلك ، أريد ذلك ! فاذا كان عليه أن نصرف ، انصرفت أنا أيضاً .

أضافت جروشنكا هذه العبارة الأخيرة وقدحت عيناها شرراً .

قال « السيد » وهو يلثم يد جروشنكا بلطف ورقة :

ـ رغبات ملكتي هي عندي قوانين .

ثم التفت الى ميتيا متحبباً متودداً وقال :

ـ تفضل فاجلس معنا يا سيدي !

وهمّ ميتيا أن يثب عن مكانه ليلقي خطاباً جديداً كما ظهر ذلك في هيئته ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذا ، واكتفى بأن قال :

ـ لنشرب أيها السيد !

وأخذ الجميع يضحكون .

هتفت جروشنكا تقول بعصبية :

ـ يارب السماء ! ما كان أضلني حين تصورت أنه سيلقي علينا خطاباً آخر ...

ثم أضافت تخاطب ميتيا بلهجة الاستبداد :

ـ اسمع يا ميتيا ، كفّ عن الوثوب عن كرسيك ، والزم مكانك هادئاً . أما الشمبانيا فقد أحسنت اذ جئت بها . سيحلو لي أن أشرب شمبانيا ، لأنني أكره الخمور الأخرى . وانني ليهمني خاصةً أنك قد خطر ببالك أن تأتي ، فلقد كنا هنا في ضجر رهيب خانق ... أرى أنك تنوي أن تقصف وأن تبدد ... خبىء أوراقك المالية هذه في جيبك . من أين جئت بكل هذا المال ؟

وها هو ذا مينيا الذى كان لا يزال يشد بين أصابعه الأوراق المالية التى تجعدت والتى كان حجمها الكبير قد خطف أبصار الحضور ولا سيما « السيدين » البولنديين ، ها هو ذا مينيا يسرع فيدس الكدسة فى جيبه وقد اضطرب واحمر وجهه • وظهر عندئذ صاحب النزل حاملاً على صينية زجاجةَ شمبانيا مفتوحة وأقداحاً • فأمسك ميتيا الزجاجة ، ولكنه من فرط ارتباكه كان يبدو أنه أصبح لا يعرف ماذا يصنع بها ، فهبَّ كالجانوف الى نجدته ، فتناول الزجاجة بيديه وملأ الأقداح •

قال ميتيا يأمر صاحب النزل :

ــ هات زجاجةً أخرى ، هات زجاجةً أخرى !

ونسى أن يقرع كأسه بكأس « السيد » بعد أن دعاه إلى شرب الكأس نخبَ الصداقة ، فها هو ذا يفرغ كأسه فى جوفه دون أن ينتظر أن يرفع الآخرون كئوسهم •

وسرعان ما تغير تعبير وجهه • ان الهيئة التراجيدية الفخمة التى كانت له عند دخوله قد استحالت الآن ابتسامةً تشبه أن تكون ابتسامة طفل • فهو ينظر الى الحضور بفرح خجول تتخلله فى كل لحظة ضحكات صغيرة عصبية تذكرِّ بالكلب الصغير المذنب الذى يحس بسعادة وامتنان حين يرى أصحابه قد غفروا له وأخذوا يلاعبونه من جديد • لكأنه نسى كل شىء عن الماضى ، فهو يتفحص المتحادثين واحداً بعد واحد ، بنوع من الحماسة ، ويبتسم ابتساماً بريئاً ساذجاً • أما جروشنكا فكان يتفرس فيها بغير انقطاع ضاحكاً ، حتى لقد قرَّب كرسيَّه من مقعدها • وشيئاً فشيئاً أخذ يلاحظ الرجلين البولنديين أيضاً ، فأما « السيد » الأول فقد أدهشه بمظهره الرزين الرصين ، ولهجته البولندية ، وغليونه خاصة • قال ميتيا لنفسه : « هل من ضير فى أن يدخن ؟ ان من حقه تماماً أن يحب

الغليون ! » • ولم يصدمه في أول الامر ما لاحظه في وجه هذا «السيد» الذي يقارب عمره الاربعين ، من غضون واخاديد ، ولا ضـــايقه انفه الصغير الذي يمتد تحته شـاربان رفيقـان نحيلان مشمّعان يضفيان على وجهه لا أدري أي نوع من الاســـتخفاف والوقاحة ؛ لا ولا أزعجته الباروكة البشعة المصنوعة في سيبريا والمشوطة مشطاً غبياً من خلف الى أمام على الصدغين • قال ميتيا لنفسه وهو فيما هو فيه من غبطة وهنـاءة : « باروكة ؟ لِمَ لا ؟ » • وأما البولندي الآخر الذي يجلس قرب الجدار ويبدو أصغر سناً من « السيد » ذي الغليون ، فقد كان ينظر الى الجمع بوقاحة مستفِزّة ، ويتابع حديثهم محتفظاً لنفســـــه بصمت فيه ازدراء واحتقار • ان الشيء الوحيد الذي خطف بصرَ ميتيا فيه انما هو فرط طوله الذي يؤلف مع قصر رفيقه ابن وطنه تناقضاً واضحاً وتضاداً بارزاً قال ميتيا لنفسه : « لو نهض لكان طوله قريباً من مترين ! » • وقد اعتقد ميتيا أيضاً أن « السيد » الطويل لابد أن يكون مرتبطاً بصاحب الغليون ارتباط حارس بسيده ، فالقصير هو الذي يأمر العملاق في أغلب الظن• وبدا ذلك كله لميتيا طبيعياً سعيداً كل السعادة • لم يبق في قلبه الصـغير أثر من خصومة أو تنـــافس • ولم يكن قد أدرك بعدُ المعنى الحقيقي لموقف جروشنكا ، وللهجة الملغزة التي كانت تقول بها بعض عباراتها • فكل ما عرفه متأثراً في قرارة قلبه أشد التأثر ، هو أنها لطيفة معه وأنها «عفت» عنه وأنها أذنت له أن يجلس الى جانبها • وقد أصبح لا يملك نفسه اعجاباً بها وهي تحسو بضع جرعات من الشمبانيا • ولكن الصمت الذي كان يخيّم على النزلاء لم يلبث أن لفت انتباهه فجأة ، فأجال على الحضور نظرة سائلة ، فكأن عينيه تقولان : « ما بالنا لا نفعل شيئاً ؟ ما الذي يمنعنا من أن نلهو ونتسلى ؟ »

قال كالجانوف فى تلك اللحظة ، وكأنه قد حزر ما جال فى خاطره، قال مشيراً الى ماكسيموف :

ـ انظروا الى هذا ! انه لا ينى يكذب ، وقد أضحكنا كثيراً .

فحدق ميتيا الى الرجلين واحداً بعد آخر . وسأل وهو يضحك ضحكته الصغيرة ، كأن ذلك قد أبهجه كثيراً :

ـ يكذب ؟ هأ هأ ...

ـ نعم . تصور أنه يدعى أن جميع ضباطنا فى سلاح الفرسان قد تزوجوا نساءً بولنديات بين عامى ١٨٢٠ و ١٨٣٠ ؟ هذا سخف ، أليس كذلك ؟

قال ميتيا بالغاً أوج السرور :

ـ بولنديات ؟

كان كالجانوف يدرك حق الادراك نوع العلاقات القائمة بين ميتيا وجروشنكا ، وكان يحزر أيضاً دور « السيد » البولندى ، ولكن لم يكن يبدو عليه أنه مهتم بذلك كثيراً ، لاستغراقه فى جداله مع ماكسيموف خاصة ، أو قل لانشغاله بهذا الجدال وحده دون ما عداه . لقد قادته المصادفة الى صحبة ماكسيموف فى هذا النزل الذى التقى فيه بالرجلين البولنديين اللذين لا يعرفهما حتى الآن . أما جروشنكا فقد سبق أن رآها بل لقد ذهب الى بيتها فى ذات يوم مع أحد أصدقائه ، ولم تعجبه حينذاك؛ ولكنها تنظر اليه هنا بعينين تفيضان رقة وحناناً . وقد ظل لا يبالى بها فى ظاهر الأمر رغم أنها قد أخذت تلاطفه وتلامسه قبل وصول ميتيا . انه فتى فى العشرين من عمره على أكثر تقدير ، شديد الأناقة ، جميل الوجه ، شاحب اللون ، له شعر أشقر رائع ، وعينان زرقاوان أخاذتان

تعبران عن ذكاء ، وتعبران في بعض اللحظات عن عمق ، فلا يتفق ذلك مع سنه الغضه ، لا سيما وأن مظهره وحركاته وحتى أقواله تُشعر في كثير من الأحيان بأنه طفل • على أن هذا لم يكن يضايقه قط ، رغم شعوره القوى به • كان يبدو على وجه العموم انساناً متفرداً ، وربما بدا في بعض الأحوال صاحب نزوات وبدوات ، ولكن ذلك لا يخرجه أبداً عن لطفه وعذوبته • وكان تعبير وجهه يتجمد في بعض الأحيان فيكتسي شيئا يشبه العناد : فهو عندئذ ينظر الى محدثه ويصغى اليه ، ولكنه يكون غارقاً في أفكاره هو ، يتابعها في اصرار لا يحيد عنه • وهو تارة رخو متوانٍ ، وهو تارة أخرى حاد مندفع الى أقصى الحدود ، يضطرب لأيسر الأمور ويهتاج لأتفه الأسباب •

تابع كالجانوف كلامه قائلاً وهو يجر كلماته جراً كسولاً يظل طبيعياً لا اختيال فيه ولا غطرسة :

ـ تصور أننى أطوّف هذا الرجل معى منذ أربعة أيام ، منذ اللحظة التى دفعه فيها أخوك الى خارج العربة فسقط ، كما تتذكر ذلك حتماً • لقد اهتممت بأمره عندئذ ، وأخذته معى الى الريف • ولكنه لا ينقطع عن الكذب • انه يكذب بلا توقف ، حتى أخذ كذبه يضايقنى ويزعجنى • وانى أنوى أن أعيده الى داره •••

قال البولندى ذو الغليون مخاطباً ماكسيموف باللغة البولندية :

ـ ان هذا الرجل لم يعرف فى حياته نساءً بولنديات ، وهو يروى أشياء كاذبة •

كان البولندى ذو الغليون يجيد اللغة الروسية اجادة تامة ، وكان على كل حال يجيدها أكثر مما يتراءى لمن يسمعه • ولكنه يصرُّ على أن

ينطق بها نطقاً رديئاً ، فهو يشوّه الألفاظ ، ويدس في جمله كلمات بولندية .

أجاب ماكسيموف يقول بلهجة ساخرة :

ـ ولكنني تزوجت أنا نفسي امرأة بولندية .

فسرعان ما تدخل كالجانوف قائلاً :

ـ ليست هذه هي المسألة . هل خدمت في سلاح الفرسان ؟ ذلك أنك عن سلاح الفرسان انما تتكلم ! هـــل له هيئة ضـــابط من سلاح الفرسان ؟

هتف ميتيا يقول مرحاً ، وكان يصغي الى الحديث بنهم وشراهة :

ـ هذا هو الأمر ! هذا هو الأمر ! يا للفارس الجميل الذي كان يمكن أن يُرى في سلاح الفرسان ! ...

وكانت عينا ميتيا السائلتان تتنقلان بين المتحادثين واحداً بعد آخر ، كأنه ينتظر منهم أن يكشفوا عن حقائق مدهشة لا يدري الا الله ما هي !

قال ماكسيموف وهو يلتفت الى ميتيا :

ـ لا ... لقد أسأت فهمي . فانما أنا أقصـــد أولئك الفتيات البولنديات ... وهنّ فتانات في الواقع ... ولكنهن يفقدن صـــوابهن متى رقصن رقصة بازوركا مع أحد فرساننـــا الرمّاحين ... يكفي أن ترقص احداهن مع الفارس رقصة مازوركا ، حتى تثب بعد ذلك فوراً على ركبتيه ، كقطة صغيرة بيضاء ... ويكون السيد أبوها والسيدة أمهـــا حاضرين ، فلا يجدان في ذلك بأساً ولا يحتجان ... بل هما يأذنان ويستحسنان ويشجعان ... وفي الغد يمضي الفارس يطلب يد الفتاة ... هل فهمتم ؟ يمضي يخطب الحسناء ... أليس هذا صحيحاً ؟ هأ هأ ...

كذلك ختم ماكسيموف كلامه ضاحكاً •

ـ سيد مسكين !

هكذا جمجم يقول البـــولندى الطويل ، الجالس على كرسى قرب الحائط ، وأنزل احدى ســـاقيه المتصالبتين عن الأخرى ، ليصالبهما فى الاتجاه المعاكس من جديد •

لاحظ ميتيا عندئذ جزمته الضخمة المشمعة التى كان نعلها السميك وسخاً جداً • يجب أن نذكر على كل حال أن الرجلين البولنديين كان مظهرهما مهملاً ، ولم تكن ثيابهما نظيفة نظافة لا مأخذ عليها •

تدخلت جروشنكا تقول بلهجة حانقة :

ـ لماذا يكون مسكيناً ؟ أنا لا أحب الاهانات !

فقال البولندى ذو الغليون وهو يلتفت نحو جروشنكا :

ـ سيدتى أجريبينا ! لابد أن هذا السيد قد عاشر فى بولنده بناتٍ وضيعات لا سيدات من الطبقة النبيلة !

فأمَّن الرجل العملاق على كلامها صاحبه قائلاً :

ـ تستطيعين أن تكونى من ذلك على يقين •

قالت جروشنكا متجهمة الأسارير :

ـ كفى ! دعوه يتكلم ! بماذا أساء اليكم ؟ ان المرء ليتسلى مع أمثاله على الأقل !

فأجاب « السيد » البولندى ذو الباروكة ، أجاب يقول بوقار :

ـ لست أمنعه من الكلام يا سيدتى •

وألقى نظرة طويلة على جروشنكا ، ثم صمت ، ونشق نفساً من غليونه برصانة ورزانة .

قال كالجانوف متحمساً وكأن الأمر أمر مناقشة هامة جداً :

ـ معذرة ! أحسب أن « السيد » على حق . مادام ماكسيموف لم يعش في بولنده فبأى حق يقول هذا الكلام عن تلك البلاد ؟ انك لم تتزوج في بولنده مع ذلك ، هه ؟

قال ماكسيموف شارحاً :

ـ لا ... وانما تزوجت في اقليم سمولنسك . ان أحد الفرسان هو الذى جاء الى ذلك الاقليم بزوجتى ... أعنى بمن أصبحت زوجتى فيما بعد ... جاء بها الى ذلك الاقليم تصحبها السيدة أمها ، وخالة من خالاتها ، وقريبة أخرى لها ابن كبير . لقد جاءت هذه السيدات من بولنده ، فهنّ بولنديات حقاً ... وقد تنازل لى الفارس عنها . كان هذا الفارس فتى أخاذاً ... كان في نيته أن يتزوجها هو نفسه في أول الأمر ، ولكنه تركها أخيراً لأنها كانت عرجاء .

هتف كالجانوف يسأله :

ـ كيف ؟ تزوجت عرجاء ؟

ـ نعم ، كانت تعرج . وقد تآمرا كلاهما على خداعى . كنت أنا أظن أنها تتواثب تواثباً جميلاً ، وكنت أعزو ذلك الى فرحتها ...

ـ الى فرحتها بتزوجك ؟

كذلك سأله كالجانوف بصوت رنان طفولى .

ـ نعم ، الى فرحتها بتزوجى . ولكن اتضح لى أن الأمر لم يكن

كذلك البتة • فبعد زواجنا ، بل فى مســـاء الحفلة نفســه ، اعترفت لى بالحقيقة ، واعتذرت اعتذاراً مؤثراً : يظهر أنها قد أرادت أثناء طفولتها أن تقفز فوق غدير ، فانكسرت عندئذ ساقها ! هأ هأ !

انطلق كالجانوف عندئذ فى ضحك كضحك الأطفال تماماً ، وكاد ينقلب على الكنبة • وضحكت جروشنكا أيضاً • أما ميتيا فقد شعر أنه فى ذروة الغبطة والهناءة والسعادة •

صاح كالجانوف يقول مخاطباً ميتيا :

ـ هل تدرى أنه ذكر الآن الحقيقة ؟ انه لم يكذب فى هذه المرة ! اعلموا أنه تزوج مرتين ••• وهو عن زوجته الأولى انما تحدث الآن ، أما الثانية فقد هربت ••• هل تعلمون هذا ؟ وهى ما تزال حية • أكنتم تجهلون ذلك ؟

قال ميتيا مندهشاً وهو يلتفت بقوة الى ماكسيموف :

ـ غير معقول !

فقال ماكسيموف مؤكداً بتواضع :

ـ بل لقد هربت فعلاً • نعم ••• حدث لى هذا المكروه ! سافرت مع رجل فرنسى • وأسوأ ما فى الأمر أنها كانت قد سجلت على اسمه قريتنا والأراضى التى تتبعها • قالت لى : « أنت رجل مثقف ، وســـوف تستطيع تدبير أمرك وحدك » • على هذا النحو انما تركتنى • وقد نبهنى أسقف محترم جداً فى ذات يوم الى أن احدى زوجتىّ كانت ساقهـا عرجاء ، وأن الثانية كانت ساقها خفيفة ••• هأ هأ ! •••

صاح كالجانوف يقول فى حماسة :

ـ هل تسمعون ؟ هل تسمعون ؟ اذا كذب ـ وهذا ما يحدث له

أحياناً كثيرة ـ فهو لا يكذب الا ليسلينا • ليس في هذا شيء من حطة ، ليس فيه شيء من حطه ! انه يعجبني أحياناً ، هل تعلمون ؟ هو دنيء جداً ، ولكن دناءته طبيعية ، أليس كذلك ؟ ما رأيكم ؟ غيره ينحطون طمعاً في منفعة ، أو سعياً الى ربح ، أما هو فيفعل ذلك مجاناً ، يفعل ذلك مدفوعاً اليه بطبيعته المنزهة عن الغرض • تصوروا مثلاً أنه يدعي أن جوجول انما وصفه هو في كتابه « النفوس الميتة » *• لقد تشاجرنا أمس حول هذا الموضوع طوال الطريق • انكم تذكرون أن كتاب جوجول هذا يحدثنا عن ملاك اسمه ماكسيموف ، جلده رجل اسمه نوزدريف ، فحوكم هذا الرجل « بتهمة توجيه اساءة شخصية بالسياط ، في حالة سكر ، الى الملاك ماكسيموف • » • ان صاحبنا ماكسيموف لا يتورع أن يؤكد الآن أنه هو الذي جلد بالسياط ذلك الجلد الذي يحدثنا عنه كتاب جوجول ، فهل هذا ممكن ؟ فكروا قليلاً ! ان تشتشيكوف قد سافر سنة ١٨٢٠ ، فالتاريخ اذن غير مطابق أبداً • انه ليستحيل استحالة مادية أن يكون ماكسيموفنا نحن قد جُلد منذ زمن بعيد كل ذلك البعد • يستحيل ، أليس كذلك ؟

لقد تحمس كالجانوف تحمساً صادقاً ، رغم أن من الصعب على المرء أن يفهم لماذا يولي هذه المسألة كل هذا الاهتمام ، ولماذا يقيم لها كل هذا الوزن ! وتحيز له ميتيا باقتناع تام ، ثم صاح يقول وهو يضحك ضحكاً مدوياً :

ـ ولكن ما دام يعترف بأنه جُلد •••

فقاطعه ماكسيموف مصححاً :

ـ الحق أن ما وقع لي لم يكن هو الجلد تماماً ، بل كان شيئاً من هذا القبيل •

ـ كيف هذا ؟ شىء من هذا القبيل ؟ اما أنك جُلدت واما أنك لم تُجلد ، ولا وسط بين الأمرين !

سأل « السيد » البولندى ذو الغليون ، ســـــأل صاحبه البولندى الطويل ، متململاً متذمراً :

ـ كم الساعة الآن ؟

فرفع البولنـــــدى الطويل كتفيه • لم يكن مع أحد من الرجلين البولنديين ساعة •

تدخلت جروشنكا تقول بلهجة هجومية :

ـ هل أضـــجركم هذا الحديث ؟ دعوا الآخرين يتكلمون ! لماذا تمنعونهم من أن يتسلوا ويسروا عن أنفسهم ؟

كان يبدو على جروشنكا أن مزاجها متأهب للمشاجرة ، فدُهش ميتيا من هذا لأول مرة • أجاب « السيد » البولندى بشىء من العصبية ، أجاب يقول باللغة البولندية :

ـ سيدتى ! أنا لم أقل شيئاً ، ولا أنوى أن أزعج أحداً •

فهتفت جروشنكا متجهة بالكلام الى ماكسيموف :

ـ طيب • اقصص الآن • مالى أراكم تسكتون جميعـــاً على حين فجأة !

استأنف ماكسيموف كلامه يقول وقد سرّه الاهتمـام به ، وأخذ يصطنع اللطف :

ـ ليس هناك ما أقصه ! ما هذا كله الا هراء ! ثم ان جوجول قد موّه أكثر الأسماء فى هذه القصة ، وأبدلها بتسميات رمزية • من ذلك

أن نوزدريوف قد كان اسمه الحقيقي نوسوف*، كما ان كوفشينيكوف كان اسمه الحقيقي شكفورنيف ، والاسمان مختلفان كل الاختلاف . أما فيناردي فكان اسمه فعلاً فيناردي ، ولكنه كان روسياً لا ايطالياً : فيناردي بتروف . وكانت الآنسة فيناردي فتاة أخاذة فتانة ... ليتكم رأيتموها ! ليتكم رأيتم ساقيها المغمدين فى سروالها الضيق تحت تنورتها القصيرة ذات الأسلاك المشدودة ! ... وما كان أروع دورانها ! ... ولكنها لم تدر الا خلال أربع دقائق ، لا خلال أربع ساعات . لقد فتنت ألبابنا جميعاً يومئذ ...

زأر كالجانوف يسأله :

ـ ولكن لماذا جلدوك ؟ هلاً قلت لنا لماذا جلدوك ؟ ذلك هو الأمر الذى يعنينا !

أجاب ماكسيموف :

ـ جلدونى بسبب بيرون .

فسأله ميتيا :

ـ اى بيرون ؟

ـ الكاتب الفرنسى الشهير بيرون . كنا جماعةً كبيرة فى كاباريه وكنا قد شربنا قدراً لا بأس به من الخمر . حدث ذلك فى أثناء تلك السوق نفسها . دعونى ، فما لبثت أن كِلْت لهم أبياتاً شعرية لاذعة . قالوا لى : « أهذا أنت ... الشاعر بوالو ؟ يا للزى الغريب المضحك! »* فأجابهم بوالو بأنه ذاهب الى حفلة تنكرية ، وكان بوالو يقصد بذلك الحمامات ... هأ هأ ! ... ولكنهم عدوا هذا تعريضاً بهم . وعندئذ

أسرعت أكيل لهم أبياتاً جديدة معروفة فى الأوساط المثقفة ، وكانت فى الحق كاوية :

انت سافو وأنا فاوون ـ ذلك أمر مر
ولكن أكبر مصائبى
انك تجهلين طريق البحر * .

فازداد استياؤهم وأخذوا يهينوننى اهانات ليست لائقة . فاردت عندئذ ، لسوء حظى ، أن أصلح ما بدر منى من خراقة ؛ ومن أجل أن أسوّى الأمر قصصت عليهم حكاية عن الشاعر بيرون التى لا يعرفها الا المثقفون جداً . فذكرت لهم كيف أن هذا الشاعر ، حين لم ينتخب عضواً فى الأكاديمية الفرنسية ، أراد أن ينتقم لنفسه ، فنظم بيتين لشاهدة قبره ، فقال :

هنا يرقد بيرون ، الذى لم يكن شيئا ذا بال
حتى ولا عضوا فى الاكاديمية

فما كان منهم الا أن هجموا علىّ فجلدونى .

ـ عجيب ! لماذا ؟ لأى سبب ؟

ـ ليعاقبونى على سعة اطلاعى .

وأضاف ماكسيموف يختم كلامه ، مصطنعاً هيئة التعمق والحكمة، قائلاً :

ـ ما أكثر الأسباب التى يُجلد من أجلها انسان !

قاطعته جروشنكا قائلة :

ـ كفى ! لقد ضقت ذرعاً بهذه الحكايات المضـــجرة ! لا أريد أن أسمعها بعد الآن • لقد توقعت شيئاً أدعى الى البهجة وأبعث على الضحك!

فسرعان ما وجم ميتيا وكفّ عن الضحك • ونهض « الســيد » البولندى الطويل ، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً واضعاً يديه وراء ظهره ، وقد بدا عليه الكبر والتعالى ، كرجل أوقعتــه المقــادير فى صحبة أناس يزدريهم فهو يشعر بملل وسأم •

قالت جروشنكا وهى تنظر اليه باحتقار :

ـ ما أبلد مشيته هذه !

فازداد انفعال ميتيا ، لا سيما وأن « السيد » الجالس على الــكنبة كان يتفرس فيه بغير لطف أو وداعة فيما خيل اليه • فصاح ميتيـــا يقول :

ـ فلنشرب أيها السيد • (ثم التفت الى البــولندى الآخر وتابع كلامه) • وأنت أيضاً ••• فلنشرب ، فلنشرب أيها السادة !

وتناول ثلاث كئوس وملأها شمبانيا • وهتف يقول :

ـ فلنشرب نخب بولنده ! فلنشرب نخب بلادكم بولنده ! فلنشرب نخب الأرض البولندية !

فأجابه « الســـــيد » ذو الغليون قائلاً بوقار متلطف وهو يرفع كأسه :

ـ بكل سرور يا سيدى ! فلنشرب !

فقال ميتيا مهتماً :

ـ والسيد الآخر أيضاً • هلاّ قلتم لى اسمه ! خذ كأساً يا سيدى •

قال السيد ذو الغليون :

ـ اسمه السيد فروبلفسكى •

واقترب السيد فروبلفسكى من المائدة متمايلاً ، وتناول كأساً ، ولكنه ظل واقفاً •

هتف ميتيا وهو يرفع كأسه :

ـ فلنشرب نخب بولنده يا سادتى !

وقرع الثلاثة كئوسهم بعضها ببعض • ولم يلبث ميتيا أن تناول الزجاجة فملأ الكئوس الثلاث من جديد • وقال :

ـ والآن فلنشرب نخب روسيا أيها السادة ! علينا أن نتآخى !

قالت جروشنكا :

ـ املأ لى أنا أيضاً كأساً • أريد أن أشرب كأس روسيا •

وقال كالجانوف :

ـ وأنا كذلك !

وزاد ماكسيموف فقال :

ـ وأنا أيضاً ! اننى احرص على أن أشرب نخب جدتنا العجوز روسيا • هىء هىء ! •••

هتف ميتيا يقول :

ـ فلنشرب جميعاً ! فلنشرب جميعاً ! هات زجاجات أخرى يا ريّس !

جيء بالزجاجات الثلاث الباقية . وملأ ميتيا الكئوس . وصاح يقول من جديد :

ـ نخب روسيا !

فشرب الجميع الا البولنديين . أفرغت جروشنكا كأسها دفعة واحدة . أما البولنديان فلم يمسا كاسيهما .

قال ميتيا في دهشة :

ـ ماذا ؟ أهكذا أنتم ؟

فتناول « السيد » فروبلفسكي كأسه ، ورفعه ، وقال بصوت أخفض :

ـ انني اشرب نخب روسيا بحدودها السابقة على سنة ١٧٧٢ ! *

فهتف « السيد » الآخر قائلاً باللغة البولندية :

ـ عظيم !

وأفرغ الاثنان كأسيهما . فلم يملك ميتيا الا أن يقول :

ـ ما أغباكما !

فانتصب « السيدان » أمام ميتيا كديكين ، وقالا له بلهجة التهديد :

ـ أيها ... السيد !

وكان يبدو على فروبلفسكي أنه خارج عن طوره؟ وها هو ذا يصرخ قائلاً في استياء (باللغة البولندية) :

ـ هل محظور على المرء أن يحب بلاده ؟

وهنا انفجرت جروشنكا تقول بصوت صارم وهي تقرع الأرض بقدمها :

ـ سكوت ! كفاكم شجاراً ! لا أريد هذه المناقشات !

قالت جروشنكا ذلك وقد التهب وجهها وسطعت عيناها . كانت الشمبانيا قد فعلت فعلها . خاف ميتيا . وأسرع يقول :

ـ معذرة أيها السيدان ! أنا المذنب . لن أكرر . يا فروبلفسكى ، يا سيد فروبلفسكى ، سأجلس ساكناً هادئاً بعد الآن .

فقاطعته جروشنكا قائلة بانزعاج :

ـ ليتك تسكت أنت على الأقل ؟ أبله !

جلس جميع الحضور ، وخيّم الصمت ، وأخذوا ينظرون بعضهم الى بعض فى حرج .

لم يدرك ميتيا شيئاً عن اندفاع جروشنكا ، فاستأنف يقول :

ـ أنا سبب هذا كله أيها السادة ! يجب أن لا نبقى عاطلين هكذا .. ألا نستطيع أن نتخيل شيئاً ... فنسترد مرحنا وانطلاقنا ؟ ...

قال كالجانوف باهمال ودون اكتراث :

ـ حقاً ان المرء ليضجر هنا ضجراً رهيباً .

فقال ماكسيموف مقترحاً :

ـ ما رأيكم فى لعبة بالورق كما فعلنا منذ قليل ؟ هىء هىء !

فقال ميتيا مؤيداً مستحسناً :

ـ لعبة بالورق ؟ فكرة عظيمة ! هذا اذا وافق هذان السيدان ...

فقال السيد ذو الغليون بلهجة تنم عن اعتكار المزاج ، قال باللغة البولندية :

ـ بوزنو (الوقت متأخر) •

فقال فروبلفسكى مؤمنا :

ـ هو على حق •

فسألت جروشنكا :

ـ بوزنو ؟ ما معنى هذه الكلمة ؟

فأجابها السيد الجالس على الكنبة :

ـ معناها : الوقت متأخر •

فقالت جروشنكا بصوت حاد وقد نفد صبرها :

ـ الوقت دائماً متأخر فى نظر هذين السيدين ، وكل شىء مستحيل فى نظر هذين السيدين • انهما لا يجيدان الا الضجر والسأم ، ويريدان أن يحرما الآخرين من البهجة والمسرة • انهما ، الى أن جئت يا ميتيا ، لم يفعلا طوال الوقت شيئاً غير الصمت ، متخذين هيئة التعالى تجاهى •

فهتف « السيد » الجالس على الكنبة يقول باللغة البولندية :

ـ الهتى ! ما قلته صحيح تماماً • لقد أصبحت حزيناً منذ لاحظت أنك مستاءة غير راضية •

وأضاف يقول لميتيا بغير تمهل :

ـ أنا مستعد •

فأجابه ميتيا :

ـ افتح اللعب يا سيدى •

قال ميتيا ذلك وأخرج حزمة الأوراق المالية من جيبه فسلَّ منها ورقتين بمائتى روبل ووضعهما على المائدة • وقال :

ـ أريد يا سيدى أن أخسر مالاً كثيراً معك • خذ الورق ، وكن أنت الخازن •

قال « السيد » القصير بلهجة جادة مشدداً كلماته :

ـ يجب أن نلعب بورق صاحب النزل •

فقال السيد فروبلفسكى مؤيداً :

ـ ذلك أفضل حقاً !

قال ميتيا وقد أدرك ريبتهما :

ـ تفضلون ورق صاحب النزل ؟ طيب أيها السادة ! سنأخذ ورق صاحب النزل • أنتم على حق •

وقال يأمر صاحب النزل :

ـ هات ورقاً •

فجاء صاحب النزل برزمة ورق مختومة ، وأعلن لميتيا أن البنات قد تجمعّن ، وأن اليهود الذين يعزفون على الرباب والكمان سيصلون بعد هنيهة ، ولكن العربة التى تحمل المؤن قد تأخرت • فنهض ميتيا فجأة ، وأسرع الى الغرفة المجاورة ليتخذ الاجراءات اللازمة • لم يكن فى الغرفة الا ثلاث بنات • ولم تكن ماريا قد ظهرت بعد • وكان ميتيا لا يعرف فى الواقع ما هى الاجراءات التى كان عليه أن يتخذها ، حتى لقد تساءل ماذا جاء يعمل فى هذه الغرفة • ومن أجل أن يخرج من ارتباكه أمر بأن يؤتى بالصندوق الذى يحتوى السكاكر ، وأن يوزّع

على البنات كارامل . وأضاف يقول متعجلاً : « وقدّموا فودكا لآندره لأننى جرحت شعوره منذ قليل » .وشعر ميتيا فى تلك اللحظة بأن أحداً يضع يده على كتفه ، فالتفت فرأى ماكسيموف الذى كان قد تبعه الى الغرفة .

همس الملاّك يقول له :

ـ هل تستطيع أن تسلفنى خمسة روبلات ؟ اننى أحب أن ألعب أيضاً ! هئ، هئ، ...

ـ عظيم ! عظيم ! خذ هذه الروبلات العشرة ! اليك عشرة روبلات !

وأخرج ميتيا حزمة الأوراق المالية من جيبه مرة أخرى ، فتناول منها ورقة بعشرة روبلات ، وقال له :

ـ وما عليك اذا خسرتها الا أن تطلب المزيد . سأعطيك غيرها أيضاً ...

همس ماكسيموف يقول فرحاً كل الفرح :

ـ هذا يدبر أمرى !

وأسرع يعود الى القاعة الأخرى .

ولم يتأخر ميتيا عن اللحاق به ، واعتذر للجمع عن تغيبه . وكان البولنديان ، الجالسان الآن الى المائدة ، قد فضا الورق قبل وصوله . وقد أصبح وجهاهما أقل جهامة وأكثر بشاشة حتى ليمكن أن يوصفا باللطف والدماثة . وها هوذا « السيد » القصير ، الذى أشعل غليوناً جديداً ، يستعد لخلط الورق بوقار . هتف فروبلفسكى يقول :

ـ مكانكم يا سادتى !

فقال كالجانوف :

ـ أنا لن ألعب . فقد سبق أن خسرت معهما خمسين روبلا .

فقال السيد ذو الغليون :

ـ ان سيدى لم يحالفه الحظ فى المرة السابقة ، ولكن قد يتدارك الآن ما فاته ...

سأل ميتيا متحمساً :

ـ كم الخزنة ؟

ـ يمكن أن تكون مائة روبل ، ويمكن أن تكون مائتين ، فذلك متوقف على المبلغ الذى تحطه .

فقال ميتيا وهو ينفجر ضاحكاً :

ـ مليون !

ـ لا شك أن الكابتن يعرف قصة السيد بودفيزوكى * ؟

ـ أى بودفيزوكى ؟

ـ حدث فى ذات مساء فى فارصوفيا أن تكدست جميع الأموال المحطوطة عند الخازن . فأقبل بودفيزوكى ، فرأى ألوف القطع الذهبية، فحطّ مبلغاً . سأله الخازن عندئذ أهو يريد أن يلعب بذهب أم هو يريد أن يلعب اعتماداً على عهد الشرف . فقال بودفيزوكى : « بل اعتماداً على عهد الشرف » ، فقال الخازن « حسناً » ، وقطع ، فلمّ بودفيزوكى القطع الذهبية . فاذا بالخازن يقول له : « لحظة أيها السيد » . وفتح الدرج وناول بودفيزوكى مليوناً وهو يقول له : « خذ . هذا ما ربحته. لقد كانت الخزنة مليوناً . قال بودفيزوكى متردداً : « **كنت أجهل هذا** »، فقال له الخازن : « يا سيد بودفيزوكى ، أنت لعبت بالاعتماد على عهد

الشرف ••• وأنا كذلك • فأخذ بودفيزوكى المليون ودسَّه فى جيبه •

هتف كالجانوف يقول :

ـ هذا غير صحيح !

فقال السيد ذو الغليون ، يخاطبه باللغة البولنديه :

ـ يا سيد كالجانوف ، ما هكذا يتكلم المرء فى صحبة أناس محترمين !

فصاح ميتيا قائلاً :

ـ لا تحاول أن تقنعنا بأن بولندياً قد أعطى مليوناً على هذا النحو !

ولكن ميتيا لم يلبث أن ثاب الى نفسه فاستدرك يقول :

ـ معذرة يا سيدى ! ها أنا ذا أخطىء من جديد ! ان البولنديين يمكن أن يعطوا مليوناً بسهولة ، تنفيذاً لعهد الشرف ، صوناً للشرف البولندى ••• أنا أسلم بهذا ! ••• أرى أننى سأتكلم أنا أيضاً باللغة البولندية آخر الأمر ! هأ هأ هأ ! أحط عشرة روبلات على الأعرج (الفاليه) •

فقال ماكسيموف وهو يقدم ورقة البنت (الدام) :

ـ وأنا أقامر بروبل صغير على البنت ، البنت الجميلة ، البنت البستونية ، على « الست » ، هىء هىء •••

قال ماكسيموف ذلك واقترب من المائدة اقتراباً شديداً ، كأنه يريد أن يخفى ما سيفعله ، ورسم تحت المائدة اشارة الصليب •

ربح ميتيا ، وربح الروبل الصغير أيضاً •

قال ميتيا :

ــ أضاعف .

وتمتم ماكسيموف يقول بسعادة كبيرة وقد طار لبه فرحاً بربحه الروبل :

ــ وأنا ألعب مرة أخرى بروبل ، روبل فقط ، روبل طيب ، روبل شهم صغير !

صرخ ميتيا :

ــ خسرت ! أضاعف حطتي على السبعة .

وخسرت السبعة أيضاً .

قال كالجانوف فجأة :

ــ كفوا عن اللعب .

فعاد ميتيا يقول دون أن يضطرب :

ــ أضاعف .

وظل ميتيا يضاعف ، وظل يخسر في كل مرة ، ولكن الروبلات الصغيرة التي كان يحطها ماكسيموف ظلت تربح .

صرخ ميتيا حانقاً :

ــ أضاعف أيضاً .

ــ فقال له « السيد » ذو الغليون :

ــ خسرت حتى الآن مائتي روبل . فهل تريد أن تقــامر بمائتي روبل دفعةً واحدة ؟

ـ كيف ؟ خسرت مائتى روبل ؟ لا بأس ! أضاعف مع ذلك ! ألعب بمائتى روبل دفعةً واحدة !

قال ميتيا ذلك وأخرج من جيبه ورقتين بمائتى روبل ، وهمّ أن يلقيهما على البنت (الدام) ، فاذا بكالجانوف يضع يده عليهـا فيغطيها . قال كالجانوف صائحاً بصوت رنان :

ـ يكفى هذا !

فسأله ميتيا وهو ينظر اليه مندهشاً :

ـ ماذا بك ؟

ـ يكفى هذا . لن أدعك تستمر .

ـ لماذا ؟

ـ هكذا ! دعهما وامض . هذا أفضل . صدقنى . سوف أمنعك من متابعة هذا اللعب .

كان ميتيا يتفرس فيه دون أن يفهم .

وتدخلت جروشنكا قائلة بنبرة غريبة فى صوتها :

ـ دع اللعب يا ميتيا . ربمـــا كان على حق . ثم انك قد خسرت ما فيه الكفاية .

قلق « السيد » القصير فقال يخاطب كالجانوف بالبولندية وهو يحدق اليه تحديقاً قاسياً :

ـ أتراك تمزح ؟

وصرخ « السيد » الطويل يقول لكالجانوف بصوت راعد !

ـ كيف تجرؤ أن ...

فغضبت جروشنكا وقالت :

ـ لا أسمح بالصراخ هنا • لكأنكم ديكة حانقه !

كان ميتيا ينقل بصره عليهم واحداً بعد واحد • وفجأة لفت انتباهه في هيئة جروشنكا تعبير غريب • وفي تلك اللحظة نفسها ومضت في ذهنه فكرة عجيبة •

بدأ « السيد » القصير يتكلم فقال وقد احمر وجهه غضباً :

ـ سيدتي أجريبينا •••

ولكن ميتيا لم يدعه يكمل كلامه • فقد اقترب منه ، ووضع يده على كتفه وقال له :

ـ كلمتين أيها السيد النبيل !

فسأله هذا بالبولندية :

ـ ماذا تريد ؟

فأجابه ميتيا :

ـ تعال معي الى الغرفة المجـــاورة • أريد أن أكلمك على انفراد، وما سأقوله لك سيسرك كثيراً • سترى أن ما سأقوله لك يرضيك •

بدت الدهشه على « السيد » القصير ، ونظر الى ميتيا في خشيه • ومع ذلك رضي أن يتبعه ، ولـــكنه اشترط أن يصـــحبه « الســـيد » فروبلفسكي •

هتف ميتيا قائلاً :

ـ حارسك ؟ فليأت هو أيضاً ••• ثم ان حضوره ضروري • هيـا بنا أيها السيدان !

سألته جروشنكا قلقة :

ـ الى أين تذهبون ؟

فأجابها ميتيا :

ـ سنعود بعد لحظة •

من رأى ميتيا فى تلك اللحظة أحسّ أن فيه عزماً وتصميماً وجرأة، وأحسّ أنه واثق من نفسه ثقةً لا تُنتظر منه • ان تعبير وجهه الآن يختلف كل الاختلاف عن تعبير وجهه ساعة وصوله •

قاد ميتيا الرجلين البولنديين الى غرفة تقع على اليمين ، ليست هى الغرفة التى كانت تتجمع فيها جوقة البنات وتُهيَّأ فيها المائدة للقاصفين ، ولكنها غرفة نوم ملأى بالحقائب والصناديق ، وفيها سريران كبيران على كل منهما جبل من وسائد • وكان فى الغرفة شمعة مشتعلة فوق منضدة• جلس « السيد » ذو الغليون وميتيا متقابلين ، ووقف « السيد » العملاق فروبلفسكى فى جانب ، واضعاً يديه وراء ظهره • ان الرجلين البولنديين يرقبان ميتيا عابسين ، ولكن كان واضحاً أنهما يشعران برغبة قوية فى معرفة ما يريد أن يقوله • .

تمتم « السيد » ذو الغليون يقول بالبولندية :

ـ ما الخدمة التى يمكننى أن أقدمها لك ؟

ـ اسمع أيها السيد • لن أراوغ وأخاتل • خذ المال (قال ميتيا ذلك وأخرج من جيبه حزمة الأوراق المالية) ، خذ المال ••• هل تريد ثلاثة آلاف روبل ؟ خذها وانصرف !

حدق « السيد » الى ميتيا بنظرة فاحصة ، مغرقا عينيه فى عينيه • وسأله بالبولندية :

ـ ثلاثة آلاف روبل أيها السيد ؟
وتبادل وصاحبه فروبلفسكى نظرة خاطفة .
قال له ميتيا :

ـ نعم ، ثلاثة آلاف ! اسمع أيها السيد : اننى ألاحظ أنك رجل عاقل . خذ هذه الثلاثة آلاف روبل واذهب من هنا ، ولكن لا تنس أن تصطحب صاحبك فروبلفسكى ، هل فهمت ؟ على أننى اشترط أن تذهب فوراً ، فى هذه الدقيقة نفسها ، والى الأبد . الى الأبد ، فهمت ؟ تخرج من هذا الباب ، هل ترى ؟ ماذا تركت فى الغرفة الأخرى ؟ معطفاً ؟ فراء ؟ سأجيئك به . وسآمر باعداد عربة ترويكا لك فوراً ... وأتمنى لك سفراً سعيداً أيها السيد . هيه ، ما رأيك ؟

كان ميتيا ينتظر الجواب وهو ممتلىء ثقة . كان لا يراوده شك فى أن الرجل سيقبل هذا العرض . واتخذ وجه « السيد » ذى الغليون هيئة تنم عن غاية العزم والتصميم . وقال يسأل ميتيا :

ـ أين المال يا سيدى ؟

ـ اليك تفصيل الأمر فيما يتعلق بالمال : أدفع لك الآن خمسمائة روبل سلفة ونفقات سفر . أما الباقى ، وهو ألفان وخمسمائة ، فسأدفعه لك غداً فى المدينة ، أحلف لك بشرفى . سأجيئك بهذا المبلغ من تحت الأرض اذا لزم ذلك ! (هكذا صاح ميتيا) .

تبادل البولنديان نظرة . وأصبح وجه « السيد » ذى الغليون أقل تشجيعاً مما كان منذ قليل . قال ميتيا :

ـ بل أعطيك سبعمائة، سبعمائة روبل ، لا خمسمائة، كدفعة أولى.. أعطيكها حالاً ، فى هذه اللحظة نفسها (كذلك أسرع يقول ميتيا الذى

لاحظ أن الأمور أخذت تجرى مجرى لا يبعث على الامل) • ما بك أيها السيد ؟ ألا تصدقنى ؟ لست أستطيع أن أنقدك ثلاثة آلاف دفعةً واحدة على كل حال • ذلك أنك قد تأخذ المبلغ الآن ثم تعود اليها غداً ••• ثم اننى لا أحمل الآن هذا المبلغ ، وانما هو مخبأ فى مسكنى بالمدينة ، (كذلك تمتم يقول أليوشا الذى كانت شجاعته تهبط عند كل كلمة جديدة ، والذى أصبح يرتعش منذ ذلك الحين خوفاً من الاخفاق) أحلف لك أن هذا المال فى بيتى ، مخبأ •••

وفى مدى لحظة قصيرة ، اجتاح وجهَ « السيد » ذى الغليون تعبيرٌ عن أنفة خارقة وشمم هائل ، فسأل ميتيا فى سخرية (باللغة البولندية) :

ـ أهذا كل ما تريده ؟

ثم بصق للتعبير عن اشمئزازه بمزيد من القوة •

وبصق فروبلفسكى أيضاً •

قال ميتيا وقد شعر باليأس يغزوه ، وأدرك أن كل شىء قد ضاع ، قال :

ـ أنت تبصق أيها السيد لأنك تأمل أن تسلب جروشنكا مبلغاً أكبر ! ألا انكما كليكما لمضحكان !

فقال « السيد » ذو الغليون ، وقد احمر احمراراً شـــديداً (قال باللغة البولندية أيضاً) :

ـ انك تهيننى الى أقصى حدود الاهانة •

ثم أسرع يتجه نحو الباب ، فى هيئة رجل مستاء لا يريد أن يسمع المزيد من الكلام • وسار فروبلفسكى وراءه متمايلاً • وتبعهما ميتيـــا مضطرباً حائراً وقد أسقط فى يده • كان يخشى غضب جروشنكا ، لأنه

أوجس أن البولندى سيفضح الأمر • وذلك ما حدث فعلاً • فقد دخل « السيد » ذو الغليون القاعة ، فوقف أمام جروشنكا وقفة مسرحية ، وهتف يقول لها باللغة البولندية :

ـ لقد أُهنت الى أقصى حدود الاهانة •

فاذا بجروشنكا تصيح فى وجهه حانقة مسعورة :

ـ باللغة الروسية ، تكلم باللغة الروسية ! لا أريد بعد الآن أن أسمع كلمة بولندية واحدة ! لقد كنت تعرف الروسية فى الماضى ، ولا يمكن أن تكون قد نسيتها فى خمس سنين !

وكانت جروشنكا محمرّة الوجه غضباً •

ـ سيدتى أجريبينا •••

ـ اسمى أجرافين ••• أنا جروشنكا ••• تكلم بالروسية اذا كنت تريد أن أسمع لك !

جُرحت كبرياء «السيد» ، فاحمر وجهه ، وأسرع يقول فى تنفخ وفخفخة ، متعمداً تشويه الكلمات :

ـ أيها السيدة أجرافين ! لقد جئت وأنا أنوى أن أنسى الماضى وأن أغفر ، جئت وأنا أنوى مسح ما حدث حتى هذا اليوم •••

فقاطعته جروشنكا قائلة وهى تثب من مكانها :

ـ جئت لماذا ؟ لتغفر ؟ أتريد أن تغفر لى أنا ؟

ـ نعم يا سيدتى ، كنت أريد أن أغفر لك • ان لى نفساً رحبة وقلباً سمحاً • ولكن سلوك خلاّنك قد أدهشنى • فمنذ هنيهة ، فى الغرفة المجاورة ، أراد « السيد » ميتيا أن يعطينى ثلاثه آلاف روبل لأسافر • فبصقت فى وجهه •

صرخت جروشنكا تسأله بصوت حاد :

ـ ماذا ؟ هل تجرأ أن يقدم لك مالاً من أجلى ؟ أصحيح هـذا يا ميتيا ؟ كيف جرؤت ؟ أأنا امرأة تباع وتُشترى ؟

قال ميتيا فى أنين :

ـ أيها السيد ، أيها السيد ، انها طاهرة كملاك ، ولم أكن خليلها فى يوم من الأيام . لقد كذبتُ فى هذا الأمر ...

زأرت جروشنكا تقول :

ـ كيف تجرؤ أن تدافع عنى أمامه ؟ لئن حافظتُ على طهارتى ، فاننى لم أفعل ذلك تمسكاً بالفضيلة ، بل ليكون من حقى أن أصرخ فى وجه هذا الرجل حين ألقاه : أنت شقى تعس ! هل يمكن حقاً أن يكون قد رفض المال الذى عرضته عليه ؟

فصاح ميتيا يقول :

ـ رفض ؟ انه لم يرفض ... لقد رضى ... ولكنه أراد أن أنقده الثلاثة آلاف روبل دفعةً واحدة ، أما أنا فقد عرضت عليه قسطاً أول هو سبعمائة روبل .

قالت جروشنكا :

ـ اتضح الآن كل شىء : لقـد علم اننى أملك مالاً ، فأراد أن يتزوجنى !

صرخ « السيد » يقول :

ـ يا سيدة أجريبينا ، أنا فارس ، أنا بولندى نبيل ، لا شقى تعيس . لقد كنت أريد أن أتخذك حليلةً لى ، ولـكننى أرى الآن أمامى امرأة

تختلف كل الاختلاف عن المرأة التي عرفتهـــا ، أرى أمامي الآن امرأة راكبةً رأسها خالعةً عذارها ...

صرخت جروشنكا تقول وقد خرجت عن طورها :

ـ اذهب ! عد من حيث جئت ! لآمرنّ بطردك ، فيضـــعوك على الباب ! ألا ما كان أشـــد بلاهتي حين عذبت نفسي خـلال هذه السنين الخمس بسببه ! ... لا ... انني لم اعذب نفسي هذا التعذيب بسببه ، وانما عذبت نفسي غضباً وحنقاً ! ليس هذا هو الرجل الذي أحببتـه ! أوه ! انه لم يكن هكذا ! ليس هذا الرجل هو من أحببت ! أغلب الظن أنه أبوه ! أين صنعت لنفسك هذه الباروكة المضـــحكة ؟ لقد كان ذاك صقراً ، أما هذا فدجاجة مبتلة ! كان ذاك يضحكني وينشدني الأغاني .. الا ما كان أغباني اذ لبثت أبكي طوال خمس سنين ، وما كان أحطني ، وما كان أجبنني !

قالت جروشنكا ذلك وتهالكت على مقعدها من جديد ، وغطت وجهها بيديها . وفي تلك اللحظـــة ، ترجعت في الغرفة التي تقع على الشمال أصوات جوقة بنات موكرويه اللواتي اجتمع شملهن أخيراً . لقد أخذن يغنين رقصة شيطانية .

فصاح فروبلفسكي على حين فجأة يقول :

ـ هذا محل دعارة ! يا ريّس ، اطرد هاته النساء الخليعات !

كان صاحب النزل يلقي على القاعة نظـرات استطلاع من حين الى حين ، فلما سمع الصراخ وأدرك أن نزلاءه قد أخذوا يتشاجرون أسرع اليهم . وقال يسأل فروبلفسكي بلهجة فظة :

ـ هيه ! أنت ! مالك تصيح هذا الصياح بحلقك العريض كله ؟

فزأر « السيد » فروبلفسكى يقول له :

ـ وغد !

ـ وغد ؟ أنا وغد ؟ هلاّ قلت لى بأى ورق لعبت منذ قليل ؟ لقد جئتك بحزمة مختومة ، فأخفيتها ، ولعبت بورق مغشوش ! هل تعلم أننى أستطيع أن أرسلك الى سيبريا بسبب هذا الغش ؟ ان اللعب بورق مزيف يشبه صنع نقود مزيفة ...

واقترب صاحب النزل من الكنبة ، فأغطس يده بين الوسادة والظهر ، فسحب حزمة الورق المختومة ، وقال :

ـ هذا ورقى ، لم يمسّ !

ورفع حزمة الورق بين أصابعه يُظهر عليها جميع الحضور ، وهو يقول :

ـ لقد رأيته من ركنى لحظة دسّ هذه الحزمة فى الشق ، وأحل محلها ورقاً من عنده ! أنت وبش لا « سيد » ...

وقال عندئذ كالجانوف :

ـ وأنا فاجأت « السيد » يغش مرتين .

صاحت جروشنكا تقول وهى تضم يديها احداهما الى الأخرى :

ـ يا للعار ! آه ... يا للعار ! ... رباه ! كيف أمكن أن يتغير هذا الرجل الى هذا الحد ؟...

وكانت جروشنكا قد تخضب وجهها بحمرة شديدة من فرط شعورها بالذل والخجل .

قال ميتيا :

ـ لقد اشتبهت فى أنهما يغشان !

فما ان نطق ميتيا بهذه الكلمات حتى التفت « السيد » فروبلفسكى الى جروشنكا مغتاظاً مضطرباً ، وصرخ يقول لها وهو يمد قبضة ذراعه نحوها :

ـ مومس !

ولكن ميتيا انقض عليه فى تلك اللحظة نفسها ، فأمسك بجسمه كله ، ورفعه ، ونقله بلمحة طرف الى الغرفة التى تقع على اليمين ، الغرفة التى قادهما اليها منذ لحظات . وسرعان ما عاد الى القاعة لاهثاً من الجهد والانفعال ، فقال للقوم :

ـ رميته على الأرض ! المسكين يتخبط ، ولكنه لن يسارع الى الرجوع .

وأغلق ميتيا أحد مصراعى الباب ، وترك المصراع الثانى مفتوحاً ، واتجه الى « السيد » ذى الغليون يسأله :

ـ هل تتنازل ، أيها السيد النبيل ، فتلحق بصاحبك ؟ برزبرازنام ! (معذرة !) .

فهتف تريفون بوريسيتش يقول :

ـ ولكن يا دمترى فيدوروفتش ، استردّ منه المال الذى خسرته فى اللعب ، على الأقل ... لقد سرقاك !

قال كالجانوف :

ـ أنا أترك لهما روبلاتى الخمسين !

فصاح ميتيا :

ـ وأنا أتنازل عن روبلاتى المائتين ! لن استردها بحال من الأحوال فليحتفظا بها عزاءً لهما !

ـ مرحى ميتيا •

كذلك صاحت تقول جروشنكا بصوت فيه شيء من الشر •

فاتجه « السيد » ذو الغليون نحو الباب ، وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة من فرط الحنق ، ولكنه لم يفقد شيئاً من رصانته • ومع ذلك فانه قبل أن يخرج من القاعة ، التفت نحو جروشنكا وقال لها (بالبولندية) :

ـ سيدتى ، اذا كنت تريدين أن تتبعينى ، فتعـــالى ! والا ••• فوداعاً •••

ثم اجتاز الباب عابس الوجه مختنق الصدر غضباً وخزياً •

ذلك انسان لا يهزه شيء • فانه بعد كل ما حدث ظل يأمل أن تتبعه « السيدة » ، لأنه يقدر نفسه قدراً عظيماً •

أغلقت جروشنكا الباب عليهما •

وقال لها كالجانوف ناصحاً :

ـ أقفلى الباب عليهما بالمفتاح •

ولكن القفل صرّ من داخل الغرفة • لقد سارعا هما الى اقفال الباب المفتاح •

هتفت جروشنكا تقول بلهجة حاقدة :

ـ عظيم ! ذلك كل ما كانا يستحقانه !

٨

هذيان

ما ان مضى البولنديان حتى سمل القاعة مرحٌ عام، وحتى بدأ احتفال سببه أن يكون مجوناً وكانت جروشنكا أول المطالبين بخمر . قالت :

ــ أريد أن أشرب ، أريد أن أسكر تماماً، كالمرة السابقة ، هل تتذكر ياميتيا ، يومَ تعارفنا ؟

وكانت حالة ميتيا النفسية أشبه بهذيان ، لأنه كان يتنبأ « بسعادته ». وكانت جروشنكا ، مع ذلك ، ما تنفك تصرفه فى كل لحظة ، قائلةً له :

ــ اذهب اليهم ، سرِّ عن نفسك ، مرهم بأن يرقصوا ، حتى يكون هنالك انطلاق ومرح . أريد قصفاً عنيفاً حاراً ، كالمرة السابقة ، كالمرة السابقة تماماً .

كانت جروشنكا مهتاجة جائشة النفس . وكان ميتيا يتحرك هنـا وهناك ليطيعها وينفذ أوامرها . تجمع أفراد الجوقة فى الغرفة المجاورة. ان هذه القاعة التى تجمعوا فيها صغيرة مسرفة فى الصغر ، تقسـمها الى قسمين ستارةٌ من نسيج هندى تخفى وراءها سريراً ضخماً مغطى بلحاف كبير فوقه كدسة من وسائد . وان فى سـائر الغرف الأربع الأخرى « النظيفة » سرراً على كل حال . استقرت جروشنكا أمام الباب ، حيث

أتاها ميتيا بمقعد تجلس عليه . ذلك هو المكان الذى شغلته « فى ذلك اليوم» ، أثناء احتفالها الأول فى الليل ، تتأمل منه الرقصات وتسمع الغناء. ان البنات اللواتى اشتركن فى ذلك الاحتفال قد جئن اليوم هن أنفسهن. ولم يلبث اليهود أن وصلوا مع آلات الرباب والكمان . وأُعلن أخيراً أن عربة الترويكا التى طال انتظارها قد وصلت هى أيضاً تحمل المؤن .

شُغل ميتيا كثيراً ، وراح يتحرك هنا وهناك . كان أناس من أهل القرية يقفون أمام العتبة من حين الى حين ليلقوا نظرةً على الغرفة . لقد أوقظ الفلاحون والفلاحات فى وسط الليل ، وأسرعوا يرتدون ثيابهم ، متوقعين وليمة عجيبة كوليمة الشهر الماضى . ان ميتيا يحيى الوافدين الجدد ، ويعانق الأصحاب القدامى ، ويثير ذكريات سابقة ، ويفتح الزجاجات ، ويقدم الشراب لكل قادم . والبنات وحدهن يقدرن الشمبانيا ، أما الفلاحون فيؤثرون خمر الروم والكونياك ، ويفضلون « البنش » خاصة . أصدر ميتيا أوامره باعداد شوكولاتة للبنات ، وبأن تظل ثلاثة سماورات يغلى ماؤها بدون انقطاع لتحضير الشاى والبنش . يجب أن يكون هنالك شراب للجميع . يجب أن يستطيع كل قادم أن يسكر ما شاء له هواه أن يسكر . الخلاصة : قامت الدنيا وقعدت ، وأخذ الناس يشربون فوضى لا يلجمهم شىء . ولكن ميتيا كان يحس فى هذا السديم المضطرب بارتياح ، ويزداد انتعاشاً ونشاطاً على قدر ازدياد الفوضى والسخف فى هذه السهرة . فلو خطر ببال أول فلاح واصل أن يسأله مالاً فى تلك اللحظة ، اذن لأخرج الحزمة من جيبه ووزّع الأوراق المالية على حلقة الراقصين دون عد . ولعل هذا هو السبب الذى جعل صاحب النزل لا يكف عن الحوم حوله لحمايته فى أغلب الظن . وقد عزم تريفون بوريستش على أن لا ينام فى هذه الليلة، لذلك لم يشرب هو نفسه الا قليلا جداً (اكتفى بكأس بنش واحد) ،

ولكنه كان يسهر على مصالح ميتيا بمزيد من الانتباه ، ولو على طريقته الخاصـــة ؛ فهو يتدخل متى وجب أن يتدخل ، بلهجة متعاذبة لينة ، ليوقف ميتيا عند حدود لا يتعداها ، محاولاً أن يحول بينه وبين أن يقدم للفلاحين الجفاة سيجاراً وملبساً «كما فعل فى المرة الماضية» ، أو أن يوزع عليهم شيئاً من المال خاصة ،لا سمح الله ! كان يسوءه أن يرى البنات تشرب خموراً وتقضم ملبساً ، فيقول : « وسخات ! وسخات ! لأطردهن ركلاً بالقدمين ، ولأحملهن على أن يشكرن لى هـــذا الشرف . ذلك ما هن به جديرات ! » . وتذكر ميتيا الحوذى آندره من جديد ،فأرسل اليه شيئاً من البنش . وكان يردد قائلاً بصوت ضعيف دامع : « لقـــد أسأت اليه منـــذ قليل » . ورفض كالجانوف فى أول الأمر أن يشرب ، ولم ترضه جوقة البنات .ولكن مرحه اشتد اشتداداً جنونياً بعد أن شرب الكأس الثانية من الشمبانيا ، فكان يســير فى خلال الغرفة ضاحكاً مطرياً كل شيء ، الأغانى والموسيقى . وكان ماكسيموف الذى بلغ أوج السكر والغبطة منذ ذلك الحين ، لا يتركه لحظة واحدة . وكانت جروشنكا ، التى ثملت قليلاً هى أيضاً ، ما تنفك تقول لميتيا وهى تومىء الى كالجانوف « ما ألطفه فتى ! ما أحلاه وما أعذبه ! » ، فكان ميتيـــا يسرع عندئذ الى كالجانوف فيعانقه ويقبله بحماسة ؛ وكان يقبّل ماكسيموف فى هذه المناسبة. آه .. ماكان أعظم السعادة التى يوجس ميتيا أنه سينالها ! صحيح أن جروشنكا لم تكن قد وعدته بشىء بعد ، وأنها كانت تبدو راغبـــة فى تجنب أى شرح الآن ، ولكنها كانت تنظر اليه خلسةً من حين الى حين وقد فاضت عيناها رقة وحناناً . وها هى ذى تمسك يده على حين فجأة ، فتجذبه اليها بقوة ، وتقول له وهى جالسة على مقعد أمام الباب كما كانت فى أول الاحتفال :

ـ ما كان أغرب هيئتك حين دخلت علينا منذ قليل ! أوه ! لقد خفت

عندئذ خوفاً شديداً • كيف خطر ببالك أن تتنازل عني لذلك الرجل ؟ هل يمكن أن يكون ذلك قد خطر ببالك حقاً ؟

دمدم ميتيا يقول وقد طاش عقله من فرط السعادة :

ـ لم أشأ أن أفسد سعادتك •

ولكن جروشنكا لم تصغ الى جوابه • وصرفته عنهـــا من جديد قائلة له :

ـ اذهب ، اذهب ، سرّ عن نفسك لاهيـــاً معهم • وليس لك أن تتشكى ، فسأناديك بعد قليل •

انصرف ميتيا ، واستأنفت جروشنكا تأمل الرقصات والاصـــغاء الى الأغنيات • فلما انقضى على ذلك ربع ساعة أومأت له فهرع اليها • قالت :

ـ اجلس بجانبي الآن ، واقصص عليّ كيف علمت أمس انني هنا • من أولُ من قال لك ذلك ؟

أخذ ميتيا يقص عليها بحرارة ، ولكن بفوضى ، فليس في سرده تسلسل كثير • والشيء الغريب أنه كان في بعض الأحيـــان يتوقف عن الكلام ويقطب حاجبيه • قالت له جروشنكا :

ـ ما بك ؟

فأجابها :

ـ لا شيء ••• لقد تركت في المدينة مريضاً • أرجو أن يشفى••• انني لأهب من عمري عشرة أعوام في سبيل أن يشفى !

ـ لا تفكر بعد الآن في ذلك المريض • قل لي : هل صحيح أنك كنت تريد أن تنتحر في غد أيها الأحمق ؟ لماذا ؟

ثم دمدمت تقول له بلغة منتفخة قليلاً :

ـ أحب أمثالك ، المجانين قليلاً . أأنت مستعد اذن لأن تجازف بكل شيء في سبيلي ؟ أكان في نيتك اذن أن تنتحر من أجلي غداً يا عزيزي الطبيب الأبله ؟ ألا فاعلم اذن أن من الأفضل لك أن تنتظر ... قد أقول لك في الغد كلمة صغيرة ... لا اليوم ... بل غداً ! آ ... لا شك أنك تؤثر أن أقولها لك اليوم ؟ لا ... لا أريد أن أقولها اليوم ... اذهب ، اذهب الآن ، سلِّ نفسك !

ولكنها نادته في لحظة من اللحظات مندهشة قلقة ، وسألته :

ـ مالي أراك حزيناً هذا الحزن كله ؟ انني ألاحظ أنك مهموم .

وسدّدت اليه نظرة نافذة ، وأردفت تقول :

ـ نعم ، ألاحظ ذلك واضحاً . مهما تضحك وتمزح مع الفلاحين، فانني أدرك أن هناك شيئاً يعذبك . كن فرحاً ! أريد ذلك ! أنا فرحة ، فعليك أن تفرح أنت أيضاً ... تصور أنني أحب أحداً هنا ... أوه ! انظر اليه ! لقد غفا فتاي الصغير ... انه ثمل ، عزيزي !

كانت تعني كالجانوف . لقد غفا كالجانوف بضع لحظات على الكنبة بتأثير الكحول . على أن الخمر وحدها ما كانت لتكفي أن تغرقه في النوم. وانما الحقيقة أنه شعر فجأة بحزن ثقيل في وسط هذا الاحتفال ، دون سبب معيّن واضح ، وذلك ما عبّر عنه بقوله انه « ضجر » . وكانت أغاني البنات قد أصبحت تثير فيه الاشمئزاز ، لأنها كانت تزداد فسقاً ودعارة بتأثير الخمر شيئاً بعد شيء ، وكذلك كان شأن الرقصات : لقد خطر ببال بنتين من البنات أن تتنكرا دُبَّيْن ، وأخذت ستيبانيد ، وهي امرأة قوية الجسم خلبة البال ، « تعرضهما » وفي يدها هراوة ، قائلةً في صراخ :

ـ بعنف يا مارى ، والا هويت عليك بالهراوة !

وأخذ الدبان يتدحرجان أخيراً على أرض الغرفة تدحرجاً خالياً من الحشمة كل الخلو حقاً ، فكان جمهـــور الفلاحين والفلاحات الذى يشاهد المنظر ينفجر ضحكه المجلجل !

قالت جروشنكا بلهجة الحكمة وهيئة الغبطة :

ـ دعوهم يلهون على ما يشاء لهم هواهم ، ذلك من حقهم مرة . ان هذه الفرصة لا تعرض لهم كثيراً ، فلينتهزوها !

وكان كالجانوف ينظر الى المشهد شاعراً بأنه اتسخ ؛ وابتعد وهو يقول :

ـ ما أكثر الابتذال فى هذا الفرح الشعبى ! أهكذا يتسلون اذن هم الذين يعيشون فى قلب الطبيعة ؟

وكانت قد آذته أغنية « جديدة » ايذاء خاصاً . هى أغنية تتردد فيها لازمة تُمثّل بايماء وتُرقص على ايقاع جرىء ؛ وهى تروى قصة بارين (سيد) مسافر يسبى قلوب البنات .

سال البارين البنات : *
اتحبيننى ؟ اتحبيننى ؟

ولكن البنات رأين أنه لن يكون زوجاً صالحاً .

سيضربنى البارين
ولن أحبه

واتفق ان مرّ عندئذ غجرى :

سال الغجرى البنات :
اتحبيننى ؟ اتحبيننى ؟

ولكنه لم يعجب البنات أكثر من البارين :

سيكون الغجرى لصا
ولن تكون هذه هى السعادة

ومرّ رجال آخرون كثيرون ، حتى لقد مرّ جندى :

سأل الجندى البنات :
أتحبيننى ؟ أتحبيننى ؟

ولكن البنات نبذنه باحتقار :

سيحمل الجندى الكيس
اما أنا فسوف ...

وكان البيت الثانى بذيئاً بذاءة صريحة ، وكانت البنات تغنيه دون أن تحمر خجلاً ، فتثير فى الجمهور حماسة عظيمة . وتقدم أخيراً تاجر :

سأل التاجر البنات :
اتحبيننى ؟ أتحبيننى ؟

فأحبته البنات ، لأن :

التاجر سيجنى ثروة كبيرة
ويجعلنى أميرة ...

نفذ صبر كالجانوف فصاح يقول بصوت عالٍ :

ـ هذه أغنية حديثة جداً . ترُى من مؤلفها ؟ ليس ينقصها فى الواقع الا متعهدو سكك حديدية ويهود . فلو وجدوا لأحرزوا النصر !

كان كالجانوف كمن أُهين تقريباً ، وقال فجأة انه ضجر ، واضطجع على الكنبة فسرعان ما غفا . وهذا وجهه الجميل ، الشاحب شحوباً خفيفاً ، ينزلق على الوسادة قليلاً .

قالت جروشنكا وهى تجذب ميتيا اليها :

ـ أنظر ما ألطفه ! كنت منذ قليل أسلّى نفسى بملاعبة شعره • ان شعره غزير كنيف ، وهو أشبه بخيوط الحرير نعومةً •••

ومالت جروشنكا على كالجانوف فى حنان ، وقبلت جبينه • ففتح كالجانوف عينيه فجأة ، ونظر اليها ، ثم نهض نصف نهوض ، وسألها وقد بدا عليه انشغال البال :

ـ أين ذهب ماكسيموف ؟

فقالت جروشنكا ضاحكة :

ـ انظروا عمن يسأل • ماكسيموف هو الذى يعوزه ! هلاّ بقيت معى بضع لحظات ! يا ميتيا ، ابحث له عن ماكسيموف وجئه به •

كان ماكسيموف قد أصبح لا يترك البنات ، ولا يبتعد عنهن من حين الى حين الا ليصب قدحاً من الخمر • وقد شرب أيضـاً فنجـانين من الشوكولاتة • وتلوّن خداه ، واصطبغ أنفه بحمرة قانية ، بينما عينـاه المخضلتان الرطبتان تنظران حوله فى عاطفة وحنان • وسرعان ما هرع ماكسيموف يعلن أنه سيرقص رقصة «صانعة القباقيب» على « لحنٍ موسيقى معروف » • وقال شارحاً :

ـ لقد علمونى فى طفولتى هذه الرقصات الراقية الرفيعة •

فهتف كالجانوف يقول ، مبعداً الفرصة التى عرضتها له جروشـنكا وهى أن ينفرد بها :

ـ سأمضى أنا أيضاً • اننى أريد أن اراه عن كثب حتماً •

وتبعوا ماكسيموف • وعرض ماكسيموف رقصته ، فلم تثر حماسة

أحد الا مينيا • هي رقصه قوامها قفزات وتلويّات ، ورفع السيقان الى فوق وجعل النعال عاليةً في الهواء ، فكان ماكسيموف يقرع نعله بيده في كل مرة •

مطّ كالجانوف سفتيه استياءً ، ولكن ميتيـا وثب الى عنق الراقص قائلاً له :

ـ شكراً لك ياصاحبي الطيب الشهم • يخيّل اليّ أنك تعبت • أأنت تنظر الى الســـكاكر ؟ أتريد واحدة ؟ أم لعلك تحب أن تدخن سيجاراً ؟

ـ بل سيجارة •

ـ ألا تريد أن تشرب شيئاً ؟

ـ شربت خموراً • أليس عندكم سكاكر بالشوكولاتة ؟

ـ ما أكثر ما عندنا منها على المائدة • اختر ما يحلو لك يا حمامتي !

ـ لا هذه ، أريدها سكاكر بالونيلة ••• أريد ســـكاكر الشيوخ العجائز تلك ! هيء هيء ! •••

ـ ليس عندنا منها يا أخي !

ومال العجوز القصير فجأة على أذن ميتيا فسأله موشوشاً :

ـ قل لي : أما من سبيل ••• أليس هناك وسيلة ••• أنظر الى هذه البنية ، الى ماري اللطيفة هذه ، هيء هيء ، كم أود لو أتعرف عليها •• اذا كنت ترى ، بما لك من شهامة وأريحية ، أن الأمر ممكن •••

ـ أوه ! أوه ! أرجو أن تكون هازلاً لا جاداً !

ـ لا أريد بها شراً

كذلك دمدم يقول ماكسيموف مفحّماً . فقال له ميتيا :

ـ طيب ... طيب ... هنا يا أخي غنـــاء ورقص ، ولـكن ذلك هو كل شيء . على كل حال ... اذا كنت تحرص هذا الحرص كله... عجيب ! عليك قبل كل شيء أن تأكل وتشرب وتمرح . ألعلك في حاجة الى مال ؟

أجابه ماكسيموف مبتسماً :

ـ ربما احتاج الى شيء من المال . فيما بعد .

ـ طيب ...

كان رأس ميتيا ناراً مشتعلة . خرج الى الدهليز وصعد الى الرواق الذى يمتد على جزء من المبنى من جهة الفناء . أحس اليه الهواء الطرى . توقف فى ركن مظلم ، واذ أحس أنه وحيد ، أخذ يفكر . فمـــا هى الا بضع لحظات ، حتى وضع رأسه بين يديه فجأة . ان خواطره المتفرقة المتبعثرة ، وان احساســـاته الغامضة المبهمة ، قد اتحدت الآن وترتبت وتوضحت ، فخرج منها على حين فجأة ضياء رهيب ! تساءل : « اذا كنت أريد أن أطلق رصاصة فى رأسى ، فلماذا لا أفعل ذلك حالاً ؟ أمضى فأجيء بمسدسى وأنهى الأمر فى هذا المكان نفسه ، فى هذا الركن المظلم القذر ذاته ؟ » ولبث يتردد دقيقة طويلة . انه منـــذ ساعات قليلة ، حين كانت عربة الترويكا تقله الى موكرويه ، كان قد خلف وراءه عاراً هو عار السرقة وسفك الدم ... ولكن ما كان أسهل اتخاذ القرار الوحيـــد الممكن حينذاك ! لقد كان اتخاذ هذا القرار اسهل منه الآن ، أســـهل كثيراً ! كل شيء كان يبدو عندئذ ضائعاً : كان قد فقد تلك المرأة ، قـــد تنازل عنها ... أصبحت لا وجود لها .. وكان تنفيذ الحكم الذى أصدره على نفسه هيناً يسيراً . لقد خضع لذلك الحكم خضوعه لقدر لا رادّ له ،

لقضاء أعلى لا اعتراض عليه • ماكان حاجته الى البقاء حياً بعد أن وقع ما وقع ؟ لم يكن قد بقى شيء يشده الى هذا العالم ويربطه به • أما الآن فقد اختلفت الحال • ان احدى حلقات القدر ، ان أحد أشباح الخوف ، قد تبدد الآن دخاناً !ان صديقها القديم الذى لا يمكن جحوده أو التنكر له ، قد اختفى دون أن يخلف أثراً ! ان ذلك الشبح المرعب قد استحال ظلاً تافهاً مضحكا • لقد أخرج من الغرفة كطفل ، وأقفل عليه الباب بالمفتاح ! انها تشعر بالعار من هذا الرجل ؟ وقد استطاع ميتيا أن يقرأ فى عينيها من ذا تحب فى الواقع • الآن انما يمكن أن تكون الحياة جميلة ، جميلة جداً ••• ولكن الحياة مستحيلة بعد أن وقع ما وقع ، مستحيلة ! يا لها من لعنة ! « اللهم ردَّ الحياة الى ذلك الذى صرعتُه قرب السور ! اللهم اجعل الكارثة تمر قربى دون أن تمسنى ! اللهم انك قد صنعت معجزات لأناس غيرى كانوا مذنبين مثلى ، فهب لى من لدنك معجزة من تلك المعجزات ! ••• ولكن ماذا اذا كان العجوز لم يمت ! لأمحونَّ عندئذ عار الاثم الآخر ، فأرد المال المسروق ، أعيده الى صاحبه ، ولو اضطررت أن أمضى باحثاً عن المال تحت الأرض ••• لن يبقى عندئذ أثر من آثار ذلك العار ••• الا فى قرارة قلبى حيث سيعيش الى الأبد • لا ، لا ، هذا مستحيل • هذه أحلام جبان ، أحلام لا سبيل الى تحقيقها•• يا للعذاب ! » •

ومع ذلك ساوره شعاع من أمل بعد هذه الأفكار ، شعاع ضعيف فى ظلام الليل • انتزع نفسه من تأمله القاتم ، وأسرع ينزل الى غرف الطابق الأرضى ، اسرع اليها من جديد ، الى تلك التى تحكم قلبه الى الأبد • تساءل : « ألا تساوى ساعة واحدة من حبها ، ألا تساوى دقيقة واحدة من حبها حياةً بأكملها ، ولو كان ثمنها عذاباً وعاراً • » استولت هذه الفكرة على ميتيا ، وطردت من نفسه سائر الهموم والمشاغل • قال

يحدث نفسه : « أراها ، أراها أيضاً ، أسمعها ، أنقطع عن التفكير في أي شيء ، أنسى كل ماعداها ، ولو ليلةً واحدة ، دقيقة واحدة ! » . وفيما كان ينزل من الشرفة لمح تريفون بوربستتش عند مدخل الدهليز . كان تريفون بوريستتش حزين الهيئة منزعجاً ، وبدا لميتيا أنه كان يبحث عنه .

ــ أتبحث عني أنا يا تريفون بوريستتش ؟

فأسرع صاحب النزل يجيبه :

ــ لا ... لا أنت ... ثم علام أبحث عنك ؟ ولــكن ... أين كنت ؟

ــ مالى أراك مظلم الوجه ؟ أتراك غاضــبـاً ؟ اصبر علينا قليلاً ، وسندعك تنام هادىء البال . كم الساعة الآن ؟

ــ هي الثالثة أو تزيد .

ــ سننصرف .

ــلا ، لا ... في وسعكم أن تبقوا ما شئتم أن تبقوا ...

تساءل ميتيا وهو يسرع الى القاعة التي كانت ترقص فيها البنات : « ما ذا حدث له ؟ » . ولكن جروشنكا لم تكن هنــاك . لا ولا كانت في الغرفة الزرقاء . وكان كالجانوف ينام على الكنبة نوماً هادئاً . ألقى ميتيا عندئذ نظرة خلف الستائر ، فاذا هو يجدها هناك . كانت جالسةً في ركن ، على صــندوق ، مسندةً رأسها ويديها الى حافة السرير ، تبكي بكاءً مراً ، محاولة أن تخنق نشــيجها ، جاهدةً أن لا ينفجر انتحابها وأن لا تلفت الانتباه اليها . لمحت ميتيا ، فأومأت اليه أن يقترب ، وأمسكت يده ، فضغطتها بيدها ضغطاً قوياً . وقالت هامسة :

ـ أوه ! ميتيا ، ميتيا ، لقد أحببت هذا الرجل مع ذلك ! أحببته كثيراً خلال هذه السنين الخمس ! ترى أأحببته أم كنت أحب حقدى ؟ لا بل أحببته هو ! أوه ! نعم ، هو ، هو ! أكذب اذا زعمت انني ما أحببت الا حقدى ! أواه يا ميتيا ! لم يكن عمرى حينذاك الا سبعه عشر عاما ، وكان يُظهر لى كثيرا من اللطف والأنس والوداعه ، وكان يغنى لى أغنيات ... أم تراه لم يظهر لى فتاناً الى ذلك الحد الا لأننى كنت غبية ، لا لأننى كنت طفلة غرة ؟ ... أما اليوم ... رباه ! انه ليس هو ، انه ليس ذلك الرجل نفسه ! لقد تغير وجهه أيضا ، فهو لا يشبهه البته . أنكرته حين رأيته أول وهلة . لقد كنت أتساءل طوال الطريق ، وأنا آتيه الى هنا مع تيموتى : « كيف أتصرف حين ألقاه ؟ ماذا أقول له ؟ كيف ينظر كل منا الى الآخر ؟ ... » . وانهارت نفسى ... لقد صب على رأسى سطلاً من فاذورات . تكلم كما يتكلم معلم مدرسة . اتخذ أوضاع التعالم ، واصطنع هيئة لوفار ، فأرتج علىَ وخرست ! لم يتح لى أن أقول كلمة واحدة . حسبت فى البداية أن وجود ذلك البولندى الطويل يحرجه . كنت جالسة هناك ، أمامه ، أتساءل لماذا أصبحت على حين فجأة لا أجد كلمة أقولها له . ان زوجته ، ان تلك المرأة الأخرى هى التى أثرت فيه تأثيراً سيئاً ... تلك المرأة التى من أجلها تركنى ثم تزوجها بعد ذلك ... لقد بدلته تبديلاً كاملاً ... يا للعار يا ميتيا ! انى لأشعر الآن بالعار من حياتى كلها ! لُعنت تلك السنون الخمس ، الى الأبد .

وتدفقت دموعها من جديد ، ولكنها لم تترك يد ميتيا ، بل ضغطتها فى يدها مزيدا من الضغط .

ـ ميتيا ، حمامتى ، لا تذهب ، انتظر لحظة (ثم دمدمت تقول وهى ترفع اليه بصرها) سأقول لك كلمة صغيرة . اسمع . قل لى أنت : من

هو الرجل الذى أحبه ؟ أننى أحب رجلاً هنا • فمن هو ذلك الرجل ؟ قل لى هذا أنت !

وأضاءت ابتسامةٌ فى وجهها المحتقن من الدموع ، والتمعت عيناها فى الظلام • وتابعت تقول :

ـ منذ قليل دخل صقر ، فتوقف قلبى عن الخفقان • وقال لى قلبى : « أيتها الغبية ، هذا هو ، هذا هو الرجل الذى تحبين ! » لقد دخلت أنت فاتضح لى كل شىء على حين فجأة • تساءلت : « ولكن ممَّ هو خائف ؟ » • ذلك أنك كنت خائفاً ، وقد بلغت من الخوف أنك لم تستطع حتى أن تتكلم • قلت فى سرى : « ليس خائفاً منهم مع ذلك » • أنت لا يمكن أن ترتجف أمام شخص آخر ، اننى أعرف ذلك حق المعرفة • وقلت لنفسى عندئذ : « انه خائف منى ، منى أنا وحدى » ؟ اذ لا شك أن فينيا قد روت لك ـ أليس كذلك أيها الأحمق ؟ ـ كيف أننى هتفت أقول لأليوشا ، من النافذة ، اننى قد أحببت ميتنكا مدة ساعة، واننى ذاهبة الآن ••• لأحب رجلاً آخر ! أوه ! ميتيا ، ميتيا ، كيف أمكننى أن أصدق أننى أستطيع أن أحب رجلاً آخر بعدك ؟ ما كان أغبانى ! اغفر لى يا ميتيا ؟ هل ستغفر لى ؟ هل تحبنى ؟ هل تحبنى ؟

نهضت جروشنكا بهمة وقوة ، ووضعت يديها على كتفيه • أصبح ميتيا أخرس من فرط السعادة ، فكان لا يزيد على أن ينظر الى عينيها ، ووجهها ، وابتسامتها ••• ثم عانقها فجأة وغمرها بالقبلات •

ـ هل ستغفر لى أننى عذبتك ؟ لقد عذبتكم جميعا ، من فرط غضبى وحسرتى ! وبدافع الشر وحده جعلت العجوز مجنوناً بحبى••• هل تتذكر كيف حطمتِ فى بيتى قدحاً ، فى ذات يوم ، بعد أن شربت؟ لقد تعلمت أنا هذه الحركة ، فحطمت اليوم قدحاً وأنا أشرب « نخب

قلبى الجبان ! » . ميتيا ، صقرى ، لماذا لا تقبّلنى ؟ لقد قبلتنى مرةً ثم أمسكت . انك تنظر الىّ ، وتصغى الىّ ... ما قيمة الاصغاء الىّ ؟ قبلنى ، بمزيد من القوة ، بمزيد من القوة ، هكذا ، ما دمت تحبنى ! ... لأكونن بعد اليوم عبدة لك ، مدى الحياة ! ما أحلى أن أكون عبدة ... قبلنى أيضا ! اضربنى ! عذبنى ! افعل بى ما شئت ... لأننى أستحق أن تعذبنى ... لا ... انتظر ! نؤجل هذا ! لا أريد الآن .

قالت له ذلك ودفعته عنها فجأة . وأردفت تقول :

ـ اذهب يا ميتيا ، سأشرب الآن خمراً ، أريد أن أسكر ، وسأرقص بعد ذلك ، أريد هذا ، أريد هذا !

وتخلصت من عناقه وغابت وراء الستائر . تبعها ميتيا . كان كالسكران . « ما قيمة ما سيحدث فيما بعد ، ما قيمة ما سيحدث فيما بعد؟ لدقيقة كهذه الدقيقة خير من الكون كله » . بهذا حدّث ميتيا نفسه . شربت جروشنكا كأساً أخرى من الشمبانيا سرعان ما صعدت الى رأسها. جلست على المقعد ، فى مكانها السابق ، وهى تبتسم ابتسامة غبطة وهناءة وسعادة . احمرّت خداها ، احترقت شفتاها ، اضطرب نظرها . وفى عينيها الساطعتين ، كان يُقرأ نداء محموم جامح . كالجانوف نفسه اضطرب من ذلك ، كأن شيئاً قد لسع قلبه ، فاقترب منها . سألته :

ـ هل أحسست بالقبلة التى وهبتها لك حين كنت نائماً . أوه ! أحس أنى سكرى ... وأنت ؟ ألم تسكر ؟ لماذا لا يشرب ميتيا ؟ ميتيا ، يجب أن تشرب ! أنا شربت وأنت لا تشرب .

ـ أنا ؟ أنا سكران بغير شراب . سكران بك ... ولكننى أريد أن أسكر بالخمر أيضا .

وأفرغ ميتيا فى جوفه كأساً آخر ، فاذا بهذه الكأس الأخيرة تفجّر السكر فيه دفعةً واحدة ، على حين أن الكئوس السابقه لم تحدث أثراً ... شيء غريب ! أخذ كل شيء يدور فى رأســـه منذ تلك اللحظة ، فكأنه فى حالة هذيان . انه الآن يمشى ، ويضحك ، ويكلم كل من يلقاه، خارجاً عن طوره . وفى بعض اللحظات كانت تستيقظ فى قلبه عاطفــة حارة ثابتة « تحرقه حرقاً كجمرة » كما قال فيما بعد . وكان يقترب من جروشنكا ، ويجلس الى جانبها ، وينظر اليها ، ويسمع لكلامهـــا ... أما جروشنكا فقد أصبحت تتدفق فى هذرها تدفقاً رهيباً ؛ وهى تنـــادى الناس اليها ، وتستدعى بنتاً من بنات الجوقة ، حتى اذا دنت البنت منهـــا أخذت تقبلها أو رسمت عليها اشارة الصليب ، حتى لتوشك أن تجهش باكية . وكان يفرحها ويضحكها « العجوز الصغير » خاصـــةً (هكذا كانت تسمى ماكسيموف) . انه يهرع اليها فى كل لحظة ليقبّل يدها ، لاثماً كل اصبع من « أصابعها الصغيرة العزيزة » ، واحدةً بعد أخرى . وانتهى به الأمر الى أن أخذ يرقص من جديد على لحن قديم دندنه بصوته. وقد رقص بحماسة خاصة على اللازمة التى كانت تتكرر :

الخنزير الصغير ، كريو ــ كريو
العجل الصغير ، مو ــ مو
البطة الصغيرة ، قوا ــ قوا
الأوزة الصغيرة ، جا ــ جا
والدجاجة الصغيرة تركض فى الغرفة
منادية صغارها : تيوريو ــ ريو ــ ريو

قالت جروشنكا :

ــ هلاّ أعطته شيئا يا ميتيا ! اهد اليه هدية . انه فقير . أوه ! رباه!

يا لهؤلاء الأشقياء جميعاً ، يالهؤلاء المذلّين جميعاً ! ... هل تعلم يا ميتيا؟ أريد أن أدخل الدير ! بلى ! بلى ! سأدخل الدير ذات يوم . لقد كلمني اليوم أليوشا بطريقة لن أنساها ما حييت ، لن أنساها ماحييت . أما الآن فلنمرح ! اليوم سرور وغداً دير ! أود أن أقوم بأعمال جنونية ! ولسوف يغفر لى الرب . أى ضير فى أن نتسلى أيها الناس الطيبون ؟ لو كنت أنا الله ، اذن لغفرت لجميع الناس ، ولقلت لهم : « يا أعزائى الخاطئين ، قد عفوت عنكم منذ اليوم . » . ولسوف أمضى أطلب الغفران من الجميع قائلة لهم : « أيها الناس الطيبون ، اغفروا لامرأة مسكينة حمقاء غبية ! ». ذلك ما سأقوله لهم . أنا وحش مفترس نعم . ولكننى أريد أن أصلّى . لقد وهبت بصلة أنا أيضاً . اننى ، أنا الشقية ، أريد أن أصلّى ! دعهم يرقصون يا ميتيا ، لا تعكر سعادتهم ! جميع الناس طيبون ، جميعهم بغير استثناء ! آه ! ما أحلى أن يحيا المرء فى هذا العالم ! نحن شريرون ، ولكن الحياة جميلة جداً ... فينا الخير والشر ، الخير والشر فى آن واحد... قولوا لى أنتم جميعاً ! يجب أن أسألكم هذا السؤال ! اقتربوا وقولوا لى : لماذا أناطيبة الى هذه الدرجة ؟ اننى طيبة فعلاً ، فقولوا لى ، اشرحوا لى : لماذا أنا طيبة الى هذه الدرجة ؟

بهذا الكلام كانت تدمدم جروشنكا ، مغرقة فى الهذر المضطرب مزيداً من الاغراق سيئا بعد سيء ، الى أن أعلنت أخيراً أنها تريد أن ترقص هى نفسها ، ونهضت عن كرسيها مترنحة .

ـ ميتيا ، امنعنى من أن أشرب أكثر مما شربت . اذا طلبت خمراً فلا تعطنى ! يحمل الكحول الى النفس السكينة والهدوء . ان كل شيء يدور الآن أمامى ، الغرفة والمدفأة ! أريد أن أرقص ... فلينظر الىّ الجميع ، وليعجبوا برقصى ...

كان هذا من جروشنكا عزماً أكيداً وقراراً حاسماً . أخرجت

منديلاً أبيض من نسيج ناعم رقيق ، وأمسكته من أحد أطرافه بيـــدها اليمنى لتلوّح به أثناء الرقص • تحرك ميتيا هنا وهناك • صمتت البنات، وتهيأن لأن يصدحن بلحنٍ يرافق الرقص جوقةً واحدة عند أول اشارة• وحين علم ماكسيموف بأن جروشـــنكا سترقص ، راح يطلق صرخات متتابعة من فرط حماسته ، وأخذ يتواثب أمامها ، وطفق يدندن :

ساقاها دقيقتان ووركاها مدوران
ولكن ذيلها كالبوق

أبعدته جروشنكا عنها بحركة من منديلها ، قائلة :

ـ شت ! لماذا لا يجيئون يا ميتيا ؟ فليهرعوا جميعاً •• لرؤيتى ••• ونادهما هما أيضاً ، ناد المحبوسين ••• لمـــاذا حبستهما ؟ قل لهما اننى أريد أن أرقص • فليجيئا هما أيضاً ، ليعجبا لى !

اتجه ميتيا نحو الباب المقفل بالمفتاح ، مترنح الخطى من السكر ، وأخذ يقرع الباب بقبضة يده ليلفت انتباه البولنديين •

ـ هيه ! أنتما ••• اخرجا ••• انها سترقص وهى تناديكما •

فصاح أحد « السيدين » البولنديين يجيبه بالبولندية :

ـ لا جداك (شقى) !

فأجابه ميتيا :

ـ وما أنت الا « لا جداك » حقير صغير ••• ذلك أنت !

قال كالجانوف وقد ثمل هو أيضاً ، قال بلهجة تتكلف الوقار :

ـ هلا كففتم عن اهانة بولندة ؟

ـ اسكت ايها الفتى الصغير ! اننى اذ وصفته بأنه شقى ، لم أهن

بولندة كلها . ليس مختال" تافه كل" بولندة . صمتاً أيها الطفل اللطيف، لسوف أعطيك ملبسة .

قالت جروشنكا مدهوشة وهى تتقدم الى أمام لترقص :

ـ يا للأشرار ! أليس فيهم شيء من انســـانية ؟ لماذا يرفضون أن يتصالحوا ؟

غنت الجوقة لحناً شعبياً . رفعت جروشنكا رأسها ، وفتحت شفتيها، وابتسمت ، ولوّحت بمنديلها ، ثم توقفت فجأة وهى تتمايل تمايلاً قوياً فى وسط الغرفه ، وتشعر بارتباك شديد . وأنّت تقول بصـــوت أليم :

ـ أحس بوهن . معذرة . انى ضعيفة جداً ... لا أستطيع ... أوه ... هى غلطتى .

وحيّت الجوقة ، ثم حيّت جميع الحضور وهى تلتفت الى جهات الغرفة الأربع جهة بعد جهة ، وتردد قولها :

ـ لا تؤاخذونى ... لا تؤاخذونى !

قالت بعض الأصوات فى الجمهور :

ـ أسرفت فى الشراب ، السيدة الشابة ! .. هى سكرى ، السيدة اللطيفة ...

وقال ماكسيموف يشرح للبنات ضاحكاً :

ـ السيدة ثملة قليلاً .

ودمدمت جروشنكا تقول بصوت منطفىء :

ـ ميتيا ... خذنى من هنا ... انقلنى من هنا .

فهرع ميتيا اليها ، فتناولها بذراعيه ، وأسرع يركض بحمله الثمين الى ما وراء الستائر . قال كالجانوف لنفسه : « فى هذه المرة ، آن أوان الانصراف » ، وغادر الغرفة الزرقاء مغلقاً الباب وراءه . وتتابع الاحتفال بصخب ما ينفك يشتد . وضع ميتيا صاحبته جروشنكا على السرير ، وقبلها قبلة محمومة على الفم . دمدمت تقول بصوت ضارع :

ـ لا تلمسنى ، لا تلمسنى ، أنا لست لك بعـــد ... قلتُ اننى سأكون لك ، ولكن لا تلمسنى ... ارحمنى ، اشفق علىّ ... لا تفعل شيئا الآن ، بينما هم لا يزالون هنا . ما ينبغى هذا ... انه هناك ، على بعد خطوتين ... أوه ! هذا فظيع هنا ..

قال ميتيا متعثراً فى كلامه :

ـ اننى أطيعك ... لم يخطر ببالى هذا ... أنا أمامك فى نشوة ووجد . نعم ، هذا فظيع هنا . يا للمكان الموبوء !

ودون أن يدع عناقها ، تهالك على قدميه ، قرب السرير .

قالت جروشنكا بصوت رخو :

ـ أنا واثقة بك . أعرف أنك متوحش ، ولكن نفسك نبيلة . يجب أن يجرى كل شىء بشرف بعد الآن ... أريد أن يكون كل شىء طاهراً ... وأن نكون شرفاء أيضاً ... لا بهائم ، بل بشراً طيبين انقياء طاهرين ... خذنى الى مكان بعيد ، بعيد جداً عن هنا ، هل تسمع ؟ لا أريد بعد الآن أن أعيش هنا ... أريد أن أسافر الى مكان بعيد ... بعيد جداً .

قال ميتيا مؤيداً وهو يشدها الى قلبه :

ـ نعم ، سنسافر ... سآخذك ... سأطير بك ! ... اننى مستعد

لأن أهب حياتي كلها في سبيل سنة واحدة من سعادة ، شريطة أن أعلم ماذا جرى لذلك الدم ...

سألته جروشنكا مندهشة :

ـ أي دم ؟

فأجابها ميتيا وهو يصرف بأسنانه :

ـ لا شيء ... انك تريدين يا جروشنكا أن نكون شرفاء ، ولكنني أنا لص . لقد سرقت مال كاتنكا ! ... يا للعار ! ... يا للعار !

ـ كاتنكا ؟ الآنسه ؟ لا ... لم تسرق شيئاً ! ردَّ اليها مالها . خذ مالي أنا ... ما بك ؟ ان كل ما أملكه أنا هو الآن لك . ما حاجتنا الى المال ؟ سوف نبدده على كل حال في القصف واللهو . ان أمثالنا لا يحسنون الاحتفاظ بالمال . انني لأوثر أن نحرث الأرض معاً . أريد أنا أن أعمل في الأرض بهاتين اليدين اللتين تراهما . ان من واجبنا أن نعمل ، هل تسمع ؟ أليوشا هو الذي شرح لي ذلك . لن أكون خليلتك ، بل حليلتك ، زوجتك الوفية ، عبدتك المخلصة ... سأتعب وأجهد في سبيلك ... سوف نذهب الى الآنسة ، فننحني لها بتحية عظيمة حتى تغفر لنا قبل رحيلنا . واذا لم تغفر ، فسنرحل مع ذلك . أما المال فسترده اليها . ان عليك أن تحبني أنا ... لا أريد أن تحبها هي ! ... انني أمنعك من أن تحبها ... والا فلأخنقنّها ... لأفقأنَّ عينيها بابرة طويلة ...

ـ أنت من أحب ، أنت وحدك ، وسأظل أحبك من آخر سيبريا . *

ـ لماذا تتكلم عن سيبريا ؟ لا بأس ! سنسافر الى سيبريا اذا كنت ترغب في ذلك ... ان في وسعنا أن نعمل هناك كما في أي مكان آخر

... ان فى تلك البلاد ثلجاً كثيراً ... وأنا أعشـــق الثلج ، وأعشق الزلاجات التى تنزلق عليه سريعه مجلجلةً أجراسُها . هل تسمع ؟ لكأن جرساً يرن بى مكان ما . من أين يأتى رنين هذا الجرس ... لا شك أنهم مسافرون قد وصلوا الى النزل ... انقطع الصوت الآن .

وأغمضت جروشنكا عينيها ، متعبة الى أقصى حدود التعب ، وغفت بضع لحظات . كان جرس قد رنّ فعلاً فى بعيد ثم صمت . مال ميتيـا برأسه على صدر جروشنكا . لم يكن قد انتبه الى صوت الجرس والى انقطـــاع رنينه فجأة ؛ لا ولا لاحظ أن الأغانى قد توقفت وأن الصخب الذى كان يسيطر على النزل حتى ذلك الحين قد حلّ محله فجأة صمت كصمت الموت . وفتحت جروشنكا عينيها بعد دقيقة . قالت :

ـ ماذا يجرى ؟ أأنا نمت ؟ نعم ... ذلك الجرس ... لقد نمت وحلمت بأننى محمولة على زلاجة فوق الثلج ... كان الجرس يرن ، وكنت أنا نائمة . كنت راكبة عربة ترويكا ، مع رجل عزيز فى قلبى ، معك أنت .وكنا ذاهبين الى مكان بعيد ، بعيد جداً ... وكنت أقبلك ، وأشد جسمى الى جسمك ، لأننى كنت أحس ببرد فيما يبدو ... وكان الثلج يسطع ... ما كان أعجبه من احســـاس ! الثلج الباهر ، وضـياء القمر ... لكأن ذلك لم يكن على الأرض ... واســـتيقظت ، فاذا أنا أراك ، يا حبيبى ، قريباً منى ... ما أحلى هذا ! ...

ردّد ميتيا كلامها قائلاً وهو يلثم ثوبها ، وعنقها :

ـ نعم ، قريباً منك كل القرب .

وأحس فجأة باحســـاس غريب : خيِّل اليه أنها تنظر الى أمام ، ولكن عينيها بدلاً من أن تستريحا على وجهه ، تتطلعان الى ما وراء رأسه،

في جمود عجيب • عبرّت قسمات جروشنكا عن الدهشة أولاً ، ثم عن الخوف •

ودمدمت تقول :

ـ ميتيا ! من ذا يرقبنا من وراء الستائر ؟

التفت ميتيا فاذا هو يلمح شخصاً يبدو أنه يرصدهما مبعداً الستائر ؛ حتى لقد أحسّ أن هناك عدة أشخاص يقفون هناك • فنهض من مكانه بسرعة وقوة ، واتجه نحو ذلك الشخص الفضولى • فاذا هو يسمع صوتاً يقول :

ـ هل تتفضل فتجيء الى هنا يا سيد •

كان المنادي المجهول يتكلم بصوت مخفوض ولكنه جازم قاطع •

خرج ميتيا من وراء الستائر ، فاذا هو يتجمد فى مكانه • كانت القاعة ملأى بالناس ، ولكن هؤلاء الناس ليسوا أولئك الذين كانوا يلهون ويقصفون منذ قليل • لقد احتل الغرفة أشخاص جدد • شعر ميتيا برعدة تسرى فى ظهره كله • ان ميتيا يعرف هؤلاء الأشخاص جميعاً ، وها هو ذا يتعرفهم الآن دفعة واحدة • ان الرجل العجوز السمين الطويل الذى يرتدى معطفاً ويضع على رأسه قبعة ذات ترس وشارات ، هو رئيس الشرطة ميشيل ماكاروفتش • وهذا الشاب الذى يوحى مظهره بأنه مصدور والذى يتأنق فى ملبسه تأنقاً عظيماً ويلتمع حذاؤه دائماً انما هو وكيل النيابة • « انه يملك ساعةً من ذهب قيمتها أربعمائة روبل • لقد أرانيها فى ذات يوم لأعجب بها » • أما ذلك الشاب الآخر القصير القامة الذى يضع على عينيه نظارتين ••• فلم يتذكر ميتيا اسمه ، ولكنه يعرفه أيضاً وقد سبق أن رآه : انه قاضي التحقيق الذى تخرج من « مدرسة الحقوق » منذ مدة غير طويلة • وهذا موظف الشرطة موريس ماكريفتش

الذى يعرفه ميتيا منذ زمن بعيد • ولكن ماذا جاء يفعل هنا هؤلاء الرجال الآخرون الذين يحملون على صـــدورهم صفائح معدنية * ؟ وهـــذان الفلاحان ؟ •• وبعد هؤلاء جميعاً ، لمح ميتيا ، عند فرجة باب المدخل ، كالجانوف وتريفون بوريستتش •••

قال ميتيا :

ـ ماذا أيها السادة ؟ ماذا جرى ؟

ولكنه لم يلبث أن هتف يقول فجأة بملء صوته ، كأنماتدفعه الى ذلك قوة سبيل الى مقاومتها :

ـ فـ •••همت !

تقدم الشاب ذو النظارتين من ميتيا وقال له بصوت وقور وبشيء من السرعة :

ـ كنا نريد ••• الخلاصـة ••• أرجـــوك أن تجلس هنا ، على الكنبة ••• ان علينا أن نلقى عليك بعض الأسئلة •

قال ميتيا خارجاً عن طوره :

ـ العجوز ••• والدم المسفوح ••• فـ ••• همت !

وكأنما انهــارت قواه على حين فجـأة ، فتهــالك على كرسيٍ كان هناك •

فاذا برئيس الشرطة العجوز يزأر فجأة وهو يقترب من ميتيا :

ـ آ ••• فهمت ؟ فهمت ؟ يا قاتل أبيه ! أيها الشيطان ! ان دم أبيك يتهمك !

كان رئيس الشرطة أحمر الوجه من شدة الغضب ، وكان جسمه كله يرتجف •

فصاح الشاب القصير القامة :

ـ ولكن هذا طيش يا ميشيل ماكاروفتش . يجب أن أكون أنا أول المتكلمين ... ما كنت أتوقع منك سلوكا كهذا السلوك .

فاستأنف رئيس الشرطة كلامه قائلاً :

ـ هذا هذيان ... هذا مشهد هذيان . انظروا اليه ... تضرج بدم أبيه ثم هو يقضى السهرة لاهياً عابثاً ماجناً فى صحبة بنت من بنات الهوى ... هذا هذيان ، هذا هذيان ...

أسرع وكيل النيابة يهمس فى أذن رجل الشرطة العجوز قائلا :

ـ أرجوك وألح فى الرجاء أن تسيطر على انفعالاتك يا عزيزى ميشيل ماكاروفتش ، والا اضطررت أن أتخذ اجراءات من أجل أن ..

ولكن قاضى التحقيق الصغير لم يدع له أن يتم جملته ، فها هو ذا يتجه الى ميتيا ، ويعلن له بوقار ، وبصوت عال صارم :

ـ أيها السيد الملازم المتقاعد كارامازوف ، ان من واجبى أن أبلغك أنك متهم بمقتل أبيك فيدور بافلوفتش كارامازوف ، الذى قُتل فى هذه الليلة ...

وأضاف قاضى التحقيق بضع كلمات أيضاه واستأنف وكيل النيابة كلامه بعد ذلك ، فيما تراءى لميتيا ... ذلك أن ميتيا ، رغم أنه قد جهد أن يصغى ، أصبح لا يفهم شيئا ، وانما هو يتفرس وجوههم مجنون العينين ...

فصاح الشاب القصير القامة :

ـ ولكن هذا طيش يا ميشيل ماكاروفتش • يجب أن أكون أنا أول المتكلمين ••• ما كنت أتوقع منك سلوكا كهذا السلوك •

فاستأنف رئيس الشرطة كلامه قائلاً :

ـ هذا هذيان ••• هذا مشهد هذيان • انظروا اليه ••• تضرج بدم أبيه ثم هو يقضى السهرة لاهياً عابثاً ماجناً فى صحبة بنت من بنات الهوى ••• هذا هذيان ، هذا هذيان •••

أسرع وكيل النيابة يهمس فى أذن رجل الشرطة العجوز قائلا :

ـ أرجوك وألح فى الرجاء أن تسيطر على انفعالاتك يا عزيزى ميشيل ماكاروفتش ، والا اضطررت أن أتخذ اجراءات من أجل أن ••

ولكن قاضى التحقيق الصغير لم يدع له أن يتم جملته ، فها هو ذا يتجه الى ميتيا ، ويعلن له بوقار ، وبصوت عال صارم :

ـ أيها السيد الملازم المتقاعد كارامازوف ، ان من واجبى أن أبلغك أنك متهم بمقتل أبيك فيدور بافلوفتش كارامازوف ، الذى قُتل فى هذه الليلة •••

وأضاف قاضى التحقيق بضع كلمات أيضاً واستأنف وكيل النيابة كلامه بعد ذلك ، فيما تراءى لميتيا ••• ذلك أن ميتيا ، رغم أنه قد جهد أن يصغى ، أصبح لا يفهم شيئا ، وانما هو يتفرس وجوههم مجنون العينين •••

الباب التاسع: التحقيق التمهيدي

١

البدايات الموفقة للموظف برخوتين

إنّ بطرس ايلتش برخوتين الذى تركناه يطرق بطرقات ما تنفك تزداد وتقوى ، على الباب السميك من منزل آل موروسوف ، قد توصل طبعا الى أن يحملهم على أن يفتحوا له • وحين سمعت فينيا هذا الصخب أمام باب الدخول ، وكانت لما تفق بعد من الذعر الذى أصابها قبل ساعتين ، ولا عزمت أمرها على أن تنام ، من شدة اضطرابها ، حين سمعت فينيا هـذا الصخب استبد بهـا هلع قاتل مرة أخرى : ذلك أنها ظنت أن دمترى فيدوروفتش قد عاد (رغم أنها رأته يسافر على عربة ترويكا) • لقد قالت فينيا لنفسها : « أى انسان غيره يمكن أن يطرق الباب بمثل هذا العنف ؟ » • وهرعت الى البواب الذى أيقظته الضجة وهم أن يفتح الباب ، فتوسلت اليه أن لا يسمح لأحد بالدخول • ومع ذلك سأل البوابُ الطارقَ عن اسمه من خلال الباب، فلما عرف صفته ، وعرف أنه يريد أن يكلم فيدوسيا ماركوفنا فى أمر هام جدا ، قرر أن يفتح له •

مضى بطرس ايلتش رأساً الى المطبخ ليرى فينيا التى أصرّت ، من باب الحفاظ على الشكل ، أن يحضر البواب المقابلة • أخذ الموظف يلقى الأسئلة على المرأة ، فسرعان ما وقع على أمرٍ أساسى : هو أن دمترى

فيدوروفتش حين مضى يسعى الى جروشنكا قد أخذ مدقّ الهاون ، وأنه رجع بعد ذلك دامى اليدين ولم يكن المدق معه .

ـ كان الدم يسيل ويتساقط قطرات كبيرة على الأرض .

كذلك هتفت تقول فينيا التى اخترع خيالها المضطرب هذا الوصف التفصيلى الرهيب اختراعا على غير شعور منها . وكان بطرس ايلتش قد رأى الدم فى يدى ميتيا بنفسه على كل حال ، وان لم يكن يسيل ، وقد ساعده على غسل يديه . ولم يكن يهمُّ بطرس ايلتش أن يتساءل على كل حال : أجفّ الدم بسرعة أم لا ، وانما كان يهمه أن يعرف : ماذا فعل دمترى فيدوروفتش بمدق الهاون هذا ، والى عند من ذهب ؟ هل يمكن أن يُستدل من ذلك على وجه اليقين أنه ذهب الى منزل أبيه، وعلى أى شىء يستند هذا الاستدلال ؟ لذلك ألحّ بطرس ايلتش على هذه النقطة الحاحاً خاصاً ؛ ثم انتهى الى الاقتناع التام ، رغم أن فينيا لم تقدم اليه أية قرينة واضحة دقيقة ، بأن دمترى فيدوروفتش لا يمكن أن يكون قد ذهب الا الى منزل أبيه وأن « شيئاً ما » لا بد أن يكون قد حدث هنالك حتماً .

أضافت فينيا تقول متأثرةً أشد التأثر :

ـ حين رجع ، قصصت عليه كل شىء ، ثم سألته بعد ذلك لماذا أرى يديه داميتين ، فأجاب بأن هذا دم انسانى ، وبأنه قد قتل انسانا منذ برهة. اعترف لى بذلك فى هذا المكان نفسه ، فى هذا المطبخ ، ثم ولّى هارباً كمجنون. وأخذت أفكر بعد انصرافه : « الى أين يركض هذا الركض؟ لا شك أنه ينوى أن يسافر الى موكرويه ليقتل مولاتى » ، فاندفعت ألاحقه ، لأتوسل اليه أن لا يسىء الى الآنسة المسكينة ؛ وكنت آمل أن أجده فى مسكنه ، ولكننى لمحته أمام متجر آل بلوتنيكوف وهو يهم أن

يسافر ، وكانت يداه عندئذ نظيفتين (لقد لاحظت فينيا هذا الأمر التفصيلى وحفظته) •

وقد أكدت جدة فينيا العجوز أقوال حفيدتها على نحو ما استطاعت أن تفعل • وبعد أن ألقى بطرس ايلتش بضعة أسئلة أخرى خرج من المنزل وهو أشد اضطرابا وقلقا مما كان عند وصوله اليه •

ربما بدا أن أبسط شيء الآن هو أن يذهب بطرس ايلتش الى منزل فيدور بافلوفتش مستطلعا هل حدث له شيء ، وأن لا يبلغ رئيس الشرطه الا بعد ذلك ، مستنداً الى معلومات ثابتة • وهـــذا ما خطر ببال بطرس ايلتش فى أول الأمر فعلاً • ولكن الليل حالك الظلام ، وأبواب منزل كارامازوف لا بد أن تكون سميكة ، فسيكون عليه اذن أن يطرق من جديد ، وأن يحدث ضجة وصخباً ، وهو لا يعرف فيدور بافلوفتش الا قليلا جدا • فما عسى يحدث اذا قيل له ، بعد أن يفتح له الباب ، ان شيئاً لم يقع ؟ ان فيدور بافلوفتش الساخر لن يفوته أن يروى للمدينة كلهـا فى الغد ، من باب التندر ، أن الموظف برخوتين ، الذى ليس بينه وبينه صلة ولا معرفة ، قد اقتحم منزله عند منتصف الليل ليسأله هل قتله أحد• ليكونن هذا فضيحة ! وبطرس ايلتش لا يرهب شيئاً فى هذا العالم كما يرهب الفضيحة ! غـــير أن العاطفة التى كانت تدفعه الى العمل والحركة قد بلغت من القـــوة أنه بعـد أن قرع الأرض بقدمه غاضبا وشتم نفســه ، أسرع يتخذ قراراً جـديدا : هو أن يذهب لا الى دار فيـدور بافلوفتش بل الى السـيدة هوخلاكوفا • ســوف يسألها هل صحيح أنها أعطت دمترى فيدوروفتش ثلاثة آلاف روبل منذ بضع ساعات ، فاذا أجابته بالنفى ذهب الى رئيس الشرطة لا يلوى على شيء ولا يمر بمنزل فيدور بافلوفتش ؟ والا أرجأ مساعيه الى الغد ورجع الى بيته • واضـح أن بطرس ايلتش حين يذهب فى الساعة الحادية عشرة من الليل الى

سيدة من سيدات المجتمع لا يعرفها ، وقد يحملها على النهــوض من سريرها ليلقى عليها سؤالا قد يبدو فى مثل هذه الظروف سخيفا مضحكا انما يتعرض لاحداث فضيحة أكبر من فضيحه ذهابه الى فيدور بافلوفتش. غير أن تناقضات من هذا النوع قد يرتكبها ، فى ظروف كهذا الظرف ، أشخاص هم أكثر الناس بروده نفس وروية تفكير . فما بالك وقد فقد بطرس ايلتش فى تلك اللحظة كل برودته وكل رويته ! لسوف يظــل يتذكر طوال حياته كيف أن قلقاً لا سبيل الى التغلب عليه قد اجتاح نفسه شيئاً بعد شىء ، ثم استحال أخيراً الى عذاب حاد دفعه فى تلك الليلة الى أن يتحرك ويتدخل ، على غير ارادة منه تقريبا . والحق أنه قد اســتاء وغضب أثناء الطريق ، وقرّع نفسه على أنه سيزعج هذه السيدة ، ولكنه حلف « ليسيرنّ الى آخر الشوط ، مهما كلف الأمر » ، وردد ذلك عشر مرات وهو يصرف بأسنانه . وقد برّ بيمينه ، فمضى الى آخــر الشــوط فعلاً .

كانت الساعة هى الحــادية عشرة تماما حين دخــل منزل السيدة هوخلاكوفا . لقد فُتح له الباب بغير مشقة ، ولكن البواب لم يستطع أن يقول له على وجه اليقين أرقدت السيدة أم لا ، واكتفى بأن ذكر له أنها تنام عادةً فى مثل هذه الساعة . وأضاف يقول له :

ــ اصعد الى فوق ، وأعلن عن نفسك ، فاذا شاءت استقبلتك ، فكل شىء رهن بارادتها .

صعد بطرس ايلتش الى الطابق الأول . وهنــالك أخــذت تتعقد الأمور . رفض الخادم أن يبــلغ السيدة هوخــلاكوفا وصوله ، ونادى الخادمة . فرجاها بطرس ايلتش ، بأدب ولكن بالحاح ، أن تبلغ السيدة هوخلاكوفا أن الموظف برخوتين يريد أن يكلمها حالاً ، وأنه ما كان له

أن يزعجها لولا أن الأمر الذى يريد أن يكلمها فيه هو على جانب عظيم من الخطورة حقا !

ـ انقلى اليها هذه الكلمات نقلاً دقيقا !

بذلك أوصى برخوتين الخادمة حين مضت تبلغ مولاتها .

انتظرَ بطرس ايلتش فى الدهليز . وكانت السيدة هوخلاكوفا فى غرفة نومها ، ولكنها لم تكن قد نامت بعد . لقد هزتها زيارة ميتيا ، وهى تتنبأ بأنها لن تنجو فى هذه الليلة من الصداع الشديد الذى يلم بها عادة فى أعقاب انفعالات من هـذا النوع . فلما سمعت ما قالته لها خادمتها دُهشت ، ومع ذلك أمرت خادمتها ، بلهجة حانقة ، أن تصرف هـذا الزائر الذى يجىء فى غير أوان الزيارة ، أمرت خادمتها بذلك رغم أن مجىء « الموظف برخوتين » اليها فى مثل هذه الساعة ، على غير توقع ، قد أثار فيها فضولاً قوياً . ولكن بطرس ايلتش عَنَدَ فى هذه المرة عناد بغل . فلما علم أن السيدة هوخلاكوفا ترفض استقباله ، طفق يلحُّ من جديد الحاحاً شديدا على أن تنقل الخادمة الى مولاتها أقواله حرفاً حرفاً : وهى أنه جاء « لأمر يبلغ من خطورة الشأن أن السيدة قد تندم اذا هى لم تستقبله . . » . وقد روى فيما بعـد أنه أحسَّ فى تلك الدقيقـة أنه « يسقط فى هاوية » . تفرست فيه الخادمة مندهشة ، وأسرعت تقـوم بالواجب الذى عهد اليها أن تقـوم به . ذُهلت السيدة هوخـلاكوفا ، وفكرت بضع لحظات ، وسألت عن مظهر الزائر ، فقيل لها انه « حسن الهندام ، شاب ، مهذب جدا » . يجب أن نذكر هنا عابرين أن بطرس ايلتش فتى جميل جدا ، وانه كان شاعراً بذلك . عندئذ قررت السيدة هوخلاكوفا أن تسمع له . واذ كانت بثوب المنزل والخفين ، فقـد ألقت على كتفيها شالاً أسود . وأُدخل الموظف الى الصالون ، حيث استُقبل

دمترى فيدوروفتش قبل بضع ساعات . تقدمت ربة المنزل نحو الزائر بوجه متجهم مستجوب ، وسألته دون أن تدعوه الى الجلوس :

ـ ماذا تريد منى أيها السيد ؟

فبدأ برخوتين كلامه قائلاً :

ـ لقد جازفت فجئت أزعجك فى أمر يتعلق بصديقنا المشترك دمترى فيدوروفتش ...

ولكن ما ان نطق بهذا الاسم حتى ارتسم على وجه السيدة هوخلاكوفا حنق شديد ، فهمت أن تصرخ ، ولكنها أمسكت ، وقاطعت محدثها قائلة له بلهجة عنيفة هائجة :

ـ الى متى ، الى متى أظل أعذب بسبب هذا الانسان الفظيع ؟ كيف تجرأت أيها السيد ، كيف سمحت لنفسك أن تزعج سيدة لا تعرفها ، أن تجيء تضايقها فى منزلها ، فى مثل هذه الساعة ... متحدثا اليها عن شخص أراد منذ ثلاث ساعات ، فى هذا الصالون نفسه ، فى هذا المكان نفسه ، أن يقتلها ... وقرع الأرض بقدمه ، ثم خرج بطريقة ما كان لأحد أن يسمح لنفسه بمثلها فى منزل محترم ! اعلم أيها السيد أننى سأشكوك الى رؤسائك ... أننى لن أسكت لك عن هذه الوقاحة ... وأرجوك أن تخرج من مسكنى فورا .. أنا أم .. وأنا .. أنا ...

ـ أراد أن يقتلك ؟ أأراد أن يقتلك أنت أيضا ؟

ـ هل قتل اذن أحداً ؟

كذلك سألت السيدة هوخلاكوفا بحرارة . فأجابها برخوتين بصلابة :

ـ اذا وافقت على أن تسمعى لى ، ولو نصف دقيقة ، يا سيدتى ،

شرحت لك كل شيء في بضـــع كلمات • في هـذا اليوم ، في الساعة الخامسة بعد ظهر هذا اليوم ، جاء الىّ السيد كارامازوف ورجاني رجاء الصديق أن أقرضه عشر روبلات • وأنا أعلم علم اليقين أنه كان في تلك اللحظة خالي الوفاض ؛ وفي هذا اليوم نفسه ، في الساعة التاسعة ، رجع الىّ ممسكا بيديه حزمةً من أوراق مالية تقـــدر بألفي روبل أو بثلاثة آلاف روبل • وكانت يداه ووجهه ملطخة بالدماء ، وكان يتصرف تصرف مجنون • فلما سألته من أين أتى بهذا المال كله ، أجابني اجابةً واضحة دقيقة بأنه قد استلمه منك قبل لحظات ، وبأنك قد أعطيته ثلاثة آلاف روبل من أجل أن يسافر باحثاً عن مناجم الذهب فيما زعم •••

ظهرت على وجه السيدة هوخلاكوفا علائم انفعال شديد عنيف أليم • وصاحت تقول وهي تضم يديها احداهما الى الأخرى :

ـ يا رب السماء ! لقد قتل أباه العجوز ••• أنا لم أعطه مالاً قط ، لم أعطه مالاً قط ••• آه ••• أركض ، اركض بسرعة ، لا تقل كلمة واحدة أخرى ، لا تضيع الوقت ! انقذ أباه ، أسرع الى نجدته ، أنقذه !

ـ اغفري لي الحاحي يا سيدتي • أنت تؤكدين أنك لم تعطيه مالاً ، فهل ذكرياتك واضحه في هذه النقطة ؟

ـ لم أعطه شيئاً ، لم أعطه كوبكاً واحدا • رفضت أن أقرضه ، لأنه لم يقدر نواياي حق قدرها • وانصرف كمجنون مسعور قارعاً الأرض بقدمه • وقد هجم عليّ ، فلم يكد يتسع وقتي للاحتماء منه ••• واني لأسر اليك أيضا ، لأنني قررت أن لا أكتمك شيئاً بعد الآن ، أنه قـد بصق عليّ ، هل تستطيع أن تتخيـــل هذا ؟ اجلس ••• أرجـــوك ••• معذرة ••• أنا ••• لا بل اركض ، اركض بسرعـة • واجبك أن تنقذ العجوز المسكين من ميتة فظيعه •

ـ ولكن ما دام قد قتله وانتهى الأمر ...

ـ آ ... نعم ... رباه ! هذا صحيح ... نسيت ... فماذا نفعل الآن ؟ هل في ذهنك فكرة عما يجب أن نفعله ؟

ومع ذلك أجلست بطرس ايلتش وجلست أمامه . بسط لها بطرس ايلتش ، بايجاز ولكن بوضوح ، لبّ القضية ، في حدود ما شهده بنفسه في ذلك اليوم على الأقل. وروى لها أيضا أنه زار فينيا، وما ذكرته له عن مدق الهاون . فكان من شأن هذه التفاصيل أن هزّت السيدة الطيبة هزاً عنيفا فلم تستطع أن تحبس ، أثناء هذه القصة ، صرخات الارتياع والهول حتى أنها وضعت يديها أمام عينيها عدة مرات ...

ـ فظيع ... رهيب ! تصور مع ذلك أنني أوجست بالنبوءة كلّ شيء . لقد أُوتيت موهبة عجيبة في التنبؤ . وما أتنبأ به يتحقق لا محاله. كم من مرة قلت لنفسي وأنا أنظر الى هذا الرجل الكريه : « سيقتلني هذا الرجل أخيرا في ذات يوم.». وذلك ما وقع ... أقصد أنه اذا كان لم يقتلني بل قتل أباه ، فانما يرجع الفضل في ذلك الى تدخل العناية الالهية . لا شك أن الله قد حماني ونجاني في ذلك الحين . أضف الى ذلك أنه لم يجرؤ أن يقتلني لأنني كنت قد علقت في عنقه ، هنا في هذا المكان نفسه ، الأيقونة المقدسة الشهيدة عظيمة ... ولم يكن يخطر ببالي عندئذ أنني ألامس الموت ملامسة قريبة في تلك اللحظة . اقتربت منه ، ومسسته تقريبا ، فمدّ لي عنقه ... يجب أن أقول لك يا بطرس ايلتش (معذرة ، أليس اسمك بطرس ايلتش ؟) ، يجب أن أقول لك انني كنت لا أومن بالمعجزات حتى الآن ، ولكنني أشعر باضطراب شديد حين أتذكر أن تلك الأيقونة التي علقتها في عنقه قد أنقذتني بمعجزة من ميتة فظيعة ! آه ... رباه ! ... انني أحس بأنني متأهبة للايمان من جديد بكل شيء ... لا شك أنك تعرف قصة الأب زوسيما تلك ، أليس

كذلك ؟ أراني أتيه ، فلا أعرف ماذا أقول ••• تصور أنه ، رغم تلك الأيقونة ، قد بصق عليّ ••• بصق فحسب ، صحيح هذا ، ولم يقتلني ••• أهـذا اذن ما مضى يفعله بعد ذلك ؟ ماذا يجب أن نقرر الآن ، ما الذي يجب أن نعمله ، قل لي ؟

نهض بطرس ايلتش معلناً أنه سيذهب حالاً الى رئيس الشرطة ليطلعه على الأمر ، فيتولى رئيس الشرطة عمل ما يجب عمله •

ـ تذهب الى ميشيل ماكاروفتش ؟ انه رجل ممتاز ، ممتاز ، أنا أعرفه • انني أثق بسداد رأيه وصواب حكمه • ميشيل ماكاروفتش : ذلك هو بعينه الرجل الذي يجب ابلاغه الأمر • فكرتك رائعة ، وما كان لها أن تخطر ببالي أنا ، لو كنت في مكانك •

قال بطرس ايلتش ، وهو ما يزال واقفا ، محاولا أن يضع حداً لثرثرات هذه المرأة المهذار التي لا تدع له فرصة التفوه بكلمة واحدة ليستأذن بالانصراف ، قال :

ـ لا سيما وأنني أعرفه أنا أيضا معرفة شخصية •

تابعت السيدة هوخلاكوفا تقول دون أن تيأس :

ـ اسمع ، اسمع ، يجب أن تجيء الىّ حتماً لتطلعني على ما تكون قد علمته ••• على الوقائع التي أمكن أن تعرف ••• وكذلك على العقوبة التي سيُحكم بها • أظن أن الحكم بالاعدام لا وجود له عندنا ، أليس كذلك ؟ تعال الىّ حتما ، ولو في الساعة الثالثة من الصباح ، أو في الساعة الرابعة ، أو حتى في الساعة الرابعة والنصف • اطلب ايقاظي ، وليجروني من السرير جراً عند الحاجة ، اذا أنا أصررت على النوم ••• انني أقول سخافات على كل حال • أنّى لي أن أرقد بعد كل هذا ؟ تراودني فكرة : ما رأيك في أن أرافقك الى عند رئيس الشرطة ؟

ـ لا ••• لا داعى الى هذا يا سيدتى • ولكن اذا وافقت ، فى مقابل ذلك ، أن تكتبى لى ، بخط يدك ، تصريحا فى ثلاثة أسطر تشهدين فيه بأنك لم تعطى دمترى فيدوروفتش مالاً قط ، فأعتقد أن هذا يمكن أن يفيدنا ••• عند الاقتضاء •

صاحت السيدة هوخلاكوفا تقول واثبةً عن مكانها بحماسة ، متجهة الى مكتبها الصغير :

ـ طبعا ! طبعا ! هل تعلم أنك تدهشنى بسداد رأيك ، ونفاذ بصيرتك ؟ صدّقنى اذا قلت لك اننى معجبة أشد الاعجاب بما تبرهن عليه فى هذا المجال من حذق ومهارة ! أأنت تعمل موظفاً فى ادارة مدينتنا ؟ ما أسعدنى اذ أعرف أن سلطاتنا تملك معاونين أفذاذاً لهم مثل قيمتك !

وفيما كانت السيدة هوخلاكوفا تتكلم ، خطّت بسرعة ، على ورقة ، الأسطر التالية ، بأحرف كبيرة :

« لم أقرض دمترى فيدوروفتش ، العاثر الحظ ، ثلاثة آلاف روبل أبداً (ذلك أنه الآن شقى عاثر الحظ) • لم أقرضه كوبكا واحدا ، لا اليوم ، ولا فى أية لحظة أخرى ، أبدا أبدا • أحلف على هذا بكل ما هو عندى مقدس فى هذا العالم » •

هوخلاكوفا

ثم التفتت بقوة نحو بطرس ايلتش فقالت له :

ـ اليك تصريحى • فاسرع الآن • يجب انقاذ هذا الرجل • هذا عمل نبيل تقوم به •

ورسمت عليه اشارة الصليب ثلاث مرات ، ثم شيعته الى الدهليز •

ـ ما أعظم شكري لك ! لا تستطيع أن تتصور مدى امتناني منك لأنك جئت الي أولا ! خسارة أنني لم أعرفك قبل الآن ! لسوف يسعدني في المستقبل أن أستقبلك في منزلي . انه لما يعزي النفس ويشد الأزر أن تملك مدينتنا في شخصك موظفا له مثل كفاءتك وقيمتك ... موظف دقيق هذه الدقة ، حصيف هذه الحصافة خاصة ... أنا على يقين من أن رؤساءك يقدرونك حق قدرك . صدقني اذا قلت لك انهم سيفهمونك آخر الأمر ... واعلم على كل حال أنني مستعدة من جهتي لأن أقول كلمة طيبة في حقك كلما لزم ذلك ... أوه ! انني أحب الشباب ، انني مغرمة بالشباب حقا ! الشبيبة في أيامنا هذه هم قوة بلدنا العظيمة الشقية روسيا ! أنتم أملنا ... أنتم معقد رجائنا ... هيا ، هيا ، أسرع ...

ولكن بطرس ايلتش كان قد نزل الى الشارع ، والا لحبسته زمنا آخر . يجب أن نقول من جهة أخرى ان السيدة هو خلاكوفا قد أحدثت في نفسه أثرا ممتعا خفف عنه ما كان يشعر به من قلق لتدخله في قضية مزعجة . انكم تعلمون ان الأذواق في هذا العالم مختلفة متنوعة . قال بطرس ايلتش لنفسه راضيا مسرورا : « ليست متقدمة في السن كثيرا . كان يمكن بسهولة أن أحسبها ابنتها » .

١

أما السيدة هوخلاكوفا فقد افتتنت به افتتانا . « ما أروع هذا الحذق وهذه الدقة في شاب ، ذلك عدا آدابه الكيسة ومظهره اللطيف الجذاب ! تلك مزايا نادرة في هذه الأيام ! يدعون أن شبابنا اليوم لا قيمة له . فهذا مثال يبرهن على نقيض ما يدعون ، الخ ، الخ » . وقد انتهت السيدة هوخلاكوفا من ذلك الى نسيان « الحادث الفظيع » ، ولم تتذكر الا على سريرها أنها « لامست الموت ملامسة قريبة » . فدمدمت تقول : « شيء رهيب ، شيء رهيب » ، ثم لم تلبث أن نامت نوما عميقا هادئا . على أنني

ما كان لى أن أسهب فى ذكر هذه التفاصيل الثانوية ، لولا أن هذا اللقاء العجيب الذى يتم بين رجل شاب وأرملة ما تزال نضرة ، وهو هذا اللقاء الذى وصفته الآن ، انما كان نقطة انطلاق فى حياة هذا الموظف الدقيق المنظم • ان الناس فى مدينتنا ما يزالون حتى يومنا هذا يتكلمون عن هذا مندهشين ، وربما عرضت لنا فرصة أن نقول بضع كلمات عنه فى نهاية هذه القصة الطويلة التى نكتبها عن الاخوة كارامازوف •

٢

التبليغ

أن رئيس شرطنا ميتسيل ماكاروفتش ماكاروف ، وهو ليوتنان كولونيل محال على التقاعد ويحمل رتبة « مستشار قضائى » ، رجل أرمل يمتاز بأنه على جانب عظيم من الشهامة والطيبة . لقد استطاع منذ ثلاث سنين فى مدينتنا ، أن يكسب مودة جميع الناس له ، ولا سيما لما أوتى من موهبة فذة فى « جمع وجوه المدينة بمنزله » . يظهر أنه ما كان ليستطيع أن يعيش يوما واحدا دون أن يستقبل فى داره عددا من الأصدقاء . كان لا يخلو بيته يوما من ضيف على العشاء ، ولو كان عدد الضيف شخصا أو شخصين ؛ وما كان ليجلس أحد الى المائدة فى منزله بغير مدعوين . وكان يتفق له فى بعض الأحيان أن يولم ولائم كبيرة ، متعللاً بحجج كثيرة متنوعة ، حجج قد لا تخطر بالبال . ولئن لم تكن أصناف الطعام فاخرة لقد كانت وافرة . ومع ذلك كان لفطائر السمك التى تقدّم فى بيته شهرة ذائعة . وقد لا تكون أنواع الخمور أجود الأنواع ، ولكن كثرتها تنوب عن جودتها على كل حال .

ان الغرفة الأولى من مسكنه قد هيئت قاعةً للعب البلياردو ، وأُثّثت تأثيثاً أنيقا ، وازدانت جدرانها بصور خيول سباق انجليزية ، وتلكم هى

كما تعلمون الزينة المألوفة التي تزيّن كلّ قاعة بلياردو في منزل رجل عازب • وكان يُلعب بالورق كلّ مساء في منزل ميشيل ماكاروفتش ، وان يكن عدد اللاعبين محدوداً في كثير من الأحيان • على أن الاستقبالات التي تحضرها صفوة المجتمع من مدينتنا في منزله كانت كثيرة ، وكانت الأمهات تصطحب اليها بناتها ، لأنها كان يُرقص فيها • وكان ميشيل ماكاروفتش يعيش حياة عائلية رغم أنه أرمل ، في صحبة ابنته التي ترملت هي أيضا منذ مدة طويلة ، وفي صحبة حفيدتيه اللتين بلغتا مبلغ الرشد وأنهتا تحصيلهما • لم تكن الفتاتان دميمتين البتة ، وكانتا بما تنعمان بها من مرح الطبع وحسن المزاج تجتذبان شباب مدينتنا ، رغم أنه كان معروفا أنهما لا تملكان مهراً • ولم يكن ميشيل ماكاروفتش لامع الذكاء ، ومع ذلك كان يقوم بمهام عمله كما يمكن أن يقوم بها رجل آخر • واذا أردنا أن نقول الحقيقة وجب أن نذكر أنه كان ضئيل الحظ من الثقافة ، وكان قليل الاهتمام بالحدود الدقيقة التي تقف عندها صلاحياته الادارية • كان معنى بعض الاصلاحات * التي تحققت في النظام الجديد يغيب عنه ، وكثيرا ما كان يفسر هذه الاصلاحات تفسيراً يشتمل على أخطاء فادحة مذهلة ، لا لعجز منه بل لقلة اكتراث ، فانه لم يكن يجد في وقته متسعاً لدراستها دراسة عميقة • وكان يحب أن يقول عن نفسه : « ان لي روح رجل عسكري لا رجل مدني » • ورغم أنه كان من ملاّكي الأراضي ، فان ما علق بذهنه من معلومات تتعلق بالاصلاح الزراعي قد ظلت غامضة مبهمة ، وكانت هذه المعلومات تكتمل سنة بعد سنة ، على غير ارادة منه ان صح التعبير ، فانما هي تكتمل بالتجربة الناشئة عن الممارسة العملية •

كان بطرس ايلتش يعلم أنه سيلتقي عند رئيس الشرطة في ذلك المساء بضيوف ، ولكن كان يجهل من عسى يكون عنده من هؤلاء

الضيوف • ومن المصادفات أن ميشيل ماكاروفتش كان فى ذلك المساء يلعب بالورق مع النائب العام وطبيب المنطقة (الدكتور الشاب فارفنسكى الذى وصل من سان بطرسبرج مؤخراً وكان من أوائل متخرجى مدرسه الطب) • فأما النائب العام هيبوليت كيريلوفتش ـ وكان يسمى نائباً من قبيل المجامله ، لأنه لم يكن فى الواقع الا وكيل نيابة ـ فهو رجل على حدة ، ما يزال شاباً ، لم يكد يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره ، فيه استعداد للاصابة بمرض السل ، متزوج امرأةً سمينة عاقراً • انه شديد الشعور بكرامته وكبريائه ، سريع الغضب والحنق ، ولكنه يملك مزايا واضحة من حسن الذكاء ونبل القلب • يبدو أن آفة طبعه الأساسية ناشئة عن أنه مبالغ فى تقدير قيمته ، فهذا التباين بين كفاءاته الواقعية وبين رأيه فى نفسه كان يخلق له حالة قلق مستمر • وكانت له مطامح عليا ، بل ومطامح فنية ، وكان يعتز خاصة بمقدرته فى علم النفس ، فهو يعتقد أنه أوتى مواهب خاصةً فى النفاذ الى أسرار النفس الانسانية ، وفى اكتشاف البواعث العميقة لدى المجرمين • وكان لهذا السبب يعتقد أنه مجهول القيمة ، وكان يعيش على قناعة تامة بأن الناس لم يقدروه حق قدره ، أو أن هناك أعداء يكيدون له ويعرقلون تقدمه فى وظيفته • وكان فى ساعات حزنه ويأسه يمضى الى حد التهديد بالانتقال الى صف المعارضة ، فيعمل محاميا أمام المحاكم الجنائية • وقد استثارته قضية مقتل الأب كارامازوف واستنهضت همته ، فحدّث نفسه قائلاً : « هذه قضية ستشتهر غداً فى روسيا كلها • » • ولكن أرانى أستبق تتمة القصة •

وفى الغرفة المجاورة كان قاضى التحقيق الشاب نيقولا بارفينوفتش نلبودوف ، الذى وصل الى مدينتنا منذ شهرين ، يثرثر مع الفتاتين • لقد دُهش الناس بمدينتنا ، فيما بعد ، من وجود هؤلاء الأشخاص بأعينهم مجتمعين فى مساء وقوع « الجريمة » نفسه ، فى منزل أحد ممثلى السلطة

التنفيديه ، كأنما هم اتفقوا على ذلك • والحق أن تعليل هذه المصادفه طبيعي جدا : ان زوجه هيبوليت كيريلوفتش تشكو منذ يومين من آلام شديدة في الأسنان ؛ فكان وكيل النيابة المسكين لا يفكر الا في الهـروب من المنزل حتى لا يسمع أنينهـا • فالى أين يمكن أن يذهب اذا هو لم يذهب الى ميشـيل ماكاروفتش ؟ أما الطبيب فانه ، بحكم مهنته ، كان لا يستطيع أن يقضي سهراته الا لاعباً بالورق ، لذلك كان وجـوده في منزل رئيس لشرطه أمراً لا بد منه ولا محيـد عنه • وأما نيقـولا بارفينوفتش نليودوف ، فلقد كان ينوي منذ ثلاثة أيام أن يزور ميشـيل ماكاروفتش في ذلك المساء ، وأن يجيء اليه « بما يشبه المصادفة » ، بغية أن يفاجيء بعد ذلك كبرى الفناتين ، أولغا ميخائيلوفنا ، بأنه عالم بسرّها : وهو أن ذلك اليوم هو يوم عيد ميلادها ، وأنها أرادت أن تخفي الأمر عن المجتمع حتى لا تقيم حفـلة رقصٍ في منزلهـا • وكان نيقـولا بارفينوفتش يتصور أمازيح كثيرة سيقوم بها في تلك المناسبة ، ويتلذذ سـلفاً بهذه الأمازيح : كالاشـارة الى أنها تخشى أن تعلن عن سنها ، وكالتهديد باذاعة الأمر في المدينة كلها غداً ، الخ • ان هذا الشاب الفتان « عفريت » كبير ، حتى ان سيداتنا قد لقبنه بهذا اللقب ، وكان هذا يملؤه رضى وارتياحاً فيما يبدو • وكان ينتمي من جهة أخرى الى أسرة ممتازة ، وكان جمّ الكياسة رفيع المشاعر • ورغم انه كان بطبيعته محباً للمباهج مقبلاً على الملذات ، فقد كان كذلك على براءة وكان لا يخل بالمواضعات المقررة ولا يسيء الى الآداب الاجتماعية • وهو قصـير القامة ، ضعيف البنية ، رقيق مرهف ، تزين أصابعه النحيلة الشاحبة خواتم كبيرة كثيرة • وكان في قيامه بأعمال وظيفته رصيناً رصانة عظيمة ، قوي الشعور بخطورة الواجبات الملقاة على عاتقه • وكان يمتاز خاصـةً بمهارته في أن يحيّر القتلة وغيرهم من المجرمين من أبناء الشعب البسيط أثناء استجواباته ، كثيرا ما كان يثير فيهم من الدهشة ان لم يثر فيهم الاحترام •

حين وصل بطرس ايلتش الى منزل رئيس الشرطه صعقه فعلاً أن يعرف أن جميع الحضور كانوا على علم بالأمر . كان اللاعبون بالورق قد كفوا عن اللعب ، وأخذ سائر الضيوف يتناقشون فى الحادث بحرارة، وقوفاً . لقد هرع نيقولا بارفينوفتش من الغرفة المجاورة عابس الوجه يوشك أن يكون مستعداً للهجوم . وما كان أشدّ ذهول بطرس ايلتش حين علم بالنبأ لرهيب : وهو أن العجوز فيدور بافلوفتش قد قتل فى منزله فعلاً هذا المساء ... قُتل وسُرق . وقد عرفت الجريمة فى الظروف التالية :

لا شك فى أن مارفا اجناتيفنا ، زوجة جريجورى ، كانت نائمة نوماً عميقا فى اللحظة التى ضُرب فيها زوجها بمدق الهاون قرب السور، وكان يمكن أن تستمر فى نومها زمناً طويلاً أيضا . ولكن شاءت المصادفة أن تستيقظ فجأة ، وأغلب الظن أنها استيقظت بسبب الصرخة الرهيبة التى أطلقها سمردياكوف الذى يرقد فى الغرفة الصغيرة المجاورة مغشياً عليه غائباً عن وعيه . انها تعرف هذه الصرخة حق المعرفة ، فبهذه الصرخة انما تبدأ نوبات الصرع لدى سمردياكوف . وقد أرعبتها هذه الصرخة طوال حياتها ، وخلّفت فى نفسها أثراً مرضيا ، ولم تستطع أن تعتادها فى يوم من الأيام . نهضت مارفا منتفضة وهى ما تزال نصف نائمة وأسرعت الى الغرفة التى يرقد فيها سمردياكوف ، على غير شعور منها تقريبا . كان الظلام حالكاً ، فلا يُرى شيء ، وانما يُسمع الشخير الرهيب يخرج من صدر المريض الذى يتخبط . أخذت مارفا اجناتيفنا تصرخ هى أيضا ، منادية زوجها ، ولكنها أوجست فجأة أن زوجها لم يكن الى جانبها فى السرير حين استيقظت من نومها ، فأسرعت الى السرير وأخذت تجس الغطاء ، فأيقنت أن الفراش ليس عليه أحد . تساءلت فالى أين ذهب ؟ هل خرج ؟ ولماذا خرج ؟ وهرعت الى درجات المدخل

وأخذت تناديه فى الظلام وجلى ، ولكنها لم تلق جوابا . وفجأة خيّل اليها أنها تدرك فى حلكة الليل أنات مخنوقة كأنها آتية من الحديقة . فأصاخت بسمعها ، فتكررت الأنات . دمدمت تقول مضطربة « رباه ! يشبه هذا ما حدث فى الماضى يوم موت اليزابث سمردياستشايا ! » . وهبطت الدرجات خائفة ، فلاحظت أن باب الحديقة مفتوح ، فقالت لنفسها : « لا شك أن زوجى الطبيب هناك » ، فلما اقتربت من باب الحديقة سمعت فى هذه المرة زوجها جريجورى نفسه يناديها بصوت ضعيف محتضر مروّع : « مارفا ، مارفا ! » . فقالت مارفا متلعثمة « نجِّنا من الشر يا رب ! » واندفعت فى الاتجاه الذى كان يصدر عنه النداء . وهكذا اكتشفت جريجورى . ومع ذلك لم تجده قرب السور ، فى المكان الذى صُرع فيه ، بل على بعد عشرين خطوة من ذلك المكان . وقد عُرف فيما بعد أن جريجورى ، حين أفاق من اغمائه وثاب الى رشده ، جرّ نفسه على الأرض مدة طويلة ، فأغمى عليه أثناء ذلك عدة مرات ، ولكنه كان يصحو ثم يستأنف زحفه . وسرعان ما لاحظت مارفا أنه كان مضرجاً بدمائه ، فأخذت تصرخ . وكان جريجورى يتمتم بصوت واهن جملاً مضطربة لا تسلسل فيها ، قائلاً : « قتل ... قتل أباه ... لماذا تصرخين يا امرأة غبية ؟ هلمى ! أركضى ! نادى !» . ولكن مارفا اجناتيفنا لم يهدأ روعها ولم تنقطع عن اطلاق صرخاتها الوحشية . فلما لاحظت فجأة أن نافذة غرفة مولاها مفتوحة ومضاءة ، أسرعت الى هناك تنادى فيدور بافلوفتش . واذ لم تسمع جوابا نظرت من النافذة ، فرأت عندئذ مشهداً فظيعا : رأت فيدور بافلوفتش راقدا على الأرض جثةً هامدة . بلغت مارفا اجناتفنا ذروة الهلع ، فاندفعت عندئذ الى خارج الحديقة ، ففتحت الباب الكبير ، وهرعت الى عند جارتها ماريا كوندراتيفنا . كانت المرأتان ، الأم وابنتها ، نائمتين حينذاك ، ولكنهما لقوة الطرقات العنيفة

على مصراعى الباب ، ولشـــدة الصرخات الحادة التى كانت تطلقها مارفا اجناتيفنا ، استيقظتا من نومهما واقتربتا من النافذة • فقصت عليهما العجوز المسكينة ما نزل بدارهم من شقاء ، قصت عليهما ذلك بأقوال مضــطربة مشوشة تقطعها أنات • ومن المصادفات أن توماس الذى يسكن مستأجراً فى منزلهما ، والذى يتنقل عادة فى البرارى ، كان يبيت فى المنزل فى تلك الليـــلة • فسرعان ما أوقظ من نومه ، وخفّ الجميع الى مكان الجريمة • وتذكرت مارى كوندراتيفنا أثناء الطريق أنها قد سمعت فى نحو الساعة التاسعة من المساء ، عويلاً صادراً من الحديقة أرعبها • لقد كان ذلك هو الصرخة التى أطلقها جريجورى لحظةَ أمسك بيديه احدى ساقى ميتيا الراكب السور ، قائلا : « يا قاتل أبيه » •

قالت ماريا كوندراتيفنا شارحةً : « ان أحداً قد صرخ عندئذ صراخاً قويا جداً ثم صمت فجأة» • ووصل الثلاثه الى قرب جريجورى ، فأنهضته المرأتان بمعاونة توماس ، ونقلوه الى الملحقات • وأشعلوا شمعه • وحين مروا أمام الغرفه التى يرقد فيها سمردياكوف لاحظوا أنه ما يزال يتخبط فى تشنجاته وقد جحظت عيناه وخـــرج الزبد من فمه • غسلوا رأس جريجورى بمـــاء ممـــزوج بخل ، فجعله ذلك يصحو تماماً ، فسرعان ما ألقى عليهم هذا السؤال : « أقُتل مولاه أم لا ؟ » • وأرادت الجـــارتان عندئذ أن تصحبا توماس الى غرفة فيدور بافلوفتش • فلما اجتازتا الحديقة لاحظتا أن النافذة لم تكن وحدها مفتوحة ، وانما كان باب المسكن مفتوحا أيضا ، مع أن فيدور بافلوفتش قد أصبح منذ أسبوع يحكم اقفال البـــاب بالمفتاح كل ليلة ، ولا يسمح حتى لجريجورى بأن يدخل عليه لأى سبب من الأسباب ، وبأى عذر من الأعذار • فلما رأت المرأتان وتوماس هـــذا الباب مفتوحاً ترددوا عن الدخول الى غرفة الجريمة «خشية المضاعفات» ، وعادوا الى الملحقـــات ، فطلب جريجورى ابلاغ رئيس الشرطه بالحادث

فورا . فتولت ماريا كوندراتفنا القيام بهذه المهمة ، فأهاج وصولها ضيوف ميشيل ماكاروفتش ، وأقامهم وأقعدهم . لقد وصلت ماريا الى منزل رئيس الشرطة قبل وصول بطرس ايلتش بخمس دقائق لا أكثر ، وهكذا مثل بطرس ايلتش أمام هؤلاء الرجال لا مثول انسان يريد أن ينقل اليهم شكوكه واستدلالاته ، بل مثـول شاهد عيان ، فلم تزد التفاصيل التى ذكرها على أن عززت ما كانوا قد تصوروه من فروض عن شخص القاتل (الحق أن بطرس ايلتش نفسه قد ظل الى آخر لحظة بشك فى أن يكون ميتيا هو القاتل) .

وتقررت المبادرة الى العمل فورا . وأُبلغ مفوض الشرطة المساعد، وتم القيام بالتحريات الأولى فى مكان الجريمة بمنزل فيدور بافلوفتش ، وفقا للأصول القضائيه التى لا داعى لى وصـفها هنا . وقد أصر طبيب زمستفو ، وهو طبيب مبتدىء ممتلىء همةً وحماسة ونشاطاً ، أصرّ على أن يصحب رئيس الشرطة ووكيل النيابة وقاضى التحقيق . وسأقتصر هنا على تلخيص ما شاهدوه : لقد صُرع فيدور بافلوفتش ، وكسرت جمجمته، ولكن ما هو السلاح الذى استعمل فى قتله ؟ لعـله ذلك السلاح نفسه الذى استعمله القاتل بعد ذلك فى ضرب جريجورى . واكتشفت أداة الجريمة أخيرا بفضل ما استطاع جريجورى أن يذكره لهم على نحـو متسق ، ولو بصوت واهن متقطع ، بعد أن أُسعف الاسعافات الطبية التى تتطلبها حالته . استكشف رجال الشرطة الأرضَ التى تجاور السـور مستعينين بمصباح ، فلم يلقوا عناءً فى العثور على مدق الهاون النحاسى. وجدوه ملقىً وسط الممر الذى يشق الحديقة ، فى موضع يلفت الأنظار على الفور . ولم تكن الغرفة التى يرقد فيها فيـدور بافلوفتش فوضى ، ولكنهم اكتشفوا على الأرض وراء الحاجز ظرفاً ملقى قـرب السرير . وكان ظرفاً كبـيراً مصنوعا من ورق سـميك ، وقد كتب عليه ما يلى :

« هديه صغيرة من ثلاثه آلاف روبل أهديها الى ملاكى جروشنكا اذا هى رضيت أن تجيء » وفى أسفل الظرف كتبت عبارة أخرى أغلب الظن أن فيدور بافلوفتش أضافها بعد ذلك هو نفسه : « الى حمامتى » . وكان الظرف الذى ختم بالشمع الأحمر ثلاثه أختام كبيرة قد فضّ وأفرغ مما فيه : لقد سُرق المال الذى كان يضمه الظرف . واكتشفوا كذلك على أرض الغرفة الشريط الوردى اللون الذى كان يلف الظرف . وقد أحدثت أقوال بطرس ايلتش أثراً عميقا فى وكيل النيابة وقاضى التحقيق وهزتهما هزاً قوياً ، لا سيما بسبب ما ذكره لهما من أن دمترى فيدوروفتش كان يبدو عازماً عزماً مطلقاً على أن ينتحر قبل طلوع الفجر؛ وان دمترى فيدوروفتش قد أفهمه ذلك نفسه ، حين حشا أحد المسدسين بالرصاص أمامه ، وحين كتب بطاقة صغيرة يشرح فيها السبب الذى يدعوه الى الانتحار ودسّها فى جيبه ، الخ ، حتى اذا قال له بطرس ايلتش الذى لم يشأ أن يصدق قراره انه سيبلغ أقرباءه ما عزم عليه حتى يمنعوه من انفاذه ، أجابه ميتيا بلهجة ساخرة : « لن يتسع وقتك لهذا يا عزيزى » . معنى هذا كله أن من الواجب الاسراع فى العمل ، والوصول الى موكرويه على عجل ، حتى يفاجأ القاتل قبل أن ينفذ ماعقد النية عليه .

كان وكيل النيابة يردد قوله مضطربا اضطرابا شديدا :

ـ القضية واضحة وضوح ماء الصخر . ذلك بعينه هو ما يفعله جميع هؤلاء العابثين القاصفين الأشقياء حين يقعون فى الجريمة . غداً أنتحر ، أما الليلة فألهو وأتسلى .

وازداد اهتياج وكيل النيابة حين سمع تفاصيل ما حدث فى المتجر حين اشترى ميتيا الشمبانيا وأنواع الحلوى .

ـ هل تتذكرون ، أيها السادة ، ذلك الشاب الذى قتل التاجر

أولسوفيف ليسلبه ماله ؟ انه بعد أن استولى على ألف وخمسمائة روبل كانت مع ضحيته ، فكر قبل كل شيء في أن يصفف شعره متموجاً عند حلاق ، ثم أسرع الى البغايا حتى دون أن يكلف نفسه عناء اخفاء المال ، فكان يمسكه بيديه تقريبا ، مثل هذا القاتل الجديد تماما .

على أن التحقيق وتفتيش منزل فيدور بافلوفتش والاجراءات القانونية الشكلية ، كل ذلك قد استغرق وقتا ، لذلك تقرر أن يوفد الى موكرويه ، على جناح السرعة ، موظف الشرطة موريس مافريكيفتش شمرستوف الذي جاء الى المدينة في الليلة البارحة لقبض مرتبه . أصدرت اليه تعليمات بأن يذهب الى موكرويه ، منتحلاً عذراً من الأعذار ، بحيث لا يلفت الانتباه ، وأن يراقب المجرم في الخفاء دون أن يغيب عن بصره، الى حين وصول السلطات . وكان على موظف الشرطة هذا أن يكون في عداد الخفراء الذين سيقتادون المتهم . نفّذ موريس مافريكيفتش الأوامر التي تلقاها ، ولزم التخفي ، واقتصر على أن ذكر لتريفون بوريستش الذي يعرفه منذ عهد بعيد بعض الايضاحات عن الأسباب الحقيقية لمجيئه . وفي ذلك الوقت انما التقى ميتيا بصاحب النزل في أسفل السلم المفضي الى الشرفة ، فلاحظ تغيراً غريبا في تعبير وجهه وطريقة كلامه . وعلى هذا النحو لم يستطع أحد ، لا ميتيا ولا سائر الضيوف ، أن يخطر ببالهم أنهم مراقبون . أما علبة المسدس فقد أسرع تريفون بوريستش يخفيها في مكان مأمون على الفور . ولم تصل السلطات الى موكرويه الا في الساعة الخامسة ، عند طلوع الفجر . استقل وكيل النيابة ، ورئيس الشرطة ، وقاضي التحقيق ، وحاشيتهم ، عربتي ترويكا، ومكث الطبيب في منزل فيدور بافلوفتش ، ليباشر تشريح جثة القتيل منذ الصباح . ولكنه كان مهتما اهتماما خاصا بحالة سمردياكوف .

ــ ان نوبات الصرع التي تبلغ هذه الدرجة من الشدة وتدوم مثل

هذه المدة مستمرة يومين ، هى حالات نادرة كل الندرة ، حالات يهتم بها العلم ويكب على دراستها •

كذلك قال الطبيب لصحبه مهتاجاً حين سافروا الى موكرويه ؛ وقد مازحه صحبه وهنأوه على ما أوتى من فرصة مواتية وحظ نادر •

وقد تذكر وكيل النيابة وقاضى التحقيق فيما بعد ، تذكراً واضحا، أن سمردياكوف سيموت قبل طلوع الفجر فيما زعمه الطبيب الشاب •

بعد هذه الشروح التى كانت طويلة بعض الطول ، ولكنها كانت لا بد منها ولا غنى عنها ، سنستأنف الآن قضيتنا من حيث قطعناها فى نهاية الباب السابق •

٣

محن نفس

المحنة الأولى

كان ميتيا يتصفح وجوه محدثيه ، مجنون العينين ، ولا يفهم ما يقال له • وها هو ذا ينهض فجأة، فيرفع ذراعيه الى السماء ويهتف قائلا بصوت قوى :

ـ لست القاتل ! أنا لم أسفح ذلك الدم ! لم أسفح دم أبى ••• كنت أريد أن أقتله ، ولكننى لم أفعل • لست أنا القاتل !

فما ان قال ميتيا هذه الكلمات حتى اندفعت جروشنكا من وراء الستائر وسقطت عند قدمى رئيس الشرطة ، وأعولت تقول بصوت ممزّق ، وهى تبكى بكاء غزيراً وتمد ذراعيها نحو الحضور :

ـ أنا المذنبة ، أنا الشقية المذنبة • بسببى انما قتل ! أنا التى قدته الى ذلك من كثرة ما عذبته ••• ولقد عذبت العجوز المسكين الراحل أيضاً ، بدافع الشر الذى فى نفسى ••• أنا سبب كل شىء ، أنا ، أنا وحدى • أنا القاتلة فى حقيقة الأمر •

ـ أما أنك القاتلة فهذا صحيح لا شك فيه ! أنت مجرمة كبيرة ، أيتها المرأة الضالة الفاسقة ! أنت المسئولة عن هذه الجريمة •

كذلك صاح يقول رئيس الشرطه وهو يلوّح بقبضه يده مهدداً •
ولكن سرعان ما حُمل رئيس الشرطه على السكوت ، حتى أن وكيل النيابة أحاطه بذراعيه ليتحكم به ويسيطر عليه ، قائلاً له بصوت عال وهو يكاد يختنق غيظاً :

ـ لقد أحدثت فوضى يا ميتيل ماكاروفتش ، هذا لا يجوز ! انك تشوش التحقيق وتفسد كل شيء •

وقال نيقولا بارفينوفتش مضطرباً بدوره :

ـ يجب اتخاذ اجراءات ••• حالاً ••• يجب اتخاذ اجراءات •

واستأنفت جروسكا كلامها فقالت بحرارة وحماسة وهي ما تزال جاثيه على ركبتيها :

ـ احكموا علينا معا ، أعدمونا معاً ، أنا مستعدة لأن أشاركه العقوبة القصوى !

فهتف ميتيا يقول وهو يرتمي على الأرض فيجثو الى جانب جروشنكا ويعانقها :

ـ جروشا ، حياتي ، روحي ، دمي ، قديستي ! لا تصدقوا ماتقوله، انها ليست مذنبة في شيء ، انها لا تشارك أية مشاركه في المسئولية عن هذا الدم المسفوح ، انها لم تفعل شيئاً !

تذكر ميتيا فيما بعد أن عدة رجال قد فصلوه بالقوة عن جروشنكا التي أقصيت عن الغرفة ، وأنه في اللحظة التي ثاب فيها الى وعيه ، وجد نفسه جالساً أمام المائدة • وكان يقف وراءه رجال يضعون على صدورهم صفائح من معدن • وفي الجهة الأخرى من المائدة ، كان قاضي التحقيق نيقولا بارفينوفتش الذي جلس على الكنبة ، يلح عليه أن يشرب قليلاً

من الماء مشيراً الى الكأس الموضوعة على المائدة ، قائلاً له بلهجة مهذبة جداً :

ـ اشرب ، الماء ينعشك ويهدئك . لا تخش شيئاً .

خطفت انتباهَ ميتيا ، على حين فجأة ، الخواتمُ الكبيرة التى كانت فى أصابع قاضى التحقيق . أن أحد هذه الخواتم يزدان بالجمشت ، والثانى يزدان بحجر أصفر واضح شفاف قوى السطوع . سوف يظل ميتيا يتذكر خلال زمن طويل مدى ما أحدثته هذه الخواتم فى نفسه من افتتان حتى أنه طوال الساعات الرهيبة التى استغرقها الاستجواب لم يستطع أن يحول بصره عنها ، ولم ينقطع عن النظر اليها وهو فيما هو فيه من ظروف لا تتفق مع اهتمام تافه هذه التفاهة . والى يسار ميتيا ، فى المكان الذى كان يشغله ماكسيموف فى بداية السهرة ، كان يجلس وكيل النيابة ؛ والى يمين ميتيا ، فى المكان الذى جلست فيه جروشنكا بضع ساعات قبل ذلك ، كان يجلس شاب زاهى اللون ، يرتدى سترة عتيقة جدا مما يلبسه الصيادون ، وأمامه محبرة وورقة . ولقد اتضح فيما بعد أنه كاتب قاضى التحقيق . أما رئيس الشرطة فقد كان واقفا قرب النافذة، فى الطرف الآخر من الغرفة ، على مقربة من كالجانوف الذى كان جالسا على كرسى .

كرر قاضى التحقيق يقول بلطف ورقة للمرة العاشرة :

ـ اشرب ماء .

فصاح ميتيا يقول ، وهو يثبت على قاضى التحقيق نظرته الجامدة جمودا رهيبا فى عينيه الجاحظتين :

ـ شربت يا سادتى شربت ... والآن فاسحقونى ، اعدمونى ، قرروا مصيرى !

سأله القاضى بصوت لطيف رقيق ولكنه ملح :

ـ أأنت تصر اذن على أنك برىء من مقتل أبيك ؟

ـ برىء ! لقد سفحت الدم ، سفحت دم العجوز الآخر ، ولكننى لم أسفح دم أبى . آه ... لشد ما يؤسفنى ما فعلت . لقد قتلت ذلك العجوز المسكين ، صرعته . غير أنه يشق على أن أصبح بسبب هذه الجناية مسئولا عن جريمة أخرى ، جريمة فظيعة لم أرتكبها ... ذلك اتهام رهيب يسقط على سقوط الصاعقة ! ولكن من ذا الذى قتل أبى ؟ من هو القاتل ؟ من عسى يكون القاتل اذا لم أكن أنا ؟ هـذا جنون ...

بدأ قاضى التحقيق يقول :

ـ أتسأل من هو القاتل ؟ سأقول لك ذلك ...

ولكن وكيل النيابة هيبوليت كيريلوفتش سارع يسكته بنظرة منه ، ثم قال مخاطبا ميتيا :

ـ تخطىء اذا قلقت على مصير الخادم العجوز جريجورى فاسيليف . اعلم أن هذا الخادم لم يمت ، وأنه أفاق من اغمائه واسترد وعيه . حتى أن الطبيب يرى أنه ليس فى خطر رغم الضربة الفظيعة التى شهد هو واعترفت أنت بأنك أصبته بها .

هتف ميتيا فجأة يقول وهو يضم يديه احداهما الى الأخرى (وقد أشرق وجهه فرحاً) :

ـ أهو حى ؟ اللهم انى أحمـــدك على هذه المعجزة العظيمة التى تهبها لى ، لى أنا الخاطىء المجرم ؟ اللهم انى أحمدك على أنك استجبت لدعائى ... ذلك أن دعائى هو الذى قُبل ... لقد لبثت أدعو طـوال الليل أن لا يموت .

ورسم ميتيا اشارة الصليب ثلاث مرات وهو يختنق انفعالاً .

استأنف وكيل النيابه كلامه قائلاً :

ـ من جريجورى هذا نفسه نما حصلنا على معلومات خطيرة جدا في شأنك ...

ولكن ميتيا قاطعه ووثب عن كرسيه قائلاً :

ـ دقيقه واحدة أيها السادة ! اسمحوا لى بدقيقه واحدة ، دقيقة واحدة ، أناشدكم الله ... أريد أن أكلمها هى ...

فصرخ نيقولا بارفينوفتش يقول له بصوت حاد ، ناهضا عن مقعده على حين فجأة هو أيضا :

ـ آسف ! ذلك مستحيل استحالة مطلقة الآن .

وأمسك الرجال الذين يضعون على صدورهم صفائح معدن ، أمسكوا ميتيا ، فسرعان ما عاد يجلس دون احتجاج ، وقال :

ـ هذ يؤسفنى أسفاً عميقاً يا سادتى ، لأننى لم أكن أريد أن أراها الا لحظه قصيرة ... لأبلغها أن ذلك الدم قد امحى من حياتى ، ذلك الدم الذى عذبنى طوال هذه الليلة ، واننى لست قاتلاً ! انها خطيبتى أيها السادة ، هل تعرفون هذا ؟ (هكذا صاح يقول فجأة وهو ينقل بصره على محدثيه جازماً) . أوه ! شكراً لكم أيها السادة ! لقد رددتمونى الى الحياة بهذه الكلمة وحدها : حى ! ان ذلك العجوز كان يحملنى بذراعيه أيها السادة ، وكان يغسلنى فى جرن حين كنت فى السنة الثالثة من عمرى وتركنى الجميع .. كان لى بمثابة أب !

همّ القاضى أن يتكلم قائلاً :

ـ وهكذا ، فأنت ...

ولكن ميتيا قاطعه وهو يضع كوعيه على المائدة ويغطى وجهه بيديه:

ـ اسمحوا لى بدقيقة تفكير أيها السادة ، دقيقة واحدة . دعونى أتنفس لحظة ، وأحاول أن أرى رؤية واضحة . ان هذا الأمر قد هـزنى هزاً قوياً وقلب نفسى رأساً على عقب ، هذا فظيع ... ليس يُقرع انسان كما يقرع طبل أيها السادة !

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول له :

ـ عليك أن تشرب جرعه أخرى من الماء .

أبعد ميتيا يديه عن وجهه وأخـــذ يضحك . ان فى نظرته الآن لفة ، وقد تبدل تعبير وجهه فى طرفة عين . وتغير موقفه كذلك ، فهـو يتكلم بلهجه غير اللهجه التى كان يتكلم بها من قبل . هو يحس الآن أنه عاد نداً لهؤلاء الرجال الذين يعرفهم والذين كان يمكن أن يجتمع بهم ، البارحه ، فى سهرة تضم عليه القوم ، فكأن شيئاً لم يكن . يحسن أن نشير هنا الى أن ميتيا كان قد استُقبل استقبالاً حاراً جداً بمنزل رئيس الشرطه ، فى بداية اقامته بمدينتنا ، ولكنه انقطع عن التردد الى هـــذا المنزل بعد ذلك ، ولا سيما خلال الشهر الأخير . وأصبح رئيس الشرطه، منذ زمن ، يقطب حاجبيه حين يرى ميتيا فى الشارع ، ولا يرد على تحيته الا من باب الأدب ، وقد لاحظ ميتيا هذا . أما وكيل النيابه فقد كانت معرفة ميتيا به أقل من ذلك أيضا ، رغم أن ميتيا قد زار زوجته ، وهى امرأة عصبية ذات هواجس ، عدة زيارات مكلفة تماما ؛ كان يذهب اليها دون أن يعرف لماذا ، وكانت تستقبله حتى هـذه الأسابيع الأخيرة بكثير من البشاشة والمودة ، بل وكانت تبدى شـــيئا من الاهتمام به . وأما قاضى التحقيق ، فلم تكن بينه وبين ميتيا علاقات اجتماعية ، واقتصر كل شىء بينهما على حديث أو حـــديثين تبادلا خـلالهما كلاما غامضا عن جنس النساء .

قال ميتيا مرحاً :

ـ أرى يا نيقولا بارفنوفتش أنك قاضٍ بارع جدا ، ولكن أحسب مع ذلك أن عليّ أن أساعدك • أوه ! لقد تنفست أيها السادة ••• لا تؤاخذونى اذا أنا كلمتكم بغير كلفة • ثم اننى ثمل قليلاً ، أعترف لكم بذلك صراحة • أظن يا نيقولا بارفينوفتش أننى قد سبق لى أن سُررت وسرفت بلقائك ، عند ميوسوف ، قريبى ••• معذرة أيها السادة ! لست أدعى المساواة بكم الآن ، فأنا أعرف موقفى أمامكم حق المعرفة••• هناك تهمة رهيبة تجثم عليّ••• طبعا••• اذا كان جريجورى قد شهد عليّ ••• فلا بد أن تكون القرائن قوية فى الظاهر ••• نعم ••• أنا موضع شبهة خطيرة ! فظيع ! فظيع ! اننى أفهم هذا حق المهم ، ثقوا من ذلك ! ولكن فلنصل الى الوقائع أيها السادة ! اننى مستعد ••• وسنوضح الأمور فى بضع دقائق يا سادتى ، أليس هذا صحيحاً ؟ ما دمت بريئاً ••• اصغوا الىّ ، اصغوا الىّ ! ما دمت أعلم أننى لم أرتكب هذه الجريمة ، فسوف نبدد سوء التفاهم فى طرفه عين ، أليس كذلك أيها السادة ؟

كان ميتيا يتكلم متعجلاً متدفقاً على نحو عصبى ، وبنوع من الاصرار العنيد على أن يعد محدثيه كأنهم خير أصدقائه •

قال نيقولا بارفينوفتش بلهجة رصينة :

ـ سنسجل الآن اذن أنك تنكر انكارا قاطعا التهمة الموجهه اليك •

ثم التفت نحو الكاتب ، وأملى عليه بصوت خافت خلاصة انكارات ميتيا •

ـ آ ••• أأنتم تسجلون أقوالى ؟ أتريدون تدوينها ؟ طيب ••• اكتبوا اذا شئتم ••• أوافق على هذا ••• لا أرى فى هذا ضيراً أيها السادة ••• ولكن ••• لحظة من فضلكم ! أريد أن تكتبوا كما يلى :

« ارتكب جرم استعمال العنف ، فضرب عجوزا مسكينا ، وهـو يعترف بذلك » ثم انني فى أعماق نفسى ، فى قرارة ضميرى ... ولكن لا داعى الى كتابة هذا (هكذا قال ملتفتاً الى الكاتب) ... تلك حياتى الخاصـة التى لا شأن لكم بها أيها السادة ، هذه أغوار قلبى ... أما قتل أبى فأنا برىء منه ! تلكم تهمة حمقاء ! ذلكم افتراض سخيف ... سأبرهن لكم على هذا ، فتقتنعون اقتناعا تاما . سـوف تضحكون أيها السادة ، سوف تضحكون أنتم أنفسـكم من الشكوك التى راودتكم ، سوف تنفجرون ضاحكين .

تدخل قاضى التحقيق فقال وكأنه يريد أن يضرب بهدوئه هو مثلاً لميتيا المندفع المضطرب :

ـ هدىء نفسك يا دمترى فيدوروفتش ! أحب أن أرجوك ، قبـل أن نتابع الاستجواب ، أن تؤكد لى ـ اذا كنت توافق على ذلك ـ أنك لم تكن تحب فيدور بافلوفتش كثيرا ، وأن مشاجرات كثيرة كانت تقع بينكما . لقد صرحت أنت نفسك ، منذ ربع ساعة ، فى هذا المكان نفسه ، اذا لم يخطىء ظنى ، أنك كنت تنوى أن تقتله . لقد صحت تقول : « كنت أريد أن أقتله ولكننى لم أقتله . . » .

ـ أقلت أنا هذا ؟ أوه ! جائز أيها السادة ! نعم ... وا أسفاه ! لقد تمنيت أن أقتله ، وراودتنى نفسى على هذا مرارا ... وا أسـفاه ! وا أسفاه !

ـ كنت تنوى اذن أن تقتله . فهل تستطيع أن تشرح لنا أسباب هذا الكره الذى كنت تحمله لأبيك ؟

قال ميتيا بلهجة متجهمة وهو يرفع كتفيه ويخفض رأسه :

ـ ليس هناك ما يُشرح أيها السادة ! أنا لم أخف عواطفى ، والمدينة

كلها تعرفها ، حتى أن الناس يتحدثون عنها فى الكاباريه • ومنذ بضعة أيام لا أكثر ، عبرت عنها فى الدير ، فى حجرة الشـــيخ زوسيما ••• وفى مساء ذلك اليوم نفسه ضربت أبى وأوشكت أن أقتله ، وحلفت أمام شهود لأعودنّ فأجهز عليه • أوه ! فى وسعكم أن تجدوا ألف شـــاهد علىّ ، بغير عناء • انى لم أزد على أن هدأت كرهى له خلال هذا الشهر ••• النـــاس جميعاً يشـــهدون ••• الوقائع متوفرة ••• الوقائع تتكلم من تلقاء نفسها ، بل هى تصرخ ••• أما عواطفى أيها الســادة فأمرها أمر آخر ! يخيل الىّ أيها السادة (وهنا قطب ميتيا حاجبيه) أنه ليس من حقكم أن تســألونى عن عواطفى • ان وظائفكم تخــولكم سلطات ، أنا أعرف هذا وأفهمه ، ولكن عواطفى هى من شأنى أنا ؛ هى تتصل بحياتى النفسية ، الحميمة ••• على كل حال ، ما دمت لم أكتمها حتى الآن ••• لم أكتمها فى الكاباريه مثلاً ، وكنت أكاشف بها أول قادم ، فليكن ما تريدون ! فلن أخفيها عنكم أنتم أيضاً • أيها السادة ، اننى أدرك حق الادراك أن الشبهات كبيرة وأن القرائن قوية : فلقد أعلنت لجميع الناس أننى سأقتله ، وها هو ذا يُقتل • فكيف لا أكون أنا القاتل والحالة هذه ؟ هأهأ ! اننى أعذركم أيها الســـادة ، أعذركم كل العذر • أنا نفسى قد أذهلنى هذا الحادث : من عسى يقتله اذا لم أقتله أنا ؟ أليس كذلك ؟ اذا لم أقتله أنا فمن يقتله ؟ من ؟ من ؟ (ثم صاح فجأة يقول :) أريد أن أعرف منكم أيها السادة ، أطالبكم بأن تقولوا لى الحقيقة : أين وُجد مقتولاً ؟ وكيف قتل ، بأى سلاح وفى أية ظروف ؟ قولوا لى هذه الأمور ! (كذلك ردّد بقوة ، وهو ينظر الى وكيل النيابة وقاضى التحقيق واحداً بعد آخر) •

أجابه وكيل النيابة قائلاً :

ــ وجدناه راقداً على ظهره فوق أرض الغرفة ، مكسور الجمجمة •

قال ميتيا مرتجفاً وهو يضـع كوعيه على المائدة ويخفى وجهه بيده اليمنى :

ـ هذا فظيع أيها السادة !

وتدخل نيقولا بارفينوفتش قائلاً :

ـ لنتابع لاستجواب . لأى سبب كنت تكره أباك ؟ لقد صرحت على رءوس الأشهاد ، فيما أظن اننى أعلم ، أن لغيرة هى التى كانت تؤلبك عليه ، فهل هذا صحيح ؟

ـ هى الغيرة ان شئتم . ولكن الغيرة ليست السبب الوحيد لموقفى منه .

ـ لعل هناك خصومات على مال ؟

ـ نعم ، نعم ، مسائل مالية .

ـ كان الخلاف يدور، اذا لم يخطىء ظنى ، على ثلاثة آلاف روبل هى من حقك فى الميراث ولم يدفعها لك .

قال ميتيا مستاءً :

ـ ثلاثة آلاف روبل ؟ بل أكثر كثيراً ، أكثر كثيراً . كان مديناً لى بأكثر من ســتة آلاف روبل ، وربما بأكثر من عشرة آلاف . قلت هذا لجميع الناس ، صحت به فى كل مكان ! ولكننى كنت مستعداً لقبول ثلاثة آلاف روبل تســاهلاً ، لأننى كنت فى حاجة مستعجلة رهيبة الى هذا المبلغ ... فكان ذلك الظرف الذى يضم ثلاثة آلاف روبل والذى يوجد تحت وسادته ، (أنا أعلم ذلك) والذى أعدّه هو لجروشنكا ، كان فى نظرى مالاً سُرق منى . هل تفهمون أيها السادة ؟ كنت أعد ذلك المبلغ حقاً من حقوقى ، وملكاً شرعياً لى .

بادل وكيل النيابة قاضى التحقيق نظرة ذات دلالة ، وغمزه بعينـه غمزة خفيفة .

أسرع القاضي يقول :

ـ سنعود الى هذه المسـألة • واسمح لى أن أسجل هذه النقطة بعينها : وهى أن ذلك المبلـغ المودع فى الظرف كان فى رأيك حقاً مشروعا لك •

ـ اكتبوا أيها السادة ! اننى أدرك أن هـذا قرينة جديدة علىَّ ، ولكننى لا أخشى شيئاً ، ولسوف أمدكم بقرائن أخرى • سوف أمدكم أنا نفسى بقرائن أخرى ، هل تسمعوننى ؟ يبدو لى أيها السادة أنكم ترون فىَّ رجلاً مختلفا كل الاختلاف عمَّا أنا فى الواقع (كذلك أضاف يقول حزينا مظـلم الوجه) • ان أمامكم أيها السادة انسـانا صادقا مستقيما لا يعرف طبعه الالتواء والمخاتلة ، ان أمامكم انسانا ـ لا يغب هذا عن بالكم ـ ان يكن قد ارتكب حقارات كثـيرة ، فانه ظل دائما فى قرارة نفسه ، أعنى فى أعماق قلبه ، طاهرا ••• الخلاصة ••• اننى لا أحسن الافصاح عما بنفسى ••• لقد تألمت طول حياتى بسبب اندفاعات روحى الى ما هو خير وسمو ، وكنت أبحث عن نبل الطبيعة الانسـانية بحث ديوجين عـنه ان صح التعبير ، حاملاً مصـباحا ••• ورغم ذلك قارفت دناءات فى كل خطوة من خطواتى ، كما نقارف جميعا هذه الدناءات أيها السادة ••• أقصد ••• لا ••• لا كما نقارفها جميعا ، بل كما أقارفها أنا وحدى ، لقد أسأت التعبير يا سادتى ••• نعم ، كما أقارفها أنا وحدى ••• ان بى صداعا أيها السادة (كذلك قال فجأة وقد تقبضت قسـمات وجهه على ألم) ••• نعم يا سادتى ••• كنت أكره مظهره ؛ كان فى جسمه شيء يوحى بالدنس ، كان فيه تبجح واحتقار لكل ما هو عظيم مقدس ، كان فيه سخريه وكفر ! أوه ! كان هـذا دنيئاً ، دنيئاً جداً ! ولكننى أفكر الآن غير هذا التفكير بعد أن غاب عن الوجود •

ـ غير هذا التفكير ؟ ماذا تعنى ؟

ـ لا غير هـــذا التفكير ، ولكنني آسف لأني كرهته ذلك الكره الشديد كله •

ـ أأنت نادم اذن ؟

ـ لا ، لا يعني ذلك انني نادم ، لا تكبتوا هـــذا ! أنا نمسي مليء بالعيوب أيها لسادة ! أنا لست منال جمال النمس ، فلم يكن من حقي اذن أن أنفر منه ذلك النفور كله ••• هذا ما تستطيعون أن تكتبوه •

وبدا على ميتيا ، بعد هذا الجواب الأخير ، أنه قد خارت قواه جدا على حين فجأة • وكان وجهه قبل ذلك ببضـــع دقائق قد أخذ يزداد اكفهراراً وجهامة كلما تتابع الاستجوب • وهذا مشهد لم يكن في الحسبان يقع بغتةً في تلك للحظة نمسها • كانت جروشنكا قد أبعدت من الغرفة طبعاً ، ولكنهم لم يقصوها الى مكان ناءٍ ، وانما أودعوها في الغرفة الثالثة ، وهي غرفة لا يفصلها عن الغرفة الزرقاء التي يجلس فيها ميتيا والقاضي الا القاعة التي قام فيها الرقص وتم فيها لقصف أثناء الليل • هي غرفة صغيرة ذات نافذة واحدة جلست فيها جروشنكا بصحبة ماكسيموف الذي روّعته الأحداث فكان يتشبث بجروشنكا تشبث الغريق بلوح النجاة • وعلى باب تلك الغرفة كان يرابط فلاح على صدره صفيحة من معدن • كانت جروشنكا تبكي ، وها هي ذي تحس فجأة أنها أصبحت لا تقوى على كبح حزنها ، فاذا هي تنهض وتضم يديها احداهما الى الأخرى ، وتصيح قائلة : « يا للشقاء ! » ، ثم تندفع الى خارج الغرفة ، متجهة اليه ، الى عزيزها ميتيا ؟ وقد تم ذلك على نحو بلغ من المباغتة أن أحداً لم يتسع وقته لصدّها • وقد سمع ميتيا صرختها ، فارتعش ، ووثب عن كرسيه ، وأطلق من صدره نوعاً من العويل ، واندفع نحوها طائش العقل ، كأنه نسي الوضع الذي هو فيه •لم يُترك لهما أن يلتقيا ، وان تكن نظراتهما قد التقت • أُمسك ميتيا بقوة ، فأخذ يصارع حانقاً مسعوراً ، ولم تمكن

السيطرة عليه الا بتعاون ثلاثه رجال أو أربعة • وأمسكت هي أيضاً ، ورأى ميتيا كيف كانت تصرخ وتمد اليه ذراعيها فى لوعة شديدة بينما كانوا يقتادونها • حتى اذا رجع كل شيء الى الهدوء وجد مينيا نفسه مرة أخرى فى ذلك المكان نفسه ، أمام المائدة ، قبالة القاضى ، فصاح يسأل القاضى قائلاً له :

ـ ماذا فعلت لكم ؟ لماذا تعذبونها ؟ انها ليست مذنبة ، انها لم تصنع شيئاً •••

فحاول وكيل النيابه وقاضى التحقيق أن يهدئاه • وانقضت على هذه الحال عشر دقائق • وأخيراً عاد الى الغرفه ميشيل ماكاروفتش الذى كان قد غاب ؛ وتقدم نحو وكيل النيابة بخطى سريعة وقال له بصوت عال واضطراب شديد :

ـ ابعدناها من هنا • هى الآن تحت • هل تأذنون لى أيها السادة أن أقول كلمتين لهذا الانسان العاثر الحظ ، كلمتين لا أكثر ؟ بحضوركم أيها السادة ، بحضوركم •••

فأجابه القاضى :

ـ لك ما تشـــاء يا ميشيل ماكاروفتش ، نحن لا نرى فى هذا أى بأس ، فى هذه الحالة الخاصة •

فبدأ ميشيل ماكاروفتش يقول مخاطباً ميتيا :

ـ دمترى فيدوروفتش ، بنىّ المسكين ، أصغ الىّ •••

كان وجهه ، المحمرُ من الانفعال ، يعبرّ عن شفقة على المسكين تشبه أن تكون شفقة أب • وتابع كلامه قائلاً :

ـ لقد توليت بنفسى أخذ أجرافين الكسندروفنا الى الطابق الأرضى ، وعهدت بها الى بنات صاحب النزل ؛ كما أن العجوز الصغير ماكسيموف

أصـــبح لا يتركها . وقد كلمتها ، وطمأنتها ، هل تسمعنى ؟ أفهمتها أن عليك أن تدافع عن نفسك ، أن تبرىء نفسك ، فما ينبغى لها أن تمنعك من ذلك بتشويشك ، والا فقد تدلى من شـــدة اضطرابك بأقوال خطأ تشهد عليك ، هل تفهمنى ؟ الخلاصة ... أقنعها فقالت انى على حق . انها ذكية وطيبة جداً ! كانت تريد أن تقبّل يدىّ لأننى شيخ عجوز ، وتضرعت الىّ من أجلك ؛ وطالبتنى ملحةً بأن أجىء اليك لأطلب منك أن تكون مطمئن البال عليها . يجب أن تطمئن يا عزيزى ، وأريد أن أعود اليها الآن لأبلغها أنك مطمئن وأنـــك لا تخشى عليها من شىء . هدىء نفسك يا عزيزى ، ذلك واجبك . أنا أحس بأننى مذنب فى حقها، ان لها نفساً مسيحية ؛ نعم يا سادتى : هى طفلة وديعة بريئة . هـــل أستطيع أن أبلغها يا دمترى فيدوروفتش أنك ستهدأ الآن ؟

كان الرجـــل الطيب يخبـــط فى كلامه خبط عشـــواء . ان ألم جروشـــنكا ، هذا الألم الانســـانى ، قد نفذ الى قلبه رأســـاً ، فكان فى عينيه دموع . نهض ميتيا واندفع نحوه ، وصاح يقول :

ــ باذنكم يا سادتى ، باذنكم . انك يا ميشيل ماكاروفتش ملاك من ملائكة الخير . شكراً لك من أجلها . نعم ، أنا هادىء ، قل لها هـــذا ، وسأكون مرحاً ... قل لها ، بما لك من طيبة وأريحية ، اننى مرح ، مرح جداً ، حتى لأشتهى أن أضـــحك ، لعلمى بأنها فى حماية ملاك حارس مثلك . سأنهى هذا الالتباس بسرعة ، حتى اذا انتهيت ، خففت اليهـــا . فلتعتمد علىّ ولتنتظرنى واثقـــة . أيهـــا الســـادة (كذلك قال يخاطب قاضى التحقيق ووكيل النيابة) ، سوف أفتح لكم نفسى كلها ، سوف أسرّ اليكم بكل شىء ، فنفرغ من هذا الحادث بسرعة وننتهى منه مرحين ضاحكين ، لأننـــا سنضحك جميعا فى النهـــاية ، أليس كذلك يا سادتى ؟ ... ان هذه المرأة هى ملكة قلبى ! أوه ! اسمحوا لى أن

أقول لكم انني أشعر بالحاجه الى أن أفضي اليكم بما في قلبي ... لأنني أرى أن أمامي أناساً لهم نفوس نبيلة . انها ضيائي وحياتي أيها السادة ! آه ... ليتكم تعلمون ! هل سمعتم كيف صرخت تقول : « سأشاركك العقوبة القصوى ! » ؟ فماذا أعطيتها أنا الذي لا أملك شيئاً ، حتى أستحق منها مثل هذا الحب ؟ لست جديرا بهذا الحب ، أنا الانسان السيء ، بوجهي المنفّر ، وسلوكي الأخرق ، ومظهري الثقيل . أأنا جدير بمثل هذا الحب ؟ ماذا فعلت في سبيلها حتى تكون مستعدة لأن تتبعني الى سجون الأشغال الشاقة ؟ لقد ارتمت على أقدامكم منذ هنيهة في سبيلي ، هي الشماء التي لم ترتكب ذنباً يمكن أن تلام عليه . فكيف لا أعبدها ، كيف لا أندفع نحوها كما اندفعت منذ لحظة ؟ اغفروا لي أيها السادة ! ولكنني قد تأسيت الآن ...

قال ميتيا ذلك وعاد يتهالك على الكرسي ، وأخفى وجهه بيديه وأخذ يبكي ناشجاً منتحباً . ولكن دموعه في هذه المرة كانت دموع التخفف والسكينة والطمأنينة . كان يشعر أنه استرد ذاته ورجع الى نفسه . وأشرق وجه رئيس الشرطة ، وظهر الرضى والارتياح على رجلي القضاء أيضا : لقد أحسا أن الاستجواب سيدخل مرحلة جديدة . ورجع ميتيا اليهما بعد أن شيّع رئيس الشرطة ، عاد هادىء النفس مطمئن الجنان . وقال :

ـ والآن أيها السادة ، أضع نفسي تحت تصرفكم . ولكن ليتكم ترضون أن لا ترتبكوا بجميع تلك التفاصيل ، فنتفاهم عندئذ بسرعة كبيرة . انني أتيه في تلك التفاصيل . أنا مستعد أيها السادة ، ولكن صدقوني اذا قلت لكم : ان الثقة المتبادلة لا بد منها ولا غنى عنها في مثل هذه الحالة . يجب أن تصدقوني كما أصدقكم ، والا فلن نصل أبدا الى

النهاية • أقول لكم هذا لمصلحتكم أنتم • فهيّا بنا أيها السادة ، هيا بنا الى الوقائع ! ولكن كفوا خاصة عن النبش فى نفسى ، ولا تعذبونى فى سبيل سفاسف وترهات ؛ ألقوا علىّ أسئلةً تتصل بالقضية وحدها دون غيرها • اطلبوا وقائع ، وقائع ، ولأجيبنّكم بما يرضيكم كل الارضاء • دعونا من التفاصيل !

كذلك صاح ميتيا ، واستؤنف الاستجواب •

٤

المحنة الثانية

بدأ نيقولا بارفينوفتش كلامه قائلاً :

ــ لا تستطيع أن تتصور يا دمترى فيدوروفتش الى أى مدى تشجعنا نيتك الطيبة هذه ...

كان الرضى يُقرأ فى عينيه الشهباوين الواضحتين الحسيرتين اللتين رفع عنهما النظارتين حين بدأ كلامه . وتابع يقول :

ــ ان ما قلته عن ضرورة الثقة المتبادلة صادق كل لصدق صحيح كل الصحة . ان هذه الثقة المتبادلة شرط أساسى فى قضية لها هذه الخطورة ، ولا سيما حين يريد الشخص المتهم أن يبرىء نفسه وحين يكون فى امكانه أن يبرىء نفسه . نحن من جهتنا سنفعل كل ما يتعلق بنا ، ولا بد أنك لاحظت بنفسك بأية روح نجرى هذا الاستجواب ... أنت توافقنى على هذا يا هيبوليت كيريلوفتش ، أليس كذلك ؟ (أضاف هذا مخاطبا وكيل النيابة فجأة) .

أجاب وكيل النيابة مؤيداً ، ولكن بلهجة جافة بعض الجفاف ، لهجة تتعارض مع ما أظهره قاضى التحقيق من اندفاع حار :

ــ بدون شك .

ولنذكر مرةً واحدة أن نيقولا بارفينوفتش الذى وصل الى مدينتنا

منذ زمن قصير والذى هو فى بدايه عهده بمهنته ، قد شعر دفعه واحدة باحترام عظيم لشخص وكيل النيابه عندنا هيبوليت كيريلوفتش ، فانعقدت بين الرجلين صداقة قويه . وكان على كل حال هو الانسان الوحيد المؤمن حقا بالموهب السيكولوجية والخطابيه الفذة التى ينعم بها هيبوليت كيريلوفتش « الذى لم يقدر حق قدره » . وكان يعتقد هو أيضا ، اعتقادا جازماً ، بأن المراجع العليا تظلم وكيل النيابة هذا الذى سمع عنه فى سان بطرسبرج قبل أن يجىء الى مدينتنا . وكان نيقولا بارفينوفتش ، الشاب جداً ، هو كذلك الانسان الوحيد الذى شعر نحوه صاحبنا « المجهول القدر » بعاطفة صادقة . وقد اتسع وقتهما فى طريقهما الى موكرويه ، لأن تتفق آراؤهما فى هذه القضية ، ولأن يُجمعا على الموقف الواجب اتخاذه ، والطريقة الواجب تبنيها ، بحيث أن الفكر المرهف الذى ينعم به نيقولا بارفينوفتش يلتقط الآن بسرعة البرق أخفى الخواطر والنوايا التى تجول فى ذهن زميله الأكبر منه سناً ، ويحزرها بنصف كلمة ، باشارة خاطفة ، بحركة فى عضلات وجهه ، بغمزة من عينيه .

استأنف ميتيا كلامه متحمساً :

ـ دعونى أتكلم أيها السادة دون أن تقاطعونى مستوضحين تفاصيل تافهة ؛ وسأبسط لكم القضية كلها بسرعة .

ـ موافق . شكراً لك . على أننى قبل أن أسمع ما تريد أن ترويه لنا أحب أن أستوضح واقعة صغيرة تهمنا كثيراً ، هى مسألة تلك الروبلات العشرة التى اقترضتها أمس مساءً ، فى نحو الساعة الخامسة ، من صديقك بطرس ايلتش ، وأودعته مسدسيك رهناً .

ـ صحيح أيها السادة ، نعم ... رهنتهما ! أى شىء خارق فى هذا ؟ اننى ما ان عدت الى المدينة بعد تلك الرحلة ، حتى رهنت المسدسين ... الأمر بسيط جدا .

ـ بعد تلك الرحله ؟ هل تغيبت اذن ؟

ـ طبعا ! سافرت الى خارج المدينة ، علىَ مسافة أربعين فرسخاً من هنا . أكنتم تجهلون ذلك اذن ؟ تبادل وكيل النيابة وقاضي التحقيـــق النظرات .

ـ لعلك تحسن صنعاً اذا أنت بدأت بسطك للقضية بأن تصف لنا على وجه الدقة توزع وقتك بالأمس منذ الصباح . اسمح لى أن أسألك مثلاً ، ماذا كان الغرض من تغيبك ، ومتى سافرت ، وفى أية ســـاعة رجعت . ان جميع هذه الوقائع ...

قاطعه ميتيا وهو ينفجر ضاحكا :

ـ كان ينبغى أن تسألنى عن ذلك فـــوراً . بل اننى لأعتقد أنه يحسن أن نبدأ القصة لا من أمس بل من أمس الأول ، من صباح أمس الأول ، وستفهمون عنـــدئذ لماذا قمت بتلك الرحلة ، وماذا كان هدفى منها ، وما هى الظروف التى أحاطت بها . فى صباح أمس الأول ، أيها السادة ، ذهبت الى التاجر سامسونوف على نية أن اقترض منه ثلاثة آلاف روبل لقاء ضمانات موثوقة تماما . ذلك اننى احتجت الى هذا المبلغ احتياجا مستعجلا على حين فجأة ، احتياجا مستعجلا جدا أيها السادة ...

قاطعه وكيل النيابة يسأله بأدب :

ـ اسمح لى أن أسألك لماذا احتجت فجأة الى المال ، ولأى غـرض وجب عليك أن يكون معك ثلاثة آلاف حتماً ؟

ـ ما فائدة هذه التفاصيل كلها أيها السادة ؟ لمـــاذا ومتى وكيف وأين ... ما فائدة هذا كله فى الواقع ؟ لأن أحتـــاج الى ثلاثة آلاف روبل أو الى أى مبلغ آخر ... لن نفرغ من الأمر أبداً اذا نحن تهنا

فى هذه التفاصيل الدقيقة ! لسوف نحتاج عندئذ الى ثلاثة مجلدات على الأقل ، عدا المقدمة ! ...

كان ميتيا يتكلم بلهجة خالية من الكلفة رغم التململ ، لهجة انسان يريد أن يذكر الحقيقة كاملة وتحركه أطيب النوايا . واستأنف كلامه فجأة يقول :

ـ لا تؤاخذونى أيها السادة على هذه الخشونة . ثقوا أننى أشعر نحوكم بكل الاحترام الواجب لكم علىّ ، واننى مدرك موقفى تمام الادراك . وهأنذا أكرر ما سبق ان قلته : لا تظنوا كذلك أننى ثمل . فقد صحوت من سكرى كل الصحو . ولكن حتى لو كنت ثملاً ، فان ذلك لن يغير من الأمر شيئاً ، ولن يكون له أى تأثير فيما سأوضحه لكم. أنا واحد من أولئك الذين يصدق فيهم قول الشاعر :

انا ان صحوت رايتنى غبيا
فاذا سكرت غدوت عبقريا !

هأ هأ هأ ! ولكننى ألاحظ أيها السادة أنه لا يليق بى الآن أن أنكّت ، الى أن نفرغ من ازالة هذا الالتباس على الأقل . فاسمحوا لى اذن أن أحافظ على وقارى . اننى أدرك حق الادراك التفاوت القائم بيننا الآن : فأنا على كل حال انما أقف أمامكم موقف مجرم ، فهيهات أن أكون لكم نداً . ان مهمتكم هى أن تراقبونى . ولا شك أنكم لن تلاطفونى وتلاعبوا بأيديكم شعرى وتهنئونى على الحادث الذى وقع لى مع جريجورى . فليس من الجائز للانسان أن يصرع الشيوخ بغير ذنب جنوه ، وأنا أعلم حق العلم أنكم ستطالبون بأن يُحكم علىّ بالسجن ستة أشهر أو قولوا سنة ، معاقبةً لى على هذا الفعل الذى اجترحته ، ولكن دون سقوط مدنى . أنا لست معرّضاً للحرمان من حقوقى المدنية ، أليس

كذلك يا وكيل النيابة ؟ قلت اذن أيها السادة انني أدرك حق الادراك الفرق بين موقفي وموقفكم ••• ومع ذلك أرجوكم أن تعترفوا من جهتكم بأن الله نفسه يمكن أن تربكه أسئلة من هذ النوع : كم خطوة مشيت ، في أي لحظه رفعت قدمك اليسرى ، في أية لحظة أنزلت قدمك اليمنى ، على أي شيء سرت ؟ اذا أخذتم تلقون عليّ مثل هذه الأسئلة ، فسأرتبك أخيراً ، وستسجلون الخطأ الذي سأقع فيه ، وسينشأ عن ذلك أن لا نصل الى شيء • وما دمت قد بدأت ببعض الكذب ، فلا بأس أن أستمر في الكذب ، وستغفرون لي كذبي ، لأنكم أناس مهذبون مثقفون ثقافة عالية• أحب في الختام أن أرجوكم أيها السادة أن تقلعوا عن تلك الأساليب البالية في الاستجواب ، أعني البدء بالقاء أسئلة تافهة : كيف نهضت من نومك هذا الصباح ؟ ماذا أكلت ؟ أين بصقت ؟ ثم المبادرة ، بعد « تنويم يقظة المجرم » على هذا النحو ، الى مباغتته فجأة بهـــذا السؤال : « أين قتلت القتيل وسلبته ماله ؟ » • هأ هأ ! ••• ذلكم هو روتينكم ، ذلكم هو علمكم كله ، تلكم هي الحيلة الكبرى في أسلوبكم ! قد تستطيعون أن تباغتوا فلاحين بمثل هذه الأنواع من المكر ، ولكن ذلك لا ينطلي عليّ أنا ! أنا نفسي خبير في هذه الشئون ، لقد عملت أنا أيضا في هذا المجال ... هأ هأ هأ ! لا تزعلوا يا سادتي ، واغفروا لي هذه الوقاحة (كذلك صاح وهو ينظر اليهما ببراءة تبعث على الدهشة) فما دام ميتكا كارامازوف هو الذي يتكلم بهذه الطريقة ، فان التسامح والتساهل ممكن ، لأن ما لا يمكن غفرانه اذا هو صدر عن رجل ذكي ، يجب أن لا يُكترث به حين يكون ميتكا هو الذي يقوله ! هأ هأ ! •••

كان نيقولا بارفينوفتش يضحك أيضا وهو يصغي الى ميتيا ، ولكنه كان يلاحظه بالحاح ، ولا يحول عنه بصره النافذ ، ويحاول أن يســجل

كل كلمة من كلماته بل وأيسر حـــركة من حـــركاته ، وحتى أخف لاختلاجات فى عضلات وجهه •

قال القاضى وهو ما يزال يضحك :

ـ يجب أن تنصفنا هذا الانصاف على الأقل ، فنعترف بأنا لم نستعمل معك هذا الأسلوب • اننا لم نحاول أن نربكك بسؤالك كيف نهضت من ومك فى الصـــباح وماذا أكلت ، وانما واجهنا الأمر الأســـاسى دفعة واحدة ، بسرعة لعلها كانت مفرطة أيضا •

ـ اننى أفهم هذا وأقدره حق قدره • وأقدر كذلك ما أظهرتموه نحوى من طيبة وشهامة تدلان على سمو أخلاقكم • اننا جميعا ، نحـن لثلاثة صادقو النية تحركنا أنبل المشـــاعر • فليجر كل شىء بيننا كما ينبغى أن تجرى الأمور بين أصحاب يثق بعضهم ببعض ، وتربطهم روابط النبالة والشرف ! اسمحوا لى على كل حال أن أعدكم أصدقاء فى هـذه الدقيقة من حياتى ، فى هذه الساعة التى يذل فيها شرفى أكبر الاذلال ! أرجو أن لا يسوءكم هذا يا سادتى !

قال نيقولا بارفينوفتش مؤيداً :

ـ بالعكس ! لقد عبَّرت أحسن تعبير ، ووجدت أنسب الكلمات !

صاح ميتيا يقول بحماسة :

ـ أما التفاصيل ، أما تلك التفاصـــيل الزخرفية السـخيفة كلها ، فلندعها وشأنها ، والا لم نعلم الى أين يمكن أن ينتهى هذا كله ، أليس ذلك صحيحا يا سادتى ؟

قال وكيل النيابة يخاطب ميتيا فجأة :

ـ أنا مستعد كل الاستعداد لأن آخذ بنصائحك السديدة ، ولكننى

لن أستطيع مع ذلك أن أعـــدل عن سؤالى • فانه لعلى جانب عظيم من خطورة الشأن في نظرنا أن نعلم لماذا احتجت ذلك الاحتياج الشديد كله الى هذا المبلغ ، أعنى الى الثلاثة آلاف روبل •

ـ لماذا احتجت الى ذلك المبلغ ؟ احتجت اليـــه لأسباب عدة ••• الخلاصة : لأردّ ديناً علىّ •

ـ ديناً لمن ؟

ـ ذلك أرفض أن أقوله لكم رفضاً قاطعاً أيها السادة ! أرفض أن أقوله لكم لأننى لا أستطيع أن أقوله لكم ، لا عن خوف من أى شىء ، بل لأن الأمر فى الواقع هو من السفاسف التى لا قيمة لها البتة • ولئن صمتُّ عنه مع ذلك ، فلأن القضية قضية مبدأ : ان هذا السؤال يمس حياتى الخاصة ، ولن أسمح لكم بالتدخل فى حياتى الخاصة • لا ••• هنا لا تسامح ولا تنازل ! ان ما تسألون عنه لا علاقة له بالقضية ، وكل ما يتجاوز هذه الحدود فهو من حياتى الخاصة ! لقد أردت أن أردّ ديناً هو دين شرف ، ولكننى لن أذكر لكم اسم الشخص الذى كنت أريد أن أردّ له هذا الدين •

قال وكيل النيابة :

ـ اسمح لنا بتسجيل تصريحك •

ـ سجلوا ما شئتم ! اكتبوا أننى لن أجيب عن هذا السؤال بحـال من الأحوال ! اكتبوا أن فى الاجابة عن هذا السؤال اخلالاً بشرفى ! ليس الوقت هو ما يعوزكم فيما يبدو !

استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً بصوت أصبح قاسياً رصيناً على حين فجأة :

ـ أعتقد أن من واجبى أن أنبهك أيها السيد ، اذا كنت تجهل ذلك ، أن من حقك طبعا أن لا تجيب عن الأسئلة التى تلقى عليك ، وأننا لا نملك أن نجبرك على الاجابة اذا أنت رأيت لسبب من الأسباب أن تخفى هذه النقطة أو تلك من النقاط . ولكن من واجبنا أيضا أن نلفت نظرك الى الأذى الذى يمكن أن تلحقه بنفسك اذا أنت رفضت الادلاء بالمعلومات المطلوبة .

دمدم ميتيا يقول وقد اضطرب من اللهجة الرصينة التى خاطبه بها وكيل النيابة :

ـ ولكننى يا سادتى لم أغضب .. أنا .. أنا .. ان سامسونوف ذاك الذى ذهبت اليه حينذاك .. يا سادتى ..

لن ننقل هنا سلسلة الوقائع التى ذكرها ميتيا ، فان القارىء يعرفها. لقد أراد ميتيا أن يقدم عرضاً كاملا ومفصلاً ، وكان من جهة أخرى يستعجل انجاز هذا العرض . لذلك كان يتكلم متسرعاً . غير أن تصريحاته كانت تسجل شيئاً بعد شىء ، فكان هذا يضطره الى التوقف دائما من حين الى حين ، وكان هذا التوقف يضايقه ويزعجه ، فكان يتوقف عن الكلام وهو يدمدم متململاً ، ولكن دون أن يخرج عن طيبته وبساطته . كان يتفق له أن يصيح قائلاً فى بعض الأحيان : « أيها السادة، لو كان الله نفسه فى مكانى لضاق صدره فى هذه الظروف ! » أو « لست أرى أيها السادة ما الفائدة من امتحان أعصابى على هذا النحو ! » ، ولكن دون أن يفسد من ذلك مزاجه الذى كان عندئذ منطلقاً ودوداً . روى كيف أن سامسونوف قد خدعه قبل يومين (لقد أخذ يدرك الآن أن سامسونوف ضلّله وغرر به) . وذكر أنه باع ساعته بستة روبلات ليتمكن من السفر ، وتلك واقعة كان يجهلها وكيل النيابة وقاضى التحقيق، وقد لفتت انتباههما وظهر عليهما أنهما اهتما بها اهتماماً شديداً. فكان من شأن

الحاحهما على هذه النقطه أن أخرجا ميتيا عن طوره ، لأنهما رأيا أن من الضرورى تسجيل هده الوافعة ، دليلاً جديدا على أنه كان عشية وقوع الجريمة لا يكاد يملك قرشاً واحداً . ومنذ تلك اللحظة أخذ يتجهم وجه ميتيا مزيداً من التجهم شيئاً بعد شيء . وبعد أن روى قصة سفره سعياً الى لياجافى ، وقضائه ليلةً فى الكوخ الذى يملؤه الدخان ، وصف عودته الى المدينة ، وأخذ يصوِّر ، من تلقاء نفسه فى هذه المرة ، دون أن يُطلب منه ذلك ، جميع تباريح غيرته على جروشنكا . فكان القاضيان يصغيان اليه بانتباه صامتين . وقد سجلا خاصةً أنه كان قد أنشأ منذ زمن طويل ، مركزاً للمراقبة وراء منزل فيدور بافلوفتش فى حديقة ماريا كوندراتيفنا ، وأنه كان يترصد جروشنكا من هناك ، وأن سمر دياكوف كان ينقل اليه أخباراً ويطلعه على ما يجرى فى منزل أبيه . هذه الظروف كلها قد سُجِّلت بكثير من العناية والاهتمام . وتكلم ميتيا عن غيرته بافاضة وانفعال . فانه رغم الحرج النفسى الذى شعر به من عرض عواطفه الحميمة وتعرية نفسه تعريةً تسىء الى شرفه أمام الناس ، قد حاول أن يتغلب على هذه المقاومات وأن يذلل هذه الصعوبات حرصا منه على أن يقول الحقيقة صادقا . غير أن النظرات القاسية الباردة التى كان يصبها عليه قاضى التحقيق ووكيل النيابة محدِّقين اليه متفرسين فيه أثناء روايته القصة قد اضطربت منها نفسه آخر الأمر . قال فى سرِّه حزيناً : « ان هذا الصبى الغر نيقولا بارفينوفتش الذى بادلته منذ مدة أحاديث تافهة غثة عن النساء ، وان وكيل النيابة هذا المريض النفس ، لا يستحقان أن يسمعا ما أفضى اليهما به من اعترافات نفسى . يا للعار ! » . ولكنه استرد عزيمته مردداً ذلك البيت من الشعر الذى يقول : « قلبى اعتصمْ بالصبر والاذعان » . وتابع يروى قصته مجاهداً متجلداً . فلما وصل من حديثه الى الكلام على زيارته للسيدة هوخلاكوفا انبسطت

أساريره من جديد وشاع في نفسه المرح ، وأوشك أن يروى نكتة عن هذه السيدة كانت تشيع في صالونات المدينة ، ولكنها لا تناسب الظروف كثيراً . لذلك اسوقفه القاضي عن الكلام بلطف وكياسه ، راجيا منه أن ينتقل الى وقائع أهم . وحين وصف انصرافه من منزل تلك السيدة واليأس الذى اجتاح نفسه في الشارع ، لم يسقط من حديثه تلك الواقعة ، وهى أنه قد خطر بباله وهو فيما هو فيه من حيرة واضطراب « أنه لم يبق له الا أن يذبح أحدا ويسلبه ماله بأقصى سرعه للحصول على ذلك المبلغ . » . عندئذ طلب منه القاضيان أن يكرر أنه « قد خطر بباله أن يذبح أحداً » ، وأسرعا يسجلان ذلك . وتركهما ميتيا يسجلان أقواله دون امتعاض أو احتجاج . فلما وصل من حديثه أخيرا الى اللحظة التى علم فيها فجأة أن جروشنكا قد كذبت عليه حين زعمت له أنها ستبقى عند سامسونوف الى منتصف الليل ، مع أنها فى الواقع قد تركت التاجر العجوز بعد أن ودّعها ميتيا ببضع دقائق أمام باب منزل كوزمتش ، لم يملك أن يمنع نفسه من أن يصيح قائلاً :

ـ لئن لم أقتل فينيا تلك حين علمت النبأ ، فان السبب الوحيد يا سادتى هو أننى قد أعوزنى الوقت .

سُجِّلت هذه الأقوال كذلك بعناية واهتمام . فكان ميتيا ينتظر ، عابسَ الوجه مكفهر الأسارير ، أن يفرغ الكاتب من كتابته ؛ وهمَّ أن يشرح بعد ذلك كيف أسرع الى حديقة أبيه ، ولكن قاضى التحقيق قاطعه فجأة ، اذ فتح محفظة أوراقه الموضوعة على الكنبة قربه ، وأخرج منها مدق الهاون النحاسى ، وسأله :

ـ هل تعرف هذه الأداة ؟

فقال ميتيا وهو يبتسم ابتسامة شاحبة :

ـ هذا ؟ آ ••• نعم ••• طبعا أعرفها ! أرنيها ••• بل لا داعى لأن أراها ••• ما فائدة ذلك ؟

ـ نسيت أن تتكلم عن مدق الهاون هذا •

ـ صحيح • كان ينبغى أن أذكر هذه الواقعة ، فلولا هذا المدق لما وقع شىء ، ولكن الأمر كان قد خرج من ذهنى •

ـ هلاّ ذكرت لنا الظروف التى تسلحت فيها بهذا المدق !

ـ بكل سرور يا سادتى •

وروى ميتيا كيف تناول مدق الهاون من مطبخ فينيا عرضاً •

ـ ماذا كان هدفك من أخذ هذا السلاح ؟

ـ ماذا كان هدفى ؟ لم يكن لى غرض ، وانما أخذته هكذا •••

ـ ما هذا الكلام ؟ أكنت تأخذه لو لم يكن لك هدف ؟

غلى ميتيا حنقاً • كان يتفرس فى « الفتى الغر » مبتسما ابتسامة عداء وكره • ذلك أنه كان يشعر بمزيد من الخزى والعار ، شيئاً بعد شىء ، من أنه ارتضى أن يصف « لأناس مثلهم » ، بمثل هذا الصدق كله وبمثل هذا الاندفاع العاطفى كله فوق ذلك ، مشاعرَ الغيرة التى كانت تعذبه •

ـ مالنا ولهذا المدق اللعين ؟

ـ ولكن •••

ـ ولكن •• ولكن •• طيب •• كنت أريد أن أدافع عن نفسى من كلاب الشارع •• فى الظلام •• احتياطا للمفاجأة ••

ـ هل اعتدت ، من قبل ، حين تخرج ليلا ، أن تتسلح خوفا من الظلام ؟

ـ هوه ! حقاً انه ليستحيل الحديث معكم أيها السادة •••

كذلك صاح يقول ميتيا وقد بلغ أوج الغيظ والحنق •

ثم التفت نحو الكاتب ، فقال له بصوت فيه اهتياج غريب ، وقد احمر وجهه غضباً :

ـ اكتب ••• اكتب حالاً « انني أخذت المدق على نية الذهاب فورا الى أبى فيدور بافلوفتش •• لقتله •• لتحطيم جمجمته •• » •

ثم هتف يقول مخاطبا قاضى التحقيق ووكيل النيابة ، وهو يرشقهما بنظرة متحدية مستفزة :

ـ أأنتم راضون الآن أيها السادة ؟ هل طبتم نفساً ؟ هل اغتبطت قلوبكم ؟

فأجابه وكيل النيابة بلهجة جافة :

ـ نرى انك قد أعطيت هـذا التصريح بسبب حنقك منا وبسبب ضيقك بهذه الأسئلة التى تظن أنها تافهة • ولكننا مضطرون الى القاء هذه الأسئلة عليك لأنها فى الواقع هامة جدا •

ـ أرجوكم أيها السادة ! أخذت هذا المدق ••• طيب ! ان المرء يشعر أحياناً بالحاجة الى أن يكون فى يده شىء ••• الحق اننى أجهل لماذا أخـذته • لقد أخذته راكضـاً ، هذا كل شىء • ألا تخجلون أيهـا السادة ؟ دعونا من هذا ، والا فيميناً لن أحكى شيئاً بعد الآن !

قال ميتيا ذلك ووضع كوعيه على المائدة ، وجعل رأسه فى يده • كان جالسـاً الى جانب بالنسـبة الى الرجلين ، وكان ينظر الى الحائط محاولاً أن يسيطر على غضبه •وكان يغريه فعلاً أن ينهض وأن يصرح بأنه لن يقول بعد الآن كلمة واحدة « ولو سيق الى الموت » •

قال فجأة وهو يجاهد فى سبيل أن لا ينفجر :

ـ أتعرفون أيها السادة ؟ اننى ، وأنا أصغى اليكم ، أشعر باحساس غريب ... يذكرنى هذا الاحســـاس بحلم ... بحلم ما ... يعاودنى فى كثير من الأحيان أثناء النوم ... أحلم أن أحداً يطاردنى فى الليل ، فى الظلام ... أحداً أخاف منه خوفاً رهيباً ... انه يبحث عنى ،وأحاول أنا أن أختبىء منه ، أن أغيب عن بصره ... فألوذ جباناً وراء باب أو وراء خزانة ، فألطو هناك جامداً لا أتحرك ... والرجل الآخر يعرف أين أنا ، يعرف مخبئى ، ولكنه يتظاهر بأنه يجهله ليطيل عذابى ... وليتمتع بهلعى زمناً أطول ... ذلك هو بعينه ما تفعلونه أنتم فى هذه اللحظة أيها السادة ! ذلك هو بعينه تماماً !

ـ أتراودك اذن أحلام فيها خوف وقلق ؟

ـ أى نعم ... ألا تريدون أن تسجلواهذا أيضاً ؟

ـ لا ... لن نسجله . ولكنه اشارة هامة فى الواقع . الحق انك ترى أحلاماً غريبة ...

ـ غير أن ما أراه الآن ليس حلماً ! انه واقع أيها السادة ، هو واقع الحياة الرهيب ! أنا ذئب وأنتم الصيادون . فهلموا وراء الذئب !

قاطعه قاضى التحقيق قائلا له برقة ولطف :

ـ تخطىء أن ترى الأمور هذه الرؤية . لماذا هذا التشبيه ؟

فقال ميتيا غاضباً :

ـ بلى أيها السادة ! ان هذا التشبيه يصدق على الظرف الحاضر كل الصدق !

غير أن جوابه هذا قد خفف عنه ، فهدأ قليلاً ، وأخذت الطيبة تغزوه من جديد ، فتابع كلامه قائلاً :

ـ من حقكم أن تشكوا فى مجرم أو متهم تعذبونه باستجوابكم ، ولكن حين يكون أمامكم انسان مستقيم نبيل أيها السادة ، وحين يكلمكم هذا الانسان مستسلماً لأصدق اندفاعات قلبه ، فما ينبغى لكم عندئذ أيها السادة أن تشكوا فى كلامه ... لا يحق لكم أن لا تصدقوه ... لا يحق لكم ذلك حينذاك ...

... عليك بالصمت قلبى*

اصبر وأذعن ، وصمتا !

ثم سألهم فجأة وقد أظلم وجهه :

ـ أأستأنف سرد قصتى ؟

فأجابه نيقولا بارفينوفتش :

ـ طبعا ! لقد هممت أن أرجوك أن تفعل .

٥

المحنة الثالثة

ميتيا سرد قصته بصـــوت كالح ، ولكنه يحاول الآن ، أكثر مما كان يحـــاول قبل ذلك ، أن لا يُسقط أي واقعة من الوقائع التفصيلية . روى كيف وثب فوق السور ليدخل الى حديقة أبيه ، ووصف مشيته الصامته للاقتراب من النافذة ، وعرض عرضا دقيقا ماجرى أثناء اللحظات التي ظل فيها متربصا مراقبا وراء الشجيرات ، وصـــور تصويرا واضحا ـ وهو يفصّل كلماته ـ العواطف التي هزت نفسه حين كان يحاول قلقاً أن يعرف هل جروشنكا عند أبيه أم لا . ولكنه استغرب أن يرى أن وكيل النيابة وقاضي التحقيق يصغيان اليه في هذه المرة وقد ظهرت في وجهيهما قسوة ، واصطنعا الجد والكلفـة ، أصبحا لا يسـألانه عن شيء . كان يستحيل عليه أن يدرك من تعبير وجهيهما ما كانا يفكران فيه . قال في نفسه : « لا شك أنهما غاضبان مستاءان ؟ فليكن ما يكون !» . حتى اذا وصل من حديثه الى « الاشارة » التي قرر أن يستعملها حتى يظن أبوه أن جروشنكا وصـــلت فيفتح النافذة ، لاحـــظ أن قاضي التحقيق ووكيل النيابة لا يوليان هذا الأمر أي انتباه ، فكأنهما لايدركان خطورته ولا يفهمان ما هي تلك « الاشارة » التي يتحدث عنها ، فاستغرب ميتيا ذلك أشد الاستغراب . فلما وصل أخيرا الى اللحظة التي رأى فيها

أباه يميل من على النافذة ، فشعر بتأجج كرهه له وأخرج مدق الهاون من جيبه ، توقف ميتيا عن الكلام كأنه تعمد ذلك ، وأخـــذ يحدق الى الجدار ، ولكنه أحس أن الرجلين يرقبانه بانتباه شديد • قال وكيــل النيابة :

ـ هيه ، أخرجت السلاح من جيبك ••• ثم ••• ثم ••• ماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ بعد ذلك ؟ قتلته ••• ضربته على صدغه وكسرت جمجمته ••• هذا ما حدث فى زعمك ، أليس كذلك ؟

هكذا صاح ميتيا وقد قدحت عيناه شراراً • لقد تأجج الغضب فى نفسه من جديد ، بعنف متزايد •

قال نيقولا بارفينوفتش :

ـ ذلك فى زعمنا نحن • طيب • فماذا فى زعمك أنت ؟

خفض ميتيا عينيه • وخيّم صمت طويل •

ثم استأنف ميتيا كلامه قائلاً بصوت هادىء :

ـ فى زعمى أنا ، اليكم ما حدث أيها السادة • لا أدرى أبتهلت أمى الى الله فى تلك اللحظة ،أم انسكبت دموع بريئة طاهرة لابعاد الشر ، أم أمسكنى من يدى ملاك لا يُرى ؟ المهم أن الشيطان قد غُلب • ابتعدت عن النافذة ، وركضت متجهاً نحو السور ••• ذعر أبى ، وعرفنى فجأة، وأطلق صرخته ، وغاب عن النافذة ••• أتذكر هذا تذكراً واضحاً • اجتزت الحديقة ، وأسرعت أبلغ السور ، وفى تلك اللحظة انما ظهــر جريجورى الذى أدركنى حين كنت قد جثمت على السور •

قرر ميتيا أخيراً أن يرفع عينيه نحو محدثيه • فلاح له أنهما كانا

ينظران اليه بغير اكتراث • فألمت به رعدة من غضب • وقال لهما :

ـ ألاحظ يا سادتى أنكم تسخرون منى !

فسأله نيقولا بارفينوفتش :

ـ ما سبب خطور هذه الفكرة ببالك ؟

ـ انكم لا تصدّقون كلمة واحدة مما أقول ، أنا أدرك هذا • أوه ! فهمت : لقد وصلت الى عقدة القضية • العجوز يرقد الآن جثة هامدة محطم الجمجمة ، وأنا ، بعد أن وصفت لكم وصفا فاجعا كيف أردت أن أقتله ، وكيف أخرجت مدق الهاون من جيبى لهذا الغرض ، أصرّح لكم فجأة بأننى لم أزد على أن ابتعدت عن النافذة ! ••• هذه قصيدة حقا ، أليس كذلك ؟ كان ينبغى أن يقال هذا الكلام كله شعراً ! كيف يمكن أن يُصدّق رجل مثلى ؟ آه ••• ألا أنكم لتعرفون كيف تسخرون وتضحكون دون أن يظهر عليكم ذلك •

قال ميتيا هذا الكلام ، واستدار ثقيلا على كرسيه فقرقع الكرسى •

قال وكيل النيابة عندئذ دون أن يبدو عليه الاكتراث باضطراب ميتيا :

ـ هل لاحظت أثناء ابتعادك عن النافذة أكان الباب المفضى الى الحديقة فى الطرف الآخر من المبنى مفتوحا أم كان مغلقا ؟

ـ كان مغلقا •

ـ مغلقا ؟ أأنت متأكد ؟

ـ كل التأكد • كان ذلك الباب مغلقاً • ثم انه ما كان لأحد أن يستطيع فتحه •• هذا •• هذا الباب •• لحظة ! (كذلك صاح ميتيا يقول

مرتعشاً ، كأن فكرةً قد ومضت فى ذهنه فجأة) • ألعلكم وجـدتم ذلك الباب مفتوحا ؟

ـ نعم ، كان مفتوحا •

ـ فمن عسى يفتحه ان لم تفتحوه أنتم أيها السادة •

كذلك قال ميتيا مندهشاً كل الاندهاش •

فقال وكيل النيابة بصوت رصين بطيء ، مقطعا كلماته :

ـ كان الباب مفتوحا ، ومن المؤكد أن قاتل أبيك قد دخل المنزل من هناك ؛ حتى اذا أتم جريمته خرج من ذلك الباب نفسه أيضا • تلك نقطة نعدها مفروغاً منها • فمما لا يخالجنا فيه ريب أن القاتل قد ارتكب جريمته فى الغرفة لا من خـلال النافذة • ان هـذه النتيجة يدل عليها جميع ما شاهدناه ، يدل عليها وضـع الجثة وتدل عليها مجموعة من القرائن الأخرى • لم يبق أى شك من هذه الناحية •

عبَّر وجه ميتيا عن دهشة عميقة • وصاح يقول زائغ الوجه :

ـ ولكن هذا مستحيل كل الاستحالة • أنا ••• أنا لم أدخل البيت ! أؤكد لكم جازماً أن الباب ظل مغلقا أثناء وجودى فى الحديقة ، وأنه كان مغلقا أيضا حين هربت • اننى لم أتحـرك من مخبئى ؛ ومن النافذة وحدها انما رأيت ••• من النافذة وحدها ••• اننى أتذكر جميع التفاصيل • وهبنى لا أتذكرها ، فاننى على يقين من أن الباب كان مغلقا ، لأن أحداً لم يكن يعرف « الاشارات » الا أنا وسمرdياكوف ، والمتـوفى طبعا ؛ وبدون الاشارة المتفق عليها لا يمكن أن يفتح العجوز الباب •

ـ الاشارات ؟ عن أى اشارات تتكلم ؟

كذلك سأله وكيل النيابة بفضول شره محموم أفقده وضع الرصانة

والوقار فى لحظه . كان فى نبرة سؤاله شىء من مذلة ، شىء من ضراعة، ذلك أنه قد أحس أن هناك واقعه هامه كان ما يزال يجهلها ، وهو يخشى أن يرفض ميتيا أن يكشفها له بأكملها .

أجابه ميتيا وهو يغمز بعينه ويبتسم ابتسامة ماكرة :

ـ آ ... أنت لا تعلم ؟ فما رأيك اذا لم أشأ أن أقول لك شيئاً عن أمر تلك الاشارات ؟ من عسى يطلعك على ذلك فى هذه الحالة ؟ ذلك أن هذه الاشارات لا يعرفها أحد الا أنا وسمردياكوف والمتوفى. ان أحداً لم يُطْلَع على السر ، فليس يعرفه ، عدانا ، الا الله ... ولكن الله لن يقول لك شيئاً عن هذا الأمر ؟ وهو أمر هام الى أبعد الحدود ، لا يعرف الا الشيطان جميع النتائج التى يسمح بالوصول اليها . هأ هأ هأ ، مخاوفكم حمقاء ! انكم لا تعرفون الانسان الذى تخاطبونه . ان أمامكم متهماً يتلذذ بجمع القرائن التى تشهد عليه ! آ ... نعم يا سادتى ! ذلك أننى أنا فارس شرف ، ولكننى لن أقول مثل هذا الكلام عنكم أنتم !

بلع وكيل النيـابة هذه الأقوال الجـارحة برفق ولطف ، لأنه كان يحترق رغبةً فى معرفة الواقعة الجديدة . تكلم ميتيا بافاضة ودقة عن كل ما يتصل بالاشارات التى تصـورها خيال فيدور بافلوفتش لاسـتعمال سمر دياكوف ، وأوضح معنى كل طريقته من تلك الطرق المختلفة فى قرع النافذة ، ومثّلها هو نفسـه بالضرب على المـائدة . فسأله نيقولا بارفينوفتش عندئذ هل قرع النافذة بالاشـارة المتفق عليها لينبىء فيدور بافلوفتش بأن « جروشنكا وصلت » ، فأجابه ميتيا بأنه قد قرع النافذة فعلاً بعدد الضربات المتفق عليها لاعلان وصول السـيدة الشابة . وختم ميتيا كلامه قائلاً :

ـ فهأنتم أولاء اطلعتم على الأمر . هلموا اجمعـوا القرائن فوق القرائن ، وتابعوا استدلالاتكم واستخرجوا نتائجكم .

ثم حول وجهه عن الرجلين باحتقار .

سأله نيقولا بارفينوفتش مرة أخرى :

ـ أنت تؤكد اذن أنه لم يكن أحد غيركم ، أنت وأبوك والخادم سمر دياكوف ، يعرف هذه الاشارات ، أليس كذلك ؟ ألم يطلع عليها أحد غيركم البتة ؟

ـ لم يطلع عليها أحد غيرنا ، أنا وسمر دياكوف والله . لا تنسوا أن تسجلوا أن الله كان على علم بالسر . قد يكون العون الالهى ضروريا لكم أنتم أيضاً فى هذه القضية .

أسرعوا يسجلون جميع هذه التفاصيل . ولكن بينما كان الكاتب يكتب ، قال وكيل النيابة فجأة كأن فتراضا جديدا قد ومض فى ذهنه على حين بغتة :

ـ ولكن اذا كان سمردياكوف يعرف هذه الاشارات هو أيضا ، واذا كنت تنكر من جهة أخرى أن تكون أنت قاتل أبيك ، أفلا يمكن أن يكون هذا الخادم نفسه قد قرع الاشارة المتفق عليها ، فاستدرج أباك الى فتح الباب ، ثم ... ارتكب الجريمة ؟

فرشقه ميتيا بنظرة فيها سخرية شديدة وكره عنيف فى آن واحد؛ وظل يحدّق اليه مدة طويلة دون أن ينطق بكلمة واحدة ، حتى أن عينى وكيل النيابة أخذتا تطرفان . ثم انفجر ميتيا يسأله أخيرا :

ـ أتريد أن تقبض على الثعلب من جديد بهذا السؤال المغرى ؟ ولكن الثعلب قد هرب .. هأهأهأ ! ...لقد أدركت لعبتك يا وكيل النيابة ! خيّل اليك أننى سأثب على هذا « الطُعم » الذى تمده الىّ ، وأننى سأتبنى هذا التعليل الجميل الذى توحى به ، أليس كذلك ؟ لاشك أنك كنت تتوقع أن أصيح ملء حنجرتى قائلاً : « نعم نعم ، هو

سمردياكوف ؟ سمردياكوف هو القاتل ؟ » اعترف" بأن هذه هي فكرتك الخفية ، اعترف بذلك ، فأتابع قصتي •

ولكن وكيل النيابة لم يعترف ، بل ظل ينتظر صامتا • قال ميتيا :

ـ خطأ ! لن أتهم سمردياكوف •

ـ لا ولا يساورك أي شك فيه ؟

ـ وأنت هل يساورك هذا الشك ؟ هل تشتبه فيه ؟

ـ لقد تصورنا هذا الاحتمال أيضا •

أطرق ميتيا الى الأرض • ثم استأنف يقول وقد أظلم وجهه على حين فجأة :

ـ كفى مزاحاً • واليكم ما أريد أن أقـــوله لكم اذا شئتم الجد لا الهزل • انني منذ البداية ، وفي اللحظة التي أزحت فيها الستائر متقدما نحوكم ، في تلك اللحظة تقريبا ، ومضت في ذهني هذه الفكرة « أيكون هو سمردياكوف ؟ ••• » • ثم ، حين جلست أمامكم ، وبينما كنت أصيح قائلاً انني لم أسفح دم أبي ، كنت أقدر في قرارة نفسي أن سمردياكوف قد يكون هو القاتل ، ولم يبارح هذا الافتراض ذهني بعد ذلك • وفي هذه الدقيقة نفسها ، بينما كنت تلقي عليّ هذا السؤال ، قلت لنفسي مرة أخرى : « انه ســـمردياكوف ! » ، ولكنني سرعان ما انتهيت الى هذه النتيجة قائلا في سري : « لا ••• ليس هو سمردياكوف ! » • ليست هذه الجريمة من صنعه •

سأل نيقولا بارفينوفتش محاذرا :

ـ هل تشتبه اذن في شخص آخر ؟

فقال ميتيا جازما :

ـ لا أدري من عسى يكون القاتل ، اللهم الا أن يكون الله أو أن

يكون الشيطان هو الذى تدخل فى الأمر ••• ولكن لا يمكن أن يكون سمرد ياكوف هو القاتل •

ــ ما الذى يدفعك الى أن تؤكد جازماً هذا الجزم ، ملحاً هـــذا الالحاح ، أن القاتل ليس سمرد ياكوف ؟

ــ هو اقتناع داخلى يستند الى احساسات كثيرة • اننى أعتقد أنه ليس القاتل ، لأنه انسان ذو طبيعة حقيرة جدا ، ولأنه رعديد فوق كل شىء • ليس سمرد ياكوف رجلا جبانا بل هو جميع أنواع الجبن فى هذا العالم قد تجسدت كائناً حياً يسعى ؛ ان هذا الانسان هو الخوف نفسه متجسدا أيها السادة • لقد ولد هذا الرجل فى خم ! كان ، كلما كلمته ، يرتجف خوفا من أن أقتله ، مع أننى لم أكن أرفع يدى عليـــه • كان يرتمى على قدمىّ باكياً ويقبل حذاءىّ ضارعاً الىّ أن لا « أخيفه » • هل تسمعون ؟ « أن لا أخيفه ! » ماذا تعنى هذه الكلمة ؟ ومع ذلك كنت لطيفا معه على الدوام ، وكنت أهدى اليه الهدايا • هذا فرخ ممروض مصـاب بالصرع متأخر العقل يستطيع أن يضربه طفل فى الثامنة من عمره • أهذا رجل ؟ لا يا سادتى ، ليس لسمرد ياكوف ضلع فى هذا الأمر • ثم انه لا يحب المال ، ولقد كان يرفض المكافآت التى كنت أريد أن أهبها له • وما عسى يكون الباعث له على قتل العجوز ؟ ربما كان سمرد ياكوف ابن العجوز ، ابنه غير الشرعى ، هل تعرفون هذا ؟

ــ نعرف هذه الشائعة • ولكنك أنت أيضا ابن فيدور بافلوفتش ، ثم لم يمنعك ذلك من أن تعلن فى كل مكان أنك تنوى قتله •

ــ وهذا حجر آخر فى حديقتى ! انه لصغار وحطة منكم أن تأخذوا علىّ هذا ! هيَّا أيها السادة ، أنا لا أخشى غمـــزاتكم ولمزاتكم ! ولكن ألستم ترون أيها السادة أنه ليس لائقا أن ترموا وجهى بما أسررت به اليكم أنا نفسى ؟ هيه ••• طيب ••• أنا لم أشأ أن أقتله فحسب ، بل

كان في وسعي أن أفعـــل ، وقد اتهمت نفسي أمامكم بأنني أوشكت أن أصرعه ذات يوم . غير أنني لم أقتله ، فان ملاكي الحارس قد حماني من ارتكاب هذه الجريمة ... ولكنكم لا تعتقدون أن عليكم أن تقيموا وزنا لهذا الكلام . ذلك هو الشر في موقفكم ، ذلك هو في موقفكم مايستحق الاحتقار ! انني لم أقتله ، انني لم أقتله ، لا ، لم أقتله ، هل تسمع ياوكيل النيابة . أنا لم أقتله !

كان ميتيا يوشك أن يختنق . انه لم يضطرب هـــذا الاضطراب الشديد كله في أية لحظة أخرى أثناء الاستجواب . وسأل بعد صمت :

ـ فما الذي قاله لكم صاحبنا ســـمردياكوف ؟ هل يجوز لي أن أسألكم عن هذا ؟

فأجابه وكيل النيابة قائلاً بلهجه قاسية جافه :

ـ من حقك أن تلقي علينا ما تشاء من أسئلة . انني أسمح لجميع الأسئلة التي تتصل بالظروف المادية للقضية . أعود فأقول لك ان من واجبنا أن نطلعك على جميع النقاط التي قد تنيرها . لقد وجدنا هذا الخادم سمر دياكوف الذي سألت عنه الآن راقداً على سريره مغشياً عليه يعاني من نوبة صرع شديدة ، هي النـــوبة العاشرة فيما أظـــن ، لأن النوبات تتلاحق بلا انقطاع ، حتى لقد صرّح الطبيب الذي رافقنا صرّح ، بعد أن فحصه ، أن أغلب الظن أنه لن يعيش بعد هذه الليلة .

ـ فالشيطان هو الذي قتل أبي اذن !

بهذا هتف ميتيا ، كأنه لا يزال يتساءل حتى تلك اللحظة : « أهو سمردياكوف أم لا ؟ » .

قال نيقولا بارفينوفتش حاسماً المناقشة :

ـ سنعود الى هذه المسألة فيما بعـــد . هل يمكنني أن أرجوك أن تستأنف سرد الوقائع ؟

طلب ميتيا أن يؤذن له بأن يستريح بضع لحظات ، فوافق وكيل النيابة على ذلك بلطف وكياسة • وتابع ميتيا كلامه بعد انقطاع قصير ، ولكن كان واضحا أنه أصبح خائر القوى ، وأن الاستجواب قد أرهقه ، وأن نفسه كانت مهتزة مستاءة • ثم ان وكيل النيابة كان يبدو أنه يتعمد الآن أن يثير أعصابه بتصديعه في كل لحظة بأسئلة تتناول أمورا تافهة لا قيمة لها • من ذلك مثلا أنه ما كاد ميتيا يصف كيف جثم على السور وكيف ضرب بمدق الهاون الخادم جريجورى الذى تشبث بساقه اليسرى وكيف سارع يثب الى الحديقة بعد ذلك ويميل على الضحية ، حتى استوقفه وكيل النيابة راجيا منه أن يوضح طريقة جلوسه على السور • فدهش ميتيا من هذا الالحاح ، وقال يجيبه :

ـ جلست •• هكذا •• راكبا •• كركوبى على حصان ••• فى كل جهة ساق •

ـ ومدق الهاون ؟

ـ مدق الهاون ؟ كنت أمسكه بيدى •

ـ لا فى جيبك ؟ هل تتذكر هذا تذكراً تاما ؟ هل اندفعت اندفاعة قوية لتضربه ؟

ـ لا بد ••• ما دمت قد ضربت ضربة قوية • لماذا هذا السؤال ؟

ـ هل لك أن تجلس على هذا الكرسى بالطريقة التى جلست بها على السور ، وأن تقلد الحركة التى قمت بها ، والاندفاعة التى اندفعتها بذراعك ، والجهة التى سددت اليها الضربة ، زيادةً فى الايضاح ؟

سأل ميتيا محدِّثه وهو يرشقه بنظرة متكبرة :

ـ أتراك تسخر منى ؟

ولكن وكيل النيابة لم تطرف عينه • فاستدار ميتيا فوق كرسيه

بحركة عصبية ، وجلس عليه راكبا ركوبه على حصان ، ورفع ذراعيه ، وقال :

ـ انظروا كيف ضربته ، انظروا كيف قتلته ! أأنتم راضون الآن ؟ ماذا تريدون أيضا ؟

ـ شكراً . هلاً شرحت لنا الآن لماذا وثبت بعد ذلك الى الحديقة ، وماذا كان هدفك من هذا ؟ ما هو الدافع الذى خضعت له حين تلبثت هذا التلبث قرب ضحيتك ؟

ـ عجيب ... هل أعرف لماذا ؟ ملت عليه وكفى ، لست أعـرف السبب الذى دفعنى الى ذلك .

ـ لقد قفلتَ راجعاً الى الحديقة مع انك كنت تعانى انفعالاً شديدا وكنت تريد أن تهرب . فهلاً شرحت لنا هذا ؟

ـ نعم ، كنت منفعلاً وكنت أريد أن أهرب .

ـ فهل كان فى نيتك أن تسعفه ؟

ـ لا ... على كل حال ، لا أدرى . لعلنى أشفقت عليه ، لا أتذكر الآن .

ـ لا تتذكر ؟ أكنت قد أصبحت لا تعرف ماذا تفعل ؟

ـ بل كنت واعيا كل الوعى ، وانى لأتذكر أيسر التفاصيل . دعونا من ذلك الكلام ! لقد أردت أن أرى الحالة التى كان عليها ، وأن أمسح دمه بمنديلى .

ـ عثرنا على المنديل . هل كنت تأمل انقاذ حياة الانســان الذى صرعته ؟

ـ لا أدرى هل كنت آمل ذلك . لقد أردت ، بكل بساطة ، أن أعرف أهو ما يزال حياً أم لا ؟

ـ ها ؟ أردت أن تعرف أهو ما يزال حياً أم لا ؟ فماذا وجدت عندئذ ؟

ـ لم أستطع التأكد ، لأننى لست طبيبا • ثم هربت معتقدا أننى قتلته • وها هو ذا صحا من اغمائه •••

قال وكيل النيابة أخيرا :

ـ عظيم • شكراً • ذلك بعينه ما كنت أريد أن أعرفه . هلاّ تفضلت فتابعت سرد الوقائع ؟

وا أسفاه ! لم يخطر ببال ميتيا ـ رغم أنه يتذكر تذكراً واضحا ـ أن يذكر أنه انما وثب الى الحديقة بدافع الشفقة ، وأنه حين مال على العجوز جريجورى قد نطق بكلمات تعبِّر عن الشفقة على ذلك العجوز الذى آلمه أن يراه مجندلاً فى هذا المكان • ان كل ما حفظه وكيل النيابة من أقوال ميتيا هو أنه وثب عن السور « فى لحظة كتلك اللحظة ، رغم الاضطراب الشديد الذى كان يعانيه » ، دون أن يكون له من هدف الا أن يعرف هل الشاهد « الوحيد » على جريمته ما يزال حياً أم أنه مات • وحدّث وكيل النيابة نفسه قائلاً : « ان هذا السلوك يدل على قدر كبير من هدوء الأعصاب وقوة التصميم ودقة الحساب لدى هذا الرجل »، ثم أضاف يقول لنفسه : « وأخيرا ! لقد استطعت أن أنهك قواه بهذه السفاسف ، فاذا هو يفضح نفسه •• »

وتابع ميتيا سرد قصته فى عناء ومشقة ، ولكن نيقولا بارفينوفتش استوقفه عن الكلام من جديد • سأله :

ـ كيف ذهبت الى الخادمة فيدوسيا ماركوفنا مع أن الدم كان ما يزال يلطخ يديك وحتى وجهك ، كما ثبت ذلك فيما بعد ؟

ـ لم ألاحظ عندئذ أننى كنت مضرجا بالدم •

قال وكيل النيابة وهو ينظر الى قاضى التحقيق :

ـ انه يقول الحقيقة الآن ، فذلك ما يحدث عامة فى مثل هذه الحالة •

فقال ميتيا مؤيدا كلامه بحرارة :

ـ لم ألاحظ ذلك عندئذ ، نحن الآن متفقان كل الاتفاق يا سيادة وكيل النيابة !

بقى عليه أن يروى كيف قرر فجأة أن « يتنحى عن الطريق » ، وأن « يخلى الدرب للحبيبين السعيدين » • ولكنه أحس أنه لا يملك الآن ، كما كان يملك فى بداية الاستجواب ، القدرة على أن يفتح قلبه ، وأن يتحدث عن « ملكه قلبه » حديثا طلقاً حراً • ان شعورا بالاشمئزاز أمام هذين الانسانين الفاترين اللذين يثبتان عليه أعينهما ، بل يغرسانها فى لحمه غرساً كحشرات تمص دمه ، أقول ان شعورا بالاشمئزاز كان يصده عن الانطلاق فى الكلام • فاقتصر على بضعة أجوبة مقتضبة جافة عن أسئلة مكررة ألقيت عليه حول هذه النقطة •

ـ نعم قررت أن أنتحر • لم يبق ثمة ما يربطنى بالحياة ويشدنى اليها ، وكان هذا الحل يفرض نفسه بنفسه • ان صديقها القديم الشرعى الذى هجرها فى الماضى قد عاد اليها بعد خمس سنين ممتلىء القلب حباً ، ليتزوجها فيصلح بذلك ما أفسد من أمرها ، ويزيل عنها الأذى الذى ألحقه بها • أدركت عندئذ أن كل شىء قد انتهى ••• وعدا هذا كان يلاحقنى ذلك العار ، وكان ورائى دم جريجورى هذا ••• ففيم الحياة بعد ذلك كله ؟ هكذا ذهبت الى ذلك الموظف لأسترد منه المسدسين ، وحشوت أحدهما على نية أن أطلق فى رأسى رصاصة منذ الفجر •••

ـ وبانتظار ذلك ، قررت أن تلهو وأن تعبث وأن تقصف طوال الليل ؟

ـ نعم نعم ، قررت ذلك ! هلاّ انتهينا من هذا أيها السادة ! لقد

عزمت عزماً أكيدا على أن أنتحر هناك ، فى أقصى هذه القرية ، وكان ينبغى أن أنفذ عزمى هذا فى الساعة الخامسة من الصباح . وقد هيأت كلمة أشرح فيها السبب ، كلمة كنتم ستجدونها فى جيبى . لقد كتبتها عند برخوتين حين حشوت مسدسى . اليكم الورقة التى كتبت عليها تلك الكلمة ، اقرأوها ان شئتم .

وأضاف يقول فجأةً باحتقار :

ـ ولست أروى هذا كله من أجلكم أنتم .

ثم سلّ من جيبه ورقة ورماها على المائدة . قرأ وكيل النيابة وقاضى التحقيق الورقة باستطلاع شديد ، وضمّاها الى الملف وفقاً للأصول .

ـ ألم يخطر ببالك أن تغسل يديك قبل أن تذهب الى السيد برخوتين ؟ ألم تكن تخشى اذن أن توقظ شبهات وشكوكاً ؟

ـ شبهات وشكوكا ؟ ماذا يهمنى هذا ؟ كنت سأجىء الى هذا المكان لأطلق على رأسى رصاصة فى الساعة الخامسة من الصباح ولو لم تحم حولى شبهة ارتكاب جريمة . وما كان لوقتكم أن يتسع عندئذ لتدخلكم. فلولا المصيبة التى حلت بأبى ، لما عرفتم شيئاً ولما وُجدتم الآن هنا . ذلك من صنع الشيطان ، هل تعلمون ؟ ان الشيطان هو الذى قتل أبى وتولى مهمة ابلاغكم بهذه السرعة ! ماذا فعلتم حتى استطعتم أن تصلوا الى هنا بعد وقوع الجريمة بزمن قصير هذا القصر ؟ ذلك أمر لا يصدّق !

ـ ذكر لنا السيد برخوتين أنك حين دخلت عليه كنت تمسك بيديك .. بيديك الداميتين .. أوراقا مالية .. مبلغا ضخما .. حزمة من الأوراق المالية من فئة المائة روبل ؟ ويظهر أن خادمه الصغير قد رأى هذه الأوراق المالية أيضا .

ـ صحيح . فعلا . أظن أننى أتذكر هذا .

قال نيقولا بارفينوفتش بصوت رفيق جدا :

ـ هنا ينبثق سؤال صغير • ألا تستطيع أن تقول لنا من أين جاءك هذا المال ، مع أن جميع الظروف تدل على أنك لم يتسع وقتك حتى للمرور بمنزلك ؟

انتفض وكيل النيابة قليلاً حين سمع هذا السؤال يلقى دفعةً واحدة بهذه الطريقة المفاجئة ، ولكنه لم يقاطع قاضى التحقيق •

أجاب ميتيا قائلاً بهدوء ظاهر ، ولكن مطرقاً الى الأرض :

ـ لم أمرَّ ببيتى فعلاً !

فعاد نيقولا بارفينوفتش يقول برفق وجل غامز :

ـ فاسمح لى اذن أن أكرر سؤالى : من أين جئت بهذا المبلغ مادام ينتج من تصريحاتك نفسها أنك فى الساعة الخامسة بعد الظهر كنت •••

ولكن ميتيا قاطعه بعصبية قائلاً :

ـ فى الساعة الخامسة ؟ كنت فى حاجة ملحة الى عشرة روبلات ، فرهنت مسدسىَّ عند برخوتين ، ثم ذهبت الى السيدة هوخلاكوفا لأقترض منها ثلاثة آلاف روبل ، فرفضت أن تقرضنى ، وهلم جرا ••• أعرف القصة (كذلك أضاف ميتيا يقول بلهجة هجومية) • كنت لا أملك قرشاً واحداً ، أليس كذلك أيها السادة ، ثم اذا بى أملك ألوف الروبلات على حين فجأة ، هه ؟ أحسب أيها السادة أنكم ترتجفون خوفا من أن أرفض أن أذكر لكم مصدر هذا المال ، أليس كذلك ؟ طيب ••• أنا أرفض ، نعم أرفض أن أشير لكم الى مصدر المال • لقد حزرتم • لن أتكلم ، ولن تعرفوا شيئاً عن هذه النقطة •

كذلك حسم ميتيا الكلام بلهجة قاطعة وهيئة حازمة •

وساد صمت •

واستأنف نيقولا بارفينوفتش حديثه يقول بلهجة فيها رفق واذعان:

ـ اعلم يا سيد كارامازوف أنه لا غنى لنا عن معرفة مصدر المال •

ـ أدرك ذلك ، ولكننى مع هذا لن أقول لكم شيئاً •

وتدخل وكيل النيابة هو أيضاً ، فذكّر ميتيا مرةً أخرى بأن من حق المتهم أن لا يجيب عن الأسئلة الملقاة عليه اذا هو قدر أن الصمت أنفع له وأجدى عليه ، ولكن لما كان يتعرض باتخاذ مثل هـذا الموقف لأن يلحق بنفسه أذى ، ولا سيما حين يكون الأمر أمر وقائع لها مثل هذه الخطورة •••

فقاطعه ميتيا قائلاً بفظاظة :

ـ وهلمَّ جرا أيها السادة ، وهلمَّ جرا ! كفى ! لقد سبق أن سمعت هذه الأقوال المعادة المكرورة ! ثم اننى أدرك أنا نفسى خطورة هذا السؤال الذى تلقونه علىَّ ، وأعلم أنه النقطة الرئيسية فى القضية ، ولكننى مع ذلك لن أتكلم •

فقال نيقولا بارفينوفتش بلهجة عصبية :

ـ هى مصلحتك أنت لا مصلحتنا نحن على كل حال ! لك أن تفاقم حالتك ما دمت حريصا على ذلك !

رفع ميتيا عينيه ، ونظر اليهما بصلابة وثبات قائلاً :

ـ اسمعوا أيها السادة • سأكون صريحا • لقد أحسست منذ البداية أننا سنصطدم عند هذه النقطة • ولكن حين بدأت قصتى هذه كان هذا الحاجز ما يزال يبدو لى فى مكان بعيد غائم ، كأنه غارق فى الضباب ، حتى لقد بلغت من السذاجة فى تلك اللحظة اننى اقترحت عليكم أن نقف دفعة واحدة على أرض الثقة المتبادلة • وانى لأدرك الآن أن هذه الثقة كانت مستحيلة ، لأننا كنا سنصطدم بهذا الجدار عاجلاً أو آجلاً ••• وها نحن أولاء نصطدم به ••• فمن المستحيل أن نستمر •

هذا كل شيء • ولست ألومكم على كل حال ، فانني أفهم حق الفهم أنكم ليس في وسعكم أن تصدقوا ما أذكره لكم على عهد الشرف •

قال ميتيا ذلك وصمت مظلمَ الوجه •

ـ ألا تستطيع على الأقل ، دون أن تتزحزح عمَّا عزمت عليه من صمت حول النقطة الأساسية ، ألا تستطيع أن تذكر لنا ولو باشارة يسيرة البواعث القوية التي أمكنها أن تحملك على أن لا تجيب عن سؤالنا في ساعة خطيرة وخطرة الى هذا الحد بالنسبة اليك ؟

ابتسم ميتيا حزينا واجما مفكرا •

ـ أنا خير مما تتصورون أيها السادة ، سأشرح لكم هذه البواعث، سأذكر لكم ما تطلبونه ، رغم أنكم لا تستحقون ذلك كثيرا ! انني أرفض أن أتكلم لأنني أخشى العار • ان الجواب على السؤال عن مصدر ذلك المبلغ من المال يشتمل بالنسبة اليَّ على دناءة اذا قيست بها جريمة قتل أبي وسلبه المال بدت أمرا هينا يسيرا ، حتى ولو كنت أنا المجرم • ذلكم هو سبب اضطراري الى الصمت • ان الشعور بالعار يخنقني • ماذا تفعلون أيها السادة ؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال أيضا ؟

تمتم نيقولا بارفينوفتش يقول :

ـ نعم سنسجلها •

ـ ما ينبغي لكم أن تسجلوا ما قلته عن « الدناءة » • لقد فتحت لكم قلبي من قبيل المجاراة • كان بمكنني أن أمنع عنكم هذا الايضاح • لقد قدمت اليكم هذا الايضاح بغير داعٍ الى ذلك ، فهل تسارعون الى تسجيله أيضاً ؟ ليكن أيها السادة ! اكتبوا ما شئتم أن تكتبوا ، أنا لا أخشاكم ، ولن أطأطيء رأسي أمامكم •

بهذا ختم ميتيا كلامه مشمئزاً •

دمدم نيقولا بارفينوفتش يسأله :

ـ هل تقبل أن تقول لنا ما نوع الدناءة التى تعنيها ؟

ـ انتهى ! لا تلحوا ! اننى اذ تكلمت أمامكم قد دنست نفسى بما فيه الكفاية ، فعلام أدنس نفسى مزيداً من الدنس ؟ ••• كفى أيها السادة ، لن أقول بعد هذه اللحظة كلمة واحدة •

تكلم ميتيا بلهجة قاطعة جداً ؛ فاعتقد نيقولا بارفينوفتش أنه لا جدوى من الالحاح ، ولكنه سرعان ما أدرك من نظرة هيبوليت كيريلوفتش أن هذا لم ييأس بعد •

ـ قل لنا على الأقل مقدار المال الذى كان بيديك حين وصلت الى السيد برخوتين • كم روبلاً كان المبلغ ؟

ـ لا أستطيع أن أقول •

ـ ألم تتحدث الى السيد برخوتين عن ثلاثة آلاف روبل زعمت أنك أقترضتها من السيدة هوخلاكوفا ؟

ـ ربما ذكرت له شيئاً من هذا القبيل • كفى أيها السادة ، لن أقول بعد هذا كلمة واحدة •

ـ أوضح لنا اذن كيف جئت الى هنا ، وماذا فعلت منذ وصولك الى موكرويه !

ـ ستعرفون ذلك بسهولة متى سألتم الأشخاص الآخرين الموجودين هنا • على كل حال ، لا أرى بأساً فى أن أروى لكم هذا •

وقص عليهم ميتيا قصة هذه الليلة التى يعرف القارىء جميع تفاصيلها • وكان يتكلم هذه المرة فى جفاف ، مقتصراً على اشارات مقتضبة ، فلم يتحدث عن اندفاعات حبه الحارة • ومع ذلك ذكر أن عزمه على الانتحار قد زال بسبب « ظروف جديدة » • ولم يتحدث عن حالاته

النفسية ، بل اقتصر على الوقائع المادية وحدها • ولم يزعجه أحد بالأسئلة أثناء ذلك ، فلقد كان واضحاً فى نظر وكيل النيابه وقاضى التحقيق أن الأمر الأساسى ليس هنا •

قال نيقولا بارفينوفتش ليختم الاستجواب :

ـ سنتحقق من صدق أقوالك ، وسنعود اليها حين نسمع أقوال الشهود ، بحضورك طبعاً • أحب أن أرجوك الآن أن تضع على هذه المائدة جميع الأشياء التى معك ، ولا سيما الأموال ••• جميع المبالغ التى هى فى حوزتك الآن •

ـ المال أيها السادة ؟ طيب ، طيب ••• أنا أفهم أن هذا لا بد منه ، بل اننى لأستغرب أنكم لم تظهروا هذا الفضول قبل الآن • وما كان لى أن أتهرب طبعاً ، ما دمتم ترافبوننى • اليكم المال • عدّوه • خذوا • أحسب أن هذا كل شىء •••

أفرغ ميتيا جيوبه افراغاً كاملاً ، وأخرج حتى النقود الصغيرة ، ومنها قطعتان نقديتان من فئة العشرة كوبكات ، أخرجها من جيب صديريته • وجُمعت الأموال ، فبلغت ثمانمائة وستة وثلاثين روبلاً وأربعين كوبكاً •

سأله القاضى :

ـ أهذا كل شىء ؟

ـ نعم •

ـ لقد تفضلت فقلت لنا منذ قليل ، أثناء سرد الوقائع ، أن ثمن ما اشتريته من متجر آل بولتنيكوف قد بلغ ثلاثمائة روبل ، فاذا أضعنا اليها العشرة روبلات التى رددتها الى برخوتين ، والعشرين روبلاً التى أعطيتها الحوذى ، والمائتى روبل التى خسرتها فى اللعب بالورق أثناء الليل ، ثم •••

أجرى نيقولا بارفينوفتش الجمع تفصيلاً ، وكان ميتيا يساعده راضياً ، ووُضعت قائمة دقيقة بجميع النفقات ، وحسب نيقولا بارفينوفتش الحاصل ، فقال :

ـ فاذا حسبنا الثمانمائة روبل التى بقيت لك ، كان معنى هذا انك كنت تملك ألف وخمسمائة روبل ، أليس كذلك ؟

ـ ممكن

ـ فكيف يُجمع الشهود اذن على أن المبلغ أكبر من ذلك •

ـ لهم أن يقولوا ما يشاءون •

ـ لقد أكدت أنت نفسك أنك كنت تملك أكثر من هذا •

ـ لعلنى أكدت ذلك •

ـ سنمتحن هذه الوقائع على ضوء شهادات الشهود الآخرين • أما المال فلا تخش عليه • سنحتفظ به فى مكان مأمون ، وسيُردّ اليك فى نهاية ••• هذا التحقيق ••• اذا ظهر عندئذ أو قل اذا ثبت عندئذ ثبوتاً قاطعاً أنه لك أنت بغير شك •••

قال نيقولا بارفينوفتش هذا ، ونهض فجأة ، وأعلن لميتيا بصوت قاطع أنه يرى نفسه « مضطراً » الى أن « يفتش ملابسه وكل ما معه تفتيشاً دقيقاً » •

ـ افعلوا أيها السادة • سأقلب جيوبى ان شئتم •
وأخذ يقلب جيوبه •

ـ لا هكذا • لا بد من أن تخلع ملابسك •

ـ ماذا ؟ أخلع ثيابى ؟ عجيب ••• ألا يكون نبش جيوبى أسهل من ذلك ؟

ـ بل لا بد من خلع ثيابك يا دمترى فيدوروفتش • يجب أن تخلع ثيابك •

قال ميتيا عابساً مذعناً :

ـ كما تشاءون • ولكن لا هنا ، بل وراء الستائر ••• أرجوكم ••• من يتولى التفتيش ؟

قال قاضى التحقيق وهو يحنى رأسه موافقاً :

ـ طبعاً وراء الستائر •

وطاف بقسمات وجهه الدقيقة عندئذ تعبير عن وقار خاص •

٦

وكيل النيابة يشوش ميتيا

إن ما حدث عندئذ لم يكن فى حسبان ميتيا أبداً . ما كان له أن يتخيل ، قبل دقيقة واحدة ، أن من الممكن أن يعاملوه هذه المعاملة ، هو ، دمترى كارامازوف ! ان فى هذا « اذلالاً » له ، « وازدراء متعالياً » منهم ! وليتهم لم يطلبوا منه أن يخلع الا ردنجوته ! لقد رجوه أن يخلع ملابسه كلها ... بل لم يكن هذا منهم رجاءً ، وانما كان فى الواقع أمراً ، وقد فهم هو ذلك ، فخضع للأمر دون تذمر ، كبرياءً واشمئزازاً ! وقد دخل الى ما وراء الستائر ، عدا وكيل النيابة وقاضى التحقيق ، عددٌ من الفلاحين أيضاً ، فقال ميتيا يحدث نفسه : « لقد دخل هؤلاء للمساعدة فى اجبارى على خلع ملابسى ، وربما لبواعث أخرى كذلك » .

سأل ميتيا بصوت يصطنع الحزم :

ـ هيه ! هل أخلع القميص أيضاً ؟

ولكن نيقولا بارفينوفتش لم ير داعياً الى الاجابة . لقد كان مشغولاً مع وكيل النيابة بتفتيش الردنجوت والسروال والصديرة والقبعة . وكان يبدو على الرجلين أن هذا التفتيش يهمهما الى أقصى حد . قال ميتيا

في نفســـه : « أصبحا لا يتحرجان من شيء ، ولا يراعيان أبسط قواعد الأدب واللباقة ! » وقال يسألهما :

ـ أسألكم مرة أخرى : أيجب أن أخلع القميص أم لا ؟

فأجابه نيقولا بارفينوفتش قائلاً بلهجة جافة آمرة (هذا احساس ميتيا على الأقل) :

ـ لا تقلق ، سنقول لك ذلك في حينه .

كان وكيل النيابة وقاضي التحقيق يتبادلان الرأي بصوت خافت . ان هنــاك بقع دم ، غير متخثرة تخثراً كاملاً ، تظهر على الردنجوت ، ولا سيما في الظهر وفي الحافة اليسرى . وان هناك بقع دم أخرى تُرى في السروال أيضــاً . وعدا ذلك أخذ نيقولا بارفينوفتش ، بحضـــور الفلاحين المكلفين ، يجس الياقة وطيات الأكمام ، ويجس كذلك مختلف خياطات الثياب ، كأنه يقدّر أن يكتشف فيها شيئاً ... هو المال طبعاً ... وأخطر ما في الأمر أن الرجلين كانا يدلان بذلك ، بحضور ميتيا ، على انهما يريان أن من الجائز جداً أن يكون قد أخفى المال المسروق في بطانات الثياب . فجمجم ميتيا يقول :

ـ انني أعامل الآن معاملة لص ، لا معاملة ضابط .

لقد كانا يتبادلان الآراء بصـــوت عال وصراحة تامة دون اكتراث بوجوده . من ذلك مثلاً أن الكاتب ، الذي كان كثير الحركة هو أيضاً ، قد لفت انتباه نيقولا بارفينوفتش الى القبعة التي أخذ يجسها أيضــاً ، قائلا له:

ـ تذكروا المستخدم جريدنكا . لقد أوفد في هذا الصيف لقبض رواتب جميع موظفي الدائرة ، فلما عاد صرّح بأنه فقد المال وهو في حالة سكر . فأين وجدوا المال بعد ذلك ؟ وجدوه في شريط قبعته ! لقد صنع

من أوراق المائة روبل لفات صغيرة استطاع أن يدسّها تحت الشريط ، ثم خاط الشريط .

لم يكن وكيل النيابة وقاضى التحقيق قد نسيا قضيه جريدتنا ، فوضعا قبعة ميتيا فى جانب وفى نيتهما أن يفتشا ملابسه بعد ذلك بمزيد من التدقيق أيضاً

ورأى نيقولا بارفينوفتش قبضة الكم اليمنى من قميص ميتيا ملطخة بالدم ومقلوبة ، فهتف يقول فجأة :

ـ هل تسمح ؟ هذا دم أيضاً ان لم يخطىء ظنى .

فأجاب ميتيا قائلاً بصوت قاطع :

ـ نعم ، هو دم .

ـ دم ؟ أى دم ؟ ... ولماذا قلبت الكم ؟

فذكر ميتيا أنه بعد أن تلطخ كمه أثناء اهتمامه بجريجورى ، قد شمره عند برخوتين الذى غسل يديه عنده أيضاً .

قال نيقولا بارفينوفتش :

ـ سيجب أن تنزع قميصك أيضاً ... هذا أمر هام جداً لاستكمال المشاهدات المادية .

فاحمر وجه ميتيا وقال غاضباً :

ـ أأصبح عارياً الآن ؟

ـ اطمئن ... سنرتب هذا . وبانتظار ذلك ، أنزع جوربيك من فضلك .

سأل ميتيا وقد سطع فى عينيه حنق :

ـ أأنتم تمزحون ؟ أهذا ضرورى حقاً ؟

فأجابه القاضى قائلاً بلهجة قاسية :

ـ ما نحن فى موقف المزاح فنمزح !

غمغم ميتيا يقول وقد جلس على السرير وأخذ يخلع جوربيه :

ــ ليكن ... ما دام هذا ضرورياً ... أنا ...

كان يشعر بخزى لا يطاق ، اذ يرى نفسه خالعاً ثيابه هكذا بين أناس يظللون مرتدين ثيابهم . شيء غريب : انه حين خلع ثيابه شعر فجأة بأنه مجرم . كاد يسلِّم هو نفسه عندئذ بأنه أصبح دون الآخرين قيمةً على حين بغتة ، وأنه أصبح من حق هؤلاء أن يحتقروه . قال يحدّث نفسه : « حين يكون الجميع عراة فلا عار ، أما حين أكون وحدى عارياً فذلك هو العار ! لكأننى فى حلم ! لقد سبق أن عانيت فى الحلم انحطاطات من هذا النوع » . وقد شق عليه كثيراً أن يخلع جوربيه : انهما وسخان ، كسائر ملابسه الداخلية أيضاً ، ففى وسع الجميع أن يلاحظوا هذا الآن . ذلك عدا أن ميتيا كان طوال حياته يكره قدميه ويعد أصابعهما بشعة ، ولا سيما أصابع قدمه اليمنى التى كان أحد أظافرها مسطحاً تاماً فلا ينحنى الا فى نهايته . سوف يراه الجميع الآن . اجتاحه الشعور بالخزى والعار ، ففارت نفسه ، وأصبح فظاً عن عمد . قال :

ــ ألا تحبون أن تلاحقوا تحرياتكم الى أبعد من هذا اذا كان الحياء لا يصدكم ؟

ــ لا ، لا داعى الى ذلك الآن .

وسأل ميتيا بلهجة حانقة :

ــ هل علىَّ أن أنتظر عارياً ؟

ــ لابد من ذلك . تفضل فاجلس هنا . فى امكانك أن تتدثر بغطاء السرير ... وسأحاول أن أتدبر الأمر .

أُظهر الفلاحون على ملابســه ليكونوا شــهوداً . حتى اذا انتهى تحرير المحضر خرج نقولا بارفينوفتش . وأُخذت الملابس ، وانصرف

وكيل النيابة أيضاً • لبث ميتيا وحده مع الفلاحين الذين كانوا يرقبونه صامتين ولا يحوّلون عنه أبصارهم • تدثر ميتيا بالغطاء ، لأنه كان يحس ببرد شديد ، ولكنه لم يستطع أن يحمى قدميه العاريتين على أى نحو تلفف • وتأخر نيقولا بارفينوفتش عن العودة ، كأنه يريد « اطالة تعذيبه » •

وجمجم ميتيا يقول وهو يكز بأسنانه :

ـ يحسبنى صبياً ! وقد انصرف الوغد وكيل النيابة كذلك ••• احتقاراً فى أغلب الظن ••• واشمئزازاً من رؤية رجل عار •

وكان ميتيا يقدر مع ذلك أنهم سيرجعون اليه ثيابه بعد تثبت جديد • فما كان أشد استياءه حين رأى نيقولا بارفينوفتش يعود اليه ووراءه فلاح يحمل ثياباً أخرى غير ثيابه •

قال له القاضى بلهجة ودود طلقة :

ـ اليك هذه الثياب التى حصلنا لك عليها أخيراً •

وكان واضحاً أنه سعيد بالنتائج التى وصلت اليها مساعيه ، وتابع كلامه يقول :

ـ ان السيد كالجانوف هو الذى تفضل ، فى هذا الظرف الغريب ، فقدم اليك هذا الرداء وقميصاً نظيفاً قد أتى بهما فى حقيبته من حسن الحظ • أما ملابسك الداخلية وجوربك ففى امكانك أن تحتفظ بها •

انفجر ميتيا فزأر يقول بصوت مهدد متوعد :

ـ لا أريد هذا الرداء الذى ليس لى • ردوا الىّ ردائى •

ـ مستحيل •

ـ أريد ردائى أنا • شيطان يأخذ كالجانوف وثيابه !

ولم يمكن ردُّه الى الصواب الا بكير من العناء ولكنه هدأ آخر الأمر بعد أن شرحوا له ضرورة « ضمّ الثياب الى وثائق الاثبات » مادامت ملطخة بالدم • وقد حرص قاضى التحقيق على أن يقول له « انه لم يكن من حقه أن يدع له ملابسه الخاصة ، فليس يدرى أحد ما هو المجرى الذى قد تجرى فيه القضـــية » • اقتنع ميتيا أخيراً بهذه الحجج ، وأخذ يرتدى الثياب الجديدة ، مع محافظته على صمت متجهم عابس • واكتفى بأن قال وهو يلبس رداء كالجانوف ان هذا الرداء أثمن كثيراً من ردائه ، وانه يكره أن « يستفيد » منه ؛ وأضاف يقول :

ـ ثم انه ضيّق علىّ فهو يجعلنى مضحكاً • هل علىّ أن أظهر للناس مضحكاً ••• لتتسلوا أنتم ؟

وحاولوا أن يقنعوه من جديد بأنه يبالغ ، وبأن قامة السيد كالجانوف كقامته هو ، وان يكن السيد كالجانوف أطول منه قليلاً ، وبأن السروال وحده سيكون طويلاً عليه بعض الطول • ولكن اتضح ان الســـترة مشدودة جداً عند الكتفين ، فجمجم ميتيا قائلاً من جديد :

ـ يستحيل عقد أزرارها • أرجوكم أن تبلغوا السيد كالجانوف أننى لست أنا الذى رغبت فى أخذ ثيابه ، وأننى أُكرهت على ارتدائها كمهرّج !

فدمدم قاضى التحقيق يقول :

ـ هو يفهم هذا ، وهو يأسف ••• لا يأسف على حرمانه من ثيابه ••• لا ••• بل يأسف لما وقع لك •

ـ لا حاجة بى الى أسفه ! أين يجب أن أذهب الآن ؟ أم أنا مضطر الى البقاء هنا ؟

ـ أرجو أن ننتقل الى « الغرفة الأخرى » من جديد •

دخل ميتيا الى هناك متقبض الوجه غضباً ، يحاول أن لا ينظر الى

أحد . كان يحس وهو فى ثيابه المستعارة أنه مذل حتى فى نظر الفلاحين، وفى نظر تريفون بوريستش الذى لاح وجهه خلسة من خلال باب شقه ثم أسرع يغلقه. قال ميتيا فى نفسه : « أراد أن يتأملنى وأنا فى هذا الزى المضحك ».. وجلس على الكرسى الذى كان يشغله منذ قليل. كان يبدو له أنه يعيش حلماً ثقيلاً ، أنه يعيش كابوساً ، وكان يتساءل ألم يفقد عقله ؟

التفت ميتيا نحو وكيل النيابة منقبض الفكين :

ـ هيه ، والآن ، هل تأمرون بجلدى ؟ لم يبق لكم الا هذا !

لم يشأ أن يخاطب نيقولا بارفينوفتش ، لأنه أصبح يعده غير جدير بانتباهه بعد الآن . وقال يحدث نفسه : « لقد تلذذ بتأمل جوربى زمنا طويلا جدا ، حتى لقد أمر بقلبهما عامداً ـ يا للشقى ! ـ بغية أن يُظهر الجميع على أن ملابسى الداخلية قذرة جدا ! » .

قال نيقولا بارفينوفتش وكأنه يجيب عن سؤاله :

ـ سنبدأ الآن استجواب الشهود .

فقال وكيل النيابة يؤيد كلام القاضى ساهماً :

ـ نعم نعم .

لقد كان يبدو على وكيل النيابة أنه يفكر فى أمر ما . وتابع القاضى كلامه فقال :

ـ لقد بذلنا قصارانا يا دمترى فيدوروفتش لنساعدك فى موقفك . ولكن بعد أن رفضت رفضا خشنا أن تلبى طلبنا فتقدم لنا بعض الايضاحات عن مصدر المبلغ الذى فى حوزتك ، فاننا نرى أنفسنا ملزمين الآن بأن ..

قاطعه ميتيا سائلاً :

ـ من أى نوع من أنواع الحجارة الكريمة صُنع هذا الخاتم ؟

كان ميتيا يتكلم كمن هو فى حلم ، مشيراً الى واحد من الخواتم الثلاثة التى تزين يد القاضى الصغيرة • فسأله القاضى فى دهشة :

ـ خاتمى أنا ؟

ـ نعم ، هذا الخاتم ••• ذلك الذى يزين الاصبع الوسطى ••• ما هذا الحجر الكريم ؟

كذلك قال ميتيا ملحاً بلهجة فيها غير قليل من نفاد الصبر ، كطفل عنيد ذى نزوات • فأجابه نيقولا بارفينوفتش مبتسما :

ـ هو زمرد أدكن ! هل تريد أن تراه ؟ سوف أنزعه ف •••

فصاح ميتيا يقول بعنف وقد ثاب الى رشده ، واضطرب وخجل وثار على نفسه :

ـ لا •• لا تنزعه •• ليس يعنينى هذا •• آه •• لقد دنستم نفسى أيها السادة ! هل تظنون اذن أننى كان يمكن أن أكذب عليكم لو أننى قتلت أبى فعلا ، هل تظنـــون اننى كان يمكن أن أرتضى لنفسى هوان الانكار وتمثيل دور البراءة وبراعة التهرب من أسئلتكم ؟ انكم لاتعرفون دمترى فيدوروفتش ! ما كان له أن يمثل مهزلة كهذه المهزلة ! يمينا ، لو كنت مجرما لما انتظرت أن تصلوا الى موكرويه ، ولما بقيت حيا الى الفجر كما كنت أنوى ذلك ، وانما كنت أقتل نفسى فورا ! لقـد تعلمت فى هذه الليلة الواحدة المنحوسة أكثر مما كان يمكن أن أتعلم على مدى عشرين عاما من الحياة ! أكان يمكن أن أتصرف كما تصرفت هذه الليلة، أكان يمكننى فى هذه الدقيقة نفسها أن أخاطبكم كما أخاطبكم الآن ، أكنت أجد هذه اللهجة ، أكنت أقوم بهذه الاشارات ، أكنت أستطيع أن أنظر اليكم وجهاً لوجه ، أنتم والعالم بأسره ، لو كنت قاتل أبى حقا ؟ على أن مجرد تصورى أننى ارتكبت جريمة قتل جريجورى عرضا قد ظل يعذبنى طوال الليـــل ، لا خوفا •• أبدا ••• لا خشية من عقابكم !

••• يا للعار ! ثم تريدون بعد ذلك ، أيها العابثون الهازلون ، تريدون أن أفضي الى أناس مثلكم ، أناسٍ لا يصدقون شيئا ولا يرون شيئا ، تريدون أن أحكي لكم ، أيها المناجذ المعمى ، دناءةً أخرى ارتكبتها ، حتى يزداد عاري؟ أبدا ••• لن أفعل ذلك ولو أدى الى تبرئتي من اتهاماتكم ••• أبدا ، أبدا ••• انى لأوثر على هذا سجون الأشغال الشاقة ! ان القاتل هو الشخص الذى فتح البـاب ودخل الى بيت أبى من ذلك الباب ••• انه ذلك الشخص هو الذى سرق مال أبى ! من هو ذلك الشخص؟ انني أتيه في مجاهل الظن والتخمين ، وألقى عنـاء كبيرا فى محـاولة حزره • ولكن ذلك الشـخص ليس هو دمترى كارامازوف على كل حال ، فاعلموا هذا ••• ذلك كل ما أستطيع أن أقوله لكم ••• وهـو كافٍ ، فلا تلحوا ••• اصنعوا بى ما شئتم ، أرسلونى الى سيبريا ، أو نفذوا فيَّ الحكم بالاعدام ، ولكن لا تهيجوا حنقى وغيظى بعد الآن • هأناذا أسكت • أدخلوا شهودكم •

ختم ميتيا كلامه المستفيض وقد بدا فى وجهه أنه عازم عزما مطلقا على أن لا ينطق بعد الآن بكلمة واحدة • وكان وكيل النيابة يرقبه بانتباه، منتظرا أن ينهى كلامه ، فما ان ختم ميتيا قوله حتى قال له بهدوء بارد ، كأن الأمر أمر مشاهدة طبيعية جدا بسيطة جدا •

ـ فى موضوع ذلك الباب بعينه ، ذلك الباب المفتوح الذى جئتَ على ذكره الآن ، نستطيع أن نطلعك ـ وهذا هو الوقت المناسب لذلك فيما أظن ـ على واقعة من أغـرب الوقائع ومن أخطـرها شأنا كذلك ، بالنسبة اليك وبالنسـبة الينا معا ، وهى واقعة تنتج من أقـوال العجوز جريجورى فاسيليف الذى جرحته • لقد صرَّح هذا العجوز ، بعد أن أفاق من اغمائه وثاب اليه وعيه ، صرح على نحو واضح جازم قاطع ، فى الاجابة على أسئلة ألقيناها عليه ، أنه حين خرج من باب مسكنه فسمع

ضجة مشبوهة ، قرر أن يدخل الحديقة ماراً ببابها الحديدى الذى لم يكن مغلقا ؛ ولكنه قبل أن يلمحك فى الحديقة أثناء هروبك فى الظلام مبتعدا عن النافذة التى رأيت فيها أباك كما قلت لنا منذ قليل ، قد لاحظ أيضاً ، من مكان أقرب اليه كثيرا ،لاحظ أيضا ذلك الباب الذى تزعم أنه ظل مغلقا طوال مدة وجودك فى الحديقة ، فرأى أنه كان مفتوحا على مصراعيه خلافا لدعواك ولا أستطيع أن أكتمك أن فاسيليف يستنتج من ذلك ويؤكد جازما أنك لا بد أن تكون قد هربت من هذا الباب ، رغم أنه لم ير هروبك بعينيه وانما لمحك حين كنت قد أصبحت من الباب على مسافة ما ، وسط الحديقة ، راكضاً نحو السور ...

وثب ميتيا عن كرسيه دون أن يدع لوكيل النيابة أن يتم كلامه ، وأعول يقول خارجا عن طوره :

ــ هذا كذب . هذا كذب دنىء ! لا يمكن أن يكون قد رأى الباب مفتوحا ، لأن الباب كان مغلقا فى تلك اللحظة ... انه يكذب !

ــ من واجبى أن ألفت انتباهك الى أن أقواله واضحة جدا فى هذه النقطة ، وان شهادته لم تختلف ولم تتناقض ، بل هو ظل مصراً عليها بالحاح ، لأننا سألناه عن هذا الأمر مرارا كثيرة .

قال نيقولا بارفينوفتش مؤكدا كلام زميله بشىء من الحماسة :

ــ أنا نفسى استجوبته .

فاستأنف ميتيا كلامه صارخا :

ــ هذا كذب ! هذا كذب ! لا يمكن أن يكون هذا الا وشاية تستهدف الايقاع بى، أو أن يكون أوهامَ رجلٍ يهذى. لا بد أن العجوز قد رأى حلما أثناء هذيانه بسبب جرحه وانسكاب دمه ... فقصَّ عليكم ما رآه فى الحلم حين صحا من اغمائه ... وأغلب الظن أنه ما يزال يهذى .

ــ أتمنى لو أصدِّق ما تقول ، ولكن العجوز لم ير الباب مفتوحا

بعد أن أفاق من اغمائه ، وانما لاحظه قبل أن يُجرح ، لحظـــة دخوله الحديقة .

ـ هذا كذب ، هذا كذب ، ذلك لا يمكن أن يكون ! ان الكره هو الذى يدفعه الى اتهامى ... لا يمكن أن يكون قد رأى ذلك الباب ... أنا لم أهرب من الباب !

هكذا صاح ميتيا مختنقا .

فالتفت وكيل النيابة الى نيقولا بارفينوفتش وقال له بلهجة رصينة :

ـ أره الظرف .

فاذا بالقاضى يضع على المائدة ظرفاً كبيرا من ورق قوى ، تُرى عليه ثلاثة أختام من شـــمع لم تمس ، وقد أُفرغ الظرف بتمزيقه من أحد أطرافه ؛ ثم القاضى يسأل ميتيا :

ـ هل تعرف هذا ؟

فدمدم ميتيا يقول :

ـ لا شك انه الظرف الذى كان عند أبى ... الظرف الذى كان يضم ثلاثة آلاف روبل ، اذا كان عليه كتـابة ... هل تسـمح لى بأن أرى ؟ نعم ، هذه هى الكتابة : « الى حمـــامتى » ، وهنا : « ثلاثة آلاف روبل » .

وصاح ميتيا :

ـ ثلاثة آلاف روبل ... أرأيتم ؟

ـ طبعا رأينا ... ولكننا لم نعثر على ذلك المبلغ . كان الظرف ممزقا ملقى على الأرض قرب السرير وراء الحاجز .

لبث ميتيا بضع ثوان كالمصعوق . ثم صاح يقول بغتةً بكل ما أوتى من قوة :

ـ هو سمردياكوف ، أيها السادة ! انه هو القاتل والسارق • انه الانسان الوحيد الذى كان يعرف الموضع الذى خبأ فيه العجوز الظرف • انه هو ، كل شيء واضح الآن !

ـ ولكنك كنت أنت أيضا تعلم بوجود هذا الظرف ، وتعرف انه موضوع تحت الوسادة •

ـ بل كنت أجهل ذلك كل الجهل • لم أر هذا الظرف حتى الآن ، ولم أكن أعلم بوجـوده الا من مسـارات سمردياكـوف ••• كان سمر دياكوف وحده يعرف أين خبأ العجوز الظرف ••• أما أنا فكنت لا أعرف ••

كذلك قال ميتيا متقطع الأنفاس •

ـ عجيب ! لقد أكدت أنت نفسك منذ قليل أن هذا الظرف كان موجودا تحت وسادة المتوفى أبيك • لقد حددت بنفسك أنه كان مخبأ تحت الوسادة • معنى هذا أنك كنت تعرف المخبأ !

وأمّن نيقولا بارفينوفتش على كلام زميله قائلا :

ـ لقد سُجّلت تصريحاتك فى محضر الاستجواب •

ـ سخف ••• جنون ! ••• لم أكن أعرف أنه تحت الوسادة •• ولعله كان فى موضع آخر • لقد ذكرت الوسادة مصادفة ••• ماذا قال لكم سمر دياكوف ؟ هل سألتموه أين كان الظرف مخبأ ؟ فماذا قال لكم ؟ تلكم هى النقطة الرئيسـية ! ••• أما أنا فقد كذبت عامداً ••• كذبت وكنت لا أعرف أن الظرف كان تحت الوسادة ، وهأنتم أولاء سوف ••• كثيراً ما يقول المرء بعض الأمور مصادفة وعرضاً ••• يخطر بباله أن يقولها ••• لقد كان سـمردياكوف وحـده عـارفاً بالأمر ، ولم يكن

يعرفه أحد سواه ! رفض أن يكشف لى عن المخبأ ، حتى أنا رفض أن يكشف لى عن المخبأ . انه هو ، هو القاتل ! هو القاتل لا محالة ، لقد وضح الأمر الآن وضوح النهار .

كذلك صاح ميتيا مضطرباً اضطراباً ما ينفك يزداد ، وقد أصبحت عباراته مفككة غير متماسكة ولا منسجمة من فرط الانفعال .

ـ افهموا أخيراً واعتقلوه فوراً دون أن تضيعوا لحظة واحدة ! ... لقد أصبح واضحاً انه قتل أبى بينما كنت أنا أهرب وكان جريجورى راقداً فى الحديقة بلا حراك . أصبح كل شىء واضحاً ... قرع الباب بالاشارة المتفق عليها ، ففتح له أبى الباب ... ذلك أنه الشخص الوحيد الذى كان على علم بالاشارات التى ما كان لأبى أن يفتح الباب لولا أن سمعها

استأنف وكيل النيابة كلامه قائلاً بتلك اللهجة الموزونة نفسها على شىء من التعبير عن الانتصار فى نبرة صوته :

ـ يظهر أنك تنسى من جديد أن الاشارات تصبح زائدة لا داعى اليها ولا ضرورة لها ما دام أن الباب كان مفتوحا من قبل ، بينما كنت أنت ما تزال فى المكان ، أعنى فى الحديقة ...

قال ميتيا متلعثماً :

ـ الباب .. الباب ...

وسكت ، وحدق الى وكيل النيابة بنظرة متجهمة . ثم تهالك على الكرسى كالمنهار . وساد صمت . ثم هتف يقول زائغ الوجه :

ـ نعم .. الباب ! .. كان هذا شبحاً ! الله ضدى ! ...

قال وكيل النيابة بلهجة رزينة :

ـ أرأيت ؟ فاحكم الآن بنفسك يا دمترى فيدوروفتش . هناك من

جهة أولى هذه الشهادة القوية الدامغة ، فى نظرك وفى نظرنا ، أعنى الشهادة بأن الباب كان مفتوحا وأنك هربت منه • وهناك من جهة ثانية هذا الصمت العنيد الذى لا يُفهم ، هذا الصمت الذى تلوذ به عن مصدر المال الذى أصبح فى حوزتك فجأة بينما كنت قبل ذلك بثلاث ساعات ، فيما صرحت به أنت نفسك ، مضطرا الى رهن مسدسيك للحصول ولو على عشرة روبلات • فماذا نصدق وعلى أى شيء نستند ؟ هلاّ قلت لى ••• فلا تأخذ علينا ، ظلماً وعدوانا ، أننا أناس مستهزئون باردون مستهترون ، عاجزون عن أن نفهم ما فى نفسك من اندفاعات نبيلة ، بل ضع نفسك فى مكاننا ••• وحاول أن تفهمنا أنت أيضا •••

كان ميتيا مضطربا • وشحب لونه • ثم هتف يقول فجأة :

ـ طيب ! سأكشف لكم عن سرى ، سأطلعكم على مصدر المال ••• سأكشف عن عارى ، حتى لاألوم نفسى ولا ألومكم فى المستقبل •

قال نيقولا بارفيونوفتش بفرح يوشك أن يكون فيه حنان :

ـ ثق يا دمترى فيدوروفتش أن اعترافا صادقا كاملا منك الآن قد يخفف عنك كثيرا فى المستقبل ، حتى لقد •••

ولكن وكيل النيابة لكزه بقدمه لكزةً خفيفة من تحت المائدة فصمت القاضى فى الوقت المناسب • وكان ميتيا لا يصغى اليه على كل حال •

٧

السر الكبير الذي يحتفظ به ميتيا يُتّخذ هُزأة

بدأ ميتيا كلامه فقال منفعلاً أشد الانفعال :

ـ أيهـــا السادة ... أريد أن أعترف بالحقيقة كلها ... كان هذا المبلغ لى أنا ...

استطال وجها وكيل النيـــابة وقاضى التحقيق . لقد خاب فألهما وأخفق انتظارهما ، لأنهما كانا يتوقعان اعترافا يختلف عن هذا الاعتراف كل الاختلاف .

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول :

ـ كان ذلك المال لك أنت ؟ كيف هذا ؟ أنت تقول فى اعترافاتك نفسها انك فى الساعة الخامسة بعد الظهر ...

ـ سحقاً للساعة الخامسة ولاعترافاتى ! ليس هذا هو الموضـــوع الآن ! لقد كان ذلك المال لى أنا ... أقصد أننى استوليت عليه ، سرقته ، نعم سرقته . هـــو مبلغ ألف وخمسمائة روبل ... كنت أحملها دائما معى ، معى ...

ـ من أين أخذتها ؟

ـ من صدرى أيها السادة ، من هذا الصدر الذى ترون ••• كنت أخبئها هنا ، معلقه بعنقى ، مخيطة فى خـــرقه ••• هكذا كنت أحمل عارى منذ زمن طويل ، منذ أكثر من شهر •••

ـ ولكن من عند من ••• استوليت ••• على هذا المبلغ ؟

ـ تريدون أن تقولوا من عند من « سرقته » ، أليس كذلك ؟ سمّوا الأشياء بأسمائها ! أنا أعتقد فعلاً أننى سرقت هذا المال ، أننى « استوليت » عليه اذا كنتم تؤثرون هذا التعبير • وأنا أرى أنه سرقة • وأمس مساء ، اكتملت السرقة •

ـ أمس مساء ؟ ولكنك قلت انك ••• حصلت على هذا المـــال منذ شهر •

ـ نعم ، ولكن لا من عند أبى ، لا من عنده ، اطمئنوا ! لم أسرقه من عنـــد أبى ، بل من عنـــدها • دعونى أروى لـكم الوقائع دون أن تقاطعونى • انه لأمر قاس على نفسى أن أتكلم ، هل تفهمون ؟ منذ شهر ، نعم منذ شهر استدعتنى كاترين ايفانوفنا فرخوفتزيفا ، خطيبتى السابقة •• هل تعرفونها ؟

ـ كيف لا ؟

ـ أعلم أنكم تعرفونها • هذه انسانة ذات نفس نبيلة ، لا تضارعها فى نبلها أحد ••• ولكنها كانت تكرهنى منذ زمن طويل ••• طويل جداً ••• وكان من حقها أن تكرهنى على كل حال ••• هناك أسباب تحملها على كرهى •

سأله القاضى مندهشاً :

ـ كاترين ايفانوفنا ؟

وظهر الاستغراب على وكيل النيابة أيضاً •

قال ميتيا :

ـ أوه ! لا تذكروا اسمها بغير داعٍ الى ذلك ! ما كان أشقانى حين ذكرت اسمها هنا ••• نعم ، كنت أعلم انهـــا تكرهنى ••• منــذ زمن طويل ••• منذ اليوم الأول ، فى مسكنها هناك ••• ولكن كفى ! كفى حديثاً فى هذا الأمر ! انكم لا تستحقون أن تعلموا هذه الأشياء ، ولا داعى الى ذكر هذه الأشياء على كل حال •• يكفيكم أن تعلموا أنها استدعتنى منذ شهر وأعطتنى ثلاثة آلاف روبل كلفتنى بأن أرسلها الى أختها والى قريبة أخرى لها بموسكو (أما كانت تستطيع أن تتولى ذلك بنفسها ؟) •• وأنا ••• كانت تلك الساعة هى بعينها الساعة الحاسمة فى حياتى ، كانت تلك اللحظة هى اللحظة التى •• الخلاصة •• هى اللحظة التى كنت قد أحببت فيها امرأة أخرى منذ قليل ، هى اللحظة التى كنت فيها قد أحببتها «هى» •• امرأة هذا اليوم •• تعلمون ••• تلك التى أودعت تحت ، جروشنكا •• فجئت بها الى هنا ، الى موكرويه ، فأنفقت خلال يومين من الاحتفـال والقصف ، نصف ذلك المبــلغ اللعين ، أعنى ألفاً وخمسمائة روبل ، واحتفظت بالنصف الآخر • فهذه الألف وخمسمائة روبل الباقية هى ما احتفظت به منذ ذلك الحين معلقا بعنقى مخيطا فى كيس • وقد فتحت الكيس أمس ، فأنفقت هذا المال فى القصف هنا • وان الثمانمائة روبل التى وضعتها فى مكان مأمون يا نيقولا بارفينوفتش هى كل ما بقى من الألف وخمسمائة روبل التى أخـرجتها من الكيس أمس •

ـ اسمح لى ! هناك شىء ليس واضحا • فى المرة الماضية ، أعنى فى الشهر الماضى ، أنفقت هنا ثلاثة آلاف روبل لا ألفاً وخمسمائة • ذلك أمر يعرفه جميع الناس •

ـ من أين عرفوه ؟ من ذا الذى حسب نفقاتى ؟ أنا لم أطلع على ذلك أحداً •

ـ كيف ؟ لقد حكيت لكل انسان أنك أنفقت ثلاثة آلاف روبل •

ـ صحيح ، حكيت هذا ، بل لقد حكيته للمدينة كلها ، والناس يتحدثون عنه فى كل مكان ، وما من أحد الا ويعتقد اعتقادا جازما بأننى أنفقت ثلاثة آلاف روبل • وأهل موكرويه مقتنعون بهذا أيضا • ولكننى، مع ذلك ، لم أنفق فى الواقع الا ألفا وخمسمائة روبل ، ثم خطت باقى المبلغ فى كيس • تلكم هى الحقيقة أيها السادة ، ذلكم هو مصدر المال الكثير الذى كان فى حوزتى أمس •

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول :

ـ يشبه هذا أن يكون من المعجزات •

وتدخل عندئذ وكيل النيابة فقال يسأل ميتيا :

ـ اسمح لى أن أسألك هل أفضيت بهذا السر الى أحد قبل هذا اليوم ••• أعنى : هل يعرف أحد أنك احتفظت بمبلغ الألف وخمسمائة روبل هذا ؟

ـ لم أفض بذلك الى أحد •

ـ غريب ••• لم تذكره لأحد فى العالم كله ؟

ـ فى العالم كله • لم أذكره لأحد البتة • أؤكد لك ذلك •

ـ فلماذا هذا السكوت ؟ ما هى الأسباب التى دفعتك الى الاحتفاظ به سراً لا يذاع ؟ سأشرح ما أريد أن أقوله • لقد كشفت لنا أخيرا عن سرك الذى تراه « مخزياً » الى هذا الحد فى نظرك ، رغم أن هذا الفعل ليس فى الواقع ـ اذا قيس بغيره طبعا ـ الا هفوة صغيرة • ان استيلاءك على مبلغ الثلاثة آلاف روبل التى عهد بها اليك واؤتمنت عليها فاحتفظت بها لنفسك •• مؤقتاً ••• أنا متأكد من هذا ••• انما ينبغى أن يُعد طيشاً ، انما ينبغى أن يُعد خطأ مرده الى الخفة ، ولكنه ليس فعلاً يدنس الشرف ، ولا سيما اذا نظرنا بعين الاعتبار الى طبعك

... فلنفرض أن هذا الفعل فعل يؤسف له .. وأنا أسلم بذلك ... ولكنه ليس دناءة أو حقارة أو حطة أو ما أشبه ذلك ... واعلم على كل حال أن كثيرا من الناس ، في هذه المدينة ، قد حزروا ، أثناء هذا الشهر، أنك بددت الثلاثة آلاف روبل التي ائتمنتك عليها الآنسة فرخوفتزيفا . لقد انتبهوا فيك واعتقدوا أنك بددت المال ، رغم أنه لا أدلة على ذلك ، حتى لقد وصلت هذه الشائعة الى أسماعنا ، وعلم بها ميشيل ماكاروفتش أيضا ، فليس الأمر أمر سر اذن ، وانما هو كلام يقال ويردد في كل مكان ... ويبدو من جهة أخرى كذلك أنك اعترفت أنت نفسك ذات مرة ، أثناء حديث خاص ، اذا لم يخطيء ظني ، بأن ذلك المبلغ مصدره الآنسة فرخوفتزيفا ... لذلك استغرب أشد الاستغراب حين أرى حتى هذه الدقيقة أنك تولي هذه الألف وخمسمائة روبل ، فيما تدعي ، اهتماما خارقا وتضفي عليها خطورة عظيمة ، ولا أفهم البتة أن تجعلها سراً لاتتكلم عنه ، سراً مصحوبا بنوع من الهلع الأخلاقي ... ليس من المعقول أن يسبب لك سر من هـــذا النوع عذابا كهـذا العـــذاب ، وأن يبدو لك الاعتراف به صعبا الى هـــذا الحد ... ألم تعلن منذ قليـــل أنك تؤثر السجن على مجرد الاعتراف بالحقيقة ؟

سكت وكيل النيابة . وكان قد تحمس أثناء الكلام ، واشتعل فيه استياء متزايد يشبه أن يكون غضبا ، وساق كلامه دون اهتمام بالخطابة ، ودون كثير من التسلسل أيضا ، وانما كان يدع لأفكاره أن تنفجر انفجاراً في جمل مقطعة .

قال ميتيا بصوت جازم :

ـ ليس العار في الاستيلاء على هذه الثلاثة آلاف روبل ، بل العار في أنني ادخرت نصف هذا المبلغ ، أي ألفا وخمسمائة روبل !

فقال وكيل النيابة وهو يضحك ضحكة اغتياظ :

ـ حقا ؟ هلاّ قلت لى أين العار فى أن تحتفظ بنصف مبلغ كنت قد استوليت عليه استيلاء غير لائق ، أو استيلاء مخزيا ان كنت تؤثر أن تصمه بهذه الصفه ؟ ان الأمر الهام هنا هو أنك حصلت على هذا المبلغ بطريقة ليس فيها كثير من الأمانة ، لا أنك تصرفت فى المال على هذا النحو أو ذاك من الأنحاء ! بالمناسبة : هل تستطيع أن تقول لى لماذا قسمت المبلغ نصفين ، وماذا كان هدفك من ادخار أحد النصفين ؟

صاح ميتيا يقول :

ـ ذلك بعينه هو الدرامه كلها ! لقد قسمت هذا المبلغ عن حقارة ودناءة ، أى عن حساب • ذلك أن الحساب هو بعينه الدناءة والحقارة فى مثل هذه الحاله ••• وقد امتدت هذه الدناءة وهذه الحقارة على شهر بأسره !

ـ كلام لا يُفهم !

ـ أستغرب هذا منكم • ولكننى سأشرح ما أريد قوله • اننى أسلّم بأن كلامى قد يبدو من أول وهلة أنه لا يُفهم • فاسمعوا الىّ وتابعوا ما أقول : لنفرض اننى استوليت على ثلاثة آلاف روبل اؤتمنت عليها ، فأنفقتها فى القصف الى آخر كوبك منها • ان فى امكانى أن أذهب الى آنستى فى الغد وأن أقول لها : « كاتيا ، اغفرى لى ، لقد بددت الثلاثة آلاف روبل التى ائتمنتنى عليها » • ليس هذا خيراً بطبيعة الحال ، وانما هو سوء أمانة ، وضعف خلق ؛ هو سلوك انسان لا يستطيع أن يسيطر على اندفاعاته • ولكننى فى هذه الحالة لن أكون سارقاً ، لن أكون لصاً • لن أكون لصاً بالمعنى الشائع لهذه الكلمة • هل توافقوننى على هذا ؟ لقد بددت المال الذى اؤتمنت عليه ، ولكننى لم أسرقه • فلنفرض الآن فرضاً ثانياً ، فرضا أفضل من الأول أيضا • تابعوا ما أقول ، والا فقد أرتبك من جديد • أن رأسى يدور قليلا ••• اليكم الفرض الثانى : لنفرض أننى

أنفقت في القصف نصف المبلغ فقط ، أي ألفاً وخمسمائة روبل ، ولنفرض أنني ذهبت اليها في الغد حاملاً ما بقي من مال ، وقلت لها : « استردي مني المال يا كاتيا لأنني لست الا انسانا تسفيا طائش العقل محموم الرأس • استردي نصف المبلغ الذي ائتمنتني عليه ، والا فقد أبدده كما بددت نصفه الأول • انني لا أريد أن أتعرض لهذه الغواية!»• فماذا أكون عندئذ ؟ أكون ما شئتم ، أكون شيطانا وأكون شقيا ، ولكنني ان أكون لصا ، لن أكون قد أصبحت لصا حقيقيا • لأنني لو أردت أن أسرق لما رددت الألف وخمسمائة روبل الباقية ، وانما كنت أحتفظ بها لنفسي • كانت ستدرك هي عندئذ أنني ما دمت أرد اليها نصف المبلغ ، فسأرد اليها النصف الثاني آخر الأمر ، في يوم من الأيام وأنني قد أظل أعمل عند الضرورة طوال حياتي مدخراً قرشا فوق قرش لأجمع المال الذي أنفقته في القصف فأرده اليها في ذات يوم • صحيح أنني أكون في هذه الحالة رجلا جبانا ، ولكنني لا أكون لصا ؛ أكون ما شئتم ، ولكنني لا أكون سارقا على الأقل •

قال وكيل النيابة بلهجة فيها سخرية باردة :

ـ لنسلم بأن هناك مجالاً للتمييز فعلاً • انني أظل أستغرب أن تضفي على هذا الفرق الزهيد دلالة تبلغ هذا المبلغ من شدة الخطورة وصفة المأساة !

ـ بالعكس • ليس هذا الفرق زهيداً بل هو فرق رئيسي • ان أي انسان يمكن أن يكون جبانا ، ولا شك أننا جميعا جبناء بدرجات متفاوتة• ولكن ليس كل انسان لصاً • لا بد من حقارة خاصة حتى يكون المرء لصاً • أحسب أنني لا أجيد التعبير لأنني تعوزني الرهافة ••• ولكن اللص أحقر الحقراء وأدنأ الأوغاد • تلكم هي قناعتي العميقة ! اصغوا الي • لقد حملت هذا المال في عنقي مدة أربعة أسابيع ، وكنت أستطيع

فى كل لحظة أن أذهب فأرد اليها هذا المال ، فلو فعلت لمـــا كنت وغداً حقيرا ، أما وأننى لم أستطع أن أتخذ هـــذا القرار ، فذلك هو الأمر الخطير ! كنت كلَّ يوم أفكر فأقول لنفسى : « فرر أيها الشقى ، يجب أن ترد المال » . ولكن القرار لم يجىء ، وطالت القضية شهراً بأكمله . فما رأيكم ؟ ألعلكم ترون هذا جميلا ؟

أجابه وكيل النيابة بصوت مكظوم :

ـ أعترف بأن ذلك شر . أنا أفهم هذا حق فهمه ، ولا يخطر ببالى أن أجحده . ولكننى أقترح عليك مع ذلك أن تدع الكلام عن هـــذه الفروق ، وأن تدع هذه الرهافة فى التمييز بين الأمور ، وأن تعود الى جوهر القضية . لأنك لم تقبل حتى الآن أن تشرح لنا ، فى الاجابة عن سؤالى ، السبب الذى دفعك الى أن تقسم هذا المبلغ نصفين فتنفق النصف الأول منه فى القصف وتحتفظ بالنصف الثانى معك . ماذا كان هدفك من ذلك ، وعلى أى غرض وقفت هـــذه الألف وخمسمائة روبل التى احتفظت بها ؟ اننى أصرُّ على هذا السؤال يا دمترى فيدوروفتش !

صاح ميتيا وهو يلطم جبينه :

ـ ها .. ولكن .. هذا صحيح .. معذرة .. اننى أعذبكم بهذه المناقشات بدلا من أن أشرح لكم جوهر الأمر . لقد نسيت أن أفعل ! سأقول لكم الآن فسرعان ما تفهمون . ذلك أن العار كله يكمن هنا . اسمعوا : لقد كان العجوز ، المتوفى ، يلاحق أجـــرافين ألكسندروفنا بالحاحه ولجاجته ، وكنت أشعر أنا بغيرة شديدة . وكنت أتخيل فى ذلك الحين أنها مترددة بينى وبينه لا تعرف أتختارنى أم تختاره ، فكنت أتساءل كل يوم : « ما عسى يحدث اذا هى حزمت أمرها فجأة وكفت أخيرا عن تعذيبى وصارحتنى قائلة : أنت الذى أحبه لا هو ، فلنسافر ... خذنى الى مكان بعيد ، الى أبعد مكان تســـتطيع أن تأخذنى اليه ! » . كنت

أتساءل ما عسى يحدث عندئذ وأنا لا أملك فى جيبى الا بضعه كوبكات ! أين لنا المال الذى نسافر به ؟ ما عساى فاعلاً حينذاك ؟ كان ذلك هو الهوة ، هو اليأس ! لاحظوا أننى لم أكن قد عرفتها حق معرفتها فى ذلك الأوان . كنت أظن أنها لا تستغنى عن المال ، وأنها لن تغفر لى فقرى . ذلكم هو السبب الذى من أجله قررت ، جبانا ، أن أحتفظ بنصف الثلاثه آلاف روبل ، وأن أخيط المبلغ فى كيس . وذلك ما فعلتــه ببرود ، بحساب ، من قبل أن أسكر ! وبعد ذلك ، بعد أن طويت الكيس وخطته، انما سافرت ألهو وأقصف بالألف وخمسمائة روبل الأخرى . لا ... لا ... لقد كان ذلك حقارة ودناءة وخسة . هل فهمتم الآن ؟

انفجر وكيل النيابة وقاضى التحقيق فى ضــحك صاخب . وقال نيقولا بارفينوفتش ساخرا :

ـ فى رأيى أن قرارك كان عين العقل ، بل وعين الأخلاق ، على عكس ما تقول ، ما دمت قد عرفت كيف تعتدل فلا تنفق المال كله دفعةً واحده . أين فى هذا ما يثير السخط ؟

ـ أننى سرقت ، هنا الحقارة ! آه ... يا رب ! ان عجزكم عن الفهم يروعنى ! كنت أثنــاء حملى هــذه الألف وخمسمائة روبل فى عنقى ، أردد على نفسى كل يوم وكل ساعة : « أنت لص ، أنت لص !» . وبسبب هذا العار الذى يرهقنى ، بسبب هذا الشعور بأننى سارق ، انما كنت شرسا تلك الشراسة كلها عنيفا ذلك العنف كله خلال هذا الشــهر الأخير . ذلكم هو السبب فى أننى تشاجرت واقتتلت فى الكاباريه ، وأننى ضربت أبى . وحتى أليوشا أخى لم أجرؤ أن أعترف له بالحقيقة فى موضوع الألف وخمسمائة روبل ، فالى ذلك الحد كنت أشعر بالحقارة والدناءة ! ولاحظوا أيضا اننى طيلة مدة احتفاظى بالمال المودع فى الكيس سليما لا أمسه ، كنت أستطيع أن أقــول لنفسى كل يوم وكل ساعة :

« لا يا دمترى فيدوروفتش ، ربما لم تكن لصا ! » • لماذا ؟ لأننى كنت استطيع فى كل لحظة أن أذهب الى كاتيا فأرد اليها هذا المال • وأمس فقط ، بعد أن تركت فينيا ، وفى طريقى الى منزل برخوتين ، انما قررت أن أفض الكيس • أما قبل ذلك فلم أستطع أن أحزم أمرى • ولكننى منذ تلك اللحظة قد أصبحت لصاً بالفعل ، لصا لا يمكن انكار انه لص ؛ أصبحت رجلاً فقد شرفه الى آخر الحياة • لأننى حين مزقت الكيس قد مزقت فى الوقت نفسه أملى فى أن أذهب الى كاتيا وأن أقول لها : « أنا جبان ••• هذا صحيح ••• ولكننى لست لصاً » • هل تفهموننى الآن أيها السادة ؟

ـ فلماذا اتخذت قرارك هذا أمس ؟

ـ لماذا ؟ يدهشنى سؤالكم ! لقد اتخذت قرارى لأننى عزمت على الانتحار ، فى هذا المكان ، عند الفجر • قلت لنفسى : « ما قيمة أن اموت شريفا أو وغداً بعد الآن ؟ » • ولكننى أدركت أن الأمرين لا يستويان•• صدقونى أيها السادة ! ان العذاب الأكبر الذى عانيته فى هـــذه الليلة الرهيبة لم يكن شعورى بأننى قتلت الخادم العجوز ، ولا تصورى اننى سأُحكم بالسجن مع الأشغال الشاقة • لا ••• صحيح أنه أمر رهيب أن أرحل الى السجن فى اللحظة التى أخذ فيها حبى ينتصر ، فى اللحظة التى انفتحت فيها سماوات السعادة أمامى ••• ولكن ذلك لم يكن عذابى الأكبر ••• ولا كان يساوى ، على الأقل ، عذابى من تصور أننى فتحت ذلك الكيس اللعين ، وأتلفت ذلك المبلغ المنحوس ، وأصبحت بهذا لصاً الى الأبد ! أيها السادة ، اننى وقدتهدمت الى أعمق أعماق كيانى ، أعود فأقول لكم : لقد تعلمت أشياء كثيرة فى هذه الليلة • لم أتعلم فقط أنه أمر لا يطاق أن يعيش المرء جبانا ، وانما تعلمت أيضا أنه أمر مستحيل أن يموت المرء وغداً حقيراً ••• لا ، لا يمكن أن يموت المرء الا وهو

يشعر انه انسان شريف ! •••

كان ميتيا شاحب اللون ، مشدود العضلات ، وكان وجهه المتقبض على ألم يبدو كأنه خلا من الدم ، رغم أنه قد تحمس أثناء الكلام •

قال وكيل النيابة بلهجة ملطفة فيها شيء من عطف ، قال ببطء :

ـ بدأت أفهمك يا دمترى فيدوروفنش • ولكننى أعتقد أنك تبالغ قليلا ، وأن أعصابك ، أعصابك المريضة ، هى السبب الحقيقى لعذابك•• هـم ••• فمثلاً : لماذا لم يخطر ببالك ، حتى تتخلص من الآلام النفسية التى قاسيت منها خلال شهر بأكمله ، لماذا لم يخطر ببالك أن تذهب الى تلك الانسانة التى ائتمنتك على ذلك المبلغ لترد اليها الألف وخمسمائة روبل ؟ ألا يكون أبسط من هذا كله ، بعد أن تشرح لها الخطيئة التى ارتكبتها فى لحظة ضلال ، أن تعمد الى حل يخطر على البال من تلقاء نفسه ، وكان يمكن أن يخرجك من المأزق الذى كنت فيه كما تقول ؟ لقد كان فى وسعك ، بعد أن تعترف لها اعترافا مليئــا بالنبل ، كان فى وسعك أن تطلب اليها أن تقرضك المبلغ الذى كنت فى حاجة اليه ؟ وانى لعلى يقين ، لمعرفتى بسمو نفسها ، أنها ما كان لها أن ترفض اقراضك ذلك المبلغ ، ولا سيما وأنت فيما أنت فيه من ضياع نفسى ••• خاصةً وأنك كنت تستطيع أن توقع لها سنداً أو أن تقدم اليها الضمانات التى عرضتها على التاجر سامسونوف ، وعلى السيدة هوخلاكوفا أيضا ! أظن طبعا أنك ما تزال تعد تلك الضمانات موثوقة تماما •

احمر وجه ميتيا فجأة • ثم هتف يقول مستاءً وهو يحدّق الى عينى وكيل النيابة تحديق من يشك فى أن يكون وكيل النيابة قد فهم الموضوع:

ـ هل يُعقل أن تتصورونى منحطاً الى هذه الدرجة ؟ أنا لا أستطيع أن أصدق أنكم تتكلمون جادين !

فدهش وكيل النيابة هو أيضا ، وانبرى يقول له :

ـ أؤكد لك انني جاد كل الجد • لماذا تشك فى ذلك ؟

ـ عجيب ! لو قد فعلت ذلك لكان حطة ما بعدها حطة ! هل تعلمون أيها السادة أنكم تعذبونني تعذيبا رهيبا ؟ طيب ! سأقول لكم كل شيء ، انني أذعن لارادتكم فأقول لكم كل شيء • سأتيح لكم أن تروا الحقيقة لجهنمية ؛ فتعرفوا ، لتشعروا أنتم أنفسكم بالعار والخزى ، الى أى جبن يمكن أن ينحدر ضمير انسان • ان هذا الحل الذى ذكرته الآن يا سيادة وكيل النيابة قد خطر ببالى • نعم يا سادتى ! لقد فكرت فى هذا الحل أيضا خلال هذا الشهر المنحوس ، وكنت على وشك أن أذهب الى كاتيا من فرط حطنى وصغارى ، أذهب اليها فأعترف لها بخيانتى ، ثم أطلب اليها بعد ذلك الاعتراف ، أن تقرضنى مالاً لأنفذ هذه الخيانة ، لأسدد النفقات التى كانت ستقتضيها هذه الخيانة • أطلب مالاً منها هى ، كاتيا ، أطلب ، أتضرع ، هل تسمعون ؟ ثم أهرب مع امرأة أخرى ، مع غريمتها ، مع امرأة تكرهها ، امرأة أساءت اليها وأهانتها • ألا انك لمجنون يا سيادة وكيل النيابة !

ـ أما أن أكون مجنونا ، فقد لا أكون مجنونا ؛ ولكننى أثناء احتدام النقاش لم يخطر ببالى عنصر الغيرة النسوية هذا اذا افترضنا أن من الممكن أن يكون ثمة غيرة فى هذه الحالة كما تقول ••• والحق أن من واجب المرء أن لا يغفل عن عاطفة من هذا النوع •••

كذلك ختم وكيل النيابة كلامه بلهجة ساخرة •

زأر ميتيا يقول وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية :

ـ ان عملاً كهذا العمل يكون فيه من الصغار والحطة والدناءة ، ويبلغ من شدة ما يبعثه فى النفس من اشمئزاز ، أننى قد تراجعت عنه أنا نفسى ! هل تعلمون أنه كان يمكن جدا أن تعطينى ذلك المال ؟ أنا على يقين من أنها كانت ستعطينى ذلك المال ، بدافع الانتقام ، التلذذ بالثأر،

لتطهر لى احتقارها ، لأنها هى أيضا نفس جهنمية عنيفة غضوب ! وكنت سآخذ منها المال ، هذا أكيد ، فأظل طول حياتى ••• أوه ••• رباه ! معذرة يا سادتى ! لئن صرخت الآن ، فلأن هـــذه الفكرة الكريهة قد ساورتنى ، ساورتنى أمس الأول ، بينما كنت أتخبط ليلاً قرب لياجافى ••• وعاودتنى أمس مرة أخـــرى •• نعم •• اننى أتذكر هـــذا •• وحاصرتنى طول النهار الى حين وقوع ذلك الحادث •

ـ أى حادث ؟

كذلك تدخل يسأله نيقولا بارفينوفتش مستطلعاً ، ولكن ميتيا لم يأبه لسؤاله • وختم متيا كلامه يقول مظلم الوجه :

ـ لقد قدمت اليكم اعترافاً رهيباً ، فاقدروه حق قدره أيها السادة ، بل انه لقليل أن تقدروه حق قدره فحسب ، وانما ينبغى لكم أن تعترفوا بقيمته ••• والا ••• اذا انزلق هذا الاعتراف على صفحة نفوسكم دون أن يؤثر فيكم ، فيجب أن نسلم عندئذ بأنكم لا تضمرون لى أى احترام ، انكم تحتقروننى ؟ ولأموتنّ عندئذ من شعورى بالعار لأننى فتحت قلبى لأناس مثلكم • لأطلقنّ عندئذ رصاصةً فى رأسى ! ولكننى أرى أنكم لا تصدقوننى ، أرى ذلك ! ماذا ؟ أتريدون أن تسجلوا هذه الأقوال أيضاً ؟

هكذا صاح ميتيا مروّعاً جداً • فأجاب نيقولا بارفينوفتش يقول وقد أدهشه قلق ميتيا :

ـ لن نسجل الا التصريح الذى أدليت به الآن ••• سنسجل انك كنت تنوى ، حتى الدقيقة الأخيرة ، أن تذهب الى الآنسة فرخوفتزيفا لتقترض منها هذا المبلغ ••• تلك واقعة هامة جداً بالنسبة الينا يا دمترى فيدوروفتش ••• صدقنى ••• هذه التفاصيل كلها هامة ••• ولا سيما بالنسبة اليك ، اليك أنت •

هنف ميتيا يقول وهو يضم يديه احداهما الى الأخرى متوسلاً :

ـ أضرع اليكم يا سادتى ! اعدلوا عن تسجيل ما ذكرته لكم الآن ، اعدلوا عنه من باب الحياء والخفر على الأقل ! لقد فتحت لكم نفسى ، فاذا أنتم تسرعون فتغمسون فيها أيديكم لتنبشوا آلامى . آه ... رباه !

قال ذلك وأخفى وجهه بيديه كمداً وكرباً وقنوطاً !

فتدخل وكيل النيابة يقول :

ـ اطمئن يا دمترى فيدوروفتش . ان كل ما نسجله الآن سيُقرأ عليك بعد ذلك ، وسنعدّل عندئذ الفقرات التى لا توافق عليها متقيدين بما تذكره . ولكن يجب عليّ الآن ، مرةً ثالثة ، أن ألقى عليك سؤالاً صغيراً : هل يُعقل فعلاً أن لا يكون أحد ، أن لا يكون أحد على الاطلاق ، قد علم بوجود ألف وخمسمائة روبل مخيطة فى الكيس ؟ اعترف لك بأن هذا يبدو لى غير معقول كثيراً ...

ـ قلت ان أحداً لم يعلم بهذا الأمر . لم أحك هذا الأمر لأحد . اذن لم تفهموا شيئاً البتة ! دعونى وشأنى أخيراً .

ـ طيب . لن ألح . سيكون علينا أن نوضح هذه النقطة ، ولكن ما يزال لدينا وقت كثير . على اننى أرجوك أن تفكر فيما يلى : ان عندنا عشرات من الشهود سيشهدون جميعاً بأنك كنت تروى أنت نفسك ، حتى لتكاد تصيح بذلك صياحاً من فوق سطوح المنازل ، أنك قد أنفقت فى القصف فى المرة الماضية مبلغ ثلاثة آلاف روبل ، لا ألف وخمسمائة وحتى فى هذه المرة ، قلتَ لعدة أشخاص بصدد المال الذى أصبح فى حوزتك فجأة ، انه يبلغ ثلاثة آلاف روبل أيضاً ...

صاح ميتيا يقول :

ـ الشهود ؟ ستجدون من الشهود مئات لا عشرات ! سيجىء مائتا شخص يؤكدون ذلك ، وربما جاء ألف شخص . ستجدون من الشهود ما تشاءون .

ـ هأنت ذا ترى اذن . لقد سمعك جميع الناس تقول هذا الكلام . وهم جميعاً يؤكدونه اليوم . هل تفهم ماذا تعنى كلمة « جميع الناس » هذه ؟

ـ لا تعنى شيئاً ! أنا كذبت وكرر الناس كذبتى ...

ـ فلماذا « كذبت » ؟ على حد تعبيرك ...

لا يعلم ذلك الا الشيطان ! لعلنى كذبت افتخاراً ... أو لأسباب أخرى ... لألمع بالكلام عن قصف بلغ ذلك المبلغ من البذخ ... أو لأسى ذلك المال المخيط فى الكيس ... نعم ، ذلك هو ، ذلك هو الباعث الحقيقى الذى دفعنى الى الكذب ... أنا أحس هذا ! ... الى الشيطان على كل حال ! انكم تعودون فتلقون عليّ نفس الأسئلة . لقد كذبت وكفى ! هذا كل شيء . هل يعلم أحد ما الذى يمكن أن يدفع الانسان الى الكذب ، فى بعض الأحيان ؟

قال وكيل النيابة بصوت رزين :

ـ حقاً ان من الصعب ان يعرف المرء ما قد يدفع الانسان الى الكذب . ولكن قل لى : ماذا كانت ابعاد الكيس الذى كنت تحمله معلقاً برقبتك ؟ هل كان كبيراً !

ـ لا ، لم يكن كبيرا البتة .

ـ ماذا كانت أبعاده تعريباً ؟

ـ أبعاد ورقة المائة روبل حين تطوى الورقة نصفين .

ـ هل بقيت لك منه قطع ؟ هل تستطيع أن ترينا تلك القطع ؟

ـ قطع الكيس ؟ أتريد أن تضحك ؟ اننى لا أدرى ما الذى صارت اليه .

ـ عجيب ! أين ومتى نزعت الكيس عن عنقك ؟ لقد صرّحت أنت نفسك بأنك لم ترجع الى منزلك .

ـ نزعته أثناء الطريق بعد أن تركت فينيا لأذهب الى برخوتين • نزعته عن عنقي وأخرجت منه المال •

ـ في الظلام ؟

ـ هل كان عليَّ أن أشعل شمعة ؟ لقد توصلت اليه باللمس في مثل لمح البصر •

ـ في الشارع ؟ بدون مقص ؟

ـ نعم • تمَّ ذلك في الميدان اذا لم يخطيء ظني • ما الداعي الى مقصٍ حين يراد تمزيق خرقة عتيقة بالية ؟ لقد تمزقت من تلقاء نفسها •

ـ ماذا فعلت بتلك الخرقة بعدئذ ؟

ـ رميتها •

ـ أين ؟

ـ عجيب ! في الميدان ! أنَّى لى أن أتذكر المكان الذى رميت فيه الخرقة على وجه التحديد ؟ لماذا هذه الأسئلة ؟

ـ ذلك هام جدا يا دمترى فيدوروفتش • ألا تفهم أن هذه الخرقة يمن أن يكون وثيقة اثبات لصالحك ؟ من ساعدك في خياطة الكيس على المال ، منذ شهر ؟

ـ لم يساعدنى أحد • قمت بذلك وحدى •

ـ أأنت تعرف اذن أن تخيط ؟

ـ لا بد أن يعرف الجندى كيف يخيط • ثم ان هذا لا يحتاج الى أية براعة •

ـ أين وجدت القماش ، أعنى تلك الخرقة التى خطتها على المال ؟

ـ أأنتم تسخرون منى ؟

ـ أبدا • ثق أننا لا نرغب في الضحك أية رغبة يا دمترى فيدوروفتش !

ـ لا أتذكر من أين أخذت تلك الخرقة • لا بد أنني لمتهـا من مكان ما •

ـ كيف يمكن أن تنسى ذلك ؟

ـ أحلف لكم أنني لا أعرف • لعلني قد مزقت أحد الملابس •

ـ هذا شيء هام • قد نعثر غدا في منزلك على ذلك اللباس الممزق الذي انتزعت منه قطعة ، وربما كان قميصا من قمصانك ••• ما نوع نسيج تلك الخرقة ؟ أكانت من كتان أم كانت من قطن ؟

ـ أأنا أعرف ؟ لحظة •• لا ••• لم تكن قطعة قماش منتزعة من أحد الملابس •• كانت الخرقه من قماش خاص •• أظن أنني خطت المال في طاقية لصاحبة المنزل الذي أقيم فيه •

ـ لصاحبة المنزل الذي تقيم فيه •

ـ نعم ، اختلست هذه الطاقيه من عندها ؟

ـ اختلستها ؟

ـ أظن أنني أتذكر فعـلاً أنني في ذات يوم أخـذت طاقية من عندها • كنت في حاجة الى خرقة ، ربمـا لأمسح قلمي ، فأخذت تلك الخرقة دون أن أقول لأحد ، لأنها طاقية لا قيمة لها ••• طاقية عتيقـة من قماش قطني غُسل وأعيد غسله مائة مرة ••• وظلت الطاقية ملقاة في غرفتي منـذ ذلك الحين ••• فلمـا أردت أن أخبيء تلك الألف وخمسمائة روبل ، تناولت الطاقية وخطتها على المال •••

ـ هل تتذكر هذا تذكراً واضحاً ؟

ـ لا أدرى هل هذه الذكرى واضحة جداً • يخيّـل الىّ انها الطاقية ••• ولكن ما قيمة هذا !

ـ في هذه الحالة ستستطيع صـاحبة المنزل أن تذكر انها افتقدت طاقية ، أليس كذلك ؟

ـ لا ••• أبداً • انها لم تلاحظ غياب الطاقيه • نلك خرقة عتيقة غير ذات فائدة •••

ـ والابرة ؟ من أين أخذت الابرة ؟ والخيط ؟

ـ أتوقف عن الكلام • أرفض الجواب عن مثل هذه الأسئلة • كفى !

كذلك حسم ميتيا المناقشة وقد نفد صبره •

ـ انه لغريب حقاً أن تنسى فى أى مكان على وجه الدقة رميت ذلك الكيس فى الميدان !

ـ ليس عليكم الا أن تأمروا بكنس الميـــدان غداً ، فربما عثرتم عليه •

بهذا أجاب ميتيا ساخراً • ثم أردف يقول بصوت متعب مكدود :

ـ هذا يكفى أيها السادة ، يكفى ويزيد • اننى لأرى رؤية واضحة أنكم لا تصدقوننى ! انكم لم تصدقوا كلمة واحدة مما كنت أقول • وذلك خطئى أنا لا خطؤكم أنتم : كان علىّ أن أصمت بدلاً من أن أفضى بذات نفسى أمامكم فى غباء وبلاهة • آه ••• لماذا ، لماذا أسففت ذلك الاسفاف فكشفت لكم عن سرّى ؟ انكم لا تزيدون على أن تضحكوا من ذلك ، أنا أقرأ هذا فى نظراتكم • أنت الذى دفعتنى الى الكلام يا وكيل النيابة • أنتم الآن منتصرون أيها الجلادون المناحيس !

قال ميتيا ذلك ، وخفض رأسه وأخفى وجهه فى يديه • وصمت وكيل النيابة وقاضى التحقيق • وبعد دقيقة ،رفع ميتيا رأسه ونظر اليهما فارغ العينين • ان قسمات وجهه تعبر فى هذه المرة عن يأس كامل لا برء منه ؟ وظل جامداً على كرســـيه لا ينطق بكلمة واحدة كأنه غائب عن نفسه • وكان لوقت أثناء ذلك ينقضى ، فلا بد من الانتهاء ، ولا يمـــكن تأخير سماع الشهود مزيداً من التأخير • لقد دقت الســـاعة الثامنة من

الصباح ، وذابت الشموع منذ زمن طويل • وهذا ميشيل ماكاروفتش وكالجانوف اللذان غابا عن العرفه مراراً أثناء الاستجواب ، يخرجان الآن من جديد • وان وكيل النيابة وقاضى التحقيق يبدوان متبعين هما أيضاً الى أقصى حدود التعب • والصباح كالح مكفهر ، والسماء تغطيها الغيوم ، والأمطار تهطل سيولاً غزيرة • وميتيا ينظر من خلال النافذة كالآلة •

قال ميتيا يسأل نيقولا بارفينوفتش :

ـ هل أستطيع أن ألقى نظرة من النافذة ؟

فأجابه هذا بقوله :

ـ ما شئت أن تنظر •••

فنهض ميتيا واقترب من النافذة • المطر ينهمر على الزجاج انهماراً قوياً • وأمام المنزل يُرى طريق قذر ؟ وبعد الطريق ، فى الضباب الماطر ، تُلمح الكتل السوداء البائسة ، كتل الأكواخ التى تبدو فى المطر ملفعة بمزيد من الجهامة والحزن • فكر ميتيا فجأة فى « فيبوس ذى الضفائر الذهبية » ، وفيما كان قد عقد عليه عزمه من انتحار عند الفجر • فقال فى نفسه وهو يبتسم ابتسامة مرة : « هذا صباح كان يناسب مشروعى جداً » ثم طرد هذه الرؤيا بحركة عريضة من يده ، والتفت الى جلاديه وصاح :

ـ أيها السادة ، أرى أننى ضعت • ولكن ماذا عنها هى ؟ قولوا لى ، أضرع اليكم ، هل سيكون عليها أن تهلك معى • انها لا شأن لها بالأمر ؟ وفى لحظة من ضلال انما اتهمت نفسها أمس بأنها « مسئولة عن كل شىء » • هى لم ترتكب أى خطيئة ، هى غريبة عن هذه الدرامة كل الغرابة • لقد تألمتُ طوال الليل وأنا أفكر فيها بينما كنتم تستجوبوننى•• ألا تستطيعون أن تقولوا لى ما هو المصير الذى ينتظرها ؟

بادر وكيل النيابة يجيبه :

ـ اطمئن عنها يا دمترى فيدوروفتش • ليس هناك حتى الآن أى سبب يدعونا الى اقلاق الانسانه التى تهتم بها هذا الاهتمام كله ، وأرجو أن تضعها نهاية التحقيق في خارج القضية نهائيا ••• وسنعمل من جهتنا كل ما في وسعنا في سبيلها • فلا تخش عليها شيئا !

ـ شكراً ياسادتى • كنت أعلم حق العـــلم فى الواقع أنكم رغم الظروف أناس عادلون شرفاء • لقد أزحتم عن صدرى عبئاً ثقيلاً ••• ماذا أنتم صانعون بى الآن ؟ اننى مستعد •

ـ لم يبق لنا وقت نضيعه • يجب أن نبادر الى سماع الشهود حالا، وهذا لا يكون الا بحضورك • لذلك ••

قاطع نيقولا بارفينوفتش قائلاً :

ـ ألا يكون من الأفضل أن نحتسى فنجانا من الشاى أولاً • أحسب أننا نستحق فنجانا من الشاى !

وتقرر احتساء شيء من الشاى اذا وجد شاى ساخن تحت (وهذا مرجح ، والا فهل كان يتغيب ميشيل ماكاروفتش الا لطلب الشاى ؟)• وبعد الشاى يُستأنف الاستجواب ويتابَع بلا كلال • أما الافطار بمعنى كلمـة الافطار ، أما الافطار مع « الزاكوسكى » * فيؤجل الى ما بعد • واتضح أن هناك شاياً مهيأً بالفعل تحت ، فجيء بالشاى الى الغرفة • رفض ميتيا فى أول الأمر أن يتنـــاول الكأس التى مدَّها اليـــه نيقولا بارفينوفتش بكثير من اللطف والمودة ، ولكنه عدل عن رأيه بعد لحظـة فتناول الكأس واحتسى الشاى بشراهة • كان يبدو مرهقا ارهاقا غريبا• ما كان لليلة قصف ، ولو حفلت بانفعالات عنيفة ، أن تهدم هذا التهديم رجلاً له مثل قوة جسمه • ولكن ميتيا كان لا يكاد يستطيع الثبات على كرسيه ، وكانت الأشياء الموجودة فى الغرفة تدور أمام عينيه فى بعض اللحظات • قال يحدث نفسه : « لحظات ثم أهذى » •

٨

أقوال الشهود . الصبي

بدأ استجواب الشهود • ولكننا لن نذكر هنا جميع تفاصيله ، كما فعلنا باستجواب ميتيا • لن نحكى اذن كيف أوضح نيقولا بارفينوفتش لكل شاهد أن من واجبه أن يقول الحقيقة كاملة ، وأنه سيحمل فيما بعد على أن يكرر أقواله معززة بحلف اليمين ؟ لا ولن نصف الشكليات الاجرائية، كتذييل الشهود لمحضر استجوابهم بتوقيعهم. وحسبنا أن نشير الى أن الأسئلة التى ألقيت على مختلف الأشخاص انما دارت فى الدرجة الأولى على الثلاثة آلاف روبل : لقد طُلب من الشهود أن يقولوا هل أنفق دمترى فيدوروفتش ، فى موكرويه ، أثناء سهرة القصف السابقة ، فى الشهر الماضى ، ثلاثة آلاف روبل أم هو أنفق ألفاً وخمسمائة فحسب ، وهل كان معه فى الليلة البارحة ، فى أول سهرة القصف الثانية هذه، هل كان معه ثلاثة آلاف أم كان معه ألف وخمسمائة. واحزناه ! لقد شهدوا جميعا عليه ولم يشهد أحد له • حتى أن عددا منهم ذكروا قرائن جديدة قوية تكذب دعاواه •

وكان تريفون بوريستش أول من سُمعت شهاداتهم • تقدم أمام القضاة دون أن يبدو عليه أى خجل ، فهيئته هيئة رجل مستاء أعمق الاستياء من سلوك المتهم ، وهذا ما أضفى على تصريحاته طابعا قويا من

الصدق ، وأتاح له أن يصطنع أوضاعا فيهــا كثير من الكرامة والمهابة والوقار • وكان موجزاً فى كلامه ، متحفظا فى أقواله ، ينتظر الأسئلة بدلاً من أن يســتبقها ، ولكنه أجاب عن كل ســؤال بكثير من الدقة والروية والتأمل • وقد أكد بلا تردد أن المبلغ الذى أُنفق فى الشــهر الماضى لا يمكن أن يقل عن ثلاثة آلاف روبل ، وأن جميع فلاحى المنطقة قد سمعوا رقم الثلاثة آلاف ينطقه « دمترى فيدوروفتش » بلسانه نفسه، وانه يكفى أن يُسألوا عن ذلك • وختم صاحب النزل كلامه بقوله :

ـ لقد أنفق على الغجر وحدهم ثروة طائلة ، أعطى النساء ألف روبل فى أقل تقدير •

فعلق ميتيا على ذلك قائلاً وهو مظلم الوجه :

ـ لم أكد أعطيهم خمسمائة روبل • من المؤسف أننى لم أحسب، لأننى كنت ثملاً ، ولولا ذلك •••

كان ميتيا جالسا عندئذ فى جانب ، جاعلاً ظهره الى الستائر ، وكان يبدو كالح الوجه حزين النفس متعب الجسم ، يستمع الى أقوال الشهود مستسلما مذعنا بغير انفعال ، فكأنه يقول لهم : « هيّا ••• قولوا ماشئتم •• يستوى عندى كل شىء بعد الآن ! » •

ردّ عليه تريفون بوريستش قائلاً بلهجة حازمة :

ـ لقد كلفوك أكثر من ألف روبل يا دمترى فيدوروفتش • كنت ترمى اليهم المال بدون حساب ، وكانوا يلتقطونه من الأرض • ان هؤلاء الغجر أوغاد ••• ذلك معروف •• هم لصوص خيل ••• وقد طُردوا من المنطقة ، ولولا ذلك لكان يمكن أن يؤتى بهم ليقولوا كم سلبوك فى تلك الليلة • لقد رأيت بعينى الحزمة التى كنت تمسكها بيديك • ولئن لم أعدّ الأوراق المالية التى كانت تضمها الحزمة ، لأنك لم تتح لى ذلك، فاننى أتذكر أنها كانت تضم أكثر كثيرا من ألف وخمسمائة روبل ، اذا

صدق النظر .. أكثر كثيرا على كل حال ! أتظن أننا لم نر مبالغ ضخمة فى حياتنا ... اننا نستطيع نحن أيضا أن نقدر ما تضمه حزم الأوراق المالية ...

أما عن المبلغ الذى جاء به ميتيا فى الليلة البارحة فقد صرح تريفون بوريستش بلهجة قاطعة لا تقبل الجدل بأن ميتيا ما ان نزل من عربة الترويكا حتى قال له ان معه ثلاثة آلاف روبل .

فحاول ميتيا أن يحتج قائلاً :

ـ ما هذا يا تريفون بوريستش ؟ أأنا زعمت بمثل هذا القطع والجزم ان معى ثلاثة آلاف روبل ؟

ـ أنت قلت ذلك يا دمترى فيدوروفتش ! وقد قلته بحضور آندره. وهو ما يزال هنا لم ينصرف ، فاسألوه . وبعد ذلك بقليل صحت تقول فى القاعة ، وأنت تغدق على أفراد الجوقة ، انك تنفق هنا الألف السادس من الروبلات ، جاعلاً الثلاثة الآلاف الأولى فى حسابك طبعا . ولقد سمع كلامك ستيفان وسيمون ، وسمعه بطرس فومتش الذى كان الى جانبك عندئذ ، فلعله يتذكره هو أيضا ...

اهتم القضاة بهذا التصريح المتعلق بالألف السادس من الروبلات اهتماماً شديداً . ان هذه المعادلة الجديدة تخلب عقولهم : ثلاثة آلاف فى المرة الأولى + ثلاثة آلاف فى هذه المرة = ستة آلاف فعلاً .

واستجوب الفلاحان اللذان ذكرهما تريفون بوريستش ، وهما ستيفان وسيمون ، واستجوب الحوذى آندره ، واستجوب كذلك بطرس فومتش كالجانوف . فأما الفلاحان والحوذى فقد أيَّدا تصريحات صاحب النزل بلا تردد . وقد سُجِّلت ، بوجه خاص ، التفاصيل التى أوردها آندره عن الحديث الذى جرى بينه وبين ميتيا أثناء الطريق حين سأله ميتيا : « هل سيذهب ، هو دمترى فيدوروفتش ، الى جهنم أم الى الجنة،

وهل سيُغفر له فى السماء أم لا » • وقد تذكر هيبوليت كيريلوفتش فى هذه المناسبة مواهبه الرفيعة فى « النفاذ السيكولوجى » ، فاستقبل ما رواه آندره بابتسامة مفهومة ، وأمر بضم هذا التصريح الى ملف القضية •

واستُدعى بعد ذلك كالجانوف ، فدخل القاعة وقد بدا فى وجهه التململ والضجر والتجهم ، وأظهر أثناء الاستجواب كثيرا من النزوات وأبدى كثيرا من سرعة الغضب • تحدث مع وكيل النيابة وقاضى التحقيق حديثه مع أناس يراهم لأول مرة ، مع أنه يعرفهما منذ زمن طويل ، ومع أنهما التقى بهما مرارا فى المجتمع • وقد بدأ كلامه بقوله « انه يجهل كل شىء عن هذه القضية ، ولا يحب أن يقحم نفسه فيها » • ولكنه اضطر أن يوافق على أنه سمع صيحة ميتيا فى موضوع الألف السادس من الروبلات ، وأنه كان الى جانبه فى تلك اللحظة • فلما سئل كم كان مع ميتيا من المال قال : « لا أعرف عن هذا شيئاً » • وأكّد فى مقابل ذلك أن الرجلين البولنديين قد غشّا أثناء اللعب بالورق • وذكر كذلك ، بعد الحاح القضاة عليه الحاحاً متكرراً، أن ميتيا قد حظى، بعد طرد البولنديين، برضى أجرافين ألكسندروفنا ، وأن أجرافين الكسندروفنا قد أكدت أنها تحبه • وقد تكلم كالجانوف عن أجـــرافين ألكســندروفنا بلهجة فيها احتشام واحترام، ولم يسمح لنفسه مرةً واحدة بأن يسميها «جروشنكا». ورغم الانزعاج الواضح الذى كان يحسه هذا الشاب من اضطراره الى الادلاء بشهادته ، فان هيبوليت كيريلوفتش ظل يستجوبه مدة طويلة ، حتى علم منه جميع التفاصيل التى تألفت منها خلال الليل « رواية » ميتيا. وقد ترك ميتيا للشاب كالجانوف أن يتكلم دون أن يقاطعه ، وصُرف الشاب أخيرا ، فابتعد دون أن يخفى استياءه وامتعاضه •

واستجوب البولنديان أيضا • كانا قد استقرا للنوم فى الغرفة التى حُبسا فيها ، ولكن لم يغمض لهما جفن طوال الليل ، وأسرعا يرتديان ثيابهما حين سمعا وصول القضاة ، لأنهما كان يقدّران أنهما سيستدعيان

للادلاء بشهادتهما • تقدما نحو القضاة برصانة ووقار ، ولكن بشيء من الخوف والخشية مع ذلك • وعُرف عندئذ أن « السيد » الصغير الذى كان يبدو أنه هو الشخصية الهامة من الشخصيتين ، موظفٌ محال على التقاعد من الدرجة الثانية عشرة ، قد خدم فى سيبريا طبيبا بيطريا • وأن اسمه موزيالوفكتش • أما « السيد » فروبلفسكى فقد صرح بأنه «طبيب أسنان حر » ، وهذا اصطلاح يعنى فى الروسية أنه « خالع أسنان » •
منذ أن دخل البولنديان الغرفة التفتا نحو ميشيل ماكاروفتش ليجيبا عن الأسئلة كان يلقيها عليهما نيقولا بارفينوفتش• كان واضحا أنهما يتصوران أن رئيس الشرطة ، المنتحى قليلاً ، هو أرفع الشخصيات الموجودة فى الغرفة رتبةً ، فكانا لا ينفكان يخاطبانه بقولهما : « سيادة الكولونيل » • ولم يعزما أمرهما على الاتجاه بحديثهما الى نيقولا بارفينوفتش الا بعد احتجاجات كثيرة من ميشيل ماكاروفتش، مصحوبة بايضاحات وتعليمات• وقد تبيّن أنهما يجيدان الكلام باللغة الروسية اجادة تامة ، بصرف النظر عن بعض عيوب النطق • عرض «السيد» موزيالوفكتش علاقاته الحاضرة والماضية بجروشنكا ، متكلما بلهجة مسرحية ، مظهرا كثيرا من الحرارة والكبرياء ، فكان من شأن ذلك أن أحنق ميتيا وأخرجه عن طوره فصاح يقول انه لا يحتمل أن يتحدث انسان «حقير» على هذا النحو أمامه • فسرعان ما ألحّ «السيد» موزيالوفكتش على أن يُسجَّل فى المحضر أن ميتيا استعمل كلمة «حقير» • فصاح ميتيا يقول :

ـ حقير ••• نعم ••• حقير ! سجلوا هذا الكلام ، وسجلوا أيضا أننى لا أعبأ بالمحضر • ولن يمنعنى المحضر من أن أصرخ فى وجهك مرة أخرى قائلاً : أنت حقير !

أمر نيقولا بارفينوفتش بتسجيل الاهانة ، ولكنه عرف بعد ذلك كيف يختم هذا الحادث الأليم ببراعة عظيمة وحنكة مهنية فائقة • دعا

ميتيا الى التزام الهدوء بلهجة قاسية ، وعدل بعد ذلك فورا عن القاء أسئلة جديدة تتناول الجانب الروائى من القضيه • وعلى وجه الاجمال ، كان فى أقوال «السيدين» البولنديين نقطة لفتت انتباه القاضيين لفتاً خاصاً ، وأثارت فيهما اهتماما شديدا ، ألا وهى محـــاولة ميتيا أن يتخلص من «السيد» موزيالوفكتش بأن يعطيـــه ثلاثة آلاف روبل ثمناً لتنازله عن جروشنكا ، منها سبعمائة روبل ينقده اياها فورا ، والباقى وهو ألفـان وثلاثمائة روبل ، يدفعه له « منذ صباح الغد فى المدينة » • وقد ذكر «السيد» البولنـــدى أن ميتيـا حلف له أنه لا يملك المبـــلغ كاملا فى موكرويه ، ولكنه يملكه مخبأً فى المدينة • احتد ميتيا حين سمع هـذا التصريح وأنكر أن يكون قد وعده باكمال المبلغ منذ الصباح فى المدينة• غير أن «السيد» فروبلفسكى أيد أقوال رفيقه • ففكّر ميتيا قليلاً ، ثم وافق ، مقطباً ، على أن من الجائز فعلاً أن تكون الأمور قد جرت على هذا النحو الذى يذكره «السيدان» البولنديان ، وقال انه كان مهتاجا أشد الاهتياج أثناء ذلك الحديث ، فمن الممكن أن يكون قد قال ذلك الكلام• وهكذا بدا ثابتا الآن (وذلك ما لم يفتهم الاستناد اليه فيما بعد) أن نصف الثلاثة آلاف روبل التى صارت الى يدى ميتيا انما هو مخبأ فى المدينة ، وربما فى موكرويه نفسها • بذلك تبدد ذلك الظرف الذى كان يعرقل الاتهام ، أعنى كون ميتيا لا يحمل الا ثمانمائة روبل ، وهذا أمر كان الى ذلك الحين هو العنصر الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه فى دعم صدق أقواله ، وان تكن دلالة هـذا العنصر ضـــعيفة • هكذا انهارت المشاهدة الوحيدة التى كان يمكن أن تدافع عن ميتيا • فلما سأل وكيل النيابة ميتيا من أين كان يأمل أن يأخـذ ما ينقصـه ، وهو ألفان وثلاثمائة روبل ، من أجل أن يدفع «للسيد» البولندى ، ما دام جميع ما يملكه هو ألف وخمسمائة ، وما دام قد وعد باكمال المبلغ فى الغد ، أجاب ميتيا

جازماً بأنه كان لا ينوى أن يعطى البولندى المبلغ مالاً سائلا ، بل تنازلاً خطياً عن حقوقه فى أراضى تشرماشنيا ، وهى الحقوق التى سبق أن أراد التنازل عنها للتاجر سامسونوف وللسيدة هوخلاكوفا . فابتسم وكيل النيابة من «سذاجة هذا التملص » .

ـ هل تظن جاداً أنه كان سيرضى بهذه الحقوق بديلا عن ألفين وثلاثمائة روبل عداً ونقدا ؟

أجاب ميتيا قائلا بحرارة :

ـ طبعا كان سيقبل . ذلك أنه يربح بذلك أكثر من ألفى روبل. ان فى وسعه أن يقبض بهذه الطريقة أربعة آلاف روبل على الأقل ، وربما قبض ستة آلاف . كان سيسرع الى توكيل بعض المحامين ، اليهود أو البولنديين، فيجبر العجوز على التخلى لا عن ثلاثة آلاف روبل بل عن قرية تشرماشنيا !

سُجِّلت أقوال «السيد» موزيالوفكتش طبعا ، بجميع تفاصيلها ، ثم صُرف البولنديان . ولم يزعجهما أحد بموضوع الغش فى اللعب بالورق . لقد كان نيقولا بارفينوفتش شاكرا لهما تصريحاتهما فلم يشأ أن يصدِّعهما بسفاسف وترهات ، لا سيما وأن الأمر لا يعدو أن يكون بعد كل شيء خلافا فى اللعب بين قاصفين سكارى . ألم تكن الليلة كلها حافلة بفضائح وحوادث شتى ؟ هكذا بقيت المائتا روبل ملكا حلالا «للسيدين» البولنديين .

وجاء بعد ذلك دور العجوز ماكسيموف . بدا عند وصوله وجلاً كل الوجل ، واقترب من القضاة بخطى صغيرة ، حزين الوجه شديد الارتباك . كان قد ظل طول الوقت فى صحبة جروشنكا ، لاطياً بها كأنما لتحميه . وكان فى كل لحظة ينفجر باكيا ، ويمسح عينيه بمنديل أزرق ذى مربعات ، كما روى ذلك ميشيل ماكاروفتش فيما بعد . وقد بلغ من فرط الكرب واليأس أن المرأة الشابة اضطرت أن تهدئه وأن تواسيه

مرارا . اعترف العجوز دفعةً واحدة ، والدموع فى صوته ، أنه يعد نفسه مذنبا لأنه افترض من دمترى فيدوروفتش عشرة روبلات « بسبب شدة فقره » ، وأنه مستعد لردّها ... فلما سأله نيقولا بارفينوفتش هل يعلم كم كان فى يدى ميتيا من مال ، لأنه استطاع أكثر من أى شخص آخر أن ينعم النظر فى الحزمة حين تناول العشرة روبلات ، أجاب على الفور باقتناع : « كان فى الحزمة نحو عشرين ألف روبل » .

فسأله نيقولا بارفينوفتش مبتسما :

ـ هل أتيح لك قبل ذلك أن ترى مبلغ عشرين ألف روبل ؟

ـ هل رأيت ؟ طبعا رأيت ، ولكننى لم أر عشرين ألفا بل رأيت سبعة آلاف ، وذلك حين رهنت زوجتى قريتنا الصغيرة . لقد تباهت أمامى بالمبلغ الذى أُعطيته ، وأذنت لى أن أنظر الى الحزمة ، ولكن من بعيد . كانت حزمةً كبيرة من أوراق نقدية كالأوراق التى كانت مع دمترى فيدوروفتش .

ولم يطيلوا استجوابه . واستدعيت أخيرا جروشنكا . كان القضاة يخشون ما قد يرد به ميتيا حين يراها ، حتى لقد اعتقد نيقولا بارفينوفتش أن من الضرورى أن يقول له بضع كلمات من باب النصح . ولكن ميتيا اقتصر جوابه كله على أن حنى رأسه قليلا ، كأنه يريد أن يقول : « لن يحدث اضطراب ! » .

ان ميشيل ما كاروفتش هو الذى أدخل جروشنكا . وقد دخلت عابسةً مقطبة ، ولكن على هدوء ظاهر ، وجلست بغير ضجة على كرسى أشار لها اليه نيقولا بارفينوفتش أمامه . وكانت شاحبة الوجه جدا ، وكان يبدو أنها تشعر ببرد شديد ، وكانت تتلفع بشالها الأسود الرائع . والحق أنها كانت تشعر برعدات حمى هى بداية ذلك المرض الطويل الذى أصيبت به منذ تلك الليلة . وكان من شأن قسماتها الرضية ونظرتها الجادة الصريحة ووضعها الهادىء أن أحدثت فى نفوس الجميع أثراً

عظيما • حتى لقد «فتن» بها نيقولا بارفينوفتش بعض الشيء • فقد روى فيما بعد ، حين وصف مشاعره فى ندوة من ندوات المجتمع ، أنه أدرك مدى جمال تلك المرأة لأول مرة حينذاك • وقال انه لم يكن يرى فيها حتى ذلك الحين الا « غانية ريفية » • وقد صاح يقول ذات مرة في مجتمع نسوى : « ان لها أداباً عظيمة ، فأحدثت هذه الصيحة استياء شديداً فى نفوس سامعاته ، فسرعان ما وصفنه بأنه «فاسق»، فسُرَّ هو بهذا الوصف سرورا عظيما •

حين دخلت جروشنكا الغرفة ألقت على ميتيا نظرة خاطفة ، فتأملها قلقا ، غير أن منظر هدوئها لم يلبث أن طمأنه • سألها نيقولا بارفينوفتش، بعد الاجراءات الشكلية وبعد بضع كلمات تشجيعية ، سألها مترددا بعض التردد ، ولكن بكثير من الأدب والتهذيب « ماذا كانت علاقاتها بالملازم المتقاعد دمترى فيدوروفتش كارامازوف » ، فأجابته جروشنكا بصوت حازم رقيق عذب :

ــ كان أحدَ من أعرف من الناس ، وبهذه الصفة انما كنت أستقبله فى بيتى أثناء الشهر الأخير •

وأُلقيت عليها أسئلة أخرى كان بعضها دقيقا محرجا ، فكانت تجيب فى كل مرة بصراحة تامة • وهكذا اعترفت بأن ميتيا كان قد أعجبها « فى بعض الساعات » ولا شك ، غير أنها لم تكن قد أحبته ، وانما كانت تلعب به لعبا « بدافع الخبث المنحط وحده » ، كما كانت تلعب « بالعجوز » من جهة أخرى ؛ وكانت قد لاحظت أن ميتيا يغار جدا من فيدور بافلوفتش ، ومن رجال آخرين أيضا ، ولكن ذلك لم يكن عندها الا موضوعا جديدا للتسلي والضحك • أما فيدور بافلوفتش فانها لم تزره فى يوم من الأيام ، لأنها لم تزد على السخرية منه طول الوقت • وأضافت تقول :

ـ ثم اننى قد كانت لى خلال هـــذا الشهر الأخير مشاغل أخرى مختلفة عن ذلك كل الاختلاف • فقد كنت لا أفكر فيهما ، لأننى كنت أنتظر وصول رجل أعده آثماً فى حقى •• ومهما يكن من أمر ، فاننى أحسب أنه ليس لكم أن تتدخلوا فى هذا الشأن ، وليس علىّ أن أروى هذه التفاصيل ، لأن هذا من حياتى الخاصة •

أسرع نيقولا بارفينوفتش يخضع أمام هـــذه الحجة ، فكف عن سؤال جروشنكا عن العناصر الروائية فى القضية ، وبادر يواجه النقطة الأساسية رأساً ، أعنى مسألة الثلاثة آلاف روبل • فأيدت جروشنكا أن المال الذى أُنفق في موكرويه فى الشهر الماضى يرتقى الى ثلاثة آلاف روبل • فلئن لم تعدّ المال ، لقد سمعت دمترى فيدوروفتش نفسه يذكر هذا الرقم •

سألها وكيل النيابة :

ـ هل أسرّ اليك بهـــذا الرقم على انفراد أم بحضـــور أشخاص آخرين ؟ أم هل عرفته لأنك سمعته يُذكر لآخرين ؟

فأوضحت جروشنكا أنها سمعت ميتيا يذكر هذا الرقم لأشخاص آخرين ، ولكنه حدثها عنه أيضا ، على انفراد وبحضور آخرين •

فسألها وكيل النيابة مرة أخرى :

ـ هل سمعته يذكر هذا الرقم مرة واحدة أم عدة مرات ؟

فأجابت :

ـ بل عدة مرات •

رضى هيبوليت كيريلوفتش عن هـــذه التصريحات رضىً عظيما • وقد أتاحت تتمة الاستجواب أن يُعرف ، عدا ذلك ، أن جروشنكا كانت

على علم بمصدر هذا المبلغ ، وأنها كانت لا تجهل أن ميتيا قد أخذه من كاترين ايفانوفنا .

ـ ألم تسمعى أبدا أن المبلغ الذى أُنفق فى القصف فى الشهر الماضى لم يكن ثلاثة آلاف روبل ، بل دون ذلك كثيرا ، وأن دمترى فيدوروفتش قد احتفظ بنصف المال ؟

ـ لا ، أبدا . لم أسمع هذا فى يوم من الأيام .

واذ طلبوا الى جروشنكا أن تزيد هذه النقطة وضوحا ودقة ، فقد تأدوا بها الى أن تصرح بأن ميتيا ، خلافا لذلك ، قد أكد لها طوال هذا الشهر أنه لم يبق معه كوبك واحد . وختمت جروشنكا كلامها قائلة :

ـ وكان يأمل دائما أن يأخذ مالاً من أبيه .

هنا تدخل نيقولا بارفينوفتش فسألها :

ـ هل اتفق له أن قال بحضورك أو ذكر عرضاً أو صاح وهو فى سورة من غضب أنه ينوى أن يقتل أباه ؟

فأجابت جروشنكا متنهدة :

ـ قال ذلك وا أسفاه !

ـ أقاله مرةً واحدة أم قاله مرارا ؟

ـ قاله مرارا ، ولكن فى لحظات الغضب دائما .

ـ هل صدقت أنه سيقدم على تنفيذ نواياه ؟

ـ لا ، لم أصدق هذا فى يوم من الأيام ، لأننى كنت على ثقة بنبل خلقه .

كذلك قالت جروشنكا بلهجة حازمة .

فصاح ميتيا يقول فجأة :

ـ اسمحوا لى أيها السادة ! هل أستطيع أن أقول كلمة ، كلمة واحدة ، بحضوركم ، لأجرافين ألكسندروفنا ؟

قال نيقولا بارفينوفتش :

ـ افعل !

فقال ميتيا وهو ينهض عن كرسيه :

ـ أجرافين الكسندروفنا ، صدقينى ، فان الله على ما أقول شهيد : أنا لم أسفح دم أبى !

قال ميتيا تلك الكلمات وعاد يتهالك على كرسيه . فنهضت جروشنكا ، ورسمت اشارة الصليب بخشوع وتقى وهى تتجه الى أيقونة ، وقالت بصوت حار مؤثر :

ـ الحمد لله !

ثم أضافت تقول مخاطبة نيقولا بارفينوفتش بينما كانت تعود تجلس :

ـ ان ما قاله هو الحقيقة ، وعليكم أن تصدقوه . أنا أعرفه . قد يمزح لعباً أو عناداً ، ولكنه لن يكذب فى يوم من الأيام مخالفا ضميره. سيقول الحق دائما فى الأحوال الخطيرة . كونوا من هذا على يقين !

قال ميتيا بصوت يهدجه الانفعال :

ـ شكراً أجرافين ألكسندروفنا ! ان أقوالك قد واست قلبى .

وفى موضوع المال الذى كان مع ميتيا فى الليلة البارحة ، صرحت جروشنكا بأنها لا تعرف مقداره ، ولكنها اعترفت بأن ميتيا قد أكد لعدة أشخاص أنه جاء بثلاثة آلاف روبل . وأما عن مصدر ذلك المال فقد قالت جروشنكا أن ميتيا اعترف لها ، لها وحدها ، بأنه « سرقه » من

كاترين ايفانوفنا ، وانها أجابته على ذلك بأن هذا ليس سرقة ، وان عليه أن يرد اليها المال منذ الغد • فلما ألح وكيل النيابة على أن يعرف ما هو المبلغ الذى يدعى ميتيا أنه سرقه من كاترين ايفانوفنا ـ أهو الثلاثة آلاف روبل التى كانت معه فى الليلة البارحة ، أم هو الثلاثة آلاف روبل التى أنفقها بموكرويه فى الشهر الماضى ـ أجابت بأن ميتيا قد تكلم من الثلاثة آلاف روبل التى أنفقت فى الشهر الماضى ، وأن هذا ما فهمته هى من كلامه •

هنا انتهى استجواب جروشنكا • وأسرع نيقولا بارفينوفتش يعلن لها أنها حرة تستطيع أن ترجع الى المدينة ، فاذا كان فى وسعه أن يعمل شيئاً من أجلها ، كأن يأمر لها بخيل أو أن يهيىء لها خفراً ، فانه سوف يسعده أن •••

فقاطعته جروشنكا تقول وهى تنحنى انحناءة توديع يسيرة :

ـ أشكر لك لطفك . ولكننى أنوى البقاء فى صحبة هذا العجوز المسكين ، هذا الملاك الذى أرغب فى أن أوصله الى منزله . وبانتظار ذلك أوثر أن أبقى تحت ، اذا أذنتم بذلك ، ريثما تقرروا مصير دمترى فيدوروفتش .

وخرجت جروشنكا من الغرفة . كان ميتيا هادئاً ، حتى لقد كان وجهه يعبر عن رباطة الجأش وطمأنينة البال ، ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة . ان وهناً جسميا شديدا كان يغزوه شيئا بعد شىء ، وان عينيه كانتا تغمضان من فرط التعب ؛ ولم يكن قد بقى شهود يستمع الى شهاداتهم ، وقد بدأت كتابة المحضر فى صورتها الأخيرة • فها هو ذا ميتيا ينهض عن كرسيه ، ويتجه الى زاوية الغرفة قرب الستارة ، حيث تتمدد حقيبة كبيرة مغطاة بسجادة ، فسرعان ما ينام ، فيرى فى منامه حلماً غريبا لا يتفق مع هذه الظروف فى شىء من الأشياء ـ رأى نفسه فى عربة

تجتاز سهوباً فى المنطقة التى كان قد خدم فيها ضابطا ، والعربة يقودها خلال السهل الموحل فلاح يعمل حوذيا • ان ميتيا يشعر ببرد • هـــذه أوائل شهر تشرين الأول (نوفمبر) • الثلج يتساقط سبائخ كبيرة رطبة ما ان تلامس الأرض حتى تذوب • الفلاح يستحث الخيل ويشجعها على أن تسرع العدو ملوّحاً بسوطه • ان له لحية حمراء طويلة جدا • ما هو بالعجوز • قد يكون فى الخمسين من عمره • انه فلاح بسيط يرتدى قفطانا فقيرا أشهب • وهذه ضيعة صغيرة تتراءى فى مكان قريب • ان الناظر يلمح أكواخها السوداء الحزينة وقد احترق نصفها ولم يبق منها الا هياكل محترقة • وعند مخرج الضيعة تصطف نساء ، تصطف كثرة من النساء • انهن هزيلات هزالا رهيبا • وجوههن بلون التراب • بينهن واحـــدة تلفت النظر خاصة ، قد وقفت على حافة الطـــريق • هى امرأة بارزة العظام طويلة القامة ، تبدو فى الأربعين ولكن ربما كان عمرها لا يزيد على عشرين • وجهها مستطيل جاف• وعلى ذراعيها طفل يبكى• لا شك أن ثدييها قد نضبا ، فلم يبق فيهما قطرة من لبن • الطفل يبكى، وما ينفك يبكى بلا انقطاع ، ماداً ذراعيه الصغيرتين ، ذراعيه العاريتـــين البائستين اللتين ازرقت قبضتاهما من شدة البرد •

سأل ميتيا حين مرت العربة أمامهم مسرعة :

ـ لماذا يبكون ؟ لماذا ؟

فأجابه الحوذى :

ـ الصبى هو الذى يبكى •

فوجىء ميتيا من قول الفلاح : « الصبى » ، بدلا من أن يقول : « الطفل » • أعجبه من الفلاح أن يستعمل هذه التسمية • ان فى كلمة « الصبى » من العطف والشفقة ما ليس فى كلمة « الطفل » •

ألح ميتيا يسأل الفلاح رغم شعوره بغباوة سؤاله :

ـ ولكن لماذا يبكى ؟ لماذا ذراعاه عاريتان ؟ لماذا لا يغطون ذراعيه؟

قال الفلاح :

ـ الصبى قد تخدر من البرد ؟ تجلدت ثيابه فأصبحت لا تقيه .

عَنَدَ ميتيا فظل يسأل فى غباء :

ـ ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

ـ هؤلاء نساء فقيرات ، احترقت دورهن ، ولم يبق معهن خبز ، فهن يستجدين .

قال ميتيا وكأنه لا يفلح فى أن يفهم :

ـ لا ، لا . قل لى : لماذا هن هنا ، تلك الأمهات اللواتى احترقت دورهن ، لماذا هن فقيرات الى هذه الدرجة من الفقر ، لماذا هذا الصبى يبكى ، ولماذا هذه السهوب عارية كل هذا العرى ؟ نعم ، لماذا لا يتعانقن جميعا ، لماذا لا يرتمى بعضهن فى أذرع بعض منشدات أغنية فرح ؟ لماذا أصبحت وجوههن بلون التراب من شدة الفقر والبؤس ، لماذا لا يطعمن الطفل ؟

ان ميتيا يحس فى قرارة نفسه أن هذه الأسئلة بلهاء سخيفة، ولكنه يشعر بحاجة قوية الى القائها ، ويعلم أنها يجب أن تلقى . وهو يشعر كذلك بشفقة كبيرة تشب فى قلبه ، شفقة لا عهد له بمثلها من قبل ، وهو يريد أن يبكى ، ويتمنى أن يفعل شيئاً ليساعدهن جميعا ، حتى يكف الصبى عن الأنين ، وحتى تنقطع عبرات أمه ذات الوجه الهزيل المغبر ، وحتى لا يبكى أحد فى هذا العالم بعد اليوم . انه يريد أن يعمل شيئاً على الفور ، بغير انتظار ، وبدون أن يحسب حساب أى شىء ، مندفعا ذلك الاندفاع الجامح الذى يتميز به آل كارامازوف .

ـ سأكون معك ، لن أتركك بعد الآن ، سأبقى الى جانبك مدى الحياة .

كذلك قال على مقربة منه صوت جروشنكا الرقيق الحنون المتأثر.

اشتعل قلبه مندفعا نحو ضياء بعيد . انه يريد أن يحيا ، أن يحيا ، أن يمشي ، أن يمشي بلا توقف نحو ذلك الضياء الذى يناديه ، أن يسافر حالا ، بمزيد من السرعة ، على الفور ، على الفور !

هتف فجأة وهو يفتح عينيه ويجلس على الحقيبة ، كأنه يصحو من غيبوبة :

ـ أين ؟ كيف ؟

وكانت بسمة مشرقة تضيء وجهه .

كان نيقولا بارفينوفتش واقفا أمامه يدعوه أن يسمع قراءة المحضر وأن يوقعه . أدرك ميتيا أنه نام ساعة أو أكثر . ولم ينتبه أى انتباه الى كلام نيقولا بارفينوفتش ، لأنه لاحظ أن وسادةً كانت موضوعة تحت رأسه ، مع أنه لم يكن ثمة وسادة حين استلقى على الحقيبة مهدود القوى.

هتف يسأل وهو يشعر بامتنان متحمس ، وفى صوته دموع ، كأنه قد مُنَّ عليه بفضل عظيم :

ـ من وضع وسادة تحت رأسى ؟ من عطف عليَّ هذا العطف النبيل ؟

غير أن الانسان الذى قام ببادرة العطف النبيلة هذه قد ظل مجهولا. لعل أحد الشهود أو لعل كاتب نيقولا بارفينوفتش هو الذى أمر باحضار الوسادة . أحس ميتيا بتأثر شديد يرقرق الدموع فى العينين . واقترب من المائدة ، وأعلن أنه سيضع توقيعه على كل ما يشاءون أن يضع توقيعه عليه .

وقال بصوت غريب :

ـ رأيت حلماً جميلا يا سادتى .

ان قسمات وجهه لا تعبر الآن عما كانت تعبر عنه أثناء الليل . لكأنه قد بدّل انسانا آخر . ان محيّاه غارق فى ضياء مشرق .

٩

اقتياد ميتيا

حين تمّ توقيع المحضر التفت نيقولا بارفينوفتش نحو ميتيا فى أبهة ، وقرأ عليه نص « قرار » يتضمن أنه فى يوم كذا ، سنة كذا ، وفى مكان كذا ، استجوب قاضى التحقيق فلانا (أى ميتيا) ؛ وحيث أن المتهم ، رغم انكاره التهمة المنسوبة اليه ، لم يكن قادرا على أن يبرىء نفسه ؛ ونظراً للتهم المنسوبة اليه من الشهود (وتُليت قائمة بأسماء الشهود) ، ونظرا لظروف القضية ، فقد قرر قاضى التحقيق ، بالاستناد الى مواد القانون (وتُليت أرقام المواد) أن يودع المتهم السجن.. حتى لا يستطيع الفرار من وجه العدالة ، وأن تبلغ صورة من هذا الحكم لوكيل النيابة ، الخ .

الخلاصة : أُعلم ميتيا أنه معتقل ، وأنه سينقل الى المدينة ليسجن فى مكان ليست الاقامة فيه بالممتعة . وقد أصغى ميتيا الى قراءة هذه الورقة بانتباه ، ولكنه لم يزد على أن رفع كتفيه قائلا :

ـ ليكن ما تشاءون يا سادتى ... لست أؤاخذكم ، أنا مستعد ... اننى لأدرك حق الادراك أنكم ما كان فى وسعكم أن تفعلوا غير مافعلتم.

فشرح له نيقولا بارفينوفتش ، فى لين ورفق ، أن موريس مافريكيفتش الذى كان فى المكان بما يشبه المصادفة، هو الذى سيقتاده .

هتف ميتيا يقول فجأة فى سورة جامحة لا تقاوم ، متجهاً بكلامه الى جميع الحضور فى القاعة :

ـ لحظة يا سادة ! نحن جميعا قساة ، نحن جميعا وحوش مفترسة، نحن سبب الدموع التى تسكبها الأمهات ويسكبها الأطفـــال الرضّع ، ولكننى أنا ـ أقول هذا جهارا على رءوس الأشهاد هنا ـ أنذل الناس ، وأدنأهم طراً • اننى أسلِّم بهـــذا • وما من يوم انقضى فى حياتى الا وحلفت فيه ، وأنا ألطم صدرى ، لأصلحن أمرى ولأقوّمنّ عوجى ، ولكننى كنت أهوى الى أخطائى منذ الغد • اننى أدرك اليوم أن رجالاً مثلى محتاجون الى أن يضربهم القدر ، محتاجون الى أن يضربهم القــدر ضربة تدمِّر كيانهم وتوقظ فى أنفسهم قوى الحقيقة العليا • ما كان لى أبداً ، أبداً ، أن أستطيع النهوض من تلقاء نفسى ! ولكن الصـاعقة قد نزلت علىّ • وأنا أقبل عذاب الاتهام الموجه الى ، وأقبل العار الذى تلطخ به شرفى أمام الناس . أريد أن أتألم ، وأن أتطهر بالألم . لأننى سأفدى نفسى بالألم ، أليس هذا صحيحا أيها السادة ؟ ولكننى أؤكد لكم آخر مرة : أننى لم أسفح دم أبى ! اننى أقبل العقاب لا على قتله، بل على أننى أردت أن أقتله ، وربما كنت سأقتله فى النهاية ••• ولكننى سأكافح لدفع التهمة عن نفسى ، فاعلموا هذا ! سأدافع عن نفسى حتى النهاية ، وسيقرر الرب مصيرى • الى اللقاء أيها السادة • واغفروا لى ما ظهر منى من غضب أثناء الاستجواب • آه •• ما كان أغبانى عندئذ ! بعد بضع ثوان لن أكون الا ســجينا ؛ ولآخر مرة انما يمـــد دمترى فيدوروفتش كارامازوف يده اليكم مصافحا مصافحة رجـــل حر طليق • وانى اذ أودعكم انما أودِّع العالم ••

أخذ صوته يرتجف ، وقدم يده ، لكن نيقولا بارفينوفتش الذى

كان أقرب الحضور اليه ، سحب يده فجأة بحـــركة تشبه أن تكون متشنجة • فلاحظ ميتيا ذلك فارتعش وسقطت يده •

دمدم نيقولا بارفينوفتش يقول محرجا :

ــ لم ينته التحقيق • وسنستأنفه في المدينة • وأنا من جهتي أتمنى لك النجاح فيما ستبذله من جهود لتبرئة نفسك • لقد كنت أميـــل دائما يا دمتري فيدوروفتش الى أن أعدك انسانا عاثر الحظ ان صح التعبير ، لا انسانا مجرما ••• ونحن جميعا مستعدون ــ اذا جاز لي أن أنطـق بلسان الآخرين أيضا ــ لأن نرى فيك شابا نبيل الخلق في قرارة نفسه، لكنه ، وا أسفاه ، قد اندفع مع أهواء عنيفة جامحة اندفاعا ربما كان فيه افراط •

وحين نطق القاضي بهذه الكلمات الأخيرة اصطنع شخصه الضـئيل وضع مهابة قصوى ووقار عظيم • وأحس ميتيا فجأة أن هـــذا « الولد الصغير » سيمسكه من ذراعه فينتحي به جانبا ويستأنف معه حديثه الأخير عن « النساء الصغيرات »• هل يتصور أحد أية خواطر غريبة شاذة يمكن في ظروف كظروف هذه اللحظة أن تومض في ذهن الانسان ، ولو كان هذا الانسان مجرما يُساق الى التعذيب ؟

سأل ميتيا :

ــ سادتي ، أنتم أناس طيبون انسانيون • فهل تسمحون لي بأن أراها مرة أخيرة لأودعها ؟

ــ طبعا ••• ولكن ، بالنظر الى الظروف الخاصة ••• أقصد •• لا يمكن أن تراها على انفراد بل بحضور شهود •

ــ لا أرى أي ضير في أن تحضروا اللقاء •

مضى بعضهم يحضر جروشنكا • ولكن الوداع كان موجزا ، وهذا ما خيب ظن نيقولا بارفينوفتش • انحنت جروشنكا تحيي ميتيا تحيـــة عميقة • وقالت له :

ـ قلتُ انني سأكون لك الى الأبد • سأصـــحبك حيثما تذهب ، مهما يكن مصيرك • استودعك الله ، يا من ضيعت نفسك دون أن تكون مذنبا •

واختلجت شفتاها ، وسالت الدموع من عينيها •

ـ اغفرى لى يا جروشنكا ، اغفرى لى أننى أحببتك • فسببت لك الضياع بهذا الحب •

أراد ميتيا أن يضيف شيئا آخر ، ولكنه انقطع عن الكلام فجـأة وخرج من الغرفة • وسرعان ما وجد نفسه محاطا برجال لم يغب عن أنظارهم • وتحت ، أمام درجات الباب الذى وصل اليه الليلة البارحة على عربة آندره محدثا ضجة كبيرة ، كانت تنتظره عربتان • ان موريس مافريكيفتش ، وهو رجل سمين قصير مغضَّن الوجه ، يبدو معتكر المزاج قد أحنقه طارىء ما ، فهو يغضب ويصيح • وها هو ذا يدعو ميتيا الى ركوب العربة بلهجة عدَّها ميتيا مسرفة فى الخشونة . قال ميتيا يحدث نفسه : « حين كنت أسقيه خمراً فى الكاباريه ، كان يبدى غير ما يبدى الآن • • » • وظهر تريفون بوريستش فى أسفل درجات الباب أيضا • واحتشدت جمهرة من الفلاحين والنساء والحوذيين قرب الباب تتفرس فى ميتيا •

هتف ميتيا يقول لهم من مكانه :

ـ استودعكم الله أيها الناس الطيبون ! سامحونى !

فترجَّعت أصوات تقول له :

ـ اغفر لنا نحن أيضا .

ـ أستودعك الله أنت أيضا يا تريفون بوريستش !

ولكن صاحب النزل أبى حتى أن يلتفت . لعله كان مشغولا جدا، فلقد كان يصرخ ويتحرك منهمكا هو أيضا : والحق أن العربة الثانية التي يجب أن يركبها خفيران من رجال موريس مافريكيفتش لم تكن بعد مستعدة للسفر كل الاستعداد . كان الفلاح القصير الذي كلف بسوق العربة يصرّ على أن يزعم ، بينما هو يرتدي قفطانه ، أن الدور دور آكيم ، لا دوره هو ، في القيام بهذه المهمة . ولكن أين آكيم ؟ ان أحداً لم يستطع العثور عليه . لقد بحثوا عنه في كل مكان . والفلاح القصير ما يزال يصرّ ويتوسل أن ينتظروه مزيدا من الانتظار .

هتف تريفون بوريستش يقول :

ـ ان هؤلاء الناس الذين ينتمون الى سقط الشعب وقحون وقاحة فظيعة يا موريس مافريكيفتش ، أنظر كيف يتصرفون !

وأضاف يخاطب الفلاح الصغير :

ـ لقد أعطاك آكيم منذ ثلاثة أيام خمسة وعشرين كوبكا ، فشربت بها خمرا ، وتريد الآن أن يحل محلك وأن ينوب عنك .

وعاد تريفون بوريستش يخاطب موريس مافريكيفتش :

ـ يدهشني يا موريس مافريكيفتش ما تعامل به هؤلاء الفلاحين الأدنياء من رقة وتسامح . ذلك كل ما أستطيع أن أقوله .

تدخل ميتيا قائلا :

ـ لماذا هذه العربة الثانية ؟ تكفينا عربة واحـــدة ، ألا تظن ذلك يا موريس مافريكيفتش ؟ انني لن أتمرد ولن أزعجك فى شىء ! لاحاجة الى خفر من أجلى !

فأجابه موريس مافريكيفتش قائلاً بشراسة :

ـ تعلم كيف يجب عليك أن تكلمنى يا سيد اذا كنت لا تعرف ذلك بعد • أنا لست رفيقك ، واننى أمنعك من مخاطبتى بصيغة المفـرد• مفهوم ؟ أما نصائحك ففى وسعك أن تمتنع عن اسدائها الىّ فى المستقبل•

كان واضحا أنه يسعده أن يفرّج عن نفسه بالاستسلام لغضبه •

صمت ميتيا • وكان قد احمر احمرارا شديداً • وها هو ذا بعد لحظة يشعر ببرد • لقد انقطع المطر عن الهطول ، ولكن السماء الشهباء مغطاة بالسحب ، وان ريحا جافة جدا تسفع وجهه • تســاءل ميتيا بينه وبين نفسه وهو يضم كتفيه فى تشنج : « أهـــذه رعدة حمى ؟ » • وركب موريس مافريكيفتش العربة أخيرا • جلس فى مكانه ثقيلا ، واسترخى على راحته دافعاً ميتيا الى ركن المقعد دون أن يبدو عليه أنه لاحظ ذلك• الحق أنه كان معتكر المزاج جدا ، وكان مستاءً أشد الاستياء من هذه المهمة التى عهد اليه بها •

ـ استودعك الله يا تريفون بوريستش !

كذلك صاح ميتيا يقول مرة أخرى ، ولكنه شعر بأنه لا يخاطب صاحب النزل فى هذه المرة بروح المودة ، وشعر بأن الغضب هو الذى انتزع منه هذه الصيحة انتزاعا بغير ارادته •

ظل تريفون بوريستش ساكنا لا يهتز ، واضعا يديه وراء ظهره•

وحدّق الى ميتيا دون أن يجيب ، ناظراً اليه نظرة منقلة بالكبرياء و لتعالى زاخرةً بالاستنكار والاستياء .

ودوّى صوت كالجانوف يقول فجأة وقد انبجس لا يدرى أحد من أين :

ـ الوداع يا دمترى فيدوروفتش ، الوداع !

كان كالجانوف يجرى نحو العربة عارى الرأس ، ماداً يده الى ميتيا ، فاتسع وقت ميتيا لأن يمسك يده ويصافحه ، قائلا له :

ـ الوداع أيها الصديق الشهم . لن أنسى كرمك ما حييت ! ولكن العربة تحركت ، فانفصلت يداهما ، ورنت الجلاجل . اقتيد ميتيا .

انسحب كالجانوف الى الدهليز ، فجلس فى ركن ، واضعا رأسه فى يديه ، وأخـذ يبكى . وظل يبكى زمنا طـويلا ، كصبى صغير ، لا كشاب فى العشرين من عمره . لقد كان شبه مقتنع ، وا أسفاه ! ، بأن ميتيا قد قتل أباه . فكان يهتف بغير انقطاع ، وهو يشـعر بحسرة مرة ولوعة شديدة : « ما قيمة البشر بعد هذا ؟ كيف يثق المرء بالبشر بعد الآن » . وبدا له فى تلك اللحظة أنه أصبح لا يحب أن يحيا ، فهـو يتساءل قانطاً : « فيم الحياة ؟ فيم الحياة ؟ » .

حواش

٦ ★ « Sosna Kak So Sna» : ها هنا لعب بالالفاظ قائم على التشابه بين كلمة Sosna ومعناها الصنوبر وبين So Sna بمعنى : « فى الحلم » ٠

٢٤ ★ « أنا الآن فى موقف فاموسوف » : اشارة الى المسرحية الهزلية التى كتبها جريبويدوف وعنوانها : « كثير من الذكاء ضرر » ، ودوستويفسكى كثيرا ما يستشهد بهذه المسرحية ٠ فى المشهد الاخير من هذه المسرحية يفاجىء فاموسوف ابنته صوفيا متحدثة مع تشاتسكى على السلم الكبير فى المنزل ٠

٢٨ ★ « بقوة عظيمة انجذب » : أغنية يقول دوستويفسكى فى رسالة كتبهـا سنة ١٨٧٤ انه سمعها فى موسكو قبل أربعين عاما ، وكان يغنيها الخدم ٠ (وسوف تذكر أيضا فى الصفحة ٣٣ من هذا المجلد) ٠

٣٠ ★ «لأن أمى امرأة نتنة» : اشارة الىمعنى اسم أمه «سمردياشتيايا» (راجع حاشية الصفحة ٢٣٦ من المجلد السابق) ٠

٣١ ★ « نابوليون الأول ، وهو أبو الامبراطور الحالى » : واضح خطأ سمردياكوف فان نابوليون الاول هو عم نابوليون النالث الذى حكم فرنسا بهذه الصفة من سنة ١٨٥١ الى سنة ١٨٧٠

٤٢ ★ «وريقات الاشجار الطريات النديات» : استعمل دوستويفسكى هذه العبارة مرارا ، وهى مستمدة من قصيدة للشاعر بوشكين فى وصف الربيع ٠

٥١ ★ « اذا كان الله غـير موجود فيجب اختراعه » : هنا استشهاد بعبارة للكاتب الفرنسى فولتير فى « رســالة الى صانع الخدع

صفحة

السلان » ، وقد تحورت عبارة فولتير قليلا ، لانها فى الاصل : « اذا لم يكن اله ... » .

٥٢ ★ يجب أن نتذكر أن العالم الروسى نيقولاى لوباتشفسكى قد عرض سنة ١٨٢٦ مذهبا جديدا فى «هندسة غير اقليدسية» ، فسبق بذلك أنيشتاين ومهد له .

٥٥ ★ « يوحنا الرحيم » : يخطىء دوستويفسكى هنا ، فلا شك أن المقصود هو « جوليان الرحيم » الذى اتخذه الكاتب الفرنسى فلوبير موضوعا لاحدى قصصه ، وقد قام تورجنيف بترجمة هذه القصة الى اللغة الروسية سنة ١٨٧٧ .

٦٠ ★ ينقل دوستويفسكى هنا نقلا أمينا مضمون وأسلوب النشرة التى اصدرتها « لجنة توزيع الكتب الدينية فى اقليم « فو » بسويسرة ، وعنوان النشرة « جذوة جديدة تنتزع من النار ، أو القصة الحقيقية التى تروى اهتداء وموت لويس فردريك ريشار الذى أعدم بمدينة جنيف فى ١١حزيران يونية ١٨٥٠» . وان تنفيذ عقوبة الاعدام هذه التى أنزلت فى ريشار وشهدها ما يقرب من عشرة آلاف شخص ، قد وصفت فى نشرات أخرى، منها النشرة التى أصدرها ارنست كرامر فى جنيف سنة ١٨٥٠ ، وعنوانها : «قصة اللحظات الاخيرة التى عاشها لويس فردريك ريشار » .

٦٢ ★ يجب أن نتذكر أن الليوتنان ايلنسكى لم يحكم عليه ، بتهمة قتل ابيه ، عام ١٨٤٨ ، الا بالسجن مع الاشغال الشاقة عشرين سنة .

٦٣ ★ ان الشاعر ن.آ. نكراسوف قد صور هذا المشهد فى قصيدته «تأملات فى هذا الزمان» (١٨٥٩) ، وتحت تأثير هذه القصيدة انأ الف دوستويفسكى حلم راسكولينكوف فى الفصل الخامس من الجزء الاول من روايته « الجريمة والعقاب » .

٦٤ ★ هى قضية ابن صاحب البنك كرونبرج، الذى أحيل الى المحكمة لسوء معاملته ابنته ، ثم برأته هيئة المحلفين بفضل المرافعة الداهية التى القاها المحامى فلادبمير سباسوفكتش . وقد وقف

صفحة

دوستويفسكي على هذه القضية فصلا كاملا من «يوميات كاتب» (شباط فبراير ١٨٧٦) ٠

٦٦ ★ هما مجلتـــان كانتا تصدران بانتظـــام منـــذ ١٨٦٣ ، وكان دوستويفسكي يفرؤهما فى كثير من الاحيان ٠ غير أن الواقعة التي يذكرها هنـــا مأخوذة عن « مذكرات قن » التي كتبهـــا كاتكوف ، وهو من أنصار السلافية ، ونشرتها مجلة «الرسول الروسى» سنة ١٨٧٧ ٠

٦٦ ★ « محرر الشعب » : هو اللقب الذى أصبح يلقب به الاسكندر الثانى بعد الغاء نظام القنانة فى ١٩ شباط فبراير سنة ١٨٦١

٧٥ ★ وصف دوستويفسكي كتاب فكتور هوجو «أحدب نوتردام» بأنه عمل عبقرى قوى ، وقد نشر فى مجلته «الزمان» أول ترجمة روسية لهذا الكتاب ، سنة ١٨٦٢

٧٥ ★ « وعندنا فى موســـكو » : نظم القسيس جريجـــورى عروضا مسرحية فى موسكو منذ سنة ١٦٧٢ ، لبلاط القيصر الكسى ٠ وقد بدأها بمسرحيتين اقتبستا عن اللغة الالمانية وهما «استير» و « توبى » ٠

٧٦ ★ « نزول العذراء الى الجحيم » : هى قصيدة بيزانطية منـــحولة حظيت برواج كبير فى روسيا ، ولعلها أثرت فى كتاب دانتى « الكوميديا الالهية » ٠

٧٦ ★ « ساعود قريبا » : قول المســـيح فى رؤيا يوحنا الرسول ، (الاصحاح الثانى والعشرون ، ١٢)

٧٧ ★ بيتان من قصـــيدة شيللر « الرغبة » ، نظمها الشاعر سنة ١٨٠١ . وترجمها الى الروسية ف٠جوكوفسكى

٧٧ ★ « ظهرت هرطقة » : اشارة الى حركة «الاصلاح» ٠

٧٨ ★ « أيتها الارض التى ولد فيك ملك السماوات » ، الخ : آخر رباعية من قصيدة للشاعر ف٠اى٠ تيوتشيف عنوانها : «هذه القرى الفقيرة ، هذه الطبيعة الهزيلة » ، وقـــد كتبها الشاعر

صفحة

سنة ١٨٥٥ ، وان قوله « فى صورة عبد » تعبير مستمد من رسالة بولس الرسول الى أهل فيليبى (الاصحاح الثانى ، ٦)٠

٧٨ ★ « فى نيران رائعة » الخ : بيتان مستمدان من قصيدة للشاعر ألكسندر بوليجايف (١٨٠٤ ــ ١٨٣٨) ٠

٧٨ ★ « تمجيدا للرب » : هو شعار اليسوعيين ٠

٧٨ ★ « كبرق يسطع من الشرق الى الغرب » : هكذا ستكون عودة المسيح على نحو ما يصفها انجيل متى (الاصحاح الرابع والعشرون ، ٢٧ : « كما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر الى المغارب ، هكذا يكون أيضا مجىء ابن الانسان ») ٠

٨٠ ★ من معجزات المسيح فيما أورده انجيل متي (الاصحاح التاسع، ٢٥) وانجيل مرقص (الاصحاح الخامس ، ٤١) ٠

٨٠ ★ « الهواء معطر بعبق أشجار الرند والليمون » : هكذا يصف الشاعر بوشكين مدينة اشبيلية فى قصيدته عن دون جوان ٠

٩٠ ★ « اذا أردت أن تتأكد أنك ابن الرب ٠٠٠ » : جاء فى انجيل متى (الاصحاح الرابع ، ٥ ــ ٦) : «ثم أخذه ابليس الى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل ، وقال له : ان كنت ابن الله فاطرح نفسك الى أسفل ، لأنه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك فعلى أياديهم يحملونك لكى لا تصدم بحجر رجلك » ٠ ومثل هذا جاء فى انجيل لوقا (الاصحاح الرابع ، ٩ــ١١) ٠

٩٢ ★ « ان رسولك الكبير يروى ٠٠٠ » : هو يوحنا الرسول فى رؤياه (رؤيا يوحنا الرسول ، الاصحاح السابع ، ٣ ــ ٨) ٠ يذكر فلاديمير سولوفييف أن رؤيا يوحنا الرسول كانت سفر دوستويفسكى المفضل فى السنين الاخيرة من حياته ٠

٩٤ ★ « فمنذ ثمانية قرون ٠٠ » : اشارة الى انشاء دولة البابا سنة ٧٥٦

٩٨ ★ صورة من رؤيا بولس الرسول (الاصحاح السابع عشر) ولعلها رمز الى روما الوثنية ٠

١٠٨ ★ « الاب سيرافيكوس » : أطلق هذا الاسم من أسماء القرون

صفحة

الوسطى على القديس بونافانتورا ، وهو يظهر فى المشهد الاخير من الجزء الثانى من « فاوست » جوته ٠

١١٤ ★ «تشرماشنيا» : هو اسم قرية ملحقة بأملاك والد دوستويفسكى٠ وقد زار دوستويفسكى هذه الاماكن منذ طفولته حتى سنة ١٨٧٧

١٣١ ★ « كولاك » : كان اسم « كولاك » يطلق على المحتكرين وعلى الفلاحين الاغنياء ، وهو من الكلمة التترية كولاك ومعناها قبضة اليد ٠

١٣٣ ★ «ليباجافى» : نعت معناه «كلب راقد» ٠

١٤٥ ★ « اذا لم تفن حبة القمح ٠٠٠ » : قول المسيح بعد قيام عازر من الموت ، كما ورد فى انجيل يوحنا (الاصحاح الثانى عشر ، ٢٤ ــ ٢٥) ٠ وبهذا القول صدر دوستويفسكى روايته هذه ٠

١٥٤ ★ « أثر الكتب المقدسة فى حياة الاب زوسيما » : فى رسالة تاريخها ٧ آب (أغسطس) ١٨٧٩ ، موجهة الى ن٠ ليوبيموف ، وهو نائب محرر مجلة « الرسول الروسى » ، يقول دوستويفسكى حين بعث اليه بالنص : « ان فى هذا الفصل حماسة وشاعرية ، مثله كمثل بعض تعاليم تيخون زادونسكى، وسذاجة التعبير فيه مستوحاة من الكتاب الذى عنوانه «أسفار الراهب بارثين» ٠

١٥٥ ★ « مائة وأربع قصص مستمدة من التوراة والانجيل » : قالت أرملة دوستويفسكى : « فى هذا الكتاب انما تعلم فيدور ميخائيلوفتش القراءة » ٠ وهو موجود الآن فى متحف دوستويفسكى بموسكو ٠

١٥٥ ★ « على انى أذكر أن الانفعال الدينى الاول٠٠٠ » : تقول أرملة دوستويفسكى: هنا يروى فيدور ميخائيلوفتش ذكريات طفولته الشخصية ، فقد سمعته يتكلم عنها مرارا ٠

١٥٥ ★ « كان يعيش فى أرض عوص ٠٠٠ » : اشارة الى الفصل الاول من سفر أيوب ٠

صفحة

١٦٦ ★ « ... فى موضوع حدث كان قد وقع ... » اشارة الى ثورة الديسمبريين فى شهر ديسمبر ١٨٢٥ .

٢٤٢ ★ « كانت حياته هادئة وادعة » . يضيف دوستويفسكى هنا حاشية الشرح التالية : « حين انهاض جثمان راهب بسيط (لنقله من الحجرة الى الكنيسة ، ونقله بعد قداس الجنازة من الكنيسة الى المقبرة) تتلى الآية: كانت حياته هادئة وادعة، أما اذا كان الراهب من أصحاب النذور ، من المرتبة الثانية ، فانه يرتل له النشيد « ربنا هب لنا من لدنك عونا وارحمنا » .

٢٦١ ★ « فينيا » : تصغير اسم فيدوسيا .

٢٧٣ ★ فى رسالة تاريخها ١٦ ايلول (سبتمبر) ١٨٧٩ ، موجهة الى ن . ليوبيموف ، كتب دوستويفسكى يقول : « أرجو أن تعتنى بتصحيح أسطورة «البصلة» . لقد أخذت هذا النص الثمين من فم فلاحة ، ولا شك أنه يسجل الآن أول مرة . أنا على الاقل ، لم يسبق لى أن رأيته » .

٢٨٩ ★ « وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل ... » : من انجيل يوحنا ، الاصحاح الثانى ، ١ ــ ٩

٣٣٩ ★ « كفى ! » اشارة الى قصة تورجنيف التى تحمل هذا العنوان والتى ظهرت سنة ١٨٦٥ ، وفيها يعلن تورجنيف عزمه على الانقطاع عن الكتابة ، ويودع قراءه .

٣٤٢ ★ « ستيدرين » : أحد محررى مجلة « المعاصر » ، وهى مجلة لبرالية ، أوقفتها الرقابة عن الصدور سنة ١٨٦٦ .

٣٦٥ ★ « متجر آل بلوتنيكوف » : ذكرت ارملة دوستويفسكى أن زوجها كان يذهب كثيرا الى بقالية ب.ج. بلوتينكوف ، فى مدينة ستارايا روسا ، ليشترى منها مقبلات وحلاوى .

٣٧١ ★ بيتان من الشعر يقولهما أوليس فى المقطع الخامس من قصيدة للشاعر شيللر عنوانها « عيد النصر » ، وهى تصور معسكر اليونان بعد أخذ طروادة ، وقد قام بترجمة القصيدة الى اللغة الروسية ف.ج. نيوتشيف سنة ١٨٥١ .

صفحة

٣٨٠ ★ شطران الفهما دمترى نفسه ، وقد سبق ورودهما فى الصفحة ٢٥١ من الجزء الاول من هذه الرواية ٠

٣٩٧ ★ كان موظفو دوائر الدولة فى روسيا يرتدون زيا رسميا ٠

٤٠٠ ★ « بارين » : بهذا اللقب كان يخاطب الخدم سادتهم فى روسيا قبل الثورة (١٩١٧) ٠

٤٠٣ ★ يا « سيد » : قال البولندى السمين كلمة «سيد» هذه باللغة البولندية ٠ والبولنديان كلاهما سيدور أكثر كلامهما بهذه اللغة البولندية ممزوجة بألفاظ روسية ٠ وكان ينبغى أن نميز البولندى من كلامهما فى هذه الترجمة العربية بأحرف طباعة خاصة لو لم يتعذر ذلك ٠

٤١٦ ★ « النفوس الميتة » هى رواية جوجول الشهيرة (١٨٤٢) التى كثيرا ما يستشهد بها دوستويفسكى ٠ أما نوزدريوف وتشتشيكوف فهما من أبطال هذه الرواية ٠

٤١٨ ★ «نوزدريف كان اسمه الحقيقى نوسوف» : ها هنا تلاعب لفظى بكلمتى mozdri ومعناها « المنخران » و moss ومعناها « الأنف » ٠

٤١٨ ★ « اهذا أنت ٠٠٠ اساعر بوالو ؟٠٠٠ » : مطلع أبيات ساخرة للشاعر اى٠ آ ٠ كريلوف تستهزىء بما فعله الكونت د ٠ ج٠ خفوستوف ، وهو شاعر ضعيف ، حين ترجم كتاب بوالو «فن الشعر» ترجمة رديئة ٠

٤١٩ ★ أبيات ساخرة للشاعر باتيوشكوف عنوانها « قصيدة الى سافو جديدة » ، وفيها يتهكم بالشاعرة الروسية الاولى آنا بونينا ، آسفا على انها لم تغرق كما غرقت الاديبة اليونانية الشهيرة سافو ٠

٤٢٢ ★ « روسيا بحدودها السابقة على سنة ١٧٧٢ » : ابتداء من سنة ١٧٧٢ انما استردت روسيا بعض الاقاليم ، بعد اقتسام بولنده ثلاث مرات ، وهذه الاقاليم التى سبق أن احتلها اللتوانيون كانت أحد مطالب الثوريين البولنديين ٠

صفحة

٤٢٧ ★ « قصة السيد بودفيزوكي » : في رسالة الى محرر مجلة « الرسول الروسي » ، كتب دوستويفسكي يقول : «سمعت هذه القصة ثلاث مرات في حياتي ، في أمكنة مختلفة ومن بولنديين مختلفين » ٠

٤٤٦ ★ في رسالة تاريخها ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٧٩ ، موجهة الى ن٠آ٠ ليوبيموف ، كتب دوستويفسكي يقول: «هذه الاغنية، التقطتها بنفسي ، وهي مثال على الفن القروي الحالي » ٠

٤٦١ ★ « من آخر سيبريا » : في سيبريا انما كان المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة يقضون مدة العقوبة ٠

٤٦٤ ★ كانت السلطات التي ينتخبها الفلاحون في قرية من القرى تحمل على صدورها صفائح معدنية تشير الى رتبها أثناء ممارستها عملها ، وهي تقوم بدور الشهود أثناء تحقيق قضائي٠

٤٨٠ ★ « معنى بعض الاصلاحات » : اشارة الى اصلاحات الكسندر الثاني في سنوات ١٨٦١ ـ ١٨٦٦ (الغاء القنانة ، الاصلاح القضائي ، الخ) ٠

٥١٩ ★ « عليك بالصمت قلبي ٠٠٠ » : من قصيدة «الصمت» للشاعر الفيلسوف ف٠ج٠ نيوتشيف (١٨٣٣) ٠

٥٧٤ ★ « الزاكوسكي » : مائدة مقبلات باردة ، مع فودكا ، يصيبها الطاعمون عادة في حجرة مجاورة لقاعة الطعام ، ويمضون اليها قبل الوجبة ٠

فهـــرس

الصفحة

الصفحة

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعيا يدافع عن "الفقراء" والمذلين المهانين" فإذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التى يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكى إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكى كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسى التى أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، فى كل نفس.."

الكسندر ف سولوفييف